

خطاب التضامن الإسلامي

في ضوء حملة نابليون على مصر والشام ومو قف المغرب منها



د. محمد حواش



الشبكة العربية للأبحاث والنشر
ARAB NETWORK FOR RESEARCH AND PUBLISHING

خطاب التضامن الإسلامي

في ضوء حملة نابليون على مصر والشام

وموقف المغرب منها

خطاب التضامن الإسلامي

في ضوء حملة نابليون على مصر والشام ومومقف المغرب منها

د. محمد حواش



الشبكة العربية للأبحاث والنشر
ARAB NETWORK FOR RESEARCH AND PUBLISHING

الفهرسة أثناء النشر ـ إعداد الشبكة العربية للأبحاث والنشر

حواش، محمد

خطاب التضامن الإسلامي في ضوء حملة نابليون على مصر والشام وموقف المغرب منها/ محمد حواش.

٦٠٧ ص.

ببليوغرافية: ص ٥٨٧ ـ ٦٠٧.

ISBN 978-614-431-030-4

١. الإسلام والسياسة. ٢. حملة نابليون على مصر (١٧٩٨). أ. العنوان.

297

«الآراء التي يتضمنها هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة
عن وجهة نظر الشبكة العربية للأبحاث والنشر»

الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠١٣

الشبكة العربية للأبحاث والنشر

بيروت ـ لبنان

هاتف: ٧٣٩٨٧٧ (١-٩٦١) - ٢٤٧٩٤٧ (٧١-٩٦١)

E-mail: info@arabiyanetwork.com

المحتويـات

القسم الثاني
موقف مكونات النخبة العالمة
وباقي فئات المجتمع المغربي من الحملة
أشكال التفاعل ومستويات القراءة

القسم الثالث
المشاركة المغربية في حركات المقاومة والجهاد ضد قوات الحملة في مصر : دواعي الحضور وحجم المشاركة

القسم الرابع
موقف المغاربة المقيمين بمصر والشام من الحملة

شكـر وتقديـر

بعد بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على محمد رسوله الكريم، أتوجه بشكري الجزيل إلى كل الذين مدوا لي يد المساعدة للنهوض بأعباء هذه الأطروحة من داخل المغرب وخارجه. وأخص منهم بالذكر، داخل المغرب، أستاذي المشرف، الدكتور محمد رزوق الذي أولى هذا العمل كامل عنايته واهتمامه، والمرحوم الأستاذ محمد المنوني الذي تحمس كثيرا لهذا البحث وأرشدني إلى عدد من مصادره المخطوطة والمطبوعة، والأستاذ عبد الهادي التازي الذي أفادني كثيرا من تجربته الغنية في مضمار العلاقات الدولية، والأستاذ مبارك زكي الذي عقدت معه أكثر من جلسة علمية وأفادني من خبرته البحثية في فترة مولاي سليمان، والأستاذ محمد المنصور الذي حاورته في قضايا هذا البحث وأفادني من تجربته البحثية الطويلة في هذه الفترة، والأستاذ أحمد مكاوي الذي تلقيت منه كثيرا من المساعدة والتشجيع واستفدت من خبرته الواسعة في موضوع العلاقات المغربية المشرقية، والأستاذ محمد بلحسن الذي عايش معي أطوار هذا البحث ولم يبخل علي بتوجيهاته العلمية السديدة.

أما خارج المغرب، فأخص بالذكر من هؤلاء الأساتذة الباحثين الذين استفدت من تجاربهم ومساعداتهم في إنجاز هذه الأطروحة، الباحثين الفرنسيين: هنري لورنس وأندريه ريمون اللذين استضافاني لمحاضرتهما المشتركة بمعهد العالم العربي في باريس بمناسبة الذكرى المائتين لحملة نابليون بونابرت على مصر، وأرشداني إلى كثير من المصادر الفرنسية بحكم معرفتهم الواسعة بهذا الموضوع. ومن الباحثين

المصريين، أذكر: الأستاذ يونان لبيب رزق الذي أفادني كثيرا من خبرته البحثية وإلمامه القوي بالعلاقات المغربية المصرية، والمرحوم الأستاذ عبد العزيز نوار الذي كانت له علي أفضال كثيرة؛ حيث استضافني لإحدى الموائد المستديرة التي كان يشرف عليها خميس كل أسبوع في جامعة عين شمس وسلمني نسخة من وثائق القنصلية الأمريكية بطرابلس، والباحث عبد العزيز جمال الدين أحد محققي كتاب الجبرتي **عجائب الآثار**، الذي سلمني، بدوره، نسخة من تحقيقه لمخطوطة نادرة حول أحمد باشا الجزار، وحسام عبد المعطي الذي أفادني كثيرا من البحث الذي كان بصدد إنجازه حول البيوتات الفاسية بالقاهرة.

هذا، دون أن أنسى أساتذة وإدارة كلية الآداب ببني ملال الذين عايشوا معي أطوار هذا البحث وأمدوني بما استطاعوا من مساعدة، ودون أن أنسى صهري المهندس محمد بلبركة وزميلي الدكتور عبد السلام طويل اللذين وفّرا لي ظروف الإقامة في باريس والقاهرة، وزوجتي فاطمة بلبركة التي هيأت لي الشروط النفسية والعائلية المريحة لإنجاز هذا البحث وتلقيت منها كامل الدعم والمساندة والتشجيع. فجزى الله عني جميع من ساعدني على إنجاز هذا البحث، من قريب أو بعيد، خير الجزاء، وجعلني عند حسن ظنهم في القول والعمل. آمين.

إلى هؤلاء جميعاً وإلى كل أفراد أسرتي الصغيرة والكبيرة، أهدي هذا الكتاب.

لائحة الرموز والمختصرات

بالعربية

مخ.خ.ع. مخطوط الخزانة العامة بالرباط.

مخ.خ.م. مخطوط الخزانة الملكية بالرباط.

مج. مجلد.

ج. جزء.

[ ] القوسان المربعان يحصران ما أضفته إلى النص من لفظ أو أكثر لأمر يقتضيه السياق.

( ) القوسان المزهران يحصران ما أضفته من توضيحات ضرورية إلى النص حين يتعذر إدماجها ضمن السياق.

بالفرنسية

A.A.E.P, C.C.C: *Archives de Ministère des Affaires Etrangères' Paris. Série : Correspondance Consulaire et Commerciale.*

A.D.N. : *Archives Diplomatiques de Nantes.*

A.M.G.P.: *Archives du Ministère de la Guerre' Paris*

T.A.L: *Tanger American Legation.*

C.N.: Correspondance de Napoléon 1er.



كلمة توضيحية بين يدي القارئ الكريم

أود أن أضع بين يدي القارئ الكريم، مجموعة توضيحات أجملها في التالي:

ـ عندما أحيل شخصا أو جماعة على المغرب في القسمين الثالث والرابع؛ كأن أقول «المغربي» و«المغاربة»، إنما أقصد بذلك، انتماء هذا الشخص أو تلك الجماعة إلى المغرب بمفهومه الواسع ما لم أقرن هذه الإحالة بالمغرب الأقصى أو إحدى مدنه.

ـ استخدمت كلمة وطني ووطنية، بمعنى الانتماء الجغرافي إلى إحدى البلدان الإسلامية. وإذا ربطتها بالمغرب تحديدا، وضعتها بين مزدوجتين وقصدت بها الوضع السياسي الخاص الذي كان يوجد عليه هذا البلد مقارنة بباقي البلدان الإسلامية التي كانت تتبع، بطريق أو بآخر، للدولة العثمانية. أما إذا عبرت من خلالها عن التجاوب الذي كان يحصل بين أهل المغرب الأقصى المقيمين بمصر والشام والطارئين منهم على هذين البلدين في بعض المناسبات من قبيل ما حصل خلال هذه الحملة، قصدت بها «الحمية الجنسية» بتعبير عبد الرحمن الجبرتي، وليس المضمون الحالي المستحدث لهذه الكلمة.

ـ احتفظت برسم لقب «بك» كما ورد في المصادر المشرقية، دون إضافة الياء بعد الباء «بيك» كما هو الشأن في كثير من الكتابات الحالية. واحتفظت برسم الاسم العائلي للقنصل الفرنسي «Guillet» كما ورد في المراسلات المغربية: كَليط عوض كَييط.

ـ توزعت المصادر والوثائق التي اعتمدت عليها في إنجاز هذا

البحث، بين التقويم الهجري والميلادي والجمهوري. وتفاديا لما قد ينتج عن هذا الاختلاف من تشويش وخلط، اتخذت التقويم الميلادي كمرجع أساس باعتباره الأكثر تداولا في الكتابات التاريخية الحالية، مع الإشارة إلى التقويم الأصلي الذي كتب به هذا المصدر أو تلك الوثيقة. واعتمدت في هذه المقابلة، على جدول متكامل وجدته ضمن أرشيف الحملة بوزارة الحرب الفرنسية بقصر فانسان في باريس، علما أن عوامل عدة، منها اختلاف المطالع بين مشرق العالم الإسلامي ومغربه، تؤثر بعض الشيء في دقة هذه المقابلة.

مقدمة

شكلت نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، فترة تحول حاسمة في تاريخ أوروبا؛ وتمثل ذلك في ما شهده الجزء الغربي من هذه القارة من حراك فكري واجتماعي، وما نجم عنهما من ثورات في نظم السياسة والإنتاج، مست آثارها ونتائجها بنية الدول والمجتمعات، وأثرت بعمق على علاقاتها الداخلية والخارجية. وتعتبر الثورة الفرنسية والثورة الصناعية، إحدى المعالم الرئيسة لهذا التحول النوعي على المستوى الداخلي. أما الحركة الاستعمارية، فهي بالتأكيد، واحدة من النتائج الأكثر قوة وتعبيرا عن الخصوصية التاريخية لهذا التحول على المستوى الخارجي في عالم ما وراء البحار.

وفي الوقت الذي كانت تشهد فيه هذه الجهة تطورات من هذا الحجم، كان العالم الإسلامي يتابع مسيرته المعتادة الموسومة بالجمود والتقليد والانغلاق، غير آبه، بل غير مستعد للإنصات إلى ما كان يجري على مرمى حجر منه، معتقدا أن «دار الكفر والحرب» شر مطلق، أو على الأقل هذا ما كان يرمي إلى قوله عدد من العلماء حينما أفتوا بتحريم سفر المسلمين إلى هذه العوالم «المدنسة بالشرك»؛ مخافة أن توافيهم المنية هناك فيحشروا مع «الكفار»، أو تتعرض ممارساتهم الدينية ومعاملاتهم التجارية لما تفرضه عليهم إقامتهم بين ظهراني «أهل الشرك والفجور»، أو يمكّنوا «أعداء الإسلام» من أسباب القوة والغلبة على المسلمين[1].

---

(١) أفتى عدد من علماء المغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، بحرمة سفر المغاربة إلى أوروبا والمتاجرة معها. نذكر منهم على سبيل المثال، العالم والفقيه محمد الرهوني الذي أفتى بتحريم مثل هذا السلوك من خلال رسالتين له في هذا الموضوع، هما: «الرسالة الوجيزة المحررة =

وهكذا، بقيت ديار المسلمين قاطبة، سيما منها تلك المجاورة لأوروبا مثل الدولة العثمانية والمغرب، في حالة انقطاع شبه تام عن ذلك التحول الهائل الذي كانت تشهده هذه القارة. وإذا كان بعض السلاطين العثمانيين، مثل سليم الثالث، قد حاولوا، مضطرين، الاستفادة مما توصلت إليه بعض الدول الغربية من خبرات ومنجزات في الميدان العسكري، فإنهم رفضوا الترخيص بطبع الكتب، سيما منها الدينية، بالمطبعة الحديثة التي تم اختراعها واستخدامها في أوروبا منذ القرن السادس عشر.

ورغم طرد المسلمين من الأندلس وتطويق العالم الإسلامي، بعد ذلك، من جميع الجهات، استمر المسلمون يعتقدون في تفوقهم الأبدي على «أهل الشرك والكفر»، ولم يستفيقوا من غفلتهم هاته ويتحققوا فعليا من الهوة السحيقة التي أضحت تفصل بينهم وبين أوروبا، إلا عندما فاجأهم نابليون بونابرت بحملته العسكرية على مصر والشام سنة١٧٩٨م. فتأكد لهم، من خلال هذا الحدث الذي أسفر عن احتلال هذين البلدين الإسلاميين لمدد متفاوتة، عجز الدولة العثمانية ـ باعتبارها دولة الإسلام الكبرى ومقر دار الخلافة ـ عن رد هذا العدوان الذي طال، لأول مرة في تاريخ هذه الإمبراطورية، أراضِيَ بعيدة عن خطوط المواجهة الأمامية في أوروبا، وتأكد لهم أيضا فشل النظام الدفاعي الذي كانت تعتمده إلى

= في أن السفر إلى أرض الكفر وبعث المال إليها ليس من فعل البررة،» (مخ.خ.ع. د١٩٤)، و«تنبيه الخصوص والعموم في حرمة السفر بالشحم والشمع إلى أرض الروم،» نسبه إليه عبد السلام ابن سودة، في: **إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع**، انظر: **موسوعة أعلام المغرب، من ١ إلى ١٤٠٠هـ**، تنسيق وتحقيق محمد حجي، ١٠ ج (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٦)، ج ٧، ص ٢٤٩٣.

للتوسع أكثر في هذا الموضوع، انظر: أحمد مكاوي، «مسألة التجارة في خطاب مؤرخين مغربيين: الناصري والسليماني،» ص ١٣٧ ـ ١٤٩، وإبراهيم بوطالب، «بعض مظاهر التجارة في المغرب قبل ١٩٥٦ وأسسها الشرعية،» ص ١٦٣ ـ ١٨٢، ورقتان قدّمتا إلى: **التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب: أعمال الندوة [المنعقدة] أيام ٢١، ٢٢، ٢٣ فبراير ١٩٨٩ التي نظّمتها كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بعين الشق، الدار البيضاء**، ٢ ج (المحمدية: مطبعة فضالة، ١٩٩٥)، ج ١، ومحمد حواش، «موقف محمد الرهوني من بعض قضايا عصره،» **ورقة قدّمت إلى: العلم والعلماء بمنطقة الغرب إلى سنة ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م: [أعمال الندوة المنعقدة بالقنيطرة، ٢١ ـ ٢٢ فبراير ٢٠٠٣]**، نظّمها المجلس العلمي لجهة الغرب الشراردة بني احسن (القنيطرة: المجلس العلمي لولاية جهة الغرب الشراردة بني احسن، ٢٠٠٤).

ذلك التاريخ المؤسسة العسكرية العثمانية بصفة عامة، والمملوكية منها على وجه الخصوص.

وإذا نحن تذكرنا أن هذه الحملة قد اختزلت، عبر مكوناتها المختلفة، آخر ما توصلت إليه أوروبا الغربية من منجزات في ميدان التقدم الفكري والتنظيم السياسي والإداري والتطورالاقتصادي والاجتماعي واستحضرنا التطورات الهامة التي ترتبت على هذه التجربة الاستعمارية على مستوى مصر، جاز لنا أن نعدها بداية لمرحلة جديدة في تاريخ العالم الإسلامي ككل والمشرق العربي منه على وجه الخصوص.

قبل التطرق إلى المراحل التي ستمر بها هذه الحملة وردود الفعل التي ستخلفها على الصعيدين الإسلامي والدولي، نرى من المستحسن تقصي الأسباب والحيثيات التي دفعت بفرنسا ـ الخارجة لتوها من ثورة جعلت من حقوق الإنسان والمواطن شعارا لها ـ إلى تنظيم حملة استعمارية ضد مصر والشام.

١ ـ أسباب وحيثيات تنظيم الحملة

ارتبط مشروع الحملة الفرنسية على مصر والشام، تخطيطاً وتنفيذاً، بحكومة الإدارة[٢] التي تكرس على عهدها النظام الجمهوري بفرنسا. لكن البدايات الأولى لهذا المشروع الاستعماري تعود إلى تواريخ بعيدة من العهد الملكي. ويبدو أن المفكر والفيلسوف الألماني، لايبنيتز (Leibniz) (١٦٤٦ ـ ١٧١٦)، هو أول من نادى بفكرة احتلال مصر. فقد أثر عنه قوله، في مذكرة له إلى لويس الرابع عشر: «إذا كان سيدي يريد القضاء على جمهورية هولندا، فأحسن وسيلة لذلك هي ضرب هذه الأمة في مصر. هناك، حيث يوجد طريق الهند وحيث يمكن تحويل التجارة الهولندية إلى مصر»[٣].

(٢) حكومة الإدارة أو المديرين، هي الجهاز التنفيذي الذي كان يتولى الحكم في فرنسا بشكل جماعي من ٢٦ تشرين الأول/ أكتوبر ١٧٩٥ إلى ١٠ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٧٩٩.

(٣) أحمد حافظ عوض، **فتح مصر الحديث أو نابليون بونابرت** (القاهرة: مطبعة مصر، ١٩٢٥)، ص ٦٨.

وإذا كانت نصائح لايبنيتز قد بقيت حبرا على ورق، بسبب انشغال فرنسا بالدفاع عن مستعمراتها في العالم الجديد، فإنه لأسباب جيو ـ سياسية مرتبطة بمصالح فرنسا على المدى البعيد، أصبح دعاة التدخل في شؤون الدولة العثمانية على عهد لويس السادس عشر، يؤمنون بضرورة الاستيلاء على مصر، باعتبارها الحلقة الأقوى في هذا المشروع الاستعماري. فأمام المخاطر التي أصبحت تتهدد الدولة العثمانية من جهة عدوتيها التقليديتين، روسيا والنمسا، والخسارة الاستعمارية التي منيت بها فرنسا في أمريكا وجزر الكاريبي، واستحواذ إنجلترا على مقدرات الهند وما يتصل بها من طرق تجارية، ظهرت عدة أصوات تنادي بضرورة تحويل الأملاك العثمانية ومصر منها بالذات إلى مستعمرة فرنسية. فقد ورد في تصريح لوزير الحربية الفرنسي، دو سارتين (De Sartine)، أمام مجلس الوزراء، قوله: «إن احتلال مصر، هو الطريقة الوحيدة لحفظ تجارتنا في البحر الأبيض المتوسط. ومتى توطدت قدمنا في مصر، صرنا أصحاب السيادة على البحر الأحمر، وصرنا نستطيع أن نهاجم إنجلترا في الهند، أو ننشئ في تلك الأصقاع متاجر ننافس بها الإنجليز»[٤].

ويبدو، أن هذا الرأي قد أصبح يشكل قناعة مشتركة لدى حكومة لويس السادس عشر. يؤيد هذا، توجيهها للبارون فرانسوا دو طوط (Baron François de Tott)، سنة ١٧٧٧م، في مهمة سرية إلى مصر لإجراء الدراسات اللازمة لإنجاز هذا المشروع. لكن، حرب السنوات السبع والأزمة المالية التي ألمت بفرنسا إثر ذلك، ثم انهيار النظام الملكي، حالا دون تنفيذه.

وإذا كان مشروع غزو مصر خلال هذه المدة قد تحكمت فيه اعتبارات جيو ـ سياسية مرتبطة بالدفاع عن المصالح الفرنسية على المدى الطويل، خاصة ما يتصل منها بتجارتي البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر، فإن مسوغات هذا الغزو قد ارتبطت خلال العهد الجمهوري بالأسباب ذاتها، لكنها غُلّفت بطابع أيديولوجي وتحكم فيها بالدرجة الأولى العداء التقليدي بين فرنسا وإنجلترا داخل القارة الأوروبية

---

(٤) المصدر نفسه، ص ٦٣.

وخارجها. وهكذا، أضحى غزو مصر بالنسبة لقادة فرنسا الجدد ـ الذين كان أغلبهم ينتمي إلى دعاة التنوير وجيل الثورة ـ يشكل في الوقت نفسه، ضرورة حضارية ومصلحة وطنية. فهذا الغزو الذي يعدُ مقدمة للسيطرة على مجموع التراب العثماني، توجبه ـ في نظر قادة النظام الجديد المؤمنين بعالمية الثورة والرسالة الحضارية التي يجب أن تضطلع بها، في نظرهم، «الأمة العظمى» ـ توجبُ هذا الغزوَ ضرورةُ إلحاق الشرق المتأخر بالغرب المتقدم من خلال إدماجه في المشروع الحضاري الغربي الذي لا يعدو أن يكون ـ بالنسبة لهؤلاء القادة وعلى رأسهم نابليون ـ استمراراً وتطويراً لحضارة الشرق باعتبارها الأصل الأول لهذا المشروع[٥].

إلى جانب هذه المسوغات الإيديولوجية الشديدة الصلة بلاهوت الثورة الفرنسية، استمر قادة النظام الجمهوري يتشبثون باعتبارات المصلحة الوطنية. لكن، عوض أن يتم التركيز على المخاوف التي كانت تثيرها لدى حكومة لويس السادس عشر كل من روسيا وحليفتها النمسا بالنسبة للمصالح الفرنسية في الدولة العثمانية، أضحت حكومة الإدارة أكثر انشغالا بضرورة القضاء على التفوّق الإنجليزي وتعويض الخسائر التي منيت بها فرنسا في أمريكا الشمالية وجزر بحر الكاريبي. لذلك، لا غرابة إذا وجدنا أن الهدف الأصلي لهذه الحملة، كان يتمثل في احتلال إنجلترا، أو على الأقل حرمانها من التحكم في ميناءي هامبورغ وهانوفر الاستراتيجيين، ولم يتم إدراج مصر ضمن قائمة الخيارات الممكنة، إلا بعد أن تأكدت حكومة الإدارة من استحالة تنفيذ هذه الحملة لأسباب عسكرية ولوجيستية. آنذاك فقط، قررت حكومة الإدارة السيطرة على المنافذ الرئيسة التي كانت تصل إنجلترا بمستعمراتها بالهند كخطوة أولى لإضعافها، ولم تكن هناك وسيلة أنجع لتحقيق هذا الهدف، حسب وزير خارجيتها، دومينيك تاليران (Dominique Talleyrand)، ونابليون، باعتبارهما

---

(٥) هنري لورنس، **الحملة الفرنسية في مصر**، ترجمة بشير السباعي (القاهرة: دار سينا للنشر، ١٩٩٥)، ص ١٤ ـ ٢٥، و Henry Laurens, *Les Origines intellectuelles de l'expédition d'?gypte: L'Orientalisme islamisant en France, 1698-1798*, Varia Turcica; 5 (Istanbul; Isis: Institut français d'études anatoliennes; Paris: Association pour le développement des études turques, 1987).

مهندسا هذا المشروع، من احتلال مصر. فقد كتب نابليون، عقب استيلائه على الجزر الأيونية سنة ١٧٩٧م، رسالة إلى تاليران يقول له فيها: «لن يمر وقت طويل حتى ندرك أننا لكي ندمر إنجلترا فعلا، يجب أن نستولي على مصر. إن الإمبراطورية العثمانية، المترامية الأطراف والتي تهلك كل يوم، إنما تملي علينا التفكير في اللحظة المناسبة لاتخاذ الوسائل التي تسمح لنا بالحفاظ على تجارتنا في شرقي البحر المتوسط»[٦]. أما تاليران الذي كان يشاركه هذا الرأي، فقد وقف أمام حكومة المديرين، في ١٤ شباط/ فبراير ١٧٩٨، مخاطبا إياهم بقوله: «يضمن غزو مصر، تحقيق ثلاث فوائد، أولا: أن احتلال برزخ السويس، من شأنه قطع إحدى الطرق التي تصل إنجلترا بالهند. ثانيا: تكوين قاعدة استعمارية يمكن لها تعويض فرنسا عن كل ما فقدته في حروبها ضد إنجلترا. ثالثا: تكوين قاعدة للمستقبل من أجل الوصول إلى مورد الغنى الرئيسي لإنجلترا، الهند»[٧].

حول هذا التاريخ، وربما من خلال هذه الاعتبارات القوية التي تضمنها هذا الخطاب، تحولت أنظار حكومة الإدارة من الحملة على إنجلترا إلى الحملة على مصر. فبعد هذا التاريخ بقليل، وجّه نابليون، الذي كان قد كلف بدراسة إمكانية غزو إنجلترا، تقريرا إلى حكومة الإدارة أكد لها فيه استحالة تنفيذ هذا المشروع بسبب التفوق البحري للجيش الإنجليزي. وهكذا، لم يبق أمام فرنسا سوى حلين: إما تشديد الحصار القاري على إنجلترا من خلال سيطرتها على ميناءي هامبورغ وهانوفر، أو احتلال مصر. فحسم الأمر لصالح هذا الخيار الأخير في الخامس من آذار/ مارس ١٧٩٨، ثم أعطيت إثر ذلك التعليمات النهائية إلى جيش الشرق، وعلى رأسه نابليون في ١٢ نيسان/ أبريل، لإنجاز هذه المهمة.

هذه إذن، هي المراحل الأساسية التي مرت بها فكرة احتلال مصر من طرف فرنسا، وكذا الاعتبارات المختلفة التي تحكمت فيها.

---

(٦) لورنس، المصدر نفسه، ص ٢٩.

(٧) بسام العسلي، **نابليون بونابرت (١٧٦٨ ـ ١٨٢١)** (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠)، ص ٨٧ ـ ٨٨.

٢ ـ مراحل تنفيذ الحملة

انطلق جيش الحملة من ميناء طولون، في ١٩ أيار/ مايو ١٧٩٨، على متن أسطول ضخم، مكون من ثلاثة عشر سفينة حربية وست فرقطات حراقة وخمسة وثلاثين سفينة من أحجام مختلفة، إضافة إلى ثلاثمائة سفينة نقل. أما الجيش، فبلغ عدده حوالى ستة وثلاثين ألف جندي، منهم أكثر من ألفي ضابط. وإذا أضفنا إلى هؤلاء جنود البحرية والإطارات الأخرى المرافقة للحملة، وصل العدد الإجمالي إلى حوالى أربعة وخمسين ألف فرد. كما ضم نابليون إلى هذا الجيش، بعثة علمية مكونة من حوالى مائة وستين عالما من المتخصصين في مختلف العلوم والفنون، وأصطحب معه آلة طباعة مجهزة بأحرف لاتينية وعربية.

وصل أسطول الحملة قبالة الأرخبيل المالطي في التاسع من حزيران/ يونيو. وبعد مواجهة عسكرية قصيرة، طلب الراعي الأكبر لأخوية مالطا إيقاف إطلاق النار والدخول في مفاوضات أسفرت بعد ذلك عن تنازل هذه الأخوية لفرنسا عن جميع حقوقها في مالطا وتوابعها. وبعد إخضاع هذا الأرخبيل للقانون الفرنسي وتسريح حوالى ألفي أسير مسلم كانوا في قبضة فرسان القديس يوحنا، انطلق أسطول الحملة في اتجاه مصر منذ الثامن عشر من حزيران/ يونيو. وإلى حدود هذا التاريخ، ظلت الوجهة الحقيقية للحملة حكرا على نابليون وبعض مقربيه، ولم يتم الإفصاح عنها بصفة علنية إلا في الثامن والعشرين من هذا الشهر حينما أذاع نابليون من على سفينة لوريان (L'Orient) بيانا له إلى الجنود، قال فيه: أيها الجنود، إنكم ستوجهون، بعد قليل، «لإنجلترا، الضربة الأكيدة أكثر من سواها، والمحسوسة أكثر من سواها، انتظارا للحظة التي يتسنى فيها توجيه الضربة القاتلة. (. . .) والبكوات المماليك الذين لا يحابون غير التجارة الإنجليزية والذين كالوا لتجارنا المهانات ويستعبدون سكان ضفاف النيل التعساء، لن تقوم لهم قائمة بعد أيام قلائل من وصولنا»[٨].

وبعد أن نجا أسطول الحملة بأعجوبة من مطاردة الأسطول الإنجليزي بقيادة الأميرال نيلسون (Horatio Nelson) الذي كان يتعقبه في عرض مياه

---

(٨) انظر النص الكامل لهذا البيان، عند: لورنس، المصدر نفسه، ص ٥٧ ـ ٥٨.

البحر الأبيض المتوسط، توقف قبالة الإسكندرية في الفاتح من شهر تموز/ يوليو. ومنذ صباح اليوم الثاني من هذا الشهر، كان جيش الشرق جاهزا للزحف على هذا الثغر المتوسطي. ونظرا إلى ضعف تحصيناته وعنصر المفاجأة الذي اعتمده نابليون، تمكن هذا الأخير من السيطرة على هذا الثغر منذ اليوم الأول. وفي اليوم نفسه، بدأ في طبع وتوزيع منشوره الشهير الذي حدد فيه الأهداف الرئيسة لحملته ولخّص موقفه من السلطتين، العثمانية والمملوكية، والأهالي[٩].

وبعد أن أنشأ نابليون ديوانا محليا بالإسكندرية، مؤلفا من الأعيان، وعلى رأسهم حاكم المدينة السابق، محمد كريم وعيّن الجنرال كليبر (Jean-Baptiste Kléber) حاكما بها، غادر هو وأركان حربه هذا الثغر منذ السابع من تموز/ يوليو في اتجاه القاهرة. وعوض أن تتم عملية الزحف هاته عبر النيل، انطلاقا من ميناءي رشيد ودمياط كما كان مخططا لها، توجه جيش الحملة رأسا إلى القاهرة عبر الصحراء، وخاض خلال ذلك معركتين ناجحتين ضد جند المماليك؛ واحدة في العاشر من تموز/ يوليو قرب مدينة الرحمانية، والثانية في الثالث عشر منه بشبراخيت. أما المعركة الحاسمة التي ستمكن نابليون وجيشه من تشتيت المماليك والسيطرة على القاهرة، فستجري أطوارها في البر الغربي من هذه الأخيرة في محل يعرف بـ «أمبابة»، في الواحد والعشرين من هذا الشهر. لذلك، ستعرف هذه المعركة في التواريخ المحلية بهذا الاسم، «معركة أمبابة»، بينما ألح نابليون على تسميتها بـ «معركة الأهرام» (La Bataille des Pyramides)[١٠]. إثر هذه المعركة الفاصلة، انقسم المماليك إلى قسمين: قسم فر إلى الصعيد، بقيادة الزعيم المملوكي الكبير، مراد بك، وقسم ثان أقل عددا وأهمية، يمم وجهه شطر الشام، بزعامة إبراهيم بك.

وبعد أن استتب الأمر لنابليون في القاهرة، بدأ في إخضاع أقاليم الوجهين القبلي والبحري. وإذا كانت عملية إخضاع هذا الأخير قد تمت

---

(٩) انظر النص الكامل لهذا البيان في الملحق الرقم (٢) من هذا الكتاب.

(١٠) اعتمدنا في ما يخص المعلومات المتصلة بتنظيمها وتنفيذها، على: لورنس، المصدر نفسه، ص ٣٦ ـ ١٥١.

نسبيا في وقت وجيز، فإن أقاليم الوجه القبلي، التي ظهرت بها مقاومة عنيفة اشترك فيها المماليك والأهالي وبعض المجاهدين ممن وفدوا من عدد من البلدان الإسلامية، لم تخضع نهائيا لقوات الجنرال ديزي (Louis Charles Desaix) إلا في نهاية شهر أيار/ مايو من السنة الموالية (١٧٩٩).

ولأسباب أمنية طارئة تتعلق بالتهديد الذي أضحى يمثله أحمد باشا الجزار بصفته واليا على الشام ومكلفا من قبل السلطان العثماني بالزحف على مصر، أخذ نابليون يعد العدة، منذ بداية شهر شباط/ فبراير ١٧٩٩، لتنفيذ الشطر الثاني من حملته الكبرى على الشرق. فمنذ هذا التاريخ، اصطحب معه حوالى ثلاثة عشر ألفا من جنوده، وبدأ في غزو الشام. وأسفرت حملته الثانية هاته التي اشتهرت تحت اسم «حملة الشام»، عن احتلال الجزء الجنوبي من هذا الإقليم في ظرف قياسي، وأصبح مصير الشام معلقا بالنتيجة التي سيسفر عنها الحصار الذي ضربه نابليون حول عكا حيث كان يرابط أحمد باشا الجزار ومعظم قواته. إلا أن المقاومة الشرسة التي أدارها هذا الأخير باقتدار، والمساعدات التي جاءته من طرف القسطنطينية، والأسطول الإنجليزي، ومرض الطاعون الذي تفشى بين جنود الجيش الفرنسي، كل ذلك اضطر نابليون إلى رفع أثقاله منذ العشرين من شهر أيار/ مايو، والعودة إلى مصر، معلنا بذلك عن فشل حملة الشام.

وإذا كان عمر هذه الحملة لم يتجاوز أربعة أشهر، فإن إقامة جيش الشرق بمصر ستستغرق ثلاث سنوات؛ لأنها ستمتد من الثاني من تموز/ يوليو سنة ١٧٩٨ حيث وطئت أقدام جيش الشرق لأول مرة أرض هذا البلد، إلى متم شهر آب/ أغسطس سنة ١٨٠١ حيث سيتم توقيع اتفاقية الجلاء النهائي.

وغني عن القول، إن عدوانا من هذا النوع على بلدين إسلاميين من حجم مصر والشام، سيثير ردود فعل قوية من قبل الدولة العثمانية؛ لأنها كانت تتولى إدارة وحكم هاتين الولايتين، وتتحمل انطلاقا من ذلك مسؤولية الدفاع عنهما ضد أي عدوان خارجي. أما إنجلترا التي شكلت الهدف الرئيس الذي تحركت من أجله هذه الحملة، فلن يكون أمامها خيار سوى استخدام كل الوسائل الممكنة من أجل إفشالها. وكذلك

الشأن بالنسبة لروسيا؛ لأنها لم تكن على تفاهم تام مع فرنسا، وكانت حريصة على استمرار نفوذها داخل الإمبراطورية العثمانية. لذلك، سوف لن تتوانى في تقديم دعمها ومؤازتها لكل من الباب العالي وإنجلترا. وهكذا، تكوّن، منذ الشهور الأولى للحملة، حلف ثلاثي مناهض للاحتلال الفرنسي لمصر، مؤلف من الدولة العثمانية وروسيا وإنجلترا.

وإلى جانب المجهود الحربي الذي ستخوضه هذه الجبهة الدولية، ستشهد مصر على مدار هذه السنوات الثلاث التي استغرقتها الحملة، مقاومة متواصلة في جل أقاليمها ومدنها وقراها. وتجلى ذلك، بقوة، في الثورات المتكررة التي شهدتها أقاليم الوجهين البحري والقبلي، خاصة في إقليمي البحيرة والصعيد. أما مدينة القاهرة التي كانت تتمركز بها القيادة العليا لجيش الاحتلال الفرنسي، فستشهد قيام ثورتين كبيرتين، هما: ثورة القاهرة الأولى ما بين الواحد والعشرين والثالث والعشرين من شهر تشرين الأول/ أكتوبر من سنة ١٧٩٨، وثورة القاهرة الثانية خلال شهري آذار/ مارس ونيسان/ أبريل من سنة ١٨٠١.

إضافة إلى هذا وذاك، أثارت هذه الحملة ردود فعل قوية لدى عدد من قادة وشعوب البلدان الإسلامية، سيما منها تلك المجاورة لمصر، مثل شبه الجزيرة العربية وشمال إفريقيا. وترجم ذلك عبر أشكال عدة، كان أهمها وأجلاها انضمام جموع من المجاهدين إلى حركة الجهاد بهذا البلد، ودعمهم للمماليك والأهالي في حربهم ضد الاحتلال الفرنسي. فقد حضر إلى مصر، بهذه المناسبة الأليمة، بضعة ألوف من أهالي البلدان المشرقية المجاورة، وأعداد غفيرة من أهالي بلدان الشمال الإفريقي. أكثر من ذلك، تشكلت بعض قيادات هذه الحركة من هؤلاء المجاهدين المغاربة، وأضحى طابع التضامن الإسلامي مهيمنا على جو المقاومة والجهاد بهذه الربوع.

وغني عن القول إن تبيّن المواقف التي صدرت عن قادة وشعوب البلدان الإسلامية تجاه هذا الحدث العدواني، يعتبر عملا مفيدا من الناحيتين العلمية والحضارية؛ لأنه سيتيح لنا تبين الكيفية التي تفاعل بها قادة وشعوب هذه البلدان مع حدث من هذا النوع، كما سيمكننا من اختبار حدود ومستويات تحقق فرضية التضامن بين الشعوب الإسلامية

بمناسبة عدوان من هذا القبيل. وبما أنه من غير المتيسر على شخص واحد القيام ببحث من هذا الحجم والاتساع، ارتأينا حصر هدف هذا البحث في محاولة الكشف عن المواقف التي يمكن أن تكون قد صدرت عن المغرب الأقصى، قيادة وشعبا، بهذه المناسبة.

فمما لا شك فيه، أن المغرب الأقصى الذي كانت تربطه صلات دينية واقتصادية وثقافية وطيدة بالدولة العثمانية عموما وولاياتها المشرقية خصوصا، كان معنيا ضرورة بهذا الغزو المفاجئ الذي طال أحد الأقطار المشرقية الأكثر حضورا في وجدانه ومصالحه بعد الحجاز والشام. فإضافة إلى رابطة الدين التي تحتم قواعدها على جميع المسلمين نصرة بعضهم البعض في حالة مثل هاته، كانت مصر تمثل بالنسبة للمغرب أهم محطة في طريق ركب الحاج المغربي، وسوقا تجارية رائجة، ومركزا علميا يؤمه عدد من طلابه وعلمائه. أما الدولة العثمانية التي كانت تتولى الدفاع شرعا وقانونا عن جل البلدان المشرقية ومن ضمنها مصر، فكانت تمثل بالنسبة للمغرب دولة الإسلام الكبرى التي تستوجب النصرة والمساندة من طرف الجميع، ومقر دار الخلافة التي يجب أن تقابل أوامرها ونداءاتها بالاحترام والتنفيذ.

إلى جانب هذا وذاك، تفيد عدد من المصادر أن المغاربة على اختلاف مواقعهم ومسؤولياتهم، كانوا على علم بما جرى بمصر منذ الشهور الأولى للحملة، واستمروا يتزوّدون بأخبارها طيلة المدة التي استغرقتها. فقد حمل أفراد ركب الحاج المغربي الذي تصادفت عودته مع نزول هذه الحملة بمصر، أخبار هذا الغزو وأذاعوه في مستقبليهم وذويهم. كما لا يستبعد أن يكونوا، هم والأسرى المغاربة الذين تم تحريرهم على يد نابليون في مالطا، قد حملوا معهم المنشور الذي أمر هذا الأخير بتوزيعه داخل مصر وخارجها[١١].

---

(١١) سعياً منه إلى كسب قادة وشعوب العالم الإسلامي إلى جانبه، طبق نابليون ما عرف بـ «السياسة الإسلامية». وكانت أول خطوة له في هذا الاتجاه، هي تحرير حوالى ألف أسير مسلم كانوا في قبضة فرسان القديس يوحنا في مالطا. وحرص على تزويد كل واحد منهم، بمنشوره الشهير الذي ادعى فيه أن حضوره إلى مصر، هو فقط لتأديب المماليك وتمكين السلطان العثماني من استعادة سلطته على هذه الولاية. انظر بهذا الخصوص: محمد حواش، «الأسرى المسلمون =

أما القيادة السياسية، وعلى رأسها مولاي سليمان، فكانت تصلها أخبار هذا الغزو وتفاصيله، وكذا ردود الفعل التي أثارها على الصعيدين الإسلامي والدولي بطريقة منتظمة ومن خلال مصادر موثوقة. فقد كان مولاي سليمان يتوصل برسائل مطولة من السلطان العثماني، سليم الثالث، يحيطه فيها علما بظروف وأسباب هذا الغزو، وكذا الخطة التي اعتمدها لمقاومته والتخلص منه. أكثر من هذا، توصل مولاي سليمان بنداءات قوية ووفود رسمية من طرف هذا السلطان يطلب منه فيها الاشتراك في الجبهة الدولية المناهضة لهذا الاحتلال وقطع علاقاته بفرنسا وإعلان الحرب ضدها. إضافة إلى هذا وذاك، كانت قنصليات وسفارات القوى الأوروبية المعنية بهذا الحدث مثل فرنسا وحليفتها إسبانيا وإنجلترا وحليفتها البرتغال، تعرض بين يدي مولاي سليمان وأعضاء حكومته حيثيات ووقائع ما كان يجري بمصر والشام كل حسب موقفه وعلاقته بهذه الحملة. كما أن التجار المغاربة الذين كانوا يتحركون بين موانئ وعواصم بعض الدول الأوروبية، كانوا يشيعون بدورهم بين أهليهم وذويهم رواياتهم حول ما كان يجري بهذين البلدين.

ومعنى هذا، أنه رغم عدم توفر المغرب، إلى حدود ذلك التاريخ، على تمثيل دبلوماسي منتظم بأهم العواصم الأوروبية والإسلامية، وكذا المسافة البعيدة التي كانت تفصل بينه وبين مصر والشام، كان يتابع، بفضل هذه القنوات المتنوعة وما يتيحه له موقعه الجغرافي المتميز من احتكاك بالعالم الخارجي، أخبار ما كان يجري على أرض هذين القطرين الإسلاميين من أحداث وتطورات بسبب هذه الحملة.

من هذا المنطلق، يحق لنا أن نتساءل عن الموقف الذي سيتخذه هذا البلد الإسلامي، عبر مكوّناته المختلفة، من هذا الحدث الاستعماري الذي طال هذين البلدين المشرقيين، بحكم العلاقات الخاصة التي تربطه بهما.

= بمالطا: من الجهاد البحري إلى التوظيف الاستعماري،» ورقة قدّمت إلى: **الجهاد البحري في التاريخ العربي الإسلامي: [أعمال] الندوة الدولية المنعقدة في سلا ٣٠ ـ ٣١ مايو/ ١ ـ ٢ يونيو ١٩٩٧**، نظّمتها جمعية أبي رقراق واللجنة الدولية للتاريخ البحري (سلا: مطابع ميثاق المغرب، ١٩٩٩)، ص ٢٦١ ـ ٢٨٠.

٣ ـ إشكالية البحث

تتمحور الإشكالية المركزية لهذا البحث، حول أربع قضايا رئيسة تلخصها الأسئلة التالية:

ـ كيف تعامل سلطان البلاد، مولاي سليمان، باعتباره الإمام الأعظم ورأس الهرمية السياسية، مع نداءات الجهاد التي كانت تفد عليه من السلطان العثماني سليم الثالث، داعية إياه إلى إعلان الحرب ضد فرنسا والانضمام إلى الدولة العثمانية وحليفتيها روسيا وإنجلترا في أفق تحرير مصر والشام من الاحتلال الفرنسي؟

ـ كيف تمثلت هذه الحملة بالنسبة للشخصيات السياسية وأعضاء النخبتين العالمة والتجارية الذين كانوا، بحكم وظائفهم وأنشطتهم، على علم وبيّنة بكثير من جوانب هذه الحملة؟ هل رأوا فيها مجرد عدوان عسكري نفذته إحدى الأمم المسيحية التي اشتهرت بعدائها للمسلمين منذ حروبها الصليبية، أم أن خبراتهم السياسية ومؤهلاتهم العلمية قادتهم إلى إدراك المغزى العميق لهذا الحدث الاستعماري غير المسبوق؟

ـ كيف ترجمت مواقف الشعب المغربي، عبر مختلف مكوّناته الرسمية والنخبوية والشعبية على المستوى الميداني داخل مصر والشام؟ هل شاركوا في حركة المقاومة والجهاد التي ظهرت بهذين القطرين، أم اكتفوا بالتعبير عن سخطهم وإدانتهم لهذا العدوان وهم قابعين في بلادهم؟

ـ كيف تفاعلت الجالية المغربية التي كانت تقيم بمصر والشام مع هذه الحملة؟ هل شاركت في عمليات المقاومة والجهاد إلى جانب المماليك والأهالي، أم انضم أفرادها إلى الفاتحين الجدد؟

هذه الأسئلة وغيرها، هي التي نطمح إلى الإجابة عنها من خلال هذا البحث. وهي تتمحور، كما يظهر من مضامينها، حول أربع قضايا كبرى رئيسة. تتصل القضية **الأولى** منها، بموقف القيادة السياسية العليا بالمغرب من هذه الحملة. أما القضية **الثانية**، فتتمثل في محاولة تبين

الكيفية التي تفاعلت بها مختلف مكونات الشعب المغربي تجاه هذا الحدث. في حين تتمحور القضية **الثالثة** حول المساهمة الجهادية التي يمكن أن تكون قد صدرت عن المغاربة في عين المكان. أما القضية **الرابعة** والأخيرة، فيتلخص هدفها الرئيس في محاولة الكشف عن الكيفية التي تفاعلت بها عناصر الجالية المغربية التي كانت تقيم آنذاك بمصر والشام مع هذه الحملة.

ومما تجدر الإشارة إليه، أن اشتغالنا بهذه القضايا وما يتصل بها من أسئلة، لا يمثل، بالنسبة لنا، إلا أهدافا مرحلية أو جزئية نسعى، من خلالها، إلى الإجابة عن السؤال المركزي لهذا البحث، والمتمثل في استجلاء حدود ومستويات تحقق فرضية التضامن الإسلامي من حيث هي أمر تقتضيه رابطة الدين والعقيدة وخطاب تروّج له وتمارسه، بأشكال متفاوتة، كل فعاليات المجتمع المغربي. فمن خلال هذه الوقائع والأحداث المؤكدة تاريخيا، سنحاول اختبار حدود تحقق هذه الأطروحة التي ما فتئ ينادي بها الجميع ويدّعيها. وفي الآن نفسه، سنستغل هذه المناسبة لتشخيص العوائق الموضوعية التي حالت ـ وما زالت ـ تحول دون تطابق خطاب التضامن الإسلامي مع المواقف الفعلية التي تصدر عادة عن القادة والشعوب الإسلامية في مناسبات مثل هاته، والتي غالبا ما تتناقض مع هذا الخطاب وما يتأسس عليه من اعتبارات دينية وقومية.

وإضافة إلى هذا وذاك، سيظل يحضرنا، طيلة هذا البحث، هاجس التعرف على الكيفية التي قرأ بها المغاربة عموما والنخبتان، السياسية والعالمة، منهم على وجه الخصوص، حدث الحملة من حيث هو تحدي غير مسبوق لـ «دار الإسلام» من قبل واحدة من الأمم التي كانت تصنف عندهم، إلى حدود ذلك التاريخ، ضمن أمم «دار الحرب والكفر».

٤ ـ المبررات الذاتية والموضوعية لاختيار الموضوع

اشتغل عدد من الدارسين والباحثين بالإجابة عن بعض أو جل الأسئلة المرتبطة بالقضايا التى تتمجور حولها هذه الأطروحة، وحرروا في ذلك مقالات وأبحاث. ولعل أول من لفت الانتباه إلى هذا الموضوع

وأبرز أهميته وخصوصيته، هو المرحوم محمد الفاسي في مقالة له تحت عنوان: «مشاركة المغرب في الجهاد المصري للحملة الفرنسية»[١٢]. وكان ذلك بمناسبة حرب تشرين الأول/أكتوبر لسنة ١٩٧٣. وتلا ذلك، حسب علمنا، مقال للمرحوم محمد المنوني تناول فيها أشكال التضامن التي عبر عنها المغاربة تجاه إخوانهم في المشرق عبر مناسبات عدة، ذكر من بينها الحملة الفرنسية على مصر والشام[١٣]. وربما جاءت بعده تلك الدراسة القيمة التي أنجزها كل من الباحث المصري، يونان لبيب رزق، والباحث المغربي، محمد مزين، حول «تاريخ العلاقات المغربية ـ المصرية منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام ١٩١٢»، وصدرت في مؤلف مشترك تحت هذا العنوان[١٤]. أما عبد الهادي التازي الذي كرس مشروعه البحثي لعلاقات المغرب الخارجية، فقد نال منه هذا الموضوع اهتماما خاصا؛ سواء في مؤلفه الموسوم بـ **التاريخ الدبلوماسي للمغرب**[١٥]، أو عبر مقالاته المتفرقة[١٦]. هذا، دون أن ننسى مصطفى أبو شعراء الذي ساهم في أحد اللقاءات التي تعقدها، بين الحين والآخر، جمعية أبي رقراق بتعاون مع وزارة الثقافة المصرية، ببحث له في هذا الموضوع[١٧].

---

(١٢) محمد الفاسي، «مشاركة المغرب في الجهاد المصري للحملة الفرنسية،» **مجلة دعوة الحق**، العددان ٤ ـ ٥ (١٩٧٤).

(١٣) محمد المنوني، «نماذج من مساهمات الغرب الإسلامي في الحروب الصليبية بالشام وما إليها،» **مجلة كلية الآداب** (الرباط)، العددان ٢١ ـ ٢٢ (١٩٨٩)، ص ١٤٣ ـ ١٤٧.

(١٤) يونان لبيب رزق ومحمد مزين، **العلاقات المغربية ـ المصرية منذ مطلع العصور الحديثة العصور الحديثة حتى عام ١٩١٢** (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠).

(١٥) عبد الهادي التازي، **التاريخ الدبلوماسي للمغرب**، ١٠ مج (المحمدية: مطبعة فضالة، ١٩٨٨)، مج ٦.

(١٦) انظر على سبيل المثال: «في العلاقات المغربية ـ المشرقية أثناء العهد العثماني،» ورقة قدمت إلى: **العلاقات المصرية المغربية: الندوة الثانية، القاهرة من ٢٥ إلى ٢٧ يناير ١٩٩٠**، نظمتها وزارة الثقافة المصرية بالتعاون مع جمعية أبي رقراق الثقافية؛ إعداد حسن حنفي (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢).

(١٧) مصطفى أبو شعراء، «صور من العلاقات المصرية ـ المغربية عبر التاريخ،» ورقة قدمت إلى: **العلاقات التاريخية المصرية المغربية: رصيد وآفاق الندوة [المنعقدة] أيام ١٨، ١٩، ٢٠ ١٩٨٨ بسلا**، نظّمتها جمعية أبي رقراق بتعاون مع وزارة الثقافة؛ إعداد نجاة المريني (الدار البيضاء: دار الثقافة، ١٩٨٩).

أما محمد المنصور[18] وزكي مبارك[19] وفاطمة الحراق[20] وأحمد المكاوي[21] ونعيمة عوشار[22] وعبد الرحيم بن حادة[23] وعثمان المنصوري[24]، فقد طرقوا هذا الموضوع في أكثر من مناسبة في إطار اهتماماتهم الخاصة بالتطورات الداخلية والخارجية التي كان يشهدها المغرب على عهد السلطان مولاي سليمان. وقبل ذلك بمدة، أثار هذا الموضوع اهتمامات باحثين ودارسين فرنسيين؛ من أمثال جاك كايي، الذي لم تفته الإشارة إليه في بحوثه المختلفة التي كرسها للعلاقات المغربية الفرنسية على عهد هذا السلطان[25]. نفس الشيء يقال عن شارل

(١٨) محمد المنصور: «الجهود المغربية من أجل استرجاع مدينة سبتة على عهد مولاي سليمان،» **مجلة كلية الآداب** (الرباط)، العددان ٥ ـ ٦ (١٩٧٩)، ص ٢٩ ـ ٤٤، و«مولاي سليمان: ملك لاهمة له بالملك والدسائس،» في: مجموعة من الباحثين، **مذكرات من التراث المغربي**، إشراف العربي الصقلي، ٨ مج (الرباط: نور أركنزاسيون، ١٩٨٤ ـ ١٩٨٦)، مج ٤: **من العظمة إلى المؤامرات والدسائس، ١٠٧٦ ـ ١٣٢٤هـ، موافق ١٦٦٦ ـ ١٩٠٦م**، ص ١٧٦ ـ ١٩٥.

(١٩) زكي مبارك، «مولاي سليمان والثورة الفرنسية ونابليون بونابرت ١٧٩٢ ـ ١٨١٥،» ورقة قدمت إلى: **الوثائق المرجعية لعهد السلطان مولاي سليمان، العمل الداخلي والسياسة الخارجية للسطان مولاي سليمان، الإنجازات الثقافية والعمرانية على عهد السلطان مولاي سليمان: أعمال الدورة الرابعة التي عقدت أيام ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١ دجنبر ١٩٩٢** (الرباط: مطبعة الأمنية، ١٩٩٤)، ص ٨٠ ـ ١١٠.

(٢٠) فاطمة الحراق، «المساعي المغربية من أجل استرجاع مدينة سبتة،» **مجلة البحث العلمي** (الرباط)، العددان ٢٩ ـ ٣٠ (١٩٧٩)، ص ٣٠٩ ـ ٣٢٣.

(٢١) أحمد مكاوي، «التحديث الأوروبي في مصر خلال القرن التاسع عشر ضمن كتابات مغربية،» ورقة قدمت إلى: **المغرب ـ المشرق: العلاقات والصورة (أعمال ندوتي مارس ١٩٩٤، ونونمبر ١٩٩٧)**، تنظيم مجموعة الدراسات والأبحاث في العلاقات المغربية المشرقية (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، ١٩٩٩)، ص ٨٣ ـ ١١١.

(٢٢) Amina Ihrai-Aouchar, «Les Relations du Maroc avec l'Europe à l'époque de la Révolution française et de l'Empire (1789-1815),» *Héspéris-Tamuda*, vol. 28, no. 1 (1990), pp. 29-46.

(٢٣) عبد الرحيم بن حادة، «وثائق مغربية حول علاقة مولاي سليمان بالدولة العثمانية،» مجلة **هيسبيريس تمودا**، السنة ٢، العدد ٣٥ (١٩٩٧).

(٢٤) عثمان المنصوري، «صدى الحملة النابليونية في المغرب،» ورقة قدمت إلى: **المؤتمر الدولي للعلاقات المصرية المغربية عبر التاريخ**، تنظيم كلية الآداب، جامعة حلوان ـ مصر بتعاون مع كلية الآداب، عين الشق، جامعة الحسن الثاني (القاهرة: مطابع جامعة حلوان، ٢٠٠٣)، ص ٢٠٥ ـ ٢٢٧.

(٢٥) Jacques Caillé, «Le Vice-consul Broussonet et ses «Mémoires» sur le Maroc,» *Héspéris-Tamuda*, vol. 2 (1969), pp. 5-42.

فرانسوا غو[٢٦] ورينولد طوماسي[٢٧] ورينو هوزوط[٢٨] وهنري دو كاستري[٢٩] وغيرهم ممن اهتموا بعلاقات المغرب بفرنسا خلال مرحلتي الثورة والحملة.

إضافة إلى هذه الأبحاث الجزئية التي أنجزها أصحابها في مناسبات مخصوصة، وتلك الدراسات العامة، نالت علاقات المغرب بفرنسا خلال عهد مولاي سليمان، خصوصا منها موقفه من حملتها على مصر، اهتماما خاصا من لدن عدد من الباحثين المغاربة والأجانب الذين كرسوا بحوثهم الجامعية الموسعة لهذه الفترة. ولعل أول من اهتم بذلك هو محمد المنصور في إطار بحث كرسه للتطورات السياسية والاجتماعية التي عاشها المغرب على عهد مولاي سليمان[٣٠]. ثم تبعه في ذلك ثلة من الباحثين، أذكر منهم؛ بنهاشم محمد الذي توقف مليا عند علاقة مولاي سليمان بهذه الحملة في بحث له حول «السياسية الخارجية المغربية في عهد مولاي سليمان»[٣١]. نفس الشيء قام به محمد البوزيدي الشيخي عندما حاول رصد «علاقات المغرب الخارجية من خلال المصادر المغربية»[٣٢]. أما عبد الحفيظ حمان، فقد كان أكثر دقة وتركيزا في معالجته لبعض جوانب هذا الموضوع عندما خصه بفصل مستقل ضمن بحث له حول «المغرب والثورة الفرنسية»[٣٣].

---

(٢٦) François Charles-Roux: *France et Afrique du Nord avant 1830: Les Précurseurs de la conquête*, 2 tomes (Paris: Alcan, 1932), et *Bonaparte, gouverneur d'Egypte* (Paris: Plon, 1936).

(٢٧) Raymond Thomassy, *Le Maroc et ses caravanes, ou Relations de la France avec cet empire* (Paris: Firmin-Didot frères, 1845).

(٢٨) Manon Hosotte-Reynaud, «Quatre documents inédits touchant les relations entre la France et le Maroc (1794-1810),» *Héspéris-Tamuda*, vol. 1, no. 3 (1960), pp. 549-561.

(٢٩) Henry de Castriers, «Napoléon et le Maroc,» *Revue hebdomadaire* (18 avril 1908), pp. 4-18.

(٣٠) Mohamed El Mansour, «Political and Social Development under the Reign of Moulay Solayman (1792-1822),» 2 tomes (Doctorate, University of Landers, 1981).

(٣١) محمد بنهاشم، «السياسة الخارجية المغربية في عهد السلطان مولاي سليمان (١٧٩٢ - ١٨٢٢)،» (دبلوم الدراسات العليا، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب، شعبة التاريخ، فاس، ١٩٨٦ - ١٩٨٧).

(٣٢) محمد الشيخي البوزيدي، «العلاقات المغربية الخارجية في القرن الثامن عشر من خلال المصادر المغربية،» (أطروحة دكتوراه الدولة، شعبة التاريخ، كلية الآداب، بني ملال، ٢٠٠٠ - ٢٠٠١).

(٣٣) عبد الحفيظ حمان، **المغرب والثورة الفرنسية** (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، ٢٠٠٢).

إلى جانب هؤلاء الباحثين المغاربة، أَولى عدد من الباحثين الأجانب اهتماما خاصا لأصداء هذه الحملة داخل المغرب. وتوسعت في ذلك الباحثة الفرنسية كاترين لوران في بحث لها حول العلاقات التي ربطت بين المغرب وفرنسا منذ حملة نابليون على مصر إلى احتلال الجزائر(٣٤).

لا سبيل إلى إنكار القيمة العلمية التي اتصفت بها هذه الأبحاث والدراسات، كما لا يسعنا إلا الإقرار بدورها الرائد في إماطة اللثام عن كثير من جوانب هذا الموضوع. ورغم ذلك، فإنه لأسباب منهجية ومصدرية، بقيت أهم القضايا والإشكالات المرتبطة بهذا الموضوع، قائمة ولم تستوف المعالجة المطلوبة.

أما عن الأسباب المنهجية، فواضح من خلال عناوين ومضامين هذه الدراسات والأبحاث، أن أيا منها لم يفرد خصيصا للاشتغال بأهم الأسئلة التي تطرحها محاور هذا البحث. فكما رأينا، طرقت أغلب هذه الكتابات موضوع الحملة في علاقتها بالمغرب في سياق طرحها؛ لإشكاليات جزئية لا تمس إلا جانبا يسيرا من هذا الموضوع، أو أنها تناولته ضمن إطار أوسع يهم العلاقات المغربية الفرنسية أو العلاقات المغربية المشرقية.

لهذا السبب، ظلت عدد من الأسئلة المتصلة بالإشكالية العامة التي يطرحها هذا الموضوع؛ إما بدون إجابة، أو أنها عولجت بطريقة سريعة وجزئية لا تسمح بتحصيل النتائج المتوخاة. ولهذا نعتقد أن من الأسباب التي يستمد منها هذا البحث مشروعيته، هو غياب عمل بحثي متكامل يغطي أهم محاور هذا الموضوع.

أما فيما يخص الجانب المصدري التوثيقي، فعلى الرغم من غنى وتنوع المصادر والوثائق التي اعتمدت عليها بعض هذه الدراسات والأبحاث، فإن جلها افتقر إلى ذلك التنويع الضروري الذي يتطلبه بحث من هذا النوع، خاصة على مستوى الوثائق الأصلية والمصادر المعاصرة.

---

(٣٤) Catherine Laurent, «Le Maroc et ses relations avec la France de l'Expédition d'Egypte à la prise d'Alger (1798-1830),» 3 tomes (Thèse d'archiviste paléographe, Ecole de Chartes, Paris, 1977).

ذلك، أن بحثا مركبا مثل هذا، تتداخل فيه أكثر من دولة وتتقاطع حوله مختلف شرائح المجتمع بشقيه المدني والسياسي، يستدعي حتما استقاء مادته من خلال أوسع دائرة ممكنة من الأصول الوثائقية والمصدرية.

ونظرا لعدم استيفاء هذه الدراسات والأبحاث لهذا الشرط، فإن عددا منها أخطأ في معالجة بعض قضايا هذا الموضوع أو أغفلها. وكان من نتائج ذلك أن ألصقت بالمغرب، قيادة وشعبا، تهم هو بريء منها، وحرم من بعض الإنجازات البطولية ونسبت خطأ إلى غيره، وضخمت بعض مواقفه بشكل لا يتناسب مع واقع الأحداث، وتم تجاهل المساهمات التي تفرد بها واحتفظ فقط ببعض السلوكات الشاذة التي من شأنها التأثير على سمعته وصورته. وإذا كان هذا الكلام ينطبق في حدود معينة على كثير من الكتابات المغربية والفرنسية التي اهتمت بهذا الموضوع، فإنه يكاد يشكل الخاصية الأساسية لنظيراتها المشرقية والمصرية منها على وجه الخصوص.

لهذه الأسباب، نعتقد أن الهدف الرئيس الثاني لهذا البحث يتمثل في معالجة هذه الاختلالات والأخطاء التي شابت عددا من الدراسات والأبحاث التي تناولت من قريب أو بعيد موقف المغرب من هذه الحملة، وتصحيح عدد غير قليل من الروايات والأحكام التي لا تزال تحتفظ بها عدد من المصادر المعاصرة.

٥ ـ العدة المنهجية والمصدرية

أ ـ العدة المنهجية

تتميز العدة المنهجية التي راهنا عليها في تجاوز أوجه النقص والقصور في البحوث السابقة والإجابة عن الأسئلة المسطرة ضمن الإشكالية المركزية لهذا البحث، بطابعي الشمولية والتكامل ضمن منظور نسقي متكامل. فمن جهة أولى، حاولنا الاستفادة من جميع المقاربات والمناهج التي رأيناها صالحة لحل هذا الإشكال أو ذاك، انسجاما مع هذا الموضوع المنفتح بطبيعته على قضايا متنوعة يتداخل فيها ما هو اقتصادي واجتماعي بما هو فكري وحضاري، وما هو من صميم الصراع

الداخلي وما يرتبط به من توازنات بما هو دولي وينتظم ضمن محددات العلاقات الدولية، وما هو سلوك شخصي وطموحات فردية بما هو تربية روحية وتأطير سياسي.

لذلك، لم نحصر تعاملنا مع منهج بعينه بقدر ما حاولنا استثمار كل ما أتاحته لنا هذه المناهج من خبرات ومهارات. وبين هذا وذاك، بقيت الوثيقة بمعناها الواسع ومنطق التحليل والتفسير التاريخيين، هما الخيط الناظم لكل هذا العمل. أما في حالة غياب هذه الوثيقة وتعذر القيام بعمليات التحليل والتفسير، فكنا نلجأ إلى المقايسة والتأويل انطلاقا من حالات قريبة أو مشابهة. هذا، دون الإخلال بالضوابط العلمية التي تقتضي، في حقل معرفي مثل هذا، القيام بعمليات منطقية منظمة ومترابطة أكثر مما تحتكم إلى صحة النتائج وصدقية التوقعات.

أما الشق الثاني من هذه العدة المنهجية، فيتمثل في الخطة العملية التي اعتمدناها في الإجابة عن هذه الأسئلة وما يتصل بها من قضايا وإشكالات. فقد تميزت هذه الخطة، بدورها، بطابع الشمولية والتكامل. تجلّى ذلك في تناولنا لمحاور هذا الموضوع، بشكل أفقي وعمودي، أي من خلال امتداداتها عبر المجال الجغرافي والهرمية السياسية والاجتماعية.

ففيما يتصل بالمجال الجغرافي، ارتأينا ضرورة الفصل بين ما جرى بخصوص هذه الحملة من مواقف وتطورات داخل المغرب وما جرى خارجه. ذلك، أن المغاربة عايشوا هذا الحدث وتفاعلوا معه، وهم إما مقيمون ببلدهم أو موجودون خارجه. انطلاقا من هذه الاعتبارات الجغرافية، قسمنا هذا البحث إلى أربعة أقسام. فخصصنا القسمين الأول والثاني منهما، لمجمل المواقف التي عبّر عنها المغاربة، قيادة وشعبا، انطلاقا من المغرب. أما القسمان الثالث والرابع، فأفردناهما لرصد المواقف التي صدرت عن المغاربة الذين حلوا بمصر بهذه المناسبة أو كانوا يقيمون بها قبل ذلك. وأشرنا، بين هذا وذاك، إلى المواقف التي عبّر عنها الأسرى المغاربة الذين صادفتهم الحملة بجزيرة مالطا، والتجار الذين حلوا بالديار الفرنسية خلال المدة التي استغرقتها هذه الحملة للمطالبة برد أموالهم وأمتعتهم التي سلبها منهم القراصنة الفرنسيون.

وانطلاقا من المعيار المتصل بالهرمية السياسية والاجتماعية، واقتناعا منا بالدور المركزي الذي كانت ولا تزال تضطلع به القيادة السياسية العليا في حالات مثل هاته، خصصنا القسم الأول للكشف عن الكيفية التي تعامل بها مولاي سليمان، باعتباره سلطان البلاد وإمامها الأعظم، وكذا بقية أعضاء جهازه السياسي والإداري، مع هذا العدوان. وركزنا في ذلك، بشكل أساسي عبر فصلين، على الكيفية التي تعاملت بها هذه القيادة مع نداءات الجهاد ودعوات التحالف التي كانت تأتيها من السلطان العثماني، سليم الثالث، وحليفته إنجلترا. كما ركزنا في الفصل الثاني من هذا القسم، على التدابير والإجراءات التي واجهت بها هذه القيادة فرنسا باعتبارها الدولة الغازية، وإسبانيا باعتبارها حليفة لها. وحرصا منا على توطين موقف المغرب ضمن الخريطة العامة للبلدان الإسلامية، أشرنا كذلك إلى ما صدر عن قادة وشعوب بعض هذه البلدان التي كان لها اتصال مباشر بهذه الحملة، وقارنا بينه وبين الموقف الذي اعتمده المغرب بنفس المناسبة.

وبعد مراقبتنا للموقف الرسمي، خصصنا القسم الثاني للكشف عن الكيفية التي تفاعلت بها مكونات المجتمع المغربي مع هذا الحدث الاستعماري. لكن، على الرغم من اقتناعنا بمركزية الدور الذي تقوم به عادة الشعوب في مناسبات مثل هاته، ارتأينا إدراج هذا القسم في المقام الثاني، وعياً منا بالقدرة التوجيهية التي كانت تمارسها السلطة السياسية العليا من منطلق هيمنتها على المجالين الديني والاجتماعي. لذلك، تعاملنا مع هذا القسم باعتباره امتدادا للموقف الذي اعتمدته قيادة البلاد العليا من هذا الحدث. مع الإشارة، مرات عديدة، سواء خلال هذا القسم أو الذي سبقه، إلى المواقف المعارضة أو تلك التي شكلت استثناء.

وهكذا، اشتغلنا، عبر ثلاثة فصول متكاملة، بالإجابة عن أهم الأسئلة التي تطرحها محاور هذا القسم؛ بدءا بموقف النخبة العالمة التي عايشت هذا الحدث وهي مقيمة بالمغرب، مرورا بتلك التي اختلط أفرادها، بشكل مؤقت، بجيش الحملة في مالطا أو مصر والشام، أو أولئك الذين حلوا بالديار الفرنسية لأسباب خاصة، وانتهاء بردود الفعل

المختلفة التي صدرت هنا وهناك عبر مدن وأقاليم المغرب عن مطلق فئات الشعب المغربي تجاه حدث الحملة.

أما القسمان الثالث والرابع، فحاولنا الكشف، من خلالهما، عن ردود الفعل التي صدرت عن المغاربة الذين قدموا إلى مصر والشام بمناسبة هذا العدوان وأولئك الذين كانوا يقيمون بهذين القطرين منذ وقت طويل. فخصصنا القسم الثالث للتعريف بالمساهمة الجهادية التي صدرت عن أهل المغرب الأقصى الذين حضروا إلى مصر لدفع هذا العدوان. أما القسم الرابع والأخير، فأفردناه لتبين الكيفية التي تعامل بها مع هذه الحملة من كان يعرف آنذاك في المشرق عموما بـ «المغاربة» بشقيهم المدني والعسكري.

وركزنا خلال هذين القسمين الأخيرين، بشكل أساسي، على توضيح القيمة النوعية للمساهمة الجهادية الميدانية التي صدرت عن المغاربة بمصر والشام باعتبارها مظهرا واقعيا لحقيقة التضامن بين الشعوب الإسلامية بغض النظر عن الإرادات والحسابات السياسية. وإلى جانب ذلك، توجه اهتمامنا إلى الكشف عن الأخطاء والأغاليط التي طالت بعض مجاهدي المغرب الأقصى حينما نسب البعض منهم إلى بلدان أخرى، أو فسر جهادهم هناك على أنه ارتزاق وعمالة لجهات معينة، أو اتهموا باختلاق الحيل لتضليل الناس وابتزازهم. كما لم يفتنا التحقق، خلال القسم الرابع بشكل خاص، من التهم التي رميت بها الجالية المغربية المقيمة آنذاك بمصر والشام، خاصة منها الجناح العسكري بسبب انحياز جماعة صغيرة منهم مؤقتا إلى جيش الاحتلال الفرنسي. وسعينا، بين هذا وذاك، إلى الكشف عن نقاط القوة والضعف التي تخللت هذا الشكل التضامني الذي عبر عنه المغاربة ميدانيا تجاه ما حل بإخوانهم بمصر والشام من غزو واحتلال.

يتضح مما سبق، أن القسمين الأول والثاني يشكلان ما يشبه الشق النظري لهذا البحث؛ لأننا اقتصرنا في جل فصولهما ومباحثهما على معالجة المواقف والتحركات التي صدرت عن مختلف مكوّنات المجتمع المغربي بعيدا عن ساحة المواجهة المباشرة في مصر والشام. أما القسمان الثالث والرابع، فيشكلان ما يشبه الشق التطبيقي؛ لأننا خصصناهما لتناول

مجمل المواقف العملية التي صدرت عن المغاربة عموما وأهل المغرب الأقصى منهم على وجه الخصوص في عين المكان، أي داخل مصر والشام. هذا، مع العلم أن هذين الشقين يتداخلان ويتكاملان في ما بينهما عبر عدة مستويات.

ب ـ العدة المصدرية

لا أحد يماري في أن المظان الأساسية الكفيلة بتحصيل المادة العلمية اللازمة لبلوغ هذه الأهداف، هي الأصول بنوعيها الوثائقي والمصدري. أما الدراسات والأبحاث التي دارت مواضيعها حول هذا الحدث أو قريبا منه، فتعتبر المكمل الطبيعي لبحث من هذا النوع.

(١) الأصول الوثائقية

تعتبر الوثائق الرسمية والخصوصية بالنسبة لحدث من هذا النوع، الوسائط الأساسية لنقل مادته العلمية والاحتفاظ بها. فكما هو واضح، دارت أحداث هذه الحملة الفرنسية على مصر والشام وما ارتبط بها من تطورات دولية، في ما يصطلح عليه بـ «المرحلة الحديثة» من التاريخ الأوروبي حيث توطدت دعائم الدولة الوطنية وأصبحت مهمة إنتاج الوثيقة والمحافظة عليها من وظائفها الأساسية وعيا منها بالدور الهام الذي يمثله الأثر المكتوب في ضمان استمرارية الشرعية القانونية والسياسية ودعمهما. لهذه الاعتبارات، اقتضت المصلحة العليا للدولة الحديثة بذل جهد تنظيمي ولوجيستي كبيرين من أجل حفظ هذه الآثار المكتوبة بشتى أنواعها وحقبها. وتم التركيز في هذه العملية، بشكل خاص، على الجوانب السياسية والعسكرية من نشاط الدولة.

يستنتج من هذا أن كتابة تاريخ هذه المرحلة وما يرتبط به من أحداث سياسية وعسكرية من قبيل الحملة الفرنسية على مصر والشام، يجب أن ينطلق أساسا من الأصول الوثائقية ذات الصلة بهذا الموضوع. ومما لاشك فيه، أن طبيعة هذا البحث تقتضي وجود هذه الوثائق في أكثر من دولة؛ لأن احتلال فرنسا لمصر وجزء من الشام، شكل قضية دولية دارت حولها خلافات سياسية وصراع عسكري بين عدد من الدول،

وانقسم على إثرها المجتمع الدولي إلى جبهتين: واحدة مناهضة لهذا الاحتلال ورافضة له، تزعّمتها الدولة العثمانية، بصفتها صاحبة السيادة القانونية على هذين البلدين، وساندتها في ذلك كل من إنجلترا وروسيا والبرتغال من منطلق صراعهم التقليدي مع فرنسا وحرصا منهم على مصالحهم داخل الدولة العثمانية وخارجها. أما الجبهة الثانية، فتزعّمتها فرنسا وساندتها في ذلك عدد من الدول التي كانت متحالفة معها مثل إسبانيا، أو واقعة تحت سلطانها مثل إيطاليا. إضافة إلى هاتين الجبهتين، كانت هناك عدد من الدول متأرجحة وغير قادرة على التعبير صراحة عن موقفها تجاه هذا الاحتلال وما نجم عنه من أزمة دولية.

لذلك، نقول إن هذه الدول جميعا، على اختلاف مواقفها من هذا الحدث ودرجة قربها أو بعدها من الدولة العثمانية ومصر باعتبارهما الطرف المستهدف مباشرة بهذه الحملة وفرنسا باعتبارها الدولة الغازية، قد أنتجت أجهزتها الدبلوماسية والعسكرية والاستخباراتية، ما لا يحصى من الوثائق على شكل رسائل وتقارير سرية وعلنية. لهذا، نعتقد أن كتابة تاريخ هذه الحملة ككل، وكذا المواضيع المرتبطة بها، يجب أن ينطلق من هذه المستندات الوثائقية. يفهم من هذا أن إعادة بناء أحداث ووقائع هذا البحث الذي نحن بصدده، يستلزم ضرورة استشارة المراكز والمؤسسات الرسمية التي تحفظ بها هذه المادة الوثائقية. لهذا، كانت أولى خطواتنا في هذا الاتجاه، هو محاولة تحصيل أكبر قدر ممكن من هذا الصنف من الوثائق. وبما أن زيارة واستشارة أرشيفات كل البلدان التي ارتبطت من قريب أو بعيد بأحداث وتطورات هذه الحملة أمر يتجاوز قدراتنا وإمكاناتنا الشخصية، فقد ركزنا اهتمامنا على الدول التي كان لها ارتباط مباشر بهذا الحدث.

وغني عن القول، إن هذه الخطة تقتضي البدء أولا بالمغرب باعتباره البلد الذي نريد تبين موقفه من هذه الحملة. ثم يأتي في الدرجة الثانية، أهم الدول التي كان على اتصال مباشر بهذا الحدث.

ـ مديرية الوثائق الوطنية بالرباط

خلافا لما كانت قد درجت عليه الأمم الأوروبية من حفظ وتنظيم

لوثائقها الرسمية والخاصة وتحويلها إلى أرشيفات وطنية، لم تعتن الدولة المغربية إلى حدود هذه الفترة موضوع البحث بمثل هذا النشاط ولم تعتبره من وظائفها الأساسية. لذلك، لا غرابة إذا وجدنا الخزانات المغربية المتخصصة في هذا الميدان، شبه خالية من الوثائق التي كانت تصدرها الجهات الرسمية، خاصة ما يتصل منها بعلاقات المغرب الخارجية على الرغم من كثافة العلاقات التي كانت تربط هذا الأخير بعدد من الدول الأوروبية والإسلامية، والتي لا شك أنه تمخض عنها رصيد وثائقي هام ومتنوع. فلم يتخلف بمراكز التوثيق الوطنية سوى بعض الوثائق المتفرقة التي تمكنت مديرية الوثائق الوطنية بالرباط من جمعها بمجهوداتها الخاصة، أو عبر مبادرات بعض الباحثين المغاربة الذين زوّدوها بما تحصل لديهم من نسخ ومصورات. وقد اطلعنا بهذه المديرية على كل السجلات المتعلقة بفترة مولاي سليمان، خاصة منها تلك التي صادفت سنوات الحملة.

لذلك، لم يكن أمامنا من خيار سوى البحث في أرشيفات الدول التي كانت منشغلة بتقصي أخبار هذا البلد فيما يخص موقفه من هذا الحدث، مثل فرنسا وحليفتها إسبانيا، والدولة العثمانية وحليفتيها، إنجلترا والبرتغال، إضافة إلى مصر باعتبارها موضوع هذا العدوان. وبما أن هذه الحملة نفذت تحت المسؤولية المباشرة لفرنسا وجرت أطوارها بمصر والشام تحت مراقبتها وتوجيهها وتولت سلطاتها الدبلوماسية وأجهزتها القنصلية رصد أصدائها وتتبع ردود الفعل الدولية التي ثارت حولها، ركزنا في مرحلة أولى في تحصيل هذه المادة الوثائقية على ما صدر عن السلطات العليا الفرنسية السياسية منها والعسكرية.

وغني عن القول، إن جزءا هاما من هذه المادة الوثائقية، يوجد في الوقت الحالي على شكل أرشيف، كما أن رصيدا لا بأس به من هذه المادة، صدر على شكل نشرات وثائقية. لذلك، كانت أول خطوة قمنا بها في هذا الاتجاه، هي زيارة دور حفظ هذه الوثائق بفرنسا واستشارة ما يوجد بها من محفوظات بخصوص موضوع بحثنا. وهكذا، تهيأ لنا خلال إقامتنا بالعاصمة الفرنسية، جمع مادة وثائقية هامة من أرشيفات وزارتي الخارجية والحربية.

ـ وثائق وزارة الخارجية الفرنسية بباريس

تتوزع وثائق وزارة الخارجية الفرنسية بين مدينتي باريس ونانت. ففيما يخص الوثائق المحفوظة بوزارة الخارجية بباريس، تمكنا من الاطلاع على المجلدات التي اشتملت عليها سلسلة «المراسلات القنصلية والتجارية»، وخاصة منها المجلدات أرقام ٢٠ و٢١ و٢٢ المنحصرة تواريخها بين سنتي ١٧٩٧ و١٨٠٦. وتضم هذه السلسلة الوثائقية الهامة جدا، مجموع المراسلات والتقارير التي كانت تتبادلها وزارة الخارجية الفرنسية مع جهازها القنصلي والتجاري بالمغرب من جهة، ومع السلطان مولاي سليمان وبقية أعضاء حكومته من جهة ثانية. وهي إضافة إلى ذلك، تضم رسائل أصلية أو مترجمة موجهة من مولاي سليمان وأعوانه الكبار، مثل وزيره محمد بن عثمان ومحمد بن عبد السلام السلوي، إلى الجهات العليا الفرنسية، كما تخللتها عدد من الرسائل التي كان يوجهها بعض التجار المغاربة، خلال إقامتهم بباريس في إطار مطالبتهم باسترجاع أمتعتهم وأموالهم التي أخذها منهم قراصنة فرنسيون، إلى السلطات العليا الفرنسية.

إلى جانب هذا وذاك، اطلعنا كذلك، ضمن هذه السلسلة، على مراسلات متعلقة بالجزائر من خلال المجلدين الرقمين ٣٤ و٣٥، وتونس من خلال المجلدين الرقمين ٣٦ و٣٧، في الفترة المنحصرة بين سنتي ١٧٩٨ و١٨٠٣.

ـ وثائق وزارة الخارجية الفرنسية بنانت

واستكملنا هذا الصنف من المراسلات الدبلوماسية، بما تهيأ لنا الحصول عليه بمركز الأرشيفات الدبلوماسية بمدينة نانت (Nantes) التي حُوّل إليها في المدة الأخيرة جانب كبير من الوثائق ذات الصلة بالقنصليات الفرنسية ومن ضمنها قنصلية طنجة. ومن خصائص هذا الرصيد الوثائقي الهام، احتواؤه على عدة رسائل أصلية من مولاي سليمان وكبار موظفيه وعدد من نواب وأعوان القنصلية الفرنسية. وقد اطلعنا بهذا المركز، على عدد من الملفات. واستفدنا، بشكل خاص، من الملف الرقم ١ الذي يحتوي على مراسلات وزارة الخارجية الفرنسية مع قنصليتها بطنجة، والملف الرقم ٧٢ الذي يضم المراسلات التي كان

يوجهها مولاي سليمان إلى هذه القنصلية، والملف الرقم ٧٤ الذي يضم المراسلات التي كانت تتبادلها هذه القنصلية مع السلطات الشريفية المحلية، والملفات أرقام ٨٧ و١٠٤ و١١٩ التي تحتوي على المراسلات التي كان يوجهها نواب وأعوان القنصل الفرنسي بكل من الصويرة والرباط وأسفي إلى هذه القنصلية.

إلى جانب هذا، اطلعنا بنفس المركز على عدد من الملفات الخاصة بالمراسلات التي كانت جارية آنذاك بين وزارة الخارجية الفرنسية وقنصلياتها بكل من الجزائر وتونس وطرابلس.

أفادتنا هذه الوثائق، سواء الموجودة منها بوزارة الخارجية بباريس أو مركز الأرشيفات الدبلوماسية بمدينة نانت، إضافة إلى ما عثرنا عليه من أوراق متفرقة بمديرية الوثائق بالرباط، في تبيّن أوجه العلاقة التي ربطت بين المغرب وفرنسا خلال المدة التي استغرقتها الحملة. وتهيأ لنا، بفضل ذلك، التحقق في حدود واسعة من الموقف الذي اتخذته القيادة السياسية المغربية من هذه الحملة من خلال الرسائل التي دارت بين هذه الأخيرة وحكومة الإدارة عبر قنصليتها بطنجة، كما أفادتنا هذه المراسلات في تسليط الضوء على التقلبات التي طرأت على موقف حكومة الإدارة من المغرب عقب نزول قواتها بمصر، وما رافق ذلك من هواجس وتخوفات مما يمكن أن يصدر عن هذا البلد من مواقف سياسية وعسكرية وانعكاسات ذلك على رعاياها بالمغرب وجيشها بمصر.

ـ وثائق وزارة الحرب الفرنسية بباريس

إلى جانب هذه المراسلات الدبلوماسية، اطلعنا أيضا على الوثائق المتنوعة التي أودعها ضباط جيش الشرق وأطر إدارته العليا لدى وزارة الحرب الفرنسية بقصر فانسان بباريس. ويتوزع هذا الرصيد الوثائقي الهام جدا، على مائة وتسعين ملفا تغطي مجموع السنوات الثلاث التي استغرقتها الحملة، وتشتمل على وثائق متنوعة أغلبها عبارة عن مراسلات وتقارير وأوامر يومية تتخللها يوميات ومذكرات عدد من كبار الشخصيات العسكرية، كما أنها لم تخل من وثائق صادرة بمناسبات معينة عن شخصيات مصرية وعثمانية ومغربية.

ـ وثائق وزارة الحرب الفرنسية بالقاهرة

نسخت ملفات عديدة من الوثائق العسكرية المحفوظة حاليا بقصر فانسان بباريس من طرف بعض الشخصيات المصرية خلال العهد الملكي، واحتفظ بأرقامها التسلسلية الأصلية، وهي مودعة الآن بدار الوثائق والكتب المصرية بالقاهرة تحت اسم «وثائق الحملة»، كما أن أجزاء منها موجودة بجامعة القاهرة تحت نفس الاسم. لذلك، تعاملنا مع هذه الملفات الوثائقية عبر مرحلتين: جزء منها اطلعنا عليه في باريس، وجزء آخر اطلعنا عليه في القاهرة.

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن جزءا هاما من هذه الوثائق، تم نشره عبر وسائط مختلفة. نذكر منها، على وجه الخصوص، السلسلة الوثائقية التي نشر بها مجموع المراسلات التي صدرت عن نابليون بصفته قائدا لجيش الشرق خلال إقامته بمصر، وبصفته قنصلا عاما ثم إمبراطورا لفرنسا بعد عودته إلى باريس. وقد صدرت هذه المجموعة الوثائقية الهامة، التي تضم عددا كبيرا من الرسائل والتقارير والأوامر اليومية، بأمر من نابليون الثالث بين سنتي ١٨٥٨ و١٨٦٩ في اثنين وثلاثين جزءا. واطلعنا فقط على الجزئين الرابع والخامس اللذين تزامنا مع الحملة[٣٥]. كما أن قسطا وافرا من هذه الوثائق العسكرية، نشر في المؤلف الهام والضخم الذي وضعه الضابط الفرنسي لا جونكيير (La Jonquière) حول الحملة، وضمّنه عددا كبيرا من المراسلات والتقارير والأوامر والمذكرات الشخصية المتصلة بهذا الموضوع. وقد صدر هذا المؤلف الذي هو عبارة عن مجمع وثائقي، ما بين سنتي ١٨٩٩ و١٩٠٧ في خمسة أجزاء، اطلعنا عليها جميعا[٣٦].

أفادتنا هذه الوثائق العسكرية، سواء ما زال منها على شكل أرشيف أو ما تم نشره، في تسليط الضوء على عدد من القضايا والإشكالات المتصلة بموقف المغرب من هذه الحملة، كان أهمها وأقواها، تمكيننا

---

(٣٥) *Correspondance de Napoléon* 1èr, publiée par ordre de l'Empereur Napoléon III, 32 vols. (Paris: H. Plon, 1858-1870).

(٣٦) Clément de La Jonquière, *L'Expédition d'Egypte*, 5 vols. (Paris: C. Lavauzelle, 1899).

من الإجابة عن عدد من الأسئلة المتصلة بالقسم الخاص بالمساهمة الجهادية المغربية بمصر والشام. كما أفادتنا هذه الوثائق كثيرا في التحقق من المواقف التي سلكتها الجالية المغربية التي كانت تقيم آنذاك بهذين البلدين، تجاه الحملة، وكذا الإشاعات التي أثيرت حول ركاب الحج المغربية بنفس المناسبة. ناهيك عن مساعدتها لنا في الإلمام بالكيفية التي تعاملت بها كل من القيادة السياسية بالمغرب والنخبة العالمة مع هذا الحدث.

ساهمت في إنتاج هذه الوثائق الفرنسية، بشقيها الدبلوماسي والعسكري، شروط نفسية ومهنية وسياسية ودعائية، ولم يصلنا منها إلا ما سمحت به الرقابة الذاتية والمؤسسية. ورغم ذلك، نقول إن هذا الأرشيف الفرنسي مثل بالنسبة لنا المصدر الأهم ضمن لائحة الأصول الوثائقية التي اعتمدنا عليها في إنجاز هذا البحث؛ اعتبارا للصلة المباشرة التي وجدت بين فرنسا وهذه الحملة من جهة، وتنوع مادته وتغطيتها لكثير من محاور هذا البحث، من جهة ثانية.

ورغم ذلك، لا يجب أن ينسينا هذا أن أطرافا دولية أخرى اختلطت بقوة بهذه الحملة، إما على سبيل التأييد أو المعارضة، واشتغلت أجهزتها الدبلوماسية والعسكرية والصحفية بهذا الموضوع، وصدرت عنها، تبعا لذلك، عدة وثائق ومستندات. ناهيك عن أن الوثيقة الفرنسية مهما بلغت من التجرد والموضوعية والمهنية، تظل واقعة تحت تأثير شروط سياسية وأحيانا شخصية، تحد بشكل أو بآخر من قيمتها التوثيقية. كما أن الاقتصار في أزمة دولية مثل هاته على ما خطته قلم الطرف الغالب، لا يصح لا بالمقياس العلمي ولا المنهجي. لذلك، نقول إن استكمال عناصر هذه العدة المصدرية من الناحية الوثائقية، يستدعي حتما التنقيب في أرشيفات الدول التي كان لها ارتباط مباشر بموضوع الحملة وما نجم عنها من تطورات.

لهذا السبب، لم نغفل ما صدر عن هذه الدول من وثائق في هذا الإطار. وقد تهيأ لنا ذلك بفضل ما توفقنا في الحصول عليه من وثائق عديدة ومتنوعة تضمنتها نشرات خاصة أو ذيلت بها أبحاث ودراسات مغربية وأجنبية. فقد أمكننا بهذه الطريقة، تبيّن صور كثيرة من المواقف

الرسمية والشعبية. وقد استفدنا، بشكل خاص، من الوثائق التي تخللت أو ألحقت بأبحاث ودراسات كل من محمد المنصور[٣٧] وعبد الهادي التازي[٣٨] وعبد الرحيم بن حادة[٣٩] وعثمان المنصوري[٤٠].

يضاف إلى هذا ما أتاحته لنا وثائق القنصلية الأمريكية بطنجة ونظيرتها بطرابلس من معلومات، وما زودتنا به دفاتر المحاكم الشرعية بمصر من توضيحات بخصوص هوية عدد من الشخصيات المغربية.

ـ وثائق القنصلية الأمريكية بطنجة

تضم مكتبة المفوضية الأمريكية بطنجة، مجموعة وثائقية هامة تحت رقم T.61. تتألف هذه الوثائق من المراسلات التي كانت تتبادلها القنصلية الأمريكية بالمغرب مع الجهات الرسمية بواشنطن خلال الفترة الممتدة من ١٧٩٧ إلى ١٩٠٦، وهي موزعة على مجموعة من المجلدات. واطلعنا، بشكل خاص، على المجلد الرقم ١ الذي يغطي المرحلة التي تصادفت مع الحملة.

ـ وثائق القنصلية الأمريكية بطرابلس

قام «مركز جهاد الليبيين بطرابلس»، بنشر العينة الأولى من المراسلات التي كانت تتبادلها القنصلية الأمريكية بطرابلس مع نظيراتها بتونس والجزائر ووزارة الخارجية الأمريكية بواشنطن. وتشتمل هذه العينة على ستة وثمانين رسالة، تغطي الفترة الممتدة من تشرين الثاني/ نوفمبر ١٧٩٦ إلى تشرين الثاني/ نوفمبر ١٧٩٩، وصدرت تحت عنوان: «الوثائق الأمريكية ـ المجموعة الأولى»، ترجمة محمد رمضان المصري، رقم ١٦، طرابلس، ١٩٩٦. وقد أفادتنا هذه الوثائق، في الإلمام بالموقف

---

(٣٧) El Mansour, «Political and Social Development under the Reign of Moulay Solayman (1792-1822),» tome 2.

(٣٨) التازي، **التاريخ الدبلوماسي للمغرب**، مج ٩.

(٣٩) بن حادة، «وثائق مغربية حول علاقة مولاي سليمان بالدولة العثمانية».

(٤٠) عثمان المنصوري، «العلاقات المغربية ـ البرتغالية (١٧٩٠ ـ ١٨٤٤)،» ٣ ج (أطروحة دكتوراه دولة، غير منشورة، كلية الآداب، شعبة التاريخ، عين الشق، ٢٠٠١ ـ ٢٠٠٢)، ج ٢ ـ ٣. واعتمدنا، بشكل خاص، على الملحق الوثائقي الذي ضمنه مقالة له تحت عنوان: المنصوري، «صدى الحملة النابليونية في المغرب».

الذي اتخذته طرابلس، باعتبارها البلد الإسلامي الأقرب إلى مصر، من الحملة الفرنسية التي استهدفتها، ومقارنة ذلك بموقف المغرب.

ـ دفاتر المحاكم الشرعية بالقاهرة

تضم دار الكتب والوثائق بالقاهرة، وثائق من نوع خاص تغطي مختلف القضايا التي كانت تعرض على المحاكم الشرعية بمصر. وهي مصنفة في دفاتر، ومرتبة ترتيبا زمنيا. وقد اعتنى كل من عبد الرحمن عبد الرحيم وأندري ريمون، منذ فترة مبكرة، بدراسة أوضاع الجالية المغربية بهذا البلد من خلال هذه الوثائق. ورغم المعلومات الهامة والمتنوعة التي زوّدتنا بها أعمال هذين الباحثين، بقيت عدة شخصيات مغربية ممن عاصرت الحملة واختلطت بها، إما في إطار المقاومة أو من خلال المهام الإدارية التي أنيطت بها قبل الحملة أو خلالها، دون إشارة تذكر فيما يخص هويتها الوطنية والمهنية. لذلك، قمنا بتحريات شخصية في دفاتر هذه المحاكم بالقاهرة، وتمكنا، بفضل ذلك، من تحديد الانتماء الوطني والوضع الاجتماعي والإداري لعدد من هذه الشخصيات.

ـ النشرات والملحقات الوثائقية

أفادتنا عدد من الوثائق التي تضمنتها بعض المؤلفات والمقالات المتنوعة، في تبين ردود فعل عدد من قادة وشعوب البلدان الإسلامية وسمحت لنا بمقارنتها بموقف المغرب. فقد اعتنى عدد من الدارسين والباحثين بنشر مجموعات هامة من المراسلات التي كان يبعث بها السلطان العثماني، سليم الثالث أيام الحلمة إلى عدد من قادة البلدان الإسلامية في المشرق والمغرب. كما اعتنى آخرون بنشر المراسلات التي كان يتبادلها أمير مكة، الشريف غالب بن ساعد، مع إدارة الاحتلال الفرنسية بمصر، أو تلك التي كان يتبادلها قادة البلدان المغاربية مع فرنسا أيام الحملة[٤١]. وقد مكنتنا هذه الوثائق من الكشف عن مواقف

(٤١) اطلعنا بشكل خاص، على: محمد زكريا عناني، «مراسلات متبادلة بين الشريف غالب بن مساعد وبين نابليون ورجال حملته على الشرق،» **مجلة الدارة** (الرياض)، العدد ٣ (جمادى الثانية ١٤٠١ هـ ـ نيسان/ أبريل ١٩٨١م)، ص ٧٣ ـ ٩١، والعدد ٤ (رجب ـ رمضان ١٤٠٦هـ ـ نيسان/ أبريل ـ حزيران/ يونيو ١٩٨٦م)، ص ٥ ـ ٢٩؛ عبد الله عزباوي، «الحملة الفرنسية على =

هؤلاء القادة وشعوبهم من الحملة، وأتاحت لنا فرصة تحقيق عدد من الأحداث المتصلة بهذا الموضوع ومقارنة مواقف عدد من البلدان الإسلامية بموقف المغرب.

(٢) الأصول المصدرية

لا داعي إلى التذكير، أنه مهما بلغت جدية ومصداقية وغنى الوثائق الرسمية، فإنها لا تكفي وحدها لإنجاز بحث من هذا النوع. ذلك، أن ضرورات مختلفة تستدعي الاستعانة بما تخلف عن تلك الفترة من آثار مكتوبة؛ سواء كانت في شكل مؤلفات نثرية وقصائد شعرية وخطب منبرية، أو مقالات صحفية وغير ذلك مما يدخل في خانة المصادر المخطوطة والمطبوعة والشفوية.

وانسجاما مع طبيعة هذا الموضوع المركب ووعيا منا بأهمية هذه المدونات المصدرية في مراقبة ما احتفظت لنا به الوثائق الرسمية واستكمال وتوضيح ما غفلت عنه هذه الوثائق أو لم تتمكن من الإحاطة به، حرصنا على تنويع هذه المحصلة المصدرية. فإلى جانب المصادر الفرنسية، قمنا بتقصي أخبار هذا الحدث وما أثاره من ردود فعل داخل المغرب، من خلال ما حوته مصادر أخرى من روايات وأخبار.

وعلى الرغم من ندرة هذه المصادر وصعوبة الحصول عليها أحيانا، تمكنا من تحصيل مادة أولية هامة ساعدتنا على ملء الفراغات التي تخللت المدونات الفرنسية وتصحيح بعض الأخطاء التي وقعت فيها. فإذا كانت

= مصر في ضوء الوثائق التركية،» ص ٨٠ ـ ١١٧، وإسماعيل عبد الله، «علاقة الدولة العثمانية بمصر إبان الحملة الفرنسية،» ورقتان قدمتا إلى: **دراسات في الأدب والتاريخ التركي والمصري: أعمال ندوة نظمتها كلية الآداب بعين شمس، القاهرة، أيام ١ ـ ٤ مارس ١٩٨٥**، إشراف أحمد فؤاد متولي (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٨٩)؛ **ذكريات الشوكاني: رسائل المؤرخ اليمني محمد بن علي الشوكاني**، جمع وتحقيق صلاح رمضان محمود (بيروت: دار العودة، ١٩٨٣)؛ عبد العزيز سامح التر، **الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية**، ترجمة محمود علي عامر (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨٩)؛ Eugène Plantet: *Correspondance des beys de Tunis et des consuls de France avec la cour, 1577-1830*, 3 tomes (Paris: F. Alcan, 1893-1899), et *Correspondance des Deys d'Alger avec la couronne de France*, 2 tomes (Paris: F. Alcan, 1889), et Joseph Kabrda, *Quelques firmans concernant les relations francoturques lors de l'expédition de Bonaparte en ègypte, 1798-1799*, Cahiers de la Société asiatique; 10 (Paris: Impr. nationale, 1947).

المصادر المغربية، على قلّتها، قد أفادتنا في تسليط الضوء على جوانب عدة من موقف المغرب من هذه الحملة، فإن ما خطته أقلام بعض المؤرخين الجزائريين والتونسيين ساعدنا كثيرا في التحقق من هوية مولاي محمد المغربي باعتباره أحد رجالات المغرب الذين اشتهروا بجهادهم بمصر، ومكننا من إلقاء مزيد من الضوء على عدد من القضايا المرتبطة بحركته.

أما ما أودعه الشيخ عبد الرحمن الجبرتي[٤٢] والمؤرخ اليمني لطف الله جحاف[٤٣]، في حولياتهما، فقد أفادنا كثيرا في الإلمام بعدد من جوانب المساهمة الجهادية التي صدرت عن المغاربة بمصر والشام. هذا، دون أن ننسى المعلومات القيمة التي زودنا بها التقرير السري الذي أعده المؤرخ الشامي، المعلم نقولا الترك، بخصوص هذه الحملة[٤٤]،

---

(٤٢) اعتمدنا على مصنفات الجبرتي الثلاثة. فبالإضافة إلى **عجائب الآثار في التراجم والأخبار ومظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس**، شكل مصنفه **تاريخ مدة الفرنسيين بمصر** أحد مصادرنا الرئيسة في تقصّي أخبار الحملة بشكل عام وموقف المغاربة منها بشكل خاص. ونظراً للاختلافات التي طالت بعض روايات الجبرتي عبر هذه المصنفات الثلاثة بسبب ظروف تأليفهم، حظي لدينا مصنفه **تاريخ مدة الفرنسيين بمصر** الذي يبدو أنه شكل روايته الأولى لأحداث الحملة، بالمقام الأول وبما أن هذا المصدر لا يغطي سوى السبعة أشهر الأولى من عمر الحملة، اعتمدنا في ما يخص المدة المتبقية على كتابه **عجائب الآثار في التراجم والأخبار** الذي يبدو أنه أُلّف في ظروف نفسية وسياسية مواتية نسبياً. أما **مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس** الذي ألفه الجبرتي بطلب من الباشا العثماني يوسف ضيا بمناسبة دخوله القاهرة عقب خروج الفرنسيين منها، فلم نعتمد عليه إلا في ما يخص الأحداث والروايات التي لا تشكل موضوع خلاف بين المصادر المعتمدة في هذا القسم.

للإلمام أكثر بالفروقات النوعية الموجودة بين مصنفات الجبرتي التاريخية الثلاثة، انظر: **عبد الرحمن الجبرتي: دراسات وبحوث: أعمال الندوة التي نظمتها (الجمعية المصرية للدراسات التاريخية) من ١٦ ـ ٢٣ أبريل ١٩٧٤**، بإشراف أحمد عزت عبد الكريم (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦)، و Gilbert Delanoue, *Moralistes et politiques musulmans dans l'égypte du XIXème siècle: 1798-1882* (Le Caire: Institut français d'archéologie orientale, 1982).

(٤٣) أولى هذا المؤرخ اليمني الذي عاصر الحملة الفرنسية على مصر والشام وكتب عنها، أهمية خاصة لحركة المقاومة والجهاد التي انطلقت من الحجاز صوب إقليم الصعيد وتزعمها المجاهد المغربي الشيخ محمد الجيلاني السباعي، وأورد أخبارها مفصلة في كتاب له يحمل عنوان: **قرة العين بالرحلة إلى الحرمين**. وبما أن هذا المصنف الهام جداً يعتبر لحد الآن مفقوداً، اعتمدنا على ما جاء في مؤلف جامع له بعنوان: **درر نحور الحور العين بسيرة الإمام المنصور علي وأعلام دولته الميامين**، وذلك من خلال النصوص التي جمعها وحققها السيد مصطفى سالم، ونشرت تحت عنوان: **نصوص يمنية عن الحملة الفرنسية على مصر** (صنعاء: مركز الدراسات اليمنية، ١٩٨٩).

(٤٤) يأتي مؤلف الأديب والمؤرخ الشامي المعلم نقولا الترك من حيث التوثيق والمعاصرة =

والتقرير الرسمي الذي كتبه المؤرخ التركي، عزت حسن الداردنلي[٤٥]، حول الحملة التي قادها الوزير العثماني، ضيانامة، ضد الوجود الفرنسي بمصر، والتقارير المختلفة التي أنجزها العلماء الذين رافقوا الحملة، ونشرت في أجزاء ضمن كتاب جماعي، تحت عنوان **وصف مصر**[٤٦].

يضاف إلى هذا وذاك، المقالات والتقارير الصحفية التي كانت تنجزها صحيفتا **لا ديكاد إيجبسيان** و**لو كوريه دي ليجيبت** بمصر[٤٧] **لومونيتور** بفرنسا[٤٨].

= للأحداث، في الدرجة الثانية بعد مؤلفات الجبرتي الثلاثة. وتستمد رواية هذه الشخصية المسيحية قيمتها من المهمة التي كلفه بها الأمير بشير الثاني الشهابي حينما أوفده إلى مصر وكلفه بمراقبة أحوال الفرنسيين بها وإعداد تقرير مفصل عن ذلك. وهذا التقرير وما انضاف إليه من أحداث لاحقة، هو الذي تحول إلى مصدر تاريخي هام جداً وحقق ونشر أكثر من مرة تحت عناوين مختلفة اعتمدنا على التحقيق الذي يبدو أنه هو الأخير، انظر: نقولا الترك، **حملة بونابرت إلى الشرق**، دراسة وتحقيق أمل بشور (بيروت: جروس برس، ١٩٩٣).

(٤٥) رافق المؤرخ العثماني عزت حسن الداردنلي الصدر الأعظم العثماني يوسف ضيا باشا خلال حملته ضد الفرنسيين بمصر أواسط شهر نيسان/ أبريل سنة ١٨٠٠. وعن هذه الحملة التي باءت بالفشل وما سبقها ولحقها من أحداث وتطورات، كتب تقريره الرسمي وضمنه مخطوطاً له تحت عنوان: **ضيانامة**. واعتمدنا على الترجمة التي قام بها الباحث المصري جمال سعيد عبد الغني لهذا المخطوط. انظر: عزت حسن أفندي الداردنلي، **الحملة الفرنسية على مصر في ضوء مخطوط عثماني: مخطوطة «ضيانامة»**، دراسة وترجمة جمال سعيد عبد الغني، تاريخ المصريين؛ ١٣٤ (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩).

(٤٦) صدرت هذه التقارير العلمية الهامة بلغتها الأصلية تحت عنوان: *La Description d'Egypte*. واعتمدنا على: **موسوعة وصف مصر**، ترجمة زهير الشايب، ٩ ج (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢). وأفادتنا هذه السلسلة العلمية في إلقاء الضوء على جوانب العلاقات التي كانت تربط بين المغرب ومصر قبل الحملة خاصة منها العلاقات التجارية.

(٤٧) أصدرت إدارة الاحتلال الفرنسية بمصر صحيفتين باللغة الفرنسية، هما: *La Décade égyptienne* و*Le Courrier de l'Egypte*. واعتمدنا على الترجمة الذي أنجزها صلاح الدين البستاني لهذين الصحيفتين، انظر: **صحف بونابرت في مصر، ١٧٩٨ ـ ١٨٠١**، ترجمة صلاح الدين البستاني، ١٠ مج (القاهرة: دار العرب للبستاني، ١٩٨١). وقد أفادتنا هذه المقالات الصحفية، في إلقاء الضوء على عديد من القضايا والأحداث المتصلة بالجالية المغربية بمصر. كما مكنتنا من تتبع أخبار ركاب الحج المغربية خلال مرورها بمصر والشام.

(٤٨) اهتمت جريدة **لومونيتور** (*Le Moniteur*) التي كانت تصدر بباريس وتعتبر الجريدة شبه الرسمية لحكومة الثورة، برصد وتتبع أحداث وتطورات الحملة داخل مصر والشام وخارجهما وخاصة على صعيد العالم الإسلامي. وقد أفادنا هذا المصدر الصحفي في تبين وجهة نظر حكومة الإدارة في التطورات السياسية التي كان يشهدها المغرب، خاصة فيما يتصل بعلاقاته مع حليفتها إسبانيا.

شملت لائحة مصادرنا، بطبيعة الحال، أسماء ومؤلفات أخرى عربية وأجنبية لا يتسع المجال لذكرها جميعا. إلا أن الخاصية الأساسية التي تميزت بها هذه اللائحة المصدرية، هو جمعها بين خاصيتي التنوع والشمولية. فقد شملت هذه اللائحة مؤلفات صدرت بعدد من الدول المؤيدة والمعارضة لهذه الحملة، وتوزعت أشكالها ومضامينها بين الحوليات والمذكرات والتقارير الرسمية والسرية والقصائد الشعرية والزجلية والمقالات الصحفية والرواية الشفوية، واشترك في تأليفها وإخراجها كبار ضباط الحملة الفرنسية وبعض أطرها المدنيين ونخبة من رجالات المغرب وغيره من البلدان الإسلامية.

تهيأ لنا جمع هذه المادة المصدرية بفضل الزيارات المتكررة التي قمنا بها لعدد من الخزانات الوطنية والدولية. نخص بالذكر منها، الخزانتين العامة والملكية بالرباط، والخزانة الصبيحية بسلا، وخزانة الملك فيصل بن سعود بالدار البيضاء. أما على الصعيد الدولي، فمكنتنا زياراتنا للمكتبة الوطنية بباريس، وسان جونيفييف والسوربون بنفس المدينة، من الاطلاع على عدد من الكتب المصدرية. أما زيارتنا للقاهرة، فكانت ذات فائدة محققة؛ حيث أتاحت لنا الاطلاع على مكتبة دار الكتب والوثائق، ومكتبة المعهد المصري العلمي الذي يضم كما هائلا من المصادر الفرنسية، ومكتبة المعهد الفرنسي للأركيولوجيا الشرقية، ومدرسة العائلة المقدسة، ومكتبتي جامعة القاهرة وجامعة عين شمس، من تحصيل مادة علمية متنوعة وقيمة.

وبفضل صفتي التنوع والشمولية، راقبت هذه المصادر بعضها البعض وتكاملت فيما بينها. وأتاحت لنا، إلى جانب ما تحصل لدينا من وثائق ومستندات، إعادة بناء أحداث ووقائع هذا الموضوع المتصل بموقف المغرب من الحملة الفرنسية على مصر والشام.

ـ الأبحاث والدراسات

إذا كان دور الأصول الوثائقية والمصدرية هو تمكين المؤرخ من إعادة بناء الواقعة التاريخية وتفسير الظواهر المرتبطة بها، فإن أهمية الدراسات والأبحاث المنجزة حول هذا الموضوع أو ذاك، تساعدنا على

توظيف واستثمار هذه الوقائع التاريخية المحققة وتمكننا من تفادي الهفوات والأخطاء التي وقع فيها من سبقونا في ميدان البحث العلمي. بهذه الطريقة، يحصل التراكم ويتحقق التقدم في مضمار الدراسات والأبحاث التاريخية. كما أن القيمة العلمية في أي بحث تاريخي كان، تتحدد، في بعض جوانبها القوية، بنوعية الدراسات والأبحاث التي انطلقت منها وتأسست عليها، إما على سبيل الاستشارة والاستفادة، أو على سبيل التعليق والمناقشة.

لهذه الاعتبارات، لم نأل جهدا في تتبع ما كتب حول هذا الموضوع أو تقاطع معه في أحد جوانبه. وركزنا في هذا الاتجاه، بشكل خاص، على الدراسات والأبحاث التي أنجزت داخل البلدان التي كانت لها علاقة مباشرة بموضوع الحملة الفرنسية على مصر والشام. وانطلقنا أولا مما أنجز داخل المغرب، باعتباره البلد الذي نسعى إلى تبين موقفه من هذا الحدث. وتمكنا، بفضل ذلك، من الاستفادة من عدد من الدراسات والأبحاث التي شكلت منطلق هذا البحث والباعث الأساسي على الاستمرار فيه. فكانت استفادتنا عظيمة مما خطته أقلام عدد من الدارسين المغاربة المثبتة أسماؤهم في نهاية هذه الأطروحة. أما الأبحاث الجامعية الموسعة التي أنجزها باحثون مغاربة داخل المغرب وخارجه، فشكلت بالنسبة لنا مصدر استلهام منهجي، كما وفر لنا بعضها مادة وثائقية ثمينة من خلال ما حوته من ملاحق. وأخص بالذكر منها هنا، أطروحة محمد المنصور حول التطورات السياسية والاجتماعية التي عاشها المغرب على عهد مولاي سليمان، والتي لم تخل من إشارات قوية لأصداء هذه الحملة داخل هذا البلد. أما أطروحة عبد الحفيظ حمان التي تقاطعت مع أطروحتنا في أكثر من جانب، فكانت بالنسبة لنا ذات فائدة محققة. هذا، دون أن ننسى ما اشتملت عليه أطاريح أخرى من معلومات قيمة؛ مثل تلك التي أنجزها محمد بن هاشم حول علاقات المغرب الخارجية على عهد مولاي سليمان، وعبد الرحيم بن حادة حول العلاقات التي جمعت بين المغرب والباب العالي، وعبد المجيد قدوري حول العلاقات التي جمعت بين المغرب وأوروبا في الفترة الحديثة.

وبنفس الاهتمام تابعنا، في حدود المستطاع، عددا من الدراسات

والأبحاث التي صدرت أو أنجزت في فرنسا وإنجلترا ومصر وتونس وليبيا وبعض دول الخليج وشبه الجزيرة العربية وسوريا ولبنان، وأحيانا بعض الدول النائية، مثل اليابان. ولم تفتنا الاستفادة مما تتضمنه بعض المواقع الإلكترونية حول الحملة الفرنسية وما يتصل بها من أحداث وشخصيات. وتجمع لدينا، بفضل هذا الجهد، رصيد علمي على شكل دراسات وبحوث موسعة ومقالات تقاطعت في جانب أو أكثر مع بحثنا. وتمكنا، بفضل ذلك، من تحصيل فهم أفضل لعدد من قضايا وإشكالات هذا البحث على المستويين المنهجي والمعرفي.

ورغم هذا الغنى والتنوع الذي تميزت به هذه العدة الوثائقية والمصدرية والمرجعية التي اعتمدنا عليها في إنجاز هذه الأطروحة، واجهتنا عدة صعوبات ومشاكل تجاوزنا البعض منها واستعصى علينا البعض الآخر. ويأتي على رأس هذه الصعوبات والمشاكل، ندرة المادة الوثائقية والمصدرية داخل المغرب وصعوبة الحصول على ما يوجد منها خارجه، وعدم توافر أية دراسة أو بحث مفردين لهذا الموضوع بعينه، وقلة ما اتصل به في أحد الجوانب أو تقاطع معه.

أما فيما يخص الصعوبات والمشاكل المتصلة بالنقطة الأولى، فمردها، كما علمنا ذلك، إلى عدم توفر أرشيف وطني يتولى حفظ الأوراق الرسمية المتصلة بهذه الفترة، خاصة ما يتصل منها بالعلاقات الخارجية. يضاف إلى هذا، عدم استفادة هذه الفترة من الجهود المتصلة بنشر أو استنساخ ما توافر من هذه الأوراق بالأرشيفات الأجنبية. لذلك، كان لزاما علينا مطاردة وتصيد ما تخلف من هذا الأرشيف الوطني المفترض، بين ثنايا الأرشيفات الأجنبية. وتحقق لنا ذلك بفضل الزيارة الميدانية التي قمنا بها إلى دور حفظ الأرشيف بكل من فرنسا ومصر. وتمكنا من الإلمام ببعض ما اشتملت عليه أرشيفات البلدان الأخرى، مثل الدولة العثمانية وإنجلترا والبرتغال وغيرها من البلدان التي كانت لها صلة قوية بهذه الحملة، من خلال اطلاعنا على عدد من الوثائق التي تخللت بعض المصادر والدراسات المنشورة، أو ذيلت بها جملة من الأبحاث الجامعية، أو وردت على شكل منشورات وثائقية مستقلة. بهذه الطريقة المزدوجة، تمكنا من تحقيق تغطية وثائقية لأغلب جوانب هذا

الموضوع، وصار بإمكاننا تقديم إجابات لعدد من الأسئلة التي تضمنتها إشكالية هذا البحث.

لكن، لا يمنعنا هذا من الاعتراف بما سببته لنا ندرة المصادر المغربية المتصلة بهذا الموضوع من معاناة. فخلافا لما كنا نتوقعه في بداية هذا البحث، فوجئنا بقلة الكتابات التي تفاعل أصحابها مع هذا الحدث. فعلى الرغم من علم الجميع بما كان يجري في مصر والشام من غزو واحتلال وما نجم عن ذلك من أحداث وتطورات على المستويين الدولي والوطني، لم يتطوع للكتابة عن ذلك سوى عدد قليل جدا من الشخصيات العلمية المغربية. وفي الوقت الذي كنا ننتظر فيه تغطية واسعة لهذا الحدث وما أثاره من أصداء داخل مختلف الأوساط المغربية، لم نظفر إلا بنصوص نثرية وشعرية تكاد تعد على رؤوس الأصابع. وعوض أن يشكل هذا الحدث موضوعا خصبا لكبار المؤرخين المغاربة ممن اشتهروا بانغماسهم في الشأن الوطني والدولي وربطتهم صلات وثيقة بالمشرق، من أمثال أبي القاسم الزياني والضعيف الرباطي ومحمد أكنسوس وأحمد الناصري، فوجئنا بغياب شبه تام لأصداء هذه الحملة داخل مؤلفاتهم.

ورغم ذلك، تمكنا من تجاوز هذا المشكل جزئيا من خلال ما ورد في بطون بعض المصنفات الشعرية والصوفية أو التراجمية من إشارات إلى هذا الموضوع، ومكنتنا استعانتنا بلائحة مطولة ومتنوعة من المصادر الفرنسية والإنجليزية والعثمانية والمغاربية والمشرقية، من تعويض بعض وجوه النقص هذه، خاصة ما يتصل منها بأحداث ووقائع القسمين المتعلقين بالمساهمة الجهادية التي صدرت عن المغاربة داخل مصر والشام.

يضاف إلى هذا وذاك، صعوبة أخرى تمثلت في غياب أية دراسة أو بحث مفردين خصيصا لهذا الموضوع. صحيح أن موقف المغرب من هذه الحملة كان حاضرا بقوة في عدد من الدراسات والأبحاث التي أفادتنا كثيرا في إنجاز عدد من محاور هذا البحث. لكن، عدم وجود دراسة أو بحث مفردين لهذا الموضوع بالذات، جعلنا ننطلق تقريبا من نقطة الصفر في موضوع انعدم فيه بشكل ملحوظ أي تراكم معرفي أو منهجي.

لهذا، لا غرابة إذا كان بحثنا في هذا الموضوع، قد انصب على جمع وتحقيق أحداثه ووقائعه قبل أن يتجه إلى مناقشة إشكالاته الفكرية والمنهجية، إيمانا منا بأن المهمة الاستعجالية في بحث مثل هذا، تقتضي أولا تقديم صورة واضحة وواقعية للكيفية التي تفاعلت بها مع هذا الحدث أهم مكونات الدولة والمجتمع المغربيين؛ سواء من كان يقيم منها بالمغرب، أو تلك التي كانت، لدواعي خاصة، تتحرك أو تقطن خارجه، من منطلق كونه أول مشروع استعماري من نوعه داخل العالم الإسلامي. ذلك، أن التقاليد الأكاديمية في الجامعة المغربية، دأبت، لأسباب مختلفة، على تركيز مواضيع البحث العلمي فيما يخص علاقات المغرب الخارجية، على الدول الأوروبية وخصوصا منها تلك التي كان لها دور قوي في التأثير على أوضاعه الداخلية والسير به نحو مرحلة الاستعمار. أما العلاقات التي ربطت بين هذا البلد ومحيطه الإسلامي، فلم تحظ، إلى عهد قريب، بالاهتمام الذي تستحقه.

انطلاقا من هذه الاعتبارات، تحملنا، منذ البداية، مشاق الاشتغال في هذا الحقل الجديد نسبيا، ووضعنا أمام أعيننا كهدف أولي لفت الانتباه إلى أهميته في استجماع العناصر المكونة لصورة المغرب على الصعيد الإسلامي. وكانت أولى خطواتنا في هذا الاتجاه، المساهمة في تأسيس «مركز الدراسات والأبحاث في العلاقات المغربية والمشرقية» بكلية الآداب ببني ملال، وتنظيم عدة ندوات في هذا المجال. ثم تجسد هذا التوجه أكثر بإنجاز هذا العمل الذي نؤكد من خلاله اقتناعنا بأهمية العلاقات الخاصة التي ربطت، على مدى قرون طويلة، بين المغرب وبقية بلدان العالم الإسلامي. ورغم ذلك، نعتبر أن هذا البحث هو مجرد خطوة متواضعة في مضمار مشروع علمي واسع وطموح نشترك فيه مع عدد من الباحثين من داخل المغرب وخارجه.

إضافة إلى هذه الرصيد البيبليوغرافي، استعنا ببعض الزيارات الميدانية في مصر والمغرب بقصد تحقيق وتوثيق بعض الأحداث المرتبطة بموضوع هذه الأطروحة. وفي هذا الإطار، قمنا بزيارة استكشافية لعدد من الأحياء التي كان يقطن بها المغاربة في مصر، وأخذنا صورا للبعض منها. أما في المغرب، فقمنا بزيارة ميدانية لأحد

مداشر قبيلة بني سريف للتحقق من هوية محمد بن الأحرش الذي قاد حركة مقاومة كبرى ضد الاحتلال الفرنسي لمصر، واشتهر هناك باسم «مولاي محمد المغربي».

شكل اشتغالنا بهذه الأطروحة، تجربة خاصة وغنية بالمعنى المعرفي والمنهجي والعلمي. فمن الناحية المعرفية، تمكنا بفضلها من اكتشاف مجاهل موضوع كنا لا نعلم عنه سوى القليل. أما من الناحية المنهجية، فقد أفادتنا في التمرس أكثر على قواعد البحث العلمي الموسع، وجمع شتات بحث توزعت مادته عبر أكثر من دولة وتقاطعت حول قضاياه وإشكالاته كل مكونات الدولة والمجتمع. وفيما يتصل بالنواحي العلمية، قادتنا هذه التجربة البحثية إلى الاحتكاك بثلة منتخبة من ذوي القدم الراسخة في مضمار الدراسة والبحث من مختلف الأجيال والبلدان؛ أفادونا جميعا بنصائحهم وتوجيهاتهم، ولم يبخل علينا بعضهم بما توافر لديه من وثائق وأبحاث. فإليهم جميعا أتقدم بجزيل الشكر وجميل العرفان.

القسم الأول

موقف السلطات المغربية العليا من الحملة:
إشكالية التوفيق بين متطلبات الأمن «الوطني»
والاستجابة لنداءات الجهاد العثمانية



مقدمة

ارتبط المغرب، منذ قرون طويلة، بعلاقات قوية مع غيره من البلدان الإسلامية، وخاصة منها بلدان المشرق التي شكلت بالنسبة له امتدادا طبيعيا ومجالا امتزجت فيه هويتهما الحضارية المشتركة. وقد ترتب على هذه العلاقات المتشعبة والمتداخلة، ارتباط روحي قوي وإحساس مشترك عبّر عن نفسه بوضوح خلال الأزمات والخطوب التي كانت تنزل بين الحين والآخر بساحة هذا الطرف أو ذاك.

تجلى ذلك، بوضوح، عندما تعرض الشام للغزو الصليبي وأصبحت الدولة العثمانية، خلال القرون المتأخرة، محط أطماع القوى المسيحية الأوروبية. عبر هذه اللحظات الحرجة من عمر العالم الإسلامي ككل والمشرق منه على وجه الخصوص، عبّر المغرب عن إدراك قوي لما يمليه عليه انتماؤه الديني من واجب التعاون والتضامن مع البلدان الإسلامية المستهدفة.

فقد ذكر ابن خلدون في **مقدمته**، أنه بينما كان المسلمون يستعدون لمنازلة الفرنجة في بلاد الشام، «أوفد صلاح الدين [الأيوبي] إلى أبي يعقوب المنصور سلطان المغرب لعهده من الموحدين، رسوله عبد الكريم بن منقذ [الشيرزي] (. . .) طالبا منه مدد الأساطيل لتحول في البحرين بين أساطيل الأجانب وبين مرامهم من أمداد النصرانية بالشام»[١]. ثم أضاف، أن يعقوب المنصور لم يجب صلاح الدين لحاجته لسبب ذكره[٢] لكن أحمد بن خالد الناصري الذي ردد الرواية نفسها، استدرك قائلا:

---

(١) أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، **المقدمة**، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة؛ راجعه سهيل زكار (بيروت: دار الفكر، ١٩٨١)، ص ٣١٦.

(٢) المصدر نفسه.

«ويقال إنه جهز له، بعد ذلك، مائة وثمانين أسطولا، ومنع النصارى من سواحل الشام. والله أعلم»[٣]. وقد أكد حصول هذه الاستجابة، محقق **الاستقصا**، اعتمادا على نسخة من **كتاب العبر** لابن خلدون مطبوعة، على حد قوله، بالجزائر[٤].

أما عندما بدأ الضعف يتسرب إلى جسم الدولة العثمانية خلال القرن الثامن عشر والقوى المسيحية تلحق بها الهزيمة تلو الأخرى وتستولي على أراضيها، فكان المغرب في مقدمة القوى الإسلامية التي تضامنت بقوة مع «دولة الإسلام الكبرى»؛ حيث زوّدها بالسلاح والمال، وحرر العديد من أسراها. وأوضح ما تجلى ذلك، على عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله الذي ربطته صلات قوية بالسلطان العثماني عبد الحميد الأول[٥].

من هذا المنطلق نعتقد أن المغرب كان معنيا ضرورة بالعدوان الفرنسي الذي استهدف مصر والشام خلال سنتي ١٧٩٨ ـ ١٧٩٩ فقد حل هذا العدوان ببلدين إسلاميين كانت ـ ولا تزال ـ تربطهما بالمغرب علاقات روحية وثقافية قوية، ويقعان من الناحية الإسمية تحت سيادة الدولة العثمانية التي كانت ترتبط بدورها بعلاقات تضامن ومساندة قوية بهذا البلد، إضافة إلى كونه استهدف، لأول مرة في التاريخ الحديث،

---

(٣) أحمد بن خالد الناصري، **كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق وتعليق أحمد الناصري؛ أشرف على النشر محمد حجي، إبراهيم بوطالب وأحمد التوفيق، ٩ مج (الرباط: منشورات وزارة الثقافة، ٢٠٠٠)، مج ٣، ص ١٤٣ ـ ١٤٥.

(٤) المصدر نفسه. تجدر الإشارة إلى أن موضوع هذه المشاركة، يشكل أحد المسائل الخلافية الكبرى بين عدد من الدارسين والباحثين في العلاقات بين المغرب والمشرق خلال هاته الفترة؛ إذ في الوقت الذي نوّه بها البعض وحاول من خلالها تأكيد أطروحة التضامن في مشرق العالم الإسلامي ومغربه في لحظة حرجة مثل هاته، أنكرها البعض الآخر. انظر على سبيل المثال: عبد الهادي التازي، **التاريخ الدبلوماسي للمغرب**، ١٠ مج (المحمدية: مطبعة فضالة، ١٩٨٨)، مج ٦، ص ٣١٤ ـ ٣١٥؛ عبد الحميد زغلول، «العلاقة بين صلاح الدين الأيوبي ويعقوب المنصور الموحدي،» **مجلة كلية الآداب** (جامعة الإسكندرية) (١٩٥٣)، وعبد المجيد بهيني، «المغاربة والجهاد البحري ضد الصليبيين،» ورقة قدّمت إلى: **الجهاد البحري في التاريخ العربي الإسلامي: [أعمال] الندوة الدولية المنعقدة في سلا ٣٠ ـ ٣١ مايو/ ١ ـ ٢ يونيو ١٩٩٧**، نظّمتها جمعية أبي رقراق واللجنة الدولية للتاريخ البحري (سلا: مطابع ميثاق المغرب، ١٩٩٩)، ص ٥٧ ـ ٧١.

(٥) التازي، المصدر نفسه، مج ٦، ص ٢٥ ـ ٤١.

بلدين إسلاميين بمثل قوة ومناعة مصر والشام. لذلك، كان لا بد أن يخلف صدى ما لدى المغرب بحكم موقعه الجغرافي المحاذي لمصدر هذا العدوان.

لهذه الاعتبارات وغيرها، نفترض أن المغرب، من حيث هو قيادة سياسية مسؤولة، لا بد أن يكون قد اتخذ موقفا واضحا من الحملة الفرنسية التي نزلت بمصر والشام، ينسجم مع واجب التضامن والنصرة والتآزر الذي يدين به مبدئيا كل بلد إسلامي تجاه غيره من البلدان الإسلامية الأخرى. كما نفترض، من جهة أخرى، أنه مهما بلغ إخلاص المغرب لواجب التضامن الذي يفرضه عليه انتماؤه للأمة الإسلامية، كان ملزما بمراعاة مصالحه الوطنية ووضع الحقائق التي يمليها عليه ميزان القوى السائد آنذاك، ضمن حساباته السياسية.

لاختبار هذه الفرضيات والإجابة عن مختلف الأسئلة المتفرعة عنها، نقترح رصد وتتبع النشاط السياسي والدبلوماسي الذي ميز سلوك القيادة السياسية المغربية خلال السنوات الثلاث التي استغرقتها الحملة. وغني عن القول، إن اللحظة المناسبة لالتقاط تجليات هذا الموقف في أقوى صوره، يتمثل في تبين الكيفية التي تعاملت بها هذه القيادة مع مختلف القوى الدولية التي تورطت، من قريب أو بعيد، في هذه الأزمة التي ظهرت بمناسبة هذا العدوان. وفي مقدمة هذه القوى، الدولة العثمانية باعتبارها الجهة المسؤولة شرعا وقانونا عن حماية مصر والشام من أي اعتداء خارجي، وإنجلترا باعتبارها الحليف الرئيس للدولة العثمانية بهذه المناسبة. ولاستكمال عناصر هذا الموقف، نرى من الضروري الكشف عن الموقف الذي وقفه المغرب من فرنسا باعتبارها صاحبة هذا المشروع الاستعماري، وحليفتها إسبانيا التي ربطتها علاقات خاصة بالمغرب ولعبت غير مرة دور الوسيط بينه وبين فرنسا بمناسبة هذه الأزمة.



الفصل الأول

موقف مولاي سليمان من نداءات الجهاد العثمانية والمناورات الإنجليزية

أتاح لنا اطلاعنا على الأرشيف الفرنسي وما يتصل به من مصادر مختلفة، فرصة الإلمام، بطريق غير مباشر، على عدد من جوانب العلاقة التي ربطت بين المغرب والباب العالي وحليفته إنجلترا خلال السنوات الثلاث التي استغرقتها الحملة الفرنسية على مصر. أما الدراسات والأبحاث التي أنجزت حديثا حول هذا الموضوع، فأمدتنا بمعلومات مهمة مكّنتنا من الاقتراب أكثر من واقع هذه العلاقات.

- فكيف تعاملت القيادة السياسية بالمغرب مع نداءات الجهاد التي كان السلطان العثماني، سليم الثالث، يوجهها إلى مولاي سليمان يستصرخه فيها ضد هذا العدوان العسكري؟ ثم كيف واجهت هذه القيادة ضغوطات إنجلترا باعتبارها الحليف الأوروبي الأقوى للدولة العثمانية؟

للإجابة عن هذه الأسئلة ومناقشة ما يتصل بها من قضايا وإشكالات، نخصص المبحثين التاليين. أما **المبحث الأول**، فسنعرض فيه للكيفية التي تعامل بها مولاي سليمان مع نداءات الجهاد التي كانت تأتيه عبر موفدي سليم الثالث، داعية إياه إعلان الحرب ضد فرنسا والإسهام المباشر في عملية تحرير مصر من الاحتلال الفرنسي. أما **المبحث الثاني**، فسنلقي، من خلاله، الضوء على مختلف المحاولات التي قامت بها إنجلترا، باعتبارها الحليف الرئيس للدولة العثمانية، تجاه المغرب لإرغامه على الانخراط في جبهة التحالف التي كانت تقودها ضد فرنسا لإجلائها عن

مصر والشام والحيلولة دون بلوغها الأهداف والمرامي التي كانت تسعى إلى تحقيقها من خلال حملتها على هذين البلدين.

أولاً: نداءات الجهاد العثمانية

تميزت العلاقة التي جمعت بين المغرب والدولة العثمانية، خلال المراحل الأولى التي أعقبت ضم هذه الأخيرة لبلدان المشرق العربي، بالمنافسة والصراع. بيد أن الأمر صار على خلاف ذلك خلال القرن الثامن عشر؛ حيث أصبحت هذه العلاقة تنحو منحى التعاون والتآزر من أجل إسناد بعضهما البعض في صراعهما المشترك ضد القوى الأوروبية الصاعدة التي باتت تتربص بهما الدوائر وتتحين الفرص لتنفيذ مشاريعها داخل العالم الإسلامي[1]. وبما أن الدولة العثمانية هي التي أضحت أكثر عرضة لهذه المشاريع الاستعمارية، برهن المغرب أكثر من مرة عن استعداده لدعمها ومساندتها بكل ما يلزم. وتجلى ذلك بوضوح، على عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله (١٧٥٧ ـ ١٧٩٠) الذي لم يتردد في مد يد العون والمساعدة لهذه الدولة الإسلامية؛ تارة على سبيل الدعم العسكري والمالي، وتارة أخرى من خلال إطلاق سراح أسراها الموجودين لدى بعض البلدان الأوروبية المعادية.

ولنا فيما خطّته يمين عدد من المؤرخين المغاربة أكثر من شهادة على متانة هذه العلاقات وكثافة الدعم الذي كان يقدمه المغرب لهذه الدولة. فقد خلّف لنا أبو القاسم الزياني في ترجمانته شهادة حية عن الحوار الذي دار بين السلطان العثماني، عبد الحميد الأول، وأهل دولته وهما يستعدان للدخول في حرب طويلة ومكلفة ضد روسيا. فقد ذكر أنهم «لما حسبوا ما في بيت المال، فألفوا من المال ما يقوم بلوازم ثلاثة أعوام لا غير، فلما أخبروا به السلطان بكى واسترجع، وقال ما شاء الله. فقال له الوزير: يا مولانا من جاء على خاطرك أن نذكر لك مسألة

---

(١) للمزيد من التفصيل حول طبيعة العلاقات التي ربطت بين المغرب والباب العالي خلال المدة التي سبقت الحملة الفرنسية على مصر والشام، انظر: عبد الرحيم بن حادة، **المغرب والباب العالي: من منتصف القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر** (زغوان: مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، ١٩٩٨)، ص ١٥٩ ـ ٢٠١.

تشرف عبدك بسماعها، قال ما هي؟ قال نوجه إلي سلطان المغرب [سيدي محمد بن عبد الله] يسلفنا مالا فإنه لا يبخل به علينا وإنه لينفقه في سبيل البر خصوصا إذا ذكرنا له هذه الحرب، وتوجه له سفيرا من أطرافك بكتابك. فإن طابت نفسك بهذا، استشرنا صاحبه الباشدور [أبا القاسم الزياني] الذي أتى بالهدية، فإن وافقت توجه معه من تعين لذلك. فقال: صواب ما قلت وهذه من حسناتك»[٢]. ولما عاد أبو القاسم الزياني إلى المغرب، قص هذا الخبر على سيدي محمد بن عبد الله، «فاستحسن الجواب، وقال لا بد من إعانتهم على الجهاد، وأمر بعدد الستمائة ألف ريال وخمسين ألف ريال سبائك من الذهب جعلها في أربعة صناديق وختم عليها ووجهها لطاغية الإصبنيول يوجهها لطاغية الفرنسيس وهو يبلغها ليد السلطان عبد الحميد بالإصطنبول»[٣]. أما «مراده من توجيه المال على يد طواغيت الكفر، النكاية لهم والإرغام لأنوفهم رحمه الله»[٤].

يتضح من خلال هذه الشهادة، أن سيدي محمد بن عبد الله كان مشهورا لدى أهل دولة السلطان العثماني، عبد الحميد الأول، بجاهزيته لتقديم المساعدة المالية لدولتهم في وقت الشدة. ومما يؤيد هذا، مبادرة هذا السلطان إلى تلبية هذا الطلب فور توصله به «فجاء الجواب في ستين يوما»[٥]. أكثر من هذا، كان يرى هذا السلطان المغربي أن إرسال المال إلى الدولة العثمانية هو أولى من أن يبقى في المغرب. فقد جاء في حوار له مع سفيره، أبي القاسم الزياني، حول هذا الموضوع: «وذلك المال الذي وجهنا للسلطان العثماني، الذي هو بصدد الكفار وعساكره مقابلة لهم، أولى من صرفه بمغربنا وبقائه عندنا عرضة للتلف. فو الله لا يصرف بعدنا، إلا في المحرمات. نسأل الله أن لا يحرمنا من ثوابه كله»[٦]. واستمر في تزويد السلطان العثماني بما

(٢) أبو القاسم بن أحمد بن علي الزياني، **«الترجمانة الكبرى» في أخبار المعمور براً وبحراً**، حققه وعلّق عليه عبد الكريم الفيلالي (الرباط: دار النشر للمعرفة، ١٩٩١)، ص ١٢١.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٣١.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٣٢.

(٦) المصدر نفسه.

يلزم من المال والمعدات الحربية، «وكل ذلك، قصد به وجه الله»[٧].

وسواء أقصد سيدي محمد بن عبد الله بهذه المساعدات الهامة والسخية وجه الله، كما قال الزياني، أم اقتضتها ضرورات السياسة، فإنه أصبح من الثابت لدينا من خلال هذه الشهادة المصدرية المباشرة وغيرها مما يتعذر علينا إدراجه، أن المغرب كان حاضرا بقوة إلى جانب الدولة العثمانية في الحروب التي كانت تخوضها ضد روسيا في نهاية القرن الثامن عشر[٨].

إضافة إلى هذا، استفرغ سيدي محمد بن عبد الله جهدا كبيرا وأنفق أموالا طائلة من أجل تحرير أسرى المسلمين في مالطا ونابولي، وكانت غالبيتهم من رعايا الدولة العثمانية[٩].

وقبل أن ننظر في الكيفية التي سيتعامل بها ابنه وخلفه، مولاي سليمان، حينما أتته الرسائل والرسل تخبره بما حل بالديار المصرية والشامية من عدوان، طالبة منه أن يخف لمساعدتها في رد هذا العدوان والإدلاء بدلوه في مجاهدة المحتلين الفرنسيين، نلفت الانتباه إلى أن الدولة العثمانية لم تعلن الحرب ضد فرنسا فور نزول حملتها بمصر كما يمكن أن نتصور ذلك لأول وهلة، بل استغرق منها ذلك حوالى شهرين؛ لأن نبأ الإنزال الفرنسي بالإسكندرية، الذي تم في الفاتح من تموز/ يوليو، لم يصلها إلا في السابع عشر منه عبر شهادات شفهية، ثم تأكد بعد ذلك بمزيد من التفاصيل عبر رواية قبطان ميناء الإسكندرية ليمان ريس إثر تمكنه من الهرب والتحاقه بقبرص. أما تدمير الأسطول الفرنسي في معركة أبو قير في الفاتح من غشت (آب/ أغسطس) والذي سيشجع الدولة العثمانية على إعلان الحرب ضد فرنسا، فلم تصل أنباؤه إلى القسطنطينية إلا في الواحد والعشرين من هذا الشهر.

---

(٧) المصدر نفسه.

(٨) للمزيد من التفصيل حول هذه المساعدات العسكرية، انظر: بن حادة، المصدر نفسه، ص ١٩٥ ـ ٢٠١، وعزيز سامح التر، **الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية**، ترجمة محمود علي عامر (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨٩)، ص ٥٠٢ ـ ٥٠٣.

(٩) محمد بن عثمان المكناسي، «البدر السافر في افتكاك الأسارى من العدو الكافر،» تحقيق مليكة الزاهدي (دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب، شعبة التاريخ، الرباط، ١٩٩٥ ـ ١٩٩٦)، ج ١، ص ٥٧ ـ ٦٤، وج ٢، ص ١٦٣ ـ ١٦٨.

آنذاك، قرر الباب العالي إعلان الحرب ضد فرنسا؛ فنشر بيانه الحربي في التاسع من شهر شتنبر (أيلول/سبتمبر)، معللا ذلك على الشكل التالي: «(...) إن الهجوم الجائر والمباغت والأعمال الحربية من جانب فرنسا، يجب بموجب شرائع العدل والرحمة وعون الله سبحانه وتعالى، دفعها بالقوة. وعلى ثقة تامة من رحمة وعون الله سبحانه وتعالى، فقد اتخذنا ترتيبا على ذلك جميع التدابير لدفع الاعتداءات برا وبحرا. وتقرر لقهر وسحق الأعداء، أن من الواجب على كل مسلم الخروج للحرب ضد فرنسا»(١٠).

بعد هذا التاريخ فقط، بدأت الدولة العثمانية في توجيه بياناتها إلى مختلف الولايات التابعة لها وإلى عدد من البلدان الإسلامية، داعية إياها إعلان الحرب ضد فرنسا والانضمام إلى صفها. فراسلت لهذا الغرض والي عكا، أحمد باشا الجزار، وأمير مكة، ساعد بن مغالب، وإمامي اليمن ومسقط، وشاه أفغانستان، وداي الجزائر وباي تونس، وباشا طرابلس، وعددا من القادة والولاة.

في إطار هذه الأجواء التعبوية والترتيبات السياسية والعسكرية، وجه الباب العالي إلى المغرب الرسائل والرسل، داعيا إياه قطع علاقاته مع فرنسا وإعلان الحرب ضدها والإسهام المباشر في المجهود الحربي الذي كانت تخوضه مختلف الولايات العثمانية والدول المتحالفة، معها مثل إنجلترا وروسيا.

١ ـ الحيثيات والمضامين

وحتى نتمكن من الإلمام بالكيفية التي سيقابل بها مولاي سليمان دعوات السلطان العثماني روسيا وإنجلترا، نرى من المستحسن حصر وترتيب مختلف المحاولات التي بذلها الباب العالي في هذا الاتجاه، والإحاطة قدر الإمكان بالظروف والملابسات التي تمت فيها، ثم تحليل مضامين الرسائل التي تخللتها وشكلت موضوعا لها.

---

(١٠) هنري لورنس، **الحملة الفرنسية في مصر**، ترجمة بشير السباعي (القاهرة: دار سينا للنشر، ١٩٩٥)، ص ٢٣٧ ـ ٢٣٩.

يرجع تاريخ أول رسالة وجهها السلطان العثماني، سليم الثالث، إلى مولاي سليمان في هذا الشأن، إلى الثالث من ربيع الأول سنة ١٢١٣ (١٥ آب/أغسطس ١٧٩٨)، أي بعد مضي شهر ونصف على نزول الحملة الفرنسية بالبر المصري[١١]. وتتألف هذه الرسالة، من شقين: الأول إخباري، والثاني مطلبي.

أما **الشق الإخباري**، فأحيط من خلاله مولاي سليمان علما بما تعرضت له مصر من غزو واحتلال. وقد سيق خبر هذا الاحتلال بطريقة محكمة استهدف من خلالها سليم الثالث استجاشة العواطف الدينية لدى مولاي سليمان. تمثل ذلك في إفراغه الحملة من مضمونها الاستعماري المحض، وإدراجها ضمن الصورة التقليدية التي اشتهرت بها الحروب الصليبية داخل العالم الإسلامي. ولتحقيق هذا الغرض، تصدى سليم الثالث، أولا، لتفنيد ما زعمه نابليون في بياناته من أنه يحب الإسلام والمسلمين وأن هجومه على مصر إنما تم باتفاق مع الدولة العثمانية ورضى منها للقضاء على المماليك[١٢]. لذلك، وجب على مولاي سليمان، تقول رسالة السلطان العثماني: أن يعلم «أن طائفة الفرانسة» الذين «أنكروا وحدانية الله العزيز العلام ورسالات أنبيائه عليهم الصلاة والسلام ورفعوا قواعد جميع الأديان...»، هجموا على مصر «من غير اطلاعنا على أمورهم ولا إخبارهم إيانا من طرف جمهورهم بنقض العهد وفسخ المصالحة وإعلان الحرب والمكافحة»[١٣].

وحتى تؤدي هذه الرسالة مفعولها على أحسن وجه، زعم فيها سليم

---

(١١) Name-i Hümayun Defterleri no. 9, Başbakanlik Osmanli Arşivi, Istambul, Türkye, s 259-260.

(١٢) نهج نابليون منذ نزوله بالإسكندرية خطة دعائية استهدف من خلالها التقرب من المسلمين والتصور لهم بصورة المنقذ المخلص من تعديات القوى المسيحية، خاصة منها فرسان القديس يوحنا ومظالم المماليك ومن شابههم من حكام الولايات العثمانية. دشّن نابليون أول خطوة له في هذا الاتجاه، بإصدار بيانه الأول الذي نال شهرة وانتشاراً واسعين، ثم تلته بيانات أخرى في نفس المعنى. وأسفر هذا المجهود الدعائي المكثف عما أصبح يعرف بـ «سياسة نابليون الإسلامية». للتوسع أكثر في هذا الموضوع، انظر: عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ٣ ج (بيروت: دار الجيل، [د. ت.])، ج ١، و Georges Spillmann, *Napoléon et l'Islam* (Paris: Perrin, 1969).

(١٣) الجبرتي، المصدر نفسه.

الثالث أن هدف هذه الحملة لا ينحصر في مجرد الاستيلاء على مصر بل يطال «الأمة المحمدية كلها عربها وعجمها وشرقها وغربها»[١٤]. أما حجته في ذلك، فتتمثل فيما يمكن أن تكون قد انطوت عليه إحدى الرسائل الموجهة من حكومة الإدارة إلى نابليون من أوامر وتوجيهات بخصوص مشاريعه المستقبلية. تقول هذه الرسالة التي قيل إن أحد جواسيس الدولة العثمانية اطلع على نسخة منها: «بعد ظفرك للديار [كذا] المصرية تمشي للسفاين [كذا] إلى جدة والحرمين وتستولي عليها [كذا] وتستأصل أهاليها وتهدم الكعبة والمدينة ثم بيت المقدس. فهذه الثلاث، هي قلب الإسلام. وبهدمها تضعف قوتهم، ويقع الرعب في قلوبهم. وكلما استوليت على بلد من بلدانهم، تهدم مساجدهم وجوامعهم، وتقتل علمائهم [كذا] وعبادهم. فتملك حينئذ ديار الإسلام بالطول والعرض، ثم بالتدريج لا يبقى مسلم على وجه الأرض»[١٥].

يتضح من خلال هذه الرسالة، أن الدولة العثمانية التي كانت على علم كاف بطبيعة التحولات البنيوية التي طرأت آنذاك على أوروبا، وخاصة الجزء الغربي منها سيما منذ قيام الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩، ومدركة لحقيقة الصراع الدائر وقتها بين القوى الأوروبية وخاصة منه الصراع الإنجليزي الفرنسي في العالم الجديد وحول طريق الهند، آثرت أن تتوجه إلى مولاي سليمان ومعه كافة المغاربة بهذا الخطاب التقليدي، مصورة الحملة الفرنسية على مصر بمثابة حملة صليبية جديدة[١٦].

أما **الشق المطلبي** من هذه الرسالة، فتضمن دعوة صريحة إلى مولاي سليمان بأن يقوم ببعض العمليات الحربية ضد فرنسا؛ إذ «المراد من أخينا في الله بمقتضى غيرته الإسلامية ونخوته الهاشمية وسجيّته العربية وصلابته

---

(١٤) المصدر نفسه.

(١٥) المصدر نفسه.

(١٦) للمزيد من التفصيل حول الاستراتيجية الإعلامية التي اعتمدها الباب العالي في تعامله مع هذا الموضوع، انظر: محمد حواش، «الباب العالي والحملة الفرنسية على مصر والشام: قراءة في الخطاب السياسي والإعلامي،» ورقة قدّمت إلى: **العثمانيون والعالم المتوسطي: مقاربات جديدة: [أعمال الندوة التي عقدت برحاب كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ما بين ١٨ ـ ٢٠ أبريل ٢٠٠٢]**، [نظّمتها وحدة التكوين والبحث، المغرب والعالم الإسلامي ١٥٠٠ ـ ١٩٠٠]، تنسيق عبد الرحمن المودن وعبد الرحيم بن حادة (الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ٢٠٠٣).

في الشريعة المحمدية، أن يشمر عن ساعد الجد والاجتهاد إعانة لدين الله ولشريعة محمد خير العباد وليسعى السعي التام بما يستطيعه وما يورث ضعف هؤلاء اللئام وقوة أهل الإسلام بقطع طرقهم ودابرهم ونهب مهماتهم وأدواتهم وذخائرهم وأخذ سفاينهم المرسلات [كذا] من طولون لتقوية وإعانة الطائفة الخائنة الهاجمة على الديار المصرية، خصوصا السفاين الدائرة بينهم المتهيئات لأجل مراسلاتهم ومكاتبتهم، فترقبها وأخذها [كذا] بأي وجه كان يوجب تشتت بالهم وضعف حالهم»(١٧). ثم ختمت هذه الدعوة بإلحاح السلطان العثماني على ضرورة التآزر والتضامن حتى يكون «الجميع على قلب واحد بعضنا لبعض معاضد لا يتخلف منا أولوا [كذا] قوة وذوو مروءة وقوة ولنهجم من كل طرف»(١٨).

ورغم كل هذا، يمكن القول إن الهدف الرئيس لهذه الرسالة المبكرة نسبيا، ربما انحصر في إشعار مولاي سليمان بخطورة ما يحدث بمصر تمهيدا لما سيتبع من خطوات عملية في المواجهة الحربية التي كانت تعتزم الدولة العثمانية القيام بها ضد فرنسا وجيشها بالشرق. ذلك، أن الباب العالي لم يكن قد أعلن، إلى حدود ذلك التاريخ، بيانه الحربي ضد فرنسا، ولم يكن تحالفه مع روسيا وإنجلترا قد خرج بعد إلى حيز الوجود. ولهذا، تفادى السلطان العثماني دعوة مولاي سليمان صراحة إلى إعلان الحرب ضد فرنسا.

لا نعرف على وجه التحديد، متى وكيف وصلت هذه الرسالة إلى مولاي سليمان، ولا الكيفية التي استقبلت بها لدى الأوساط السياسية بالمغرب؛ لأن المصادر المغربية لم تذكر عنها شيئا، كما أن القنصل الفرنسي الذي كان يتابع عن كثب ما يفد على مولاي سليمان من سفراء ومبعوثين أجانب، لم يخلف في مراسلاته أية إشارة إلى هذه الرسالة.

لكن، إذا كانت هذه المحاولة الأولى قد بقيت غفلا من أية إشارة داخل المصادر المعلومة لدينا، فان محاولات أخرى نالت تغطية أكثر. نذكر من بينها، الوفد الذي وجهه داي الجزائر إلى مولاي سليمان. فقد

---

(١٧) رسالة سليم الثالث إلى مولاي سليمان المؤرخة في ١٥ آب/ أغسطس ١٧٩٨.

(١٨) المصدر نفسه.

ذكر الضعيف الرباطي، أنه: «في٢٢ رجب [١٢١٣] (٣٠ كانون الأول/ديسمبر ١٧٩٨) ورد بعض الخيل من عند باي معسكر ومعهم كتاب باي الجزائر [كذا]، يعلمون بأن العثماني وجه النجدة لأخذ مصر. فبدل لهم عياد[١٩] الخيل، وخرجوا لمكناس»[٢٠].

على الرغم من الغموض الذي يشوب هذه الرواية، يتعلق الأمر فعلا بمبعوث سلطاني كان قد جاء قبل هذا التاريخ إلى الجزائر يدعوها إلى إعلان الحرب ضد فرنسا. فقد ورد في رسالة موجهة إلى وكالة مرسيليا (Agence de Marseille) من أحد موظفيها بالجزائر، أنه في نفس اليوم الذي تم فيه وضع الرعايا الفرنسيين رهن الاعتقال بناء على أوامر هذا المبعوث ـ وهو يوم العشرين من كانون الأول/ديسمبر ١٧٩٨ ـ تم توجيه رسائل إلى كل من تونس وطرابلس والمغرب، داعية إياهم إعلان الحرب ضد فرنسا. ثم أضاف، إن مبعوث الداي إلى المغرب قد عاد إلى الجزائر بعد أن توصل بجواب مولاي سليمان[٢١].

يستفاد من هذه الرواية، أن مبعوث السلطان العثماني بقي في الجزائر، واكتفى بإيفاد من ينوب عنه في تبليغ رسالته إلى مولاي سليمان. كما يستفاد من هذه الرسالة أن كتاب داي الجزائر الذي كلف باي امعسكر ببعثه إلى مولاي سليمان، لم يكن في واقع الحال سوى رسالة السلطان العثماني. أما عن مضمونها، فتأكد لنا من خلال إحدى رسائل القنصل الفرنسي بالمغرب، أنطوان كَليط (Guillet)، أنه تمثل في

(١٩) هو القائد عياد عنيق أو عتيق الأودي. كان من الشخصيات المخزنية المقربة من سيدي محمد بن عبد الله ومولاي اليزيد ومولاي سليمان. انظر: محمد الضعيف، **تاريخ الضعيف: تاريخ الدولة السعيدة**، تحقيق وتعليق وتقديم أحمد العماري (الرباط: دار المأثورات، ١٩٨٦)، ص ١٩٩، ٢٣٠، ٢٥٠، ٢٦٧، ٢٨٤، ٣٠٣ و٣٠٩.

لما وجدت أن أغلب روايات الضعيف حول الحملة تتفق من حيث مضامينها وصياغتها في النسخة التي حققها أحمد العماري وتلك التي حققها محمد البوزيدي، اعتمدت في هذا البحث على النسخة التي حققها العماري، وحرصت على الإحالة إلى تحقيق البوزيدي كلما ظهر لي أن هناك اختلافا أو إضافة.

(٢٠) المصدر نفسه، ص ٣١٢.

(٢١) Charles Féraud, *Histoire des villes de la province de Constantine, La Calle, et documents pour servir à l'histoire des anciennes concessions françaises d'Afrique* (Alger: Impr. V. Aillaud et Cie, 1877), p. 547.

دعوة مولاي سليمان للانضمام إلى الباب العالي في حربه ضد فرنسا[٢٢]. وربما تضمنت، حسب تقديرات هذا القنصل، طلبا بإلقاء القبض على الرعايا الفرنسيين وإيداعهم السجن أسوة بما حل بنظرائهم في القسطنطينية ودمشق والجزائر.

وفي الوقت الذي كان فيه المبعوث العثماني يغادر الجزائر حاملا معه جواب مولاي سليمان، كان سليم الثالث يتهيأ لتوجيه رسالة أخرى إلى سلطان المغرب في التاسع عشر من شعبان من نفس السنة (٢٦ كانون الثاني/ يناير ١٧٩٩)[٢٣].

لا نعلم شيئا عن الكيفية التي وصلت بها هذه الرسالة الأخيرة إلى المغرب. بيد أننا نعلم أن تاريخ كتابتها تزامن مع الاستعدادات الحربية والترتيبات السياسية التي كانت الدولة العثمانية تقوم بها، والتي تمثلت في عقد حلف عسكري وسياسي مع كل من روسيا في٢٣ كانون الأول/ ديسمبر ١٧٩٨ وإنجلترا في ٥ كانون الثاني/ يناير ١٧٩٩، كما كانت الأوامر قد أرسلت إلى والي عكا، أحمد باشا الجزار، لقيادة الجهاد ضد جيش الشرق بتعاون مع البحرية الإنجليزية وكافة القوى الإسلامية، خاصة منها الإيالات المغاربية التي أرسلت إليها أوامر صارمة بضرورة إعلان الحرب ضد فرنسا. لذلك، تضمنت هذه الرسالة دعوة صريحة إلى مولاي سليمان بإعلان الحرب ضد فرنسا والانخراط جديا في المجهود الحربي الذي كانت «جبهة التحالف» تعتزم خوضه ضد هذه الدولة.

مرة أخرى، تقتضي استراتيجية الدولة العثمانية التوجه إلى المغرب من أجل دعمها في حربها ضد فرنسا. لكن، إذا كان سليم الثالث قد استعاد في رسالته هاته، نفس العناصر التي ضمنها رسالته السابقة، فقد

---

(٢٢) A.E.P., C.C.C.21, Tanger, Guillet à Talleyrand (Ministre français des relations extérieures pluviôse an 7- (30 janvier 1799), folio 201.

للإلمام بالتوقيت الجمهوري الذي اعتمدته فرنسا عقب ثورة ١٧٩٨، انظر: الملحق الرقم (١) من هذا الكتاب.

(٢٣) للاطلاع على النص الكامل لهذه الرسالة، انظر: عبد الهادي التازي، **التاريخ الدبلوماسي للمغرب**، ١٠ مج (المحمدية: مطبعة فضالة، ١٩٨٨)، مج ٩، ص ٤٥ ـ ٤٦، وعبد الرحيم بن حادة، «وثائق مغربية حول علاقة مولاي سليمان بالدولة العثمانية،» مجلة **هيسبيريس تمودا**، السنة ٢، العدد ٣٥ (١٩٩٧)، ص ١٥ ـ ١٧.

أرفقها، هذه المرة، بنداء جهاد واضح وصريح مقرون بتحذير قوي من مغبة الوقوع في شراك سياسة نابليون «الإسلامية».

جاء نداء الجهاد هذا في رسالة مطولة دبجت مقدمتها بإشارات إلى النسب الشريف لمولاي سليمان «تاج هامة بني الحسن والحسين، الجناب العالي، مغرس ثمرات المعالي، زهرة الشجرة العلوية، فرع الدوحة النبوية، المولى الهمام، والمطر ابن الغمام، الأمجد بن الأمجد، المولى سليمان ابن المولى محمد، لازال محط الركبان من الأطراف وريح المحامد متجر الأشراف»[٢٤].

وبعد تذكيره بالرسالة التي سبق أن بعثها إليه بشأن الغزو الفرنسي لمصر، استطرد في كشف عورات «الطائفة الفرنساوية» وتسفيه دعاويهم، خاصة منها علاقتهم بالإسلام وسائر الديانات الأخرى؛ إذ «هم الطائفة الخائنون، والشرذمة الملعونون، ذوو مكر وفساد، أهل بغي وعناد، لا يؤمنون بوحدانية الله، ولا يعترفون برسالة محمد بن عبد الله، منكرون ليوم البعث والنشور والويل والثبور (...) ومع هذا الاعتقاد الباطل، والرأي الهازل، إنهم كفرة خائنون وفجرة فائنون»[٢٥].

وبعد الإشادة بالنسب الشريف للمولى سليمان قصد تحسيسه بمسؤوليته الأدبية تجاه الإسلام والمسلمين، انتقلت رسالة السلطان العثماني إلى التركيز على مقاومة الدعاية القوية والممنهجة التي كان يروّجها آنذاك نابليون زاعما من خلالها أنه يحب الإسلام والمسلمين ويكره أعداءهم المسيحيين. ومعنى هذا، أن الحكومة العثمانية، وعلى رأسها سليم الثالث، كانت على وعي تام بالخطورة التي أخذت تكتسيها هذه الخطة الدعائية التي كان يباشرها نابليون آنذاك. لذلك، آثرت قبل التوجه مباشرة إلى مولاي سليمان بطلب إعلان الحرب ضد فرنسا، إقناعه أولا ببطلان تلك المزاعم.

وبما أن نابليون لم يكتف بالترويج الواسع لمزاعمه الإسلامية، بل ادعى أيضا أن وجوده بمصر إنما يحظى بالقبول والموافقة من الباب

---

(٢٤) بن حادة، المصدر نفسه.

(٢٥) المصدر نفسه.

العالي، وجد سليم الثالث نفسه في موقع يُحتّم عليه توضيح موقفه من هذه النقطة قبل أن ينتقل إلى صلب الموضوع. فيعلن لمولاي سليمان أن «الذي ارتكبوه من الغدر والخيانة بأهل الإسلام، ما ارتكبه أحد من عهد آدم (ﷺ)؛ حيث إنهم، قاتلهم الله، هجموا بغتة واقتحموا غفلة من غير اطلاعنا على أمورهم ولا إخبارهم إيانا من طرف جمهورهم، كما هو عادة الدول والسلاطين، على القاهرة وما حولها»[٢٦].

وبعد تبرئة السلطان العثماني نفسه مما يكون قد حصل بينه وبين فرنسا من اتفاق بخصوص هذا الاحتلال، انتقل إلى عرض الخسائر التي تكبدها المسلمون بمصر من جراء هذا الغزو، وما نجم عنه من مخاطر جمة تتجاوز الحصر والوصف؛ حيث «صار لأمة محمد من الغدر والضرر وتشتت الحال ونهب الأموال ما لا يوصف بقلم ولا يحصى برقم. فلوثوا تلك الأماكن المطهرة، وأظلموا تلك المراقد المنورة، وتحكموا في تلك الديار على علمائها الأعلام وصلحائها وأشرافها وسادتها الكرام، وملكوا على نسائها المخدرات وصبيانها المعصومين وفتياتها المعصومات»[٢٧].

يتضح جليا من هذه العبارات الطنانة، أن السلطان العثماني لم يكتف في رسالته هاته بحصر الخسائر الناجمة عن هذا الاحتلال، بل راهن على تحريك مشاعر الغيرة الإسلامية لدى مولاي سليمان؛ لأن الغدر والضرر المنوّه بهما في هذه الرسالة، لم تنحصر آثارهما في أهل مصر الذين طالهم الاحتلال أو الدولة العثمانية التي كانت تحظى بنوع من النفوذ الروحي وتمارس سيادة اسمية على مصر، بل طالا أيضا أمة محمد (ﷺ) بأكملها.

وغني عن القول، إن الهدف غير المعلن من هذه الرسالة قد تمثل في تسفيه المزاعم التي كان يروّج لها نابليون، والتي كان يزعم من خلالها أن هدف الحملة ينحصر في تأديب المماليك على ما صدر منهم من مظالم في حق التجار الفرنسيين، وتمكين السلطان العثماني من استعادة سيادته على هذه الولاية، محاولا إيهام الجميع بالطابع المؤقت

---

(٢٦) المصدر نفسه.

(٢٧) المصدر نفسه.

لهذه الحملة وفوائدها المحققة بالنسبة للمصريين والدولة العثمانية وكافة المتعاملين مع مصر، إما على عن طريق الحج أو التجارة مثل المغرب.

فهذه إذن، هي الخطة التي اعتمدتها الدعاية الفرنسية للتقليل من احتمالات المواجهة مع الأطراف الإسلامية المعنية بهذا الحدث. ولإفشال هذه الخطة وتأليب القوى الإسلامية ضد هذه الحملة، وسَمَتَ الدولة العثمانية هذه الحملة، كما اتضح من هذه الرسالة، بسمة الصراع التقليدي بين «دار الإسلام» و«دار الكفر».

- فهل كان هذا هو الفهم الذي قوبلت به فعلا هذه الحملة لدى القيادة السياسية المغربية، أم كانت لها وجهة نظر خاصة بها؟ نؤجل الجواب عن هذا السؤال إلى حين الانتهاء من عرض مختلف مكونات هذه الرسالة.

لنعد الآن إلى هذه «الحادثة العظيمة» التي شكلت موضوع هذه الرسالة، وهذا الخطب الجسيم «الذي لا يرضى به الله ولا رسوله ولا نحن ولا أحد من المؤمنين، بل تكاد السماوات يتفطّرن منه وتنشق الأرض»[٢٨].

فأما عدم رضى السلطان العثماني، فترتب عنه نشر أوامره العليا «إلى تلك الأقطار وما في السواحل من المدن والأمصار»، بل إلى كل ما في حوزة تصرفه وداخل في دائرة ملكه «بأن يأخذوا حذرهم وأسلحتهم وعتادهم وعدتهم، ويجلبوا خيلهم ورجلهم، ويجمعوا أبطالهم وبسلهم، ويتحشدوا لإعلاء كلمة الله، ويتجمعوا للمحافظة على دين محمد بن عبد الله»[٢٩].

أما الذي سيتولى مهمة تحرير الديار المصرية و«قمع أولئك الفجار ودفع شرور أولئك الأشرار»، فهو أحمد باشا الجزار الذي مد «بأدوات الحرب والنهب وآلات القتل والضرب والمهمات السائرة كاملا مكملا بأنواعها وأصنافها مجملا مصنفا»[٣٠].

---

(٢٨) المصدر نفسه.

(٢٩) المصدر نفسه.

(٣٠) المصدر نفسه.

لكن، إذا كان السلطان العثماني يملك سلطة إصدار مثل هذه الأوامر «إلى كل ما في حوزة تصرفه وداخل في دائرة ملكه»، لكي «لا يبقى من تلك الكفرة الفجرة أثر ولا من يرجع منهم بخبر»، وجب عليه أن يتأكد من تضامن ومؤازرة باقي القوى الإسلامية غير المنضوية تحت لوائه، سيما منها تلك التي كانت على اتصال مباشر بالقوى الأوروبية المعنية مباشرة بهذا الصراع الدائر حول مصر مثل المغرب.

لذلك، بعدما رأى السلطان العثماني أن «طائفة الإنجليزيين» لهم مع الدولة العثمانية «محبة قديمة، ومودة مستديمة، وصداقة كاملة واضحة، وغيرة ثابتة راسخة، وهم قوم ذوو منعة وقوة، وأولو بأس وقوة مغروسة في قلوبهم قديما عداوة طائفة الفرانسة، ومركوزة في فؤادهم بغض أولئك الأبالسة، مترصدون لهم في الطرق لقطع ذهابهم وإيابهم، ومترقبون سفائنهم دفعا لإعانة عساكرهم المنحوسة وإمدادهم»، أخبر مولاي سليمان باتفاقه معهم «في هذه القضية بعهود ومواثيق قوية في إعلان الحرب مع الفرانسة الخونة ومعاضدة بعضنا البعض في قمع تلك الطائفة الملعونة»، إلى أن يتم بعون الله «تطهير الديار المصرية من لوثهم وتخلص أمة محمد عليه السلام من شرورهم»(٣١).

هكذا إذن أصبح الاتفاق الذي أبرمته الدولة العثمانية مع إنجلترا في الخامس من كانون الثاني/ يناير سنة ١٧٩٩، معلوما لدى مولاي سليمان، وتأكد لديه، بشكل رسمي، إعلانها الحرب ضد فرنسا. لكن، عوض أن تبقى هذه الحملة مجرد استمرار للصراع التقليدي بين «دار الإسلام» و«دار الكفر»، كما تضمن ذلك صدر هذه الرسالة، عدل السلطان العثماني هذه الصورة، بعد سوقه لخبر هذا الاتفاق الذي تم بين «دولة الإسلام الكبرى» وإحدى القوى المسيحية حينما اعتبر أن عملية تحرير الديار المصرية ليست قضية إسلامية وحسب، بل تندرج ضمن مجهود دولي أوسع يقتضي إشراك أطراف غير إسلامية مثل إنجلترا وروسيا.

انطلاقا من هذا التصور، تقدم السلطان العثماني إلى مولاي سليمان بطلب الإسهام في هذا المجهود الدولي المشترك، آملا منه ـ وليس آمرا

(٣١) المصدر نفسه.

ـ أن يعامل «طائفة الإنجليزيين بمعاملة الأصدقاء، فلا يمانع في نقلهم الذخائر إلى جبلترة الكائنة تحت تصرفهم (...) لأن النفع العائد على الإنجليز، هو عائد على الدولة العثمانية»[٣٢]. وهذا معناه، إشراك المغرب، بطريق غير مباشر، في المجهود الحربي الموجه من الطرفين، العثماني والإنجليزي، ضد فرنسا.

وحتى يتحول المغرب فعلا إلى شريك عسكري وتجاري لإنجلترا ويقطع علاقاته بغريمتها فرنسا، تولى السلطان العثماني تبليغ مولاي سليمان رغبة حليفته في التجارة «في نواحيه ودياره بأخذ بعض بضائعه إلى إنكلترا وجلب بعض بضائعها إلى المغرب»[٣٣]. هذا، في وقت ألح فيه السلطان العثماني على ضرورة قطع مولاي سليمان علاقته بفرنسا ومن يتصل بها من الدول المتحالفة. فـ «الواجب على صلابتكم الدينية وغيرتكم الإسلامية، أن لا تسامحوا في نقل الذخائر إليهم وإلى من يعاونهم ويسلك في مسالكهم ويرتكبوا ما ارتكبوه من الأمور الفضيحة، بل تقطع طرفهم ودابرهم وتنهب مهماتهم وأدواتهم وذخائرهم»؛ «لأن الخيانة التي ارتكبوها واللعنة التي سلكوها، عائد ضررها على جميع الموحدين وموجب التخلف عن دفعها الوزر على كافة المسلمين، على الخصوص من كان ذا قوة وصاحب فتوة وهمة»[٣٤].

هكذا، أضحى المغرب مطالبا بتلبية نداء الباب العالي؛ لانتمائه، من جهة، إلى الأمة الإسلامية، ودخوله، من جهة ثانية، ضمن دائرة من هم «ذوو قوة وأصحاب فتوة وهمة». لذلك، فأمل سليم الثالث من مولاي سليمان، هو أن يكون معه «على قلب واحد وبعضهم لبعض معاضد»[٣٥].

وختاما، يمكن القول إن هذه الرسالة العثمانية، جعلت المولى سليمان وكافة من كان يشاركه إدارة شؤون الدولة من المقربين، من خلال فقراتها المختلفة والمترابطة، في قلب الأحداث التي كانت تعتمل

---

(٣٢) المصدر نفسه.

(٣٣) المصدر نفسه.

(٣٤) المصدر نفسه.

(٣٥) المصدر نفسه.

آنذاك في مشرق العالم الإسلامي، وبالذات داخل أروقة العاصمة العثمانية إسلام بول، كما وضعته أمام مسؤولياته الدينية والسياسية.

قبل الانتقال إلى الحديث عن المحاولات القادمة التي ستبذلها الدولة العثمانية تجاه المغرب، يحسن بنا تسطير بعض الملاحظات التي من شأنها مساعدتنا على إلقاء مزيد من الضوء على طبيعة الاتصالات التي كانت تجري آنذاك بين هاتين القوتين الإسلاميتين بهذه المناسبة؛ أي الخلافة العثمانية والسلطنة المغربية.

أول ما يستوقفنا في هذه الرسالة، هو الأسلوب الخاص الذي استخدمه سليم الثالث في مخاطبته لمولاي سليمان؛ حيث ركز، بشكل لافت للانتباه، على الألقاب التي تحيل على النسب الشريف لهذا السلطان: «زهرة الشجرة العلوية فرع الدوحة النبوية...». وخلافا للرسائل التي بعثها بنفس المناسبة إلى قادة الدول المغاربية المجاورة وغيرها من الولايات التابعة للدولة العثمانية، والتي ضمنها أوامر صارمة بقطع علاقاتهم بفرنسا وإعلان الحرب ضدها[٣٦]، لم يتجاوز في رسالته هاته إلى مولاي سليمان مستوى الترجي والأمل؛ حيث قال: «نؤمل من أخوتكم الصميمة ونخوتكم الهاشمية، أن تعامل طائفة الإنجليزيين معاملة الأصدقاء (...) فالمأمول أن تساعدوهم في مطلوبهم وتوافقوهم في مرغوبهم (...) والحاصل أملنا من طلعة ذاتك السنية وشيمتك الفاروقية أن تكون معنا على قلب واحد (...)»[٣٧].

ومما لا شك فيه أن أسلوب التخاطب الذي خص به سليم الثالث مولاي سليمان دون غيره، إنما مرده إلى الوضع السياسي الخاص الذي كان يوجد عليه المغرب؛ حيث كان خارج سيادة الدولة العثمانية وغير معني، من وجهة نظر سياسية محضة، بالامتثال لأوامرها. لهذا، اضطر السلطان العثماني التعبير عن طلبه، في لحظة حرجة كهاته، بأسلوب الترجي والاستعطاف. أما تركيزه على النسب الشريف، فيبدو أن المقصود

---

(٣٦) انظر على سبيل المثال رسالته إلى داي الجزائر في أواخر شهر صفر من سنة ١٢١٣. انظر أيضاً: التر، **الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية**، ص ٥٧٤.

(٣٧) رسالة سليم الثالث إلى مولاي سليمان المؤرخة في ٢٦ كانون الثاني/ يناير ١٧٩٩.

منه هو تجييش العاطفة الدينية والحمية الإسلامية في صدر ولواعج مولاي سليمان وبقية أفراد «حكومته»، ووضعه أمام المسؤولية الأدبية الملقاة على عاتقه بحكم انتمائه إلى «أمة محمد»، من جهة، وانتسابه إلى «الدوحة النبوية» من جهة ثانية.

ورغم كل هذا، يبدو أن هذه المحاولة الأخيرة، لم تعط أُكلها على الوجه الذي كان ينتظره الباب العالي وحليفته إنجلترا. لذلك، وجدناهما يعاودان الاتصال، بعد شهور قليلة، بمولاي سليمان. لكن الذي سيتزعم هذه المرة محاولة جر المغرب إلى صف «دول التحالف»، هو إنجلترا التي نزلت بكامل ثقلها في هذا الصراع. وبما أن هذه المحاولة الجديدة، التي تمت في تاريخ غير محدد من صيف ١٧٩٩، تزامنت مع الاستعدادات الحربية التي كانت تجريها الدولة العثمانية بتنسيق مع روسيا وإنجلترا لتحرير مصر والشام[٣٨]، أضحى استدراج المغرب ضمن دائرة هذا الحلف الثلاثي، أمرا لا يقبل التأجيل أو التسويف.

ففي هذا الإطار، ينبغي فهم الدعوة التي تقدمت بها هذه المرة إنجلترا إلى مولاي سليمان من أجل ضمه إلى هذه الجبهة الدولية المناهضة للوجود الفرنسي بمصر. أما فيما يخص الكيفية التي تمت بها هذه المحاولة، فنقرأ في إحدى رسائل القنصل الفرنسي بالمغرب، والذي كان يوجد ساعتها بطريفة بسبب وباء الطاعون الذي كان قد انتشر بالأقاليم الشمالية، أن الإنجليز عادوا مرة أخرى يلتمسون من مولاي سليمان الدخول في هذا التحالف الدولي. ثم ذكر أن مركبا يحمل العلم العثماني، جاء برسالة من سفير إنجلترا بالقسطنطينية إلى القنصل الإنجليزي بالمغرب، والذي كان يوجد بدوره بجبل طارق للسبب ذاته. ونظرا لعدم تمكن هذا المركب من الوصول إلى جبل طارق، مخافة سقوطه في قبضة الفرنسيين، آثر طاقمه المكوث في مرسى طنجة إلى أن جاءته أوامر من القنصل الإنجليزي بتوجيه الرسالة المنوّه بها إلى مولاي

---

(٣٨) ستسفر هذه الاستعدادات عما يعرف بـ «معركة أبو قير البرية» التي بدأت بهجوم عثماني في ٢٥ تموز/يوليو عام ١٧٩٩، وانتهت باستسلام الجيش العثماني في ٢ آب/أغسطس من نفس السنة، وأسر قائده الأعلى مصطفى باشا. انظر: لورنس، **الحملة الفرنسية في مصر**، ص ٣٩٢-٣٩٣.

سليمان مباشرة بواسطة أحد الجنود المغاربة[٣٩]. يفهم من هذا، أن هذه الرسالة كانت موجهة أصلا إلى مولاي سليمان.

ومما يوحي أن تنسيقا ما كان بين الدولة العثمانية وإنجلترا في هذا الإطار، وصول مبعوث عثماني، في نفس الأثناء، إلى مرسى تطوان حاملا معه رسالة من سليم الثالث إلى مولاي سليمان. وصلت هذه الرسالة، بدورها، إلى هذا الأخير بواسطة أحد الجنود المغاربة[٤٠].

يتضح مما سبق أن هذه المحاولة الأخيرة كانت أقوى وأخطر من سابقاتها؛ لأنها تمت بتنسيق بين إنجلترا والباب العالي، ثم أنه رغم انعدام الظروف الأمنية المناسبة وتفشي الطاعون بشمال المغرب، ألح مبعوثاهما على إيصال رسالتيهما إلى مولاي سليمان بواسطة جنود مغاربة. ومما يبرز أكثر خطورة هذه المحاولة التي يحتمل جدا أن تكون هي الأخيرة من نوعها، هو ما انتاب القنصل الفرنسي من خوف وذعر وهو يرى مبعوثي الباب العالي وإنجلترا يتواردان تباعا على المغرب ومراكبهما ترسوا بمدن الشمال التي شهدت، في تاريخ غير بعيد، احتفالات عامة بمناسبة الهزيمة الشنعاء التي لحقت بالجيش الفرنسي في معركة أبو قير البحرية[٤١]. وهكذا أصبح مولاي سليمان، في إحدى لحظات الحملة، وجها لوجه أمام دعوتين صادرتين من أكبر قوتين في العالمين، الإسلامي والمسيحي.

لكل هكذا وجدنا القنصل الفرنسي يسارع إلى احتواء الموقف وطمأنة وزير خارجية بلاده، مخبرا إياه أن عامل تطوان تصرف خلال هاتين المناسبتين ـ وصول المبعوث الإنجليزي ثم المبعوث العثماني ـ بما يتناسب مع العلاقات السلمية التي تجمع، حسب قوله، بين المغرب

---

(٣٩) A.A.E.P, C.C.C.21, Tarife, Guillet à Talleyrand, 6 thermidor an 7 (24 juillet 1799), folio 300.

(٤٠) Ibid.

(٤١) للمزيد من التفصيل حول هذه الاحتفالات الشعبية، انظر: المبحث الأول من الفصل الثاني من هذا الكتاب.

وفرنسا. ورغم ذلك، استمر يتملكه خوف شديد من أن تؤثر هذه المحاولة الجديدة على موقف مولاي سليمان(٤٢).

لا نعرف متى حل هذان المبعوثان بالمغرب، إلا أننا نستطيع القول، من خلال المعلومات التي احتوتها رسالة القنصل الفرنسي الأخيرة، إنهما حلّا به بعد أن تفشى وباء الطاعون في الأقاليم الشمالية وقبيل وفاة ابن عثمان. لذلك، نميل إلى الاعتقاد، بأننا بصدد محاولة جديدة تمت في غضون صيف ١٧٩٩؛ لأننا نعلم من مصادر أخرى، أن الطاعون لم يتفش في أقاليم الشمال ولم تتأكد وفاة ابن عثمان، إلا في وقت قريب من تاريخ كتابة رسالة القنصل الفرنسي، وهو ٢٤ تموز/يوليو ١٧٩٩.

إضافة إلى هذه المحاولات الأربع التي أصبحت معلومة لدينا من خلال تواريخها المحددة أو التقريبية وبعض أو جل مضامينها، يستفاد من رسالة جوابية لمولاي سليمان عن إحدى رسائل سليم الثالث، أننا ربما كنا أيضا بصدد محاولة خامسة لجر المغرب إلى حرب مفتوحة ضد فرنسا. فقد ورد في تقرير حول هذه الرسالة الجوابية التي وردت على دار الخلافة في ١٤ جمادى الأولى سنة ١٢١٦ (٢٢ أيلول/سبتمبر ١٨٠١)، أنه «أرسلت قبل هذا رسالة سلطانية» إلى مولاي سليمان بقصد إطلاعه على«نقض الكفرة الطغاة لعهدهم واستيلائهم على مصر»، ونصت على دعوته إلى «إكرام الإنجليز» و«السعي لتجهيز حملة عسكرية على الطغاة» بتعاون مع «أهالي نواحي طرابلس وتونس والجزائر»(٤٣).

لا نعلم تاريخا محددا لورود هذه الرسالة على مولاي سليمان، كما لا نعلم هل تعلق الأمر فعلا بمحاولة أخرى قام بها الباب العالي تجاه المغرب، أم لا تعدو كونها واحدة من تلك المحاولات الأربع التي سبق لنا الحديث عنها؟ وسواء أصح الاحتمال الأول أم الثاني، فإن ما يهمنا أكثر في هذا المقام، هو أن دعوة من هذا القبيل وجهت فعلا إلى مولاي سليمان.

---

(٤٢) A.E.P, C.C.C.21, Tarife, Guillet à Talleyrand, 6 thermidor an 7 (24 juillet 1799), folio 300.

(٤٣) انظر النص الكامل لهذا التقرير، عند: بن حادة، «وثائق مغربية حول علاقة مولاي سليمان بالدولة العثمانية،» ص ١٩ ـ ٢٠.

انطلاقا مما سبق، نقول إن الدولة العثمانية قامت بمناسبة هذه الحملة التي استهدفت مصر والشام، بأربع محاولات على الأقل، في ظرف لم يتجاوز، على الأرجح، السنة. وربما قامت بمحاولات أخرى غير هذه، لكن معلوماتنا تقف عند هذا الحد. وكيفما كان الحال، فمما لا شك فيه أن مولاي سليمان وحاشيته من الوزراء والكتاب، حصل لهم، بفضل هذه المحاولات، اتصال مباشر مع مبعوثي الدولة العثمانية؛ سواء أتوا مباشرة من إسلام بول، أو حلوا به عن طريق الجزائر. وهذا يفيد أن القيادة السياسية بالمغرب، وعلى رأسها مولاي سليمان، قد أحيطت بكيفية مباشرة وتفصيلية بما حصل وما كان يحصل بمصر والشام من غزو واحتلال، كما أطلعت على الخطة التي اعتمدتها الدولة العثمانية، بتنسيق مع روسيا وإنجلترا، من أجل تحرير هذين القطرين من الاحتلال الفرنسي، وأخبرت، بشكل مفصل، بالدور الذي ينتظر منها القيام به في إطار جبهة التحالف الدولية هاته.

لكن، ما سمعته هذه القيادة، خلال هذه اللقاءات المباشرة وغير المباشرة، كان يعبر عن وجهة نظر الدولة العثمانية وحليفتها إنجلترا، في وقت كانت فيه هذه القيادة واقعة تحت تأثير، وربما توجيه، لا يقلان قوة وإحراجا من جهة فرنسا وحليفتها إسبانيا، ولا تملك وسائلها الخاصة للتزود بالخبر اليقين، بل تعتمد بشكل شبه كلي، على ما كانت تزودها به هذه القنوات الدولية المتحيزة ضرورة لهذا الطرف أو ذاك.

ولكي نتعرف بشكل واضح على الكيفية التي تعاطت بها القيادة السياسية بالمغرب مع هذه العروض العثمانية التي كانت تنهال عليها بشكل دوري، نقترح تتبع وفحص ردود فعل هذه القيادة تجاه مختلف المحاولات التي أتتها من هذه الجهة.

٢ ـ موقف مولاي سليمان من نداءات السلطان العثماني سليم الثالث

أصبح من المعلوم لدينا الآن، أن الباب العالي قام بأربع محاولات، على الأقل، تجاه المغرب لجره إلى الحرب التي كان يخوضها ضد فرنسا. فكانت أول محاولة، في الثالث من ربيع الأول سنة ١٢١٣ (١٥ آب/ أغسطس ١٧٩٨). وهي، كما رأينا ذلك، عبارة عن رسالة إخبارية تتعلق بما كان يجري ساعتها من غزو فرنسي لمصر وما يترتب عن ذلك

من تهديد أمني لأقطار إسلامية أخرى وعلى رأسها الحجاز والشام حيث توجد مكة والمدينة وبيت المقدس. كما أعرب، من خلالها، السلطان العثماني عن أمله في أن يهبَّ مولاي سليمان لدفع هذا التهديد «من أجل حماية الإسلام والمسلمين».

للأسف الشديد، لا نملك وثيقة تنبؤنا عن الكيفية التي قابل بها مولاي سليمان هذه الرسالة. وبما أنها لم تتضمن دعوة صريحة لإعلان الحرب ضد فرنسا، وسيطر عليها أكثر الطابع الإخباري بهدف تهيئ الأجواء لدعوات لاحقة، يرجح لدينا أنها بقيت دون إجابة، خصوصا أن وقائع أخرى تالية أكدت أن المغرب استمر في علاقاته السلمية مع فرنسا، بل اعتبرها دولة صديقة[٤٤].

أما المحاولة الثانية، التي تولى تنفيذها داي الجزائر بإيعاز من مبعوث السلطان العثماني وتضمنت دعوة صريحة لمولاي سليمان بقطع علاقاته مع فرنسا وإعلان الحرب ضدها أسوة بباقي الإيالات المغاربية، فتخبرنا إحدى الرسائل التي أكدت فعلا مجيء هذا المبعوث إلى المغرب، أن جواب مولاي سليمان على هذه الدعوة كان سلبيا، حيث جاء فيه: «إن الفرنسيين لم يقترفوا أية مظلمة في حق المغرب. لذلك، فهو لا يقدر كما أنه لا يرغب في أن يعلن الحرب ضدهم»[٤٥].

وهذه هي الحجة نفسها التي سيقدمها مولاي سليمان بين يدي جموع الحجاج المغاربة ساعة مغادرتهم مدينة فاس في اتجاه الديار المقدسة؛ حينما أكد لهم أن وجود الفرنسيين بمصر ينبغي ألا يثنيهم عن القيام بفريضة الحج مرورا بهذا البلد؛ لأن الفرنسيين يعتبرون، حسب قوله، أصدقاء للمغرب[٤٦]. ونقرأ في رسالة للقنصل الفرنسي بالمغرب، أن

---

(٤٤) انظر: المبحث الأول من الفصل الثاني من هذا الكتاب.

(٤٥) Lettre d'Astione Sièlve, agent d'Afrique à Alger à l'agence de Marseille, 5 nivôse an 7 (25 décembre 1798).

ورد في: Féraud, *Histoire des villes de la province de Constantine, La Calle, et documents pour servir à l'histoire des anciennes concessions françaises d'Afrique*, p. 547.

(٤٦) A.A.E.P., C.C.C.21. Mogador, Brossonet à Talleyrand, 2 nivose an 7 (22 décembre 1798), folio 167-168.

المبعوث الجزائري استقبل استقبالا عاديا من طرف مولاي سليمان. أما فيما يخص الدعوة التي وجهها إليه، فقد أجابه هذا الأخير أنه مهما بلغت رغبته في مؤازرة الدولة العثمانية ضد فرنسا، فإن «بعد المسافة وكثرة المشاغل» يحولان دون تحقيق ذلك، ولا يوجد لديه أي سبب يدعوه إلى إعلان الحرب ضد هذه الدولة، لأنها لم ترتكب في حقه أية مظلمة. وبما أن الفرنسيين لم يمسوا الدين الإسلامي بسوء، بل إنهم، على العكس من ذلك، قدموا الحماية للقوافل التي عبرت مصر، فإنه لا يجد مسوغا لمحاربتهم(٤٧).

أما المحاولة الثالثة، التي جاءت في شكل رسالة مطولة مؤرخة في ١٩ شعبان ١٢١٣ (٢٦ كانون الثاني/يناير ١٧٩٩)، وتضمنت دعوة صريحة لانخراط المغرب في المجهود الحربي الذي كانت تقوم به الدولة العثمانية بتنسيق وتعاون مع إنجلترا وروسيا، فلا نملك بخصوصها هي الأخرى جوابا مباشرا. وربما جاء ذلك، بصورة غير مباشرة، ضمن الرسالة الجوابية التي توصل بها أنطوان كَليط من مولاي سليمان بخصوص المحاولة الرابعة التي قامت بها الدولة العثمانية باشتراك مع إنجلترا في صيف ١٧٩٩. فقد ورد فيها أن كبير المقربين من مولاي سليمان (Le Favori de Mulay Souliman) ـ ولعله الوزير الأول محمد بن عبد السلام السلاوي البخاري الذي خلف محمد بن عثمان المكناسي في منصبه ـ أكد له «أن كل هاته المحاولات الأخيرة، سوف لن يكون لها أثر عليه. علما أنه ليس من طبع مولاي سليمان أن ينساق وراء اقتراحات لا تمليها قضية عادلة وإنما تتحكم فيها المصلحة الشخصية، أو أن يتراجع عن قرار اتخذه بعد تفكير وبتعقل وإنصاف»(٤٨).

يتضح من هذا الجواب، أن مولاي سليمان ظل إلى حدود هذا التاريخ، يرفض الاستجابة لدعوات سليم الثالث بإعلان الحرب ضد فرنسا. لكن، إذا كان المانع من ذلك في المحاولات السابقة هو علاقاته

(٤٧) A.A.E.P, C.C.C.21, Tanger, Guillet à Talleyrand, 12 germinal an 7 (1 mars 1799), folio 248.

(٤٨) A.A.E.P, C.C.C.21, Tanger, Guillet à Talleyrand, 3 frictidor an 7 (20 août 1799), folio 309.

السلمية مع فرنسا، فإن المانع هذه المرة هو، حسب الرواية الفرنسية، عدم اقتناعه بعدالة هذه القضية نظرا لخدمتها لأطراف مخصوصة دون أخرى.

إذا صح هذا الرأي، أمكننا القول إن مولاي سليمان رغم رفضه المبدئي للاحتلال الفرنسي لمصر والشام، كان يرى أن الدخول في حرب ضد فرنسا إلى جانب الدولة العثمانية وإنجلترا، لا يخدم بالدرجة الأولى القضية العادلة التي هي تحرير هذين القطرين الإسلاميين من السيطرة الفرنسية، وإنما هو مجرد دعم سياسي وعسكري لجبهة دولية ضد أخرى ما دام أن هذا الصراع في عمقه ومبدئه دائر بين إنجلترا وفرنسا.

لكن، ما يشوّش على هذا التأويل، هو ما سيرد في رسالة مولاي سليمان الجوابية على إحدى الدعوات العثمانية التي لا نعلم تاريخها بالتحديد. فقد جاء في تقرير عثماني[٤٩] حول هذه الرسالة التي وردت على دار الخلافة في ١٤ جمادى الأولى سنة ١٢١٦هـ (٢٢ أيلول/سبتمبر ١٨٠١م)، أنه «بمجرد إخباره [بنقض الكفرة الطغاة عهدهم واستيلائهم على مصر]، اعتزم إرسال العساكر كما تقتضي ذلك الغيرة الإسلامية، بيد أن بعد المسافة وكثرة المشاغل منعته من ذلك»[٥٠]. أما «فيما يتعلق بإكرام الإنجليز ـ كما نصت على ذلك الرسالة السلطانية ـ فإنه لما بين الإنجليز والحاكم المشار إليه من محبة قديمة، ولأنه يسعى إلى قطع الطريق برا وبحرا على فساد ومكر الأعداء، فإنه يعتبر إكرام الإنجليز واجبا. كما أن إظهار الكفرة المحاربين الندم بكيفية ما ورجوعهم إلى المهادنة، جعل تدبر هذا الأمر، عديم الفائدة»[٥١]. ثم ختم هذا التقرير، بإشارة تقول: «إن حاكم فاس، امتنع عن مكاتبة أهالي تونس والجزائر من أجل أن يضعوا أنفسهم رهن إشارته في هذه الحرب»[٥٢]. أما السبب

(٤٩) سبقت الإشارة إلى هذا التقرير خلال استعراضنا لمضامين الرسائل التي وجهها سليم الثالث إلى مولاي سليمان. انظر: بن حادة، «وثائق مغربية حول علاقة مولاي سليمان بالدولة العثمانية،» ص ١٩ ـ ٢٠.

(٥٠) المصدر نفسه.

(٥١) المصدر نفسه.

(٥٢) المصدر نفسه.

في ذلك، فهو اتباعهم «أصحاب العقول الضعيفة والأوهام»[٥٣].

يفهم من هذا الكلام، أن المغرب كان قد رُشّح من قبل الدولة العثمانية بأن يتزعم من خلال الجبهة المغاربية، عملية الجهاد ضد جيش الشرق بمصر وأنه أعد لذلك عدته. لكن، هذا الأمر لم يتم بسبب عدم تجاوب قادة الإيالات الثلاث معه. وربما كان السبب في ذلك، حسب ما ألمحت إليه هذه الوثيقة، هو عودة العلاقات السلمية بين هذه الإيالات المغاربية وفرنسا[٥٤].

هذه الصورة المثالية التي تطل علينا من بين ثنايا هذا التقرير، تتناقض على أكثر من صعيد مع ما كان يصدر عن جهات سياسية عليا بالمغرب، طوال سنوات الحملة، من تصريحات وكتابات. كما أن عددا من الوقائع التاريخية، تؤكد أن المغرب ظل يحتفظ بعلاقات سلمية مع فرنسا ولم تنفرد صلاته بإنجلترا بأية ميزة تذكر. لذلك، نرى من الضروري الكشف، بشكل تفصيلي ومستقل، عن الموقف الذي اتخذه المغرب من هاتين القوتين حتى يتسنى الاقتراب أكثر من واقع هذه الصورة التي بدت لنا، من خلال هذا التقرير، أكثر ما تكون براءة.

قبل الانتقال إلى ذلك، نقول إن المغرب وعيا منه بحقيقة الحرب التي كان يطلب منه المشاركة فيها وإدراكا منه لخطورة وحساسية هذا الحدث المتمثل في احتلال بلدين إسلاميين من هذا الحجم من طرف قوة مسيحية من حجم فرنسا، كان يعتمد، حسب تقديرنا، من خلال سلوكه ذاك، خطابا مزدوجا. فإذا كان المخاطب هو سليم الثالث أو أي طرف إسلامي آخر، تعلل بـ «بعد المسافة وكثرة المشاغل». أما إذا كان هذا المخاطب هو فرنسا، قدم بين يديها حججا مقنعة لطمأنتها على موقفه السلمي تجاهها.

وفي كل الأحوال، ظل المغرب، وعلى رأسه مولاي سليمان، يحتفظ،

---

(٥٣) المصدر نفسه.

(٥٤) عقدت كل من الجزائر وتونس هدنة مع فرنسا منذ شهر أيلول/ سبتمبر من سنة ١٨٠٠. أما طرابلس الغرب، فقد حافظت عملياً، على علاقات تعاون قوية مع فرنسا؛ حيث أبرمت معها هي الأخرى اتفاقية مماثلة في ٢٣ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٠٠.

إلى حدود وصول هذه الرسالة الجوابية إلى العاصمة العثمانية في ٢٢ أيلول/سبتمبر ١٨٠١م، بصورة إيجابية لدى الباب العالي؛ لأنه «اعتزم تجهيز حملة عسكرية ضد الكفرة الطغاة»، إلا أن «بعد المسافة وكثرة المشاغل» منعاه من ذلك، واعتبر «إكرام الإنجليز واجبا»، وحاول تزعم جبهة الجهاد على الصعيد المغاربي، لولا أن أهل تلك الولايات «اتبعوا أصحاب العقول الضعيفة والأوهام فامتنع عن مكاتبتهم».

نستخلص من خلال ما سبق، أن موقف المغرب الرسمي من الحملة الفرنسية على مصر والشام، لن تمليه «الغيرة الإسلامية» كما راهنت على ذلك رسائل سليم الثالث، بل سينبع من قناعة سياسية واضحة مؤسسة على قرار اتخذ «بعد تفكير وبتعقل وإنصاف». ومعنى هذا، أن المغرب، وبالذات سلطانه مولاي سليمان، لم يكن مستعدا، خلال هذه الحملة التي اتخذت طابع أزمة دولية حقيقية اختلطت فيها مصالح «دولة الإسلام الكبرى» بمصالح أقوى الدول المسيحية، ليخاطر بمصالحه «الوطنية» عن طريق الانخراط في حرب كانت، في نظره، مسخرة لخدمة أهداف مخصوصة لجهات معينة، قبل أن تكون موجهة لمجرد تحرير بلدين إسلاميين، مثل مصر والشام، من الاحتلال الفرنسي.

ثانياً: موقف المغرب من إنجلترا
الحليف الأوروبي الأكبر للدولة العثمانية

لكي نقترب أكثر من حقيقة الموقف الذي اعتمدته القيادة السياسية المغربية تجاه الحملة الفرنسية على مصر والشام، يجدر بنا أيضا تبين المواقف التي تبادلتها هذه القيادة مع إنجلترا باعتبارها الحليف الأوروبي الأقوى للدولة العثمانية. ذلك، أن إنجلترا، بحكم صراعها التقليدي مع فرنسا واستهدافها مباشرة من طرف هذه الحملة، عبّرت منذ بداية هذا العدوان عن تضامنها مع الدولة العثمانية وساندتها بكل الوسائل الممكنة. وكانت أول علامة على ذلك هي الهزيمة النكراء والمُذلّة التي أنزلتها بأسطول الحملة المرابط بخليج أبو قير في الفاتح من آب/أغسطس سنة ١٧٩٨م، والتي كان من أهم نتائجها تغيير وجهة الحملة من الهند إلى الشام. ثم تأكد ذلك، بشكل صريح، عندما أبرمت حلفا عسكريا وسياسيا

مع الدولة العثمانية في الخامس من كانون الثاني/يناير سنة ١٧٩٩م.

وهكذا، أصبحت إنجلترا طرفا رئيسا في هذا الصراع الدولي الذي تفجر بمناسبة هذه الحملة. أكثر من ذلك، جعلت هذه القوة المسيحية من نفسها، في أكثر من مناسبة، الناطق الرسمي باسم «دولة الإسلام الكبرى»، بل أصبحت تنوب عنها في إصدار بعض الأوامر والعمل على تنفيذها ميدانيا. وقد تحقق هذا النفوذ الذي أصبحت تمارسه إنجلترا على حساب اختصاصات الباب العالي، بشكل قوي وصريح، في حالة البلدان المغاربية الثلاثة المنضوية تحت لواء الدولة العثمانية.

فبعد نجاح القنصل الفرنسي، دوبوا تانفيل (Dubois Tainville)، في عقد اتفاقية صلح مع داي الجزائر في الثلاثين من شهر تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٨٠٠م، واضعا بذلك حدا لحالة الحرب بين البلدين، كتب الأميرال الإنجليزي، كيث (Keith)، رسالة إلى الداي مصطفى يأمره فيها بطرد القنصل الفرنسي من الجزائر، مدّعيا أن فرنسا لم تربط علاقاتها مجددا مع الولايات المغاربية إلا بهدف احتلالها خدمة لوجودها بمصر. وهدد في حالة عدم استجابته لهذا الطلب بإحراق العاصمة الجزائر[٥٥].

وإذا كانت تهديدات الأميرال الإنجليزي قد بقيت حبرا على ورق، وظل داي الجزائر يعتبر نفسه «سيدا في بلاده ويحكم الجزائر مثلما يحكم ملك إنجلترا في لندن»، مؤكدا للأميرال المذكور أنه «يعرف جيدا كيف يدافع عن نفسه[٥٦]، لم تدخر الدبلوماسية الإنجليزية جهدا في السعي إلى إفشال هذا الصلح الذي دخلت فيه الإيالات المغاربية الثلاث مع فرنسا. فبينما كانت السفارتان، الجزائرية والتونسية، في طريقهما إلى القسطنطينية لإفشاء خبر هذا الصلح وتقديم الهدايا المعتادة إلى السلطان العثماني، كانت حراقة إنجليزية قد سبقتهم إلى العاصمة العثمانية وعملت كل ما في وسعها من أجل التشهير بالصلح والهدنة اللذين تم إبرامهما بين هاتين الولايتين العثمانيتين وفرنسا. فنتج عن هذا، إلغاء هاتين الاتفاقيتين من طرف السلطان

(٥٥) A.A.E.P., C.C.C. 35, Alger, Dubois Tainville à Talleyrand, 3 nivôse an 9 (23 décembre1800), folio 179.

(٥٦) Féraud, *Histoire des villes de la province de Constantine, La Calle, et documents pour servir à l'histoire des anciennes concessions françaises d'Afrique*, p. 559.

العثماني وأرغمت الجزائر وتونس على معاودة الحرب ضد فرنسا[٥٧].

لكن، إذا كانت التهديدات الإنجليزية قد وقفت عند هذا الحد بالنسبة للجزائر وتونس، فإنها بلغت مرحلة متطورة فيما يخص إيالة طرابلس؛ لأنها شهدت تدخلا عسكريا إنجليزيا سافرا في أراضيها، وأرغم باشتها على إلغاء الإتفاق الذي سبق أن حصل بينه وبين فرنسا، وسلم ما كان بحوزته من رعايا فرنسيين، وفي مقدمتهم القنصل، وأعلن الحرب مجددا ضد فرنسا.

حدثت كل هذه التطورات بسبب رفض يوسف باشا القرمانلي الاستجابة لطلب السلطان العثماني القاضي بزحفه عسكريا على جيش الشرق بمصر. إلا أن الذي تولى تأديب هذا الباشا، هو الأميرال الإنجليزي، نيلسون (Nelson) الذي كان يرابط خلال هذه الآونة بأسطوله في جزيرة باليرمو.

اتضح لنا الآن، من خلال هذه الوقائع المؤسسة على وثائق مباشرة، أن إنجلترا وظفت تحالفها مع الدولة العثمانية إلى أقصى الحدود، مستغلة في ذلك الضعف الذي آلت إليه الأوضاع العامة بهذه القوة الإسلامية الكبرى. فأخذت تملي إرادتها على الكيانات السياسية التابعة لها، سيما منها الإيالات المغاربية الثلاث؛ ملوّحة تارة بالتهديد، ومستخدمة تارة أخرى القوة العسكرية كما حصل فعلا مع باشوية طرابلس. يؤكد كل هذا الدور الخطير الذي أضحت تقوم به هذه القوة الأوروبية على الصعيد المغاربي باسم الدولة العثمانية وتحت ذريعة الدفاع عن «الدين الإسلامي الحر» ضد «الكفرة الذين يسعون إلى هدم الإمبراطورية العثمانية وعبادة الله الواحد ونبيّه الطاهر!».

ـ فهل ستسلك هذه الإمبراطورية الاستعمارية التي أخذت تتقمص رداء الدفاع عن الإسلام نفس النهج مع المغرب الذي أصبح يحظى بأهمية استراتيجية عظمى في هذا الصراع الدولي على الصعيدين العسكري والسياسي، أم أن الوضع السياسي الخاص للمغرب وعلاقته

---

(٥٧) A.A.E.P., C.C.C.37, Tunis, Devoize (consul de France en Tunisie) à Talleyrand, 9 nivose an 9 (30 décembre 1800), folio 9.

المتميزة مع هذه القوة الأوروبية، سيضطرها إلى تعديل خطتها؟

١ ـ محاولات إنجلترا دفع المغرب إلى إعلان الحرب ضد فرنسا

بادئ ذي بدء، نقول إن المغرب لم يكن خاضعا للدولة العثمانية، وبالتالي فهو لم يكن مبدئيا مطالبا بتنفيذ ما يصدر بالآستانة من أوامر وقرارات. كما أن تحالف إنجلترا مع هذه الدولة لم يكن ليتيح لها فرصة التدخل في شؤونه الداخلية. من هذه الوجهة يمكن القول إن حالة المغرب في هذه المناسبة، لا يمكن قياسها على حالة البلدان المغاربية الأخرى.

ورغم ذلك، فإنه يجوز لنا القول إن ما قامت به إنجلترا بالمغرب، خلال سنوات الحملة، لا يقل خطورة وأهمية عما قامت به بفي بلدان الجوار المغاربية أو في غيرها من النقاط الجغرافية الحساسة التي شكلت عناصر قوة ولم يكن باستطاعتها التغافل عنها في أزمة دولية من ذلك الحجم، مثل مسقط واليمن والحجاز والشام. لكنها، عوض أن تتدخل بشكل سافر كما حدث في طرابلس، أو تمارس تهديدا عسكريا من نفس النوع الذي لوحت به ضد الجزائر، اكتفت في تعاملها مع المغرب بتكثيف وسائلها السياسية والدبلوماسية والإعلامية من أجل إقناع مولاي سليمان بإعلان الحرب ضد فرنسا والانضمام صراحة إلى صف الدولة العثمانية وحلفائها.

انطلاقا من هذه الملاحظة سينحصر غرضنا في هذا المبحث في الكشف عن الخطة التي اعتمدتها إنجلترا لبلوغ هذا الهدف، ثم التعرف على الكيفية التي تعاملت بها القيادة السياسية بالمغرب مع هذه الخطة. متغيين من وراء ذلك، الكشف عن مزيد من الحقائق المرتبطة بالموقف الرسمي العام الذي وقفه المغرب من هذه الحملة العدوانية.

لكن، قبل الشروع في ذلك، نرى من المستحسن منهجيا إعطاء لمحة مقتضبة عن طبيعة العلاقات التي كانت تربط المغرب بإنجلترا قبل الحملة والموقع الذي أصبح يحتله هذا القطر المغاربي داخل السياسة الإنجليزية، بعد دخول هذه الحملة إلى مصر والشام؛ لأن من شأن هذا المدخل أن يساعدنا على تحصيل فهم واضح للكيفية التي سيتناول بها هذان الطرفان بعضهما البعض خلال هذه المناسبة.

شكل احتلال إنجلترا لصخرة جبل طارق سنة ١٧٠٤م نقطة تحول نوعية في علاقتها بالمغرب. فانطلاقا من هذا التاريخ أضحى هذا الأخير يمثل الممون الرئيس لحاميتها العسكرية بهذه الصخرة. لذلك، ستحرص إنجلترا، من الآن فصاعدا، على ضمان استمرار علاقاتها الاقتصادية والسياسية بهذا البلد مهما كلف الثمن. أما المغرب، فسيكون لزاما عليه، هو الآخر، أخذ مصالح وتهديدات هذا الجار القوي بعين الاعتبار.

ونظرا للطابع الصراعي الذي أخذ يسيطر، منذ ذلك التاريخ، على علاقات إنجلترا بإسبانيا والأهمية الاستراتيجية التي بدأ يمثلها جبل طارق في هذا الصراع، أضحى المغرب، بحكم موقعه الجغرافي، يمثل عنصر موازنة بين هاتين القوتين الاستعماريتين. وربما تحول، في بعض الأحيان، إلى عنصر مراهنة ومزايدة في خطط هذا الطرف أو ذاك.

من هنا يمكن القول، إن المغرب أصبح، منذ قرن على الأقل، يشكل موضوع اهتمام خاص داخل سياسة إنجلترا الخارجية. وتزامن هذا التحول الذي أخذت معالمه تتأكد خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر، مع انتهاج المغرب على عهد سيدي محمد بن عبد الله، سياسة الانفتاح على القوى الأوروبية بمختلف توجهاتها بما في ذلك إنجلترا التي أصبحت تربطها بالمغرب، منذ ٢٨ تموز/ يوليو ١٧٦٠م، معاهدة سلام وصداقة وتجارة. وبعد وفاة سيدي محمد بن عبد الله سنة ١٧٩٠م، أبرم ابنه مولاي اليزيد معاهدة جديدة مع هذه الدولة في ٨ نيسان/ أبريل من سنة ١٧٩١م. وإذا علمنا أن عقد هذه المعاهدة قد تم في ظرف كان يتهيأ فيه هذا السلطان لتخليص سبتة ومليلية من الاحتلال الإسباني، جاز لنا القول إنه ربما قصد بتمتين علاقاته السياسية مع هذه القوة البحرية، توظيفها في منازلته المرتقبة لعدو المغرب التقليدي، إسبانيا.

وإذا كانت وفاة مولاي اليزيد المفاجئة في الرابع عشر من آذار/ مارس سنة ١٧٩٢م، قد أدت إلى إهمال عملية تحرير هذه الثغور، فإن اندلاع الحروب النابوليونية في نفس التاريخ تقريبا سيكسب المواصلات البحرية أهمية خاصة في الصراع الدائر آنذاك بين القوى الأوروبية المتنازعة. وهذا ما سيدفع إنجلترا إلى توطيد علاقاتها أكثر بالمغرب، حرصا منها على سلامة الطريق البحري الهام المار عبر مضيق جبل طارق وضمان استمراره

في تزويد حاميتها بهذه الصخرة بما تحتاجه من مياه ومؤن[٥٨].

في إطار هذا التوجه الجديد الذي فرضه هذا المتغير الدولي، ينبغي فهم التعليمات الخاصة التي أصدرتها الخارجية الإنجليزية إلى قنصلها العام بطنجة في ١٢ آب/أغسطس سنة ١٧٩٦م حينما خاطبته قائلة: «لا تهمل أية وسيلة في مكنتك استخدامها للحفاظ على حسن التفاهم القائم بين جلالة الملك وإمبراطور المغرب وإنمائه»[٥٩].

لكن، يبدو من خلال عدد من المؤشرات، أن إنجاز هذه المهمة الجديدة التي أوكلت إلى القنصل العام الإنجليزي بالمغرب، ستتطلب بعض الوقت؛ إذ خلافا لما كان منتظرا، ستشهد العلاقات المغربية الإنجليزية بعض التوتر بسبب عدم «احترام» المغرب للحصار العسكري والاقتصادي الذي كان يفرضه الأسطول الملكي الإنجليزي على السواحل الإسبانية والفرنسية حين سمح للسفن الإسبانية بالإبحار تحت أعلام مغربية أو تولى هو بنفسه حمل بضائعها. وقد أسفر هذا التوتر عن عدة نتائج سلبية، كان من أهمها إيقاف المغرب لصادراته من الماشية وغيرها في اتجاه جبل طارق. ثم تأكد هذا التوتر، بشكل أقوى، عندما رفضت السلطات المغربية بطنجة تزويد سفينة اللورد سانت فانسنت بالمؤن الضرورية خلال رسوّها بخليج طنجة وهي في طريقها إلى جبل طارق، في ٩ تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٧٩٨م[٦٠].

وربما كانت هذه التصرفات، تلائم توجهات الوزير ابن عثمان الذي كانت له ميول ودية تجاه إسبانيا، لكنها لم تكن، بالتأكيد، لتنال رضى مولاي سليمان الذي بادر فور تلقيه شكوى في هذا الموضوع من القنصل

---

(٥٨) عرفت العلاقات المغربية ـ الإنكليزية حسب خالد بن الصغير، تحسناً مستمراً منذ احتلال إنجلترا لجبل طارق سنة ١٧٠٤. ورغم بعض الطوارئ التي حالت دون استمرار هذه العلاقات وفق المستوى المطلوب، فإن الحروب النابليونية شكلت حسب نفس الباحث، مناسبة إضافية أدت إلى توطيد هذه الصلات أكثر. انظر: خالد بن الصغير، **المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر (١٨٥٦ ـ ١٨٨٦)**، تقديم جرمان عياش (الدار البيضاء: دار ولادة، ١٩٩٠)، ص ٤٤ ـ ٤٥.

(٥٩) فيليب جورج روجرز، **تاريخ العلاقات الإنكليزية ـ المغربية حتى عام ١٩٠٠**، ترجمة ودراسة وتعليق يونان لبيب رزق (الدار البيضاء: دار الثقافة، ١٩٨٢)، ص ١٧٢.

(٦٠) المصدر نفسه، ص ١٧٣.

الإنجليزي، بالكتابة إلى قائد طنجة، عبد الله بن عبد الملك، ليوبخه على فعلته تلك ويأمره أن يبدي للأسطول الإنجليزي مستقبلا «كل احترام ويمده بكل ما يحتاج إليه»(٦١).

بهذه الرسالة التوبيخية الموجهة من مولاي سليمان إلى قائد طنجة في شهر كانون الأول/ديسمبر من سنة ١٧٩٨م، دشن المغرب علاقاته من جديد بإنجلترا في ظل أجواء أصبحت تخيم عليها بكثافة انعكاسات الحملة الفرنسية على مصر؛ حيث لم تعد إنجلترا، بالنسبة له، مجرد بلد مجاور من خلال مستعمرته بجبل طارق ينحصر همه الرئيس في الحصول على أغنامه وأبقاره، بل تحولت إلى قوة سياسية وعسكرية تحالف وتناصر «دولة الإسلام الكبرى» التي عجزت بمفردها عن رد العدوان الفرنسي على ممتلكاتها. أكثر من هذا، أضحت إنجلترا تمثل، بهذه المناسبة، المدافع الرئيس عن سلامة الأراضي العثمانية والناطق بلسان حال السلطات العليا بإسلام بول. كما فوضت لنفسها، في بعض الأوقات، حق التصرف باسم السلطان العثماني وإرغام بعض ولاته على تنفيذ أوامره الحربية، في وقت تأكدت فيه، بشكل لملموس، مشاريع فرنسا العدوانية ضد بلدين من أهم وأقوى البلدان الإسلامية، وهما مصر والشام. أضف إلى هذا أن تحالف إسبانيا مع فرنسا ومناصرتها لها علنا أيقظ لدى المغرب هواجس قديمة بغزوه من طرف هذا العدو التقليدي بدعم ومؤازرة من فرنسا، خاصة بعدما راجت إشاعات قوية، خلال سنتي ١٧٩٩ و١٨٠٠م، تقول إن هناك تفاهما ما بين إسبانيا وفرنسا يقضي بتسليم هذه الأخيرة مدينة سبتة من أجل استخدامها كنقطة استناد في مواجهتها لإنجلترا، وربما توظيفها أيضا في الضغط على المغرب أو احتلاله(٦٢).

ورغم تأكيد إسبانيا لمولاي سليمان أن لا وجود لاتفاق سري بينها وبين فرنسا بهذا المعنى أو ذاك، استمرت مكانة إنجلترا تكبر في عيون المسؤولين المغاربة إلى حد جعلهم يصرحون للقنصل الإنجليزي بمناسبة

---

(٦١) المصدر نفسه.

(٦٢) Mohamed El Mansour, «Political and Social Development under the Reign of Moulay Solayman (1792-1822),» 2 tomes (Doctorate, University of Landers, 1981), tome 1, p. 231.

توقيع معاهدة ١٤ حزيران/ يونيو ١٨٠١م: «أنه في حالة تعرض المغرب لهجوم فرنسي، سيرى [هؤلاء المسؤولون] في بريطانيا العظمى وكأنها الأمة الوحيدة التي سيكون بإمكانها حمايته من خطر من هذا الحجم»[٦٣].

وإذا كان المغرب قد اضطر إلى تغيير موقفه من إنجلترا بهذه الصورة نتيجة للعدوان الفرنسي الذي استهدف مصر والشام، فإن إنجلترا وجدت نفسها مرغمة، للسبب ذاته، إلى تعديل كيفية تعاملها مع هذا البلد الإسلامي الذي أضحى يكتسي، بحكم موقعه الجغرافي وانتمائه الديني، أهمية بالغة في هذا الصراع الدولي. لهذا السبب، ستوظف إنجلترا جهودا دبلوماسية مكثفة من أجل إقناع مولاي سليمان بضرورة إعلانه الحرب ضد فرنسا أسوة بباقي قادة البلدان المغاربية الأخرى، والانضمام إلى الحلف الثلاثي الذي أصبح يجمع بين الدولة العثمانية والإمبراطوريتين الروسية والإنجليزية.

ولتحقيق هذا الهدف البعيد المنال سوف تستخدم إنجلترا، بتنسيق مع الدولة العثمانية والبرتغال، كل وسائل الترغيب والترهيب الممكنة، مستغلة في ذلك المكانة الأدبية الخاصة التي أضحت تحتلها في أعين المسلمين بفضل تحالفها مع دولة الخلافة الإسلامية ومناصرتها لها في هذه المحنة، خاصة بعدما نجحت في تشتيت شمل أسطول الحملة منذ الفاتح من آب/ أغسطس سنة ١٧٩٨م، وإرغام نابليون على إيقاف زحفه على الشام ورفع حصاره عن مدينة عكا، مستغلة في ذلك فرصة افتقار المغرب إلى الوسائل الدبلوماسية الكفيلة بتزويده بحقيقة ما كان يجري في عواصم الدول الأوروبية وإطلاعه على وجه الدقة على ما كان يقع من تطورات عسكرية وسياسية على الساحة العثمانية، وخصوصا منها مصر والشام. كما أنها لم تتوان في استثمار الوضع الأمني والسياسي الهش الذي كان يوجد عليه المغرب؛ فروجت تارة لأخبار كاذبة، وساهمت تارة أخرى في إثارة الفتن والقلاقل في بعض جهاته.

قبل الكشف عن الكيفية التي قابل بها المغرب هذه المحاولات الإنجليزية، نتوقف قليلا عند بعض محطاتها الرئيسة.

---

(٦٣) المصدر نفسه، ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣.

في هذا الإطار، يلاحظ أن الخطة السياسية والدعائية التي انتهجها نابليون خلال الأشهر الأولى من حملته على مصر، نجحت إلى حد ما في التقليص من حجم وخطورة المحاولات الإنجليزية ضد مشروعه ذاك؛ فقد استمر، على الأقل، حتى ثورة القاهرة الأولى (٢١ ـ ٢٢ تشرين الأول/أكتوبر ١٧٩٨م)، يقر علانية باستمرار تبعية مصر رسميا للباب العالي، ولم يغير من خطته هاته، إلا بعد أن تأكد من ضلوع هذا الأخير في أحداث هذه الثورة. ومما قلل أيضا من أهمية هذه المحاولات المضادة للحملة، تردد السلطان العثماني في إعلان الحرب ضد فرنسا إلى حدود بداية شهر آب/أغسطس سنة ١٧٩٨م. كما أنهما، رغم انحياز إنجلترا المبكر إلى صف الدولة العثمانية، لم يشرعا في تنسيق جهودهما السياسية والعسكرية والإعلامية بجدية، إلا بعد توقيعهما على اتفاقية تحالف فيما بينهما في ٥ كانون الثاني/يناير سنة ١٧٩٩م.

ورغم ذلك، لم تأل إنجلترا، التي راعتها هذه الحملة المفاجئة وأخذت تهدد مصالحها بشكل جدي ومباشر، جهدا في شن حرب دعائية واسعة النطاق ضد هذا الإنزال العسكري الفرنسي بالديار المصرية. فكانت أول من أشاع، انطلاقا من جبل طارق، خبر أخذ الفرنسيين لجزيرة مالطا[٦٤]. ثم أخذت، بعد ذلك، تشيع داخل الأوساط المغربية أن الاحتلال الفرنسي لمصر سيحول دون تأديتهم لفريضة الحج. كما أنها لم تدّخر وسعا في الضغط على مولاي سليمان كي يعلن الحرب ضد فرنسا.

ففيما يخص النقطة الأولى، وجدنا القنصل الفرنسي يخبر وزير خارجية بلاده، أن المغاربة ارتاعوا بشكل قوي عقب سماعهم خبر احتلال الفرنسيين للإسكندرية. ومما زاد في خطورة ذلك، هو اقتناعهم بأن هذا الاحتلال سيحول دون تأديتهم لفريضة الحج السنوية. لكن، الذي ساعد على تقوية واستمرار هذه القناعة في أذهان المغاربة، حسب قول القنصل الفرنسي، هم أعداء فرنسا؛ أي الإنجليز وحلفاؤهم البرتغاليون[٦٥].

---

(٦٤) A.A.E.P., C.C.C.21, Tanger, Guillet à Talleyrand, 28 messidor an 6 (16 juillet 1798), folio 88.

(٦٥) A.A.E.P., C.C.C.21, Tanger, Guillet à Talleyrand, 10 vendémiaire an 7 (1 septembre 1799), folio 127.

أما فيما يتعلق بالنقطة الثانية، فتتجلى في المخاوف التي عبر عنها هذا القنصل، في رسالة تالية، من احتمال انقطاع العلاقة بين فرنسا والمغرب واقتفاء هذا الأخير أثر البلدان المغاربية الأخرى في الانضمام إلى «السيد الكبير»، أي السلطان العثماني. هذا، على الرغم من ثقته في الدور الذي كان يقوم به الوزير ابن عثمان، على حد زعمه، لصالح فرنسا(٦٦)، وإبعاد مولاي الطيب عن الشأن السياسي العام(٦٧). ذلك، لأن «الإنجليز والبرتغاليين، يعملون بهمة لا تكل لدفع مولاي سليمان إلى إعلان الحرب ضد فرنسا وكذلك إسبانيا»(٦٨).

وفي رسائل أخرى موجهة هذه المرة من نائب القنصل الفرنسي بالرباط إلى أنطوان كَليط، نتبين بوضوح أكثر خطورة هذا النشاط الدعائي الذي ما فتئت تقوم به إنجلترا ضد فرنسا على صعيد المغرب. فقد كتب هذا النائب القنصلي يقول: إن العميل الإنجليزي أبوديريم (Abouderem) «فعل كل ما في وسعه من أجل تأليب المغاربة ضدنا»(٦٩). وفي رسالة تالية، يطلعنا هذا النائب القنصلي على نتائج هذه الدعاية، فيقول: إنه شاع بالأمس (٨ كانون الأول/ ديسمبر ١٧٩٨م)، أن الأوروبيين يقنبلون الصويرة، وأن هذا الصباح تم إنزال ستة وعشرين ألف جندي فرنسي بطنجة. وبعد أن تساءل عن المصادر التي يمكن أن تكون قد أتت منها هذه الأخبار الكاذبة، قال إنه لا يمكن أن تصدر إلا عن الإنجليز(٧٠).

---

(٦٦) اشتهر الوزير ابن عثمان داخل الأوساط الدبلوماسية الفرنسية وخاصة القنصلية منها، بميله إلى فرنسا وحليفتها إسبانيا. لذلك ستشكل وفاته في صيف ١٧٩٩م، خسارة كبرى بالنسبة إلى هاتين الدولتين اللتين كانتا تراهنان على نفوذه لدى مولاي سليمان لإبقاء المغرب على جانب الحياد تجاه ما كان يجري ساعتها بمصر والشام.

(٦٧) خلافاً للوزير ابن عثمان، عرف عن مولاي الطيب ـ وهو أحد أخوة مولاي سليمان والذي ستوافيه المنية في تاريخ قريب من ابن عثمان بسبب الطاعون ـ ميله لصالح إنكلترا وحليفتها البرتغال. إلا أن محاولته القيام ضد أخيه بمراكش أيام كان خليفة له عليها، جعل مولاي سليمان يستعفيه من مهمته، ويلزمه شهوراً بعدم مغادرة مكناس، الشيء الذي أثلج صدر القنصل الفرنسي أنطوان كَليط. انظر: الضعيف، **تاريخ الضعيف: تاريخ الدولة السعيدة**، ص ٣١٠.

(٦٨) A.A.E.P., C.C.C. 21, Tanger, Guillet à Talleyrand, 23 brumaire an 7 (novembre 1798), folio 13.

(٦٩) A.D.N, Tanger A 104, Rabat, Fournet à Guillet, 21 novembre 1798.

(٧٠) A.D.N, Tanger A 104, Rabat, Fournet à Guillet, 9 décembre 1798.

قامت إنجلترا بكل هذه الجهود الدعائية ونجحت حسب منطوق هذه الرسائل في التأثير على المغاربة وفي إقلاق السلطات الفرنسية، في وقت لم تكن قد تحالفت فيه بعد، بشكل رسمي، مع الدولة العثمانية، ولم يكن جيش الشرق قد بدأ هجومه على الشام أو استكمل سيطرته حتى على مصر. ومعنى هذا، أن إنجلترا حققت كل هذا التأثير داخل الأوساط المغربية، الرسمية منها والشعبية، قبل أن تحوز هذه القوة المسيحية تلك الصفة الأدبية والشرعية السياسية اللتين ستتحققان لها، بعد قليل، بفضل تحالفها مع الدولة العثمانية، كما لم تكن مصالحها الحيوية قد طالها بعد التهديد بنفس القوة التي ستعقب زحف نابليون على الشام.

- فماذا عن هذه المحاولات الإنجليزية بعد أن تحقق هذا التحالف وبدأ جيش الشرق مغامرته العسكرية بالشام؟

تحولت إنجلترا، خلال هذه المرحلة التي تزامنت مع بداية سنة ١٧٩٩، إلى شريك فعلي للدولة العثمانية تقاسمها نفس المشاغل ويعملان معا على تحقيق نفس الأهداف. وقد تحقق هذا التقارب غير المنتظر بين هاتين القوتين بسبب التحدي الكبير الذي أخذت تمثله الحملة الفرنسية بالنسبة لمصالحهما. لكن، إذا كان الهدف الرئيس لهذا التقارب الذي ترجم إلى تحالف فعلي، هو إخراج جيش الشرق من مصر والشام وإرجاعهما إلى حظيرة الدولة العثمانية، فإن إنجلترا استغلته من أجل تصفية الوجود الفرنسي كلية من حوض البحر الأبيض المتوسط وإرغام فرنسا على التقوقع داخل القارة الأوروبية.

ولأجل تحقيق هذا الهدف الاستراتيجي، كان لا بد لإنجلترا من أن تحرم فرنسا من نقاط الاستناد الحيوية التي كانت تتوفر لها في بلدان شمال إفريقيا. لذلك، ستركز جهودها، خلال هاته المدة، على فك ارتباط البلدان المغاربية الأربع بهذه الدولة. وقد رأينا في الصفحات الماضية، كيف أرغمت الجزائر وتونس وطرابلس على إلغاء اتفاقيات الهدنة والسلام التي أبرموها مع فرنسا وإعلانهم الحرب مجددا ضدها. ورأينا، بنفس المناسبة، أن عدم تبعية المغرب لسلطة الباب العالي، حال دون تدخل إنجلترا في شؤونه بنفس الكيفية التي سلكتها مع بلدان

الجوار. فاضطرت، بسبب ذلك، إلى التماس وسائل وسبل مغايرة تتلاءم وظروف المغرب السياسية. وكان من بين هذه الوسائل، تلك الرسالة التي كتبها سليم الثالث إلى مولاي سليمان في ١٩ شعبان سنة ١٢١٣هـ (٢٦ كانون الثاني/ يناير ١٧٩٩م).

قدمت هذه الرسالة السلطانية الإنجليز في صورة مثالية جعلت منهم «أصدقاء مخلصين للمسلمين ومحاربين مقتدرين». أما الفرنسيون فهم «أبالسة وعساكرهم منحوسة وطائفتهم ملعونة». صفتهم الغدر والخيانة. لهذه الأسباب كان على الدولة العثمانية، في أزمة كهاته، أن تتفق وتتحد «مع طائفة الإنجليزيين في هذه القضية بعهود ومواثيق قوية، في إعلان الحرب مع الفرانسة الخونة ومعاضدة بعضنا البعض في قمع تلك الطائفة الملعونة إلى أن نطهّر بعون الله تعالى الديار المصرية من لوثهم، ونخلّص أمة محمد عليه السلام من شرورهم وخبثهم».

وعليه، فإن صداقة وتحالف الإنجليز مع «دولة الإسلام الكبرى»، يقتضيان منطقيا صداقة المغرب لهم وتحالفه معهم، لأنه جزء صميم من أمة محمد عليه السلام التي أصبحت تتهددها شرور الفرنسيين. وهذا ما عبّرت عنه فعلا هذه الرسالة حينما خاطب فيها سليم الثالث مولاي سليمان، قائلا: «فبعدما صار اتفاقنا هذا معلوما لديكم، نؤمل من أخوتكم الصميمة ونخوتكم الهاشمية أن تعاملوا طائفة الإنجليزيين بمعاملة الأصدقاء». أما كيفية تحقيق ذلك، فتقتضي، من جهة أولى، عدم ممانعة المغرب لهم «في نقل الذخائر إلى جبلترة الكائنة تحت تصرفهم (...)، لأن النفع العائد عليهم عائد علينا»، واستجابته، من جهة ثانية، لرغبتهم «في التجارة في نواحيه ودياره بأخذ بعض بضائعكم لديارهم وجلب بعض بضائعهم لدياركم»، لأن «في هذا نفع يعم الطرفين، وربح يشمل الفريقين».

وإذا كان المطلوب من مولاي سليمان هو معاملة الإنجليز بهذه العناية الفائقة لقاء مناصرتهم لقضية المسلمين الكبرى آنذاك وهي تحرير مصر من الاحتلال الفرنسي، «فالواجب على صلابته الدينية وغيرته الإسلامية، تقول رسالة سليم الثالث، أن لا يسامح في نقل الذخائر إلى الفرنسيين، وألا من يعاونهم ويسلك في مسالكهم القبيحة، بل الواجب

عليه أن يقطع طرفهم ودابرهم، وينهب مهماتهم وأدواتهم وذخائرهم، ويعاملهم بما يوجب ضعف حالهم وتشتت بالهم ويورث قوة أهل الإسلام وضعف تلك الخونة اللئام»(٧١).

هكذا، نرى أنه إذا كانت المرحلة الأولى من علاقة المغرب بإنجلترا خلال سنوات الحملة قد دشنت بتلك الرسالة التوبيخية التي وجهها مولاي سليمان إلى عامل طنجة فور سماعه برفض العامل المذكور تزويد سفينة اللورد الإنجليزي، سانت فانسنت، بما كانت تحتاج إليه من مياه ومؤن، فيبدو أن المرحلة الثانية من هذه العلاقات افتتحتها هذه الرسالة التي أحاط فيها السلطان العثماني إنجلترا بهالة من الاحترام والتقدير، وقدمها في صورة المخلص أو المنقذ الذي ستتطهر على يديه، بتعاون مع الدولة العثمانية الديار المصرية «من لوث الفرنسيين وتخليص أمة محمد من شرورهم وخبثهم»، على حد تعبير الرسالة العثمانية الآنفة الذكر.

بهذه الصفة، ستعاود إنجلترا تحركاتها بالمغرب بشكل أكثر كثافة وقوة من ذي قبل. لذلك، يجدر بنا التوقف عند ردود الفعل التي سيقابل بها المغرب هذا التحرك الجديد لإنجلترا.

علمنا من المبحث السابق أن مولاي سليمان لم يستجب لدعوة السلطان العثماني في إعلان الحرب ضد فرنسا، أو أنه استجاب ولم يستطع تنفيذ ذلك لأسباب خارجة عن إرادته. أما إكرام الإنجليز الذي اعتبره واجبا فلم يُنفِّذ منه شيئا قبل إبرام معاهدة ١٤ حزيران/ يونيو ١٨٠١م. ولم تحظ إنجلترا، حسب علمنا، طيلة المدة التي استغرقتها الحملة بأية معاملة تفضيلية. ورغم ذلك، لم تجرؤ على توجيه أي تهديد مباشر ضده كما فعلت مع الجزائر وتونس، أو تستعمل القوة العسكرية كما حصل مع باشوية طرابلس.

لكنها، لم تأل جهدا في ترهيبه وترغيبه طيلة المدة التي ستفصلها

---

(٧١) سبق لنا عرض مضمون هذه الرسالة ومناقشتها، في سياق حديثنا عن المحاولات التي بذلها الباب العالي تجاه المغرب، ضمن المبحث الأول من هذا الفصل.

عن توصلها إلى توقيع معاهدة ١٤ حزيران/يونيو ١٨٠١م. فإذا صح كل ما تضمنته مراسلات القنصل الفرنسي، جاز لنا القول إنها استخدمت خلال هذه المدة كامل طاقاتها من أجل تقويض العلاقات السلمية التي كانت تجمع بين المغرب وفرنسا. فهي توجد، حسب هذه المراسلات، وراء الاحتفالات الشعبية المبكرة التي شهدتها مدينة أسفي بعد سماع ساكنتها نبأ خروج الفرنسيين من مصر، وكذا ثورة بناصر العبدي بهذه الجهة[٧٢]. كما نقرأ في مراسلات أخرى أن الإنجليز يوجدون وراء الإشاعة التي ترددت بقوة في إقليم سوس عن إنزال عسكري فرنسي بسواحلها[٧٣]، وأنهم «ما فتئوا يشيعون الأخبار الكاذبة بين الناس حول تصرفات الجيش الفرنسي وما تعرض له من تشتت»[٧٤] في مصر، ويشيّعون أخبارا كاذبة حول وفاة السلطان مولاي سليمان، ويوزعون الأموال لدفع القبائل النائية عن السلطة المركزية إلى التمرد[٧٥]. أما السبب في ذلك فهو، حسب هذا المصدر القنصلي، عدم رضى الإنجليز عن هذا السلطان لأنه رفض إعلان الحرب ضد فرنسا.

وبغض النظر عن مدى صحة ومصداقية هذه التقارير التي كان يوجهها الجهاز القنصلي الفرنسي في المغرب إلى الجهات العليا المسؤولة في باريس، والتي لم تخل من تضخيم مقصود لحجم الضغوط التي كانت تمارسها إنجلترا والبرتغال على المغرب، فالمؤكد أن هاتين الدولتين لم تكونا راضيتين عن استمرار العلاقات السلمية بين هذا القطر الإسلامي وفرنسا، وأنهما بذلتا كل ما في وسعهما من أجل إرغامه على قطع علاقاته مع هذه الدولة.

فماذا كان موقف السلطات العليا المخزنية من هذه المحاولات المتكررة؟

---

(٧٢) A.A.E.P, C.C.C.21, Tanger, Guillet à Talleyrand, 24 floréal an 7 (13 mai 1799), folio 263-264.

(٧٣) A.A.E.P, C.C.C.21, Mogador, Broussonet à Guillet, 1 prairial an 7 (29 mai 1799).

(٧٤) A.A.E.P, C.C.C.21, Tarife, Guillet à Talleyrand, 12 germinal an 7 (1 mars 1799), folio 248.

(٧٥) A.A.E.P, C.C.C.21, Tarife, Guillet à Talleyrand, 12 vendémiaire an 9 (4 octobre 1800), folio 30.

٢ ـ فشل المحاولات الإنجليزية واستمرار المغرب في حياده

رغم ما بذلته إنجلترا من جهود في هذا الاتجاه بقيت القيادة السياسية بالمغرب متشبثة بموقفها المحايد رافضة التورط سياسيا وعسكريا في الصراع الدائر آنذاك بين القوى الأوروبية؛ لأنه لم يكن بمقدور هذه القيادة إدراك الطبيعة الاستعمارية لهذه الحملة منذ البداية حيث اعتبرتها مجرد امتداد مجالي أو جغرافي لصراع تقليدي معروف لديها بين إنجلترا وفرنسا ومن كان يدور في فلكيهما من حلفاء ومناصرين، أو هي على الأقل حملة تأديبية ينحصر هدفها الأول والأخير في تخليص مصر من ظلم المماليك كما روّجت لذلك أجهزة الدعاية الفرنسية بقوة، وأيّدته بعض الوقائع سيما منها اتفاق الجلاء الذي أبرم بين الصدر الأعظم العثماني والجنرال كليبر بعد مضي حوالى عام ونصف على بدء الحملة (٢٤ كانون الثاني/يناير ١٨٠٠م).

ورغم ذلك، فإن تأييد إسبانيا القوي لفرنسا وتقوية وجوه التعاون والتنسيق العسكري بين الطرفين جعل المخاوف تتسرب ليس فقط إلى القيادة السياسية المغربية، بل إلى عموم المغاربة الذين أصبحوا يعيشون تحت هاجس تكرار التجربة المصرية على أراضيهم. فقد كتب القنصل الإنجليزي بعد توقيعه على اتفاقية ١٤ حزيران/يونيو ١٨٠١م، أن الخطر الفرنسي ماثل باستمرار لدى الأوساط الحكومية المغربية[٧٦].

ولا داعي إلى القول إنه رغم الأسباب الموضوعية لهذا التخوف، فإن الدعاية الإنجليزية لعبت دورا كبيرا في تقوية هذا الإحساس ووجهته الوجهة التي تخدم مصالحها؛ سواء الآنية منها وهي إرغام المغرب على إعلان الحرب ضد فرنسا، أو البعيدة وهي تقوية علاقاتها التجارية والسياسية مع هذا البلد الإسلامي المجاور لإحدى مستعمراتها الاستراتيجية. لهذه الاعتبارات لم تدع الحكومة الإنجليزية أية مناسبة تمر دون أن تهول من خطورة «النوايا العدائية» لفرنسا تجاه المغرب. لذلك، استمر قنصلها، جيمس ماترا، إلى حدود شهر حزيران/يونيو من سنة

(٧٦) El Mansour, «Political and Social Development under the Reign of Moulay Solayman (1792-1822),» tome 1, p. 232.

١٨٠١، يستقبل تعليمات من حكومة جلالة الملكة تحثّه فيها على تحذير «إمبراطور المغرب» من خطر الوقوع قريبا ضحية للمؤامرات الفرنسية التي قيل إنها كانت تحاك ضده، وأن «يقدم له خيانة وخبث السياسة الفرنسية في أقوى العبارات»[٧٧].

ومما زاد من هذه المخاوف لدى السلطات المغربية وأضفى على الدعاية الإنجليزية بعض المصداقية، نزول حوالى ألف جندي فرنسي بميناء قادس في هذه الآونة بالذات. وعلى الرغم من أن الوجهة الحقيقية لهؤلاء الجنود كانت هي مصر، فإن مجرد ظهورهم بهذا الميناء الإسباني حرك مخاوف المغرب من جديد وجعله أكثر ميلا للاعتقاد في التحذيرات الإنجليزية، مما اضطر الوزير محمد بن عبد السلام السلاوي إلى استقصاء حقيقة هذا التحرك الفرنسي من القنصل الإنجليزي في تاريخ متأخر من هذه السنة[٧٨].

في خضم هذه الأجواء المفعمة بالخوف والترقب والدعاية المكثفة التي روّجت لها أجهزتها القنصلية على أكثر من صعيد، بدأت الدبلوماسية الإنجليزية تحقق بعض أهدافها التي ما فتئت تتحرك من أجلها منذ ثلاث سنوات. فنجحت في زرع المخاوف والشكوك حول النوايا الفرنسية والإسبانية بخصوص أمن وسلامة المغرب، مستغلة في ذلك الهواجس الأمنية التي خلقتها سيطرة نابليون على مقدّرات الحكم في فرنسا وخوضه حروبا توسعية ناجحة داخل القارة الأوروبية. وسط هذه الأجواء السياسية والعسكرية المتوترة، ستنتزع إنجلترا من المغرب اتفاقية الرابع عشر من حزيران/يونيو ١٨٠١م التي سيترتب عنها خفض الرسوم الجمركية على البضائع المغربية الموجهة إلى جبل طارق وإبرام معاهدة جديدة للسلام والتجارة تضمنت موادها المعاهدات السابقة[٧٩].

ومما لاشك فيه أن مخاوف مولاي سليمان من احتمالات قيام الأسطول الإسباني بإنزال حملة فرنسية بالمغرب وتكرار التجربة المصرية

---

(٧٧) المصدر نفسه، ص ٢٣٣.

(٧٨) المصدر نفسه.

(٧٩) روجرز، **تاريخ العلاقات الإنكليزية ـ المغربية حتى عام ١٩٠٠**، ص ١٧٣.

على أراضيه كانتا وراء المرونة التي أبداها في التوقيع على هذه الاتفاقية التي دشنت لمرحلة جديدة في علاقات البلدين؛ حيث أبلغ القنصل الإنجليزي، بصراحة تامة، بأن مولاي سليمان يرى في بريطانيا «الدولة الوحيدة القادرة على حماية المغرب من مثل هذا الغزو»[٨٠].

ومعنى هذا، أن إنجلترا ما كانت لتحصل على هذه الاتفاقية الجديدة التي مكنتها من جني عدة فوائد لولا هذه الحملة التي كان موضوعها مصر والشام، وطالت آثارها السياسية والعسكرية ارتباطات المغرب الدولية، سيما مع إنجلترا التي نذرت نفسها منذ اندلاع هذه الأزمة الدولية لطرد فرنسا من هذين الموقعين الاستراتيجيين وفك ارتباطها بمجموع البلدان الإسلامية، خاصة منها تلك المحاذية لمواصلاتها البحرية أو مستعمراتها مثل المغرب.

ومع ذلك، يجدر بنا القول إنه رغم الظروف الصعبة التي كان يمر بها المغرب آنذاك وجسامة المخاطر التي كانت تتهدد أمنه الترابي والضغوط القوية التي مارستها إنجلترا في وقت كان قد فقد فيه أهم أطره السياسية، وعلى رأسها الوزير ابن عثمان، لم تستطع هذه الأخيرة أن تنتزع منه أهم ما كانت تسعى إليه هي وحليفتها الدولة العثمانية، ألا وهو إعلان الحرب ضد فرنسا وتمكينها من ميناء القصر الصغير أو جزيرة بليونيش كما سبق أن وعدها مولاي سليمان بذلك[٨١]، أو تزويد أسطولها بما كان يحتاجه من مؤن وذخائر.

وربما ساعدتها السلطات المغربية في تسهيل مهام هذا الأخير بشكل من الأشكال، لكن أي انخراط قوي وصريح للمغرب في تحقيق ما كانت تسعى إليه من أهداف ومطالب لم تحصل عليه قبل خروج جيش الشرق من مصر. أما ما تضمنته اتفاقية الرابع عشر من حزيران/ يونيو، فلم يتجاوز

---

(٨٠) المصدر نفسه، ص ١٧٤.

(٨١) بقي قنصل إنجلترا جيمس ماطرا إلى سنة ١٨٠٢م، يطالب الوزير المغربي محمد السلاوي بتسليم بلاده هذين الموقعين الاستراتيجيين. انظر بهذا الخصوص: بن الصغير، **المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر (١٨٥٦ ـ ١٨٨٦)**، ص ٤٤ ـ ٤٥، و El Mansour, «Political and Social Development under the Reign of Moulay Solayman (1792-1822),» tome 1, pp. 237-238, et puis annexe no. 18, p. 30.

حدود ما يمكن أن تتيحه العلاقات المعتادة بين المغرب وباقي الدول الأوروبية بما في ذلك فرنسا وإسبانيا. أضف إلى هذا، أن هذا المكسب لم يتحقق لإنجلترا، إلا في لحظة كانت تشرف فيها فرنسا على رحيلها من مصر.

ورغم ذلك، يجب أن نعترف بأن إبرام هذه الاتفاقية الجديدة في حد ذاته، يعتبر نصرا بيّنا للدبلوماسية الإنجليزية ودليلا قاطعا على تعاطف القيادة السياسية بالمغرب، وفي مقدمتها مولاي سليمان مع هذه القوة المسيحية التي تحالفت مع «دولة الإسلام الكبرى» وساعدتها بقوة في تحرير الشام ثم مصر. فكوفئت، من جهة المغرب، بإبرام هذه الاتفاقية التي ستجعلها، من دون شك، في موقع أقوى من فرنسا فيما يخص علاقات هذا البلد الخارجية.

خلاصة الفصل الأول

تبين لنا، من خلال هذا الفصل، أنه رغم نداءات الجهاد المتكررة التي كانت ترد على مولاي سليمان من السلطان العثماني، سليم الثالث، وسياسة الترهيب والترغيب التي مارستها عليه الآلة الدبلوماسية لكل من إنجلترا ورديفتها البرتغال، لم يسمح لنفسه بالتورط في الأزمة الدولية التي أعقبت احتلال فرنسا لمصر والشام، واكتفى باتخاذ بعض التدابير الوقائية حينما سمح بتجديد الاتفاقيات مع بعض القوى الأوروبية الضالعة في هذا الصراع، مثل إسبانيا وإنجلترا. لكنه، رفض، باستمرار، الدخول في أية ترتيبات سياسية أو عسكرية خاصة مع أية واحدة منهما.

الفصل الثاني

موقف المغرب من الدولة الغازية
فرنسا ـ وحليفتها إسبانيا

رأينا من خلال مبحثي الفصل السابق أن مولاي سليمان تعامل بحذر شديد مع نداءات الجهاد التي كانت تصله من سليم الثالث، وصمد بقوة أمام المحاولات الإنجليزية التي كانت تستحثه على قطع علاقاته بفرنسا وإعلان الحرب ضدها. وإذا كان هذان المبحثان قد أتاحا لنا فرصة الإطلاع بطريقة غير مباشرة على طبيعة الموقف الذي اعتمده المغرب تجاه فرنسا وحليفتها إسبانيا، فإن الإلمام بتفاصيله لن يتأتى على الوجه المطلوب إلا من خلال الكشف عن الكيفية التي تعامل بها مباشرة مع فرنسا باعتبارها الطرف المعتدي، وكذلك إسبانيا باعتبارها حليف فرنسا الأقوى وتربطها في نفس الوقت علاقات خاصة بهذا البلد.

ارتبط المغرب منذ عهود بعيدة بعلاقات قوية مع فرنسا. وتدعمت هذه العلاقات أكثر بعد نجاح الطرفين في إبرام اتفاقية ٢٨ أيار/ مايو ١٧٦٧م (آخر ذي الحجة ١١٨٠هـ)[1] التي أضحت تشكل المرجع الرئيس لحل خلافاتهما وأزماتهما المستقبلية. وإذا كانت هذه العلاقات قد تميزت، خلال مرحلة ما قبل الثورة الفرنسية، بهيمنة الطابع السلمي

---

(١) انظر: عبد الهادي التازي، **التاريخ الدبلوماسي للمغرب**، ١٠ مج (المحمدية: مطبعة فضالة، ١٩٨٨)، مج ٩، ص ٩٠، والقادري، «كناش شروط الأجناس،» (مخ.خ.ع.، د.١٦٩٤).

وسيطرة المصالح التجارية المتبادلة على الخلافات السياسية، فإن إعدام لويس السادس عشر، في ٢١ كانون الثاني/ يناير سنة ١٧٩٣م، وقيام الجمهورية بفرنسا منذ ذلك التاريخ، قد أثرا سلبا على مواقف البلدين من بعضهما البعض. فالثورة التي شهدتها فرنسا سنة ١٧٨٩م كان من أهم نتائجها إلغاء النظام الملكي ونشوب سلسلة من الحروب بين النظام الجمهوري الذي حل مكانه، وعدد من الملكيات المحافظة بأوروبا.

وغني عن القول إن مولاي سليمان الذي تزامن مجيئه إلى الحكم مع هذه التطورات السياسية والعسكرية لم يكن لينظر بعين الرضى إلى ثورة أخذت تصنف الأنظمة الملكية ضمن خانة الأنظمة الرجعية ونذرت نفسها للقضاء عليها عن طريق العنف المسلح. ورغم ذلك يبدو أنه لم يتخذ أي إجراء من شأنه أن يؤثر على السير العادي لعلاقاته بهذا النظام الثوري، بل قابل قناصلته بالحفاوة والترحاب ومد لهم يد المساعدة في ساعات الشدة[٢].

لكن، إذا كانت امتدادات هذه الثورة ومخاطرها قد ظلت منحصرة داخل القارة الأوروبية وبعض النقاط النائية في أمريكا، فإن إرسال حكومة الإدارة لجيش الشرق إلى مصر، ثم توغل هذا الأخير بعد ذلك داخل الشام سيضطر المغرب لا محالة إلى مراجعة موقفه من هذه القوة الاستعمارية التي أصبح جيشها يحتل موقعين إسلاميين ضمن أملاك «دولة الإسلام الكبرى». كما أن حدثا بهذا الحجم وهذه الخطورة،

---

(٢) شكلت علاقة مولاي سليمان بالنظام الثوري الفرنسي موضوع بحوث موسعة نخص منها بالذكر: عبد الحفيظ حمان، **المغرب والثورة الفرنسية** (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، ٢٠٠٢)، ص ٥٣ ـ ٦٩؛ زكي مبارك، «مولاي سليمان والثورة الفرنسية ونابليون بونابرت ١٧٩٢ ـ ١٨١٥،» ورقة قدمت إلى: **الوثائق المرجعية لعهد السلطان مولاي سليمان، العمل الداخلي والسياسة الخارجية للسطان مولاي سليمان، الإنجازات الثقافية والعمرانية على عهد السلطان مولاي سليمان: أعمال الدورة الرابعة التي عقدت أيام ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١ دجنبر ١٩٩٢** (الرباط: مطبعة الأمنية، ١٩٩٤)، ص ٨٠ ـ ١١٠؛ Mohamed El Mansour, «Political and Social Development under the Reign of Moulay Solayman (1792-1822),» 2 tomes (Doctorate, University of Landers, 1981), tome 1, pp. 220-241, and Amina Ihrai-Aouchar, «Les Relations du Maroc avec l'Europe à l'époque de la Révolution française et de l'Empire (1789-1815),» *Héspéris-Tamuda*, vol. 28, no. 1 (1990), pp. 29-46.

سيثير، بكل تأكيد، لدى القيادة المغربية مخاوف مشروعة من إمكانية تكرار نفس العدوان على المغرب في وقت تكاثرت فيه الإشاعات بقرب إنزال عسكري فرنسي بالسواحل الشمالية وتوطدت عرى التحالف بين فرنسا وإسبانيا.

ـ لهذه الاعتبارات مجتمعة يحق لنا أن نتساءل عن الموقف الذي ستتخذه القيادة السياسية بالمغرب تجاه فرنسا وما كان يتصل بها من جنود ورعايا في مصر والمغرب؟

وحتى نتمكن من تقييم موقف المغرب ضمن إطاره الإسلامي العام، نرى من المستحسن إعطاء لمحة موجزة عن الكيفية التي تعاطت بها قيادات بعض البلدان الإسلامية مع فرنسا إثر قيامها بهذا العدوان.

أولاً: لمحة موجزة عن موقف بعض البلدان الإسلامية من غزو فرنسا لمصر

علمنا من خلال بعض الوثائق والمصادر أن أغلب البلدان الإسلامية التابعة آنذاك للدولة العثمانية قامت بإعلان الحرب ضد فرنسا، ثم بادرت، نزولا عند أوامر الباب العالي، إلى اعتقال الرعايا الفرنسيين الموجودين فوق أراضيها وإخضاع البعض منهم للأعمال الشاقة ومصادرة ممتلكاتهم. وانتهى الأمر بهم، في غالب الأحوال، إلى الطرد خارج البلاد في أسوأ الظروف، أو الاستمرار مددا طويلة رهن الاعتقال.

ففي العاصمة العثمانية تم حبس التجار الفرنسيين ومن كان يتصل بهم من وكلاء داخل قصر فرنسا، ثم صودرت ممتلكاتهم. وبعد تسليم هذا القصر إلى السفير البريطاني، أرغم هؤلاء التجار على الإقامة في مكان آخر متناهي الصغر لا يتناسب مع عددهم. أما باقي الرعايا الفرنسيين فقد وضعت الأغلال في أرجلهم وأخضعوا للأعمال الشاقة، ثم نقل أغلبهم للعمل في مناجم النحاس. في حين، نقل قنصل سميرن ومستشاره ومترجمه إلى إحدى قلاع البحر الأسود، وأجبروا على القيام بالأعمال الشاقة. أما في الشام فقد تم سجن كل الفرنسيين الموجودين بحلب بعد أن تلقوا ضربا مبرحا. وأخضع الجزار في مدينة عكا

الفرنسيين الذين سلموا إليه، إلى أشد أنواع العذاب ثم أمر بقتلهم(٣)

وفي الجزائر، أسر جميع الفرنسيين الموجودين بالعاصمة في ٢١ كانون الأول/ديسمبر ١٧٩٨، ووضعت الأغلال في أرجلهم، ثم أرغموا على النزول مطلع كل صباح إلى ميناء العاصمة والعودة مساء إلى السجن، وأقفلت دورهم وسلمت مفاتيحها للداي. ثم أمر هذا الأخير بإحضار بقية الرعايا الفرنسيين الموجودين بباقي المدن الجزائرية. كما أمر ستة من قراصنته بترصد البحارة الفرنسيين وإلقاء القبض عليهم(٤). وحدث أن وقع خلال هذه المطاردة مائتان وأربعون فرنسيا في قبضة أحد القراصنة الجزائريين فاقتيدوا جميعهم إلى الجزائر حيث تمت معاملتهم كأسرى(٥).

وبعد نجاح حكومة الإدارة في إبرام معاهدة سلام مع داي الجزائر في ٣٠ أيلول/سبتمبر سنة ١٨٠٠، اضطر هذا الأخير، تحت ضغط الباب العالي، إلى إعلان الحرب مجددا ضد فرنسا. لكن، عوض أن يعامل الرعايا الفرنسيين كأسرى، طالبهم هذه المرة بمغادرة الجزائر التي سوف لن يعودوا إليها إلا بعد نجاح الطرفين - الفرنسي والجزائري - في عقد معاهدة سلام وتجارة في ٢٨ كانون الأول/ديسمبر سنة ١٨٠١(٦).

---

(٣) جاءت هذه المعلومات ضمن تقرير رسمي، رفعه قنصل فرنسا بطرابلس الغرب إلى وزير الخارجية الفرنسي في شهر أيلول/سبتمبر من سنة ١٧٩٩. ذكره: François Charles-Roux, *Bonaparte et la Tripolitaine* (Paris: Société d'éditions géographiques, maritimes et coloniales, 1929), p. 91.

للإلمام أكثر بانعكاسات هذه الحملة على أوضاع الرعايا الفرنسيين المقيمين بالشام، انظر: Hidemitsu Kuroki, «Events in Aleppo during Napoleon's Expedition of Egypt,» *Bulletin d'études Orientals* (Damas), vol. 51 (1999), pp. 263-277.

(٤) A.A.E.P., C.C.C, 34, Alger, Fraissinet (Consul de la République Batave à Alger) à Talleyrand 2 janvier 1799, folio 304.

(٥) كان هؤلاء يؤلفون مع فرنسيين آخرين، حامية كورفو. وبعد استسلام هذه الأخيرة للقوات العثمانية الروسية، اضطروا إلى العودة إلى فرنسا. . بينما هم في طريقهم إلى ميناء طولون، انفصلت مراكبهم عن بعضها البعض بسبب عاصفة بحرية فتعقبهم هذا القرصان الجزائري وتمكن من أسرهم. انظر: A.A.E.P., C.C.C. 34, Alger, Moltedo (Consul de France à Alger) au ministre de la Marine et des Colonies, 3 prairial an 7 (22 mais 1799), folio 429.

(٦) A.A.E.P., C.C.C. 35, Alger, Dubois Thainville (Consul de France à Alger), à Talleyrand, 17 pluviôse an 9 (6 février 1799), folio 202.

يضاف إلى هذا وذاك، أن داي الجزائر رفض طيلة هذه المدة التي استغرقتها الحملة تسريح أو مبادلة الأسرى الفرنسيين الذين وقعوا في قبضته في أوقات متفرقة قبل الحملة وخلالها رغم الجهود الكبيرة التي بذلتها السلطات الفرنسية في هذا الاتجاه[٧]. كما استغل هذه المناسبة لاستخلاص جزء من الديون التي كان يطالب حكومة الإدارة بردها عن طريق المصادرة التي تعرضت لها ممتلكات التجار الفرنسيين المقيمين بالجزائر[٨].

وأسوة بما وقع في الجزائر، اضطرت كل من تونس وطرابلس إلى إعلان الحرب ضد فرنسا، واتخذت بعض الإجراءات ضد رعاياها. لكنها لم تصل في شدتها مستوى ما وصلت إليه تلك التي طالتهم في الجزائر، لأسباب خاصة بهذين البلدين، منها كثافة العلاقات التي كانت تربطهما بالجمهورية الفرنسية، وقربهما من جيش الشرق الذي كان مجرد وجوده بمصر يثير مخاوف حقيقية لدى قادة هذين البلدين.

وهكذا، وجدنا تونس، رغم إعلانها الحرب ضد فرنسا في ٢ كانون الثاني/يناير ١٧٩٩، ظلت ترفض بشدة أن يعترض قراصنتها سبيل المراكب الفرنسية، خاصة منها التجارية؛ «لأن الخلطة بين أهل تونس والفرنسيين في المتاجرة، كثيرة جدا لا يمكن فصلها إلا بعد زمن طويل»[٩].

غير أن هذا لم يمنعها من تجميع الرعايا الفرنسيين القاطنين فوق ترابها ـ وكان عددهم مائة وخمسة وعشرون فردا ـ ووضعهم تحت الحراسة في أحد المباني الحكومية، وتشميع مخازنهم ومحلاتهم

---

(٧) عند مغادرة القنصل الفرنسي ومن كان معه من الرعايا الفرنسيين الجزائر في الثلاثين من شهر كانون الثاني/يناير ١٨٠١ بمناسبة إعلان هذه الأخيرة الحرب مرة ثانية ضد فرنسا، خلفوا وراءهم حوالى خمسمائة أسير فرنسي. وهذا معناه أن داي الجزائر لم يستجب للطلب الذي تقدمت به فرنسا فور احتلالها لمالطا، والذي عبّرت فيه عن رغبتها في مبادلة الأسرى، بدعوى عدم وجود أسرى جزائريين من بين أسرى المسلمين الذين وجدوا بمالطا. انظر: Charles Féraud, *Histoire des villes de la province de Constantine, La Calle, et documents pour servir à l'histoire des anciennes concessions françaises d'Afrique* (Alger: Impr. V. Aillaud et Cie, 1877), p. 562.

(٨) المصدر نفسه، ص ٥٥١.

(٩) أبو العباس أحمد بن عمر بن أبي الضياف، **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، ٨ ج (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٧٦ ـ ١٩٧٩)، ج ٣، ص ٣٢ ـ ٣٣.

التجارية. أكثر من هذا، اضطرتها الضغوط التي مورست عليها من قبل الباب العالي إلى القبض على تسعين بحارا فرنسيا كانوا قد نزلوا بالسواحل التونسية بعد إعلان الحرب، فأدخلتهم السجن، وأرغمت الضباط منهم على قطف الورود وجمع الزيتون وجني الحوامض. وكانوا يساقون إلى الحقول، صحبة حراس يحملون الكرباج. ثم أرغموا، بعد ذلك، على إزالة الأزبال من ساحات القصر، وحمل الآجر. وكان البعض منهم يتعرض للضرب المبرح لهذا السبب أو ذاك.

وخلافا لما كان عليه الأمر في الجزائر وطرابلس، مكث الرعايا الفرنسيون في الأسر بهذه الإيالة، مدة أطول؛ إذ لم يتم الإفراج عنهم، إلا بعد توقيعها على هدنة غير محدودة مع فرنسا في ٢٦ أيلول/سبتمبر سنة ١٨٠٠. لكنها اكتفت بطردهم عندما أرغمت، مرة أخرى، في شهر كانون الثاني/يناير من سنة ١٨٠١، على إعلان الحرب ضد فرنسا والقبض على رعاياها(١٠).

وبينما كان داي الجزائر وباي تونس يتخذان الإجراء تلو الآخر ضد فرنسا ورعاياها إذعانا للأوامر الصارمة والمتكررة التي كانت تصلهم عبر موفدي الباب العالي، ظل باشا طرابلس، على الرغم من قبوله المبدئي إعلان الحرب ضد فرنسا، يرفض بشدة إخضاع رعاياها المقيمين ببلاده لأي إجراء حربي، لعدة أسباب؛ منها على الخصوص الخوف الشديد الذي ظل يتملكه من جراء الهجوم القوي والمفاجئ الذي تعرضت له كل من مالطا ومصر المجاورتين لطرابلس. ناهيك عن أن يوسف باشا القرمانلي الذي كانت تربطه علاقات متوترة بالباب العالي كان يخشى من أن ينزل به مثل ما نزل بالمماليك؛ لأن نابليون كان يردد في رسائله إلى هذا الباشا أن مجيئه إلى مصر إنما تم باتفاق مع السلطان العثماني لتأديب هؤلاء وإخضاعهم لسلطة الباب العالي. يضاف إلى هذا وذاك الأرباح المالية الطائلة التي كانت تستفيد منها خزينته بفضل استمرار علاقاته الاقتصادية بكل من الحامية الفرنسية بمالطا وجيش الشرق

---

(١٠) Georges Grosjean, *La Maitrise de la méditerranée et la Tunisie pendant la révolution française, 1789-1802* (Paris: Librairie Chapelot, 1914), pp. 234-258.

بمصر، وخوفه الدائم والشديد من أن يجتاح جيش الشرق أراضيه إذا ما هو غامر بإعلان الحرب ضد فرنسا، أو أن تؤلب ضده هذه الأخيرة بعض الشخصيات المناوئة له وعلى رأسها عمه سيدي حسن القرمانلي الذي كان يوجد ساعتها بالقاهرة(١١).

لهذه الأسباب مجتمعة حرص يوسف باشا القرمانلي على الاحتفاظ بعلاقاته السلمية مع فرنسا، بل أبدى استعداده التعاون مع جيش الشرق وحامية مالطا وتزويدهما بما تحتاجانه من مواد غذائية، وساهم بشكل كبير في ربط الاتصال بينهما وبين حكومة الإدارة؛ سواء على مستوى تبادل الرسائل، أو نقل المعدات والذخائر الحربية. وامتدادا لهذا الموقف رفض باشا طرابلس، شأنه في ذلك شأن جارتيه الجزائر وتونس، إعلان الحرب ضد فرنسا في بادئ الأمر. وعندما اضطر إلى الإذعان لأوامر الباب العالي اكتفى بالتظاهر أمام المبعوث العثماني باتخاذ بعض الإجراءات ضد الرعايا الفرنسيين، ثم تراجع عنها فور مغادرة هذا المبعوث ميناء الباشوية في ٢٥ شباط/ فبراير ١٧٩٩(١٢).

لكن، إذا كان باشا طرابلس قد أرغمته ظروفه الخاصة على ممالأة فرنسا وإدارتها العسكرية بمصر، فإن الدولة العثمانية وحليفتها إنجلترا لم ينظرا بعين الرضا إلى ما كان يجري في هذه الإيالة، خاصة عندما تأكد لديهما أن حاكمها لم يتخذ الإجراءات الحربية اللازمة ضد فرنسا. وقد بلغ هذا الاستياء ذروته عندما رفض هذا الحاكم، خلافاً لما كان قد أجمع عليه علماء هذا البلد في اجتماع عقدوه بهذا الخصوص تسليم الرعايا الفرنسيين للبحرية الإنجليزية قصد توجيههم إلى إسطنبول(١٣).

ورغم هذه الضغوط العثمانية وما تخللها من تدخل عسكري لإنجلترا، استمر يوسف باشا القرمانلي في علاقاته «الودية» مع فرنسا.

---

(١١) Charles-Roux, *Bonaparte et la Tripolitaine*, p. 62.

(١٢) المصدر نفسه، ص ٧١.

(١٣) المصدر نفسه، ص ٧٩.

وتجلى هذا بوضوح عندما أخذ هذا الباشا يوزع فرامانات على كل سكان المدن الساحلية يعلمهم فيها بعدم التعرض للإنزال البحري الذي كان الجنرال الفرنسي جانتوم (Ganthaume) بصدد تنفيذه بسواحل طرابلس لإيصال مساعدة عسكرية مستعجلة لجيش الشرق المحاصر بمصر في وقت كانت تعلن فيه الجزائر وتونس الحرب، مجددا، ضد فرنسا بأمر من الباب العالي[١٤]. ثم ختم يوسف باشا رحلته هاته بالإسراع إلى عقد معاهدة سلام مع الجمهورية الفرنسية في ١٨ حزيران/يونيو سنة ١٨٠١، واضعا بذلك حدا نهائيا لحالة الرعب والخوف التي استمرت تتملكه طيلة السنوات الثلاث التي مكث فيها جيش الشرق يقيم بالقرب منه علاقات جوار غير عادية.

تبين لنا، من خلال هذه الجولة السريعة التي حاولنا من خلالها الكشف عن الاتجاهات الرئيسة التي هيمنت على مواقف البلدان المغاربية الثلاث التي كان من المنتظر من المغرب أن ينسق جهوده الحربية معها، أن أيا منها لم تعلن الحرب ضد فرنسا وتتخذ تجاهها ما يلزم من إجراءات حربية بملء إرادتها، وإنما أرغمت على ذلك من طرف الدولة العثمانية وحليفتها إنجلترا بعد إنذار ووعيد. كما أنها ماطلت كثيرا قبل أن تقدم على مجاهرة فرنسا بالحرب، وتعجلت من دون ترخيص من الباب العالي في إبرام اتفاقية هدنة أو سلام مع هذه الدولة المعتدية، في وقت كانت فيه قوات هذه الأخيرة لا تزال تحكم قبضتها على مصر، ولم تقبل بمعاودة الحرب إلا بعد أن اتخذت السلطات العليا العثمانية ضدها عقوبات بمساعدة حليفتها إنجلترا.

ومما تجدر الإشارة إليه في ختام هذه الجولة هو أن هذا التلكؤ والمماطلة التي لوحظت على مواقف هذه البلدان المغاربية الثلاث، رغم ارتباطها الصريح بهذه الدولة، إنما كان مردها إلى العلاقات الخاصة التي كانت تربط هذه الكيانات المغاربية بالدولة العثمانية وفرنسا. فعوض أن تنزل بكامل ثقلها إلى جانب الدولة الأم وتستفرغ جهدها في محاربة فرنسا وجيشها بمصر، استغل قادتها هذه المناسبة لتعزيز استقلالاتهم

---

(١٤) المصدر نفسه، ص ١٣٣.

الذاتية. يضاف إلى هذا أن هذه الحملة التي بسطت سيطرتها بسرعة غير متوقعة على مصر وجزء هام من الشام، أقنعت هؤلاء القادة بعدم جدوى الدخول في مواجهة مفتوحة مع فرنسا، مخافة أن تتكرر نفس التجربة على أراضيهم التي كان يقع البعض منها على مرمى حجر من جيش الشرق القابع في مصر، ويوجد البعض الآخر بمحاذاة الطريق البحري الذي عبرته قوات الحملة قبل قليل.

وإذا كان هذا هو شأن البلدان المغاربية التي كانت تربطها علاقات خاصة مع فرنسا ومصر وتدين بولائها الصريح لسلطة الباب العالي، فإن باقي الكيانات السياسية التابعة للدولة العثمانية، سيما منها تلك التي كانت توجد على تماس مباشر مع جيش الشرق بمصر والشام وتتمتع باستقلال أوسع، لم يصدر عنها أي إجراء يؤكد تجاوبها مع نداءات الجهاد التي كانت ترد عليها من قبل سليم الثالث. أقصد بذلك إمارة الحجاز وإمامتي اليمن ومسقط الذين نأوا بأنفسهم عن التورط في هذه الأزمة، بل وجدنا منهم من جاهر بعلاقاته الودية مع إدارة الاحتلال الفرنسية، مثل أمير الحجاز، ساعد بن مغالب الذي لم يختلف وضعه بهذه المناسبة عن وضع باشا طرابلس من حيث مستوى التداخل والتعاون الذي حصل بينه وبين فرنسا وجيشها بمصر(١٥).

ـ إذا كان هذا هو، بصفة عامة، موقف الكيانات السياسية المنضوية آنذاك تحت لواء الدولة العثمانية، فماذا يمكن أن نقول عن المغرب الذي كان يتولى إدارة شؤونه بنفسه؟

---

(١٥) للمزيد من التفصيل حول موقف هذه الكيانات السياسية (الحجاز واليمن ومسقط) من الحملة الفرنسية على مصر، انظر: محمد زكريا عناني، «مراسلات متبادلة بين الشريف غالب بن مساعد وبين نابليون بونابرت ورجال حملته على الشرق،» **مجلة الدارة** (الرياض)، العدد ٣ (جمادى الثانية ١٤٠١ هـ ـ نيسان/ أبريل ١٩٨١م)، ص ٧٣ ـ ٩١، والعدد ٤ (رجب ـ رمضان ١٤٠٦هـ ـ نيسان/ أبريل ـ حزيران/ يونيو ١٩٨٦م)، ص ٥ ـ ٢٩؛ **ذكريات الشوكاني: رسائل المؤرخ اليمني محمد بن علي الشوكاني**، جمع وتحقيق صلاح رمضان محمود (بيروت: دار العودة، ١٩٨٣)؛ سلمان لفتة الزبيدي، «علاقة عُمان مع القوى الأوروبية في عهد سلطان بن أحمد،» **مجلة الوثيقة** (البحرين) ([د. ت.])، ص ٩٦ ـ ١١٧، و Abir Mordachai, «Relations between the Government of India and the Sharif of Mecca during the French Invasion of Egypt, 1798-1801,» *Journal of the Royal Asiatic Society*, vol. 97, no. 1 (January 1965), pp. 342-350.

ثانياً: موقف السلطات المغربية العليا من حكومة الإدارة في باريس

قبل أن يرتبط اسم الحملة بنابليون بونابرت وجيش الشرق، نبتت فكرتها واختمرت في الأوساط العليا للثورة الفرنسية. ثم أصبحت مشروعا متكاملا وقابلا للإنجاز بفضل العناية التي أولتها إياها حكومة الإدارة وعلى رأسها وزير خارجيتها دومينيك تاليران الذي كان يعتبر من أكبر المتحمسين والمدافعين عن هذا المشروع الاستعماري الطموح. ومما لا شك فيه أن القيادة المغربية وعلى رأسها مولاي سليمان، كانت مدركة لهذه الحقيقة. لذلك، يحسن بنا في بادئ الأمر، ونحن نتقصى موقفها من هذه الحملة، أن نتوقف عند الكيفية التي تعاملت بها هذه القيادة مع حكومة الإدارة، باعتبارها الجهاز الفرنسي الأعلى الذي كان يقف وراءها.

تؤكد لنا عدد من الوثائق المتبادلة بين السلطات العليا الفرنسية والمغربية أنه خلافا لما أقدمت عليه الدولة العثمانية وبقية البلدان الإسلامية المنضوية تحت سلطانها، لم يعلن المغرب الحرب ضد فرنسا، ولم يقطع علاقاته معها، بل استمر يتشبث بعلاقاته السلمية معها طيلة المدة التي استغرقتها الحملة.

نستنتج هذا من مختلف الرسائل التي كان يوجهها مولاي سليمان، في مناسبات عدة، إلى حكومة الإدارة بباريس أو قنصلها بطنجة، ومن أجوبته عن مختلف الرسائل التي كانت ترد عليه من هاتين الجهتين. هذا، من دون أن نغفل الخطابات أو الكلمات التي كان يقابل بها مولاي سليمان بعض أعوان القنصلية الفرنسية في عدد من المناسبات، والرسائل التي كانت توجهها بعض الأطر المخزنية، من وزراء وعمال وقواد وبعض الشخصيات المتنفذة، إلى جهات عليا بفرنسا.

لهذا، نعتقد أنه من خلال استعراضنا وتحليلنا لنماذج من هذه الوثائق سنقترب أكثر من الصورة الحقيقية التي كانت توجد عليها علاقة المغرب بفرنسا خلال سنوات الحملة، وكذا الموقف الذي اتخذه هذا البلد الإسلامي من حكومة الإدارة باعتبارها أعلى جهاز سياسي مسؤول عن هذه الحملة.

أول رسالة تطالعنا في هذا الإطار هي تلك التي بعثها مولاي سليمان إلى حكومة الإدارة في ٢٢ ربيع الأول سنة ١٢١٣هـ (٣ أيلول/ سبتمبر سنة ١٧٩٨م)، أي بعد مضي أكثر من شهرين على الإنزال العسكري الفرنسي بالإسكندرية. وهي عبارة عن شكوى بخصوص التعديات والمظالم التي كان يرتكبها القراصنة الفرنسيون باستمرار في حق التجار المغاربة، مرفقة بطلب ملح بضرورة إيقاف هذه التعديات والمظالم. ما يهمنا فيها هو تأكيدها، من خلال عبارات المجاملة التي تضمنتها، على استمرار العلاقات الودية بين هذين البلدين وفق صيغتها التقليدية. فقد وجهت هذه الرسالة إلى «أعظم ديوان في الملة النصرانية، الشهير الذكر، الجمهور القائم بالدولة الفرنساوية». وبعد تذكير مولاي سليمان لفرنسا بما كان عليه أسلافه «من الرعي الجميل والإحسان الجزيل من الجانبين»، أكد لها استمرار هذا المسلك بعد أن آل الأمر إليه، محافظة منه «على العهد القديم والرعي الصميم»، «يلاحظ رعاياهم مثل ما يلاحظ رعاياه».

وعلى قاعدة هذه المعطيات، تقدم إلى حكومة الإدارة بشكواه من قراصنتها بسبب تعرضهم للتجار المغاربة وأخذ أموالهم «من غير موجب»، مطالبا في نفس الوقت برد أمتعتهم وإعطاء الأمر إلى البحرية الفرنسية بأن يحافظوا على العهود التي توجد بين المغرب وفرنسا «كما تقتضيه الصحبة». وختم رسالته بالتأكيد على استمرار الصداقة بين البلدين كما كانت في السابق[(١٦)].

وجّه مولاي سليمان هذه الرسالة إلى حكومة الإدارة في وقت كانت فيه حملتها قد نزلت بمصر منذ أكثر من شهرين، وتراكمت فيه المظالم والتعديات التي كان قراصنتها يرتكبونها بحق التجار المغاربة، بينما لم تكلف هذه الحكومة نفسها عناء الرد على شكاواهم التي كانت ترفع إليها من طرف قنصلها بطنجة. ورغم ذلك، نلمس، من خلال العبارات التي تضمنتها هاته الرسالة السلطانية، حرص مولاي سليمان على المحافظة

(١٦) Manon Hosotte-Reynaud, «Quatre documents inédits touchant les relations entre la France et le Maroc (1794-1810),» *Héspéris-Tamuda*, vol. 1, no. 3 (1960), p. 555.

على علاقاته بحكومة الإدارة واستخدامه وسائل سلمية من أجل إنصاف التجار المغاربة المتضررين؛ حيث كلف اثنين منهم ـ وهما الفقيه عبد السلام بن زاكور الفاسي والحاج محمد بن صالح من أهل أسفي ـ بحمل هذه الشكوى إلى الحكومة المذكورة. تم كل هذا، في وقت كانت فيه الحكومة الفرنسية التي تقدم إليها بهذه الشكوى، قد أوفدت حملتها العسكرية لإخضاع مصر.

ـ فهل يفهم من هذا أن مولاي سليمان لم يربط، إلى حدود هذا التاريخ، بين ما كان يجري على أرض مصر من غزو وبين علاقاته بدولة كانت ترتبط معه منذ عهود بعيدة بصلات قوية، وعيا منه بضرورة الفصل بين ما يقتضيه انتماؤه الديني من مظاهر التضامن والتآزر في لحظة مثل هاته، وما تفرضه عليه التزاماته الدولية ومصلحة بلاده؟

لن يتأتى لنا الجواب بشكل واضح ومقنع على هذه الأسئلة، إلا بعد انتهائنا من استعراض مختلف أوجه العلاقة التي ربطت بين الطرفين، المغربي والفرنسي، خلال المدة التي استغرقتها الحملة. ورغم هذا، فإن بعض عناصر الإجابة عن هذا السؤال العريض، سوف لن تتأخر طويلا. فقد كتب نائب القنصل الفرنسي بالصويرة إلى وزير خارجية بلاده، في ٢٢ كانون الأول/ديسمبر سنة ١٧٩٨م، يقول إن مولاي سليمان خطب عند توديعه لركب الحجاج، قائلاً: إن مصر هي الآن تحت حكم الفرنسيين. لكن، هذا السبب لا ينبغي البتة أن يمنعهم من متابعة سفرهم، لأن الفرنسيين تربطهم علاقات صداقة بالمغرب. ثم أضاف هذا النائب القنصلي، أن عددا من السفن الأجنبية التي اكتراها الحجاج، وكانت راسية بميناء الجديدة وسلا وتطوان، قد أعطاها السلطان أمره بالإبحار[١٧].

يتبين من خلال هذه المعلومة التي انفردت بذكرها هذا المصدر القنصلي، أن مولاي سليمان كان واثقا من موقفه تجاه هذه الحملة التي حلّت بأرض مصر، والتي لم تعد في هذا التاريخ، خبرا تتقاذفه ألسنة

---

(١٧) A.A.E.P., C.C.C.21, Mogador, Broussonet (Vice Consul) à Talleyrand, 2 nivôse an 7 (22 décembre 1798), folio 167-168.

الحجاج والتجار، بل أضحت حقيقة مؤكدة. ذلك، أن إعطاءه الإذن لبضعة آلاف من الحجاج المغاربة بالتوجه إلى الديار المقدسة في رحلة قد تستغرق ذهابا وإيابا، حوالى السنة، يؤكد أنه كان قد اتخذ منذ هذا التاريخ على الأقل، موقفا شبه نهائي من هذه الحملة، ولم يكن في نيّته قبل عودة هؤلاء الحجاج إلى ديارهم، اتخاذ أي إجراء حربي ضد فرنسا أو جيشها بمصر.

وإذا كان هذا مجرد استنتاج نظري، فإن الجواب الذي قابل به مولاي سليمان مبعوث السلطان العثماني الذي حل بالمغرب في تاريخ قريب من هذا، يؤكد ما ذهبنا إليه. فبعد عودته إلى الجزائر، في نهاية شهر كانون الأول/ديسمبر من سنة ١٧٩٨، صرح أن سلطان المغرب أكد له «أن الفرنسيين لم يرتكبوا بحقه أية مظلمة. لذلك، فهو لا يقدر كما أنه لا يرغب في أن يعلن الحرب ضدهم». نفس الجواب تقريبا سيقابل به مولاي سليمان محاولات عثمانية وإنجليزية أخرى؛ إذ سيتعلل تارة بـ «بعد المسافة وكثرة المشاغل»، وتارة أخرى بالعلاقات السلمية التي تجمعه بفرنسا وانعدام أي مبرر يقتضي إعلانه الحرب ضدها[١٨].

وإذا كان موقف مولاي سليمان قد بدا عليه التردد بسبب الإحراج الذي وقع فيه من جراء نداءات الجهاد المتكررة التي كانت تفد عليه من الباب العالي، مصحوبة في بعض الأحيان بضغوط من إنجلترا، فإن مراسلاته مع السلطات العليا الفرنسية تبدو قاطعة فيما يخص استمرار علاقاته السلمية مع فرنسا، ومن هنا أهميتها في مساعدتنا على رفع اللبس واستجلاء موقفه الحقيقي من هذا العدوان.

نلمس هذا من خلال عدد من المناسبات؛ منها أن حكومة الإدارة، كان قد سبق لها، حسب رسالة سلطانية، أن أذنت لقنصلها بطنجة، أنطوان كَليط، بمكاتبة مولاي سليمان وإخباره بأنها معه «على العهد والصحبة» مع اعتنائها برعيته «وبمن هو مضاف إليها». فما كان من مولاي سليمان إلا أن أسرع إلى مكاتبتها والرد عليها، لأن هذا في نظره «أقوى دليل على ثباتهم ومحافظتهم على العهد الذي سن السلف». ثم

(١٨) انظر: المبحث الأول من الفصل الأول من هذا الكتاب.

طلب من القنصل المذكور أن يعلم حكومته «بأننا على العهد والصحبة الموروثة عن الأسلاف، محافظين عليها إن شاء الله»[١٩].

تستمد هذه الرسالة أهميتها في هذا السياق، ليس فقط مما حملته من إشارات واضحة على استمرار العلاقات السلمية بين المغرب وفرنسا، بل كذلك من طبيعة الظروف التي كتبت فيها. فقد كتبت في وقت تأكدت فيه بشكل واضح وجلي سيطرة جيش الشرق على مصر، وتكررت فيه نداءات الجهاد من طرف السلطان العثماني، وتعالت فيه أصوات الخطباء والشعراء منذرة ومحذرة مما حل بمصر من عدوان واحتلال، ومرغبة المغاربة في الجهاد ومد يد المساعدة لإخوانهم بهذا البلد. كما كتبت هذه الرسالة في وقت كثرت فيه اعتداءات القراصنة الفرنسيين ضد التجار المغاربة، واضطر فيه عدد منهم إلى الرحيل إلى فرنسا من أجل استرجاع ما ضاع منهم من أموال وأمتعة، وترددت فيه إشاعات قوية عن إنزال عسكري فرنسي وشيك على السواحل المغربية، وإرسال المغرب قوات عسكرية لمحاربة جيش الشرق بمصر، كما أخضع التجار المغاربة الموجودين آنذاك بباريس، بسبب ذلك، للإقامة الجبرية[٢٠].

لذلك، نقول إن جواب مولاي سليمان هذا يكتسي أهمية بالغة بالنظر إلى مضمونه ونوعية الظروف التي كتب فيها. فإضافة إلى النتائج المباشرة التي ترتبت عنه من رفع للإقامة الجبرية على التجار المغاربة وتبديد للشكوك التي حامت حول موقف المغرب من هذه الحملة، تفيد هذه الرسالة من خلال تأكيدها على المحافظة على «العهد والصحبة الموروثة عن الأسلاف»، في ظرف حرج كهذا، أن المغرب كان قد جمع أمره منذ هذا التاريخ وعوّل بصفة نهائية على الاستمرار في علاقاته التقليدية مع فرنسا؛ إما دفعا لأي ضرر قد يحصل له في حالة مجاهرته لها بالحرب، أو اقتناعا منه بعدم جدوى هذا الإجراء في وقت لم يصدر

---

(١٩) رسالة مولاي سليمان إلى أنطوان كَليط، في ١١ رمضان ١٢١٣هـ - ١٦ شباط/ فبراير ١٧٩٩. انظر: A.A.E.P., C.C.C.21, folio 236.

(٢٠) للمزيد من التفصيل حول هذه الإشاعات التي ترددت حول اشتراك المغرب في الحرب ضد فرنسا وجيشها بمصر وما ترتب عن ذلك من تدابير أمنية في ما يخص التجار المغاربة المقيمين ساعتها بباريس، انظر أدناه ضمن المبحث الثاني من هذا الفصل.

فيه من جانب فرنسا أي عمل من شأنه أن يشوش على أمنه واستقراره.

وإذا كانت حكومة الإدارة، وعلى رأسها وزير خارجيتها تاليران، قد ظلت تراودهما بعض المخاوف مما يمكن أن يصدر من المغرب من سلوكات عدائية، بسبب الضغوط التي استمرت تمارس عليه من طرف الدولة العثمانية وحليفتها إنجلترا، وكذا الاحتجاجات الشعبية التي كانت تظهر بين الحين والآخر في عدد من المدن والجهات المغربية، فإن وقائع متعددة تؤكد أن القيادة المغربية، وعلى رأسها مولاي سليمان، كانت واثقة من موقفها المسالم تجاه فرنسا وغير راغبة في القيام بأي إجراء حربي ضدها.

يتضح هذا من مختلف الرسائل التي استمر مولاي سليمان يوجهها إلى السلطات العليا الفرنسية، أو يتبادلها وزراؤه وأعوانه في مناسبات مختلفة، مع عدد من هذه الجهات. ففي رسالة موجهة من الوزير المغربي، ابن عثمان، إلى أنطوان كَليط، في٢٧ رمضان ١٢١٣هـ (٤ آذار/ مارس ١٧٩٩م)، نقرأ أنه قد أحاط مولاي سليمان علما بمضمون الرسالة التي كلفته حكومة الإدارة بتبليغها إليه. ويبدو من مضمونها أنها الرسالة نفسها التي أجاب عنها مولاي سليمان في تاريخ ١١ رمضان من نفس السنة. إلا أن ابن عثمان أضاف في رسالته هذه أن مولاي سليمان كلفه بالإجابة عن هذه الرسالة باسمه، ثم قال: «إننا متفقون حول كل ما قلتموه لنا، والسفير الإسباني تحدث معنا في هذا الموضوع. ومولاي سليمان الذي يتحلى بأخلاق طيبة، لا يتمنى إلا الخير لجميع الأشخاص الذين يستحقونه»[٢١].

لا نعرف حول ماذا هم متفقون، ولا الموضوع الذي تحدث فيه مع السفير الإسباني، غير أننا نعلم أن هذا الأخير كان يفاوض في هذه الآونة بمدينة مكناس الوزير ابن عثمان بشأن الاتفاقية التي سيبرمها البلدان في شهر آذار/ مارس من نفس السنة، وأن السفير الإسباني كان مكلفا من قبل حكومته وبطلب من حكومة الإدارة وأنطوان كَليط نفسه، بالتدخل لدى مولاي سليمان من أجل الدفاع عن موقف فرنسا ضد

---

(٢١) A.E.P., C.C.C.21, folio 237.

«المؤامرات» التي كانت تحيكها ضدها إنجلترا والبرتغال بخصوص حملتها على مصر، واستطلاع نوايا المغرب بخصوص موقفه مما كان يجري بهذا البلد، ثم التأكد من الأخبار التي كانت تتحدث عن إرساله نجدة عسكرية إلى مصر. لذلك، يحتمل جدا أن يكون الاتفاق المذكور والمحادثات التي دارت بين الطرفين قد تركزت حول هذه المهمة التي كُلّف بها السفير الإسباني، خوان سلمون. ومما يشجعنا على هذا الاعتقاد هو ما ورد في الرسالة التي وجهها هذا الأخير إلى لويس مير (Louis Antoine Mure) باعتباره القنصل الرسمي لفرنسا بالمغرب آنذاك، في ١٤ آذار/ مارس سنة ١٧٩٩م، حينما قال له: ليس هناك ما يخشى منه في الوقت الحاضر، لأن السلطان المغربي متحمس جدا للجمهورية الفرنسية «صديقته وحليفته»، وإن الشكوك المتعلقة بإعلان الحرب ضد الجمهورية قد تلاشت، وكل المحاولات التي يبذلها أعداء فرنسا من أجل إرغامه على قطع علاقته بفرنسا لم تخلف أثرا[٢٢].

بعد هذا التاريخ بمدة يسيرة، وصل إلى أنطوان كَليط الذي كان يقيم ساعتها بمدينة بطريفة بإسبانيا خوفا من عدوى وباء الطاعون الذي كان يجتاح آنذاك أقاليم شمال المغرب، رسالة من ابن عثمان يطمئنه فيها عن المخاوف التي عادت تراوده مجددا حول ما يمكن أن يطرأ من تغيير على موقف المغرب إزاء الجمهورية الفرنسية بسبب استلام مولاي سليمان رسالتين؛ واحدة من الباب العالي، وأخرى من السفارة الإنجليزية بالقسطنطينية[٢٣].

أما القائد ابن عبد المالك الذي كان يوجد على رأس الإدارة المخزنية بطنجة ويعاين عن كثب تحركات الدولتين العثمانية والإنجليزية من خلال موفديها إلى السلطان مولاي سليمان فقد كتب إلى القنصل الفرنسي بنفس المناسبة رسالة في فاتح ربيع الثاني ١٢١٤هـ (٢ أيلول/ سبتمبر ١٧٩٩م)، يطمئنه فيها عن المعاملة الحسنة التي قابل بها سيده

---

(٢٢) انظر النص الكامل لهذه الرسالة المترجمة إلى الفرنسية، في: A.A.E.P., C.C.C.21, folio 230.

(٢٣) A.A.E.P., C.C.C.21, Tarifa, Guillet à Talleyrand, 25 thermidor an 7 (12 Juillet 1799), folio 305.

كل الدول بما في ذلك فرنسا، شأنه في ذلك شأن أسلافه المتقدمين، ولا يستمع لألسنة السوء ومن لهم نوايا سيئة. لذلك، وجب على القنصل الفرنسي، يقول القائد ابن عبد المالك: «أن لا يعود للتفكير في هذا أبدا، وأن ينزعه من رأسه»(٢٤).

ومما يؤكد مرة أخرى تشبث المغرب بعلاقاته السلمية مع فرنسا، الرسالتان اللتان بعث بهما كل من كبير المقربين من مولاي سليمان ـ ولعله الوزير محمد بن عبد السلام السلاوي البخاري الذي خلف ابن عثمان ـ والقائد ابن عبد المالك، إلى القنصل الفرنسي.

أما الأول فقد جاء في رسالته الجوابية عن رسائل كان قد بعث بها أنطوان كَليط إلى مولاي سليمان بخصوص المبعوث العثماني الأخير، أن «كل هذه المحاولات الجديدة سوف لن تؤثر في شيء على موقف مولاي سليمان؛ لأنه ليس من طبعه أن ينجر وراء اقتراحات لا تمليها قضية عادلة وإنما المصلحة الخاصة، أو يتراجع عن قرار اتخذه بعد تفكير وبتعقل وإنصاف»(٢٥).

وبعد مضي حوالى شهر على كتابة هذه الرسالة، كتب القنصل الفرنسي إلى تاليران يخبره أنه توصل بواسطة عامل طنجة بجواب عن مختلف الرسائل التي كان قد وجهها إلى مولاي سليمان في السابق، وأن جوابه هذا «لم يطرأ عليه أي تغيير؛ لأنه يصب دائما في نفس الاتجاه مثل أجوبته السابقة، مؤكدا أن السلطان ثابت في مبادئه ولن يخلف وعده في العيش بسلام وحسن تفاهم مع الجمهورية الفرنسية»(٢٦).

لهذا، يبدو لنا أنه حوالى هذا التاريخ وربما من خلال هاتين الرسالتين، اتخذ المغرب موقفه النهائي تجاه الحملة، وعوّل على الاستمرار في علاقته السلمية مع فرنسا، متفاديا بذلك التورط في أي نزاع معها رغم المحاولات

---

(٢٤) انظر النص الكامل لهذه الرسالة المترجمة إلى الفرنسية في: A.A.E.P., C.C.C.21, folio 313.

(٢٥) A.A.E.P., C.C.C.21, Tarifa, Guillet à Talleyrand, 3 fructidor an 7 (20 août 1799), folio 309

(٢٦) A.A.E.P., C.C.C.21, Cadix, Guillet à Talleyrand, 27 fructidor an 7 (13 septembre 1799), folio 315.

المتكررة التي كانت تبذلها كل من الدولة العثمانية وإنجلترا في هذا الاتجاه، ووفاة الوزير ابن عثمان الذي كان يعتبر مهندس هذه السياسة التي اعتمدها مولاي سليمان منذ بدء هذه الأزمة.

إلى جانب هذه الرسائل التي كان يوجهها مولاي سليمان مباشرة إلى حكومة الإدارة أو قنصلها بطنجة، يمكن أن نستعين في الكشف عن موقف المغرب الرسمي من هذه الحملة بشهادات صادرة عن شخصيات فرنسية ممن كان لها اطلاع واسع على مجريات الأمور على الساحة السياسية المغربية.

نذكر من بين هذه الشخصيات، ماتيو دو ليسيبس (Mathieu de Lesseps) الذي كان يشتغل بالقنصلية الفرنسية بالمغرب منذ سنة ١٧٩٢م، وطلب منه في ٢٥ آب/أغسطس سنة ١٧٩٨م الالتحاق بقنصلية بلاده بطرابلس الغرب. غير أن إعلان هذه الأخيرة الحرب ضد فرنسا حال دون التحاقه بمقر عمله الجديد. وبينما هو كذلك كتب من مدينة مالقا الإسبانية رسالة إلى تاليران يتمنى فيها أن يكون بمقدوره التقاط معلومات مؤكدة بصفته مستشارا قنصليا بطرابلس الغرب عن وضع فرنسا الحالي مع هذه الإيالة، معبرا، في نفس الوقت، عن أمله في أن يقتفي حاكمها «المسلك الحكيم» الذي سلكه «إمبراطور المغرب»، وأن لا ينساق وراء داي الجزائر الذي كان قد أعلن فعلا الحرب ضد فرنسا. ثم قال إنه بعد مغادرته المغرب بنيّة الذهاب إلى طرابلس طلب منه مولاي سليمان نقل رسالة له إلى حاكم هذه الولاية الذي يدين له بالاحترام، يوصيه فيها «بحسن معاملة الأمة الفرنسية، وماتيو دو ليسيبس على وجه الخصوص»(٢٧).

يستنتج مما سبق، أن مولاي سليمان لم يكتف بالمحافظة على علاقاته السلمية بفرنسا، بل ربما استغل نفوذه الأدبي لدى باشوية طرابلس من أجل إقناع حاكمها بعدم الإساءة إلى فرنسا، وبلغة أوضح عدم إعلان الحرب ضدها. وإذا نحن وسّعنا دائرة التأويل وسلمنا بأن

---

(٢٧) A.A.E.P., C.C.C.21, Malaga, Mathieu de Lesseps à Guillet à Talleyrand, 16 nivose an 7 (5 janvier 1799) folio 207.

مولاي سليمان كان ساعة تسليمه هذه التوصية للمستشار القنصلي الفرنسي على علم تام بحقيقة الحملة التي كانت تجري أطوارها آنذاك بمصر، أمكننا القول إنه كان يمارس، من خلال سلوكه هذا، سياسة مضادة لسليم الثالث الذي كان يستحث في هذه الآونة البلدان المغاربية على إعلان الحرب ضد فرنسا. ومن يدري، ربما لم يتعد ما تضمنته هذه التوصية إطار العبارات الدبلوماسية وما يقتضيه أسلوب المجاملة المعهود في مناسبة مثل هذه.

ومما يؤكد أن مولاي سليمان كان عازما فعلا على استرسال علاقاته السلمية بفرنسا في جو من الثقة المتبادلة والتعاون المشترك، تدخله، بعد بضعة شهور قليلة لدى حكومتها من أجل الاعتناء بأحد مواطنيها الذي كان يقطن بالمغرب واضطر للعودة إلى مسقط رأسه ومحل سكناه بجزيرة كورسيكا. يتعلق الأمر بالمواطن الفرنسي، فانسنت فرانسيشكيني (Vincent Franceschini)، أخو زوجة السلطان سيدي محمد بن عبد الله «المفضلة» التي تعود أصولها إلى هذه الجزيرة. لذلك أولاه مولاي سليمان، تقول رسالة أنطوان كَليط إلى تاليران، اهتماما خاصا «إخلاصا منه لذكرى والده»[٢٨].

خلاصة القول، نحن هنا أمام وثيقتين من نوع خاص، نستطيع التأكد، من خلالهما، من الموقف المسالم الذي سلكه مولاي سليمان تجاه حكومة الإدارة باعتبارها المسؤول الأول والأخير عن الحملة. ففي الوقت الذي كانت تتوارد عليه نداءات سليم الثالث، داعية إياه إلى إعلان الحرب ضد فرنسا واستخدام كل الوسائل والسبل الممكنة من أجل إضعافها والحد من قدراتها العسكرية، كان هذا السلطان يجتهد في توجيه التوصيات إلى باشا طرابلس وحكومة الإدارة، حاثا إياهما على الاعتناء بمواطنين فرنسيين تربطهما به صلات خاصة. وإن دل هذا على شيء، إنما يدل على التوجه السلمي لقيادة هذا البلد إزاء الجمهورية الفرنسية، وبالذات جهازها السياسي الأعلى ممثلا في حكومة الإدارة.

(٢٨) A.A.E.P., C.C.C.21, Tanger, Guillet à Talleyrand 26 germinal an 7 (16 avril 1799), folio 252.

ثالثاً: موقف السلطات المغربية العليا
من الرعايا الفرنسيين بالمغرب

لم يكتف مولاي سليمان وأعوانه ممن كانوا يقاسمونه هذا التوجه، التعبير عن حسن نواياهم تجاه فرنسا في هذا الظرف الحرج من خلال الرسائل التي كانوا يبعثونها إلى حكومة الإدارة والجهات المختصة التابعة لها، بل أكدوا ذلك من خلال المعاملة الخاصة التي استمروا يولونها لأعضاء الجهاز القنصلي ومطلق الرعايا الفرنسيين؛ سواء منهم المقيمين بالمغرب، أو الطارئين عليه لأسباب مختلفة.

مر معنا، قبل قليل، الحديث عن التوصيتين اللتين أرسلهما مولاي سليمان إلى كل من باشا طرابلس وحكومة الإدارة بشأن مواطنين فرنسيين كانا يهمان بمغادرة المغرب. وفي هذا الوقت بالذات، كان هذا السلطان يوجّه عنايته إلى من كان يقيم منهم بهذا البلد أو من اضطر منهم إلى النزول بأحد موانئه ومدنه. وكان أول من شملته عناية مولاي سليمان هم أعضاء الجهاز القنصلي؛ إذ عوض أن يعتقلوا ويرغموا على القيام بالأعمال الشاقة أو يطردوا خارج البلاد كما حدث لنظرائهم بالجزائر وتونس وطرابلس وحلب والقسطنطينية، استمروا يمارسون وظائفهم بشكل طبيعي تحت حماية السلطات العليا المخزنية التي ضاعفت تجاههم من علامات المودة والصداقة.

نذكر من بين هؤلاء جميعا القنصل الفرنسي أنطوان كَليط الذي يعتبر بحق، إلى جانب الوزير ابن عثمان، مهندس العلاقات المغربية الفرنسية خلال المدة التي استغرقتها الحملة الفرنسية على مصر. فقد قام رجل الأعمال هذا، الذي استهوته الشؤون القنصلية، بدور حاسم في تقريب وجهات النظر بين المغرب وفرنسا من خلال ما كان يبعثه من رسائل إلى حكومة الإدارة وباقي الأطراف المعنية. هذا، فضلا عن اتصالاته المباشرة والمكثفة بمولاي سليمان والعديد من الأطر المخزنية. فنال لقاء مجهوده هذا ثقة وعناية كبيرتين في وقت سابق على الحملة. أما عندما نزلت هذه الأخيرة بمصر، فتحول أنطوان كَليط إلى أحد المصادر الرئيسة التي كان يستقي منها مولاي سليمان وعدد من أعوانه،

أخبار ما كان يجري في هذا البلد. بل أصبح يقدمه، كما قال له ذلك الوزير محمد بن عبد السلام، على غيره من القناصل في السؤال على مصر؛ «لأنه أيده الله حين سمع بخبر [خروج الفرنسيين من] مصر، قال أيده الله: لا يأت الخبر الحقيقي إلا على يد قونصو الفرانصيص»(٢٩). أما نابليون بونابرت فوعيا منه بهذه المكانة الخاصة التي كان يحظى بها أنطوان كَليط لدى مولاي سليمان وحاشيته، عيّنه رسميا قنصلا لفرنسا بالمغرب «خدمة للمصالح المشتركة وصيانة للتجانس الموجود بكل سرور بين البلدين»(٣٠).

إلى جانب أنطوان كَليط كانت عناية القيادة المغربية موجهة أيضا إلى أعوانه القنصليين الموزعين عبر عدد من المدن المغربية. ومن بين الذين حظوا أكثر بهذه العناية، بروسوني الذي كان ينوب عنه بمدينة الصويرة. فقد تلقي هذا النائب فور التحاقه بهذه المدينة ترحيبا ومساعدة من طرف عاملها الذي قدم له ما يلزم من الخدمات. كما نال استقبالا مميزا، حسب قوله، من قبل مولاي سليمان خلال إحدى جولاته بالجنوب(٣١).

وإذا كانت هذه هي القاعدة العامة التي حكمت موقف السلطات العليا المغربية من أعضاء الجهاز القنصلي الفرنسي، فإن باقي الرعايا الفرنسيين لم يمسسهم أي سوء بفضل الحماية التي وفرتها لهم هذه السلطات في مختلف المدن والأقاليم على الرغم من أن بعض الأطر المخزنية حادت عن هذه القاعدة وحاولت النيل من بعضهم، سيما من كان منهم متورطا في قضايا القرصنة. حدث هذا في مدن أسفي والصويرة وأكَادير حيث عومل البحارة الفرنسيون، والقراصنة منهم على الخصوص، «بخشونة». إلا أن مولاي سليمان تدخل بحزم من أجل

---

(٢٩) رسالة الوزير محمد بن عبد السلام السلاوي إلى أنطوان كَليط، في ٤ شعبان ١٢١٦هـ، مديرية الوثائق الملكية، الرباط، سجل رقم ١٤٤٩٦.

(٣٠) A.A.E.P., C.C.C. 22, Lettre de Napoléon Bonaparte à Muley Soliman, remise à Talleyrand le 7 germinal an 8, l'expédition est datée du 9, folio 18.

(٣١) A.A.E.P., C.C.C.21, Mogador, Broussonet à Talleyrand, 10 prairial an 7 (30 mai 1799).

حمايتهم؛ فوبّخ البعض من عمال هذه المدن، وأقال البعض الآخر[٣٢].

وإذا علمنا أن هذه الأشكال الودية من التعامل تم التعبير عنها كلها تقريبا خلال السنة الأولى من عمر الحملة، جاز عدّها دليلا آخر على جدية الموقف السلمي الذي اعتمده المغرب تجاه فرنسا.

رابعاً: موقف السلطات المغربية العليا من جيش الشرق بمصر

استكمالا لعناصر هذه الصورة، يحسن بنا أن نختم هذا المحور بنقطة نتبيّن من خلالها الكيفية التي تعاملت بها السلطات المغربية مع جيش الشرق باعتباره الأداة العسكرية التي كان يتم بواسطتها آنذاك تنفيذ هذا المشروع الاستعماري الذي اشتهر تحت اسم «الحملة».

حصل أول اتصال بين المغرب وهذا الجيش عند احتلال هذا الأخير جزيرة مالطا الذي كان من نتائجه المباشرة تسريح حوالى ألفي أسير مسلم كان يحتجزهم هناك فرسان القديس يوحنا. وكان من بين هؤلاء الأسرى عدد غير محدد من المغاربة، ومن ضمنهم امرأة شريف يمت بصلة قرابة لمولاي سليمان[٣٣]. ومما لا شك فيه أن هذه الإشارة السياسية ستخلف لدى هذا الأخير انطباعا حسنا تجاه هذا الجيش، وخاصة قائده نابليون بونابرت.

أما بعدما وطئت أقدام جيش الشرق أرض مصر وتحقق ذلك لدى مولاي سليمان، فقد بادر قنصل فرنسا إلى ترجمة بيان نابليون الذي سبق له أن وزّعه على أهالي مصر منذ اليوم الأول لنزوله بالإسكندرية. وبعد أن

---

(٣٢) للإلمام بحيثيات هذه الإجراءات التأديبية التي اتخذها مولاي سليمان في حق هؤلاء العمال، انظر الفصل السابع من هذا الكتاب.

(٣٣) شكل تحرير هؤلاء الأسرى وعلى رأسهم امرأة ذلك الشريف، أحد الانشغالات الرئيسة للقنصل الفرنسي بالمغرب، لأنه اعتبر ذلك ضمانة أكيدة لبقاء مولاي سليمان على جانب الحياد بخصوص موضوع الحملة. انظر على سبيل المثال رسالته إلى تاليران: A.A.E.P., C.C.C.21, Tanger, Guillet à Talleyrand, 28 messidor an 7 (16 Juillet 1798), folio 88.

للمزيد من التفصيل حول الظروف التي تمت فيها عملية تحرير هؤلاء الأسرى والتطورات التي ترتبت عنها، انظر المبحث الأول من الفصل السادس من هذا الكتاب.

أضاف إليه، حسب ما ذكر قنصل البرتغال، «ما أمكنه من الخزعبلات التي اعتقد أنها مناسبة لمحو الآثار التي خلفتها الحملة الفرنسية لدى هؤلاء الناس»، قدم نسخة منه إلى مولاي سليمان وباقي أعضاء «حكومته»[٣٤].

وبغض النظر عما قاله القنصل البرتغالي بشأن هذا البيان وما أضاف إليه أنطوان كَليط من عبارات تضليلية، فإن نسخته الأصلية التي كتبت بالفرنسية ثم ترجمت إلى العربية قبل أن توزع على أهالي مصر منذ اليوم الأول لنزول جيش الشرق بالإسكندرية، والتي لا شك أنها وصلت إلى المغرب بواسطة الحجاج وغيرهم، تضع هذه الحملة خارج أية شبهة، بل تصور قائدها بمثابة منقذ أرسلته السماء لانتشال أهل مصر من ظلم المماليك وتمكين السلطان العثماني من استرجاع سيادته على هذا البلد (انظر الملحق الرقم (٢)).

ـ فكيف سيتصرف مولاي سليمان بعدما توصل بهذا البيان وبلغته، عبر أكثر من قناة، أخبار ما كان يجري من أحداث وتطورات تتنافى جزئيا أو كليا مع ما زعمه نابليون في بيانه هذا؟

الواقع، أنه كل ما استطعنا الحصول عليه من معلومات بهذا الخصوص يؤكد لنا أن مولاي سليمان تعامل مع جيش الشرق بشكل سلمي وودي. وكانت أول إشارة في هذا الاتجاه هي الكلمة التي ألقاها في أول ركب حاج مغربي يتوجه إلى الديار المقدسة بعد نزول الحملة بأرض مصر. فحسب رواية نائب القنصل الفرنسي بالصويرة أحاط مولاي سليمان جموع الحجاج بخبر هذا الغزو وما أعقبه من احتلال. ثم قال لهم، إن هذا السبب لا يجب أن يثنيهم عن أداء هذه الفريضة والمرور عبر مصر، لأن الفرنسيين أصدقاء للمغرب[٣٥].

---

(٣٤) رسالة قنصل البرتغال إلى وزير خارجية بلاده، بتاريخ ٣ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٧٩٨ أرشيف طوري دو طومبو، لشبونة رقم ٢٩٩: M.N.E.CX، مراسلات سنة ١٧٩٨. ذكره: عثمان المنصوري، «صدى الحملة النابليونية في المغرب،» ورقة قدمت إلى: **المؤتمر الدولي للعلاقات المصرية المغربية عبر التاريخ**، تنظيم كلية الآداب، جامعة حلوان ـ مصر بتعاون مع كلية الآداب، عين الشق، جامعة الحسن الثاني (القاهرة: مطابع جامعة حلوان، ٢٠٠٣)، ص ٢٠٧.

(٣٥) A.A.E.P., C.C.C.21, Mogador, Broussonet à Talleyrand, 2 nivôse an 7 (22 décembre 1798), folio 167-168.

أما بعدما انقسم هذا الركب على نفسه عند وصوله إلى طرابلس، وعوّل جزء منه على العودة إلى المغرب، وتابع جزء آخر طريقه عبر البحر، بعث مولاي سليمان رسالة مستعجلة إلى أمير ركب الحاج المراكشي يأمره فيها، حسب ما صرح به هذا الأمير للسلطات الفرنسية بالقاهرة، بالاستمرار في طريقه، لأنه: «حليف للفرنسيين وليس تابعا للسلطان العثماني، وأنه لا ينبغي التصرف في هذه المناسبة مثل الدول المغاربية الأخرى، بل السير رأسا إلى القاهرة.

أما في حالة الرفض فيجب على القافلة أن تعود دونما حاجة إلى استخدام العنف، وأن يطالب أميرها بشهادة تثبت ذلك حتى يتمكن سلطان المغرب من معاملة الرعايا الفرنسيين المقيمين ببلاده بالمثل. أما إذا كان الاستقبال ودّيا (. . .) فإن السلطان المغربي يرغب في إحاطته علما بهذه الظروف عبر رسالة مستعجلة وأن يتلقى، في الوقت نفسه، رسالة من قائد الفرنسيين [نابليون بونابرت] تؤكد حسن تصرف الحجاج المغاربة»[٣٦].

يتبين من التعليمات والأوامر التي تضمنتها هذه الرسالة السلطانية، أن مولاي سليمان لم يكن في نيّته في المدى المتوسط، على الأقل، محاربة جيش الشرق كما راج آنذاك؛ إذ لو لم يكن الأمر كذلك، لما أذن لهؤلاء الحجاج بالذهاب إلى الديار المقدسة مرورا بمصر وأصرّ على ذلك. كما أنه رغم اعتقاده المبدئي في حسن معاملة الفرنسيين للحجاج المغاربة، أراد من خلال توجيهاته إلى شيخ ركب الحاج المراكشي، أن يتأكد بشكل ميداني وملموس من الضمانات التي ما فتئت تقدمها بين يديه منشورات نابليون بونابرت ورسائل وزارة الخارجية الفرنسية. وهذه هي الصورة التي قدم بها فعلا شيخ ركب الحاج المراكشي مولاي سليمان لدى الإدارة العليا لجيش الشرق. وهي كما رأينا تلخص الموقف الرسمي الذي كانت قد اتخذته القيادة السياسية بالمغرب تجاه هذه الأداة العسكرية التي تولت منذ شهور إخضاع مصر، وكانت تباشر ساعتها حملة أخرى على الشام.

---

(٣٦) Louis Reybaud, *Histoire scientifique et militaire de l'expédition française en ègypte*, 10 vols. (Paris: [A.-J. Dénain], 1830), vol. 5, pp. 177-178.

تستمد هذه الشهادة أهميتها التوثيقية والسياسية من كون شيخ ركب الحاج المراكشي أدلى بها عندما كانت تستجوبه السلطات العسكرية الفرنسية بالقاهرة؛ بسبب الأخبار التي نقلها إليهم أحد أفراد هذا الركب، وزعم من خلالها أن هؤلاء الحجاج كان غرضهم هو محاربة الفرنسيين وليس الذهاب إلى الحج، وأنهم يقولون: «الجهاد أفضل من الحج»[٣٧]. ومن دون شك إن تهمة من هذه النوع ستضطر شيخ ركب الحاج المراكشي أن يدافع عن نفسه ومن معه من الحجاج بكل ما يملك من حجج وبراهين.

ومما يؤكد أن هذا الشيخ كان صادقا في أقواله التي لخص من خلالها موقف مولاي سليمان من الوجود الفرنسي بمصر، هو ما سيصدر عنه من تصرفات ومواقف خلال رحلة الإياب. فقد أدلى هذا الشيخ لأحد أعداد جريدة **كوريبه دي ليجيبت** (*Courrier de l'Egypte*) بحديث شفهي جاء فيه: أن الحجاج المغاربة سلكوا، بعد قضائهم مناسكهم، طريق القدس خلال عودتهم صحبة قافلة دمشق. لكن، قبل أن يصلوا إلى هذه المدينة المقدسة أوفد أحمد باشا الجزار إلى أميرهم رسولا ينصحه أن يقود جميع الحجاج إلى مدينة عكا لكي تحملهم من هناك مراكبه إلى المغرب تحت حراسة الأسطول البريطاني، مؤكدا لهم أنهم إذا لم يأخذوا بنصيحته هاته وأصروا على العودة عبر القاهرة فسوف يبيدهم الفرنسيون ويسلبونهم أموالهم وأمتعتهم. فأجابه شيخ ركب الحاج المراكشي أن إمبراطور المغرب تربطه صلات صداقة طيّبة مع فرنسا، وأن الفرنسيين استقبلوا قافلته استقبالا حسنا عند مرورها بالقاهرة، وأن الحجاج المغاربة واثقون من أنهم سيلاقون منهم عند العودة نفس الشعور الطيب[٣٨].

يتضح مما سبق، أن شيخ ركب الحاج المراكشي الذي أضحى يشكل بحكم موقعه هذا جزءا من الموقف الرسمي للمغرب بل وناطقا

---

(٣٧) المصدر نفسه.

(٣٨) **صحف بونابرت في مصر، ١٧٩٨ ـ ١٨٠١**، ترجمة صلاح الدين البستاني، ١٠ مج (القاهرة: دار العرب للبستاني، ١٩٨١)، و**كوريبه دي ليجيبت** (١٩ تيرميدور سنة ٧)، العدد ٣٥ (٦ آب/ أغسطس ١٧٩٩)، ص ١٣٦ ـ ١٣٧.

بلسان حاله، كان واثقا رغم ما تعرض له في مصر والشام من مضايقات وإغراءات، من جدية العلاقات السلمية التي تجمع بين المغرب وفرنسا، مما شجعه أولا على اقتحام التراب المصري رغم ما بلغه في طرابلس من أخبار مثبطة، وساعده ثانية على مقاومة إغراءات وتهديدات أحمد باشا الجزار والعودة عبر مصر بكل اطمئنان.

وإذا كان هذا الحديث الشفهي الذي أدلى به شيخ ركب الحاج المراكشي بهذه المناسبة غير كاف، فإن الرسالة التي سلّمها عند عودته إلى القاهرة للمدير العام للممتلكات والمنشآت العامة، أو رئيس الكتاب ومدير الحدود، كما كان يسميه الجبرتي، جون باتيست بوسييلك، من شأنها أن تقربنا أكثر من الموقف الحقيقي الذي وقفه مولاي سليمان من الحملة ككل وجيش الشرق على وجه الخصوص. فبعد إحاطته علما بعودته من الديار المقدسة وما تخللها من أحداث، قال له إن إبراهيم بك[٣٩] طلب منه مقابلة أحمد باشا الجزار ووعده أنه سيطلب من هذا الأخير بأن يعطيهم نقودا وملابس وخيولا ومدافع للاشتراك معه في محاربة الفرنسيين. فأجابه هذا الشيخ: «لعنة الله عليك وعلى ما تعرضه علينا. وكل ذلك، يقول شيخ ركب الحاج المراكشي، للإبقاء على حسن التفاهم معكم والوفاء بوعودنا لكم، لأننا أوفياء لكلمتنا مثل الفرنسيين». ثم أضاف، مقدما بين يدي هذا المسؤول الفرنسي الكبير الأسباب الكامنة وراء هذا السلوك المسالم تجاه جيش الشرق: «نحن لنا مع فرنسا معاهدات قديمة جدا أيدها السلطان ابن المرحوم سيدي محمد بن عبد الله بارك الله فيه وكذلك ولده سيدي سليمان لينصره الله. لا نقف أبدا ضدكم، ومدننا مفتوحة لكم»[٤٠].

وإمعانا منه في تأكيد هذا الموقف المسالم الذي تلقى بصدده توجيهات من مولاي سليمان حرص هذا الشيخ بعد عودته إلى القاهرة على

---

(٣٩) هو الزعيم المملوكي الكبير الذي كان يتولى قبل الحملة، حكم مصر صحبة مراد بك. ثم فّر بعد ذلك إلى الشام واستقر به حتى خروج الفرنسيين من مصر.

(٤٠) **صحف بونابرت في مصر، ١٧٩٨ ـ ١٨٠١، وكوربيه دي ليجيبت** (٣ فريكتيدور سنة ٧)، العدد ٣٦ (٢١ تموز/ يوليو ١٧٩٩)، ص ١٣٨.

مقابلة نابليون، حيث اضطر أن يؤخر سفره لبضعة أيام إلى أن ظفر بلقائه، وتسلم منه رسالة إلى مولاي سليمان وأخرى إلى باشا طرابلس(٤١).

توجد بحوزتنا وثيقة أخرى من نفس النوع، وهي عبارة عن رسالة ود ومجاملة من الحاج عبد الخالق بن الكبير الفيلالي، شيخ ركب الحجاج، إلى صاري عسكر الفرانصيص [القائد الأعلى لجيش الشرق]، يسأله فيها عن حاله وأولاده ومن تعلق به من الأهل والأولاد، ثم يخبره أنه رجع ومن معه من الحجاج سالمين آمنين، ولم يروا بأسا في الطريق، وأنهم قدموا على العهد الذي بينهم وبينه. ثم طلب منه أن يكتب إليهم ويعلمهم أين يكون نزول الحجاج. ثم قال: إذا أراد أن يقدم عليه هو بنفسه، فليعلمه بذلك(٤٢).

يرجح لدينا أن هذه الرسالة قد كتبت في تاريخ ومناسبة غير تلك التي كتبت فيهما الرسالة السابقة(٤٣)، وأن الأمر يتعلق بوثيقة أخرى تؤكد السلوك السلمي والودي الذي قابل به شيوخ ركب الحاج المغربي جيش الشرق خلال مرورهم بمصر، امتثالا منهم للتوجيهات التي كان يزوّدهم بها مولاي سليمان. وفي هذا أقوى دليل على رغبة هذا السلطان في الحفاظ على علاقاته السلمية بفرنسا من خلال الإشارات الإيجابية التي كانت تصدرها بعض أطره الدينية العليا تجاه جيشها بمصر.

لم تكتف القيادة السياسية بالمغرب، وعلى رأسها مولاي سليمان، بالالتزام بحسن معاملتها لجيش الشرق، بل ساهمت أيضا في حل إحدى المعضلات الرئيسة التي كان يواجهها هذا الجيش على أرض مصر، والمتمثلة في صعوبة اتصاله بالدولة الأم بسبب تحطم أسطوله في معركة

---

(٤١) Charles-Roux, *Bonaparte et la Tripolitaine*, p. 324.

انظر: الرسالة التي وجهها نابليون إلى مولاي سليمان، في: *Correspondance de Napoléon 1èr*, publiée par ordre de l'Empereur Napoléon III, 32 vols. (Paris: H. Plon, 1858-1870), Lettre no. 4358, Au Caire, 28 thermidor an 7 (15 août 1799), vol. 5, p. 720.

(٤٢) A.M.G, B6 15, s.d.

(٤٣) مما يشجعنا على هذا الاعتقاد، أن رسالة ركب الحاج المراكشي الآنفة الذكر، تحدثت عن مصاعب جمة اعترضت قافلة الحجاج وهم يترددون بين الجزيرة العربية والشام. أما هاته، فتؤكد بأن الحجاج رجعوا «سالمين آمنين ولم يروا بأساً في الطريق».

أبو قير منذ الفاتح من آب/أغسطس سنة ١٧٩٨م، وإخضاع جزيرة مالطا للحصار من طرف إنجلترا ثم سيطرتها عليها. أمام هذه الوضعية الصعبة التي وجد فيها جيش الشرق، أضحى التفكير جديا في استخدام بلدان شمال إفريقيا من أجل إجراء الاتصالات الضرورية مع فرنسا. وقد نجحت بالفعل الإدارة العسكرية بمصر، بتعاون مع حكومة الإدارة وقناصلتها بالبلدان المغاربية، في استثمار هذا الطريق أكثر من مرة، خاصة من جانب باشوية طرابلس التي لعبت دورا قويا في هذا المجال.

لكن، عندما أرغمت هذه الإيالات المغاربية على إعلان الحرب غير مرة ضد فرنسا وقطعت علاقاتها بهذه الدولة، أصبح من الصعب استمرار هذه الاتصالات في وقت أضحى فيه جيش الشرق وحكومة الإدارة في مسيس الحاجة إليها. لهذا، توجه اهتمامهما إلى المغرب باعتباره البلد المغاربي الوحيد الذي استمرت تربطه علاقات مفتوحة مع فرنسا وجيشها بمصر. فدارت بشأن ذلك مراسلات بين وزير الخارجية الفرنسية وأنطوان كَليط بطنجة. ونجح هذا الأخير في رسم خطة محكمة لتحقيق هذا الغرض؛ ينتقل بموجبها مركب صغير بين طنجة وتونس وطرابلس بحجة التجارة، وفي طرابلس يقوم قنصل إسبانيا هناك بتأمين تبادل الرسائل عبر هذا المركب برا بواسطة براق. ويبدو أن هذا الخط قد استخدم على الأقل مرة واحدة عندما بعث الجنرال عبد الله جاك مونو (Menou)، حاكم مصر آنذاك، برسالة إلى قنصل فرنسا بالمغرب، في ٢٣ تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٨٠٠، يطلب منه فيها مكاتبة نابليون وإخباره أن جيش الشرق ينتظر منه ما وعده به ساعة مغادرته مصر، لأن هذا الأمر، تضيف الرسالة، على جانب كبير من الخطورة[٤٤].

وإذا كان هذا الاتصال المعلوم لدينا قد تم على ما يبدو باستقلال عن السلطات المغربية، فإنه من المحتمل جدا أن تكون هذه الأخيرة قد قبلت بلعب دور من هذا القبيل في وقت من الأوقات. فقد سبق لنا أن رأينا كيف قبل شيخ ركب الحاج المراكشي بنقل رسالة من نابليون إلى

(٤٤) A.A.E.P, C.C.C, 22, Le Caire, Menou à Guillet, 1 brumaire an 9 (23 octobre 1800), folio 36.

باشا طرابلس الذي كان يتولى ساعتها القيام بنقل الرسائل بين جيش الشرق وحكومة الإدارة. ومما يقوي لدينا أكثر احتمال تعاون السلطات المغربية في هذا المجال مع نظيرتها الفرنسية، الرسالة التي بعث بها القائد المغربي محمد الأندلسي إلى القنصل الفرنسي بطنجة يعلمه فيها أن باشدور طرابلس الذي كان يوجد بالمغرب في أواخر سنة ١٢١٦هـ، كتب إليه كتابا وطلب منه أن يبعث به إليه، مؤكدا استعداده تنفيذ ما يطلبه منه، فقال: «فها نحن بعثنا به إليك صحبة الحامل. اقبضه منه، وتأمله، وجاوبه عنه (...) وإن خصك ما نقضيه، فاكتب لنا عليه نقضيه لك فورا»[٤٥].

لا نعرف الموضوع الذي دارت حوله هذه الرسالة. لكننا، نعلم أن باشوية طرابلس كانت، منذ بداية الحملة، على علاقة جيدة ووطيدة مع جيش الشرق. كما علمنا أن مولاي سليمان كان قد أوصى حاكمها، في مناسبة سابقة، بحسن معاملة فرنسا. لهذا، نحتمل أن يكون المغرب، قد أسهم بشكل من الأشكال في ربط الاتصال بين كل من جيش الشرق بمصر وقنصل فرنسا بطنجة عبر باشوية طرابلس أو غيرها من البلدان المغاربية.

خامساً: مواقف معارضة من داخل الجهاز المخزني بالمغرب

قد يتوهم البعض أن كل مكونات السلطة المخزنية كانت منسجمة فيما يتعلق بموقفها من حكومة الإدارة وجيشها بمصر ورعاياها بالمغرب. بيد أن الواقع يؤكد أن خلافات قوية كانت توجد بينها بخصوص تصرفاتها تجاه هذه الأطراف الفرنسية الثلاثة.

فقد وجد من الأطر العليا المخزنية من جاهر بعدائه لها في غير ما مناسبة وفي أكثر من مدينة. ووصل الأمر، في بعض الأحيان، حدا من الخطورة جعل مولاي سليمان يتدخل شخصيا للمحافظة على حبل المودة الرفيع الذي كان يربط بين بلاده وفرنسا. تمثل ذلك في ما شهدته بعض المدن المغربية الشاطئية من حوادث عبّر من خلالها المغاربة إما عن

(٤٥) مديرية الوثائق، الرباط، سجل رقم ١٤٥٠٠.

غضبهم تجاه ما كان يجري بمصر والشام من عدوان، أو عن فرحتهم بما كان يحيق بجيش الشرق من هزائم وانكسارات.

ففي مدينة تطوان التي كانت تراقب عن كثب ما يجري في عرض البحر الأبيض المتوسط من صراع ضار بين القوى الاستعمارية الأوروبية، وتتزوّ مبكرا بأخبار المعارك والثورات الجارية آنذاك بمصر والشام، أقيمت في الأشهر الأولى التي أعقبت الحملة، بتدبير من عاملها عبد الرحمن أشعاش، أفراح عامة احتفاء بالهزيمة التي حلت بالأسطول الفرنسي في معركة أبو قير البحرية[٤٦].

وبعد مدة يسيرة شهدت مدينة أسفي بدورها احتفالات عامة بعد سماع أهلها أخبارا تفيد أن الفرنسيين قد طردوا من مصر[٤٧]. ويرجح لدينا أن يكون للقائد بناصر العبدي الذي كان يعود إليه حكم منطقة عبدة وعاصمتها أسفي، يد في ذلك؛ بسبب علاقاته المتوترة بالسلطة المركزية من جهة، وصلاته القوية بإنجلترا والبرتغال اللتين وجدا ضالتهما في هذه الأقاليم المتمردة لتمرير دعايتهما ضد فرنسا والضغط على مولاي سليمان من أجل إعلان الحرب ضد هذه الأخيرة، من جهة ثانية.

لذلك، لا غرابة إذا قلنا إن ما وقع بهذه المدينة من احتفالات عامة إنما كان بتدبير من هذا الإطار المخزني المتمرد، لكنه لقي صدى إيجابيا لدى سكان هذه المدينة الذين كان يتملّكهم غضب شديد ويكنون عداء قويا لفرنسا بسبب حملتها على مصر، من جهة، والخسائر الكبيرة التي ألمّت بعدد من تجارهم إثر وقوعهم في قبضة قراصنة فرنسا، من جهة ثانية. فقد تضافرت إذن عوامل عدة جعلت ساكنة هذه المدينة وقائدها، يعبّرون عن فرحتهم بشكل جماهيري وعلني فور سماعهم بطرد الفرنسيين من مصر.

---

(٤٦) ورد خبر هذه الأفراح العامة وما ارتبط بها من تطورات ضمن هذه الرسالة الجوابية لابن عثمان على رسالة كان قد وجهها إليه أنطوان كَليط بهذه المناسبة في ٤ شباط/ فبراير ١٧٩٩. انظر النص الكامل لهذه الرسالة مترجماً إلى الفرنسية في: A.A.E.P., C.C.C.21, folio 23.

(٤٧) A.E.P., C.C.C.21, Guillet à Talleyrand, 24 floréal an 7 (13 mai 1799), folio 263.

أما عن موقف مولاي سليمان من هذه السلوكات المنافية للخط العام الذي كان يسير عليه، والتي يبدو أن خطرها أصبح يهدد الأقاليم المجاورة، فقد تجلت في الرسالة التي وجهها إلى عماله بهذه الجهة، مذكرا إياهم أن المغرب كان دائما في سلام مع فرنسا وأن عليهم منع أي من السكان من القيام بأية احتفالات مهما وصلتهم من أخبار عن مصر. كما أمرهم، تقول رسالة أنطوان كَليط إلى تاليران، بمنع أي منهم من التظاهر بأي شكل من الأشكال ضد فرنسا[٤٨]. أما عن موقفه من القائد بناصر العبدي فتخبرنا نفس الرسالة أنه كان يقوم في هذه الأثناء بجمع قواته بالدار البيضاء من أجل إخضاع هذا القائد المتمرد[٤٩].

مرة أخرى إذن يعلن إطار مخزني سامي عداءه الصريح لفرنسا، ويعبّر عن معارضته القوية لحملتها على مصر. إلا أن موقفه العدائي هذا تجاه فرنسا اقترن برفضه الانصياع للسلطة المركزية التي كانت تتبنى، كما رأينا، موقفا مخالفا مما أكسب موقفه هذا خطورة خاصة مقارنة مع ما أقدم عليه عامل تطوان بنفس المناسبة.

ويبدو من بعض الإشارات أن الرعايا الفرنسيين استمر يتملكهم الإحساس بهذا العداء حتى بعد خضوع هذه المدينة للسلطة المركزية. هذا ما توحي به الرسالة التي وجهها كاتب مولاي سليمان، حمدون بن الحاج السلمي، إلى القنصل الفرنسي في ٧ جمادى الأولى سنة ١٢١٤هـ (٧ تشرين الأول/أكتوبر ١٧٩٩م)، والتي نفى فيها، باسم مولاي سليمان، أن يكون التجار الأجانب ومنهم فرنسيون، قد طردوا من أسفي؛ لأن «ذلك كذب وزور، وإنهم في ذمته وعاره لا يرون إلا ما يسرهم، وأن قصده إنما هو تعمير الصويرة»[٥٠]. لذلك، «أمر التجار الذين كانوا بتلك المدينة أن يرحلوا إلى هذه بدون إزعاج»[٥١]. أما بناصر العبدي الذي كان يجاهر، قبل قليل، بعدائه للفرنسيين، فقد تلقى بهذه المناسبة كتابا من مولاي

(٤٨) Ibid., folio 263-264.

(٤٩) Ibid.

(٥٠) عبد الرحمن بن محمد بن زيدان، **العلائق السياسية للدولة العلوية**، تقديم وتحقيق عبد اللطيف الشاذلي (الرباط: المطبعة الملكية، ١٩٩٩)، ص ٨٣.

(٥١) المصدر نفسه.

سليمان يوصيه فيه بشد عضد هؤلاء التجار، «وحراسة دورهم وأمتعتهم، والوقوف معهم حتى يحملوا أمتعتهم برا وبحرا»[٥٢].

أما مدينة الصويرة التي كانت توجد بها حامية عسكرية قوية وتشكل أحد الموانئ الرئيسة بجنوب المغرب، فقد صدرت عن عاملها كذلك بعض التصرفات التي يمكن اعتبارها منافية لما كان عليه الحال بالنسبة للموقف الرسمي. تمثل ذلك في حادثتين منفصلتين. أما الأولى، فكانت بمناسبة نزول مركب من جنوة بمرسى المدينة وعلى متنه مائة وثلاثون بحارا قضى الكثير منهم عدة أيام عند نائب القنصل الفرنسي بهذه المدينة. وبينما هم كذلك اكتشف بعض تجار المدينة ممن كانوا قد تعرضوا سابقا للقرصنة وجود بعض من شارك في هذه العملية بين هؤلاء البحارة. فطلبوا من عامل المدينة أخذهم كرهائن إلى غاية استرجاع بضائعهم. ويبدو أنه قد همّ فعلا بالقبض عليهم؛ لكن نائب القنصل الفرنسي بهذه المدينة اضطر إلى التدخل لصالح مواطنيه، مذكرا بمعاهدة ٢٨ أيار/ مايو ١٧٦٧م المبرمة بين المغرب وفرنسا، كما لم يفته التأكيد على أن مشكل التجار المغاربة هو في طريقه إلى الحل بباريس. وبعد أن قدم بين يدي التجار المتضررين ما يكفي من الضمانات باسترجاع حقوقهم، بادر مسرعا إلى ترحيل كل البحارة الفرنسيين[٥٣].

ومما يؤكد شدة حساسية هذه المدينة تجاه الفرنسيين، إصدار عاملها، بعد شهور قليلة على هذا الحادث، أمرا بإخراج أحد البحارة الفرنسيين ومرافقيه من هذه المدينة ثم منعهم من العودة إليها. ورغم خفارته لهم بجنوده وحملهم على أحد مراكبه إلى مركبهم، وجدنا البحار المذكور يطالب تسليمه وثيقة تقر فيها السلطات الفرنسية المختصة بـ «العنف الذي عانى منه» أثناء هذه العملية[٥٤]. لا نعرف متى تعرض هذا البحار الفرنسي ومرافقوه للطرد من هذه المدينة، لكن يبدو أنه

---

(٥٢) المصدر نفسه، ص ٨٣ ـ ٨٤.

(٥٣) Jacques Caillé, «Le Vice-consul Broussonet et ses «Mémoires» sur le Maroc,» *Héspéris-Tamuda*, vol. 2 (1969), p. 13.

(٥٤) A.D.N., Tanger, A 87, Registre des actes de la chancellerie du Vice Consul de France à Mogador, no. 5.

واكب أو أعقب الاحتفالات التي شهدتها مدينة أسفي وأعطت، من خلالها، إشارة الانطلاق لموجة من الغضب تجاه الرعايا الفرنسيين بهذه الجهات. وربما كان الباعث على ذلك هو تفادي الاصطدام بين هؤلاء البحارة وسكان المدينة، وخاصة منهم التجار الذين طالتهم يد القراصنة الفرنسيين. كما لا يستبعد أن يكون السبب في ذلك هو حالة الترقب والخوف التي كانت تعيشها المدن الساحلية عامة من جراء ما راج من أخبار عن إنزال عسكري فرنسي وشيك بأحد مراسيها.

خلاصة القول، إن مواطنين فرنسيين طارئين على الصويرة يتم طردهم منها للمرة الثانية على يد عاملها، ويمنعون من العودة إليها مجددا، كما أن إطارا مخزنيا من حجم هذه المدينة يشذ عن القاعدة العامة التي حكمت الموقف الرسمي تجاه فرنسا ومواطنيها بالمغرب. أو هذا على الأقل هو ما فهمه هذا البحار الفرنسي حينما طالب نائب قنصل بلاده بشهادة تثبت، على حد زعمه، العنف الذي مورس عليه بهذه المدينة، أو نائب القنصل الفرنسي نفسه حينما التجأ إلى التذكير، بمناسبة الحادثة التي سبقت هذه الأخيرة، بمعاهدة الثامن والعشرين من شهر أيار/ مايو سنة ١٧٦٧م.

إلى جانب هذه الأحداث المتفرقة التي كانت تشهدها هذه المدن الساحلية، اشترك عمال كل من مدينة أسفي والصويرة وأكَادير في اتخاذ موقف مماثل تجاه أحد القراصنة الفرنسيين حينما التجأ إلى مراسي مدنهم في أواسط سنة ١٨٠١م وبحوزته بضائع كان قد احتجزها من مركب إنجليزي. تمثل هذا الموقف في رفض عاملي أسفي والصويرة تزويد هذا القرصان بما يحتاجه من مواد غذائية، قبل أن يتم احتجاز مركبه من قبل عامل أكَادير[٥٥].

لا نعرف على وجه التحديد الأسباب التي دعت هؤلاء العمال الثلاثة إلى التعامل مع هذا القرصان الفرنسي بهذه الطريقة التي تنم عن عداء صريح. لكننا، نرجح أن يكون مبعث هذا الرفض هو النفوذ

---

(٥٥) A.A.E.P, C.C.C, 21, Tarifa, Guillet à Talleyrand, 22 frimaire an 10 (12 décembre 1801), folio 49.

السياسي والإعلامي الذي كان يمارسه الإنجليز وحلفاؤهم البرتغاليون بهذه الجهات.

وإذا صح هذا الافتراض، أمكننا القول إن هؤلاء العمال الثلاثة الذين كانوا، بحكم موقعهم ذاك، يمثلون السلطة المركزية بهذه الأقاليم، استمروا إلى هذا التاريخ يعانقون الأطروحة الإنجليزية ويكنون عداء صريحا لفرنسا التي استمرت تشكل بالنسبة لهم ولساكنة مدنهم خطرا محققا منذ أن وطئت أقدام جيشها أرض مصر والشام. ومما يدعم هذا الافتراض هو ما ورد في رسالة الوزير محمد بن عبد السلام السلاوي إلى القنصل الفرنسي بتاريخ ٢ ربيع الأول ١٢١٦هـ (١٤ تموز/ يوليو ١٨٠١م). فقد طلب منه ومن غيره من قناصلة الدول الأوروبية، وهو يحيطه علما بالإجراءات الزجرية التي اتخذت في حق هؤلاء العمال، عدم السماح لتجارهم بالنزول بمراسي كل من مدينة الجديدة وأسفي وأكَادير والعرائش، بسبب ما كان يعتري سكان هذه المدن من ذعر وهيجان تجاه السفن الأوروبية عامة[٥٦]. ومما لا شك فيه أن هذا الذعر والهيجان المشار إليهما في هذه الرسالة، إنما يجدان أصولهما في الحملة الإعلامية التي كانت تشنها آنذاك إنجلترا ضد فرنسا، زاعمة من خلالها أن هذه الأخيرة تتهيأ لتنفيذ إنزال عسكري في إحدى جهات المغرب مثلما سبق لها أن فعلت في مصر.

يتضح مما سبق، أن عمال هذه المدن الثلاث البعيدة نسبيا عن مراقبة السلطة المركزية والواقعة أكثر من غيرها تحت تأثير الدعاية الإنجليزية، أعلنوا عداءهم الصريح للرعايا الفرنسيين باعتبارهم جزءا من هذه الدولة التي كشفت ميدانيا عن نواياها العدوانية تجاه المسلمين من خلال ما قامت به من احتلال لمصر والشام، وما يمكن أن تقوم به مستقبلا من غزو مماثل بالمغرب. إلا أن عداءهم هذه المرة تم بشكل جماعي ووصل إلى حد احتجاز أحد المراكب الفرنسية، وهي سابقة لم تحدث، في ما نعلم، منذ بدء الحملة. ومما يبرز خطورة هذا التطور،

---

(٥٦) انظر النص الكامل لهذه الرسالة مترجماً إلى الفرنسية، في: A.A.E.P., C.C.C. 21, folio 48.

الذي طرأ على تعامل بعض الأطر المخزنية السامية مع الرعايا الفرنسيين هما الصرامة والحزم اللذان عالج بهما مولاي سليمان هذه القضية حينما وجّه توبيخا شديد اللهجة إلى عاملي أسفي والصويرة، وأزاح عامل أكَادير عن منصبه(٥٧).

وغني عن القول، إن الأحداث التي شهدتها هذه المدن الجنوبية الثلاث، إضافة إلى تطوان على مدار السنوات الثلاث التي استغرقتها الحملة الفرنسية على مصر، كانت وليدة الغضب والخوف اللذين كانا يتملكان سكان هذه المدن بما في ذلك أجهزتها السياسية والإدارية تجاه فرنسا، بسبب حملة هذه الأخيرة على مصر والشام وخوفهم من أن تتكرر نفس التجربة على أراضيهم. إلا أن استمرار القراصنة الفرنسيين في ارتكاب المظالم والتعديات في حق عدد من التجار المغاربة الذين كان جلهم ينتمي إلى هذه المدن الساحلية، رفع من وتيرة هذا الموقف العدائي تجاه فرنسا وما يتصل بها من رعايا، خاصة من كان منهم يجوب عرض المياه الإقليمية المغربية وتطأ أقدامه أحد مراسيها. كما تؤشر لنا هذه الأحداث عن مدى التباين، إن لم نقل التناقض، بين موقف السلطة المركزية تجاه فرنسا ورعاياها بالمغرب، وهذه الأطر المخزنية التي كانت تتولى إدارة هذه الأقاليم الساحلية التي كانت، تشكل بحكم موقعها ذاك، إضافة إلى عوامل أخرى، نقطة احتكاك مباشرة مع مختلف رعايا الدول الأوروبية، الصديقة منها والعدوة.

ومما تجدر الإشارة إليه، أن هذا التباين في تعاطي مكونات السلطة السياسية بالمغرب مع فرنسا لم يقتصر على رعايا هذه الأخيرة، بل طال أيضا جيشها بالمشرق. ففي الوقت الذي تابع فيه شيخ ركب الحاج المراكشي طريقه عبر مصر امتثالا، على ما يبدو، للأوامر التي جاءته من مولاي سليمان، واقتناعا منه بالتطمينات التي سمعها من فم هذا الأخير وهو يغادر المغرب، آثر ركب الحاج الفاسي، وهو كما نعلم الأكبر حجما وأهمية، إذ منه يعين عادة أمير ركب الحاج المغربي وبه يعرف،

(٥٧) A.A.E.P., C.C.C. 21, Tarifa, Guillet à Talleyrand, 21 frimaire an 10 (22 novembre 1801), folio 49.

العودة إلى المغرب بعدما وصلته أخبار غير مطمئنة عما كان يجري آنذاك بمصر والشام. كما أن طائفة أخرى من الحجاج المغاربة رفضت متابعة طريقها عبر مصر وفضّلت على ذلك ركوب البحر انطلاقا من طرابلس.

يستنتج من هذا، أن شيخ ركب الحاج الفاسي ومن كان يأتمر بأمره من الشيوخ الآخرين، باعتبارهم أطرا مخزنية سامية، لم يطمئنوا كفاية للكلمة التي ألقاها فيهم مولاي سليمان ساعة توديعه لهم بمكناس. لذلك، لم يذعنوا للأوامر التي يبدو أنه أصدرها إليهم على وجه الاستعجال، وهم على مشارف مصر، يحثهم فيها على ضرورة الاستمرار عبر هذا الطريق البري.

نستخلص من كل ما سبق، أن القيادة المغربية اعتمدت، عموما، موقفا مسالما تجاه حكومة الإدارة ورعاياها بالمغرب وجيشها بالمشرق. فهي لم تعلن الحرب ضد الجمهورية الفرنسية، ولم تقطع علاقاتها بها رغم نداءات السلطان العثماني بالجهاد ضدها وضغوط إنجلترا وحالة السخط والتذمر التي كانت تسود الأوساط الشعبية وفئات مختلفة من أعضاء النخبة العالمة والتجارية. كما أنها شملت الرعايا الفرنسيين، الطارئين منهم والمستقرين، بالحماية وقدمت لهم مساعدات غير متوقعة في ظرف حرج وحساس مثل هذا، ولم تتخذ أي إجراء حربي ضد جيش الشرق عكس ما شاع عنها آنذاك، بل اعتبرته امتدادا لدولة صديقة. أكثر من ذلك، أذنت للحجاج بالتوجه إلى الديار المقدسة والمرور ذهابا وإيابا عبر مصر، وساهمت، على ما يبدو، في حل معضلة تواصل جيش الشرق المحاصر بمصر مع حكومة الإدارة.

ورغم ذلك، لا يجب أن ينسينا هذا الموقف المبدئي العام تلك المواقف المغايرة التي صدرت عن عدة أطر مخزنية سامية حينما عبرت عن عدائها الصريح تجاه فرنسا ورعاياها بالمغرب وجيشها بمصر. فحاولت النيل من بعض الفرنسيين الطارئين على المدن التي كانت تقع تحت إدارتها، انتقاما منها لما كان يقترفه القراصنة الفرنسيون من مظالم في حق التجار المغاربة. كما أنها لم تخف قلقها مما حل من عدوان واحتلال بالقطرين المصري والشامي؛ حيث كانت تسارع إلى إقامة أفراح عامة كلما سمعت بانهزام جيش الشرق بهذه الديار، أو خروجه

منها. فتلقّى البعض منها التوبيخ، وكان مصير البعض الآخر العزل.

لهذا، يمكننا القول إن موقف القيادة السياسية بالمغرب تجاه فرنسا، باعتبارها الدولة التي قامت باحتلال مصر وجزء من الشام، لم يكن دائما منسجما بين مختلف مكوناتها. فإذا كان قد غلب عليه طابع المسالمة والتعاون مع هذه الدولة وما يتصل بها من رعايا مدنيين وعسكريين، فإنه اتسم في جانب آخر منه بالعداء الصريح لهذه الأطراف الثلاثة. إلا أن الغلبة بقيت، في كل الأحوال، لصالح الموقف الأول الذي كان يمثله مولاي سليمان ووزراؤه وعدد من قادته وعماله.

ـ وإذا كان هذا هو حال القيادة السياسية المغربية بمختلف مكوناتها، فهل كانت الأطراف الفرنسية الثلاثة على علم وبينة من ذلك؟ بمعنى آخر، هل كانت الظروف السائدة آنذاك تسمح بتواصل الجهات العليا الفرنسية مع نظيراتها المغربية بالقدر الذي يتيح لهما تحصيل وعي مشترك بنقاط التقاطع والتعارض فيما بينهما؟

للإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها، نخصص المبحث التالي الذي سنتناول فيه تباعا موقف كل من حكومة الإدارة وجهازها القنصلي بالمغرب وجيشها بمصر من المغرب ككل وقيادته السياسية على وجه الخصوص.



الفصل الثالث

ردود فعل السلطات العليا الفرنسية بخصوص المغرب من الحملة

نعتقد أن من شأن هذا الفصل أن يسعفنا في إلقاء مزيد من الضوء على مختلف الملابسات والظروف التي أحاطت بالمواقف المتبادلة بين فرنسا والمغرب خلال السنوات الثلاث التي استغرقتها الحملة على مصر. ذلك، أن ما كان يصدر عن القيادة السياسية بالمغرب لم يكن يصل دائما في الوقت المناسب إلى مسامع حكومة الإدارة بباريس وجيش الشرق في مصر، أو أنه كان يصل مغلوطا ومشوها. كما أن حالة عدم الاستقرار والحروب المستمرة التي كان يعيشها المغرب والضغوط والإغراءات التي كانت تمارس عليه من جانب الدولة العثمانية وإنجلترا، لم تسمح لهذه الأطراف الفرنسية الثلاثة بالاطمئنان بصفة مبكرة ومستمرة إلى الموقف النهائي للمغرب من هذه القضية.

وقد نتج عن هذا كله مجموعة من التصورات الخاطئة والإشاعات المغرضة حول الموقف الحقيقي لهذا البلد. فأضحى يشكل، رغم أنفه، خطرا محدقا بفرنسا وجيشها بمصر. وإذا كانت الجهود المكثفة التي بذلها أنطوان كَليط وأعوانه، والاتصالات التي كانت تجريها مختلف مكونات الجهاز السياسي والإداري المغربي مع السلطات الفرنسية بباريس ومصر، قد رفعت كثيرا من اللبس عن الموقف الحقيقي للمغرب، فإن هذه الجهات الفرنسية الثلاث وخاصة منها حكومة الإدارة وجيش الشرق، استمرت، لمدة طويلة، ترى في المغرب مصدر خطر حقيقي.

لهذه الاعتبارات، نرى أنه من المستحسن التوقف بشيء من التفصيل عند الكيفية التي تعاملت بها هذه الأطراف الفرنسية الثلاثة مع القيادة المغربية. ونقترح أن نبدأ بالطرف الأقرب إلى هذه القيادة؛ أي الجهاز القنصلي الفرنسي الذي كان يتولى توضيح وجهة نظر حكومته بخصوص هذه الحملة والدفاع عنها، ويعمل، في الآن نفسه، على متابعة ما كان يجري على الساحة السياسية المغربية ويرصد ردود أفعالها تجاه هذا الحدث العسكري.

أولاً: الجهاز القنصلي الفرنسي وجهود إبقاء المغرب على الحياد

لأسباب شخصية وأخرى وطنية بذل كل من أنطوان كَليط[1] وأعوانه، وخاصة منهم نائبه في الصويرة، جهودا مكثفة من أجل إبقاء المغرب على جانب الحياد واستمراره في علاقاته السلمية مع فرنسا. ولبلوغ هذا الهدف ترجموا مناشير نابليون وقصاصات الأخبار التي كانت تتحدث عن انتصارات الجيش الفرنسي في أوروبا ومصر، وقدموها بين يدي مولاي سليمان، ثم وزعوها على مختلف جهات المغرب، وكثفوا مراسلاتهم واتصالاتهم بهذا السلطان ومختلف وزرائه وأعوانه، وقدموا إليهم الهدايا الثمينة، متحدين بذلك قوانين الثورة التي كانت تمنع مثل هذا السلوك[2]، وبذلوا كل ما في وسعهم من أجل رفع مطالب المغاربة المتضررين من عمليات القرصنة إلى حكومة الإدارة، ثم دافعوا

---

(١) كان أنطوان كَليط منشغلاً جداً بمسألة إقراره في منصبه بصفة رسمية. لذلك لم يدخر جهداً في إبراز قدراته في معالجة القضايا المتصلة بالعلاقات المغربية الفرنسية خاصة ما يتصل منها بموضوع حملة نابليون على مصر. للمزيد من المعلومات حول هذا القنصل الفرنسي في علاقته بمنصبه بالمغرب، انظر: Jacques Caillé, *La Représentation diplomatique de la France au Maroc* (Paris: A. Pedone, 1951), pp. 48-49.

(٢) بعد قيام النظام الجمهوري في فرنسا، أصدرت حكومة الإدارة أوامر بمنع تقديم أية هدايا إلى حكام شمال إفريقيا بما في ذلك المغرب. واعتبرت ذلك منافياً للسلوك السليم الذي يجب أن تبنى عليه العلاقات بين الأمم المتحضرة. انظر بهذا الخصوص: أحمد المكاوي، «الهدية في العلاقات بين المغرب وأوروبا (رصد أولي)،» في: محمد يعلى [وآخرون]، **وقفات في تاريخ المغرب: دراسات مهداة للأستاذ إبراهيم بوطالب**، تنسيق عبد المجيد القدروي، بحوث ودراسات؛ ٢٧ (الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ٢٠٠١)، ص ٣٣٤ ـ ٣٣٦.

عنها بمختلف الوسائل. كما قاوموا، بكل قوة وحماسة، الدعاية الإنجليزية ونداءات الجهاد العثمانية. وسمحت لهم العلاقات الودية التي نسجوها مع مولاي سليمان ووزيره ابن عثمان وعدد من الأطر المخزنية المتنفذة، من الاطلاع مبكرا على حقيقة الموقف الرسمي للمغرب. كما أهّلتهم خبرتهم بأحوال هذا البلد، من الناحيتين السياسية والعسكرية، من الاطمئنان إلى هذا الموقف، وتولوا هم بدورهم إقناع حكومة الإدارة بذلك.

ورغم كل هذا، بقي أعضاء هذا الجهاز القنصلي، وخاصة منهم أنطوان كَليط، تنتابهم بعض الشكوك والمخاوف مما قد يصدر عن هذه القيادة من تصرفات معادية تجاه دولتهم، وخاصة في المناسبات التي كان يستقبل فيها مولاي سليمان مبعوثي السلطان العثماني، أو تتحرك فيها آلة الدعاية الإنجليزية والبرتغالية وتقام التظاهرات الشعبية المضادة للحملة وتندلع بعض الثورات المحلية. فإذا كان القنصل الفرنسي وأعوانه قد تأكدوا بشكل يكاد يكون تاما من حسن نوايا مولاي سليمان منذ أن أذن لمواطنيه بالتوجه إلى الديار المقدسة عبر التراب المصري وألقى فيهم كلمته التي أشار فيها إلى علاقات الصداقة التي تربطه بفرنسا، فإن استقباله لمبعوثي السلطان العثماني ومطالبتهم إياه قطع علاقاته بفرنسا وإعلان الحرب ضدها كان يثير مخاوف حقيقية لدى القنصل الفرنسي، مما اضطره مرارا عديدة إلى مضاعفة اتصالاته ومراسلاته بمولاي سليمان ووزيره ابن عثمان واستخدام كل الوسائل من أجل إفشال هذه المحاولات العثمانية.

ورغم عدم استجابة سلطان المغرب لهذه المحاولات ومنعه المطلق لمواطنيه وخاصة منهم العمال والقواد من التظاهر بأي شكل من الأشكال مهما وصلتهم من أخبار عن مصر، واستجابة حكومة الإدارة لمطالب التجار المغاربة، فإن وفاة الوزير ابن عثمان في صيف ١٧٩٩م واضطرار القنصل الفرنسي وبعض أعوانه إلى مغادرة المغرب بسبب الطاعون وتجدد الثورات المحلية المدعومة في نظر هذا القنصل من طرف إنجلترا والبرتغال، قد جعل أعضاء هذا الجهاز القنصلي يتوقعون الأسوأ. وقد عبر عن هذا أنطوان كَليط في مناسبات عدة؛ خاصة بعد وفاة ابن عثمان

الذي كانت تربطه به صلات قوية ويعتبره الشخصية السياسية الأكثر قدرة على إبقاء مولاي سليمان على جانب الحياد إزاء هذه الأزمة الدولية، نظرا لما كان يتمتع به من نفوذ وتأثير لدى هذا السلطان، وكذا العلاقات الوطيدة والقديمة التي كانت تربط ابن عثمان بإسبانيا، الحليف الأول لفرنسا. لهذا، كتب إلى وزير خارجية بلاده، في ٦ تيرميدور سنة ٧ (٢٤ تموز/يوليو ١٧٩٩)، يخبره أن ما يقلق القناصل الأوروبيين - وربما هو أكثر من أي واحد منهم - هو تخلف الوزير ابن عثمان عن مرافقة مولاي سليمان في إحدى جولاته، ربما بسبب إصاباته بمرض الطاعون. ثم أضاف، معقبا على وفاته المحتملة، إن ذلك «سيكون كارثة إضافية للمغرب، وخسارة لا تعوض»[٣]. ورغم أن وفاة ابن عثمان قد تزامنت مع وفاة غريمه مولاي الطيب[٤]، فإن ما أصبح يؤجج مخاوف القنصل الفرنسي أكثر هو تزامن اختفاء ابن عثمان مع تجدد المحاولات العثمانية والإنجليزية واضطراره، هو نفسه، إلى مغادرة طنجة حيث كان يراقب الأوضاع عن كثب وإقامته في الجهة المقابلة بإسبانيا.

صدرت عن مولاي سليمان إشارات كثيرة وقوية بخصوص موقفه المسالم من فرنسا. وأكد، غير مرة، عدم استعداده لمقايضة ما كانت تعرضه عليه الدولة العثمانية وحليفتها إنجلترا. ورغم ذلك، استمرت إنجلترا والبرتغال تثير مخاوف شديدة لدى أنطوان كَليط، خاصة إذا ما تزامنت مع أحد التمردات القبلية التي كانت تنتاب المغرب بين الحين والآخر. فقد كتب هذا القنصل إلى تاليران، في ١٢ فانديمير سنة ٩

---

(٣) A.A.E.P., C.C.C. 21, Tarifa, Guillet à Talleyrand, 6 thermidor an 7 (24 juillet 1799), folio 300.

(٤) «Soyez persuadé, citoyen ministre, que sans le bon esprit qui dirige cette cour sous la Prédilection particulière du Ministre [Ben Ottman] pour les Français et son influence sur l'esprit de l'Empereur qui rend nulle celle de Muley Taibi frère de l'Empereur et son Calife, partisan déclaré des Anglais depuis longtemps, la paix serait rompue entre les deux gouvernements»

انظر: A.A.E.P., C.C.C.21, Tanger, Guillet à Talleyrand, 10 vendémiaire an 7 (1 octobre 1799), folio 127.

هكذا كان ينظر أنطوان كَليط إلى الدور الذي يمكن أن يؤديه كل من ابن عثمان ومولاي الطيب في علاقة مولاي سليمان مع فرنسا. أما قنصل الولايات المتحدة الأمريكية فوصفه بقوله: «but of the all brothers (of Moulay Solayman), Taib was considered the most dangerous,» T. A. L, roll 1, volume 1, letter 20, Tariffa 17 august 1799.

(١٤ تشرين الأول/أكتوبر ١٨٠٠)، يخبره أن مولاي سليمان يخضع لمساومة شديدة من طرف البرتغال من أجل قطع علاقاته مع إسبانيا. ثم قال، إنه من المحتمل جدا أن يكون ذلك من تدبير إنجلترا، وأنه من شبه المؤكد أن يكون تمرد البربر هو كذلك من تدبير هاتين القوتين المعاديتين بهدف استنزاف القدرات العسكرية والاقتصادية لمولاي سليمان وإرغامه من ثم على طلب المساعدة. لهذا، فهو يخشى، إذا ما قطع المغرب علاقاته مع إسبانيا، أن يفعل نفس الشيء مع حليفتها فرنسا[٥].

هكذا، يمكن القول إن خطورة المحاولات التي كانت تبذلها إنجلترا والبرتغال اضطرت القنصل الفرنسي، رغم اقتناعه بالموقف المسالم لمولاي سليمان، إلى التكهن بأسوأ الاحتمالات في وقت أصبح فيه من المؤكد لدى الجميع عدم استعداد المغرب لاتخاذ أي إجراء حربي ضد فرنسا بسبب حالة الإنهاك العام التي كان يمر بها[٦]، وإشراف الحملة، باعتبارها السبب الرئيس لهذه المخاوف، على الانتهاء.

لذلك، لم يكن يرى أنطوان كَليط من وسيلة لمقاومة هذه الاحتمالات بعد استجابة حكومة الإدارة لمطالب عدد من التجار المغاربة المتضررين من عمليات القرصنة، سوى إيفادها سفارة حاشدة إلى مولاي سليمان تبز السفارتين اللتين أرسلتهما، أو كانت تنوي إرسالهما، كل من إنجلترا والبرتغال. فقد نبه إلى هذا الموضوع منذ بداية الحملة حين كتب مخاطبا وزير خارجية بلاده، في ٢٧ بريمير سنة ٧ (١٧ تشرين الثاني/نوفمبر ١٧٩٨)، أنه آن الأوان للتعبير علنا لمولاي سليمان عن ارتياح حكومة الإدارة لاعتلائه العرش. وبعد أن أخبره أن البرتغال وعدداً من الأمم الأوروبية، قد بعثت بسفاراتها إلى هذا السلطان، قال إن إنجلترا

---

(٥) A.A.E.P., C.C.C. 21, Tarifa, Guillet à Talleyrand, 12 vendémiaire an 9 (4 octobre1800), folio 30.

(٦) نقصد بذلك حركات التمرد التي كانت تظهر بين الحين والآخر في عدد من النقاط الحساسة، ووباء الطاعون الذي حصد أكثر من نصف ساكنة البلاد، وحالة الجفاف التي سبقت الطاعون الكبير وتخللته. للوقوف على خطورة الوضع الذي كان آل إليه المغرب بسبب هذه الآفات، انظر: محمد الأمين البزاز، **تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، رسائل وأطروحات؛ ١٨ (الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٩٩٢)، ص ٨٥ ـ ٩٩.

تتهيأ بسرعة كبيرة لعمل من نفس القبيل. ثم ضمن رسالته تحذيرا شديد اللهجة إلى كل الفرنسيين من النتائج السلبية التي من شأنها أن تترتب عن سفارة مثل هاته؛ لأن إنجلترا سوف لن تتوانى، حسب قوله، في تحميل هذه السفارة كل ما يسمح لها به غرورها الوطني بخصوص انتصاراتها العسكرية. لهذا، فهو يرى أن الوسيلة الوحيدة الكفيلة بكسب مولاي سليمان إلى جانب فرنسا ومقاومة الإغراءات الإنجليزية، هو أن ترسل حكومة الإدارة سفارة إلى المغرب(٧).

وبما أن حكومة الإدارة امتنعت عن إيفاد هذه السفارة، بقي هذا الموضوع يؤرق القنصل الفرنسي؛ حيث استمر يكاتبها في هذا الموضوع إلى آخر لحظة من عمر الحملة، مدعيا أن القوى الإسلامية شغوفة بمظاهر الصداقة التي تعود عليها دائما بالربح(٨).

وفي تقديرنا المتواضع، ما كان يعتمل في صدر القنصل الفرنسي من مخاوف وتراوده من شكوك بخصوص موقف مولاي سليمان من فرنسا، لم يكن له ما يبرره لا من جهة هذا الأخير الذي كان قد حدد موقفه من هذه الأزمة منذ تاريخ مبكر، ولا من جهة الواقع العسكري والاقتصادي للمغرب الذي لم يكن يؤهله لإثارة مخاوف من هذا النوع. لذلك، يمكن القول إن الصورة التي كونها أنطوان كَليط عن المغرب خلال هذه المناسبة، كان مبالغا فيها بعض الشيء. والسبب في ذلك راجع، حسب رأينا، إلى حملة التشهير التي كانت تقودها إنجلترا وحليفتها البرتغال ضد فرنسا في المغرب بسبب حملتها على مصر والشام.

ومعنى هذا، أن الطرف الفرنسي الأقرب إلى القيادة المغربية لم تسعفه الظروف الحرجة التي تسببت فيها الحملة، من تبين الموقف الحقيقي لهذه القيادة والاطمئنان إليه؛ حيث بقيت تساوره الشكوك كلما لاح له في سماء المغرب موفد عثماني أو إنجليزي، أو شاع خبر وفاة مولاي سليمان أو وزيره ابن عثمان.

---

(٧) A.A.E.P., C.C.C. 21, Tanger, Guillet à Talleyrand, 27 brumaire an 7 (17 novembre 1798), folio 160.

(٨) A.A.E.P., C.C.C. 22, Tarifa, Guillet à Talleyrand, 21 frimaire an 10 (12 octobre 18001), folio 49.

ثانياً: حكومة الإدارة بباريس أمام شبح انضمام المغرب إلى صف الدولة العثمانية

استمرت حكومة الإدارة إلى حدود انطلاق حملتها باتجاه مصر، غير عابئة بما كان يجري داخل المغرب من أحداث، وغير مهتمة بالمطالب الملحة التي كان يرفعها إليها باستمرار التجار المغاربة المتضررون من قراصنتها، مما اضطر مولاي سليمان ووزيره ابن عثمان إلى التدخل مرات عديدة لدى هذه الحكومة لإنصافهم، مشددين في ذلك اللهجة على خطورة العواقب.

لكن، عندما أعطت حكومة الإدارة إشارة الانطلاق لحملتها على مصر، تنبهت فجأة إلى الأهمية الخاصة التي يكتسيها المغرب في سياستها الخارجية، باعتباره بلدا إسلاميا تربطه علاقات خاصة بمصر والدولة العثمانية، ونظرا أيضا لموقعه الجغرافي الهام الذي يجعله على تماس مباشر مع كل من إسبانيا أحد حلفاء فرنسا الأقوياء وإنجلترا أحد أعدائها الألداء. ناهيك عن الثقل السياسي والعسكري اللذين ظل يحظى بهما هذا البلد إلى حدود هذا التاريخ.

لهذه الأسباب، بادرت هذه الحكومة إلى اتخاذ عدة إجراءات غير منتظرة لصالح المغرب. كان **أولها** تسريح عدد من الأسرى المغاربة بجزيرة مالطا في إطار عملية تحرير غير مسبوقة شملت كل أسرى المسلمين الموجودين آنذاك بهذه الجزيرة. حصل هذا عقب استيلاء جيش الشرق على مالطا وهو في طريقه إلى مصر. أما الإجراء **الثاني** الذي يكتسي في نظرنا أهمية أكبر فهو الاهتمام المفاجئ الذي أولته حكومة الإدارة لمطالب التجار المغاربة المتضررين من المظالم التي كان يرتكبها في حقهم قراصنة فرنسا. فقد ألمحنا في إحدى النقاط السابقة إلى وقوع عدد من هؤلاء التجار في تواريخ متفرقة قبل الحملة وخلالها في قبضة قراصنة فرنسيين، فاحتجزت بضائعهم، وصودرت أموالهم. كما أرغم البعض منهم على أداء مبالغ مالية ضخمة مقابل استرجاع محجوزاتهم، وكان جلهم من الصويرة وأسفي، وبعضهم من فاس وتطوان.

ورغم المحاولات المتكررة التي قام بها هؤلاء التجار وآزرهم فيها

بقوة كل من مولاي سليمان وأنطوان كَليط، ظلت حكومة الإدارة ترفض الاستجابة لمطالبهم بدعوى استقلالية القضاء الذي كان قد قال كلمته في مجمل الدعاوى التي عرضت عليه وكانت كلها في صالح القراصنة الفرنسيين. واستمرت متشبثة بموقفها هذا حتى بعدما تعرض ثلاثة من ضباط بحريتها للحجز في مدينة أسفي من طرف بعض التجار المتضررين[٩]، ولم يتم الإفراج عنهم إلا بتدخل من مولاي سليمان وضمان من القنصل الفرنسي الذي وعدهم باسترجاع حقوقهم[١٠].

أما عندما أصبح جيش الشرق يقيم فوق أرض إسلامية شقيقة والدولة العثمانية وحليفتها إنجلترا تكثفان الجهود من أجل دفع المغرب إلى إعلان الحرب ضد فرنسا وجيشها بمصر وأنطوان كَليط يربط ربطا مباشرا بين استمرار المغرب على جانب الحياد وضرورة استرجاع هؤلاء التجار لحقوقهم المسلوبة، اضطرت حكومة الإدارة إلى تغيير موقفها كلية من هذا الموضوع؛ إذ انبرت تبحث عن كل الوسائل الممكنة وغير الممكنة القانونية منها وغير القانونية، من أجل إرضاء مطالب هؤلاء التجار. ومما زاد من حدة هذا الموقف، تلقيها رسالة من مولاي سليمان ربط فيها ضمنيا بين إنصاف هؤلاء التجار وإيقاف عمليات القرصنة ضدهم واستمرار العلاقات السلمية بين البلدين حين قال: «ونحن في انتظار قدومهم علينا من عندكم، مجبورين [كذا] الخاطر برد متاعهم عليهم مع إعطائكم الأمر إلى البحرية بأن يحافظوا على العهود التي بيننا وبينكم كما تقتضيه الصحبة»[١١]. كما تزامن هذا الظرف الحرج بالنسبة لحكومة الإدارة، بانتقال جل هؤلاء التجار المتضررين إلى باريس وإقامتهم بها شهورا وأحيانا أعواما للمطالبة باسترجاع حقوقهم العينية والمالية، وإيفاد مولاي سليمان شبه سفارة إلى هذه الحكومة مكونة من شخصيتين تجاريتين من بين التجار المتضررين، وهما الحاج

---

(٩) Lettre de Ben Otmane à Guillet, 28 Moharram 1213 (12 juin 1213), and A.A.E.P., C.C.C. 21, folio 103.

(١٠) Ibid.

(١١) كتب هذه الرسالة بتاريخ ٢٢ ربيع الأول ١٢١٣هـ (٣ أيلول/ سبتمبر ١٧٩٨). انظر: Manon Hosotte-Reynaud, «Quatre documents inédits touchant les relations entre la France et le Maroc (1794-1810),» *Hésperis-Tamuda*, vol. 1, no. 3 (1960), p. 555.

عبد السلام بن زاكور الفاسي والحاج محمد بن صالح من أهل أسفي.

وهكذا، اضطرت حكومة الإدارة، لأول مرة بسبب المأزق العسكري والسياسي الذي أوقعته فيها مغامرتها بمصر، إلى مراجعة موقفها من المطالب الملحة التي ما انفك قنصلها بطنجة يفاتحها فيها طيلة سنوات خلت. فأخذت ترهف السمع، منذ هذا التاريخ، إلى شكاوى هؤلاء التجار، وأضحى موضوع التجار المغاربة المتضررين يشكل إحدى القضايا التي تدرج ضمن مداولات حكومة الإدارة وتصدر حولها التقارير والتوصيات.

أما وزارة الخارجية التي ظلت إلى الأمس القريب تتجاهل مطالب هؤلاء التجار، فقد كثفت من مراسلاتها واتصالاتها مع وزارة العدل والمحاكم التي كانت تعرض عليها هذه القضايا علها تعثر على ثغرة أو حيلة قانونية تمكنها من إرضاء هؤلاء التجار. وإذا ما هي فشلت في ذلك، عمدت إلى التضحية بمبدأ استقلالية القضاء، وتدخلت مباشرة لدى هذه المحكمة أو تلك لتكييف القضية المعروضة عليها حسب ما تقتضيه مصلحتها الوطنية التي أصبحت هذه المرة تفرض عليها الاستجابة الفورية لمطالب التجار المغاربة.

وقد نالت، من بين كل القضايا المعروضة عليها، قضيتان اهتماما خاصا بسبب المكانة الخاصة التي كان يحظى بها أصحابها لدى مولاي سليمان. نقصد بذلك، قضية الحاج عبد السلام بن زاكور الذي سبق له أن شغل منصب شيخ ركب الحاج المغربي، وقضية تجار أسفي وعلى رأسهم الحاج محمد بن صالح. حاولت حكومة الإدارة أن تؤكد من خلال استجابتها لمطالب هؤلاء التجار الذين جاؤوها بتوصية خاصة من مولاي سليمان، مدى تفهمها للمطالب التي رفعها إليها هذا الأخير في رسالته آنفة الذكر وحرصها الشديد على استمرار العلاقات السلمية مع هذه القوة الإسلامية في ظرف حرج كهذا. ومما يؤكد هذا الرسائل التي تبودلت بين كل من وزير الخارجية الفرنسية ونظيره في العدل، وكذا التقارير التي كان يرفعها كل منهما إلى حكومة الإدارة، والرسائل التي كانا يوجهانها إلى المحاكم المعنية، ثم الكيفية التي تصرفا بها مع التجار المغاربة الذين حلوا بباريس، والقراصنة الذين تورطوا في هذه القضايا.

تطالعنا أول إشارة في هذا الصدد من خلال الرسالة التي بعث بها تاليران إلى القنصل الفرنسي بطنجة يخبره فيها بوصول عبد السلام بن زاكور والحاج محمد بن صالح ومرافقيهم إلى باريس ومثولهم أمام حكومة الإدارة التي خصصت لهم، حسب قوله، استقبالا حسنا. ثم أضاف أن وزير العدل الذي ناقشه كثيرا في هذا الموضوع، لم ينتظر وصول هؤلاء التجار، لأنه رفع إليه قبل ذلك تقريرا عرضه في ٢٨ بريمير سنة ٧ (١٨ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٧٩٨) على أنظار حكومة الإدارة، مقدما بين يديها الاعتبارات القوية الكفيلة باستصدار قرار لصالح هؤلاء التجار، وأن هذا التقرير الذي اعتمدته حكومة الإدارة، قد بعث به إلى وكيل الحكومة بمحكمة اللوار السفلى ليستند عليه في الدفاع عن التجار المغاربة. ثم ختم رسالته مطالبا القنصل المذكور بإخبار سلطان المغرب بأن الحكومة الفرنسية عازمة على تمكين رعاياه من حقوقهم نزولا منها عند التوصيات التي صدرت منه في حقهم[(١٢)].

هذه الاعتبارات القوية التي ساقها وزير الخارجية الفرنسية كمبرر لاستجابة بلاده لمطالب هؤلاء التجار، هي ما أكده فعلا في تقرير رفعه إلى حكومة الإدارة في ١٤ فريمير سنة ٧ (٤ كانون الأول/ ديسمبر ١٧٩٨)، بخصوص القضيتين اللتين ذكرنا، وخاصة قضية ابن زاكور التي أصبحت تحظى باهتمام خاص نظرا لمكانة صاحبها، حيث قال: «إذا كان إرجاع هذه الحقيبة أمر تقتضيه (La Justice distributive)[(١٣)] فإن الاحترام الواجب علينا تجاه العلم المغربي وخاصة المصلحة المباشرة والملحة التي لا تسمح لنا بخسران سلطان المغرب، كما خسرنا الدول المغاربية الأخرى، يقتضيان ذلك». وبعد أن اعترف بالعوائق التي يسببها مبدأ استقلالية القضاء أمام أي حل ودي لهذه القضية، قال متسائلا: «هل يسمح لنا في هذا الظرف أن نضع في نفس الكفة مصالح الجمهورية

---

(١٢) A.A.E.P., C.C.C.21, Paris, Talleyrand à Guillet, frimaire an 7, folio 147.

(١٣) لم نعثر على ترجمة لهذا المصطلح القانوني. لكن أحد القواميس الفرنسية، أوردت تفسيره على الشكل التالي: «Celle qui préside à la répartition des récompenses et des peines; elle repose sur le principe de la différences des mérites et de la proportionnalité».

انظر: *Dictionnaire encyclopédique Quillet*, [sous la direction de Jean Christian et Guy Rocaut], 11 vols. (Paris: A. Quillet, 1977), p. 3640.

الأقوى مع مصالح قرصان». ثم ختم كلامه بالقول بعدم سلامة مثل هذا التصرف، نظرا لما يمكن أن يترتب عنه من مساوئ. مؤكدا، في الوقت نفسه، أن الاستجابة لمطالب التجار المغاربة «ضرورة قصوى»(١٤).

أما وزير العدل الذي رفع بدوره تقريرا في نفس الموضوع إلى حكومة الإدارة، فقال بعدما بيّن كيف أن القرصنة لم تعد تلائم الظروف الحالية، وأنها مخالفة للعدالة والمساواة: «إن العرض الذي أتقدم به إلى المديرين يؤكد بداهة أن هاتين القضيتين من شأنهما أن يعرضا علاقات التفاهم بين فرنسا والدولة المغربية إلى الخطر»(١٥). ورغم اقتناعه بعدالة هذه المطالب بغض النظر عن الاعتبارات السياسية، اقترح على حكومة الإدارة العمل في هاته الحالة بقانون ٤ فريمير سنة ٧ الذي يبيح إصدار حكم في قضية لها علاقة بمصلحة الدولة، في ظرف عشرة أيام. وحرصا منه على تزويد هذه الحكومة بكل ما يلزم من الحيل القانونية للخروج من هذا المأزق السياسي الذي وقعت فيه، ذهب إلى فرضية تأكيد المحكمة للقرارات السابقة، فاقترح في هذه الحالة، استخدام المواد ٣٢٩ و٣٣٠ و٣٣١ من القانون الأساسي التي تخول للحكومة حق التدخل لدى المحاكم من أجل الحفاظ على علاقة الجمهورية بالأمم الأجنبية(١٦).

يتضح لنا جليلاً، من خلال هذين التقريرين، كيف أن مطالب التجار المغاربة التي قابلتها سابقا حكومة الإدارة لمدة طويلة بالإهمال وعدم الاكتراث، تحولت فجأة إلى أحد الملفات الساخنة التي ستحرك، على مدى شهور، آلتيها الدبلوماسية والقانونية. حصل هذا كله بسبب حملتها على مصر التي أرغمتها على مراجعة موقفها من المغرب الذي أضحى يشكل، بهذه المناسبة، مصدر خطر محقق في حالة انضمامه إلى الدولة العثمانية وحليفتها إنجلترا.

ومما يوضح أكثر الإحراج الكبير الذي وجدت فيه حكومة الإدارة

---

(١٤) A.A.E.P., C.C.C. 21, Rapport du Ministre des Relations Extérieures (Talleyrand) au Directoire Exécutif, 14 primaires an 7 (2 mai 1799).

(١٥) A.A.E.P., C.C.C. 21, Rapport du Ministre de la Justice au Directoire Exécutif, Document no. 2196, s.d., folio 167.

(١٦) Ibid.

من جراء هذه المطالب وعزمها الاستجابة لها مهما كان ذلك متعارضا مع القوانين المعمول بها في هذا الموضوع، ما سطره وزير خارجيتها في الرسالة التي بعث بها إلى وزير العدل بتاريخ ٦ تيرميدور سنة ٧ (٢٤ حزيران/ يونيو ١٧٩٩)، يجيبه ويستفتيه في أمر الشكاوى التي صدرت، هذه المرة، من القراصنة الذين اعترضوا على الأحكام الصادرة واعتبروها مخالفة للقانون، وهددوا بمتابعة الحكومة لدى القضاء. فقال، مندداً بهذه الأعمال القرصنية التي تتعارض مع المعاهدات التي تربط فرنسا بالمغرب: «إنه من الضروري أن ترضي الحكومة الفرنسية، بطريقة أو بأخرى، سلطان المغرب لكي تحافظ على موقفه الإيجابي تجاهنا ومنعه من الدخول في الحرب التي تعلنها القوى الإسلامية من كل جانب. ولذلك، فإنها تتبنى كل الوسائل التي ترى أنها كفيلة بإرضاء المغاربة وبالتالي سلطان المغرب»[١٧].

وبالفعل، تمكنت حكومة الإدارة، وعلى رأسها وزير الخارجية، في ظرف وجيز نسبيا، من إيجاد الحلول المناسبة لعدد من القضايا التي عرضت عليها. نذكر من بينها على سبيل التمثيل قضيتين حظيتا باهتمام خاص من لدن مولاي سليمان وحكومة الإدارة، وهما قضية تجار أسفي، وقضية عبد السلام بن زاكور، أنفتي الذكر. ففي ٢٢ نيفوز سنة ٧ (١١ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٧٩٩)، صدر حكم من محكمة اللوار المدنية السفلى يعلن أن احتجاز السفينة البرتغالية، لنوسترا سينيورا (La Nostra Senora) التي كان على متنها تجار أسفي، يعتبر ملغى[١٨].

وجدير بالذكر، أن هذا الإلغاء تحقق بفضل الضغوط السياسية التي مارستها حكومة الإدارة على هذه المحكمة بواسطة وكيلها الذي أكد اختراق القرصان الفرنسي للمياه الإقليمية المغربية. أما عبد السلام بن زاكور فقد سلّمته حكومة الإدارة حقيبته من غير أن تعرض قضيته على المحكمة، بناء على اقتراح من وزير الخارجية الذي طلب منها فيه موافقتها

---

(١٧) A.A.E.P., C.C.C.21, Paris, Talleyrand au Ministre de la Justice, 6 thermidor an 7 (24 juillet 1799), Folio 310.

(١٨) A.A.E.P., C.C.C.21, Paris, Ministre de la Justice à Talleyrand, 1 pluviose an 7 (20 janvier 1799), folio 192.

على إصدار أمر إلى قنصل الجمهورية بمدينة لاكورون (La Corogne) برد هذه الحقيبة إلى صاحبها مع جميع محتوياتها المثبتة في سجلات هذه القنصلية[١٩]. وبما أن تصرف حكومة الإدارة في هذه القضية كان منافيا للقانون المعمول به آنذاك، فقد طلبت من ابن زاكور استئناف الحكم. لكن هذا الأخير، لم يفعل شيئا، مما أوقع وزير خارجيتها في إشكال قانوني محقق إزاء القرصان الفرنسي الذي اعترض على هذا القرار[٢٠].

وبهذه الطريقة تقريبا، عالجت حكومة الإدارة عددا من القضايا المشابهة. إلا أنها بمجرد ما تأكدت من حياد المغرب واستحالة قيامه بأي إجراء حربي ضدها في مستقبل قريب، أهملت قضايا أخرى كانت قد عرضت عليها قبل الحملة أو استجدت خلالها، مثل قضية أولاد العطار التطوانيين الذين ظلوا يطالبون باسترجاع حقوقهم إلى حدود سنة ١٨٠٨، بدون جدوى رغم عدالة قضيتهم ومساندتهم القوية من طرف مولاي سليمان.

ما يهمنا من هذا كله، هو أن حكومة الإدارة التي أهملت المطالب المغربية في موضوع كهذا ردحا من الزمن، أرغمت، بسبب حملتها على مصر والشام، على مراجعة موقفها، متخذة تدابير استعجالية وأحيانا غير قانونية من أجل إرضاء هؤلاء التجار ظنا منها أن من شأن ذلك أن يبقي مولاي سليمان على جانب الحياد في ما يخص خلافاتها مع الدولة العثمانية وإنجلترا. أما عندما تأكدت أن المغرب عاجز في كل الأحوال عن المساس بمصالحها، أصمت أذنيها بالمرة عن مطالب تجار مغاربة آخرين، وتركت قراصنتها على عادتهم القديمة يلاحقون المراكب المغربية.

ومما يؤكد مرة أخرى قوة توجيه حدث الحملة لعلاقات فرنسا بالمغرب، هو ما اتخذته من إجراءات حربية مضادة في حق التجار المغاربة الذين كانت قد وقفت إلى جانبهم بالأمس القريب فور سماعها

---

(١٩) A.A.E.P, C.C.C.21, Rapport de Talleyrand au Directrice, Exécutif, 14 frimaire an 7 (4 décembre 1798), folio 149.

(٢٠) A.A.E.P, C.C.C.21, Talleyrand au Ministre de la Justice, 6 thermidor an 7 (24 juillet 1799), folio 310.

أخبارا تقول إن المغرب قد بعث بجيش إلى مصر لاستخلاصها من الفرنسيين، وإن سفنه الحربية تحاصر ميناء قادس الإسباني. فسحبت منهم جوازات السفر، ووضعتهم تحت الحراسة أسوة بما كانت قد اتخذته من إجراءات ضد رعايا الدولة العثمانية المقيمين بفرنسا[٢١].

لا نحتاج إلى القول إن المغرب لم يتخذ أي إجراء حربي ضد فرنسا. إلا أن هاته الأخيرة كانت تعوزها الوسائل للتثبت من صحة هذه المعلومات التي زودها بها بعض قناصلتها وروّجتها على أوسع نطاق جريدة **لومونيتور** (*Le Moniteur*) شبه الرسمية، إضافة إلى أنها لم تكن واثقة من الضمانات التي قدمها بين يديها مولاي سليمان وأعوانه في مناسبات عدة؛ لأنها ظلت تعتقد، لمدة طويلة، أن إعلان الدول المغاربية الحرب ضد فرنسا في كانون الثاني/يناير ١٧٩٩ سيجر لا محالة المغرب إلى اتخاذ نفس الإجراء سيما وأن زيارة موفدي الدولة العثمانية إليه كانت قد تكررت، إلى حدود هذا التاريخ، ثلاث مرات. وهذا يؤكد، من جهة أولى، سوء تقدير الحكومة الفرنسية لموقف المغرب المعلن منذ شهور. ويدل، من جهة ثانية، على الثقل السياسي والعسكري اللذين ظل يحظى بهما هذا البلد في حسابات هذه القوة الاستعمارية.

علمنا من خلال أحد المباحث السابقة أن فرنسا رفعت بعد وقت قصير الإجراءات التي اتخذتها خطأ ضد التجار المغاربة. لكنها، لم تفعل ذلك إلا بعد توصلها من قنصلها بالمغرب برسالة يفنّد فيها بشكل قاطع هذه الإشاعات، وأخرى من مولاي سليمان يؤكد فيها استمرار علاقته السلمية مع فرنسا.

وسعيا منها إلى ضمان استمرار علاقاتها السلمية مع هذا البلد المغاربي والتكفير عن ما صدر منها من تجاوزات بحق التجار المغاربة، لم تقف حكومة الإدارة، هذه المرة، عند حدود تمكينهم من حقوقهم المشروعة، بل زودتهم من ميزانية الدولة بمبالغ مالية مهمة على سبيل الإقراض حتى يتمكنوا من تسديد الديون التي تراكمت عليهم خلال إقامتهم الطويلة بباريس، وتحمل مصاريف السفر إلى الموانئ الأوروبية

---

(٢١) A.A.E.P, C.C.C.21, Guillet à Talleyrand, 10 ventose an 7 (février 1799), folio 213.

البعيدة حيث كانت تحتجز بضائعهم. فعلت حكومة الإدارة كل هذا، ليس رفقا بهؤلاء التجار الذين تكبدوا مشاق السفر ومصاريف الإقامة في بلد بعيد ومغاير كفرنسا، وإنما حرصا منها على ضمان استمرار حياد المغرب تجاه الأزمة الدولية التي ترتبت عن احتلالها لمصر، واستدراكا منها للهفوة التي سقطت فيها حينما انساقت من غير أن تتأكد وراء إشاعات لم يكن لها أي أساس من الصحة.

لم تقف حكومة الإدارة عند هذا الحد، بل زودت هؤلاء التجار برسائل إلى قراصنتها في المدن التي كانت تحتجز بها بضائعهم، وحملتهم رسائل خاصة إلى مولاي سليمان ووزيره ابن عثمان. أكثر من هذا، بعثت إلى هذا الأخير هدية متميزة، هي عبارة عن مسدس من طراز رفيع (Une paire de pistolet d'Arçon monté en or)[٢٢].

يستنتج من هذا، أن حكومة الإدارة لم تكتف بالتدخل المباشر لدى محاكمها وقنصلياتها من أجل إرجاع البضائع المحتجزة والمصادرة إلى أصحابها، بل خالفت أيضا السلوك الجديد الذي اتبعته منذ مدة في تعاملها مع الدول المغاربية، والمتمثل في عدم تقديمها الهدايا المعهودة لقادة وأعوان هذه الدول. وهكذا، يلاحظ أن حكومة الإدارة قد أرغمت، حفاظا منها على المصلحة العليا لبلادها، على المساس بمبدأي استقلالية القضاء وفصل السلط، ومخالفة أحد التقاليد الدبلوماسية التي سنّها رجال الثورة، وتجاهل القوانين المنظمة لعمليات القرصنة.

في ختام هذه النقطة، يمكن القول إنه في الوقت الذي كان فيه المغرب قد جمع أمره بخصوص هذا العدوان الذي استهدف مصر والشام وكثف من إشاراته الواضحة والصريحة تجاه فرنسا بخصوص موقفه المسالم منها، ظلت هذه الأخيرة لأكثر من سنة تنتابها المخاوف مما يمكن أن يصدر من هذه القوة الإسلامية القابعة في الركن الغربي من شمال أفريقيا. ولمقاومة هذه الوساوس، استعملت فرنسا، تارة،

---

(٢٢) A.D.N., Tanger A1, Lettre du Directoire Exécutif à Muley Soleiman, 12 germinal an 7 (1 avril 1799), folio, 90, et A.D.N., Tanger A1, Lettre de Talleyrand à Ben Ottman, 12 germinal an 7 (1 avril 1799) folio 88.

سياسة الترغيب، فتدخلت لدى محاكمها وقناصلتها لرفع المظالم التي ألحقوها بالتجار المغاربة، وسلكت، تارة أخرى، سياسة الترهيب عندما وضعت هؤلاء التجار تحت الإقامة الإجبارية. لكن، عندما توصلت بإشارات قوية تؤكد لها التزام المغرب جانب الحياد، لم تبخل لا بأموالها ولا بهداياها.

يستنتج من هذا أن حكومة الإدارة لم تستوعب بسهولة إمكانية الفصل بين موقف المغرب والدولة العثمانية في ما يتعلق بالوجود الفرنسي بمصر. هذا، في وقت كانت فيه القيادة المغربية، وعلى رأسها مولاي سليمان، لا ترى نفسها ملزمة باتخاذ نفس الوقف، خاصة ما يتعلق منه بضرورة إعلان الحرب ضد فرنسا.

ثالثاً: جيش الشرق بمصر بين معضلتين ضمان استمرار مرور ركب الحاج المغربي بمصر واحتمال هجوم عسكري وشيك من المغرب

رأينا سابقا، كيف تعاملت القيادة السياسية بالمغرب مع هذه الأداة العسكرية التي تولت تنفيذ الحملة. فتبين لنا أنها لم تتخذ أي إجراء حربي ضد جيش الشرق، ولم يصدر عنها أي تصرف عدائي ضده. على العكس من ذلك تماما، عبرت لقيادته العليا، في عديد من المناسبات، عن مشاعر التفاهم والصداقة.

ـ فهل بادلت قيادة هذا الجيش المغرب نفس الإحساس، أم أن رؤيتها له في هذا الظرف الحرج كانت تكتنفها نفس الضبابية التي خيمت على حكومة الإدارة؟

الواقع، أن هذه القيادة كانت توجد في وضعية تجعلها تتوقع الخطر من كل جانب؛ لأن مجرد وجود جيش الشرق بمصر، كان يثير لديها شعورا دائما بأنه محاط بقوى إسلامية معادية تتربص به الدوائر. فإذا كانت هذه القيادة قد نجحت في أحكام مراقبتها لتحركات الجيش العثماني، فإنه لم يكن بمقدورها التأكد دائما مما يمكن أن يأتي من جهة المغرب. لذلك، ظل يثير لديها هذا الأخير مخاوف حقيقية طيلة

مدة مكوثها بمصر رغم التطمينات التي قدمها لها شيوخ ركب الحاج المغربي في أكثر من مناسبة.

وقع أول اتصال بين جيش الشرق والمغرب في جزيرة مالطا عندما قام نابليون، بعد احتلاله لهذه الجزيرة، بتحرير عدد من الأسرى المغاربة في إطار عملية تحرير واسعة النطاق شملت حوالى ألفي أسير مسلم. وسعيا منه إلى طمأنة القادة المسلمين وكسب تأييدهم لمشروعه، زود نابليون هؤلاء الأسرى بمنشوره الشهير الذي سيوزعه عما قريب على أهالي مصر. ومما لا شك فيه، أن المغاربة عامة ومولاي سليمان منهم على وجه الخصوص، وصلهم هذا المنشور بواسطة هؤلاء الأسرى. وعلمنا قبل هذا أن نابليون حرص بعد دخوله القاهرة على ملاقاة الحجاج المغاربة، وقدم لهم ما يلزم من الخدمات والمساعدات، سعيا منه إلى مقاومة الشعور العدائي الذي يمكن أن يثيره الوجود الفرنسي بمصر لدى هؤلاء الحجاج. ولا يستبعد أن يكون قد زودهم برسائل خاصة لمولاي سليمان أسوة بما فعله مع عدد من قادة البلدان الإسلامية.

ورغم هذا المجهود الدعائي ظلت قيادة جيش الشرق تتملكها مخاوف قوية مما يمكن أن يأتي من جهة المغرب، لأسباب مختلفة؛ منها: افتقار هذه القيادة إلى مصادر مباشرة وسريعة تطلعها على حقيقة الموقف المغربي بسبب الحصار الذي كان يضربه الأسطول الإنجليزي على السواحل المصرية والشامية، وكذا حالة الحرب التي كانت تعلنها الدول المغاربية من وقت لآخر ضد فرنسا، إضافة إلى ما كانت تثيره الجالية المغربية بمصر من مخاوف لدى هذه القيادة. ناهيك عن قيادة مجاهدين مغاربة لحركات مقاومة شرسة بكل من إقليمي البحيرة والصعيد[٢٣].

لكل هذه الأسباب ظلت القيادة العسكرية الفرنسية في مصر تترقب،

(٢٣) قام كل من الشيخ محمد الجيلاني السباعي ومحمد بن الأحرش الدرعاوي بإدارة حركة مقاومة شديدة في إقليميْ الصعيد والبحيرة. وللإلمام بأهمية المقاومة التي قادها هذان المجاهدان وتقدير مستوى الخطورة التي مثلتها النسبة لمشروع الحملة ككل، انظر فصول القسم الثالث الذي خصصناه لهذه المساهمة الجهادية من هذا الكتاب.

بين الحين والآخر، إمكانية حدوث هجوم عسكري من جهة المغرب. وتعزز هذا الاحتمال أكثر عندما راج، في الشهور الأولى للحملة، إشاعات قوية تقول إن المغرب قد بعث بجيش لاستخلاص مصر من يد الفرنسيين.

وإذا كانت حكومة الإدارة قد تأكدت مبكرا من عدم صحة هذه المخاوف، فقد ظلت القيادة العليا لجيش الشرق، لمدة أطول، تعتقد في صحة ذلك. لذلك، داخلها خوف شديد عندما سمعت بحلول ركب الحاج المراكشي بالتراب المصري في شهر نيسان/أبريل من سنة ١٧٩٩. وازداد هذا الخوف حدة عندما نزلت هذه القافلة بضواحي القاهرة. ومما عمّق لديها أكثر هذه الشكوك ما نقله إليها أحد أفراد هذه القافلة من أن الحجاج المغاربة «قدموا لمحاربتهم والجهاد فيهم، وأنهم اشتروا خيلا وسلاحا، وقصدهم إثارة فتنة»[٢٤].

وعلى الرغم من تكذيب شيخ ركب الحاج لهذه التهم خلال عملية الاستجواب التي أخضع لها بحضور حاكم القاهرة الجنرال دوكَا (Dugua) وتأكيده على الأوامر الصارمة التي وجهها إليه مولاي سليمان ساعة مغادرة ركب الحاج للمغرب بعدم استعمال العنف ضد الفرنسيين بمصر، فإن قافلته جردت مؤقتا من أسلحتها وأخذ عشرة حجاج من كبرائها رهائن. ثم أرغمت على مغادرة المدينة في ظرف لا يتعدى ثلاثة أيام تحت حراسة مشددة. لكنها، زودت بعلوفة وقدمت لها التسهيلات اللازمة لعبور الصحراء وبحر السويس، مما شجع أميرها على توجيه رسالة مستعجلة إلى مولاي سليمان يطمئنه فيها على حسن الاستقبال الذي خصص لهم من طرف الفرنسيين. كما تسلم، هو بدوره، رسالة من الجنرال دوكَا باسم مولاي سليمان في معنى ذلك[٢٥].

يتبين جليا من خلال ما سبق، أن السلطات العسكرية الفرنسية بمصر،

---

(٢٤) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ٣ ج (بيروت: دار الجيل، [د. ت.])، ج ٢، ص ٢٧٠.

(٢٥) Le Caire, Dugua à Bonaparte, 1 floréal an 7 (20 avril 1799), et Clément de La Jonquière, *L'Expédition d'Egypte*, 5 vols. (Paris: C. Lavauzelle, 1899), vol. 5, p. 61.

كانت شديدة الحساسية تجاه هذا الجيش المغربي المزعوم؛ إذ على الرغم من أنه لم يصل من هذا الجيش الجرار إلى القاهرة إلا حوالى سبعمائة حاج بأسلحتهم الشخصية، داخل هذه القيادة رعب كبير ترجمته تلك المراسلات المتعددة بين هيئاتها المختلفة، وكذا الأبحاث والاستجوابات التي أخضعت لها هذه القافلة الحجية. كما أنها لم تبرح مكانها إلا بعد أن اتخذت في شأنها تدابير وقائية صارمة؛ من نزع للأسلحة، وأخذ للرهائن. لكنها، حظيت، في نفس الآن، بمعاملة خاصة من حيث ركوبها وأمنها «من أجل التقليل من أعداء فرنسا»، كما قال حاكم القاهرة[٢٦].

وفعلا، فإن الجهود التي بذلتها قيادة الحملة وإدارتها لصالح الحجاج المغاربة سوف لن تذهب سدى؛ إذ ستشجعهم، من جهة أولى، على عدم الرضوخ لإغراءات الجزار الذي حاول الاستفادة من خدماتهم العسكرية حين عرض عليهم العمل ضمن قواته. وأقنعتهم، من جهة ثانية، بالعودة عبر التراب المصري والتوقف بالقاهرة من أجل مقابلة نابليون الذي على الرغم من انشغاله بمواجهة الجيشين العثماني والإنجليزي في معركة أبو قير البرية، خف إلى الاجتماع بشيخ ركب الحاج المراكشي، وسلمه رسالة منه إلى مولاي سليمان مؤرخة في ١٥ آب/أغسطس من سنة ١٧٩٩، يشيد فيها بالمساعدات التي قدمها للحجاج المغاربة؛ «لأن نيته هي أن يعمل في كل المناسبات، كل ما من شأنه أن يقنع مولاي سليمان بالتقدير الذي يكنه له». ثم أنهى رسالته، طالبا من سلطان المغرب أن يعامل الفرنسيين المقيمين ببلاده أو الذين تستدعيهم دواعي المتاجرة إلى المجيء إليه، بالمثل[٢٧].

بهذه الرسالة، ختمت الحملة الفرنسية على عهد نابليون علاقتها مع المغرب. خلال هذه المدة التي ناهزت السنة تلقت قيادة هذه الحملة أكثر من شهادة حية لدحض الإشاعات التي راجت حول موقف المغرب من جيش الشرق. وتأكدت بصفة مباشرة من عدم رغبة المغرب في اتخاذ أي

(٢٦) Ibid.

(٢٧) C.N., lettre no. 4378, Le Caire, 28 thermidor an 7 (15 août 1799), vol. 5, p.720, et *Victoires, conquêtes, désastres, revers et guerres civiles des Français, de 1792 à 1815* (Paris: C. L. F. Panckoucke, 1817-1821), vol. 10, pp. 222-223.

إجراء حربي ضد هذا الجيش. ورغبة منها في إبقاء المغرب على هذه الحال، خصت هذه القيادة ركب الحاج المغربي بمعاملة متميزة، ووجهت إلى مولاي سليمان رسالتين؛ واحدة من حاكم القاهرة الجنرال دوكَا، والثانية من قائد جيش الشرق الجنرال نابليون.

يفهم من هذا، أن حالة التوجس التي سيطرت على الإدارة الفرنسية بمصر بخصوص ما يمكن أن يصدر عن المغرب من مخاطر تلاشت بفعل هذا الاتصال المباشر الذي تم بين قيادتها وركب الحاج المراكشي الذي ظل، في ما يبدو لنا، مخلصا للخط الذي رسمه له مولاي سليمان ساعة مغادرته للمغرب.

ورغم ذلك، فإن رحيل نابليون عن مصر بُعَيْد مغادرة ركب الحاج المراكشي لها وعودة التهديدات العثمانية والإنجليزية وتحرك المماليك من إقليم الصعيد باتجاه مصر السفلى، أيقظ من جديد هذه المخاوف. فعادت القيادة العسكرية الفرنسية تتحدث عن قافلة مغربية قادمة باتجاه مصر(٢٨). وهكذا، وجدنا الجنرال دوكَا، باعتباره حاكما للقاهرة، يخبر القائد الجديد لجيش الشرق، الجنرال كليبر (Kléber)، أن المواطن روزيتي (Rossitti)(٢٩) أجرى حوارا مع شخص له علاقة بالمغاربة المقيمين بالقاهرة، استنتج منه أن ركب الحاج المغربي الذي اعتاد المرور عبر مصر كل سنة، قد أخذ طريقه نحو هذا البلد وهو، إضافة إلى كثرة أفراده، يضمر نوايا عدوانية تجاه الفرنسيين. ثم قال معلقا على هذا الخبر: «إذا كان ما قاله روزيتي صحيحا، فإن عدم تحرك المماليك وقبول الصدر الأعظم بالهدنة، من السهل تفسيرهما». وهذا معناه، حسب تقدير حاكم القاهرة، أن المماليك والعثمانيين كانوا ينتظرون وصول هذه القافلة المغربية لمحاربة الفرنسيين(٣٠).

---

(٢٨) B⁶ 110, Le Caire, Dugua au Général Rampon, 3 pluviôse an 8 (23 janvier1800).
(دار الوثائق، القاهرة، حافظة رقم ٦، ملف رقم ٨، وثيقة رقم ٦٤٢).

(٢٩) هو قنصل النمسا سابقاً بالقاهرة. ويبدو من المهام التي كان ينجزها لصالح جيش الشرق وإدارته ولقب «مواطن» الذي أصبح يحمله، أنه قد انضم فعلاً إلى الحملة.

(٣٠) B⁶ 110, Le Caire, Dugua à Kléber, 3 pluviôse an 8 (23 janvier 1800).
(دار الوثائق، القاهرة، حافظة رقم ٦، ملف رقم ٨، وثيقة رقم ٦٣٧).

ليس لدينا معلومات إضافية حول هذه القافلة التي كثر الحديث عنها، ولا عن الكيفية التي استقبلت بها في القاهرة. لكننا نعلم، من خلال بعض الإشارات، أن حجاجا مغاربة كانوا بالقاهرة في صيف ١٨٠٠، وهي الفترة التي صادفت عودة الحجاج من مكة. ويبدو أن هؤلاء الحجاج الذين حامت حولهم الشكوك عندما كانوا قادمين إلى مصر أول مرة، استمروا يشكلون مصدر قلق بالنسبة للسلطات العسكرية الفرنسية حتى بعد عودتهم. فقد دارت مراسلات عدة بين عدد من الضباط الفرنسيين تحدثوا فيها عن الإجراءات الأمنية المشددة التي كانت تتخذ بحق الحجاج المغاربة. فمن جهة أولى، لم يعد هؤلاء الحجاج، على الرغم من تواضع أعدادهم، أحرارا في سلوك طريقهم البري المعتاد؛ لأنهم وزعوا في القاهرة إلى جماعات صغيرة، ثم أرسلوا تحت حراسة عسكرية مشددة إلى مدينة دمياط لأخذ اتجاه جديد(٣١). كما وجدنا، من جهة ثانية، حاكم القاهرة الجديد، الجنرال بليار (Belliard)، يبعث إلى قائد جيش الشرق الجديد، الجنرال عبد الله مونو (Menou)، في ٢١ فونتوز سنة ٩ (١٢ آذار/ مارس ١٨٠١)، بشيخ المغاربة المقيمين بالقاهرة وشيخ ركب الحاج المغربي الذي مر بمصر في المرة الأخيرة. ثم قال في رسالته التي ضمنها هذا الخبر: «إن الاحتفاظ بهما كرهائن، لم تعد له فائدة»(٣٢).

مرة أخرى إذن، تلتجئ إدارة الحملة إلى أخذ المغاربة كرهائن. لكن، عوض أن تقتصر هذه المرة على المميزين من أفراد القافلة الحجية، طالت يدها شيخ المغاربة المقيمين بالقاهرة. وهذا يدل، في نظرنا، على أن مخاوف هذه القيادة من المغرب، زادت حدة حينما أخذت تشمل المغاربة المقيمين بمصر.

معنى هذا، أن جيش الشرق لم يقتنع أبدا بالموقف المسالم الذي

---

(٣١) B[6] 132, Le Caire, Ordres de Belliard au Général de Division Rampon, 3 fructidor an 8 (26 août 1800).

(دار الوثائق، القاهرة، حافظة رقم ٩، ملف رقم ٢، وثيقة رقم ٢٢٦ ووثيقة رقم ٢٢٧).

(٣٢) Le Caire, Belliard à Menou 21 ventose an 9 (12 mars 1801).

(دار الوثائق، القاهرة، حافظة رقم ٧، ملف رقم ٩).

وقفه منه المغرب، وعبّر عنه صراحة في مناسبات عدة؛ لأنه ظل يعتقد، وإلى فترة متأخرة من عمر الحملة، أن خطرا ما يمكن أن يأتي من هذه الجهة عبر قافلة الحج السنوية التي ربما وجدت، حسب تقديراته، في المغاربة المقيمين بالقاهرة من يساعدهم على مقاتلة الفرنسيين.

ومما تجدر الإشارة إليه هو أنه في الوقت الذي كان فيه الجنرال مونو يحتفظ بهذين الشيخين كرهائن، وتنتابه المخاوف والشكوك مما يمكن أن يأتي من جهة المغرب من مخاطر، كانت يمينه تخط رسائل ودّية إلى سلطان هذا البلد؛ واحدة منها موجهة شخصيا إلى مولاي سليمان في ٣٠ فانديمير سنة ٩ (٢٢ تشرين الأول/أكتوبر ١٨٠٠) يؤكد له فيها أنه بإمكان الحجاج المغاربة أن يعبروا التراب المصري في اتجاه المدينتين المقدستين بكل أمان وفي كل وقت، والمجيء إلى مصر سواء عبر البحر أو البر قصد التجارة، وأنهم سيتلقون من الفرنسيين المساعدة والحماية، ثم طلب منه أن يحظى الفرنسيون المقيمون بالمغرب بنفس المعاملة[٣٣]. أما الرسالة الثانية التي كانت وجهتها القنصل الفرنسي بطنجة، فقد طلب منه فيها إخبار مولاي سليمان أن بإمكانه أن يرسل مواطنيه إلى مصر للحج كما للتجارة[٣٤]. فكيف يمكن تفسير هذا التناقض؟

لا نملك لذلك تفسيرا شافيا، إلا أنه يمكننا القول إن الجنرال مونو الذي صدرت منه هذه الإجراءات التي بدت لنا متناقضة، أصبح حاكما عاما لجيش الشرق في ظرف أمني وعسكري حرج تميز باغتيال الجنرال كليبر من طرف سليمان الحلبي في ١٤ حزيران/يونيو ١٨٠٠ وعودة الحجاج المغاربة عبر مصر بعد أن تفادوا ذلك عند الذهاب، الشيء الذي فاجأ هذه السلطات ودفعها إلى التشكك في نواياهم. يضاف إلى هذا، أن مراسلة الجنرال مونو لمولاي سليمان لم تشكل استثناء؛ لأنها اندرجت ضمن سياسة عامة شملت عددا من قادة البلدان الإسلامية هدف منها هذا

---

(٣٣) A.M.G., B^6 55, Le Caire, Menou à Muley Soliman 30 vendémaire an 9 (22 octobre1800).

(٣٤) A.A.E.P., C.C.C. 22, Le Caire, Menou à Guillet, 1 brumaire an 9 (23 octobre 1800), folio 36.

الحاكم ـ المسكون بنزعة استعمارية قوية ورغبة جامحة في تحويل مصر من مجرد محطة لمقارعة الإمبراطورية الإنجليزية إلى مستعمرة فرنسية حقيقية ـ إلى مد جسور التعاون والتواصل مع هذه البلدان لتقوية الوجود الفرنسي بمصر[٣٥].

تبين لنا لحد الآن، أنه رغم إشارات الصداقة والتفاهم التي كانت تصدرها القيادة السياسية بالمغرب تجاه جيش الشرق، ظلت الإدارة العليا لهذا الأخير شديدة الحساسية تجاه هذا البلد الإسلامي ومتوقعة منه أسوأ الاحتمالات.

وأعتقد أن السر في هذا الموقف المتوجس يكمن في الهالة التي كانت تضفيها المصادر المكتوبة والروايات الشفوية على المغرب، حينما كانت تقدمه في صورة قوة عسكرية ضاربة وشعب محافظ ومقاتل. وتعززت هذه الصورة أكثر بما كان يتداوله أهل مصر من روايات تتحدث عن المغرب باعتباره القوة الإسلامية التي ينتظر حضورها، بين الحين والآخر، لإنقاذهم من الفرنسيين. كما أن استمرار ورود ركب الحاج المغربي على مصر وفق هيئته المعهودة، جعل إدارة جيش الشرق تتشكك أكثر في نوايا المغرب. ومما زاد هذا كله حدة وخطورة الكثرة العددية والقوة الاقتصادية والنفوذ الإداري والسياسي الذي كانت تتمتع به الجالية المغربية بمصر، وخاصة بمدينتي القاهرة والإسكندرية. يضاف إلى هذا وذاك المشاركة القوية لهذه الجالية في ثورتي القاهرة الأولى والثانية، وانضمام عدد من الحجاج المغاربة إلى حركات المقاومة والجهاد في إقليمي الصعيد والبحيرة، وقيادة البعض منهم معارك حقيقية ضد الجيش الفرنسي بهذه الجهات.

خلاصة القول، جعلت هذه الأسباب مجتمعة إدارة الحملة ترى في المغرب إحدى القوى الإسلامية التي تهدد أمنها بطريق أو بآخر؛ سواء

---

(٣٥) للإلمام بالسياسة الجديدة التي اتبعها الجنرال عبد الله مونو، انظر: محمد فؤاد شكري، **عبد الله جاك مونو وخروج الفرنسيين من مصر** (القاهرة: جماعة الأزهر للنشر والتأليف، ١٩٥٢)، ص ٢٢١ ـ ٥٠٧ و٦٨٩ ـ ٧٠٣، و M. F. Rousseau, *Kléber et Menou en ègypte depuis le départ de Bonaparte (août 1799-septembre 1801)*, publications de la Société d'histoire contemporaine; 24 (Paris: A. Picard et fils, 1900), pp. 358-359.

عبر قافلة الحج التي كان بإمكانها أن تتحول في ظرف وجيز إلى قوة قتالية، أو عن طريق تحريك المغاربة المقيمين بمصر. هذا، إن لم يتحالف الطرفان في ما بينهما. لذلك، ظلت قيادة جيش الشرق تلتزم جانب الحيطة والحذر تجاه ما يمكن أن يأتي من هذا البلد.

وهكذا، تحول المغرب، رغم أنفه، إلى عنصر تهديد وإزعاج لهذه السلطات العسكرية. هذا، في وقت كانت فيه قيادته قد حددت موقفها منذ الشهور الأولى للحملة، وعبّرت عن ذلك صراحة في أكثر من مناسبة. ورغم هذا، ظلت إدارة الحملة في مصر، شأنها في ذلك شأن حكومة الإدارة في باريس، غير مقتنعة بإمكانية الفصل بين موقف هذا البلد وباقي البلدان الإسلامية التي أعلنت الحرب ضد فرنسا أو أرغمت على إعلانها ضدها. لذلك، تميزت سياستها تجاه المغرب، بالمزج والمزاوجة بين الحذر الشديد ونوع من المداهنة والترغيب، اعتقادا منها أن من شأن هذه السياسة التقليل من احتمالات الهجوم العسكري الذي كانت تتوقع مجيئه، بين الحين والآخر، من هذه الجهة.

الفصل الرابع

موقف المغرب من إسبانيا
الحليف الأوروبي الأكبر لفرنسا

في الوقت الذي كانت فيه البرتغال تدعم جانب إنجلترا في صراعها ضد فرنسا، كانت إسبانيا تعلن تحالفها مع فرنسا. وإذا كانت لعبة التحالفات هاته قد ظلت شأنا أوروبيا محضا، فإن دخول الحملة الفرنسية إلى مصر قد أكسبها بعدا دوليا؛ حيث أصبحت آثارها تطال قوى سياسية أخرى في شمال إفريقيا وشرق البحر الأبيض المتوسط، إضافة إلى ما كانت تتمتع به إسبانيا من نفوذ خاص داخل المغرب بحكم احتلالها لبعض مدنه بالشمال وتأثيرها على بعض العناصر المتمردة بالجنوب. من هنا تنبع ضرورة البحث في العلاقة التي ربطت بين المغرب وإسبانيا خلال المدة التي استغرقتها هذه الحملة.

ـ فكيف تعامل المغرب مع هاته القوة الأوروبية التي كانت تقبع على مرمى حجر من حدوده، محتلة جزءا من أراضيه، وتعلن صراحة تأييدها لفرنسا التي أصبحت بدورها تحتل بلدا إسلاميا تربطه بالمغرب أكثر من علاقة؟

أولاً: خصوصية العلاقات المغربية ـ الإسبانية

قبل الخوض في تفاصيل الإجابة عن هذين السؤالين، نلفت الانتباه إلى أنه خلافا لحكومة الإدارة وجيش الشرق اللذين كانا يبعدان عن المغرب بمئات الكيلومترات، كانت الحدود الاستعمارية لإسبانيا تتداخل

شمالا وجنوبا مع الحدود الوطنية للمغرب. وإذا كان هذا الأخير لا يتوفر على تمثيل قنصلي منتظم بفرنسا، فقد كانت تحت تصرفه قنصلية نشطة بقادس. أضف إلى هذا، أنه في الوقت الذي لم تجدد فيه فرنسا معاهداتها مع السلطة الجديدة في المغرب، ولم تقدم إلى مولاي سليمان الهدايا المعهودة بهذه المناسبة، بادرت إسبانيا بإيفاد سفارة حاشدة ووقعت معه على معاهدة جديدة في فاتح آذار/مارس ١٧٩٩، الشيء الذي مكّنها من تعزيز علاقاتها بهذه الدولة والاطلاع مباشرة على وجهة نظرها في موضوع الحملة.

نخلص مما سبق إلى أنه خلافا لما كان عليه الحال مع حكومة الإدارة وجيش الشرق، كان الطرفان، الإسباني والمغربي، يتوفران على سبل أسرع ووسائل أدق للتعرف على وجهة نظريهما حول هذا الحدث العسكري المتمثل في الحملة الفرنسية على مصر، مما سيُجنّب البلدين حالات سوء التفاهم التي حصلت بين المغرب، من جهة، وحكومة الإدارة وجيش الشرق، من جهة ثانية.

ورغم هذا، يلاحظ أن المغرب قد داخلة خوف شديد عندما علم بانضمام الأسطول البحري الإسباني إلى الأسطول الفرنسي. نستنتج هذا، من الكيفية التي تعاملت بها قيادته مع هذا الخبر؛ حيث سارعت فور سماعها به، إلى إيفاد مبعوث خاص إلى باشا طرابلس الذي كانت تربطه صلات ودّية بمولاي سليمان. فقد ورد في جريدة **كوريبه دي ليجيبت** الفرنسية، أن هذا المبعوث وصل إلى طرابلس في ظرف ثلاثين يوما، حاملا خبر هذا الانضمام. ثم أضافت أن التقارير تفيد أن «سكان بلاد البربر منهمكون في إصلاح وترميم الحصون والقصور التي يمكن استعمالها للدفاع عن البلاد».

كما يلاحظ أنه في الوقت الذي كان فيه خبر هذا الانضمام يترامى إلى مسامع القيادة المغربية، كان سكان المدن الشمالية يتملكهم خوف شديد من إمكانية تعرضهم لغزو خارجي من جهة فرنسا وإسبانيا، مما جعلهم يطلبون من مولاي سليمان الإذن لهم بحمل السلاح والتزود به. ونظرا لما يمكن أن يترتب عن هذه الوضعية من مخاطر بالنسبة للمغرب عامة وأهل هذه الجهات خاصة، أذن مولاي سليمان لهؤلاء السكان، من

منطلق اقتناعه بجدية هذا الخطر، بحمل السلاح والتزود به[١].

ثانياً: اتفاقية فاتح آذار/ مارس ١٧٩٩ والهندسة الجديدة للعلاقات المغربية ـ الإسبانية

يبدو، من عدة إشارات، أن هذه الشبهات التي حامت حول الموقف الإسباني بهذه المناسبة قد تلاشت مؤقتا بفضل السفارة الحاشدة[٢]، التي أوفدتها الحكومة الإسبانية إلى المغرب في أوائل سنة ١٧٩٩. ذلك، أن مجرد إيفاد هذه السفارة في ظرف حرج كهذا، كان يعتبر حدثا إيجابيا، ناهيك عن توصل الطرفين إلى إبرام اتفاقية جديدة في فاتح آذار/ مارس من نفس السنة[٣]. إضافة إلى هذا، استغل السفير الإسباني هذه المناسبة للدفاع عن موقف فرنسا وتبديد الإشاعات التي ترددت حول أطماعها بالمغرب، مما كان يعني، ضمنيا، تبرئة ساحة إسبانيا نفسها، نظرا لصلات التحالف التي كانت توجد بين البلدين.

لهذا، نستطيع القول إنه إذا كانت هذه السفارة قد وطّدت العلاقة أكثر بين المغرب وإسبانيا، فإنها ساهمت كذلك بشكل غير مباشر في استعادة الثقة بينهما في وقت أصبح فيه موقف إسبانيا موضع شبهة بسبب التقارب الذي كان يوجد بينها وبين الدولة التي أوفدت حملتها العسكرية إلى مصر.

ورغم ذلك، يستفاد من مؤشرات أخرى، أن عقد هذه المعاهدة لم يحظ بالقبول التام داخل الأوساط المغربية. فإذا كانت إسبانيا قد اعتبرتها نصرا دبلوماسيا محققا لأنها مكّنتها من تحقيق مكاسب سياسية وتجارية

---

(١) **صحف بونابرت في مصر، ١٧٩٨ ـ ١٨٠١**، ترجمة صلاح الدين البستاني، ١٠ مج (القاهرة: دار العرب للبستاني، ١٩٨١)، و**كورييه دي ليجبت**، العدد ٢٦ (١٠ بلوفيوز سنة ٧) (٢٩ كانون الثاني/ يناير ١٧٩٩)، ص ١٠١.

(٢) عبر عن هذا القنصل الولايات المتحدة في رسالة له بقوله: «The Spanish ambassador arrived at this Port (Tanger) some weeks ago, accompanied by eigth small vessels bringing an immense Present, such i believe, as has been offered to any other Emperor of Morocco». T.A.L. Roll 1, vol. 1, letter 12, Tanger (29 February 1799).

(٣) انظر النص العربي لهذه المعاهدة، في: *Héspéris-Tamuda*, vol. 51 (1959), p. 9.

لم تكن تحلم بها[٤]، وجعلت منها فرنسا نقطة تحول إيجابية في علاقة المسلمين بالقوى المسيحية؛ لأنهم أصبحوا، في نظرها، يدافعون عن نفس المبادئ التي تتصل بصورة أو بأخرى بمبادئ الثورة الفرنسية[٥]، فإن مولاي سليمان رفض باستمرار تزكيتها، مؤكدا أن ابن عثمان تجاوز صلاحياته عندما أمضى الشروط بالشكل التي هي عليه[٦]. كما رأى فيها بعض الفقهاء المغاربة مسا صريحا بأحكام الشريعة الإسلامية[٧].

يستنتج مما سبق، أن المغرب لم يوقع على هذه المعاهدة في ظروف مريحة. فهل يمكن اعتبار توقيع هذه المعاهدة تتويجا طبيعيا للسياسة التي سلكها المغرب تجاه إسبانيا، والتي هدف من خلالها تحييد هذه الأخيرة في ما يخص الدعم العسكري والسياسي الذي كانت تقدمه قبل سنوات لحركات التمرد بالجنوب، أم أن انشغالاته الأمنية التي

---

(٤) علق حسن الفكيكي على هذه الاتفاقية بقوله: «بتوقيع اتفاقية آذار/ مارس ١٧٩٩، انتهى جزئياً دور المخزن التحكيمي بالحدود الفاصلة بين مليلية ورباط المجاهدين القلعيين». انظر: حسن الفكيكي، **المقاومة المغربية للوجود الإسباني بمليلية (١٦٩٧ ـ ١٨٥٩)**، رسائل وأطروحات؛ ٣٩ (الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٩٩٧)، ص ٣٨٣. أما الباحثة الإسبانية ماريا دل كارمن (Maria del Carmen Ganear Gallegos) التي جعلت من هذه المعاهدة موضوعاً لأطروحتها، فاعتبرتها الركيزة الأساسية التي قامت عليها سياسة المغرب الاقتصادية، وأساس علاقاته الخارجية في القرن التاسع عشر، بعد أن أصبحت تجارته الداخلية تدور في فلك الاقتصاد الأوروبي. اعتنى خلوق التمسماني بالتعريف بهذه الأطروحة. انظر: خلوق التمسماني، «المغرب عند نهاية القرن الثامن عشر: معاهدة فاتح مارس ١٧٩٩،» **مجلة دار النيابة** (تطوان)، العددان ٢٦ ـ ٢٧ (١٩٩٠)، ص ٢٣ ـ ٢٤.

(٥) يمكن تبيّن ذلك من خلال التعليق التالي الذي ورد في جريدة **لومونيتور** الفرنسية بهذه المناسبة: «On parle beaucoup ici (Madrid) d'un traité de paix, commerce, pêche et navigation conclu entre leurs majestés catholique et marocaine, à Mequinez le 11 germinal dernier. On le regarde comme un pas fait vers la civilisation de l'Afrique, les principes sacrés du droit des gens ont passé des livres de philosophie jusqu'aux cabinets barbaresques et commencent à régler leur conduite...».

انظر: *Le Moniteur* (23 septembre-21 décembre 1799), p. 61.

(٦) انظر: محمد المنصور، «الجهود المغربية من أجل استرجاع سبتة في عهد مولاي سليمان،» **مجلة كلية الآداب** (الرباط)، العددان ٥ ـ ٦ (١٩٧٩)، ص ٣١.

(٧) رأى امحمد بن عبود في توقيع مولاي سليمان على هذه المعاهدة، «امتيازاً خطيراً يتضمن مخالفة وتعطيلاً لمبدأ من مبادئ الشريعة الإسلامية (. . .) وتقيد سيادة الدولة المراكشية في قيد لم يعد بإمكانها أن تخالفه تشريعها الداخلي». انظر: امحمد أحمد بن عبود، **مركز الأجانب في المغرب: دراسة قانونية لوضعية الأجانب في المغرب قبل عهد الحماية وخلاله**، ط ٢ (تطوان: مطبعة الشويخ «ديسبريس»، ١٩٨٠)، ص ٤٤.

فرضتها أجواء الحملة الفرنسية على مصر هي التي اضطرته إلى توقيع معاهدة من هذا النوع رغبة منه في اتقاء شر فرنسا وحليفتها إسبانيا؟

لا نملك جوابا جاهزا عن هذه الأسئلة. بيد أننا نميل إلى الطرح الثاني. ذلك، أن القيادة المغربية كانت على علم كاف بقدرة إسبانيا على التأثير على الوضع الأمني والسياسي للمغرب أيام كانت تتحرك بمعزل عن فرنسا. أما وقد أعلنت تحالفها مع هذه الأخيرة التي أصبح جيشها يتحكم في إحدى القلاع الإسلامية الحصينة، فذلك ما لم تكن لتحتمله هاته القيادة. لذلك، نرجح أن يكون المغرب قد قايض، من خلال توقيعه على هذه المعاهدة غير المسبوقة، أمنه الترابي وسلامته الداخلية بهذه التنازلات القنصلية والتجارية التي سوف لن تعرف التطبيق إلا بعد سنوات.

ومعنى هذا، أن الحملة الفرنسية على مصر وما اتصل بها من تطورات قد لعبت دورا رئيسا في الهندسة الجديدة التي ستصبح عليها العلاقات المغربية الإسبانية، والتي ستشمل في السنوات المقبلة دولا أوروبية أخرى. من هنا، نلمس خطورة هذه الحملة حين كشفت بتداعياتها المختلفة هشاشة الوضع الأمني والعسكري بالمغرب؛ حيث أصبح لأول مرة في تاريخه الحديث مستعدا لإبرام معاهدة من هذا النوع مع دولة ظلت إلى عهد قريب تتربص به الدوائر وتجاهره بالعداء.

ومما يجدر ملاحظته في هذا الإطار، أنه، ورغم نجاح المغرب في تأكيد علاقاته السلمية مع إسبانيا بفضل هذه السفارة، فإن ارتباط موقف هذه الأخيرة بالسياسة الفرنسية سيجعله يعيش تحت طائلة التهديد طيلة السنتين المتبقيتين من عمر الحملة. فخلال سنة ١٨٠٠م انتابت مولاي سليمان مخاوف حقيقية بسبب الإشاعات التي كانت تتحدث عن غزو مسيحي مرتقب من جهة سبتة. فقد ذكر الضعيف الرباطي أنه ورد خبر على مولاي سليمان، في شهر جمادى الأولى سنة ١٢١٥هـ (أيلول/ سبتمبر ـ تشرين الأول/ أكتوبر ١٨٠٠م)، وهو في ناحية تادلا، يقول: «إن النصارى أرادوا الخروج إلى طنجة»[٨]. ووصلت هذه المخاوف حدا من الخطورة

(٨) محمد الضعيف، **تاريخ الضعيف: تاريخ الدولة السعيدة**، تحقيق وتعليق وتقديم أحمد العماري (الرباط: دار المأثورات، ١٩٨٦)، ص ٣٢٠.

جعل مولاي سليمان يصدر أمرا بالتعبئة العامة للجيش، ويكلف سيدي علي بن أحمد، رئيس الزاوية الوزانية، بإرسال المجاهدين إلى هذه المدينة[٩]. مما زاد من حدة هذه المخاوف أكثر لدى مولاي سليمان، هو اعتقاده بوجود اتفاق سري بين إسبانيا وفرنسا يقضي بتسليم ميناء سبتة لهذه الأخيرة. كما أن إنجلترا التي راعها ما حصل من اتفاق بين المغرب وإسبانيا في ربيع سنة ١٧٩٩، لم تدّخر وسعا في ترويج إشاعات من هذا القبيل[١٠].

ورغم أن إسبانيا أكدت للمغرب أن لا وجود لاتفاق سري بينها وبين فرنسا في ما يخص ميناء سبتة، استمرت حالة الخوف والترقب قائمة، وربما ازدادت حدة خلال اللحظات الأخيرة من سنة ١٨٠١، بسبب ما حصل خلال هذه المدة من تطورات كان لها مساس مباشر بأمن المغرب. فمن جهة أولى، بدا وكأن ما راج سابقا من إشاعات، قد تحول إلى حقيقة عندما توقف أسطول عسكري فرنسي بقيادة الجنرال جانتوم (Ganthaume) بميناء قادس الإسباني خلال سنة ١٨٠١. يستنتج ذلك من الرسالة التي وجّهها الوزير محمد بن عبد السلام السلاوي إلى القنصل الإنجليزي، في ١٤ كانون الأول/ديسمبر سنة ١٨٠١، يستخبره فيها عن حقيقة هذا الأسطول[١١].

ومن جهة ثانية، يلاحظ أنه في الوقت الذي كان يتردد فيه هذا الأسطول الحربي الفرنسي بين موانئ البحر الأبيض المتوسط، مثيرا المخاوف والشكوك لدى المغرب، كانت تحركات مريبة تصدر من جهة سبتة[١٢]، مما

---

(٩) Mohamed El Mansour, «Political and Social Development under the Reign of Moulay Solayman (1792-1822),» 2 tomes (Doctorate, University of Landers, 1981), tome 1, pp. 231-232.

(١٠) المصدر نفسه، ص ٢٣٣.

(١١) المصدر نفسه.

(١٢) ذكر قنصل البرتغال في رسالة له أنه «في وقت ما خرجت من سبتة لانشات إلى هذه الجهة (الريف)، وهاجمت أسفل الساحل وقتلت بعض الأغنام في البر بالرصاص. ألقي القبض على الأوائل منهم وسجنوا وأرسلوا إلى مكناس». من: رسالة قنصل البرتغال كولاصو إلى وزير خارجية بلاده كوتينيو بتاريخ ٢٠ أيلول/ سبتمبر ١٨٠١ (أرشيف طوري دو طومبو، رقم ٢٩٩، .M.N.E.CX). انظر أيضاً: عثمان المنصوري، «صدى الحملة النابليونية في المغرب،» ورقة قدمت إلى: **المؤتمر الدولي للعلاقات المصرية المغربية عبر التاريخ**، تنظيم كلية الآداب، جامعة حلوان ـ مصر بالتعاون مع كلية الآداب، عين الشق، جامعة الحسن الثاني (القاهرة: مطابع جامعة حلوان، ٢٠٠٣)، ص ٢١٦.

جعل الناس، كما يقول القنصل البرتغالي، يتخوّفون «من غزو محتمل من طرف إسبانيا وفرنسا شبيه بما حدث لمصر، ويعتبرون ما حدث في سبتة مقدمة له»(١٣). إذا كان حدثٌ من هذا النوع سوف لن يثير إلا مزيدا من التهديد الأمني بالنسبة للمغرب، فإن إنجلترا التي كانت تبرم معه ساعتها معاهدة جديدة، سوف لن تتردد في تقديم التحالف الإسباني الفرنسي وما كانت تتعرض له البرتغال من تهديد فرنسي في أخطر صورة ممكنة، مدّعية أنه حالما ينتهي الجيشان الإسباني والفرنسي من احتلال البرتغال، سيتجهان لغزو المغرب(١٤).

وهكذا، يمكن القول إنه إذا كان جيش الشرق قد نزل بمصر والشام، فإن خطره أصبح ماثلا بقوة أمام المغرب بسبب تحالف إسبانيا مع فرنسا؛ الشيء الذي جعله يعيش، طيلة السنوات الثلاث التي استغرقتها الحملة، تحت طائلة التهديد المستمر، مترقبا بين الحين والآخر تكرار ما حدث بهذين البلدين على أراضيه. ومعنى هذا، أن صورة إسبانيا ظلت مرتبطة في ذهن المغاربة عامة بما فعلته حليفتها فرنسا في مصر والشام وبما كان ينتظر أن يفعلاه معا في المغرب.

يستنتج من كل هذا، أن حدثَ الحملة لعب دورا توجيهيا لعلاقات المغرب بإسبانيا حين سمح له بالكشف مبكرا عن وجه الخطورة الذي يمكن أن تمثله هذه القوة الإيبيرية خلال أزمة من هذا النوع.

يتضح لنا، من خلال مباحث هذا الفصل، أنه خلافا لما كانت تنتظره الدولة العثمانية وحليفتها إنجلترا، وعكس ما كانت تتوقعه وتخشاه فرنسا وحليفتها إسبانيا، لم يتخذ المغرب أي إجراء حربي ضد فرنسا باعتبارها دولة معتدية. على النقيض من ذلك تماما حافظت قيادته السياسية على العلاقات السلمية التي كانت تربطها منذ عهود بهذه الدولة، وقدمت ما يكفي من التنازلات لتفادي الاصطدام بحليفتها إسبانيا. ورغم السلوكات المعادية التي صدرت عن بعض الأطر المخزنية

---

(١٣) المصدر نفسه.

(١٤) انظر رسالة قنصل إنكلترا، جيمس ماطرا، إلى الوزير المغربي محمد بن عبد السلام السلاوي في ١٥ آب/ أغسطس ١٨٠١، و El Mansour, Ibid., tome 1, p. 233.

تجاه فرنسا، بقي الخط المميز لعلاقات المغرب بالدولة التي أوفدت الحملة إلى مصر والشام، هو المسالمة والتعاون في حل القضايا العالقة بين البلدين.

وإذا كان المغرب قد اضطرته ظروفه الخاصة إلى الأخذ بهذا الخيار السلمي، رغم رفضه المبدئي لواقع الاحتلال لمصر والشام، فإن فرنسا بذلت مجهودات جبارة وصلت بها إلى حد التضحية ببعض المبادئ المشكّلة لهويتها الثورية لمجرد إبقاء هذا البلد الإسلامي بعيدا عن جبهة التحالف الدولية التي تشكلت ضدها.

خلاصة القسم الأول

لأسباب منهجية سنسوق هذه الخلاصة على شكل تعقيب نتوخى من خلاله تعيين الأسباب الحقيقية التي أطرت موقف مولاي سليمان، باعتباره رأس السلطة السياسية، من الحملة الفرنسية على مصر والشام.

تبين لنا من خلال فصول ومباحث هذا القسم أن مولاي سليمان والأطر المخزنية التي كانت تعمل إلى جانبه لم يتخذ أي إجراء حربي ضد فرنسا كما طلبت منه ذلك الدولة العثمانية وحليفتها إنجلترا، بل عمل كل ما في وسعه من أجل الحفاظ على علاقات بلده السلمية بهذه القوة الأوروبية. فقدم خدماته لرعاياها بالمغرب، ولم يمنعه وجود جيش الشرق بمصر من إرسال الموكب الحجي السنوي عبر طريقه البري المعتاد، كما كثف اتصالاته ومراسلاته مع حكومة الإدارة، وتلقت بعض أطره منها الهدايا، واعتبر فرنسا دولة «صديقة».

ـ فهل معنى هذا أن مولاي سليمان لم يستجب لنداءات الجهاد التي كانت تفد عليه من سليم الثالث، ولم يشاركه رغبته في تحرير مصر والشام من الاحتلال الفرنسي؟

الواقع، أن جزءا من الجواب عن هذا السؤال، تضمنته ردود مولاي سليمان على دعوات السلطان العثماني، ولخصته رسالته الواردة على دار الخلافة في ١٤ جمادى الأولى سنة ١٢١٦هـ[1] حينما أكد فيها أنه «بمجرد إخباره [بنقض الكفرة الطغاة لعهدهم واستيلائهم على مصر]، اعتزم

---

(١) عبد الرحيم بن حادة، «وثائق مغربية حول علاقة مولاي سليمان بالدولة العثمانية،» مجلة **هيسبيريس تمودا**، السنة ٢، العدد ٣٥ (١٩٩٧)، ص ٢٠.

إرسال العساكر كما تقتضي ذلك الغيرة الإسلامية»، بيد أن «بعد المسافة وكثرة المشاغل منعته من ذلك». كما أنه اعتبر «إكرام الإنجليز واجبا». أما الحملة العسكرية التي طلب منه تجهيزها «على الطغاة»، فلم يعد لها «فائدة» بسبب إظهار «الكفرة المحاربين (. . .) الندم»، ورجوعهم إلى «المهادنة». كما أن اتباع «أهالي نواحي طرابلس وتونس والجزائر (. . .) أصحاب العقول الضعيفة والأوهام، منعه (. . .) عن مكاتبتهم» في شأن تنظيم هذه الحملة العسكرية.

لكن، في الوقت الذي كان يتعلل فيه مولاي سليمان بهذه الأسباب تجاه نداءات ومطالب السلطان العثماني، كانت رسائله إلى حكومة الإدارة تعزو أسباب تخلفه عن إعلان الحرب ضد بلدها إلى كونها «لم ترتكب بحقه أية مظلمة. لذلك، فهو لا يقدر، كما أنه لا يرغب في أن يعلن الحرب ضدهم مهما تكررت المحاولات العثمانية؛ «لأنه ليس من طبعه أن ينجرّ وراء اقتراحات لا تمليها قضية عادلة، وإنما المصلحة الخاصة، أو أن يتراجع عن قرار اتخذه بعد تفكير وبتعقل وإنصاف». لذلك، فهو يؤكد لهذه الحكومة بأنه «على العهد والصحبة الموروثة عن الأسلاف، محافظين عليها إن شاء الله»[٢].

ـ فأين تكمن الأسباب الحقيقية لهذا الموقف المسالم الذي اعتمده المغرب تجاه فرنسا خلال حملتها على مصر والشام؟ هل في ما أدلى به مولاي سليمان لمبعوثيْ الباب العالي ولخصته رسالته الأخيرة إلى دار الخلافة، أم في ما اشتملت عليه رسائله إلى حكومة الإدارة؟

الواقع، أن كل ما صدر عن مولاي سليمان ورده وزراؤه ومعاونوه في ما يخص الأسباب التي جعلته يقف موقفه ذاك تجاه فرنسا، يعتبر في تقديرنا صحيحا. غير أنه لا يمثل سوى نصف الحقيقة. لأنه، لم يتضمن الأسباب القوية التي اضطرت مولاي سليمان فعلا إلى عدم التورط أو المغامرة في أزمة دولية كانت جذورها تضرب في عمق «المسألة الشرقية» وتقلبات الصراع الإنجليزي الفرنسي.

---

(٢) وردت هذه الردود في عدد من رسائل مولاي سليمان إلى حكومة الإدارة. انظر المبحث الأول من الفصل الثاني من هذا الكتاب.

فمما لا شك فيه، أن «بعد المسافة وكثرة المشاغل» وقبول الجنرال كليبر بمبدأ الجلاء عن مصر منذ تاريخ مبكر من عمر الحملة وتوصله إلى اتفاق بشأن ذلك في ٢٤ كانون الثاني/يناير من سنة ١٨٠٠ ثم عودة الإيالات المغاربية الثلاث إلى ربط علاقاتها السلمية مع فرنسا وتوقف حالة الحرب مؤقتا في ما بينهم، كل ذلك حال دون «تنظيم حملة عسكرية على الطغاة». كما أن استجابة حكومة الإدارة لمطالب عدد من التجار المغاربة، وحرص إدارة جيش الشرق على تقديم ما يلزم من حماية ومساعدة لركاب الحج المغربية التي كانت تمر بمصر خلال السنوات الثلاث التي استغرقتها الحملة، أقنع أيضا مولاي سليمان بأن فرنسا «لم ترتكب بحقه أية مظلمة»[٣].

أما إذا نحن تذكرنا المساعدات العسكرية السخية التي قدمها سيدي محمد بن عبد الله إلى الدولة العثمانية لدعمها في حربها ضد روسيا وعلمنا سرعة استجابة مولاي سليمان سنة ١٢٢٢هـ (١٨٠٧ ـ ١٨٠٨م) لطلب السلطان العثماني «بأن يقيم قراصينه بباب البوغاز من مرسى طنجة» للحيلولة دون «دخول قراصين موسكو» من هذه الجهة، «فتعيث في الجزر التي هي في ملك العثماني»[٤]، ووقوفه إلى جانب باشا طرابلس في حربه ضد أمريكا بين ١٨٠١ و١٨٠٥[٥]، علمنا أن هذه الأسباب التي تعلل بها مولاي سليمان أمام موفدي الباب العالي، أو برر بها موقفه لدى حكومة الإدارة، غير مقنعة ولا تكفي وحدها لفهم موقف الحياد الذي التزم به المغرب في هذه المناسبة.

---

(٣) لا يعني هذا أننا نسلم بما ذهب إليه كل من ريموند توماسي وجاك كايي حينما اختزلا أسباب استمرار المغرب في علاقاته السلمية مع فرنسا وعدم استجابته لنداءات الباب العالي، إلى الخطة السياسية والإعلامية التي اعتمدتها تجاهه حكومة الإدارة وشاركها إياها جيشها بمصر. للتعرف على وجهة نظر هذين المؤرخين بخصوص هذه النقطة، انظر: Jacques Caillé, *Le Consulat de Tanger des origines à 1830* (Paris: A. Pedone, 1967), pp. 44-46, et Raymond Thomassy, *Le Maroc et ses caravanes, ou Relations de la France avec cet empire* (Paris: Firmin-Didot frères, 1845), pp. 348-349.

(٤) عبد الرحمن بن محمد بن زيدان، **العلائق السياسية للدولة العلوية**، تقديم وتحقيق عبد اللطيف الشاذلي (الرباط: المطبعة الملكية، ١٩٩٩)، ص ٨٦ ـ ٨٧.

(٥) انظر: محمد بنهاشم، «السياسة الخارجية المغربية في عهد السلطان مولاي سليمان (١٧٩٢ ـ ١٨٢٢)،» (دبلوم الدراسات العليا، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب، شعبة التاريخ، فاس، ١٩٨٦ ـ ١٩٨٧)، ص ٨٦ ـ ٨٨.

لذلك، نعتقد أن السبب الرئيس الذي جعل مولاي سليمان يسلك هذا المسلك الذي يبدو في ظاهره مناقضا لما درج عليه والده، ولما قام به هو نفسه في حالات مماثلة، إنما يكمن، كما يقال في علم العلاقات الدولية، في محددات التفاعل[٦] لسياسة المغرب الخارجية. فإذا كانت المحددات الدينية تقتضي، بداهة، إعلانه الحرب ضد فرنسا ووقوفه بجانب الدولة العثمانية، فإن المحددات الجغرافية والديمغرافية والاقتصادية لم تكن لتتيح له هذه الإمكانية. فكما قال نابليون وأيّده في ذلك أتباع المدرسة الواقعية في العلاقات الدولية، وعلى رأسهم مؤسسها راتزل (Ratzel): «توجد سياسة الدول في جغرافيتها»[٧].

من هذا المنطلق، نقول إن وجود المغرب على تماس مباشر مع إسبانيا، الحليف الأكبر لفرنسا آنذاك، وإشرافه المباشر على البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي حيث كانت تتحرك أساطيل هاتين القوتين المتحالفتين، لم يكن من شأنه سوى إذكاء مزيد من الخوف والإحراج لدى قيادته وساكنته من أن يتكرر على ربوعه ما حدث من هجوم واحتلال لمصر، خاصة من جهة سبتة التي أضحت تشكل مصدر خطر محقق في تلك اللحظات الحرجة.

وهكذا، لم يكن من الحكمة السياسية في حالة كهاته أن يستعدي المغرب فرنسا عن طريق تنظيم حملة عسكرية ضد جيشها بمصر، أو أن يهاجم سفنها بعرض المياه المتوسطية أو الأطلسية. بل، كان عليه أن يجتهد في تقديم أكبر قدر من الضمانات إلى هذه القوة الاستعمارية حتى لا تتكرر نفس التجربة على أراضيه. وهذا بالضبط ما فعله مولاي سليمان وأعوانه في علاقتهم بفرنسا، حكومة وجيشا ورعايا.

---

(٦) للإلمام بالعوامل المؤثرة في سياسة الدول على المستوى الخارجي، انظر: بيير رينوفان وجان باتيست دوروزيل، **مدخل إلى تاريخ العلاقات الدولية**، ترجمة فايز كم نقش؛ قدّم له نور الدين حاطوم، ط ٢ (بيروت؛ باريس: منشورات بحر المتوسط؛ منشورات عويدات، ١٩٨٢).

(٧) ذم المفكر الألماني راتزل العلاقة بين المعطيات الجغرافية والسياسات الخارجية بين الدول في صورة سببية حتمية حينما رد كل شيء في سلوك الجماعات إلى الأرض؛ أي المجال الذي تتساكن فيه. ففسر هذه العلاقة على أساس الحتمية الجغرافية. انظر: محمد طه بدوي، **مدخل إلى علم العلاقات الدولية** (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨٦)، ص ٩٧ ـ ٢٩٧.

وإذا نحن أضفنا إلى الإكراهات التي فرضها الموقع الجغرافي للمغرب هشاشة الوضع الأمني وضعف المؤهلات الديمغرافية والاقتصادية باعتبارها محددات رئيسة في صياغة علاقات المغرب الخارجية، اقتنعنا بعدم جاهزية هذا البلد لإعلان الحرب صراحة ضد فرنسا وتحمل تبعات وأعباء أي عمل عسكري ضد جيش الشرق الذي كسر شوكة المماليك في أكثر من موقعة، وألحق هزيمتين بالجيش العثماني.

فمن جهة أولى، كان المغرب يعاني من اضطراب أمني من جراء الصراع المحتدم الذي كان لا يزال قائما بين مولاي سليمان وعدد من أخوته وبعض الزعامات القبلية. وأخص من ذلك بالذكر التهديد الذي عاد يمارسه مولاي سلامة بعدما اتصل بنابليون في مصر وربط معه علاقات مميزة[٨]، وراجت في إحدى لحظات الحملة إشاعات قوية تتحدث عن وجوده على مشارف الحدود الشرقية للمغرب وعزمه الدخول إليه[٩]. يضاف إلى هذا ما حام من شبهات حول نوايا أخيه مولاي الطيب الذي تم عزله عن «التباعة» ووضع تحت الإقامة الإجبارية في فاس[١٠]، وكذا الحملات العسكرية التي ظل يقوم بها مولاي سليمان ضد عدد من القبائل المتمردة في جهات متفرقة من البلاد، سيما جهة الأطلس المتوسط التي شهدت في ٢٥ محرم ١٢١٥هـ (١٦ أيار/ مايو ١٨٠٠م) «وقعة هائلة لم ير مثلها في الدهر» بين البرابر وجيش السلطان، وكانت الدائرة فيها على هذا الأخير[١١].

وإذا كان وباء الطاعون قد وضع حدا طبيعيا لعدد من العناصر المناوئة لمولاي سليمان ومنحه فرصة غير منتظرة لبسط سلطانه على ربوع المغرب، فإنه عصف بأكثر من نصف ساكنة البلاد، وذهب بخيرة أطرها السياسية والعلمية، وأثّر بعمق على قدرات المغرب العسكرية

(٨) المصدر نفسه، ص ٩٧ ـ ٢٩٧.

(٩) محمد الضعيف، **تاريخ الضعيف: تاريخ الدولة السعيدة**، تحقيق وتعليق وتقديم أحمد العماري (الرباط: دار المأثورات، ١٩٨٦)، ص ٣١٨ ـ ٣١٩.

(١٠) المصدر نفسه، ص ٣١٠.

(١١) المصدر نفسه، ص ٣١٩.

وإمكاناته الاقتصادية[١٢]. ومما عمق أكثر من خطورة هذه التطورات، تزامنها مع الجفاف الذي حل بالمغرب سنة ١٧٩٩ وامتدت آثاره إلى السنة الموالية.

أما إذا أضفنا إلى هذا وذاك المحددات المعنوية حيث تلعب شخصية رجال الدولة والقادة السياسيين دورا هاما في صناعة القرار السياسي على الصعيد الخارجي[١٣]، تبين لنا أن وجود مولاي سليمان ووزيره ابن عثمان على رأس الهرمية السياسية، لم يكن ليسمح للمغرب بالتورط في أزمة من هذا القبيل. فإذا كان مولاي سليمان «ملك لا همة له بالملك والدسائس»[١٤]، فإن وزيره ابن عثمان الذي يعتبر بحق مهندس علاقات المغرب الخارجية خلال هذه المدة كان من دعاة التزام المغرب جانب الحياد بخصوص الصراع الدائر آنذاك بين فرنسا وإنجلترا[١٥]، ناهيك عن علاقاته الشخصية وارتباطاته التقليدية بكل من فرنسا وإسبانيا.

لهذه الاعتبارات مجتمعة نعتقد أن المغرب كان موضوعيا عاجزا عن الاستجابة لنداءات الجهاد التي كانت ترد عليه من السلطان العثماني سليم الثالث. لأنه، اكتشف، من خلال عدد من المتغيرات السياسية والعسكرية التي طرأت على الساحتين الأوروبية والإسلامية، أن زمن الاستجابات

---

(١٢) لتقدير الخسائر التي مُني بها المغرب من جراء هاتين الكارثتين، انظر: محمد الأمين البزاز، **تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، رسائل وأطروحات؛ ١٨ (الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٩٩٢)، ص ٨٥ ـ ٩٩.

(١٣) خص جان باتيست دوروزيل القسم الثاني من الدراسة التي أنجزها باشتراك مع أستاذه رينوفان في موضوع العلاقات الدولية، لإبراز خطورة الدور الذي يقوم به رجل الدولة في إطار توجيه سياسة بلاده الخارجية مع غيرها من الدول. انظر: رينوفان ودوروزيل، **مدخل إلى تاريخ العلاقات الدولية**، ص ٣٨١ ـ ٦٠٨.

(١٤) تحت هذا العنوان، عالج محمد المنصور علاقة مولاي سليمان بأمور السياسة والحكم على الصعيدين الداخلي والخارجي. انظر: محمد المنصور، «مولاي سليمان: ملك لا همة له بالملك والدسائس،» في: مجموعة من الباحثين، **مذكرات من التراث المغربي**، إشراف العربي الصقلي، ٨ مج (الرباط: نور أركنزاسيون، ١٩٨٤ ـ ١٩٨٦)، ص ١٨٠ ـ ١٨١.

(١٥) انظر بهذا الخصوص: زكي مبارك، «مولاي سليمان والثورة الفرنسية ونابليون بونابرت ١٧٩٢ ـ ١٨١٥،» ورقة قدمت إلى: **الوثائق المرجعية لعهد السلطان مولاي سليمان، العمل الداخلي والسياسة الخارجية للسطان مولاي سليمان، الإنجازات الثقافية والعمرانية على عهد السلطان مولاي سليمان: أعمال الدورة الرابعة التي عقدت أيام ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١ دجنبر ١٩٩٢** (الرباط: مطبعة الأمنية، ١٩٩٤)، ص ٩٥.

العفوية أو الفورية لنداءات مثل هذه، قد ولى منذ أن استولى جيش الشرق على «أعظم بلدة»، و«ضاق من أجناد العدو البر والبحر»، واضطربت أوضاعه السياسية والأمنية، وحاق به وباء الطاعون وآفة الجفاف، وأصبح يعيش هو بدوره تحت طائلة الغزو والاحتلال.

لكن، إذا كانت القيادة السياسية المغربية، وعلى رأسها مولاي سليمان، قد دهتها هذه الأسباب وحالت دون التعبير، بشكل صريح، عن واجب التضامن والتآزر مع «دولة الإسلام الكبرى» في حربها ضد فرنسا، فقد تفاعل المغاربة بقوة مع ما حل بهذا القطر الإسلامي الشقيق من عدوان واحتلال، وعبروا عن ذلك بأشكال مختلفة؛ تراوحت بين التحريض على الجهاد والمشاركة فيه، وقيادته في بعض الأحيان. ذلك ما سنراه من خلال فصول ومباحث القسم التالي.



القسم الثاني

موقف مكونات النخبة العالمة
وباقي فئات المجتمع المغربي من الحملة
أشكال التفاعل ومستويات القراءة

مقدمة

سيتركز اهتمامنا في هذا القسم على التعريف بالمواقف التي اتخذتها مختلف مكونات المجتمع المغربي من الحملة العسكرية التي طالت مصر وجزءا من الشام. وهكذا، سنعتني، في الفصلين الخامس والسادس، بإبراز مواقف الفئة الفاعلة التي كانت بحكم تكوينها العلمي ومواقعها الاجتماعية تؤلف ما يعرف في الخطاب السياسي المعاصر بـ «النخبة». أما الفصل السابع فسنحاول فيه الكشف عن مختلف ردود الفعل التي يمكن أن تكون قد صدرت عن مطلق فئات المجتمع المغربي تجاه هذا العدوان.

فإلى جانب القيادة السياسية التي كانت تتولى رسميا اتخاذ القرار السياسي وتقع على عاتقها مسؤولية تطبيقه على الصعيدين الداخلي والخارجي، كانت الساحة السياسية المغربية لا تخلو من فاعلين اجتماعيين يتدخلون بطرقهم الخاصة وبفضل المواقع التي كانوا يحتلونها، في بلورة موقف المغاربة بخصوص القضايا الكبرى التي كانت تطرأ بين الحين والآخر على الأمة الإسلامية، مثل الحملة الفرنسية على مصر. هؤلاء الفاعلون الاجتماعيون هم من يصطلح عليهم في الخطاب السياسي المعاصر بـ «النخبة» بمفهومها الواسع الذي يصدق، كما يقول عالم الاجتماع الإيطالي فيلفريدو باريطو (Vilfredo Pareto): «على مجموع النخبة الاجتماعية التي تتكون من عدد قليل من الأفراد الذين استطاعوا، بفضل كفاءاتهم وخصالهم الذاتية، احتلال أرفع الدرجات في التراتبية المهنية»[(١)]. فمما لا شك فيه أن

---

(١) يميز فيلفريدو باريطو، بين هذا المفهوم الواسع للنخبة وبين مفهومها الضيق الذي يصدق في نظره، على فئة صغيرة من النخبة الاجتماعية، تتميز بكونها تمارس بطريق أو بآخر، دوراً هاماً في الحكومة، ويسميها بـ «النخبة الحاكمة». للإلمام أكثر بهذا المفهوم في جانبه النظري وفي علاقته بتاريخ المغرب، انظر: عبد السلام حيمر، **النخبة المغربية وإشكالية التحديث** (الدار البيضاء: دار الملتقى، ٢٠٠١).

مغرب نهاية القرن الثامن عشر كان يعرف وجود نخبة اجتماعية من هذا النوع، تملك قدرة عالية على التأثير في صناعة القرار السياسي وتوجيه الرأي العام المغربي بخصوص القضايا التي تطرح عليه، بل وتتدخل حتى في تثبيت السلاطين في الحكم أو إزاحتهم عنه إذا اقتضت الضرورة ذلك. فبفضل هذه النخبة التي كان يتزعمها العلماء، أقرت بيعة مولاي سليمان سنة ١٧٩٢ ضد باقي إخوته. وبسببها أيضا، أزيح هذا السلطان عن كرسي العرش سنة ١٨٢٢.

لذلك، يجدر بنا أن نتوقف، بنفس القدر من الاهتمام، بعد مراقبة الكيفية التي تعاطت بها «النخبة الحاكمة» مع حدث الحملة، عند «النخبة العالمة» بمختلف تفرعاتها، بغية الكشف عن الكيفية التي تفاعلت بها مع هذا الحدث العدواني بحكم المسؤولية الشرعية والأدبية التي كانت تتحملها تجاه الدولة والمجتمع.

ـ فكيف إذن تصرف أعضاء هذه النخبة تجاه الغزو الفرنسي لمصر والشام؟ هل واجهوه بالاستنكار والتنديد والدعوة إلى رفع راية الجهاد كما يقتضي الأمر ذلك، أم أن ارتباطاتهم المصلحية لم تسمح لهم بالابتعاد كثيرا عن الخطة التي اعتمدها مولاي سليمان وحاشيته بمناسبة هذه الأزمة؟ وهل رأت هذه النخبة في هذا العدوان مجرد حلقة أخرى من حلقات الصراع التقليدي الذي ميز في غالب الأحوال علاقة «دار الإسلام» بـ «دار الكفر»، وامتدادا طبيعيا للحروب الصليبية وحركة الاسترداد المسيحية القريبة العهد، أم أن خصوصية هذه الحملة نبهتها إلى طرح أسئلة جديدة واعتماد مواقف مغايرة؟

قبل الخوض في تفاصيل الإجابة عن هذه الأسئلة يجدر بنا التذكير أن هذه النخبة كانت تتشكل من فئات مختلفة من حيث الأنشطة والمهن التي كانت تشتغل بها ودرجة قربها أو بعدها من القيادة السياسية ومطلق الفئات الشعبية من جهة، ومستوى وعيها وإدراكها لحقيقة ما كان يجري داخل المغرب وخارجه، من جهة أخرى. ومما لا شك فيه أن هذه الفروقات النوعية بين مختلف مكونات النخبة المغربية ستؤثر بقوة على كيفية تعامل وتعاطي كل واحدة منها مع حدث الحملة. لذلك، وجب علينا إفراد كل مكون منها بمعالجة خاصة. وبما أن العلماء والفقهاء

تصدروا دائما هذه النخبة وهيمنوا عليها تأطيرا وتوجيها، سنخصهم بالمقام الأول في هذه المعالجة. على أن نتبعهم بالأئمة والخطباء وشيوخ الزوايا وأهل التصوف والزجالين والشعراء والمؤرخين وكتاب الحوليات. ثم نختم هذه السلسلة، بالأسرى والحجاج والتجار.

ولاعتبارات منهجية، سنناقش مواقف مختلف هذه المكونات النخبوية عبر فصلين مستقلين. سنخصص الأول منهما للشخصيات التي عبّرت عن مواقفها تجاه هذا الحدث انطلاقا من وجودها بالمغرب. أما الثاني فسنفرده للتعريف بمواقف من كان منهم رهن الأسر بمالطا، أو سافروا إلى مصر أو فرنسا خلال سنوات الحملة، فاختلط، بسبب ذلك، بجيش الشرق وإدارته العليا، أو قضى شهورا وسنوات بين ظهراني الدولة التي أوفدته إلى هناك.



الفصل الخامس

موقف النخبة العالمة من الحملة من داخل المغرب

مقدمة

عديدة هي الشخصيات الدينية والفكرية التي لم تتهيأ لها فرصة الاطلاع المباشر على واقع وأحوال مصر والشام أيام الاحتلال الفرنسي لهما، لكن ذلك لم يمنعها من التقاط وتصيّد أخبار ما كان يجري هناك من معارك وثورات، وسيلتهم في ذلك مجمل القنوات الإخبارية المتاحة آنذاك؛ خاصة منها الحجاج ومن كان من يتصل بهم من التجار ممن كان يتردد على بلاد المشرق، أو قناصل الدول الأوروبية، وعلى رأسهم فرنسا وإنجلترا، أو مبعوثي الدولة العثمانية وإيالة الجزائر. في حدود هذه الدائرة الإخبارية الضيقة والمتحيزة في غالب الأحيان عبّرت عدد من مكونات النخبة المغربية عن تفاعلها مع ما حل بهذين القطرين الإسلاميين من غزو واحتلال.

ـ فما هي المواقف التي اتخذتها هذه الشخصيات الدينية والفكرية التي كان يفصلها عن مسرح الأحداث مئات الكيلومترات من هذا العدوان الذي استهدف مصر والشام؟

للإجابة عن هذا السؤال وما يتفرع عنه من قضايا، سنقوم خلال المباحث التالية بعرض ومناقشة مختلف ردود الفعل التي صدرت بهذه المناسبة عن مكونات النخبة المغربية بأصنافها المختلفة؛ بدءا بالعلماء والفقهاء والأئمة والخطباء، ومرورا بشيوخ الزوايا ورجالات التصوف، وانتهاء بالشعراء والزجالين والمؤرخين وكتاب الحوليات.

أولاً: العلماء والفقهاء

لا أحد يجادل في المكانة الخاصة التي ظل يحتلها إلى عهد قريب العلماء والفقهاء[1] في تاريخ المغرب، بفضل الوظيفة التأطيرية والتوجيهية التي كانوا يقومون بها على صعيد الدولة والمجتمع؛ الشيء الذي جعل منهم سلطة عليا تفرض احترامها على كافة طبقات المجتمع بما في ذلك السلاطين والأمراء. ففي رسالة لمولاي إسماعيل إلى علماء فاس سنة ١١٢٥هـ/ ١٧١٣ ـ ١٧١٤م، نجده، وهو يحث العلماء على نشر العلوم الدينية، يؤكد على الموقع الخاص الذي يحتلونه على مستوى الهرمية السياسية والخريطة الاجتماعية، فيقول: «(. . .) فإني أعلم أن الملوك حكام على الدنيا، والعلماء حكام على الملوك، وأعلم أن العالم في الأرض كالنجم في السماء، وأعلم أن بالعلم ساد من ساد، وانتظمت مصالح الدين والدنيا والمعاد (. . .)»[2]. وبعد حوالى قرن ونصف من هذا التاريخ، صدر نفس التأكيد من السلطان مولاي الحسن الأول، حين قال في رسالته إلى «أجناس النصارى» سنة ١٢٩٧هـ/ ١٨٩٧ ـ ١٨٨٠م في «مسألة حرية الأديان»: «(. . .) قد تقرر أن من قواعد دين الإسلام وأركانه الشهيرة عند الخاص والعام، أن العلماء حكام على الملوك، والأمراء حكام على الناس. فتصرفات الملوك، تعرض على الشرع. فما وافقه منها يقبل ويعتمد، وما لا فلا (. . .)»[3].

يستنتج من هاتين الرسالتين السلطانيتين أن العلماء كانوا بحكم

---

(١) العالِم هو من تجاوز تخصصه نوعاً واحداً من أنواع العلوم الشرعية، وتملّك القدرة على الاجتهاد. أما الفقيه، فهو المتخصص في مادة الفقه الإسلامي على المذاهب الفقهية كلها، أو على مستوى مذهب فقهي واحد. انظر بهذا الخصوص: أحمد العماري، **نظرية الاستعداد في المواجهة الحضارية للاستعمار: المغرب نموذجاً**، سلسلة الرسائل الجامعية، قضايا الفكر الإسلامي؛ ٢٠ (فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٧)، ص ١٩٠ ـ ١٩٨.

(٢) عبد الرحمن بن محمد بن زيدان، **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس أو عبير الآس من روض تاريخ مكناس أو حسن الإقتباس من مفاخر الدولة العلوية وتاريخ مكناس**، ٥ مج (الرباط: المطبعة الوطنية، ١٩٢٩ ـ ١٩٣٣)، مج ٣، ص ٢٣٩ ـ ٢٤١.

(٣) للاطلاع على النص الكامل لهذه الرسالة والإلمام بالظروف والملابسات التي كتبت فيها، انظر: محمد المنوني، **مظاهر يقظة المغرب الحديث**، ط ٢ (الدار البيضاء: شركة النشر والتوزيع المدارس، ١٩٨٥)، ص ٤٠٥ ـ ٤١٤.

معرفتهم بأصول الشرع وفروعه ومقاصده، بمثابة سلطة تشريعية ليس فقط بالنسبة لعامة الناس بل بالنسبة للسلطان نفسه. وهذا معناه أن العلماء ومن يتصل بهم من فقهاء في مختلف الفروع والمناصب، مثلوا «المرجع الأول في سن قواعد السلوك وأساليب العمل في شؤون الدين والدنيا، يرجع إليهم الأمير كما يرجع إليهم المأمور للاستشارة في ذلك»[٤]. ومما لا شك فيه أن هذه المكانة المتميزة ستجعل أعضاء هذه الشريحة الاجتماعية يتبوأون مكان الصدارة ليس فقط على مستوى التراتبية السياسية والاجتماعية للدولة ككل، ولكن أيضا داخل النخبة العالمة المغربية نفسها. ومما لا شك فيه أيضا أن مغرب نهاية القرن الثامن عشر كان يوجد به عدد وفير من العلماء والفقهاء الذين حازوا الشهرة الواسعة سواء داخل المغرب أو المشرق، وشكلوا قوة سياسية وازنة، وتهيأ لهم نفوذ أدبي قوي أثّروا من خلاله بشكل مباشر في مجريات الحياة السياسية والاجتماعية.

لهذا، وجب علينا، ونحن نحاول التعرف على الكيفية التي تفاعلت بها النخبة العالمة المغربية مع حدث الحملة أن نخصص الحيز الأول من هذه المعالجة لفئة العلماء والفقهاء باعتبارهم السلطة التشريعية الأولى في المجتمع والمرجع الأعلى الذي يستشيره الأمير والمأمور في قضية كبرى مثل هاته.

قبل الخوض في تفاصيل هذه النقطة نلفت الانتباه إلى أن «الطاعون الكبير»[٥] الذي نزل بكلكله على ساكنة المغرب خلال سنتي ١٧٩٩ و١٨٠٠م، حصد عددا كبيرا من هؤلاء العلماء والفقهاء وطلبتهم، وضيّق كثيرا من دائرة تحركهم وقوة حضورهم على الساحة السياسية. ويكفي الرجوع إلى كتب التراجم والوفيات والمصادر التاريخية للوقوف على عمق الخسارة التي مني بها المغرب، بسبب هذا الوباء، في أطره العلمية والفقهية.

---

(٤) عبد السلام حيمر، **النخبة المغربية وإشكالية التحديث** (الدار البيضاء: دار الملتقى، ٢٠٠١)، ص ١٢٩ ـ ١٣٠.

(٥) لتقدير الخطورة التي مثلها هذا الوباء بالنسبة إلى ساكنة المغرب، انظر: محمد الأمين البزاز، **تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، رسائل وأطروحات؛ ١٨ (الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٩٩٢)، الفصل الثالث، ص ٨٥ ـ ٩٩.

تخبرنا عدد من المصادر المعاصرة أن الطلبة غادروا عددا من المدارس ورجعوا إلى مدنهم وقراهم، ولزم العلماء والفقهاء بيوتهم خوفا من أن تصيبهم عدوى هذا الوباء، وأن عددا كبيرا منهم قد طعن ومات بسبب ذلك. فقد كتب الضعيف الرباطي يقول، بعد أن غادر فاس في شهر ذي القعدة من سنة ١٢١٣هـ ـ نيسان/أبريل ـ أيار/مايو ١٧٩٩م: «وكثر الوباء في فاس البالي وفي تلك النواحي حتى مات من الخلق ما لا يحصى عددهم إلا الله تعالى. ثم أني أردت الخروج من فاس لما خرج جميع الطلبة المسافرين من أهل سجلماسة ومن دكالة والشاوية وطلبة اجبالة وخليت المدارس ومات الجل من فقهاء مكناس وغيرهم»[٦]. ويخبرنا عبد السلام الفشتالي، في تقييد له حول وباء سنة ١٢١٣هـ/ ١٧٩٩ ـ ١٨٠٠م، أنه «(...) مات خلق كثير من طلبة فاس وعلمائها وأشرافها ووجوهها وأعيانها (...)»[٧]. أما الشيخ ابن عجيبة الذي كان يقيم ساعتها بمدينة تطوان فقد لفت انتباهه إحجام الناس جميعا بمن فيهم العلماء والفقهاء، عن مخالطة الناس مخافة أن تصيبهم عدوى هذا الوباء. فألف بهذه المناسبة كتابا أسماه «سلك الدرر في ذكر القضاء والقدر»، قال فيه، داحضا الرأي القائل بالعدوى: وقد رأيت كثيرا من أصحابنا، أتباع الطريقة الدرقاوية، «تقدموا لغسل الموتى ومباشرة المرضى في مدينة تطوان وطنجة وسلا والرباط ومداشر القبائل، بل لم يتقدم لذلك غيرهم. فغسلوا وكفنوا وباشروا المرضى. فلم يصبهم شيء، بل بعضهم باق في قيد الحياة (...) فبطل القول بالعدوى والانتقال»[٨]. أما الذين ليسوا من أصحابه وكانوا يخشون إصابتهم بالعدوى، فقال فيهم، ساخرا من تصرفاتهم تجاه هذا الوباء: «وأما التحصن منه بحرص [كذا] الأبواب وغلقها، فلا فائدة فيه»[٩].

---

(٦) محمد الضعيف، **تاريخ الضعيف: تاريخ الدولة السعيدة**، تحقيق وتعليق وتقديم أحمد العماري (الرباط: دار المأثورات، ١٩٨٦)، ص ٣١٤ ـ ٣١٥.

(٧) عبد السلام الفشتالي، «تقييد في وباء الطاعون،» (مخ. خ. ع.، د ٢٨٣)، ضمن مجموع، ورقة رقم، ١٢٥/ب.

(٨) أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة، «سلك الدرر في ذكر القضاء والقدر،» (مخ. خ. ع.، د ٢٥٨٩)، ضمن مجموع، ص ١٣.

(٩) المصدر نفسه.

ما قاله ابن عجيبة، بهذه المناسبة، يعطينا صورة تقريبية عن حالة الهلع والخوف التي تفشت آنذاك بين المغاربة. ويبدو أن كلامه كان موجها إلى أفراد النخبة العالمة من العلماء والفقهاء ممن لم يكونوا من أصحابه واضطروا، بسبب خوفهم من عدوى الطاعون، إلى تجنب مخالطة الناس. وغني عن القول إن سلوكا مثل هذا سيؤدي، لا محالة، إلى تقليص دائرة تحرك العلماء والفقهاء والحد من قوة حضورهم في الحياة العامة خلال السنوات التي صادفت دخول الفرنسيين إلى مصر. هذا، إضافة إلى وفاة العديد منهم وتشتت طلبتهم.

فكيف سيكون موقف هؤلاء العلماء والفقهاء تجاه الحملة في ظل هذه الأجواء المضطربة؟

لا نملك معلومات كافية تتيح لنا الإلمام، بشكل معمق، بالكيفية التي تصرفت بها هذه الشريحة الاجتماعية إزاء هذا الحدث العدواني. ويمكننا تكوين فكرة تقريبية عن ذلك من خلال إشارة وحيدة أوردها الضعيف الرباطي ضمن تسجيلاته. فبعد ذكره لوصول «خبر أخذ النصارى لمصر» في منتصف شهر رجب من سنة ١٢١٣هـ ـ كانون الأول/ ديسمبر ١٧٩٨، قال: «وأما علماء أهل تطوان وعلماء طنجة والعرائش فقد كتبوا لعلماء أهل فاس على شان السلطان على أن البحر عامر بسفن النصارى، والمسلمين بلا بارود وبلا كور ولا أنفاض. وسبب هذا أن السلطان أمر أن لا يرفع أحد السلاح إلا من كان من المخزن، وأمر على البارود أن لا يشتريه أحد إلا المخزن. وكذلك دار العدة أبطلها وثقفها على المسلمين. فقالوا أيحل هذا في الدين أم لا؟ سؤال لعلماء فاس»[١٠].

واضح أن رسالة علماء هذه المدن الشمالية الثلاث لا تتحدث صراحة عن الغزو الفرنسي لمصر. كما أنها، عندما ذكرت سفن النصارى التي راعت كثرتها قلوب المسلمين لم تشر إلى أي دولة تنتمي هذه السفن. إلا أن الذي نستطيع الجزم به هو أن السبب الكامن وراء كثرة السفن المنوّه بها في هذه الرسالة إنما كان يتصل بصورة قوية ومباشرة بما كان يجري آنذاك

(١٠) الضعيف، **تاريخ الضعيف: تاريخ الدولة السعيدة**، ص ٣١٣.

من غزو واحتلال لمصر. ذلك، أنه منذ أن تحققت إنجلترا من دخول جيش الشرق إلى هذا القطر الإسلامي ذي البعد الاستراتيجي الهام، لم يتوقف أسطولها البحري عن تعقب ومطاردة السفن الحربية الفرنسية قصد إحكام حصارها البحري على السواحل المصرية وجزيرة مالطا التي كانت توجد بها حامية عسكرية فرنسية. لذلك، أضحى لأسطولها حضور مكثف في عدد من المنافذ البحرية المؤدية إلى البحر الأبيض المتوسط، وعلى رأسها مضيق جبل طارق. ومما لا شك فيه أن المدن المذكورة في هذه الرسالة، كانت، بحكم إشرافها على الضفتين المتوسطية والأطلسية، أكثر عرضة من غيرها لأي هجوم مرتقب من هذا الجانب أو ذاك. وهذا في نظرنا، هو ما يبرر ورود هذه الرسالة على فاس في هذا الظرف الذي تزامن مع عودة الطلائع الأولى للحجاج وإشاعتهم خبر دخول الفرنسيين لمصر، وتكثيف الحصار البحري الإنجليزي على جيش الشرق عبر كل المنافذ. ورغم أن ذكر الحملة لم يرد صراحة في هذه الرسالة، نعتقد أنها كانت حاضرة بقوة في الهواجس الأمنية التي أخذت تسيطر على عموم سكان الشمال في هذه الآونة. إلا أن الذي سيتصدر لمهمة التحذير من مغبة ما قد يحصل من مخاطر لسكان هذه المدن بسبب حرمانهم من حمل السلاح والتزود بالذخيرة هم، بطبيعة الحال، العلماء.

وبغض النظر عن الكيفية التي سيتعامل بها كل من علماء فاس ومولاي سليمان مع هذه الرسالة، نكتشف، بهذه المناسبة، الدور الطليعي الذي يمكن أن يقوم به العلماء في ظرف مثل هذا. كما تجدر الإشارة، في نفس الآن، إلى أن كتابة هذه الرسالة ساهم فيها علماء من ثلاث مدن متباعدة نسبيا عن بعضها البعض. وهذا يدل من جهة، على حركية هؤلاء العلماء. وينم من جهة ثانية عن إدراكهم العميق لحجم الخطر الذي كان يتهدد مدنهم وجهاتهم؛ لأن كتابة رسالة مثل هذه كان يتطلب ضرورة القيام بعدة لقاءات ومشاورات قبل التوصل إلى صياغتها النهائية ثم بعثها إلى فاس.

ويبدو من إشارات أخرى أوردها الضعيف الرباطي بنفس المناسبة أن علماء فاس لم يشاطروا أضرابهم في الشمال نفس الإحساس بخطورة الوضع الذي أصبح يمثله تكاثر سفن النصارى قبالة السواحل المغربية؛ لأنه عندما

«وصل السؤال إليهم، سكتوا وتبرءوا من الكلام مع السلطان»[١١]. إلا أن ذلك لم يحل دون وصول مطالب علماء أهل الشمال إلى مولاي سليمان بفضل المبادرة التي انفرد بها واحد من علماء أهل هذه المدينة الداخلية، وهو المدعو شادان الفاسي اللمطي. ذلك، أنه لما رأى سكوت علماء فاس وتبرئهم، «قبض الكتاب وسؤال أهل تطوان وغيره (. . .) وكتب كتابه، ودفع الجميع لمولاي عبد السلام على أن يدفع ذلك للسلطان»[١٢].

أول ملاحظة يمكن إبداؤها بخصوص رواية الضعيف الرباطي هاته، هي أن علماء فاس لم يتجاوبوا مع مطالب رفاقهم في مدن الشمال؛ حيث إنهم لم يكتفوا بالسكوت وعدم الإجابة عن السؤال المطروح عليهم، بل تبرؤوا منه ورفضوا مفاتحة السلطان في ذلك. الشيء الذي اعتبره أحد طلبتهم ـ وهو ناقل هذه الرواية ـ سكوتا عن الحق عندما قال معقبا على هذا الموقف السلبي: «سوى أهل فاس، سكتوا على [كذا] الحق»[١٣]. لا نعلم، على وجه اليقين السبب الذي جعل علماء فاس يقفون هذا الموقف. لكن يبدو أن بعدهم الجغرافي عن المدن الشمالية المذكورة منعهم من التقدير الصحيح لخطورة الوضع الأمني الذي أصبح يعانيه أهل هذه المدن. كما يرجح أنهم تجنبوا الخوض في هذا الموضوع ربما لحساسيته السياسية والأمنية؛ لأنه يتصل بمسألة حمل السلاح والتزود بالذخيرة في مدن وجهات عرفت إلى عهد قريب بمناصرتها ومبايعتها لأكبر غريم لمولاي سليمان، ألا وهو أخوه مولاي مسلمة أو سلامة الذي كان يوجد ساعتها بمصر، وراجت إشاعات قوية بخصوص عودته إلى المغرب[١٤].

---

(١١) المصدر نفسه.

(١٢) المصدر نفسه.

(١٣) المصدر نفسه.

(١٤) ظهرت دولة مولاي سلامة بوازان سنة ١٢٠٦هـ، ودامت نحو شهرين. لكن أول بيعة له، كانت بجبل العلم، وأصبح له مطلق التصرف «على قبائل جبالة والقصر وطنجة والعرائش وتطوان ووازان مع أهل الفحص وأهل الغرب». كما كانت تربطه علاقات خاصة مع عدد من علمائها الكبار مثل علي بن ريسون. انظر: المصدر نفسه، ص ٢٤١ ـ ٢٤٣؛ محمد داود، **تاريخ تطوان**، ٦ ج (تطوان: المطبعة المهدية، ١٩٦٥)، ج ٣، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥، وابن زيدان، **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس أو عبير الآس من روض تاريخ مكناس أو حسن الإقتباس من مفاخر الدولة العلوية وتاريخ مكناس**، مج ٤، ص ٣٤٧ ـ ٣٥٥.

ومما يلفت الانتباه في هذه الواقعة هو أن واحدا من هؤلاء العلماء شذ عن القاعدة وخرق هذا السكوت عندما عرض كتابه وكتاب علماء المدن الشمالية الثلاث وسؤالهم على مولاي عبد السلام ليعرضه بدوره على أخيه السلطان مولاي سليمان. للأسف الشديد لم نعثر على ترجمة شخصية لهذا العالم الجريء[١٥]، الذي انفرد، حسب رواية الضعيف الرباطي، بالإجابة عن سؤال علماء أهل المدن الشمالية وتوسل بمولاي عبد السلام لإسماع مطلبهم لدى مولاي سليمان. لكن، من المؤكد أن محاولته تلك، لم تذهب سدى. فقبل متم شهر رمضان من نفس السنة «جاء الأمر من السلطان بإطلاق بيع البارود، ومن أراد أن يشتري العدة فليشتريها، ومن أراد أن يشتري البارود فكذلك، والرصاص والسلاح وغير ذلك»[١٦].

هكذا إذن، نلمس عن قرب الدور الذي اضطلع به العلماء في هذه المناسبة عندما تنبهوا، من جهة أولى، إلى الخطر المحدق ببلادهم، فطالبوا السلطان بتمكينهم من مواجهته لكي لا يحل بهم ما حل بمصر. كما أنهم تمكنوا، من جهة ثانية، على الرغم من عدم وجود إجماع فيما بينهم بخصوص هذه المسألة، من إقناع السلطان مولاي سليمان بالاستجابة لمطلبهم.

ثانياً: الأئمة والخطباء

شكلت خطب الجمعة وغيرها من المناسبات الدينية والوطنية، أحد المواعيد الهامة التي يتم فيها التطرق للقضايا التي تشغل بال الأمة. لهذا، وجدنا الأئمة والخطباء، لا يترددون في اغتنام هذه الملتقيات الشعبية لإثارة

---

(١٥) لم نعثر في كتب التراجم المعلومة لدينا على أية إشارة إلى هذا العالِم. إلا أننا نرجّح، أن يكون هو الحاج قاسم شاذان الذي ورد ذكره في نص بيعة مولاي إبراهيم بفاس في ٢٤ محرم سنة ١٢٣٦هـ، باعتباره واحداً من أعيان وكبراء هذه المدينة المبايعين لهذا الأمير. انظر: داود، المصدر نفسه، ج ٥، ص ٢٥٤. أما صاحب **زهرة الآس**، فقد ذكر «أن هؤلاء (يقصد بيت شادان)، من قدماء فاس. وكانت لهم ثروة. ولا زال بيتهم بفاس عن قلة إلى الآن». انظر: محمد بن عبد الكبير بن هاشم الكتاني، **زهر الآس في بيوتات أهل فاس، ويليه تحفة الأكياس ومفاكهة الجلاس فيما غفل عنه صاحب زهر الآس في بيوتات أهل فاس**، تحقيق علي بن المنتصر الكتاني، الموسوعة الكتانية لتاريخ فاس؛ ١ ـ ٢، ٢ مج (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، ٢٠٠٢)، مج ١، ص ٥٣٦.

(١٦) الضعيف، المصدر نفسه، ص ٣١٤.

هذه القضايا والتفصيل فيها، سعيا منهم لاستنهاض همم المسلمين وتنبيههم إلى المخاطر التي تتهددهم في دينهم ودنياهم. ومما لا شك فيه أن من بين المواضيع التي كانت تتردد بقوة واستمرار في هذه الخطب منذ اندلاع الحروب الصليبية وضياع الأندلس هو موضوع الجهاد ضد النصارى بمختلف أجناسهم. وغني عن القول إن قضية من صنف الاحتلال الفرنسي لمصر ستحرك في المغاربة عموما والخطباء والأئمة منهم على وجه الخصوص، مشاعر الغضب، كما ستوقظ فيهم هواجس التهديد المسيحي لبلادهم.

ـ فما هو نصيب هذا الحدث العدواني الذي استهدف واحدة من قلاع الإسلام الحصينة في خطب ودروس ومواعظ هؤلاء الأئمة والخطباء باعتبارهم جزءا من النخبة العالمة والناطقين بلسان حال الأمة في قضية مثل هاته؟

للأسف الشديد، غالبا لا يتم الاحتفاظ بالخطب والمواعظ والدروس التي يلقيها الأئمة والخطباء في مناسبات مثل هاته على الرغم من أنها تعد وثائق ثمينة تكشف للمؤرخ والدارس على وجه العموم نوعية القضايا التي كانت تشغل بال الأمة وكيفية تعاطيها معها. ولحسن الحظ لم تطل يد النسيان خطب إحدى الشخصيات المغربية ممن مارس هذه الخطبة مدة طويلة؛ لأنه تنبه إلى أهمية المحافظة عليها، فجمعها في مصنف مفرد لهذه الغاية. نقصد بذلك خطب محمد الرهوني المنبرية (١١٥٩هـ/ ١٧٤٦م ـ ١٢٣٠هـ/ ١٨١٥م). ومما أضفى على خطبه هذه أهمية خاصة، حرص صاحبها، على احترام المناسبات التي كانت تلقى فيها. فجاءت بفضل ذلك متنوعة وغنية. ومما يؤيد ذلك قوله في مقدمة كتابه هذا: «إني لما وليت الخطابة دهرا طويلا، كنت أنوع الخطب، لأني رأيت في قصص القرآن على ذلك دليلا، ولأنه أمر يستحسنه ذوو الألباب، ولا سيما عند حدوث الأسباب. وأجعل الأيام والليالي والشهور الفاضلة خطبا بينها وبينها مناسبة»[١٧]. ولذلك، أسماها **الخطب المنبرية في الجمع والأعياد والكسوف والاستسقاء السنوية.**

(١٧) أبو عبد الله سيدي محمد الرهوني، **الخطب المنبرية في الجمع والأعياد والكسوف والاستسقاء السنوية** (القاهرة: مطبعة حجازي، ١٩٣٦)، ص ٢.

ومما زاد أيضا من أهمية خطب محمد الرهوني وأكسبها ميزة خاصة أن صاحبها لم يكن خطيبا وحسب، بل كان أيضا شخصية سياسية مقربة جدا من مولاي سليمان. فقد عمل لديه كاتبا، وكلّفه بتنفيذ عدة مهام؛ حيث وجهه سنة ١٢١٣هـ لجمع أموال المنقطعين بسوس، ثم عيّنه في السنة الموالية عاملا على نفس الإقليم. هذا إضافة إلى خطة الخطابة التي ولاه إياها، كما قال: «دهرا طويلا». ويستنتج من مضامين بعض خطبه أنه استمر في هذه الخطة حتى دخول الفرنسيين مصر(١٨).

ووفاء منه للمنهج الذي أخذ به هذا الخطيب والكاتب المخزني في اختيار مواضيع خطبه خصص عددا منها للعدوان الاستعماري الذي استهدف هذا البلد الإسلامي. فافتتح مصنفه بخمس خطب، كلها في موضوع الجهاد. وربط ذلك، ضمنا أو صراحة، بما حل بمصر من عدوان، مما يوحي بأن هذا الحدث شكل الباعث الأصلي لوضع مثل هذه الخطب.

وهكذا، جاءت الخطبة الأولى في موضوع فضل الجهاد بصفة عامة. أما الخطبة الثانية التي خصصها بدورها لموضوع الجهاد فتضمنت إشارة واضحة إلى ما وقع بمصر، لكن دون أن يذكرها باسمها، حيث قال بعد الافتتاح المعهود في مثل هذه الخطب: «أيها الناس، إن ذنوبنا كثيرة لا تستقصى، وإن مساوينا [كذا] وعيوبنا لا تعد ولا تحصى، وإن وراءنا والله يوما عبوسا قمطريرا. فلننهض يا عباد الله، لما يمحو ذنوبنا ويطهّرنا منها تطهيرا. ألا وإن أفضل ذلك الرباط والجهاد. فسيروا إليهما وشمروا الذيل عن ساق الجد والاجتهاد، وانفروا للجهاد خفافا وثقالا، وابذلوا في نصرة إخوانكم المسلمين أنفسا وأموالا. فقد أتاهم النصارى

---

(١٨) للإلمام أكثر بشخصية هذا العالم، وكذا المهام والمسؤوليات التي اطلع بها أيام السلطان مولاي سليمان، انظر: أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة، «أزهار البستان في طبقات الأعيان،» (مخ. خ.ع.، ك ٢٨٦)، ص ٢١٩؛ ابن زيدان، **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس أو عبير الآس من روض تاريخ مكناس أو حسن الإقتباس من مفاخر الدولة العلوية وتاريخ مكناس**، مج ٤، ص ١٨١ ـ ١٨٦؛ أحمد بن خالد الناصري، **كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق وتعليق أحمد الناصري؛ أشرف على النشر محمد حجي، إبراهيم بوطالب وأحمد التوفيق، ٩ مج (الرباط: منشورات وزارة الثقافة، ٢٠٠٠)، مج ٨، ص ١٠٧، ومحمد الهبطي المواهبي، **مصابيح ولاية القنيطرة** (الرباط: نداكوم للصحافة والطباعة، ٢٠٠٢)، ص ١٣٣ ـ ١٤٧.

دمرهم الله، أفواجا وأذاقوهم من سوء صنيعهم ملحا أجاجا. أفيطيب عيشكم يا معشر المسلمين، وإخوانكم قد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت. أي عذر لكم عند ربكم إذا استولت النصارى على بلادهم، وغلبت واتخذوا مساجد الله بيعا وكنائس. فانهضوا لإعلاء كلمة الله سراعا ورجالة، وفوارس. فما اتبعت الأنفس ولا صرفت الأموال في أفضل من قتال أهل الكفر والضلال. فليصرف كل واحد منا نفسه وأثاثه في قتال من زعم أن الله ثالث ثلاثة»[١٩]. وذكّر، بعد هذا، بآيات وأحاديث كلها في معنى الجهاد ووجوبه. ثم ختم الجزء الأول من خطبته هاته بهذه الدعوة الموجهة إلى جموع الحاضرين من المصلين: «وسارعوا لقتال من كفر بالله، وسعى في الأرض الفساد، ولا يشغلن عن الجهاد أبناؤكم وأزواجكم وأموالكم (. . .)»[٢٠]. ثم استمر يرغب، في الجزء الثاني من هذه الخطبة، في الجهاد، ويحض عليه، ناصحا من له القدرة، على المبادرة إليه بإخلاص. أما من عجز عنه «فليجهز من يغزو من أطيب ماله، أو يخلفه بخير في أهله وعياله»[٢١].

واضح من خلال ما ورد في نص هذه الخطبة أنها تتضمن دعوة صريحة من طرف هذا العالم ورجل الدولة والخطيب إلى الجهاد ضد من أسماهم بـ «الكفار». ورغم أن نص الخطبة لا يتضمن إشارة صريحة لاسم البلد الإسلامي الذي استهدفه هؤلاء «الكفار»، فالمقصود هنا هو مصر التي كانت تعيش ساعتها تحت الاحتلال الفرنسي، وهو ما سيفصح عنه في إحدى خطبه القريبة المقبلة.

لكن، قبل وصول محمد الرهوني إلى ذلك، يبدو أن اهتمامه تحول أكثر نحو ما كان يتهدد المغرب من مخاطر بسبب هذا العدوان؛ لأنه عوض أن يسترسل في حديثه عن العدوان الفرنسي على مصر، أخذ يركز خطبه على ضرورة الاستعداد للجهاد ومد يد العون للأقاليم الشمالية المهددة بغزو النصارى. فبعد تخصيص خطبته الثالثة للحض على الجهاد

(١٩) الرهوني، المصدر نفسه، ص ٧.

(٢٠) المصدر نفسه، ص ٨.

(٢١) المصدر نفسه.

والرباط، قال في خطبة رابعة له: «وقد تواترت يا معشر المسلمين الأخبار بأن النصارى دمرهم الله، تجمعوا من المدن والقرى والأمصار، وجمعوا من العدد والعدد ما زعموا ألا يقوم لهم به أحد، وأنهم ينتظرون أول ريح توافقهم فيخرجون خرجة، وأنهم قاصدون العرائش وطنجة. فأغيثوا أهلها عباد الله، وارحموهم، فالراحمون يرحمهم الله، وكونوا أول من سارع إلى نصرتهم من بين مشاة وركبان (. . .)»[٢٢].

لا نعرف على وجه التحديد متى ألقيت هذه الخطبة. إلا أنه يرجح لدينا أنها ألقيت عندما ترددت إشاعات قوية في نهاية سنة ١٨٠٠م حول إنزال عسكري فرنسي وشيك بإحدى مدن المغرب الشمالية. ويبدو أن الأمر كان يتعلق بمدينة طنجة التي أصدر بشأنها مولاي سليمان، آنذاك، أمرا بالتعبئة العامة للجيش وكلف رئيس الزاوية الوزانية سيدي علي بن أحمد بإرسال المجاهدين للدفاع عنها[٢٣].

أما الخطبة الخامسة في سلسلة خطبه الجهادية فقد أفردها لاستيلاء الفرنسيين على مصر. ويبدو من إشارة تضمنتها هذه الخطبة أنها لا تعدو كونها واحدة من عدة خطب قالها صاحبها في نفس الموضوع؛ لأنه بدأها بقوله: «ومما خطبت به حين استولى الكفار على مصر وما والاها»، مما يعني أنه خص هذا الحدث بأكثر من خطبة. ورغم ذلك، فهي لا تختلف كثيرا من حيث موضوعها عن خطبه الأربع السابقة؛ لأنها دارت مثلها حول ضرورة القيام بالجهاد والترغيب فيه، مع الإشارة، ضمنا أو صراحة، إلى ما حل بمصر من غزو واحتلال وما يتهدد المغرب من مصير مشابه.

إلا أن ما يميز، حقا، هذه الخطبة هو تركيز صاحبها على الأسباب التي أدت في نظره إلى وقوع هذا القطر الإسلامي تحت طائلة الاحتلال. وهي، كما سوف نرى ذلك، كلها أسباب تحيل على علاقة المسلمين بدينهم، من «تغيير الدين، وتتابع الذنوب والمعاصي، وقلة المراقبين لله

---

(٢٢) المصدر نفسه، ص ١٠.

(٢٣) Mohamed El Mansour, «Political and Social Development under the Reign of Moulay Solayman (1792-1822),» 2 tomes (Doctorate, University of Landers, 1981), tome 1, p. 232.

المشفقين من يوم الأخذ بالنواصي»[٢٤]. ثم زاد على ذلك، فربط بين ما حل بمصر وتخلف المسلمين عن الوفاء بالعهد واقترافهم المعاصي، «فلهذا تسلط أهل الكفر على أهل الإسلام، واستولوا على أعظم البلاد بلا ضرب السيوف ولا رمي السهام»[٢٥].

ومما يبرز قوة تفاعل هذا الخطيب المغربي مع ما حل بأهل مصر من غزو واحتلال، أنه اعتبر استيلاء «الكفار» على هذا البلد «أعظم مصيبة أصابت الخاصة من المسلمين والعامة»[٢٦]. أكثر من ذلك أوقع استيلاء الكفار «على أعظم البلاد» محمد الرهوني في حالة من اليأس، جعلته يتحسس مبكرا ما يتهدد الأقطار الإسلامية مستقبلا من مخاطر استعمارية حينما قال في خطبته هاته: «ليس في الحياة بعد هذا من خير، ولا يزداد الحال إلا لعظيم الضير»[٢٧]، معبرا في نفس الوقت عن خشيته من أن يتكرر ما وقع بمصر «بسائر البلاد»؛ لأن «الناس قد شغلوا بالنساء والأموال والأولاد، وتركوا أخذ الأهبة للجهاد والاستعداد»[٢٨]. لذلك، نصح مستمعيه بأن يشمروا على ساق الجد، وأن يعدوا للكفار ما استطاعوا من قوة ورباط الخيل. ثم أورد في معنى هذا أحاديث نبوية تدل على ما للخيل وتعلم الرمي وتعليمه من فضل[٢٩].

يتبين من خلال ما سبق أننا أمام قراءة خاصة لهذا الحدث العدواني الذي استهدف مصر. فإذا كان أحد رجالات التصوف قد اعتبر ذلك من بين العلامات الممهدة لقيام الساعة باعتبارها الحل النهائي لهذا الصراع الأبدي بين الحق والباطل[٣٠]، فإن هذا الخطيب والكاتب السلطاني قد رأى في استيلاء الكفار على «أعظم البلاد» نتيجة «لتتابع الذنوب والمعاصي»، وغير ذلك من الانحرافات التي أصابت المسلمين. ورغم

---

(٢٤) الرهوني، المصدر نفسه، ص ١١.

(٢٥) المصدر نفسه.

(٢٦) المصدر نفسه.

(٢٧) المصدر نفسه.

(٢٨) المصدر نفسه، ص ١١ ـ ١٢.

(٢٩) المصدر نفسه.

(٣٠) أقصد بذلك ما قاله الشيخ أحمد بن عجيبة بهذه المناسبة. انظر المبحث الآتي من هذا الفصل.

ذلك، لم يفته تحريض المسلمين على الجهاد، وبذل النفس والمال لنصرة إخوانهم في مصر والمغرب؛ لأن ما وقع بذلك القطر الإسلامي البعيد «يخشى أن يقع مثله في سائر البلاد»[٣١]، ومنها بطبيعة الحال المغرب.

إضافة إلى خطب الفقيه والكاتب المخزني محمد الرهوني احتفظت لنا الخزانة المغربية بمساهمة شخصية ثانية لا تقل أهمية عن سابقتها من حيث المكانة العلمية والعلاقات السياسية ومواكبة ما كان يجري من أحداث على الساحة الإسلامية. نقصد بذلك سليمان الحوات (١١٦٠هـ/١٧٤٧م - ١٢٣١هـ/١٨١٦م)[٣٢]. اشتهر هذا العالم بمدائحه الشعرية لمولاي سليمان في مختلف المناسبات، واعتنى في خطبه الجمعية وأشعاره بالتحريض على جهاد «الكفار»، والدعوة إلى أخذ العبرة من الخسارة التي حلت بالمسلمين في الأندلس ومصر.

وإذا كان الكثير من أشعار سليمان الحوات قد قاومت عوادي الزمن، فإنه لم يتخلف من خطبه، سيما منها تلك المتعلقة بموضوع الحملة، سوى خطبتين[٣٣]. ويبدو من محتواهما أنهما ألقيتا بعد خروج الفرنسيين من مصر، وربما كان ذلك بمناسبة احتلال نابليون لإسبانيا سنة ١٨٠٧م وتهديده المباشر للمغرب. لذلك، هيمن عليهما تحذير المغاربة من مغبة الوقوع تحت طائلة الاحتلال، وتخللتهما دعوات قوية إلى الاستعداد للجهاد والإقبال عليه، دفعا لهذا الخطر الذي أصبح يتهددهم بصفة جدية ومباشرة.

وهكذا، خصص الخطبة الأولى للحض على إقامة فريضة الجهاد وترغيب المغاربة فيه طاعة لأمر الله ورسوله الذي دلت عليه آيات وأحاديث كثيرة، وامتثالا للأمر الذي أعلنه السلطان مولاي سليمان بهذا الخصوص. لذلك، وجب على المغاربة أخذ الأهبة والاستعداد للجهاد.

---

(٣١) الرهوني، المصدر نفسه، ص ١١.

(٣٢) للإلمام بحياة سليمان الحوات في مختلف وجوهها العلمية والأدبية والسياسية، انظر تعريفه، في: سليمان بن محمد بن عبد الله الحوات، **الروضة المقصودة والحلل الممدودة في مآثر بني سودة**، دراسة وتحقيق عبد العزيز تيلاني، ٢ مج (فاس: مؤسسة أحمد بن سودة الثقافية، ١٩٩٤)، مج ١، ص ٥٥ - ٧٥.

(٣٣) توجد هاتان الخطبتان بالخزانة الحسنية، الرباط، ضمن مجموع، تحت رقم ٤٢٦٩.

ولكي يتحقق لهم النصر في ذلك، وجب عليهم، حسب هذا الخطيب، أن يقلعوا عن الذنوب والمعاصي، وأن لا يطمئنوا إلى ما يعتقدونه في أنفسهم باعتبارهم مسلمين، من قوة في دينهم وكثرة في عددهم. لذلك، قال: «فما أجهل من يستخف أمر العدو ولا يكون له به اهتبال، ويرى أنه أحقر من أن يسلطه الله على المسلمين بحال»؛ لأن ظنه هذا «خلاف المشاهد الواقع»[٣٤].

وركز في خطبته الثانية على جوانب عملية في كيفية مواجهة «أعداء الإسلام»، مستندا في ذلك إلى ما وقع بالأندلس ومصر. لهذا، وجدناه يدعو مخاطبيه إلى الاستعداد والتأهب والتمسك بأسباب الحذر، مخافة أن يفاجئهم «العدو وهم نيام، فتعظم المصيبة في الإسلام»[٣٥]. ثم جعل «التوبة من الذنوب والإنابة إلى علام الغيوب»، أول ما يجب إعداده في هذه المواجهة؛ لأن «التوبة مفتاح الفلاح، وعلامة صادقة على النجاح»[٣٦].

وخلافا لمحمد الرهوني، اجتهد سليمان الحوات في تقديم قراءة نقدية أكثر عمقا للكيفية التي استمر ينظر بها المسلمون إلى «أهل الكفر» من المسيحيين؛ حيث آخذهم على عدم إلمامهم ووعيهم بخطورة التحولات النوعية التي بدأت تتخلل، منذ تاريخ بعيد، علاقاتهم بالعالم المسيحي، مستثمرا في ذلك تأملاته الذكية بخصوص توالي الهزائم على المسلمين منذ ضياع الأندلس ثم استيلاء جيش الشرق على مصر. لذلك، وجدناه يحذّر معاصريه من مغبة الجهل بحقيقة القوة التي أصبحت تتوفر عليها الأمم الأوروبية، ومبالغتهم في الثقة بالنفس لمجرد أنهم أهل إسلام، والتهوين من قدرة الأوروبيين على تحقيق أطماعهم في بلاد المسلمين لكونهم «أهل الكفر». أكثر من ذلك، اعتبر من يهون من قدرة هذه الأمم على النيل من المسلمين بمثابة طابور خامس وجب الحذر منه، حيث قال: «واعلموا أن أعدا الأعادي للمسلمين، من يهون لهم أمر أعداء الله الكافرين لمجرد كونهم أهل كفر ونحن أهل إسلام، ويشيع

(٣٤) المصدر نفسه.
(٣٥) المصدر نفسه.
(٣٦) المصدر نفسه.

عجزهم عن مقاومتنا بين الخاص والعام، ويتخذ أمرهم هزؤا وسخرية، لما في ذلك من التثبيط الذي هو رأس كل بلية، والإضاعة للحزم الواجب في ما يحذر من سوء العواقب. والحازم يجري الأخبار كلها على التأمل، ويأخذ الحق من أهل الباطل، والباطل من أهل الحق من غير تقييد بالتأهل، ولا يصدق كل مخبر لأن ذلك به مضمر (. . .)»[٣٧].

أما حجته في ما ذهب إليه من التحذير من هذا الطابور الخامس، فتتمثل في ما وقع بالأمس القريب بجزيرة الأندلس ومصر، فقال: «وانظروا إلى جزيرة الأندلس، فإنها كانت من أعظم الممالك الإسلامية التي لولاها لم يكن ذكر للأصقاع المغربية. ثم استولى عليها العدو الكافر، ولم يكن لها في أرض الله ناصر. وهل نسيتم ما كان في هذا العصر من دخول الكفار أهل مصر، وعتوهم فيها وإفسادهم نهبا وقتلا بما يكاد يفضي إلى ارتداد أكثر أهلها، لولا أن الله تداركهم بلطفه رحمة منه وفضلا»[٣٨].

وبعد أن دعم ما ذهب إليه بسوق مثالي الأندلس ومصر وأمثلة أخرى سابقة عنهما، ختم خطبته بهذا التحذير الشديد من أن تكون الجولة المقبلة من سلسلة التحديات هاته تجاه بلاد المسلمين، هي المغرب. وساق تحذيره في صيغة سؤال استنكاري بغية تحقيق أكبر قدر من التأثير لدى مستمعيه، فقال: «فكيف يغتر العاقل بقول القائل إن النصارى يعلمون أن الغرب بجيوش المسلمين صائل، فلا قدرة لهم على الخروج إليه، والإسلام يعلو ولا يعلى عليه. وهل هذا إلا قول من اتخذ إلهه هويه [كذا]، وكاد أن يشرك مع الله في الحول والقوة سواه. فلا يغرنكم الشيطان، ولا يغرنكم بالله الغرور»[٣٩].

واضح من خلال هذه الخطبة أن سليمان الحوات لم يكتف في تعاطيه مع حدث الحملة بالدعوة إلى الجهاد ـ وهو أمر غير مستغرب من خطيب وشاعر متحدر من مدينة مجاهدة مثل شفشاون ـ بل تنبه مبكرا

---

(٣٧) المصدر نفسه..

(٣٨) المصدر نفسه.

(٣٩) المصدر نفسه.

إلى التحول النوعي الذي أخذ يطرأ على قدرات الأمم الأوروبية في ميادين مختلفة، وفي مقدمتها الميدان العسكري الذي أكده، في نظره، انهزام المسلمين في موقعين كانا يعتبران، لعدة قرون، من أشد المواقع الإسلامية قوة ومناعة، وهما الأندلس ومصر. لذلك، لم يكتف بدعوة المغاربة إلى الاستعداد للجهاد، بل حثهم على ضرورة الكف عن التعامل مع هذا «العدو الكافر» وفق الصيغة التقليدية التي كانت تحقر من أمره لمجرد كفره، وتعتقد خطأ عدم قدرته الأبدية على النيل من المسلمين لمجرد أنهم أهل إسلام.

وعليه، يمكن القول إن سليمان الحوات تمكن في وقت مبكر نسبيا، أن يقدم لمعاصريه من المغاربة بمناسبة هذا الحدث الاستعماري الأول من نوعه في العالم الإسلامي قراءة موضوعية في حدود بعيدة لمختلف الهزائم التي ما فتئت تحل بالمسلمين منذ مطلع العصور الحديثة، والتي دشنها طردهم من الأندلس، ثم أكّدها قبل قليل استيلاء الفرنسيين على مصر. وعلى الرغم من بعد مصر عن المغرب بآلاف الكيلومترات حذّر سليمان الحوات معاصريه من مغبة التهوين من أمر هذا العدو الذي أثبت، من خلال هاتين التجربتين المأساويتين، أنه قادر على إلحاق أشد الأذى ببلاد المسلمين بما في ذلك المغرب الذي اشتهر لدى الأمم المسيحية بقوته العسكرية.

يتبين لنا من خلال هذين النموذجين أن أئمة المساجد وخطباءها تفاعلوا بقوة مع هذا الحدث العدواني الذي استهدف مصر؛ فحرضوا إخوانهم المغاربة على الجهاد ورغبوهم فيه بعد أن بسطوا لهم الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي جاءت في هذا المعنى، كما لم يفتهم التنبيه إلى إمكانية تكرار ما حدث بمصر على أرض المغرب، سيما أقاليمه الشمالية التي أضحت، بحكم موقعها، تحت رحمة أساطيل وجيوش الدول الاستعمارية المتصارعة. وإذا كان محمد الرهوني قد وقف عند هذا المستوى، فإن معاصره سليمان الحوات قادته تأملاته في حدث الحملة وما سبقه من أحداث مماثلة إلى مناداته بل وإلحاحه على ضرورة الكف عن التعاطي مع الأمم المسيحية بنفس الصيغة التقليدية التي درج عليها المسلمون إلى حدود ذلك التاريخ.

ثالثاً: شيوخ الزوايا ورجالات التصوف

اشتهرت الزوايا ورجالاتها من أهل التصوف بانخراطهما القوي والفعال في القضايا الحيوية التي كانت تشغل بال الدولة والمجتمع، مما جعلهما طرفا رئيسا في تدبير وإدارة شؤون الناس في حالتي السلم والحرب، ومنحهما قدرا كبيرا من التأثير في قيام الدول وسقوطها. أما الجهاد ضد الاعتداءات الأجنبية والمرابطة بالثغور فكان لهم فيهما الحظ الأوفر تأطيرا وتوجيها ومساهمة، بدءا بمعاركهما الظافرة ضد الغزو الإيبيري، وانتهاء بقتالهما المستميت ضد الاستعمارين الفرنسي والإسباني. لهذه الاعتبارات مجتمعة احتل شيوخ الزوايا وأتباعهم من المتصوفة مكانة خاصة في وجدان المغاربة ومخيلتهم، فخلّدوا ذكراهم ببناء الأضرحة والمزارات وإقامة مواسم خاصة بهم[٤٠].

وإذا كانت حركة الجهاد التي استمدت منها الزوايا مشروعية قيامها وقوة إشعاعها داخل المغرب وخارجه قد خفت حدتها نسبيا بعد طرد الإسبان والبرتغال من عدد من المدن المغربية، فإن الحركة الصوفية استمرت قائمة، بل شهدت خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي ميلاد طرق جديدة، مثل الطريقتين الدرقاوية والتيجانية. إضافة إلى ذلك، استمرت زوايا أخرى مشهورة، مثل الزاويتين الوزانية والناصرية، في تأدية وظائفها الاجتماعية والسياسية والجهادية.

ومما لا شك فيه أن شيوخ هذه الطرق أو الزوايا ورجالاتها من أهل التصوف كانوا بحكم مكانتهم الاجتماعية وعلاقاتهم السياسية ومساحة تحركهم أو سياحتهم داخل المغرب والمشرق شديدي الحساسية تجاه ما يجري من أحداث ويستجد من تطورات على مستوى المغرب وبقية بلدان العالم الإسلامي، خاصة المشرقية منها. لذلك، نرى من الضروري البحث

---

(٤٠) للوقوف على خصوصية الأدوار التي اضطلعت بها مؤسسة الزوايا في تاريخ المغرب، انظر: «نظيمة الزوايا في علاقتها بالمجتمع والسلطة (ملف)،» مجلة **أمل**، السنة ٧، العددان ١٩ ـ ٢٠ (٢٠٠٠)؛ العدد ٢٢ (٢٠٠١)، والعدد ٢٣ (٢٠٠١)، وعبد الله حمودي، **الشيخ والمريد: النسق الثقافي للسلطة في المجتمعات العربية الحديثة**، ترجمة عبد المجيد جحفة (الدار البيضاء: دار توبقال، ١٩٩٩)، ص ١٠٧ ـ ١٣٦.

في الكيفية التي تعامل بها شيوخ هذه الطرق وأتباعهم مع هذه العدوان الذي استهدف مصر والشام.

بادئ ذي بدء، نلفت الانتباه إلى أن أغلب مكونات النخبة المغربية - إن لم يكونوا كلهم - إضافة إلى القيادة السياسية بمختلف مراتبها وعلى رأسها مولاي سليمان، كانوا مرتبطين بشكل أو بآخر، بإحدى الطرق الصوفية المنتشرة آنئذ بربوع المغرب. ذلك، أن الممارسة الصوفية كانت تمثل حالة عامة تشترك فيها تقريبا جميع الأطر السياسية والعلمية والفكرية، إضافة إلى فئات الشعب المغربي الذين كانوا يدينون جميعهم بالولاء لهذا الولي أو ذاك. إلى جانب هذا، وجب أيضا التنبيه إلى الاختلافات العميقة بين هذه الزوايا، وأحيانا بين شيوخ الزاوية الواحدة نفسها في ما يخص علاقتهم بالسلطة المركزية. فإذا كان البعض منهم قد اشتهر بمساندته لنظام الحكم القائم أو بنى مشروعية وجوده واستقطابه للأتباع والمتعاطفين على جهره بالإنكار والمعارضة للسياسة المنتهجة في عصرهم ومصرهم، فقد نأى آخرون عن الاشتغال بأمور السياسة وحصر دوره في التربية والدعوة. لذلك، وجب علينا، ونحن نسائل شيوخ الزوايا من موقعهم ذاك عما كان يحدث من عدوان واحتلال لمصر والشام، أن نستحضر هذه الفروقات النوعية التي كانت توجد في ما بينهم.

كما نثير الانتباه إلى أنه، خلافا لما هو متوقع، لم يخلف هؤلاء الشيوخ وأتباعهم، في ما نعلم، ما يكفي من الآثار المكتوبة للكشف بعمق عن مواقفهم من حدث الحملة؛ إذ على الرغم من كثرة مصنفاتهم، سواء النثرية منها أو الشعرية، لم نعثر إلا على نصوص محدودة تعد على رؤوس الأصابع، تكلموا فيها صراحة عما حل بمصر من عدوان. إلا أنه يجب الاعتراف أنه مقابل سكوتهم هذا غير العادي تجاه حدث من هذا الحجم، امتاز أتباع هذه الزوايا بمشاركة جهادية مكثفة ومعتبرة دوّنت وقائعها وأحداثها عدد من المصادر الأجنبية والعربية، مما ينهض دليلا قاطعا على قوة وحركية هذه المؤسسة الجهادية.

وهكذا، نجد أنه في الوقت الذي ظلت فيه الزاوية التيجانية محافظة على طابعها النخبوي وبعيدة، على الأقل إلى حدود هذا التاريخ، عن

الاختلاط بأمور السياسة، مركزة جهودها على التربية والدعوة إلى الإسلام وخاصة في إفريقيا السوداء[٤١]، تفاعلت زوايا أخرى بدرجات مختلفة مع ما حل بمصر من غزو واحتلال. فمنهم من حمل السلاح وحرض على قتال الغزاة وقاد حركة الجهاد بأرض الكنانة أو بشمال المغرب. بينما اكتفى البعض الآخر، بتأمل هذا الحدث والاجتهاد في تأويله على وجه من الوجوه.

ففي ما يخص الفئة التي عبّر أصحابها عمليا عن تضامنهم مع إخوانهم بمصر، فقد مثلتهم بامتياز الزاوية الدرقاوية من خلال ما قام به الشيخ محمد بن الأحرش حينما تصدر مع جماعة من أتباع هذه الزاوية قيادة حركة جهادية واسعة النطاق استمرت حتى خروج الفرنسيين من مصر، نازل خلالها جيش الشرق في أكثر من موقعة، وحقق انتصارات مدوية في إقليم البحيرة أولا ثم ثورة القاهرة الثانية وإقليم الصعيد في لحظة أخيرة. بل إنه أصبح في كثير من الأوقات مصدر تهديد جدي بالنسبة للوجود الفرنسي بمصر. ومحمد بن الأحرش هذا هو الذي اشتهر في الوثائق والمؤلفات المشرقية والفرنسية، بـ «مولاي محمد المغربي»، أو «الملاك المهدي»؛ لأنه ادعى، حسب كثير من المصادر المعاصرة، المهدوية[٤٢].

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذا المجاهد المغربي الذي تربى على يد مولاي العربي الدرقاوي و«كان من أرباب الخوارق وكثرة الكرامات»[٤٣]، لم يذهب وحيدا للجهاد بمصر بل صحبه إلى هناك بضع مئات من المجاهدين من المغرب والجزائر وتونس وطرابلس. ثم انضم إليهم بعد ذلك ألوف من أهالي مصر، ناهيك عمن لحق به من المماليك والمغاربة

---

(٤١) للإلمام بحيثيات وظروف ظهور هذه الزاوية وتبيّن الكيفية التي تعاطت بها مع الشأن السياسي العام، انظر: أحمد التيجاني، «وصية لجميع الإخوان،» (مخ. خ. ع.، د ٢١٠٦)، ضمن مجموع، ص ٧١ وما بعدها؛ أحمد الأزمي: **الطريقة التجانية في المغرب والسودان الغربي خلال القرن التاسع عشر**، ٣ ج (الرباط: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م)، و«التعريف بمؤسسة الزاوية التيجانية بفاس،» مجلة **أمل**، السنة ٧، العددان ١٩ ـ ٢٠ (٢٠٠٠)، ص ٩٩ ـ ١٠٠.

(٤٢) خصصنا لجهادات هذا الشيخ، فصلاً كاملاً، انظر الفصل التاسع من هذا الكتاب.

(٤٣) محمد المهدي بن القاضي، «النور القوي في ذكر شيخنا عبد الواحد الدباغ وشيخه مولاي العربي الدرقاوي،» (مخ. خ. ع.، ك ٢٣٠١)، ورقة ٤٧/ أ.

المقيمين آنذاك بمصر. وقياسا إلى الجرأة والشجاعة اللذين حارب بهما هؤلاء المجاهدون رغم قلة أعدادهم، خاصة بعد أن تخلت عنهم عدد من الطوائف المقاتلة، إضافة إلى تعدد انتماءاتهم «الوطنية»، يرجح لدينا أن أغلبهم كان يشترك مع محمد بن الأحرش في النسبة إلى الطريقة الدرقاوية، إما على سبيل الانتماء الفعلي أو التعاطف القلبي.

وقبل أن يحل محمد بن الأحرش بأرض الكنانة للقيام بفريضة الجهاد، كان محمد الجيلاني السباعي الذي نقلت عنه عدة «خوارق وكرامات» خلال وجوده بالمغرب وبعد حلوله بالمشرق وجمعته صلات قوية بأقطاب التصوف في زمانه[٤٤]، قد دعا في مكة والمدينة وما حولهما من المدن والقرى إلى الجهاد بالنفس والمال ضد الفرنسيين بعدما سمع باحتلالهم لمصر. فنجح مع اثنين من أفراد عائلته ـ وهما: أخوه طاهر وابن أخته حسن ـ في تعبئة حوالى سبعة آلاف مجاهد من أهل الحجاز واليمن وشمال إفريقيا، ثم عبر بهم البحر الأحمر إلى إقليم الصعيد حيث دارت بينه وبين قوات الجنرال ديزي (Desaix)، قائد حملة الصعيد، معارك قوية حقق خلالها هؤلاء المجاهدون المغاربة مع من انضم إليهم من أهالي الحجاز ومصر، انتصارات مدوية[٤٥].

إضافة إلى إسهام هذين الزعيمين المغربيين في تأطير وقيادة حركة الجهاد والمقاومة بمصر مع من انضم إليهما من أتباع وأهالي، تفيدنا إحدى الوثائق الأجنبية أنه عقب الأخبار التي كانت تتحدث بقوة عن إنزال عسكري وشيك بأقاليم المغرب الشمالية، أمر مولاي سليمان

(٤٤) نقل عن هذا الشيخ عدة خوارق وكرامات. فقد ذكر تلميذه محمد الأوبيري أنه «كان صاحب مكاشفة»، ثم سرد واقعة في شأن ذلك حضرها شخصياً. انظر: محمد التهامي الحميري الأوبيري، «إتحاف الخل المواطي ببعض مناقب الإمام السكياطي،» (مخ.خ.ع. ك ١٠٣٦)، ص ٣٢٣. أما القائد الفرنسي لحامية السويس الذي كان يراقب عن كثب تحركاته ما بين إقليمي الحجاز والصعيد، فقد نقل عنه قوله: «إن الرسول محمد عليه الصلاة والسلام صيره معصوماً». وأضاف هذا القائد معلقاً أنه لكي يقنع الناس بزعمه هذا، كان يخدعهم باستعمال عدد من الحيل بتواطؤ مع بعض أخصائه. ثم سرد هذا وقائع ما أسماه بـ «الحيل» أو ما يصطلح عليه في لغة أهل التصوف بـ «الكرامات». انظر: B6 19, Suez, Mac Sheehy à Dugua, 17 ventose an 7 (7 mars 1799).

(٤٥) أفردنا كذلك للمساهمة الجهادية التي قام بها هذا الشيخ، فصلاً كاملاً، انظر الفصل الثامن من هذا الكتاب.

بالتعبئة العامة للجيش. ثم طلب من سيدي علي بن أحمد، شيخ الزاوية الوزانية، إرسال المجاهدين إلى طنجة تحسبا لأي طارئ(٤٦). وغني عن القول إن هذه المخاوف إنما كان مردها إلى الغزو الذي تعرضت له آنذاك مصر وبات يهدد المغرب بحكم موقعه الجغرافي وارتباطاته الخاصة بمصر والدولة العثمانية. ولا نشك أن أول من سيستجيب لدعوة الجهاد هذه التي صدرت عن مولاي سليمان وكلف بإنجازها شيخ الطريقة الوزانية، هم أولا أتباع هذه الطريقة التي كانت تتمتع بنفوذ قوي في الربوع الشمالية. وفي هذا، دليل آخر على قوة تفاعل رجالات التصوف وأتباعهم من المغاربة مع ما حل بمصر من غزو واحتلال، وانخراطهم القوي في حالة التعبئة العامة التي أضحت تسيطر على المغرب من جراء ذلك.

وفي الوقت الذي كان فيه هؤلاء الشيوخ وأتباعهم يمتشقون السلاح ويشدون الرحال إلى أرض المعركة لقتال جيش الشرق أو يرسلون المجاهدين إلى مدن الشمال المغربية للحيلولة دون تكرار هذه التجربة بالمغرب، كان حدث الحملة هذا يحرك لواعج ووجدان رجالات أخرى من أهل التصوف ممن لم يسعفهم الحظ في المشاركة في هذه الحركة الجهادية. نذكر من بين هؤلاء شخصيتين كان لهما وزنهما المعتبر في ميدان الممارسة الصوفية، وهما: الشيخ أحمد بن عجيبة (توفي سنة ١٢٢٤هـ/ ١٨٠٩م)(٤٧)، ومحمد بن عبد السلام الناصري (توفي سنة ١٢٣٩هـ/ ١٨٢٣م)(٤٨). فبينما كان محمد بن الأحرش ومحمد الجيلاني وأتباعهما

---

(٤٦) El Mansour, «Political and Social Development under the Reign of Moulay Solayman (1792-1822),» tome 1, p. 232.

(٤٧) للإلمام بحياة ومكانة هذا الصوفي الكبير، انظر: عبد المجيد الصغير، **من تاريخ التصوف المغربي: إشكالية إصلاح الفكر الصوفي في القرنين ١٨ ـ ١٩م: أحمد ابن عجيبة ومحمد الحراق**، ط ٢ (الدار البيضاء: دار الآفاق الجديدة، ١٩٩٤)، ص ٥٣ ـ ١٧٩، وداود، **تاريخ تطوان**، ج ٣، ص ٢٠٦ ـ ٢٢٤.

(٤٨) للإلمام بحياة ومكانة هذه الشخصية العلمية والصوفية المتميزة، انظر: عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، **فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات**، باعتناء إحسان عباس، ٣ ج، ط ٢ (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٦ ـ ١٩٨٢)، ص ٨٤٣ ـ ٨٤٤، وخير الدين الزركلي، **الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**، ٨ ج، ط ٧ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٦)، ج ٥، ص ١٨٩.

يجاهدون ضد القوات الفرنسية بمصر، كان هذان الشيخان يتأملان هذا الحدث ويستخلصان منه العبر، معبرين، من خلال سلوكهما ذاك، عن عميق تفاعلهم مع ما كان يقع من أحداث وتطورات جسام بأرض مصر. ويلاحظ، مما قاله هذان الشيخان بهذه المناسبة، أن تأويلاتهما لما وقع بمصر جاءت مختلفة جدا عن بعضها البعض، بل وصلت إلى حد التناقض. ففي الوقت الذي رأى فيه ابن عجيبة علامة من علامات قيام الساعة، عدّه محمد بن عبد السلام الناصري بشارة فتح قريب.

وهكذا، وجدنا الشيخ ابن عجيبة الذي بلغت به قوة التفاعل وشدة اليأس درجة عالية، يذهب إلى حد القول في أحد مؤلفاته: «في هذا الزمان الصعب، ينبغي فيه ألا يفرح بمولود، ولا يحزن على مفقود. فلا بقي إلا غدرة النصارى، وخروج الدجال وياجوج وماجوج»[٤٩]. ثم زاد، موضحا قصده من كلامه هذا، فقال: «وقد حدثني من أثق به من أصحابنا، وهو الفقيه العالم الولي سيدي معروف الصحراوي[٥٠]، أنه قال رأيت في كتاب البون شمس المعارف، قال فيه: إذا دخلت النصارى مصر وظهر الوباء بالمغرب وخرجت النصارى بالسواحل،ظهر الإمام المهدي ونزل عيسى بن مريم عليه السلام»[٥١].

يستنتج من هذين النصين أن الشيخ الصوفي الكبير، أحمد بن عجيبة، وصاحبه، الولي الصالح، سيدي معروف الصحراوي الذي كان يشاركه في الانتماء إلى الطريقة الدرقاوية، اعتبرا دخول النصارى مصر وظهور وباء الطاعون بالمغرب والتهديد الذي أخذ يطال السواحل المغربية خاصة الشمالية منها، من العلامات الممهدة لقيام الساعة. وبغض النظر عن مدى صحة هذا التأويل، نقف من خلال هذا النص على قوة حضور حملة نابليون بونابرت على مصر داخل الانشغالات

---

(٤٩) ابن عجيبة، «سلك الدرر في ذكر القضاء والقدر،» ص ١٥.

(٥٠) لم أجد له ترجمة بهذا الاسم، لكن يحتمل أن يكون هو محمد بن معروف الفجيجي الذي عده محمد بن القاضي من بين تلامذة مولاي العربي الدرقاوي، وأورد له ترجمة قال فيها: «كانت له اليد الطولى في علم الأسماء وفي خوارق العادات. . .». انظر: ابن القاضي، «النور القوي في ذكر شيخنا عبد الواحد الدباغ وشيخه مولاي العربي الدرقاوي،» ص ٤٥/ ب ـ ٤٦/ أ.

(٥١) ابن عجيبة، المصدر نفسه، ص ١٥.

الوجدانية لمتصوف كبير مثل ابن عجيبة ومن كان يشاركه الانتماء إلى الطريقة الدرقاوية مثل الولي سيدي معروف الصحراوي.

وحول هذه النقطة بالذات التي ارتبط فيها دخول النصارى مصر قيام الساعة، التقى تلميذا مولاي العربي الدرقاوي: ابن عجيبة وابن الأحرش، لكنهما اختلفا حول الكيفية التي تصرف بها كل واحد منهما مع هذا الحدث. فبينما بقي الأول بالمغرب ينتظر ظهور الإمام المهدي ونزول عيسى عليه السلام، توجه محمد بن الأحرش وأتباعه إلى مصر وقاد من هناك حركة مقاومة شديدة المفعول، جاعلا من نفسه «المهدي المنتظر».

أما الشيخ محمد بن عبد السلام الناصري الذي كان عائداً لتوّه من حجته الثانية[٥٢] فقد أبى، وهو يدون رحلته المسماة بـ **الرحلة الصغرى**، إلا أن يتوقف قليلاً لينقل لنا من جهة خبر هذا الغزو الذي تعرضت له مصر والشام، ويطلعنا من جهة أخرى على الكيفية التي تعرف بها على قرب جلاء هؤلاء الغزاة عن هذين القطرين المسلمين. كل ذلك تأتى له من خلال رؤية رآها، وهو على فراش منامه. «فكان فيما رأيت في النوم خلال ذلك (خلال سماعه باشتداد سيطرة الفرنسيين على مصر بعد انسحابهم من الشام) والسنة سنة جدب وغلاء بوادينا درعة وما والاه، أن هاتفاً هتف بي قائلاً: يقول لك أحمد وأبو حنيفة، الفجر طلع. فانتبهت فوجدت الناس لم يرقدوا أول الليل، فجرى على لساني:

لك البشارة هذا الفجر قد طلعا ... رآه أحمد والنعمان إذ سطعا

أخال غيثا وفتحا في الوجود معا ... فزال عنا بفضل الله أنه ما قطعا»[٥٣]

ثم زاد، معلقا على هذه الرؤيا: «ثم إن الله تعالى حقق ذلك بغيث وخصب عاجل وفتح آجل. ففتحت مصر بعد عناء وتعب، وأعادها للمسلمين»[٥٤]. وأضاف، مختتما: «وكم فعل الإفرنج بالشام ومصر من هذه الفعلات في سالف القرون كما في التواريخ»[٥٥].

---

(٥٢) كانت حجته الأولى سنة ١١٩٦هـ. أما هاته، فكانت سنة ١٢١١هـ.

(٥٣) محمد بن عبد السلام الناصري، **الرحلة الصغرى**، ص ١٠٦.

(٥٤) المصدر نفسه.

(٥٥) المصدر نفسه، ص ١٠٦ ـ ١٠٧.

يتبين من خلال ما سبق، أن الحملة الفرنسية التي استهدفت مصر والشام شكلت بالنظر إلى حجمها وخطورتها مناسبة هامة لتحريك المعتقد الديني بصفة عامة والصوفي منه على وجه الخصوص لاثنين من شيوخ الطرق الصوفية الأكثر انتشارا آنذاك في المغرب. فاشتغل كل منهما بتأويل هذا الحدث غير المسبوق. لكن، إذا كانت تأويلاتهما قد جاءت فعلا متناقضة، فإنهما لم يريا معا في هذا الغزو أقل من خطر الطاعون أو الجفاف اللذان حلا بالمغرب في تلك السنة، أو شبح التهديد الاستعماري الذي أصبح يحوم حول سواحله. بهذا الشكل أو ذاك، تم الربط في وجدان ومخيلة هذين الشيخين بين ما حل بمصر والشام من غزو واحتلال، وما كان يعانيه المغرب من وباء وجفاف وتهديد أمني، في لحظة انتفت فيها الحدود والمسافات الفاصلة بين المشرق والمغرب، وأصبح مصير الواحد منهما مرتبطا بالآخر؛ إما عن طريق الخلاص النهائي الذي يعادل في تأويل ابن عجيبة قيام الساعة، أو بشارة الفتح التي تساوي عند محمد بن عبد السلام عودة الخصب للمغرب ورجوع مصر للمسلمين.

وكيفما كان الأمر، يتبين لنا بجلاء من خلال هذه النصوص والشهادات، أن شيوخ الزوايا وأتباعهم من رجالات التصوف المشهورين، باعتبارهم جميعا أحد مكونات النخبة المغربية العالمة، تفاعلوا بقوة مع حدث الحملة. فمنهم من تصدر للجهاد بمصر أو المغرب، ومنهم من لاذ بالتأمل محاولا استلهام العبرة الكامنة وراء حدث من هذا النوع ومترقبا ساعة الفرج التي يمكن أن تأتي إما على يد المهدي المنتظر وعيسى بن مريم مما يعني قيام الساعة، أو عن طريق رجوع مصر إلى المسلمين وعودة الأمور إلى حالتها الطبيعية واستئناف التاريخ مسيرته المعتادة.

رابعاً: الشعراء والزجالون

إلى جانب العلماء والخطباء والمتصوفة، تفاعل أيضا الشعراء والزجالون بقوة مع هذا الحدث الاستعماري الذي استهدف مصر والشام. فنظموا القصائد، وضمنوها مشاعرهم ومواقفهم، معبّرين من خلال ذلك عن تفاعلهم مع ما ألَمَّ بإخوانهم المسلمين هناك من غزو واحتلال. كما

لم يفتهم التحذير من تكرار نفس التجربة بالمغرب، فكثفوا دعواتهم إلى أولي الأمر وعموم المغاربة بالاستعداد للجهاد والمرابطة عند الثغور.

وهذا، في نظرنا، أمر غير مستغرب ولا مستحدث. أما كونه غير مستغرب؛ فلأن الشعراء، شأنهم في ذلك شأن صحافيي اليوم، يملكون قدرة عالية على التقاط الأخبار المتفردة وإلباسها مشاعرهم وأحاسيسهم، مستحضرين في ذلك قوة الحدث وجلال الموقف وعمق المسؤولية الفردية والجماعية. فـ «الشاعر باعتباره إنسانا، ثم باعتباره فنانا، مهيأ بحكم طبيعته الحساسة الواعية، وبحكم طبيعة دوره القيادي التقويمي التصحيحي، أن يكون له موقف طليعي، أي موقف مناضل ولو في إطار ذاته الفردية حين لا يستطيع خلق التفاعل مع ذات الجماعة»[٥٦].

أما كونه غير مستحدث، فلأنه ازدهر في الكتابة الشعرية بالمغرب، منذ أن تأججت روح المواجهة العسكرية بين المغاربة والإيبيريين، ما أصبح يعرف بـ«شعر الجهاد» الذي جعل من تحرير الثغور المحتلة ومواجهة التهديد المسيحي موضوعا مميزا له. «فجاء هذا الشعر، بمثابة «فن جديد» يضاف إلى الفنون الشعرية المعروفة في الأدب المغربي، والذي يطلق عليه «شعر الحماسة» في الأدب العربي قديما، أو «شعر الحرب» حديثا»[٥٧].

ورغم أن الشعر «كان قد أصابه الوهن والضعف مما أخمد فيه روح الجودة والأصالة، وما جعله لا ينبض بالحياة ولا يتعمق التجاوب ولا يصدق القول ولا يحمل في ترنيماته وأوزانه وقوافيه ما يدفق العواطف ويبعث فيها الدفء والحرارة»[٥٨]، فقد برز في هذا الفن من الكتابة الشعرية عدد من الشعراء ممن خلفوا لنا قصائد تعد بحق وثائق تاريخية تعكس وقع الأحداث على نفوس المغاربة في مختلف الفترات

---

(٥٦) عباس الجراري، **النضال في الشعر العربي بالمغرب من ١٨٣٠ إلى ١٩١٢**، ط ٢ (الدار البيضاء: دار الثقافة، ١٩٧٨)، ص ١٢.

(٥٧) عبد الحق المريني، **شعر الجهاد في الأدب المغربي: من عهد الأمير يوسف بن تاشفين المرابطي حتى عهد السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام العلوي** (المحمدية: مطبعة فضالة، ١٩٦٩)، ج ١، ص ٢٠.

(٥٨) الجراري، المصدر نفسه، ص ١١.

التاريخية[٥٩]. لذلك، فهي جديرة، في نظرنا، بالبحث والتأمل، وقمينة بالدراسة والتحليل للاستفادة منها في استجلاء صور التفاعل والتضامن التي يمكن أن تكون قد تضمنتها قصائد هؤلاء الشعراء باعتبارهم أحد مكونات النخبة المغربية العالمة.

ـ فماذا كان حظ هذه الحملة العسكرية التي حلت بمصر والشام في اهتمامات الشعراء المغاربة؟

بادئ ذي بدء، نلفت الانتباه إلى أن ما صدر من قصائد شعرية أو زجلية بهذه المناسبة لم يكن أوفر حظا من الخطب التي ألقيت في نفس الموضوع. ذلك، أنه إذا كان من المؤكد أن حدث هذه الحملة قد حظي باهتمام كبير لدى كل من كان يملك القدرة الفنية على صياغة مشاعره وأحاسيسه في قالب شعري أو زجلي، وأن قصائد كثيرة قيلت أو كتبت بهذه المناسبة، فيبدو أن أغلبها طالته عوادي الزمن من نسيان أو ضياع. وربما كشفت لنا تحريات مستقبلية عن وثائق جديدة في هذا الباب. أما ما استطعنا الحصول عليه في الوقت الحاضر، فلا يتعدى ما تخلل قصائد سليمان الحوات من إشارات ضمنية أو صريحة إلى هذا الحدث. إضافة إلى القصيدة الزجلية المسماة بـ «المصرية» التي أفردها ولد ارزين لنفس الموضوع.

اشتهر سليمان الحوات بلقب «شاعر الدولة العلوية» لشدة ما نظم من القصائد الشعرية في هذه الدولة وسلاطينها، وعلى رأسهم مولاي سليمان الذي كان معاصرا له. وقد جمعت أغلب القصائد التي نظمها في هذا السلطان في مؤلف، تحت عنوان: «الأمداح السليمانية»، وقد تناوله عبد الحق الحيمر بالدراسة والتحقيق[٦٠].

(٥٩) للتوسع أكثر في هذا الموضوع، انظر: محمد المنوني، «أدب المغرب البطولي في القرن التاسع عشر،» **آفاق**، العدد ١ (١٩٦٤)، ص ٢٦ ـ ٣١؛ محمد أديب السلاوي، **الشعر المغربي: مقاربة تاريخية** (الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، ١٩٨٦)، ص ٧٧ ـ ١٢٢، وعبد الوهاب التازي، «الشعر في خدمة التاريخ الدولي للمغرب،» **مجلة كلية الآداب** (بني ملال)، العدد ١ (١٩٩٥)، ص ٩ ـ ٢٣.

(٦٠) عبد الحق الحيمر، «الأمداح السليمانية لأبي الربيع سليمان الحوات،» (رسالة جامعية لنيل دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب، ظهر المهراز، فاس، ١٩٨٥).

وإذا كان سليمان الحوات قد اشتهر بغزارة أشعاره في المدائح وما إليها من أغراض شعرية أخرى كالإخوانيات والمولديات، فإنه ركز في عدد من قصائده على الدعوة إلى الجهاد والتحريض عليه كما فعل في عدد من خطبه المنبرية. وهكذا، لم يفت نقيب الأشراف العلميين المتحدر من مدينة شفشاون المجاهدة التي كانت لا تزال تلوك مرارة الهزيمة التي مني بها المسلمون في الأندلس، إضافة إلى ما أصبح يتهددهم من شبح الغزو في عقر دارهم، والمستوطن لمدينة فاس التي كانت تودع وتستقبل جموع الحجاج والتجار القادمين من المشرق وأوروبا، أن يستحضر بقوة وإلحاح مغزى وخطورة ما وقع بمصر من غزو واحتلال، وما يخشى أن يقع مثله بالمغرب. لهذا، وجدناه يدعو في عدد من قصائده إلى أخذ العبرة مما وقع بهذا القطر الشقيق رغم مناعته وبعده عن متناول الأعداء، محذرا في نفس الوقت مما يمكن أن يقع بالمغرب الذي أصبح آنذاك تحت رحمة أساطيل الأمم المسيحية، خاصة منها فرنسا وإسبانيا.

قبل الدخول في تفاصيل هذه المساهمة الشعرية، تجدر الإشارة إلى أن سليمان الحوات لم يفرد قصيدة بعينها لهذا الحدث كما فعل معاصره ولد ارزين، وإنما طرقه من خلال المناسبات التي كان ينظم فيها هذه القصيدة أو تلك، تارة على سبيل التحذير وأخرى على سبيل التذكير. لذلك، جاءت مساهماته في هذا الباب موزعة عبر مجموعة من القصائد. فأول قصيدة يظهر فيها بجلاء حضور الغزوة الفرنسية لمصر في شعره هي رائيته التي يبدو من مضمونها إما أنها نظمت فور تمكن الفرنسيين من احتلال مصر وانتشار بعض الخوف من جراء ذلك في مدن المغرب الشمالية، أو أنها قيلت بعد انتهاء هذه الغزوة واحتلال فرنسا لإسبانيا سنة ١٨٠٨م وتهديدها المباشر للمغرب. إلا أن الذي يهمنا من هذا كله هي العلاقة التي أقامها هذا الشاعر بين ما وقع بمصر من غزو واحتلال وما يمكن أن يقع مثله بالمغرب إذا لم يأخذ المغاربة حذرهم ويخرجوا من حالة الغفلة التي انتابت قبلهم أهل مصر فأوقعتهم في قبضة النصارى، حيث قال:

أيا رب، هذا الغرب منذ فتحته ... لإدريس لم يطرق بساحته كفر

وقويت بالإسلام شوكة أهله ... فكان لهم على النصارى به النصر

فكم مرة ساموه بالغدر خدعة فأهلكتهم ولم يتم لهم غدر
وإن عبروا بحرا إلى قاب أرضنا لأودى بهم من جيشنا القتل والأسر
(. . .)
فيا معشر الإسلام مدوا أكفكم إلى الله بالشكوى عسى يسهل الوعر
ولا تغفلوا بل استعدوا بقوة وهل أخذت إلا بغفلتها مصر
وهذا عدوكم دنا متمردا وقد ضاق من أجناده البر والبحر[٦١].

ويبدو أنه، رغم النداء التحذيري الذي تضمنته هذه القصيدة، لم تصل أصداؤه المرجوة إلى السلطات العليا، وعلى رأسها السلطان مولاي سليمان. لذلك، وجدناه يتوجه في قصيدة تالية إلى شقيقه وساعده الأيمن، مولاي عبد السلام، لإبلاغ ندائه بدرجة أكبر وأقوى، فقال:

يذكرنا فعل الفرنصيص ما جرى بأندلس فكيف نأمن مكره
فهذا لعمري خطب أهمنا إذا كان يرد حول طنجة جمره
وأعدا العدا للمسلمين هوانه تراه لهم يهون اليوم أمره
أليس الذي ضيع الحزم لم يكن إذا ناب الخطب يقبل الله عذره
على أن برهان التمانع لا يفي لحجته لو كان يعرف سره
فيا معشر المسلمين هذا عدوكم دنا بالخبير منه يأخذ حذره
فمصر كما ترون أعظم بلدة تملكه من حيث لم يخش ضره
ونحن اعتصمنا عندما ضاق ذرعنا بعبد السلام عظم الله قدره
فإن له علما وصدق فراسة إلى حكمة تكاد تملأ صدره
يحب جميل النصح دينا لصنوه أجل الملوك أيد الله نصره
أمولاي بالغ في التأمل منتجا فمثلك ممن ليس يهمل فكره

(٦١) المريني، **شعر الجهاد في الأدب المغربي: من عهد الأمير يوسف بن تاشفين المرابطي حتى عهد السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام العلوي**، ج ٢، ص ٨٨ ـ ٨٩.

وإن أمير المؤمنين لمنصف حاشا أن يكدر النصح بحره[٦٢]

يتبين من خلال ما سبق، أن الشاعر سليمان الحوات باعتباره واحدا من الأطر المتميزة التي كانت تتشكل منها آنذاك النخبة العالمة المغربية، تفاعل بقوة مع ما حدث من احتلال فرنسي لمصر. وتحول هذا الحدث، بالنسبة له، إلى سابقة أخرى بعد الأندلس تؤكد العلاقة الصراعية التي ظلت تربط بين المسلمين والنصارى على اختلاف انتماءاتهم الوطنية. كما يبدو، أن سليمان الحوات قد اكتفى، حسب ما توفر لدينا من معلومات عن أشعاره في هذا الموضوع، بتوظيف هذا الحدث في تحسيس وتحريض المغاربة باعتبارهم طرفا مستهدفا، سواء عندما حل الفرنسيون بمصر، أو بعدما تملكوا البرتغال وإسبانيا وأخذوا يعدون العدة لغزو المغرب.

وإذا كانت هموم هذا الشاعر قد بقيت منحصرة في حدود ما يمكن أن يقع لوطنه من قبيل ما حدث بمصر، فإن شاعرا آخر من صنف مغاير خص هذا الحدث التاريخي بقصيدة زجلية تعد بمثابة وثيقة تاريخية لا تقل قيمة عن أي مصدر في هذا الباب. أقصد بذلك، قصيدة «المصرية» أو «الماصرية»[٦٣] التي نظمها الزجال ولد ارزين بهذه المناسبة.

قبل الدخول في تحليل ومناقشة هذه القصيدة الزجلية نشير إلى أن ناظمها هو محمد بن علي الشريف ولد ارزين. ولد سنة ١١٤٥هـ/ ١٧٤٢م، وكانت وفاته سنة ١٢٣٧هـ/ ١٨٢٢م. أصله من بلاد الغرفة بتافيلالت، لكنه عاش بفاس وعُدّ من كبار شعرائها في فن الملحون، حيث لقب بـ «المعلم» و«فاكهة الأشياخ»[٦٤]. له قصائد كثيرة مشهورة في شتى أبواب هذا الفن. لكن، ما يهمنا منها في هذا البحث، هو هذه القصيدة التي أفردها للغزو الفرنسي لمصر.

---

(٦٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٩١ ـ ٩٢، هامش رقم (٩١).

(٦٣) يرجع الفضل في إثبات هذه القصيدة ونشرها بعد التقديم لها والتعليق عليها إلى المرحوم محمد الفاسي. للاطلاع على النص الكامل لهذه القصيدة، انظر: محمد الفاسي: «مشاركة المغرب في الجهاد المصري للحملة الفرنسية،» مجلة **دعوة الحق**، السنة ١٦، العددان ٤ ـ ٥ (١٩٧٤)، ص ٦٣ ـ ٦٤، و«الماصرية،» في: **معلمة الملحون**، سلسلة التراث، ٤ ج (المحمدية: مطبعة فضالة، ١٩٨٦)، ج ٣: **روائع الملحون**، ص ٢٥٦ ـ ٢٥٨.

(٦٤) الفاسي، «مشاركة المغرب في الجهاد المصري للحملة الفرنسية،» ص ٥٨.

تتألف هذه القصيدة من خمسة أقسام وسبعة وعشرين بيتا، وتحظى، في نظرنا، بأهمية خاصة؛ لأنها تحفل بمعلومات تاريخية تؤكد وتكمل ما جاء في مصادر أخرى معاصرة حول الحملة الفرنسية على مصر، سواء من حيث كيفية غزوها واحتلالها وأنواع المظالم والتجاوزات التي ارتكبها الفرنسيون في حق أهلها، أو المقاومة التي ووجهت بها والتي كان للمغاربة فيها، حسب هذه الوثيقة، حظ وافر. أكثر من ذلك، وجدنا هذا الشاعر الذي يبدو أنه كان على اطلاع واسع عما كان يجري آنذاك على الساحة المصرية، يعين لنا بدقة المواقع التي قاتل فيها المجاهدون المغاربة القوات الفرنسية داخل القاهرة، ويعدد لنا أنواع الأسلحة التي استخدموها في ذلك. كما لم يفته، من جهة أخرى، التلميح إلى الأهمية التجارية التي كانت تحظى بها مصر لدى أهل المغرب الأقصى.

خلاصة القول، تنهض هذه القصيدة الزجلية دليلا قاطعا من حيث لغتها ومضمونها على قوة تفاعل المغاربة عموما والنخبة العالمة منهم على وجه الخصوص مع هذا الحدث العدواني الذي استهدف مصر. فهي قصيدة زجلية كتبت بلغة عامية يفهمها جميع المغاربة على اختلاف انتماءاتهم الاجتماعية ومستوياتهم الثقافية، ومشحونة بمشاعر الألم والتعاطف مع ما حل بهذا القطر الشقيق من عدوان واحتلال. وإذا علمنا أن ناظمها هو من أكبر وأشهر زجالي عصره في فاس، علمنا مدى الشهرة والانتشار اللذين ستلاقيهما هذه القصيدة داخل الأوساط النخبوية والشعبية، والأثر القوي الذي ستخلفه داخل هذين الوسطين. ولربما كان لها أيضا دور ما في تأجيج الغيرة الدينية لدى المغاربة، وإيقاظ نادي الجهاد لدى البعض منهم.

لذلك، نقول إنه إذا كانت خطب محمد الرهوني وسليمان الحوات وكذا قصائد هذا الأخير التي كتبت كلها بلغة فصيحة وبقي حيز تداولها محصورا، في الغالب، في أوساط المتعلمين ومحكوما بمناسبات محددة، فإن قصيدة «المصرية» ستتمكن بفضل شهرة ناظمها ولغتها الدارجة والمناسبات العديدة التي ألقيت فيها من الوصول إلى أكبر عدد ممكن من المغاربة، بدءا من العاصمة العلمية فاس، وانتهاء بباقي المدن والحواضر التي كانت على اتصال وثيق بهذه المدينة. ومعنى هذا كله أن حدث الحملة والحديث عنها قد أصبح بفضل هذه القصيدة الزجلية

وغيرها مما سار على منوالها حاضرين بقوة في الأوساط المغربية بمختلف انتماءاتها الاجتماعية ومستوياتها الثقافية.

أما في ما يخص مضمونها، فيبدو، من خلال ما سنورده من أمثلة، أن النخبة العالمة المغربية عموما والشعراء والزجالين منهم على وجه الخصوص كانوا على علم تام بما جرى ويجري داخل مصر من أحداث بسبب ما ألمَّ بها من عدوان فرنسي. كما يبدو أنهم كانوا على وعي تام بخطورة هذا الحدث، ليس فقط على مستوى أمنهم الوطني كما أوحت لنا بذلك بعض أشعار سليمان الحوات، بل أيضا على مستوى مصر باعتبارها «أم المشارق وأم المغارب»، ولا يشبهها بلد «في ساير المغارب إلا أرض مكة والمدينة وقدس والشام»، ومنها يخرج «محمل الكعبة»، و«في كتب ربنا القاهر جات مصر مذكورة»، والحلقة الأقوى في شبكة التسوق والكسب «والبيع والشرا»، ومنها يتزود من أراد زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم.

هذه إذن هي الاعتبارات التي أطرت ووجهت خطاب ولد ارزين في هذه القصيدة الزجلية. وهي، كما نرى من خلال هذه العبارات التي وردت في هذه القصيدة اعتبارات دينية وروحية. لكنها، لا تخلو من إدراك عميق لحقيقة وأهمية الدور الاقتصادي الذي كانت تمثله مصر بالنسبة للمغاربة؛ سواء من كانت هجرته إلى الدنيا (التجارة)، أو الآخرة (الحج والزيارة). وحتى نتمكن من تقريب هذه الصورة أكثر إلى أذهان القارئ ونربط ما ذهبنا إليه من تخريجات بما جاء أصلا عند هذا الشاعر، نسوق بعض المقاطع من قصيدته.

سبق لنا أن أشرنا إلى أن هذه القصيدة تتألف من خمسة أقسام؛ أفرد القسم **الأول** منها، لتأكيد فرضية الجهاد وإبراز فضله، مقرنا الجهاد ضد النصارى بمصر بجهاد رسول الله وصحبه ضد اليهود بخيبر، فقال:

سبحان من فرض علينا الجهاد فرض واجب

واخيار كل موت في الجهاد وكل خير يغنام

لا في البدو ولا آخر

بالجهاد تقوى الإسلام في النصارى

فازوا أهل الجهاد في مصر واهوان كل صاعب

وفي غزوة خيبر فازوا ناس الجهاد الكرام[٦٥].

أما القسم **الثاني** فقد أعطى فيه ولد ارزين لمحة تاريخية عن فتح مصر على يد عمرو بن العاص. ثم ختمه بذكر القصة الطريفة التي كانت تقضي، حسب التقاليد المصرية القديمة، برمي فتاة بكر في النيل حتى يفيض على الشكل المطلوب ويتحقق الخصب والرخاء[٦٦]. وتعرض في الشطر الأول من القسم **الثالث**، لإبراز المكانة الخاصة التي كانت تحتلها مصر بالنسبة للمسلمين، سواء كانوا بالمشرق أو المغرب. ويبدو مما تضمنه هذا القسم من معلومات تفصيلية عن مصر، أن ولد ارزين كان ملما بأحوال هذا البلد، خاصة منه مدينة القاهرة التي يبدو أنه سبق له أن زارها، حيث قال:

ماريت ما يشابه مصر فيساير المغارب

إلا أرض مكة والمدينة وقدس والشام

صالوا بمحمل الطاهر

عنيت محمل الكعبة له الحج والزيارة

في كتب ربنا القاهر

جات مصر مذكورة جات مختيارة[٦٧].

أما الشطر الثاني من هذا القسم، فخصه لوصف الكيفية التي احتال بها الفرنسيون على مصر وما صاحب احتلالهم لها من مظالم وخلفه من أسى في نفوس المسلمين، فقال:

جاها فرنسيس في البحر بسفن والمراكب

وقال جيت من عند الفذ أمان كتاب بفهام.

---

(٦٥) المصدر نفسه، ص ٦٣.

(٦٦) المصدر نفسه.

(٦٧) المصدر نفسه.

تـــاقـــوا بـــســـيـــرة الـــكـــافـــر

والـــبـــلاد مـــعـــهـــم فـــيـــهـــا دار دارة

حـاز الـبـلاد وأصـبـح جـمـهـورهـم غـالـب

حصن سوارها وبنى في القلعة بساط الأحكام

بـــطـــلـــوا مـــســـاجـــد الآجـــر

بـنـى عـلـى بـاب الـحـسـيـن بـطـل الـزيـارة

خـبـارهـا مـن طـول ومـن عـرض فـي الـمـنـاكـب

وبكـات الإسـلام عـلـيـهـا بـكـى الـقـلـوب بـالـدوام

والـــعـــز لـــه جـــا آمـــر

ونـاضـت الـنـفـس فـي أهـل الإيـمـان ولاغـارة[٦٨].

ولم يفت هذا الزجال المغربي، الإشارة في بداية القسم **الرابع**، إلى الانعكاسات الاقتصادية التي ترتبت عن الاحتلال الفرنسي لمصر، والتي مست آثارها بشكل خاص كبار التجار الذين كانت تربطهم بمصر علاقات خاصة. وانبرى، بعد ذلك، يستعرض النجدات التي هبت إلى مصر من جهة الشرق حيث قدم الجيش العثماني وأحمد باشا الجزار، ومن جهة المغرب حيث تقاطر المجاهدون المغاربة لمقاتلة الفرنسيين في أحياء القاهرة، وخاصة منها حي الغورية[٦٩]، فقال:

أخـذا مـا اكـتـاب فـي مـصـر ويـجـول كـل حـاسـب

قـطـع اركـابـهـا مـا تـدخـل إلا تـحـت الاحـكـام

وأطـــيـــان جـــونـــهـــا الـــعـــامـــر

ضـاعـت كـلـهـا لأهـل الـغـنـى والـيـسـارة

(٦٨) المصدر نفسه، ص ٦٤.

(٦٩) هو أحد الأحياء الرئيسة التي اشتهرت بسكنى التجار والحرفيين المغاربة. يتوسط القاهرة ويوجد بجوار حي الأزهر وخان الخليلي والفحامين.

الأتـراك ريـت فـيـهـم رايـات اشـحـال مـن كـتـايـب

وأتـاوا لـلـسـواحـل وطـلـع جـزارهـا مـن الـشـام

وأتـــى شـــحـــال مـــن خـــاطـــر

مـن اوطـان الـمـغـرب لـلـحـرب والـسـقـارة

أهـل الـصـوارم الـمـفـروغـة واقـواس والـنـشـاشـب

ورمـاح لـلـفـتـك والـبـتـرات إلا انـشـق الـحـسـام

والـــبـــالات والـــخـــنـــاجـــر

والـزرايـم لأهـل الـتـلـحـيـق والـعـمـارة

اعـطـوا الـكـشـوط الـبـيـعـة وتـبـرمـوا الـلـوالـب

أصبـحـوا الـمـغـاربـة فـي الـغـوريـة شـاديـن الـحـزام

شـــجـــعـــانـــهـــم وغـــنـــاضـــر

وقـاتـلـوا أوقـتـلـوا فـي حـومـة الـسـقـارة

جـرحـوا كـشـوطـهـا وتـلاقـى مـطـلـوبـهـا وطـالـب

مـغـلـوب لـه جـا غـلابـه وعـلـيـه هـد الـرسـام

الـــرمـــاح غـــيـــر تـــتـــقـــاطـــر

والـسـيـوف حـفـات مـن رقـاب الـنـصـارى

وإلى بالحياة تبقى منهم صار عاطب

وإلـى ابـقـى اداه الـنـكـلـيـز يـسـيـر كـيـف الـغـلام

فـــي أكـــبـــالـــهـــا وقـــنـــاطـــر

مـا يـنـفـدى بـالـمـال ولا بـالاغـارة

هـذي رتـيـة الـكـفـار عـلـى رأي كـل راهـب

مـحـاتـهـم الإسـلام كـيـمـا تـمـحـي الـنـار الـحـطـام

وإلا محية زادجر

أو كسرى في ملوك الفرس دار دارة[70].

يبدو من خلال الأبيات التي ضمها هذا القسم أن ولد ارزين كان على علم بما كان يجري على أرض مصر من مواجهات وتطورات. وربما تهيأ له ذلك عن طريق المشاهدة المباشرة أو السماع. وسواء كان ممن رأى أو سمع، فإن معلوماته تتميز في جانب كبير منها بالدقة، وتعطينا صورة واضحة عن البلدان الإسلامية التي خفت لنجدة المصريين وفي مقدمتهم المغاربة الذين خصهم هذا الزجال باهتمام خاص حين قدم لنا تغطية شبه كاملة لجهاداتهم بالقاهرة وحي الغورية منها على وجه الخصوص.

أما القسم **الخامس** والأخير من هذه القصيدة الزجلية فقد أفرده ولد ارزين لتبشير المغاربة بقرب استعادة مصر لأدوارها التقليدية، المتمثلة في تنشيط الرواج التجاري والزيارات الدينية، وعلى رأسها الحج، فقال:

دابا تجارها تتسوق ويفر كل كاسب

والبيع والشرا يتحرك وتجود به الأيام

اللي رايد يسافر

إيدير زاده والتقوى زاد للزيارة

دابا نشاهد في مصر ثم نشاهد الكواكب

ونزور الحسن والحسين اسباط خير الأنام

دابا نشاهد الطاهر

يا سعادة من زار القاصي لمزارة

عليه الصلاة من الله وعلى كل صاحب

والآل والأزواج والأنصار واسباط سيد الأمم[71].

---

(٧٠) الفاسي، المصدر نفسه، ص ٦٤.

(٧١) المصدر نفسه.

وتجدر الإشارة في الأخير إلى أن هذا الشاعر كان ينهي كل قسم من هذه الأقسام الخمسة بلازمة أو حربة كما يقال في لغة أهل هذا الفن، يزف من خلالها إلى المغاربة بشرى تحرير مصر من الاحتلال الفرنسي، فيقول:

بـشـار الـمـشـارق جـانـا حـتـى لـلـمـغـارب

بـشـر الإسـلام بـيـن مـصـر ولات لـلإسـلام

لـــنـــا ولـــك يـــا مـــصـــر

واجـبـة الـبـشـارة إلا كـيـفـهـا بـشـارة

هكذا إذن، يتبين لنا من خلال هذين النموذجين قوة تضامن وتفاعل النخبة المغربية مع مصر إثر الغزوة التي استهدفتها من طرف فرنسا، منها الشعراء والزجالون من أمثال سليمان الحوات ومحمد ولد ارزين اللذين حوّلا الحملة الفرنسية على مصر إلى حدث وطني يفرض حضوره بقوة في مختلف المناسبات. وفي هذا دلالة واضحة على قوة الوشيجة الدينية التي ربطت دائما بين المغرب وهذا القطر الإسلامي الشقيق.

خامساً: المؤرخون وكتاب الحوليات

تبيّن لنا من خلال الفصول والمباحث السابقة أن خبر الحملة الفرنسية على مصر والشام وما رافقهما من أحداث وتطورات كان حاضرا بقوة على مستوى القيادة السياسية والنخبة العالمة. كما سيتبين لنا من خلال أحد الفصول القادمة أن الأوساط الشعبية نفسها لم تكن بمنأى عما كان يجري من غزو واحتلال بهذين القطرين الإسلاميين.

على قاعدة هذه المعطيات يتأسس سؤالنا عن موقف المؤرخ المغربي من هذه الحملة باعتبارها حدثا تاريخيا فرض نفسه على كل من كان له اهتمام بتدوين الأحداث والوقائع ورصد تجلياتها واستقصاء أسبابها ونتائجها. من هذه الوجهة نعتقد أن المؤرخ من حيث امتلاكه وعيا خاصا بالزمن والأحداث التي تتخلله، وباعتباره عنصرا حيويا من عناصر النخبة المغربية العالمة، كان مرشحا أكثر من غيره لتسجيل

أحداث هذه الحملة والاعتناء بضبط وقائعها ورصد أصدائها وتشخيص أسبابها ونتائجها.

ـ فهل فعلا أنجز المؤرخ المغربي هذه المهمة التوثيقية والتنويرية التي تعتبر من صميم اختصاصاته؟

للإجابة عن هذا السؤال أقترح مراقبة واختبار مواقف أربع شخصيات مغربية اعتبرت في مقدمة من أرخوا لهذه المرحلة التي تمت فيها الحملة، وهم: أبو القاسم الزياني، وعبد السلام الضعيف الرباطي، ومحمد أكنسوس، وأحمد بن خالد الناصري.

نبدأ بكبير هؤلاء المؤرخين وعمدتهم بدون منازع: أبو القاسم الزياني. عاش الزياني في الفترة الممتدة من١١٤٧هـ/ ١٧٣٤م إلى ١٢٤٩هـ/ ١٨٣٣، وتقلد خلال هذه المدة، عدة مهام سياسية وإدارية وخدم أربعة سلاطين، ولُقّب بـ «ذو الوزارتين»، كما اشتهر برحلاته الحجية والسفارية وكثرة تآليفه التاريخية وانخراطه القوي والمثير في قضايا عصره سواء الوطنية منها أو الإسلامية، ونكب بسبب ذلك أكثر من مرة وغرب عن وطنه عدة سنوات[٧٢].

ورغم هذا كله، يفاجئنا هذا المؤرخ بصمته المطلق عن حدث الحملة الفرنسية على مصر والشام، إذ لا نعثر في مصنفاته التاريخية الضخمة على أي أثر لهذا الحدث التاريخي الهام الذي زلزل العالم الإسلامي آنذاك. هذا على الرغم من الصلات القوية التي كانت تجمع بين هذه الشخصية المغربية وبلدان المشرق ككل ومصر منها على وجه الخصوص. نقصد بذلك رحلاته الثلاث التي قام بها إلى هذه الديار، وخاصة منهما رحلته الثالثة التي تنقل خلالها بين الحجاز والشام

---

(٧٢) للإلمام بالمكانة العلمية التي كان يحتلها أبو القاسم الزياني وكذا المهام السياسية والدبلوماسية التي تولى تنفيذها وما تخلل ذلك من محن ونكبات، انظر المقدمة، في: أبو القاسم بن أحمد بن علي الزياني، **«الترجمانة الكبرى» في أخبار المعمور براً وبحراً**، حققه وعلّق عليه عبد الكريم الفيلالي (الرباط: دار النشر للمعرفة، ١٩٩١)، ص ٢٩ ـ ٤٥، والعباس بن إبراهيم، **الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الاعلام**، ٢ مج (فاس: المطبعة الجديدة، ١٩٣٦ ـ ١٩٣٧)، مج ١، ص ٣٩٠ ـ ٣٩٢.

ومصر[٧٣]. ناهيك عن أن تاريخ وقوع هذه الحملة تزامن مع استعادة أبي القاسم الزياني لنشاطه السياسي إلى جانب مولاي سليمان؛ حيث أصبح من المقربين إليه، أو كما قال هو نفسه: «وقلدني أمر الكتابة جبرا وقهرا، وشرفني بديوان رسائله سرا وجهرا، ثم نظمني في سلك حجابته ووزرائه، ثم ألحقني بمنصب أهل إمارته»[٧٤]. يضاف إلى هذا وذاك، اهتمام أبي القاسم الزياني القوي بقضايا إسلامية معاصرة للعدوان الفرنسي على مصر والشام؛ من قبيل هجوماته العنيفة على الحركة الوهابية التي ظهرت آنذاك بالجزيرة العربية، وتشهيره بمن تعاطف معها من الشخصيات المغربية مثل حمدون بن الحاج السلمي[٧٥]. ورغم كل ذلك بقيت الحملة الفرنسية التي أضحت تشكل حديث الخاص والعام بالمغرب خارجة عن دائرة اهتمامات أبي القاسم الزياني التأريخية.

وفي الوقت الذي كان يلوذ فيه أبو القاسم الزياني بالصمت إزاء حدث من هذا الحجم، كانت قلم مؤرخ آخر معاصر له تخط بخجل بعض المعلومات المتفرقة حول ما كان يقع بأرض مصر والشام من غزو واحتلال. نقصد بذلك محمد بن عبد السلام، الشهير بـ **الضعيف الرباطي** الذي عاصر بدوره هذا الحدث التاريخي، وسجل في مصنفه المعروف باسمه **تاريخ الضعيف**، جملة معلومات تعد فريدة في موضوعها. دشن حديثه في هذا الإطار بإيراد خبر هذا الغزو[٧٦]، ثم ذكر في موضع آخر

(٧٣) للوقوف على أهمية العلاقة الوطيدة التي ربطت بين أبي القاسم الزياني وبلاد المشرق عموماً ومصر منها، انظر على وجه الخصوص: محمد حواش: «قراءة في وثيقة مغربية حول أحمد باشا الجزار «المهدي المنتظر»،» **مجلة كلية الآداب** (بني ملال)، العدد ٢ (١٩٩٧)، ص ٦١ ـ ٧٣، و«صورة المشرق من خلال «الترجمانة الكبرى»: مكونات الصورة وحدود التأويل»،» ورقة قدمت إلى: **المغرب ـ المشرق: العلاقات والصورة (أعمال ندوتي مارس ١٩٩٤، ونونمبر ١٩٩٧)**، تنظيم مجموعة الدراسات والأبحاث في العلاقات المغربية المشرقية (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، ١٩٩٩)، ص ٢٤٧ ـ ٢٧٩.

(٧٤) الزياني، المصدر نفسه، ص ٣٨٢.

(٧٥) المصدر نفسه، ص ٣٨٨.

(٧٦) أورد المؤلف هذه المعلومة، في طرة مخطوطته في تاريخ متأخر عن دخول الفرنسيين إلى مصر. وهي موجودة فقط في: محمد الضعيف، **تاريخ الضعيف الرباطي: تاريخ الدولة العلوية السعيدة من نشأتها إلى أواخر عهد المولى سليمان، ١٠٤٣هـ/ ١٦٣٣م ـ ١٢٣٨هـ/ ١٨١٢م**، دراسة وتحقيق محمد البوزيدي الشيخي، ٢ مج (الدار البيضاء: دار الثقافة، ١٩٨٨)، مج ٢، ص ٥٦١.

اليوم والتاريخ اللذين ورد فيهما خبر هذا الغزو إلى فاس[٧٧]. وبنفس الدقة سجل خبر البعثة التي أرسلها داي الجزائر إلى مولاي سليمان في نفس الموضوع[٧٨]. ثم أكد في مكان آخر خبر هذا الغزو من خلال ما نقله حجاج أهل سوس إثر عودتهم من المشرق[٧٩]. كما لم تفته الإشارة إلى الحرب التي خاضها الشيخ الجيلاني السباعي المغربي ضد هذه الحملة بإقليم الصعيد[٨٠]. إلا أنه لم يعد إلى طرق هذا الموضوع مجددا، إلا سنة ١٢١٦هـ حينما ذكر أنه في منتصف جمادى الثانية من هذه السنة، «ورد الخبر للرباط وسلا، أن المسلمين أخذوا مصر من أيدي النصارى الفرنسيس»[٨١].

ورغم ذلك، يخلف لدينا الضعيف الرباطي استغرابا لا يقل حدة عما تركه معاصره أبو القاسم الزياني. وذلك لعدة أسباب، منها: قلة هذه المعلومات، وعدم دقتها في بعض الأحيان. فكما رأينا، لم يتجاوز عددها ستة: أربع منها تخص خبر أخذ الفرنسيين لمصر، والخامسة تتحدث عن استخلاصها منهم. أما السادسة، فتتعلق بجهادات أحد العلماء المغاربة ضد هذه الحملة. ومعنى هذا، أن ما سجله الضعيف الرباطي بخصوص هذا الحدث التاريخي الهام لا يكاد يتجاوز خبر الدخول والخروج. وكأن هذا المؤرخ المولع بالتقاط تفاصيل الأحداث لم يعلم من خبر هذه الحملة التي استغرقت ثلاث سنوات وتخللتها عدة أحداث وثورات، إلا هذه المعلومات التي تكاد تُعَد على رؤوس الأصابع. هذا إضافة إلى الخلط والأخطاء اللذين تخللا بعض أخباره[٨٢].

---

(٧٧) الضعيف، **تاريخ الضعيف: تاريخ الدولة السعيدة**، ص ٣١٢.

(٧٨) المصدر نفسه.

(٧٩) المصدر نفسه، ص ٣١٣.

(٨٠) المصدر نفسه، ص ٣٨٩، هامش رقم (٢٤٧٣). أورد المؤلف هذه المعلومة في طرة مخطوطته وفي تاريخ متأخر من وقوعها.

(٨١) المصدر نفسه، ص ٣٢٣.

(٨٢) ذكر المؤلف أن الفرنسيين استولوا على مدينتي درنة وبنغازي الليبيتين. وهذه معلومات خاطئة، لم ترد في أي من المصادر المعتمدة في هذا الموضوع. انظر: الضعيف، **تاريخ الضعيف الرباطي: تاريخ الدولة العلوية السعيدة من نشأتها إلى أواخر عهد المولى سليمان، ١٠٤٣هـ/ ١٦٣٣م ـ ١٢٣٨هـ/ ١٨١٢م**، ج ٢، ص ٥٦٠ ـ ٥٦١.

ونلاحظ، من جهة أخرى، أن عدم دقة هذه المعلومات وقلتها، يتناقضان مع أمرين مهمين في حياة هذا المؤرخ؛ منها **أولا**: إقامته بمدينة فاس خلال القسم الأكبر من سنة ١٢١٣هـ/١٧٩٨م التي تم في مستهلها دخول الفرنسيين إلى مصر، الشيء الذي كان يوفر له إمكانية خاصة لمتابعة تطورات هذا الحدث بشكل أكثر كثافة ودقة، نظرا للموقع الخاص الذي كانت تحتله هذه المدينة باعتبارها إحدى عواصم المغرب الكبرى ومركز تجمع وانطلاق ركب الحاج المغربي وعودته من المشرق. أما مستوى التناقض **الثاني**، فيتجلى في أن انتقاله إلى الرباط ابتداء من شهر ذي القعدة من نفس السنة أتاح له فرصا إضافية لالتقاط أخبار هذه الحملة نظرا إلى ما كان يتوفر بالعدوتين من جالية أجنبية مهمة وعلى رأسها أعوان القنصليتين الفرنسية والإنجليزية، الذين كانوا يباشرون دعاية واسعة لصالح بلديهما، فيوزعون المناشير ويترجمون الصحف.

وسيزداد استغرابنا هذا حدة عندما نعلم أن الضعيف الرباطي كان يولي اهتماما غير عادي لتسجيل بعض «الإنجازات» الشخصية؛ كأن يذكر في بعض تقاييده اليومية أنه فتح في التاريخ واليوم الفلانيين رياحة في داره[٨٣]. ثم يعود ليقول إنه وضع في يوم كذا وتاريخ كذا دفة للرياحة التي فتحها سابقا بداره[٨٤]. كما لم يفته تسجيل الرؤى التي كان يراها في منامه[٨٥]. ناهيك عن استغراقه في تقصي تفاصيل المعارك التي كان يخوضها الوهابيون بالجزيرة العربية ضد جيش محمد علي الكبير صاحب مصر[٨٦]. أما إذا أضفنا إلى هذا كله كثافة تنقلات هذا الرجل بين عدد من عواصم المغرب وقراه ومداشره، وممارسته مهنة «العدول» بالرباط، وانتسابه لسلك الشرفاء، ونسجه علاقات متميزة مع جهات علمية ومخزنية عليا، فسيزداد استغرابنا هذا وتتقوى شكوكنا في كفاءة هذا المؤرخ إن لم يكن في نزاهته.

---

(٨٣) الضعيف، **تاريخ الضعيف: تاريخ الدولة السعيدة**، ص ٣٠٧.

(٨٤) المصدر نفسه، ص ٣٠٩.

(٨٥) المصدر نفسه، ص ٣٠٨.

(٨٦) المصدر نفسه، ص ٣٦٤.

وامتدادا لهذه المدرسة التاريخية المغربية التي مثّل أحد قطبيها كل من أبي القاسم الزياني ومحمد بن عبد السلام الرباطي، نسائل، من نفس الزاوية، مؤرخين متأخرين نسبيا، لكن مصنفيهما يحظيان بمرجعية قوية في مضمار التاريخ الوطني. أقصد بذلك محمد أكنسوس صاحب **الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا السجلماسي**، وأحمد بن خالد الناصري، صاحب **الاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى**.

الواقع، أن هذين المؤرخين لم يكلفا نفسيهما عناء الالتفات إلى هذا الحدث التاريخي الهام، شأنهما في ذلك شأن كبيرهما أبي القاسم الزياني. فأكنسوس الذي عاش في فترة قريبة من وقوع هذه الحملة، لخص أحداث السنوات الثلاث التي استغرقتها، في أقل من صفحة لم يتجاوز فيها الأحداث الوطنية(٨٧)، رغم انخراطه القوي في الشأن السياسي الوطني، وحرصه الشديد على التحقق من أخبار الحركة الوهابية التي تزامنت أحداثها مع الحملة الفرنسية على مصر والشام(٨٨). أما أحمد بن خالد الناصري الذي استقصى في مؤلفه التاريخي أخبار المغرب الأقصى خاصة الفترة الحديثة منه، فلم ينل منه حدث هذه الحملة أدنى نصيب، حيث جاء كلامه على السنوات الثلاث التي استغرقتها في أقل من صفحة قتصر فيها على الأحداث الوطنية(٨٩).

لكن، إذا كان المؤرخ «الرسمي» المحترف قد عطلت قلمه وربما ألجمت لسانه اعتبارات معينة منعته من الخوض في تفاصيل هذا الحدث، فإن مؤرخين من الدرجة الثانية، أو ممن يصعب حتى إدراجهم ضمن خانة المؤرخين المحترفين، كفّروا عن هذا الإهمال أو التقصير الذي شاب سلوك من عاصرهم أو سبقهم من المؤرخين الكبار، حين ضمنوا مصنفاتهم إشارات مهمة بخصوص هذا الحدث قل نظيرها وربما انعدم حتى في المصادر التاريخية الموثوقة.

---

(٨٧) محمد بن أحمد أكنسوس، **الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا السجلماسي**، تحقيق أحمد بن يوسف الكنسوسي (مراكش: المطبعة والوراقة الوطنية، ١٩٩٤)، ج ١، ص ٢٨١.

(٨٨) المصدر نفسه، ص ٢٩٠ ـ ٢٩٣.

(٨٩) الناصري، **كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، مج ٧، ص ١٣٨.

نذكر من بين هؤلاء صاحب كتاب **الابتسام في دولة ابن هشام**[٩٠]، الذي يبدو أن أحد الباحثين قد قطع بنسبته إلى الكاتب المخزني أبي العلاء إدريس[٩١]. أقام مؤلف هذا الكتاب بمصر ست سنوات، بدءا من سنة ١٢٣٦ هـ/ ١٨٢٠ـ١٨٢١م، واجتمع هناك بعدد من العلماء والفقهاء ممن عاشوا أيام الحملة، لأنه كان يدرس بجامع الأزهر الشريف. فاستقى منهم ومن غيرهم معلومات هامة حول كيفية دخول «بني الأصفر لأرض مصر واستيلاؤهم عليها»، وما كان لأحمد باشا الجزار معهم من معارك بالشام. وإضافة إلى مساهمته الشخصية التي استغرقت منه بضع صفحات قص المؤلف تاريخ الحملة مباشرة من «تحفة الناظرين فيمن تولى حكم مصر من الولاة والسلاطين» لمؤلفه الشيخ عبد الرحمن الشرقاوي، رئيس ديوان القاهرة أيام الحملة[٩٢]، وهو مصدر شحيح المعلومات ومختصر جدا، إلا أنه صادر عن شخصية مصرية لعبت دورا مركزيا زمن الحملة. لذلك، اختاره هذا المؤرخ المغربي لتتميم وتدعيم روايته الشخصية لأحداث هذه الحملة.

أما محمد بن عبد السلام بناني الذي حل بمصر في السنة الموالية لخروج الفرنسيين منها، فشكل استثناء حقيقيا بالنسبة لكل من عاصرهم من المؤرخين المغاربة عندما خص موضوع الحملة بقدر وافر من الاهتمام في كتابه الموسوم بـ **تحلية الآذان والمسامع بنصرة الشيخ أبي زكريا العلامة الجامع**. فلم يفته في هذا المؤلف التراجمي أن يعرف بخبر دخول الفرنسيين مصر، معبرا في الوقت نفسه عن عظيم سخطه وعميق تذمره، حيث قال: «وحيث جرى في الكلام المتقدم ذكر فتح إصطمبول التي هي من أعظم مدن الإسلام أدامها الله كذلك، فلنذكر ما حدث

(٩٠) يحمل هذا المؤلف عنوانا آخر، هو **ديوان العبر في أخبار القرن الثالث عشر**. ويوجد مخطوطاً بالخزانة الحسنية، تحت رقم ١٢٤٩٠.

(٩١) خلافاً لعبد الله العروي وعبد السلام حيمر اللذين اعتقدا أن صاحب هذا المؤلف هو إدريس الجعيدي، يبدو أن أحمد المكاوي قطع بنسبته إلى الكاتب المخزني أبي العلاء إدريس. انظر: أحمد مكاوي، «التحديث الأوروبي في مصر خلال القرن التاسع عشر ضمن كتابات مغربية،» ورقة قدمت إلى: **المغرب ـ المشرق: العلاقات والصورة (أعمال ندوتي مارس ١٩٩٤، ونونمبر ١٩٩٧)**، ص ٨٥، هامش رقم ٢.

(٩٢) مجهول، «الابتسام عن دولة ابن هشام،» (مخ. خ. ع.، ك٢٣٠١)، ص ٢٢ ـ ٢٥.

بمصر من استيلاء النصارى الفرنسيس دمرهم الله ولعنهم، على مصر القاهرة وعلى من بها من المسلمين ودخولهم لها وإقامتهم فيها وما حدث بسبب ذلك من البلاء لأهلها إلى أن فتح الله سبحانه وأخرج منها الكفرة المردة عبدة الصليب أخزاهم الله»[٩٣].

لكن، «سبب هذا الدخول وتعيين وقته وبيانه»، لم يأت به محمد بن عبد السلام بناني من مصادر مجهولة أو اعتمد فيه على كتاب بعينه كما فعل صاحب كتاب **الابتسام**، بل استقاه مما حدث به «الشيخ الفقيه العالم العلامة أبو عبد الله سيدي محمد بن محمد الأمير[٩٤] بمنزله بالقاهرة المحروسة ليلة الثلاثاء في شوال من عام سبعة عشر ومائتين وألف[٩٥]، و«قيدها عنه بعض فقهاء مراكش من الحجاج الذين سبقونا إلى مصر في البحر»[٩٦]. ومن خطه نقل المؤلف. كما كان له هو بدوره لقاء مباشر مع شيخ الإسكندرية، ودار بينهما حديث حول هذا الموضوع. وإذا صح أن شيخ الإسكندرية هذا هو محمد المسيري وليس أحمد الدميري كما جاء في هذه المخطوطة[٩٧]، وعلمنا أن هذين

(٩٣) محمد بن عبد السلام بناني، «تحلية الآذان والمسامع بنصرة الشيخ أبي زكري العلامة الجامع،» (مخ. خ. س. رقم ٣٤٥)، ج ٢، ص ٢٩٨.

(٩٤) كان الشيخ محمد الأمير من فقهاء المالكية الكبار. اشتهر هو وابنه محمد بتقديم العون والمساعدة للحجاج المغاربة خلال مرورهم بالقاهرة. توفي سنة ١٢٣٢هـ. للتوسع أكثر في ترجمته، انظر: الزركلي، **الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**، ج ٧، ص ٧١؛ الكتاني، **فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات**، ج ١، ص ٩٢، وعبد الرحمن الرافعي، **تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر**، ٢ ج، ط ٤ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨١)، ج ٢، ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

(٩٥) بناني، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٩٨.

(٩٦) المصدر نفسه.

(٩٧) يرجح لدينا كثيراً أن شيخ الإسكندرية الذي التقى به محمد بن عبد السلام بناني وحاوره في موضوع الحملة هو محمد المسيري وليس أحمد الدميري كما ورد في هذه المخطوطة. وذلك، لعدة اعتبارات، أهمها: أن شيخ الإسكندرية المعروف حتى ذلك التاريخ هو الشيخ محمد المسيري. مصداق ذلك ما أورده الجبرتي في شأنه حينما قال: «وعندهم [أهل الإسكندرية] رجل من الفقهاء المالكية يسمى الشيخ محمد المسيري، يلقي لهم الدروس ويقرر لهم فقه الإمام مالك، ويظهر التزهد عما بأيديهم، ويتورع عن الشبهات، ويتباعد عن المحرمات. فاجتمعت قلوبهم على محبته، وعكفوا على طاعته؛ بحيث صار مرجعهم في كل الأمور. فإذا دهمهم أمر فزعوا إليه وعرضوه عليه وانتظروا رأيه واستمعوا لما يقوله ويبديه. فإن أمرهم بأمر امتثلوه، أو =

الشيخين المصريين عاينا وعايشا أحداث الحملة وكان لهما اطلاع واسع على مجرياتها بحكم مشاركتهما في الدواوين التي أنشأها نابليون، أمكننا تصور القيمة التوثيقية أو التأريخية لهذا المصدر المغربي الذي كان هم صاحبه موجها أساسا للترجمة وليس التأريخ. ومما يضفي قيمة أكثر على إسهام هذا المؤلف المغربي في التعريف بالحملة، هو تعرضه لذكر أخبار الشيخ الجيلاني وحربه ضد الفرنسيين بصعيد مصر، ثم مرضه ووفاته هناك، مذكرا في الوقت نفسه بكيفية خروجه من المغرب وحجه ومجاورته بالحرمين الشريفين ومراسلاته لبعض أصحابه بالمغرب وعلاقته المتوترة بمولاي سليمان.

يضاف إلى هذا وذاك بعض المساهمات المتواضعة التي تخللت مؤلفات مختلفة من قبيل «الرحلة الصغرى» لمحمد بن عبد السلام الناصري[(٩٨)]، و«ذخيرة الأواخر والأوائل فيما يتضمن من أخبار الدول» للعربي المشرفي[(٩٩)]، أو «زبدة التواريخ وزهرة الشماريخ» لمحمد بن الأعرج السليماني[(١٠٠)]، وبعض التقاييد الشخصية؛ مثل ما تضمنته كناشة

= نهاهم عنه اجتنبوه. فإذا أراد أحد من الحكام أو غيرهم التعرض لأدنى شخص منهم من غير وجه حق وأعلموه بذلك وأمرهم فيه بأمر، بادروا جميعاً إليه وربما ضربوه وأخرجوه من بينهم». انظر: عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، **تاريخ مدة الفرنسيس بمصر، محرم ـ رجب ١٢١٣هـ، ١٠ يونيو ـ ديسمبر ١٧٩٨م**، قدّم له وحققه وترجمه [إلى الإنكليزية] ش. موريه (ليدن: إ. ج. بريل، ١٩٧٥)، ص ٤٢. كما أكدت مصادر أخرى أنه شارك في ديوان الإسكندرية، بل جعله نابليون رئيساً له. وامتد به العمر إلى ما بعد خروج الحملة من مصر. إضافة إلى هذا وذاك، اشتهر هذا العالم المالكي ذي الأصل المغربي شأنه في ذلك شأن الشيخ محمد الأمير، بصلاته القوية بالمغاربة؛ سواء منهم المقيمين بالإسكندرية أو الطارئين عليها في مواسم الحج والتجارة. أما أحمد الدميري الذي ورد ذكره في هذه المخطوطة، فلم نجد له أثراً في المصادر المعلومة لدينا. لذلك نعتقد أن ناسخ هذه المخطوطة ربما وقع في التصحيف، سيما إذا لاحظنا أنه لا يوجد كبير اختلاف من حيث النسخ بين المسيري والدميري. ناهيك عن التقارب الكبير الموجود أصلاً بين اسمي أحمد ومحمد. للمزيد من التفصيل حول هذه الشخصية العلمية والسياسية وتبيّن أوجه العلاقة التي ربطت بينها وبين المغرب، انظر: عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ٣ ج (بيروت: دار الجيل، [د. ت.])، ج ٣، ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧، وج ٤، ص ٥١ و٥٦.

(٩٨) الناصري، **الرحلة الصغرى**، ص ١٠٦ ـ ١٠٧.

(٩٩) العربي المشرفي، «ذخيرة الأواخر والأوائل فيما يتضمن من أخبار الدول،» (خ.خ.ع.، ك ٢٦٥٩)، ضمن مجموع، ص ٣٤٣.

(١٠٠) محمد بن الأعرج السليماني، «زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ،» (مخ.خ.ع.، د ٣٦٥٧)، ص ١٤٧.

المشاط[١٠١]، وما اشتمل عليه تقييد لعبد السلام الفشتالي في وباء الطاعون لسنة ١٢١٣هـ[١٠٢]. وغير ذلك من الإشارات المتفرقة.

خلاصة القول، إن المؤرخين وكتاب الحوليات المغاربة الذين مثّلوا في عصرهم إحدى مكونات النخبة العالمة لم ينفعلوا مع هذا الحدث التاريخي الهام بالقدر الذي كان ينتظر منهم؛ إذ في الوقت الذي لم يلتفت إليه أبو القاسم الزياني بأدنى إشارة، ولم يظفر من الضعيف الرباطي إلا بلفتة يسيرة لم تتجاوز تاريخ دخول الحملة مصر وتاريخ خروجها منها، مر عليه محمد أكنسوس وأحمد بن خالد الناصري اللذان شكلا امتدادا لهذه المدرسة مرور الكرام. ولم يستثن من هذه القاعدة سوى بعض من حل بمصر من الشخصيات العالمة المغربية ممن لم يكن لهم سابق اهتمام بالكتابة التاريخية؛ مثل محمد بن عبد السلام بناني وأبي العلاء إدريس. هذا، بينما أهملته شخصيات أخرى عاصرت نفس الحدث ومثّلت قمة التأليف التاريخي في هذه الفترة

ونعتقد أن عدم اهتمام مؤرخين من هذا الحجم بحدث من هذا النوع يحتاج إلى تفسير، خاصة إذا علمنا أن هؤلاء المؤرخين كانوا يتوفرون بحكم وظائفهم وارتباطاتهم على وسائل وفرص تمكنهم من متابعة تطورات هذا الحدث في أدق تفاصيله، وأن شخصيات أخرى من النخبة العالمة، من أئمة وخطباء ومتصوفة وشعراء، تجاوبوا بطرقهم الخاصة مع ما حل بمصر والشام من احتلال فرنسي. ناهيك عن أن عددا من الكتاب ممن يصعب إدراجهم ضمن خانة المؤرخين المحترفين انفردوا بإشارات مهمة إلى هذا الحدث.

ليس من السهل تحديد سبب بعينه لتفسير إحجام المؤرخين المغاربة عن الكتابة في هذا الموضوع. لكن، يمكننا الاجتهاد في تسطير بعض الملاحظات التي من شأنها أن تساعدنا على إلقاء الضوء على الخلفيات

---

(١٠١) محمد المنصور، «مصدر جديد لدراسة التاريخ الاجتماعي للمغرب عند مطلع القرن الثالث عشر: كناشة المشاط،» في: **متنوعات محمد حجي** (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٨)، ص ٢.

(١٠٢) الفشتالي، «تقييد في وباء الطاعون،» ورقة، ١٢٥/ب.

التي أطرت، بشكل غير مباشر، هذا الموقف السلبي تجاه حدث بهذا الحجم وبمثل هذه الخطورة.

تبين لنا من خلال عدة مقارنات أن سلوك المؤرخ المغربي بهذه المناسبة لا يشكل استثناء، بل يندرج ضمن ظاهرة عامة شملت جل المؤرخين المسلمين بما في ذلك المصريين والشوام. فعلى الرغم من كثافة النخبة العالمة بكل من مصر والشام واحتكاك أفرادها المباشر مع واقع الحملة في مختلف مراحلها، لم يؤرخ لها بشكل جدي سوى الشيخ عبد الرحمن الجبرتي في مؤلفيه: **مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس**(١٠٣) **وعجائب الآثار في التراجم والأخبار**(١٠٤)، والمؤرخ الشامي، المعلم نقولا الترك، في كتابه **ذكر تملك جمهور الفرنساوية للديار المصرية والشامية**(١٠٥). أما شبه الجزيرة العربية التي كان أهلها يعاينون عن كثب أحداث هذه الحملة بحكم قربهم ومجاورتهم لكل من مصر والشام فلم يتطوع منهم للكتابة عن هذا الحدث، حسب علمنا، سوى لطف الله جحاف ضمن مصنفيه **قرة العين بالرحلة إلى الحرمين**(١٠٦) درر نحور العين بسيرة الإمام المنصور علي وأعلام دولته الميامين(١٠٧). أما في ما يخص بلدان المغرب العربي فلا نعلم مؤرخا كرس أحد كتبه لتغطية أحداث هذا العدوان العسكري، بل اقتصرت مساهماتهم على بعض الإشارات المتقطعة.

ونلاحظ، من جهة أخرى، أن عدم اكتراث المؤرخ المغربي، لم

---

(١٠٣) المصدر نفسه.

(١٠٤) المصدر نفسه.

(١٠٥) حقق هذا المصدر، أكثر من مرة تحت عناوين مختلفة نخص منها بالذكر: نقولا الترك، **حملة بونابرت إلى الشرق**، دراسة وتحقيق أمل بشور (طرابلس، لبنان: جروس برس، ١٩٩٣).

(١٠٦) لم يتم العثور على هذا المصدر الهام. انظر: **نصوص يمنية عن الحملة الفرنسية على مصر**، نشر وتحقيق سيد مصطفى سالم (صنعاء: مركز الدراسات اليمنية، ١٩٨٩)، ص ٨٧.

(١٠٧) تم تحقيق القسم الأول من هذا المصدر مؤخراً، من طرف حسين عبد الله العمري، انظر: لطف الله بن أحمد جحاف، **حوليات المؤرخ جحاف: السنوات الأولى من سيرة المهدي عبد الله، ١٢٣١ ـ ١٢٣٣هـ/ ١٨١٦ ـ ١٨١٨م** (دمشق: دار الفكر، ١٩٩٨). لكن هذا القسم المحقق، لا يضم أية إشارة إلى الحملة، لأنه يتوقف قبل تاريخ حدوثها.

يقتصر على الحملة الفرنسية على مصر، بل طال أيضا مجموعة من الأحداث الدولية الهامة التي كانت تجري آنذاك خارج المغرب. وأخص بالذكر منها الثورة الفرنسية التي أنجبت حملة نابليون على مصر، وحملة فريزر (Fraser) الإنجليزية التي أعقبت هذه الأخيرة سنة ١٨٠٧[١٠٨]، وتجربة محمد على باشا الإصلاحية، وما ترتب عنها من فتح للسودان وشبه الجزيرة العربية والشام وآسيا الصغرى واليونان.

حاول بعضهم تفسير عدم اهتمام المؤرخين المغاربة بهذه الحملة وما يتصل بها من أحداث مشابهة من خلال إدراجها ضمن ظاهرة عامة تتمثل في إعراض المؤرخين المسلمين عامة عن الخوض في الأحداث المرتبطة بالمعارك التي ينهزم فيها المسلمون أمام القوى المسيحية[١٠٩]. لكن، يبدو أن الإلمام بحيثيات هذه الظاهرة الغريبة يحتاج إلى مزيد من التدقيق.

أما من جهتنا فنحتمل أن يكون للموقف السلبي الذي وقفه هؤلاء المؤرخون الثلاثة من حملة نابليون على مصر والشام علاقة ما بالموقف نفسه الذي وقفه مولاي سليمان من هذا الحدث. ذلك، أنه رغم نداءات الجهاد المتكررة التي وجهها إليه السلطان العثماني سليم الثالث والوفود العثمانية التي حجت إلى المغرب للغرض نفسه لم يقم مولاي سليمان بأي عمل يُعبّر من خلاله صراحة عن تضامنه الفعلي مع مصر والدولة العثمانية بمناسبة هذا العدوان، بل وجدناه يحتفظ بعلاقات جيدة مع فرنسا وحليفتها إسبانيا. لذلك، يحتمل أن يكون هذا الموقف المتحفظ الذي تبنته أعلى هيئة سياسية بالمغرب قد سبب نوعا من الإحراج لهؤلاء المؤرخين الذين كانوا ولا شك على علم تام بما يجري بأرض مصر والشام، لكن اطلاعهم على الموقف الحذر الذي اتخذه مولاي سليمان

---

(١٠٨) شهدت مصر خلال هذه السنة حملة عسكرية إنكليزية استهدفت القضاء على محمد علي باشا الكبير وإعادة المماليك إلى الحكم. لكنها مُنيت بفشل ذريع بعد نزولها بمدينتي الإسكندرية ورشيد. للمزيد من المعلومات حول هذه الحملة، انظر: عبد الرحمن الرافعي، **عصر محمد علي**، ط ٥ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٩)، ص ٥٣ ـ ٧٦.

(١٠٩) على سبيل المثال: انظر: Amina Ihrai-Aouchar, «Les Relations du Maroc avec l'Europe à l'époque de la Révolution française et de l'Empire (1789-1815),» *Héspéris-Tamuda*, vol. 28, no. 1 (1990), pp. 31-32.

من هذا الاحتلال جعلهم يؤثرون عدم الخوض في هذا الموضوع تجنبا لما قد يقعوا فيه من إحراج، خاصة وأن أغلب تواريخهم كانت تكتب بأمر من أحد السلاطين وأحيانا على نفقته.

وكيفما كان الحال، فإن كيفية تعاطي المؤرخ المغربي مع حدث الحملة يدفعنا إلى التساؤل عن مدى نزاهة هذا المؤرخ وموضوعيته وقدرته على تمثل واستيعاب ما كان يجري حوله من أحداث وما يستجد من متغيرات على الصعيدين الإسلامي والأوروبي.

خلاصة الفصل الخامس

يستنتج مما سبق أن جل مكونات النخبة المغربية ممن وصلتهم أخبار الحملة وهم مقيمون ببلدهم تفاعلوا بقوة مع هذا الحدث العدواني الذي حل بمصر والشام، وعبّروا عن ذلك بصور وأشكال مختلفة؛ تراوحت بين الخطب الجمعية والقصائد الشعرية، كما ضمنوه نصوص رحلاتهم الحجية ورواياتهم التاريخية، واعتبره البعض منهم إحدى العلامات الممهدة لقيام الساعة، بينما عدّه آخرون دليلا آخر، بعد نكبة الأندلس، على التحول النوعي الذي بدأت تشهده علاقة «دار الإسلام» بـ «دار الكفر». ورغم وعي أفراد هذه النخبة بخطورة العدوان الذي تعرض له هذان البلدان الإسلاميان، فقد عاشوه واشتغلوا به أكثر بوصفه مقدمةً لتهديد «وطني»؛ نظرا لجدية المخاطر التي باتت تهدد بلدهم، وخشيتهم من تكرار نفس التجربة الاستعمارية على أراضيهم.

الفصل السادس

موقف النخبة العالمة من الحملة من خارج المغرب

مقدمة

تركز اهتمامنا إلى حد الآن على استعراض ومناقشة الكيفية التي تجاوبت بها بعض مكونات النخبة المغربية مع الحملة الفرنسية على مصر والشام. وانحصر حديثنا عند هذا المستوى حول الشخصيات الدينية والفكرية التي عبرت عن تفاعلها مع هذا الحدث وهي قابعة بعيدا عن الأرض التي كانت تجري عليها أطوار ذلك الغزو وما أعقبته من ثورات وما تخللته من مواجهة. كما لم تتهيأ لها من جهة أخرى فرصة السفر والاحتكاك المباشر بالقوى الدولية المعنية بهذا الموضوع، وعلى رأسها فرنسا صاحبة هذا المشروع الاستعماري. ومما لا شك فيه أن موقف هذا الصنف من النخبة المغربية سوف لن يسلم من تأثيرات القنوات التي كانت تزوّده بأخبار هذه الحملة، بسبب القصور والتحيز الذي كان يشوب أغلبها.

لذلك، وجب علينا استكمال هذا المحور المخصص لاستقصاء موقف النخبة المغربية من الحملة بفصل آخر نطلع من خلاله على الكيفية التي ستتعامل بها مع هذه الحملة أولئك الذين استدعتهم أسباب دينية أو تجارية أو قرصنية إلى الاحتكاك مباشرة مع جيش الشرق الذي نفذ هذا العدوان أو حكومة الإدارة التي كلفته بإنجاز هذه المهمة. أقصد بذلك المغاربة الذين كانوا يوجدون رهن الأسر لدى فرسان القديس يوحنا بجزيرة مالطا، والحجاج والتجار الذين اضطرتهم أسباب ذاتية أو

موضوعية للسفر إلى المشرق أو إلى فرنسا خلال سنوات الحملة، وصدرت منهم هناك أو بعد عودتهم إلى المغرب مواقف تجاه هذا الحدث، أو خلفوا لنا عنه آثارا مكتوبة.

ـ فكيف ستتعامل هذه الأطراف الثلاثة مع الحملة عندما وجدت نفسها وجها لوجه مع جيش الشرق وإدارته العسكرية بمالطا ومصر، أو حكومة الإدارة بباريس؟

للإجابة عن هذا السؤال نقترح مراقبة مواقف هذه الأطراف الثلاثة عبر ثلاثة مباحث منفصلة، لكنها في واقع الأمر متداخلة. أما المبحث **الأول**، فسنحاول من خلاله الإلمام بالتجربة التي عاشها الأسرى المغاربة بمالطا عندما أصبحت هذه الجزيرة تحت سيطرة جيش الشرق. وسنخصص المبحث **الثاني** لتبين الكيفية التي تعامل بها المغاربة مع هذا الجيش وإدارته العليا وهم بصدد أدائهم لفريضة الحج. أما المبحث **الثالث** والأخير، فيتمثل غرضه الأساس في استجلاء موقف التجار المغاربة الذين اضطروا للسفر والإقامة بفرنسا خلال سنوات الحملة.

أولاً: الأسرى المغاربة بمالطا:
من الجهاد البحري إلى التوظيف الاستعماري

وقع أول اتصال بين المغاربة والحملة الفرنسية على مصر بجزيرة مالطا حيث كان يوجد عدد منهم رهن الأسر لدى فرسان القديس يوحنا. ذلك، أنه بعد طرد هؤلاء الفرسان من فلسطين سنة ١٢٩١م، وإخراجهم من جزيرة رودس سنة ١٥٢٢م، استقروا، منذ سنة ١٥٣٠م، بالأرخبيل المالطي. ومن هناك، نذروا أنفسهم وأموالهم لمقاتلة المسلمين، أو «الكفار» كما كانوا يسمونهم. وقد نجم عن موقفهم العدائي هذا ضد المسلمين نشاط قرصني قوي، استمر من القرن السادس عشر حتى نهاية القرن الثامن عشر. وترتب عنه في الجانب الإسلامي وقوع عدد من الأشخاص في قبضة هؤلاء الفرسان، فأنزلوهم منزلة العبيد واستخدموهم في ميادين شتى، منها على الخصوص الملاحة البحرية، في انتظار مقايضتهم بنظرائهم من الأسرى المسيحيين، أو افتدائهم من طرف ذويهم. فوجد من بين هؤلاء، عدد من الأسرى المغاربة.

ورغم الجهود التي بذلت من أجل افتكاك هؤلاء الأسرى، بقي عدد مهم منهم رهن الأسر إلى حين استيلاء قوات الحملة الفرنسية على هذه الجزيرة في ١١ حزيران/ يونيو سنة ١٧٩٨. هذا الحدث التاريخي ستكون له نتائج جد مهمة؛ لأنه بعد أيام قليلة من استيلائه على هذه الجزيرة وإخضاعها للقانون الفرنسي، أصدر الجنرال نابليون بونابرت أمرا يلغي بموجبه العبودية، الشيء الذي سيترتب عنه تحرير حوالى ألفي أسير مسلم، وجد بينهم عدد غير محدد من المغاربة.

قد يبدو هذا الإجراء متناقضا مع المشروع الاستعماري الذي كان نابليون يباشر تنفيذه، غير أنه يتأسس في واقع الحال على دراسة محكمة، ويندرج ضمن خطة سياسية كانت تستهدف تهيئة الشروط الأمنية والسياسية الضرورية لإنجاح حملته العسكرية على مصر. ذلك أن نجاح هذه الخطة كان يتطلب حتما الأخذ بعين الاعتبار ليس فقط موقف البلد المستهدف بهذه الحملة، بل كذلك موقف البلدان الإسلامية عموما، وبشكل خاص تلك المجاورة لمصر أو القريبة منها. لذلك، لم يتردد نابليون في استغلال ورقة الأسرى المسلمين بمالطا، سعيا منه إلى إيهام حكام الدول الإسلامية وشعوبهم بتضامنه الخادع مع قضيتهم، لا بل ومشاركتهم صراعهم ضد القوى المسيحية، وعلى رأسها فرسان القديس يوحنا.

ما يهمنا من هذا كله هو أنه وجد بين هؤلاء الأسرى الذين عاشوا هذه التجربة الفريدة من نوعها من كان ينتمي إلى المغرب الأقصى. لا نعرف على وجه التحديد كم كان عددهم، كما أننا لا نعرف شيئا عن هويتهم الاجتماعية. ويرجح لدينا أن نسبتهم كانت متواضعة، وذلك لعدة أسباب، منها عمليات التحرير المتكررة التي تكفل بها سلاطين المغرب وعلى رأسهم سيدي محمد بن عبد الله، والتي لا شك أنها طالت بالدرجة الأولى الأسرى المغاربة. يضاف إلى ذلك، أن مجال تحرك فرسان القديس يوحنا لم يكن يتجاوز، على مستوى عمليات القرصنة، حدود الجزائر. أما في ما يخص هويتهم الاجتماعية فالراجح لدينا أن أغلبهم كان يتألف من المجاهدين البحريين والتجار والحجاج وكل من استدعته أسباب قوية للمغامرة بركوب البحر والاقتراب من مجال تحرك

هؤلاء القراصنة. لذلك، ارتأينا إدماجهم، على سبيل التغليب، ضمن خانة النخبة المغربية الذين عايشوا حدث الحملة وتفاعلوا معه خارج المغرب[1].

ـ فما هي إذن حقيقة العلاقة التي ربطت بين هؤلاء الأسرى وتلك الحملة التي نقلتهم على حين غرة وبكيفية غير متوقعة تماما من عالم الأسر والعبودية إلى أوطانهم وذويهم؟

قبل الإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها تجدر الإشارة إلى أن علاقة هؤلاء الأسرى بالحملة الفرنسية لم تتوقف عند حدود تحريرهم من قبضة فرسان القديس يوحنا، بل امتدت لتشمل مرافقتهم لها إلى الإسكندرية. وإذا كان أغلبهم قد عادوا إلى بلدانهم من هناك بعد أن زوّدتهم السلطات الفرنسية ببعض المساعدات، وكلّفتهم بتوزيع المنشور الأول لنابليون داخل بلدانهم، فإنه يبدو من ظاهر إحدى الروايات أن بعضهم رافق جيش الشرق إلى القاهرة ومكث هناك مدة طويلة. وهذا معناه أن هؤلاء الأسرى انقسموا، في ما يخص علاقتهم بالحملة، إلى قسمين: قسم توقفت علاقته بها بمجرد نزولها بالإسكندرية، وقسم ثان دخل معها القاهرة وتمكن من معاينة المعارك الكبرى التي ستتخلل هذه الرحلة. ومما لا شك فيه أن اختلافا من هذا النوع سيترتب عنه اختلاف هام في ما يخص موقف هاتين الطائفتين من الحملة ككل. لذلك، وجب علينا في إطار تقصينا لموقف هؤلاء الأسرى من هذا الحدث أن نستحضر هذا الاختلاف النوعي.

اعتاد الأسرى المغاربة بمالطا أن تأتيهم عمليات الإنقاذ أو الافتداء من جهات إسلامية، مثل بلدهم المغرب الذي اشتهر سلاطينه، وخاصة منهم سيدي محمد بن عبد الله، بتحرير عدد كبير من أسرى المسلمين بهذه الجزيرة المسيحية. لكن عملية الإنقاذ هذه المرة ستتم على غير العادة، على يد القوة المسيحية التي انطلق من إحدى مدنها الإعلان

---

(١) للإلمام بحيثيات وظروف هذا الأسر والتطورات التي شهدها بعد خضوع هذه الجزيرة لجيش الشرق، انظر: محمد رزوق، **دراسات في تاريخ المغرب** (الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، ١٩٩١)، ص ١٧٧ ـ ١٨٢.

البابوي عن بدء الحروب الصليبية، وشكلت المصدر الرئيس لدعم فرسان القديس يوحنا بالمال والرجال. ذلك أن مواقفها الثورية ومصالحها الاستعمارية المستجدة اقتضت، هذه المرة، لعب هذا الدور الذي يتناقض ظاهريا مع هويتها الدينية وارتباطاتها التقليدية مع أخوية مالطا. لذلك لا غرابة إذا استقبل هذا الحدث من طرف أسرى المسلمين عامة بالاندهاش، خاصة وأنه تم بصورة مفاجئة وترتب عنه تحرير جميع الأسرى.

ومما لا شك فيه أنه ستتاح لاحقا لهؤلاء الأسرى الفرصة لمعرفة أسباب ودواعي هذا «العمل الخيري». غير أنهم في التو واللحظة لم يملكوا سوى إكبار وإجلال هذه القوة العسكرية التي انتشلتهم، على حين غرة، من قبضة فرسان القديس يوحنا الرهيبة. ومما سيضاعف لديهم هذا الإحساس اقتران تحريرهم بتفكيك أخوية مالطا التي ظلت إلى ذلك الحين تسومهم سوء العذاب. «لا شيء في الدنيا بإمكانه أن يعطي فكرة عن فرحة هؤلاء التعساء. سجناء مدى الحياة (...) لم يكونوا يحلمون برؤية أوطانهم مرة أخرى، وكل فرنسي كان بالنسبة لهم بشرى غير منتظرة. لذلك، كلما صادفناهم في طرق مالطا نراهم يتوقفون وأيديهم إلى صدورهم (...) يعبرون بتحياتهم الشرقية عن عميق عرفانهم»(٢). بهذه العبارات لخص أحد ضباط الحملة الفرنسية الحالة النفسية لهؤلاء الأسرى بعد تحريرهم من طرف الدولة التي كانت بالأمس القريب تمول وتحمي جلاديهم. أما فيفان دينون (Vivant Denon) الذي كان يرافق الحملة من باب الفضول الفكري والولع الفني بمجتمعات وحضارات الشرق فقد وصف فرحة هؤلاء الأسرى قائلا: «عندما كانوا يلتقون بالفرنسيين كانت عيونهم تنطق بشكل مؤثر بعلامات الاعتراف بالجميل، إلى حد جعلهم يذرفون مرات عديدة دموعهم أمامي»(٣).

علمنا سابقا أن علاقة هؤلاء الأسرى بالحملة لم تتوقف عند حدود الأرخبيل المالطي، بل رافقوها إلى الإسكندرية، شأنهم في ذلك شأن

---

(٢) Louis Reybaud, *Histoire scientifique et militaire de l'expédition française en Égypte*, 10 vols. (Paris: [A.-J. Dénain], 1830), vol. 3, pp. 101-102.

(٣) Vivant Denon, *Voyage dans la Basse et la Haute Egypte* (Paris: Gallimard, 1998), p. 47.

باقي الأسرى المسلمين؛ لأنه لم يكن بإمكان هؤلاء الأسرى الذين قدّرت أعدادهم بألفي فرد العودة إلى بلدانهم بحرا، كما كانت مصلحة نابليون تقتضي اصطحابهم معه إلى الإسكندرية لاستخدامهم حجة بين يدي أهل مصر على «حسن صنيعه» تجاه الإسلام والمسلمين، ثم الاستفادة منهم في تحقيق أغراض أخرى.

لكن، بعد أقل من شهر من اتصالهم بهذه الحملة سيتكشف لدى الأسرى المغاربة ومعهم بقية أسرى البلدان الإسلامية الأخرى الوجه الحقيقي لهذه الإرمادا العسكرية حينما رأوا بأم أعينهم كيف استولى قادتها وجنودهم على مدينة الإسكندرية وأخضعوا ساكنتها لسلطانهم.

ـ فهل سيحتفظ هؤلاء الأسرى بنفس المشاعر الطيبة تجاه هذه الحملة؟

لا نملك جوابا جاهزا عن هذا السؤال، غير أنه بإمكاننا تلمس بعض عناصره من خلال تتبع سيرة هؤلاء الأسرى بالمغرب ومصر. ذلك، أنه بعد دخول نابليون الإسكندرية أذن لجميع أسرى المسلمين، بمن في ذلك المغاربة، بالسفر إلى بلدانهم بعد أن قدم لهم بعض المساعدات وزوّد كل واحد منهم بنسخة من بيانه الشهير الذي سيوزعه بعد قليل على سكان القاهرة(٤). وتوحي بعض الروايات أن الذي قام بإنجاز هذه المهمة الأخيرة هم أسرى مغاربة(٥)، ومعنى هذا أن هؤلاء الأسرى سينقسمون بعد الإنزال الفرنسي بالإسكندرية، إلى قسمين: قسم سيلتحق ببلده، وآخر سيصحب جيش الشرق إلى القاهرة. لذلك، نعتقد أن الإجابة عن هذا السؤال تتطلب الكشف عن ردة فعل هؤلاء الأسرى بشقيهم تجاه العروض التي اقترح عليهم نابليون إنجازها داخل المغرب ومصر.

علّق نابليون بونابرت أملا عريضا على هؤلاء الأسرى في إشاعة «حسن صنيعه» تجاهم داخل المغرب، وتقديم صورة إيجابية عن حملته

---

(٤) Désiré Lacroix, *Bonaparte en Egypte, 1798-1801* (Paris: Garnier 1899), pp. 82-83.

(٥) انظر على سبيل المثال: عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، **مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس**، تحقيق ودراسة وتعليق عبد الرزاق عيسى وعماد أحمد هلال، ٢ ج (القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، ١٩٩٨)، ج ١، ص ١٠٢ ـ ١٠٣، وعزت حسن أفندي الداردنلي، **الحملة الفرنسية على مصر في ضوء مخطوط عثماني: مخطوطة «ضيانامة»**، دراسة وترجمة جمال سعيد عبد الغني، تاريخ المصريين؛ ١٣٤ (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩)، ص ١٣٧.

بمصر كما لخصها البيان[٦] الذي حمّلهم إياه وكلّفهم تبليغه إلى حكامهم ومواطنيهم.

الواقع، أن موضوع هؤلاء الأسرى بقي غفلا من أية إشارة داخل المصادر المغربية والأجنبية. فعلى الرغم من أن تحريرهم شكل حدثا غير مسبوق في مضمار العلاقات الإسلامية ـ المسيحية عموما والمغربية ـ الفرنسية على وجه الخصوص، فإن عودتهم إلى المغرب لم تخلف أي صدى في المصادر التاريخية المعلومة لدينا. أكثر من هذا لم يرد لهم أثر داخل مراسلات الجهات الرسمية المغربية مع نظيراتها الفرنسية. أما أن أنطوان كَليط الذي كان يتشوق لتحرير هؤلاء الأسرى وينتظر عودتهم إلى المغرب بفارغ من الصبر ويلح على ذلك باعتباره ضمانة سياسية لمولاي سليمان فلم يصدر منه أي تأكيد بشأن ذلك.

ورغم هذا وذاك، نقول إن عودة هؤلاء الأسرى وتأكيدهم لخبر القضاء على أخوية فرسان القديس يوحنا سيشكل في حد ذاته دعاية لصالح نابليون. أما أن يقوم هؤلاء الأسرى بالدفاع عن حملته على مصر وتبرير غزوه لها تحت ذريعة القضاء على المماليك وإرجاعها إلى حظيرة الدولة العثمانية، فذلك ما لا نستطيع الجزم به. ذلك، أن خدعة مثل هاته لا يمكن في نظرنا أن تنطلي على هؤلاء الأسرى الذين كان أغلبهم يتألف من المجاهدين البحريين، وفي رصيدهم تجربة طويلة من المعاناة تحت طائلة الأسر والعبودية. وإذا كان قد داخلهم بعض الشك في نوايا نابليون العدوانية تجاه مصر بسبب تخليصه لهم من حالة الأسر والعبودية وقضائه على جلاديهم، فإن مجرد حضورهم لكيفية استيلائه على الإسكندرية وتأكدهم من عزمه على بسط سلطانه على كامل مصر كفيل بجعلهم يراجعون مواقفهم تجاه هذا القائد الفرنسي الذي تمثل لهم قبل أيام في صورة منقذ بعثت به إليهم السماء.

وإذا كان غياب الأدلة المادية قد قادنا إلى اجتهاد من هذا القبيل، فإن توفرها في ما يخص القسم الثاني الذي رافق الحملة إلى القاهرة،

---

(٦) للاطلاع على النص الكامل لهذا البيان، انظر: الجبرتي، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٠٣ ـ ١٠٨.

سيفرض علينا مناقشة من نوع مغاير لعلاقتهم بهذا الحدث.

انحصرت مهمة أغلب الأسرى المغاربة في الترويج للحملة داخل بلدانهم، أو هذا على الأقل ما اعتقده نابليون عندما زودهم بنسخ من بيانه الأول، إلا أن الجبرتي يخبرنا أن هذا البيان، أو المكتوب كما كان يسميه، وصل إلى القاهرة قبل دخول الفرنسيين إليها بواسطة الأسرى الذين وجدوهم بمالطا، ومنهم مغاربة. فقبل الحرب التي وقعت بأنبابة بيوم (٢٠ تموز/يوليو ١٧٩٨)، أرسل الفرنسيون «هؤلاء الأسارى [المسلمين الذين وجدوهم بمالطا] في مراكب لبولاق حيث عرضي[٧] إبراهيم بك، ومعهم عدة نسخ من هذا المكتوب، ومعهم جواسيس من كفار مالطا متزيين بزي الأسارى، لأن كفار مالطا يعرفون العربي، ويتكلمون بلغة المغاربة فلا يكادون يتمايزون عن الأسارى. فكانت أيضا من المكايد الحربية حيث أرسلوا الأسارى الذين معهم لمن ببولاق توصلا لإخفاء الجواسيس فيهم، وليقع في أوهام الناس أنهم لا يأسرون أحدا، لأنهم قد خلصوا الأسارى. وسارت الجواسيس الذين على هيئة الأسارى من المالطية توسوس للناس، وتحل عزايمهم عن القتال، وتتبع حال العرضي. ثم في يوم الحرب خفي الكثير من هؤلاء الأسارى. فلا يدرى أين ذهب. وما ذهب، في الحقيقة، إلا إلى عرضي الفرنسيس ليخبرهم بما شاهد»[٨].

يستنتج من هذه الرواية التي ضمّنها الجبرتي كتابه **مظهر التقديس**، أن هذا المنشور وصل إلى بولاق بواسطة أسرى مالطا من المسلمين، ومنهم مغاربة. لكن، يتبين أيضا أن مهمة أسرى المسلمين بمن في ذلك المغاربة، انحصرت في تبليغ هذا المنشور إلى أهل القاهرة. أما مهمة التجسس فقد أنيطت بـ «كفار مالطا» الذين أخذهم نابليون معه من هذه الجزيرة. إلا أن ضرورات التمويه على جند المماليك وأمرائهم وعامة الناس اقتضت تقمص هؤلاء «الكفار» شخصية الأسرى المغاربة من حيث اللغة واللباس، فتزيوا

(٧) كلمة تركية تعني الجيش أو العسكر الذي يجمع أصنافاً مختلفة من الجند. كما تطلق نفس الكلمة على مخيم الجيش، ويرادفها في هذا المعنى، المعسكر. انظر: أحمد تيمور، **الرتب والألقاب المصرية لرجال الجيش والهيئات العلمية والقلمية منذ عهد أمير المؤمنين عمر الفاروق** (القاهرة: دار الكتاب العربي، ١٩٥٠)، ص ٥١.

(٨) الجبرتي، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٠٢ ـ ١٠٣.

بزي المغاربة لإخفاء حقيقتهم، وتكلموا بلغتهم لكسب ثقة المصريين. وهذا ما أكده فعلا الجبرتي مرة ثانية في كتابه الأخير **عجائب الآثار** الذي راجع فيه كثيرا من رواياته السابقة، لكنه احتفظ تقريبا بنفس المعلومات المتصلة بهذه النقطة. فقال، متحدثا عما أصبح يسميه بـ «المرسوم»: «وقد كانت الفرنسيس حين دخولها الإسكندرية، كتبوا مرسوما وطبعوه، وأرسلوا منه نسخا إلى البلاد التي يقدمون عليها تطمينا لهم. ووصل هذا المكتوب مع مجموعة من الأسارى الذين وجدوهم بمالطة، وحضروا بصحبتهم وحضر منهم جملة إلى بولاق. وذلك قبل وصول الفرنسيس بيوم أو بيومين، ومعهم منه عدة نسخ. ومنهم مغاربة، وفيهم جواسيس. وهم على شكلهم من كفار مالطا، ويعرفون باللغات»(٩).

الإضافة الوحيدة التي امتاز بها هذا النص الأخير مقارنة مع الذي سبقه هي إشارته صراحة إلى وجود مغاربة من بين الأسرى المسلمين الذين كلفهم نابليون بحمل هذا المنشور إلى القاهرة. هذه الإشارة تكتسي في نظرنا أهمية خاصة؛ لأنها تؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن نابليون أبقى فعلا معه على ثلة من الأسرى المغاربة لتوظيفهم في حملته المرتقبة على مصر. وإذا علمنا أن أيا من المصادر الفرنسية لم يشر إلى هذه النقطة أمكننا القول إن هذه الخطة ربما أحيطت بالسرية التامة نظرا للخطورة التي كانت تمثلها في حالة اكتشافها على حياة الجواسيس المنبثين وسط هؤلاء الأسرى ومستقبل الحملة ككل.

لا ندري لماذا وقع اختيار نابليون على أسرى مغاربة لإنجاز هذه المهمة، وقد كان بصحبته عدد كبير من «الأتراك» ممن كانوا أيضا أسرى بمالطا وينتمي البعض منهم إلى الولايات العثمانية المشرقية مثل مصر والشام، كما وجد إلى جانبه، منذ خروجه من فرنسا، عدد من المستعربين، وعلى رأسهم المستعرب الكبير فانتور دو بارادي(١٠)

---

(٩) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ٣ ج (بيروت: دار الجيل، [د. ت.])، ج ٢، ص ١٨٢.

(١٠) للإلمام بحجم ونوعية هذه الثلة من المستعربين أو المستشرقين الذين رافقوا الحملة على مصر، انظر: G. Guémard, «Les Orientalistes de l'armée d'Orient,» *Revue de l'histoire des colonies françaises*, no. 1 (1928).

(Venture de Paradis)، وتزود بعد استيلائه على مالطا بما يكفي من المالطيين ممن كان يتقن اللغة العربية.

فهل فقط «ليقع في أوهام الناس أنهم لا يأسرون أحدا، لأنهم خلصوا الأسارى»، كما جاء ذلك على لسان الجبرتي وهو يحاول إيجاد تفسير مقنع لإرسال هؤلاء الأسرى المغاربة إلى بولاق، أم أن رغبة نابليون في تسريب جواسيسه من «كفار مالطا» إلى القاهرة اقتضت ذلك بسبب تشابه لغة هؤلاء مع المغاربة؟

هذا ما انتبه إليه فعلا الجبرتي حينما قال: «ومعهم جواسيس من كفار مالطا متزيين بزي الأسارى، لأن كفار مالطا يعرفون العربي، ويتكلمون بلغة المغاربة فلا يكادون يتمايزون عن الأسارى». أو كما قال بإيجاز في روايته الأخيرة: «ومنهم مغاربة، وفيهم جواسيس، وهم على شكلهم من كفار مالطا، ويعرفون باللغات». أما نحن فلا نملك جوابا شافيا عن هذا السؤال. لكن، نعتقد أن ما جاء على لسان الجبرتي يتضمن ما يكفي من الأسباب لجعل نابليون يصحب معه هذه الثلة من المغاربة ويستخدمهم على الوجه الذي ذكرناه. لأن هذا أمر تقتضيه، من جهة، سياسته «الإسلامية» التي ضمنها منشوره ذاك، كما يقتضيه، من جهة ثانية، نجاح المهمة التجسسية الصعبة التي أوكل تنفيذها، حسب قول الجبرتي، لـ «كفار مالطا». وهذا كله يتطلب وجود أسرى مغاربة باعتبارهم شهادة حية على مدى صدقية نواياه «السلمية» تجاه المسلمين، وعدائه للمسيحيين الذين لم يظفروا منه سوى بتحطيم كرسي البابا بروما وإلغاء أخوية فرسان القديس يوحنا بمالطا وتشتيت شملهم. وإذا كانت خطته هذه قد راهنت على المدى البعيد، فإن تملكه لزمام العاصمة المصرية وإخراج المماليك منها، كان يقتضي أيضا تسريب جواسيسه من كفار مالطا إلى داخل القاهرة؛ الشيء الذي تطلب منه، حسب ما رأينا، إرفاقهم بمغاربة حتى يتسنى لهم التمويه على عيون المماليك ورقبائهم.

ورغم ذلك، فإن قبول هؤلاء المغاربة الذين لا نعرف هويتهم الوطنية على وجه التحديد، بمرافقة نابليون إلى مصر وتوزيعهم بعد ذلك لمناشيره في مختلف القرى والمدن التي مروا بها، والتي كان آخرها القاهرة، يلقي ظلالا من الشك على حقيقة العلاقة التي ربطت بينهم

وبين هذه الحملة. غير أن ما يشفع لهم تصرفهم ذاك، كونهم لم يروا إلى حدود ذلك التاريخ من هذه الحملة التي كانت تستبطن مشروعا استعماريا حقيقيا، سوى الوجه الإيجابي منها الذي تمثل لهم في تخليصهم المفاجئ من جحيم الأسر والقضاء على جلاديهم. ومما لا شك فيه أنه لم يكن ليخطر على بالهم أن هذين الأمرين سيتحققان على يد هذه القوة المسيحية التي كان ينتمي إليها أغلب فرسان القديس يوحنا. فهذا، في نظرنا، سبب كاف لجعل هؤلاء المغاربة يثقون في المزاعم التي ضمنها نابليون منشوره ذاك ـ والتي ربما شاركوا في كتاباتها بوجه من الوجوه ـ ويحملونه بعد ذلك إلى سكان القاهرة. ومن يدري، ربما قاموا بالدعاية لهم على أوسع نطاق. ألم تقل أحد المصادر العثمانية المعاصرة إن كبار البلد اجتهدوا في كتم هذا المنشور «وإخفائه لئلا يحصل اللغط وتكثر القالة، ورغم ذلك فقد شاع وذاع في شتى الأنحاء، ولم يعد هناك جدوى من كتمه، وبين عشية وضحاها اشتهر فحوى المنشور وعلم به الناس جميعا؟»[(١١)].

لا يجب أن يجعلنا هذا نعتقد أن هذه المهمة الدعائية قد انحصرت في الأسرى المغاربة؛ لأن إشارات قوية ترجح أن أسرى أتراك، لا يقل عددهم عن ستمائة فرد، قد شاركوهم في ذلك. فبينما كان نابليون يوجه من مالطا خطاباته إلى قادة العالم الإسلامي مبشرا إياهم بتحرير أكثر من ألفي أسير مسلم، كان يصدر أمره بتعيين لجنة تتكلف بانتقاء ما يكفي من الأسرى الأتراك لاستخدامهم في مختلف السفن التابعة للأسطول الفرنسي[(١٢)]. وبعد دخوله الإسكندرية أصدر أمرا آخر بإطلاق سراح كل البحارة الأتراك الذين كانوا رهن الأسر بمالطا، ثم أمر بإعطائهم جوازات للذهاب إلى بلدانهم، وزود كل واحد منهم بنسخة عربية من المنشور الذي كان يعتزم إرساله إلى القاهرة[(١٣)]. لهذا، نحتمل أن يكون قد شارك بعض هؤلاء الأسرى الذين توزعت انتماءاتهم الوطنية بين سوريا ومصر

---

(١١) عزت حسن أفندي الداردنلي، **الحملة الفرنسية على مصر في ضوء مخطوط عثماني: مخطوطة «ضيانامة»**، ص ١٣٧ ـ ١٣٨.

(١٢) C.N., Lettre no. 2675, Malte, Ordre au Citoyen Le Roy, 28 prairial an 7 (16 juin 1798), vol. 4, p. 225..

(١٣) C. N., Lettre no. 2736, Alexandrie, 15 messidor, an 6 (3 juillet 1998), vol. 4.

وطرابلس وجزر أخرى تابعة للدولة العثمانية، في تبليغ هذا المنشور إلى سكان القاهرة وغيرها من المدن والقرى. ومما يشجعنا أكثر على هذا الاعتقاد هو عدم حصر الجبرتي، في روايته الثانية، هذا الأمر في المغاربة، حيث قال: «ومنهم مغاربة»، مما يفيد أنه كان يوجد معهم أسرى من بلدان إسلامية أخرى. كما أن المصدر العثماني سابق الذكر لم يتحدث مطلقا عن المغاربة، وإنما أشار إليهم بـ «أسرى المسلمين». ناهيك عن أن البحارة الأتراك الذين وقع عليهم الاختيار للعمل في الأسطول الفرنسي، أظهر بعضهم من التشبث بفرنسا والرغبة في عملهم ذاك وشرب الخمر وأكل لحم الخنزير، ما أدهش أحد الضباط الفرنسيين[١٤].

وكيفما كان الحال، فإن علاقة هؤلاء الأسرى المغاربة بالحملة الفرنسية على مصر، سواء كانوا من المغرب الأقصى أو من غيره من البلدان المغاربية الأخرى، بدأت منذ أن وطئت أقدام جيش الشرق جزيرة مالطا. فاتخذت، منذ البداية طابعا وديا نظرا «لحسن صنيع» الفرنسيين تجاه هؤلاء المغاربة حين نقلوهم بين عشية وضحاها من الأسر إلى الحرية، ورأوا بأم أعينهم صروح أخوية مالطا تتهاوى وفلولهم يطالها التشتت والمهانة. ويبدو من خلال عدد من القرائن أن عددا منهم قد تفاعل إيجابيا مع هذه الحملة، حينما قبل بمصاحبتها إلى القاهرة وتوزيع منشورها بين ظهراني ساكنتها.

لكن، يرجح أن علاقتهم بهذه الحملة قد توقفت عند هذا الحد؛ لأنه لم ترد بخصوصهم أية إشارة بمناسبة الأحداث اللاحقة لا في المصادر العربية أو الأجنبية، باستثناء إشارة واحدة تقول إن عددا من الأتراك الذين كانوا قيد الاستعباد في مالطا قاموا إلى جانب الأهالي بإطلاق نار مكثفة ضد أحد المراكب الفرنسية وهي تبحر في النيل جهة

---

(١٤) نقصد بذلك الضابط لوجيي (Laugier) الذي وصف حالة هؤلاء الأسرى الأتراك بقوله:
«Le Peuple-Souverain en a une soixantaine, qui travaillent avec beaucoup de vigueur et de zèle et qui disent ne plus vouloir quitter le service de la France. Ils mangent du cochon et boivent du vin et disent que le temps de ces superstitions est passé».

انظر: Clément de La Jonquière, *L'Expédition d'Egypte*, 5 vols. (Paris: C. Lavauzelle, 1899), vol. 5, p. 625, marge no. 2.

منوف في الخامس من جرمينال سنة سبعة (٢٥ آذار/ مارس ١٧٩٩)[١٥].

يبدو من ظاهر هذه الرسالة أن الأمر يتعلق بأسرى أتراك، إلا أن الأمر قد لا يكون كذلك؛ لأن عددا من الضباط الفرنسيين كانوا يدرجون كل المسلمين الذين صادفوهم في مالطا تحت مسمى «الأتراك». وسواء أتعلق الأمر بأسرى أتراك أم مغاربة، فالثابت من خلال هذه الإشارة أن بعض هؤلاء الأسرى الذين حاولت سلطات الحملة كسبهم إلى صفها قد وجه نيرانه ضد جنودها، وربما اشتركوا أيضا في ثورة مولاي محمد المغربي التي كانت تجري أطوارها في هذه الآونة بالوجه البحري.

خلاصة القول إن الأسرى المغاربة الذين تم تحريرهم من قبضة فرسان القديس يوحنا بمالطا وجدوا أنفسهم بصورة مفاجئة وغير متوقعة مقحمين ضمن مخطط استعماري كان من الصعب عليهم جدا الإلمام بمراميه وأهدافه لأول وهلة. كما أن انتشالهم على حين غرة من قبضة فرسان القديس يوحنا الرهيبة جعلهم يظهرون تجاه هذه الحملة التي كانت في بدايتها بعض التجاوب. وربما قاد البعض منهم إلى التعاون مع قائدها حصة من الزمن. ويبدو أن علاقتهم بها قد تلاشت بعد أن تأكدوا من الأهداف الحقيقية لهذا المشروع الاستعماري.

ثانياً: الحجاج المغاربة بين فريضتين: الحج أم الجهاد؟

شكل الحج إحدى الممارسات الدينية التي كانت، ولا تزال، تتجسد عبرها بقوة علاقة المغرب بالمشرق. ومما أضفى أهمية خاصة على تأدية هذه الشعيرة الدينية الإطار التنظيمي الذي كانت تتم فيه. فمنذ قرون طويلة اعتاد المغاربة على القيام بهذه الفريضة في موكب جماعي ظل يعرف إلى عهد قريب بـ «ركب الحاج المغربي»، شأنه في ذلك شأن ركب الحاج المصري والتركي والشامي والعراقي وغيرهم[١٦]. وقد امتاز

(١٥) A.M.G., B6 20, Rapport fait par Chalex Grasset, commandant la demie Djerme La Véronaise, au Reybaud, commandant de guerre Chef du quatrième arrondissement à Menouf, 7 germinal an 7 (27 mars 1799).

(١٦) للإلمام بظروف نشأة ركب الحاج المغربي والمراحل التي مر بها، انظر: محمد المنوني، **ركب الحاج المغربي** (تطوان: معهد مولاي الحسن، مطبعة المخزن، ١٩٥٣).

ركب الحاج المغربي عن هؤلاء باشتماله على مجموع حجاج شمال إفريقيا، وربما انضاف إليه في بعض الأحيان حجاج غرب أفريقيا ووسطها[١٧]. كما اشتمل هو بدوره على ركاب متعددة، مثل ركب الحاج الفاسي، وركب الحاج المراكشي، وركب الحج السجلماسي، وركب الحج الشنجيطي، إضافة إلى ركب الحج البحري. إلا أن أهم هذه الركاب جميعا وأشهرها على الأقل، منذ انتهاء دولة الأشراف السعديين، هو بلا جدال ركب الحج الفاسي الذي أضحى على «عهد الدولة العلوية هو ركب المغرب الرسمي، الأمر الذي أكسبه أبّهة وجلالا، جعلاه يضاهي ركب مصر والشام وغيرهما»[١٨].

كان ركب الحاج المغربي يتألف أصلا من الحجاج كما يدل على ذلك اسمه. لكنه، امتاز بشمولية تمثيليته على الصعيدين الجغرافي والاجتماعي، وتعدد أهدافه ومقاصده. فهو يضم، من جهة، حجاجا من مختلف بوادي ومدن المغرب. واتسع، من جهة ثانية، لمختلف فئات وفعاليات المجتمع المغربي؛ من رجالات الدولة والأمراء والأعيان والعلماء والتجار ومطلق أفراد الشعب المغربي. أما هيئته العليا فكانت تتألف من رئيس يسمى «شيخ الركب» و«أمير الركب»، يختاره السلطان من علية القوم وسراتهم، ومن قاض وقائد. وتذهب معه حامية بقصد حراسته[١٩]. أما أهدافه ومقاصده فكانت دينية بالدرجة الأولى. لكنها اختلطت، في الغالب، بطلب العلم أو الاستزادة منه، وممارسة نشاط تجاري مربح يساعد، على الأقل، على تغطية تكاليف السفر والإقامة[٢٠].

لذلك، نقول إن ركب الحاج المغربي كان يختزل بين طياته كل

---

(١٧) محمد محمود السرياني، «رحلة الحج البرية من أقطار غربي إفريقيا ووسطها إلى مكة المكرمة،» **مجلة الدارة**، السنة ٢٦، العددان ١ ـ ٢ (محرم ـ ربيع الثاني، ١٤٢١هـ ـ نيسان/ أبريل ـ تموز/ يوليو ٢٠٠٠)، ص ٢٠٨.

(١٨) المنوني، المصدر نفسه، ص ١٠.

(١٩) المصدر نفسه، ص ١٣.

(٢٠) عن أهمية ركب الحاج التجارية، انظر: عبد الرحمن المودن، **البوادي المغربية قبل الاستعمار: قبائل إيناون والمخزن بين القرن السادس عشر والتاسع عشر**، رسائل وأطروحات؛ ٢٥ (الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٩٩٥)، ص ١٢٢ ـ ١٢٩.

مناطق وشرائح المجتمع المغربي. ويمثل في، الآن نفسه، صورة مصغرة لكنها حية لحقيقة الوضع العام الذي كان يوجد عليه المغرب في هذه الفترة أو تلك من تاريخه.

يستنتج مما سبق أن هذا الركب كان يجمع بين الطابع الرسمي والنخبوي والشعبي. ويتلخص هدفنا من إثارته في إطار هذا المبحث، في تبين الكيفية التي تفاعل بها أفراده مع الحملة الفرنسية التي استهدفت مصر والشام، انطلاقا من كونه إطارا مؤلفا، في الغالب الأعم، من شرائح اجتماعية تمت بصلة قوية للنخبة المغربية من «أهل البيوتات من الناس، وذوي المروءة، وأهل الحفاظ من تجار وفقهاء ورؤساء العشائر»، «خال من الأوباش وكثرة من يغدوا في لاش»[٢١].

قبل الدخول في تفاصيل هذه النقطة تجدر الإشارة إلى أن المصادر المغربية لا تسعف الباحث في تتبع أخبار هذه الركاب خلال سنوات الحملة رغم الأهمية الخاصة التي كان يحظى بها خروج ركب الحاج المغربي من الناحيتين الرسمية والشعبية؛ حيث كان يوم خروجه كما قال الإسحاقي في رحلته: «يوم موعود ومشهود، قل من يبقى بالمدينة إلا خرج وذب ودرج، وذب الرجال والولدان والعبدان»[٢٢]. ويستثنى من هذه المصادر مصنف الضعيف الرباطي حول تاريخ الدولة العلوية. فقد وردت في بعض تقاييده معلومات هامة. غير أنها لا تكفي لتغطية هذا الموضوع. لهذا، وجب علينا الاستعانة بمصادر أجنبية لتقصي أخبار هذا الركب خلال سنوات الحملة.

قبل أن نتطرق للنظر في الكيفية التي تعاملت بها ركاب الحج التي انطلقت من المغرب بعد أن أصبحت مصر تحت سيطرة جيش الشرق، يجدر بنا أن نتوقف قليلا عند تجربة ركب الحج المغربي الذي تصادفت عودته عبر مصر مع نزول الحملة بها.

---

(٢١) هكذا وصف الرحالة الإمام أبي سالم العياشي، أحد الركاب السجلماسية بمناسبة حجته سنة ١٠٧٢ هـ. ذكره: المنوني، المصدر نفسه، ص ٣٥.

(٢٢) انظر: المصدر نفسه، ص ١٥.

١ ـ موسم ١٢١٢هـ/ ١٧٩٧ ـ ١٧٩٨م

في الوقت الذي كان فيه نابليون يثبت سيطرته على القاهرة وضواحيها وجنوده يطاردون فلول المماليك ويقاومون هجمات العربان، كانت الطلائع الأولى لركب الحج المغربي لموسم ١٢١٢هـ تشرف على الدخول إلى مصر. ورغم علمهم بوقوع هذه الأخيرة تحت سيطرة جيش الشرق تابع أفراده سيرهم نحو بلدهم عبر هذا الطريق البري المعتاد، ليجدوا أنفسهم، بعد وقت قصير، وجها لوجه مع جيش الحملة.

وغني عن القول إن وضعا كهذا سيدفع هؤلاء الحجاج إلى اتخاذ موقف ما تجاه هذا الفاتح الجديد لأرض الكنانة التي مروا بها قبل شهور قليلة.

مما يؤسف له أن أيا من هؤلاء الحجاج لم يخلف لنا أثرا مكتوبا نستطيع من خلاله تبين معالم هذه التجربة والمواقف التي نتجت عنها. ورغم ذلك باستطاعتنا الاستعانة ببعض المؤشرات لتكوين صورة تقريبية عن علاقتهم بهذه الحملة. فخلافا لما روّجته بعض المصادر من أن حجاج شمال إفريقيا عموما لاقوا خلال مرورهم بمصر عناية خاصة من طرف إدارة الحملة وقائدها العام على وجه الخصوص، فإن عدة مؤشرات تؤكد أنهم عانوا الأمرين من جراء حالة الفوضى التي أضحت تشهدها عدد من الأقاليم المصرية، كما أنهم اضطروا إلى تغيير طريقهم المعتاد، واستعجلوا في مغادرة التراب المصري رغم الأهوال والمصاعب التي كانت تتهددهم في البر والبحر.

فأول ما تجلت هذه الحملة بالنسبة للحجاج المغاربة كانت في شكل خسارة مادية جسيمة مُنِيَ بها عدد منهم عقب انهزام المماليك في معركة الأهرام في ٢١ تموز/ يوليو ١٧٩٨م. ذلك، أنه بعد هذه المعركة الفاصلة التي وقعت قبالة القاهرة وتشتت على إثرها المماليك وأصبح جنود الحملة على مشارف هذه المدينة، داخل سكانها خوف ورعب كبيران. فلاذ العديد منهم بالفرار، حاملا معه ما قدر عليه من أمتعة ومدخرات. أما «الذي أقعده العجز، وكان عنده ما يعز عليه من مال أو مصاغ، أعطاه لجاره أو صديقه الراحل، ومثل ذلك ودائع

الحجاج من المغاربة والمسافرين، فذهب ذلك جميعه»[٢٣]، بسبب هجمات العربان.

ورغم سيطرة جيش الشرق بعد ذلك على القاهرة وحرص سلطاته على تقديم ما يلزم من الحماية والمساعدة لهؤلاء الحجاج العائدين إلى بلدانهم، فإن معاناتهم ستستمر وخسائرهم ستتضاعف من جراء هجمات العربان، من جهة، وتعديات الجنود الفرنسيين، من جهة ثانية؛ لأن نابليون رفض، بعد دخوله القاهرة، السماح لأمير الحج المصري وصحبته ركب الحج المغربي، دخول الأراضي المصرية «إلا بشرط أن يأتي من غير مماليك ويكون كآحاد الناس»[٢٤]. وبينما الأمر كذلك، توصل الحجاج بـ «جوابات من إبراهيم بك بالتهويل العظيم ويطلبهم الحضور إلى بلبيس»[٢٥]. ومخافة منه أن ينضم هؤلاء الحجاج إلى هذا الزعيم المملوكي الكبير الذي كان يتقاسم قبل قليل حكم مصر مع مراد بك، ويمثل خطرا كبيرا على الفرنسيين، وطمعا منه في ما كانت تحمله قافلة الحجاج من أموال وأمتعة، خف نابليون لاستخلاصها منه. فتطور الأمر إلى مواجهة عسكرية بين الطرفين كادت أن تدور فيها الدائرة على نابليون لولا غدر العربان بإبراهيم بك. وانتهت هذه المواجهة بانسحاب هذا الأخير إلى الشام، مصطحبا معه عددا من الحجاج، وعلى رأسهم أمير الحج المصري صالح بك. في حين دخل معظم الحجاج القاهرة بعد أن تعرضوا جميعا للسلب والنهب. «هنا كما في معركة شبراخيت والأهرام ـ يقول أحد جنرالات الحملة المشهورين ـ كنا نرى الجندي [الفرنسي] يعاني كثيرا من حمل الخمار أو الشال الكشميري الذي يباع بألفي فرنك في القسطنطينية وثلاثة آلاف في باريس، إلى درجة جعلته يستعملها في لف أشياء أخرى أقل كثيرا منها قيمة»[٢٦].

ومما لا شك فيه، وجد من بين هؤلاء الحجاج من كان ينتمي إلى

---

(٢٣) الجبرتي، **مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس**، ج ١، ص ١٢٩.

(٢٤) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٤٣.

(٢٥) المصدر نفسه.

(٢٦) Pierre-Dominique Martin, *Histoire de l'expédition française en Egypte*, 2 vols. (Paris: J.-M. Eberhart, 1815), vol. 1, p. 223.

المغرب؛ لأن ركب الحج المغربي الذي اعتاد المرور عبر مصر ذهابا وإيابا، انشطر خلال عودته هذه المرة إثر هذا الحدث المفاجئ إلى قسمين: قسم عرج على الشام صحبة أمير ركب الحج المصري، مفضلا ركوب أهوال البحر على المخاطرة بحياته في صحراوات مصر وسط الأعراب وجنود الحملة. ويبدو أن عدد هؤلاء كان محدودا لا يتجاوز الحجاج الميسورين. وقسم ثانٍ فضل الاستمرار في طريقه البري المعتاد عبر مصر، وهم الأغلبية. فهذا أحد الضباط المرافقين لنابليون في حملته ضد إبراهيم بك، يعطينا صورة تقريبية عن حجم ومعاناة هذا الصنف الثاني من الحجاج المغاربة. فيقول: «إن إبراهيم بك لم يسمح بالوصول إلينا إلا للحجاج الفقراء الذين كانوا يأتون إلينا عبر جماعات مؤلفة من مائتين إلى ثلاثمائة فرد من جميع بلدان شمال إفريقيا من فاس إلى طرابلس: كانوا على درجة من العياء تجعلك لا تستطيع أن تفرق بينهم؛ هزيلين مثل البلدان القاحلة التي عبروها، ومنهوكي القوى مثل السجناء الذين طواهم النسيان في أصفدة الحديد»[٢٧].

أما محاضر الدعاوى المثبتة في دفاتر المحاكم الشرعية بالإسكندرية فتوحي لنا أن الحجاج المغاربة ربما اضطروا إلى تغيير طريقهم البري المعتاد؛ إذ عوض أن يتوجهوا مباشرة من القاهرة إلى الإسكندرية، سلكوا طريق الساحل الشمالي الرابط بين رشيد والإسكندرية. ورغم ذلك، لم يسلموا من هجمات العربان وإرهاب جنود الحملة. فهذا الحاج بن ناصر بن محمد المغربي المراكشي كان قد اكترى برشيد في ١٥ رجب ١٢١٣ من علي حسن بن حسن الفزار، من أهالي طنطا، حمارا ليحمل أمتعة له «ليحضر به مع الركب لثغر سكندرية. ثم إن المدّعى عليه، ساق حماره وتوجه أمام الركب، وفات المدعي. ولم يجتمع عليه إلا من مدة خمسة أيام، بالقرب من سكندرية، ويطالبه بأمتعته المذكورة (...) فسئل، فأجاب بالاعتراف لذلك. إلا أنه لما سبق أمام الركب، هو وغيره، جاء النصراني غفير الركب، فرجعه هو ومن سبق. ثم بطل حماره وانقطع، وفاته الركب، ولم يجد المدعي ولا من يحمله. فخاف على

(٢٧) Denon, *Voyage dans la Basse et la Haute Egypte*, p. 101.

نفسه، فرمى ما كان على حماره من البن وأمتعة المدعي المذكور، وساق حماره وحصل الركب»[٢٨]. ونقرأ في محضر آخر أن الحاج علي بن المرحوم الحاج محمد بن مسعود، المغربي من أهالي تطوان، ادعى على الشيخ إسماعيل الدلجموني، أنه اكترى من المدعي المذكور، وهما برشيد، حمارين «اتشيل حوائجه لثغر اسكندرية (. . .) فلما وصل لقرب أدكوا مع الركب، فاتهما الركب المذكور وانقطع عنه. فتركه المدعي المذكور يدور على الحمار الذي معهما. فلم يجده، ولم يقع نظره على المدعى عليه المذكور. فحضرا لإسكندرية، ولم يجتمع عليه المدعي عليه المذكور، إلا يوم تاريخه»[٢٩]، وهو خاوي الوفاض. لأنه بعد تخلفه عن الركب عند مدينة أدكوا، حضر إليه «أربعة قرابة من العرب وفزعوا عليه بالمكاحل، وأخذوا جميع ما معه من حوايج المدعي المذكور، وحوايجه والحمار، ورجع إلى رشيد ثانيا، وهو مقشط. فلم يصدقه المدعي المذكور على ذلك»[٣٠].

لا شك أن أحداثا مثل هاته كانت تتكرر مرات عديدة بمناسبة مرور قافلة الحجاج المغاربة بالقطر المصري؛ إذ من المعروف أن العربان كانوا لا يتورعون عن الإيقاع بالحجاج بغية الاستيلاء على أموالهم وأمتعتهم. أما أن يتم ذلك في ظل الحملة الفرنسية التي طالما تحدث قائدها من خلال منشوراته عن حرصه الشديد على حماية قوافل الحجاج من تعديات الأعراب، فذلك لم يكن من شأنه إلا أن ينتقص من مصداقية هذه المناشير وجدية الضمانات التي ما فتئت سلطات الحملة تقدمها لهؤلاء الحجاج.

ونعلم، من جهة أخرى، أن معاناة هؤلاء الحجاج لم تنته عند هذا الحد. ذلك، أنه بعد اجتيازهم للبر المصري والتحاقهم بثغر الإسكندرية، وجدوا هذا الأخير مطوّقا بالأسطول الإنجليزي، مما تعذر معه ركوب

(٢٨) عبد الرحمن عبد الرحيم، «وثائق محكمة الإسكندرية،» **المجلة التاريخية المغاربية** (أيار/ مايو ١٩٩٥)، ص ٣٣١.

(٢٩) المصدر نفسه، ص ٣٢٨.

(٣٠) المصدر نفسه، ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩.

بعضهم البحر، كما جرت العادة بذلك. فكانت النتيجة أن تكدست أعدادهم بهذا الميناء، الشيء الذي أثار مخاوف السلطات العسكرية الفرنسية، وعلى رأسها نابليون. لذلك، لم يتردد هذا الأخير في استعجال قائده هناك، الجنرال كليبر، في التخلص من هاته الجموع بأية وسيلة كانت، قائلا له: «فليذهبوا عبر البر إلى أدرنة حيث يمكنهم ركوب البحر، أو سفروهم ليلا على متن ثلاث سفن. وبمجرد أن يذهبوا لا تتركوا أحدا منهم يعود ثانية إلى مصر»[٣١]. بهذه الطريقة تخلص نابليون من الخطر الذي أضحى يمثله هؤلاء الحجاج على أمن قواته. فأجبر البعض منهم على ركوب البحر، واضطر البعض الآخر على متابعة رحلته في الصحراء الليبية.

لا نعرف شيئا عن الرواية أو الروايات التي أشاعها هؤلاء الحجاج في مستقبليهم من أهلهم وذويهم بالمغرب، والتي لا شك أنها وصلت إلى مسامع السلطات المغربية، وفي مقدمتها مولاي سليمان. ذلك أن أيا من المصادر المعلومة لدينا لم تتحدث عن نوعية الاستقبال الذي خص به مولاي سليمان ركب الحاج العائد هذه السنة. كما لم يخلف لنا أي من هؤلاء الحجاج أثرا مكتوبا يصف فيه انطباعاته عن هذا الحدث. كل ما وصل إلينا عن هذا الموضوع لا يتعدى ما أورده الضعيف الرباطي من قصاصات مقتضبة.

وكيفما كان الأمر، فمما لاشك فيه أن هؤلاء الحجاج عاشوا حدثا غير مسبوق حين رأوا بأم أعينهم كيف تحولت مصر التي مروا بها قبل شهور قليلة إلى مستعمرة فرنسية. وعوض أن ينزلوا بالقاهرة ويمارسوا بها نشاطهم العلمي والتجاري المعتاد ضاعت ودائعهم هناك واضطر قسم منهم إلى العودة إلى الشام. أما من لم يجد منهم بدّا من العودة عبر مصر فتعرض لهجمات العربان وإرهاب جنود الحملة وسلطاتها التي استعجلتهم في مغادرة مصر. إضافة إلى هذا وذاك، لا يستبعد أن يكون هؤلاء الحجاج قد وصلتهم أخبار المعارك التي خاضها جيش الشرق ضد

---

(٣١) C. N., Lettre no. 3342, Gyzeh, 2ème complémentaire an 7 (18 septembre 1798), vol. 4, p. 728.

المماليك في شبراخيت والرحمانية وإمبابة، وكذا الهزيمة التي لحقت بأسطوله في معركة أبو قير البحرية.

لهذا، نعتقد أنه خلافا لما ذهب إليه عدد من الدارسين الفرنسيين ممن أظهروا حماسة زائدة للحملة سوف لن يتحول هؤلاء الحجاج لمجرد خفارتهم بجنود فرنسيين إلى أبواق دعاية لصالح الحملة كما زعم هؤلاء[٣٢]. على العكس من ذلك تماما سيخرج من رحم هذه التجربة الحجية حركة جهادية كبيرة بزعامة كل من الشيخ محمد الجيلاني السباعي ومحمد بن الأحرش الدرعاوي، ومن انضم إليهما من الحجاج[٣٣].

٢ ـ موسم ١٢١٣هـ/ ١٧٩٨ ـ ١٧٩٩م

إضافة إلى الضعيف الرباطي، تؤكد عدد من المصادر الأجنبية أن الحجاج المغاربة رغم علمهم بوقوع مصر تحت السيطرة الفرنسية غادروا المغرب خلال سنة ١٢١٣هـ لأداء فريضة الحج باعتبارها واحدة من أركان الإسلام الخمسة، سالكين من أجل ذلك إما طريق البر أو طريق البحر. لكن، أعدادهم تناقصت بشكل ملحوظ بسبب إحجام العديد منهم عن المغامرة بنفسه وماله؛ فآثروا إما المكوث ببلدهم أو الرجوع إليها بعد ما طووا آلاف الكيلومترات وأصبحوا على مشارف مصر. أما من تملّك منهم قدرا كافيا من الشجاعة وتابع طريقه برا إلى الحجاز فتوزعه تياران؛ تيار يرغبه في الجهاد ضد جيش الشرق بسبب احتلاله هذا القطر الإسلامي الشقيق، وآخر يدعوه إلى الالتزام بأداء فريضة الحج والعودة سالما إلى أهله وبلده. وبينما هم كذلك، ثارت حولهم الشبهات وأصبحوا موضع شك وريبة. فاستعجلتهم السلطات العسكرية الفرنسية في مغادرة مصر بعد أن أخضعتهم لمراقبة مشددة وضيقت نطاق تحركهم.

---

(٣٢) أظهر بعض المؤرخين الفرنسيين حماسة زائدة تجاه هذه الإجراءات واعتبروها السبب الرئيس في استمرار العلاقات السلمية بين المغرب وفرنسا. انظر على سبيل المثال: Raymond Thomassy, *Le Maroc et ses caravanes, ou Relations de la France avec cet empire* (Paris: Firmin-Didot frères, 1845), pp. 355-356.

(٣٣) للوقوف على خصوصية العلاقة التي ربطت بين الحجاج المغاربة وحركة الجهاد والمقاومة التي ظهرت بمصر بمناسبة الحملة، انظر فصول القسم الثالث من هذا الكتاب.

أما من سلك منهم طريق البحر فقد سامه أحمد باشا الجزار سوء العذاب بسبب رفض البعض منهم الانضمام إلى قواته.

وهكذا، نجد الضعيف الرباطي الذي استمر يقيم بفاس إلى حدود شهر ذي القعدة من سنة ١٢١٣هـ، يؤكد أن الحجاج المغاربة خرجوا فعلا في ركبهم المعتاد لأداء مناسك الحج لهذه السنة. مشيرا إلى أن الاستعداد لذلك كان قد بدأ في منتصف محرم حينما «أمر السلطان أهل فاس بالطلوع للمشرق»[٣٤]. وبعد أن استكملت الاستعدادات لذلك أمر السلطان في يوم الاثنين ١٧ رجب «بإخراج الركب لقنطرة وادي سبو (...) وأميره عبد الوهاب الشرايبي»[٣٥]. أما نائب القنصل الفرنسي بالصويرة الذي كان يراقب عن كثب تحركات مولاي سليمان من خلال أعوانه، فقد أكد أن قافلة الحج المغربية قد انطلقت فعلا في اتجاه مكة بعد أن شيّعها مولاي سليمان لمسافة معينة، وخاطب جموعها، المؤلفة من بضعة آلاف فرد، قائلا لهم: إن مصر واقعة فعلا تحت السيطرة الفرنسية، لكن ذلك لا ينبغي أن يثنيهم عن المرور بها والقيام بهذه الشعيرة الدينية؛ لأن الفرنسيين يعتبرون «أصدقاء للمغرب»[٣٦].

يستفاد من هاتين الشهادتين أن عملية انطلاق ركب الحاج المغربي لموسم سنة ١٢١٣ الذي تزامن مع بدء الحملة الفرنسية على مصر، تمت وفق تاريخها وهيئتها المعتادة. هذا على الرغم من علم الجميع بالاحتلال الفرنسي لهذا البلد الذي كان يشكل المعبر الرئيس لهذا الركب نحو الديار المقدسة. ومعنى هذا أن الحجاج المغاربة اطمأنوا إلى الكلمة التوجيهية التي ألقاها فيهم مولاي سليمان ساعة انطلاقهم؛ فلم يروا في الوجود الفرنسي بمصر عائقا يحول دون أدائهم لفريضة الحج، وربما شجعهم على ذلك أكثر الاستقبال المميز الذي خص به نابليون وباقي أعوانه ركب الحاج المغربي السابق خلال عودته عبر

---

(٣٤) محمد الضعيف، **تاريخ الضعيف: تاريخ الدولة السعيدة**، تحقيق وتعليق وتقديم أحمد العماري (الرباط: دار المأثورات، ١٩٨٦)، ص ٣٠٧ و٣١٢.

(٣٥) المصدر نفسه، ص ٣١٢.

(٣٦) A.A.E.P., C.C.C. 21, Mogador, Broussonnet à Talleyrand, 2 nivôse an 7 (22 décembre 1798), folio 167-168.

مصر[٣٧]، أو هذا على الأقل ما أوحت لهم به أجهزة الدعاية الفرنسية.

وفي كل الأحوال، يدل إقبال المغاربة بهذا الحجم على تأدية فريضة الحج وشد الرحال من أجل ذلك إلى الحجاز في وقت كانوا يعلمون فيه علم اليقين أن مصر ترزح تحت حكم دولة مسيحية على قوة تشبثهم وشدة حرصهم على القيام بهذا الركن الأساسي من أركان الإسلام الخمسة. كما أنه يشجعنا على الاعتقاد بأن «سياسة نابليون الإسلامية»، التي شكلت إطارا للدعاية الفرنسية في هذا المجال، حققت بعض أهدافها؛ حينما جعلت الحجاج يثقون في التطمينات التي تلقوها من مولاي سليمان، ويعتقدون في نوايا الفرنسيين السلمية تجاههم.

ما يهمنا من هذا كله هو أن الحملة الفرنسية على مصر لم تحل، على الأقل خلال هذه السنة، دون خروج بضعة آلاف من المغاربة بنية الحج. وهذا يدل، في نظرنا، على المرونة النسبية، إن لم نقل التسامح، الذي قابل به حجاج هذا الموسم، في بادئ أمرهم، الوجود الفرنسي بمصر.

ورغم ذلك تؤكد عدة شهادات أن هذا الركب الحجي لم يتابع مسيرته وفق صيغته المعهودة، وأن الموقف السلمي الذي أبداه ساعة انطلاقه تجاه الوجود الفرنسي بمصر لم يعمر طويلا. فقد انقسم فور وصوله إلى طرابلس إلى ثلاثة أقسام: قسم أول ـ ولعله الأهم والأكبر، لأنه كان يتكون من ركب الحاج الفاسي ـ عاد أدراجه إلى المغرب بعدما

---

(٣٧) على الرغم من المضايقات التي تعرض لها الحجاج المغاربة خلال عودتهم التي تصادفت مع دخول الفرنسيين إلى مصر، وكذا الخسائر التي مني بها بعضهم بسبب ذلك، فمما لا شك فيه أنهم لمسوا لدى سلطات الحملة نوعا من الحرص على سلامتهم، لأهداف دعائية.

«Il importe beaucoup que cette caravane arrivât sauve au Caire, qu'elle y déposât les marchandises qu'elle apporte, que les Arabes occidentaux qui s'y trouvent en grand nombre fussent traités de manière à engager, à leur patrie, leurs compatriotes à voir sans inquiétude notre conquête et à conserver avec nous les relations que, de temps immémorial, ils ont avec l'Egypte».

هكذا رأى أحد ضباط الحملة وهو المقدم موراند (Morand) السياسة التي يجب أن تتبعها إدارة الحملة تجاه ركب الحج المغربي الذي تصادفت عودته مع دخول الفرنسيين إلى مصر. انظر: François Charles-Roux, *Bonaparte et la Tripolitaine* (Paris: Société d'éditions géographiques, maritimes et coloniales, 1929), p. 84.

وصلته أخبار غير مطمئنة عما يقع بمصر[٣٨]. وقسم ثان مؤلف من ركب الحاج المراكشي تابع سيره عبر مصر امتثالا منه للأوامر المستعجلة التي وصلته من مولاي سليمان، على حد قول أميره[٣٩]. بينما آثر قسم ثالث ركوب البحر والالتحاق بركب الحاج الشامي[٤٠]. ومعنى هذا أن أفراد ركب الحاج المغربي، الذين خرجوا من فاس في موكب جماعي، لم يعد لديهم عندما شارفوا على الدخول إلى مصر، موقف موحد تجاه الوجود الفرنسي بهذا البلد الإسلامي. والسبب في ذلك راجع، في ما يبدو، إلى الأحداث الخطيرة التي كانت تشهدها آنذاك مصر والشام، إضافة إلى حملة التشهير القوية التي كانت تقودها، آنذاك، كل من الدولة العثمانية وإنجلترا ضد هذه الحملة.

يستنتج مما سبق أن ركب الحاج المغربي من حيث هو إطار يختزل مختلف شرائح المجتمع سيما منها العالمة أو على الأقل المتعلمة، لم تعد بعض مكوّناته تعتقد في إمكانية المرور عبر القطر المصري رغم الضمانات التي قدمها بين يديها مولاي سليمان ساعة مغادرتها المغرب. فآثر البعض منها التخلي عن أداء هذه الفريضة عوض الارتماء في أحضان تلك القوة المسيحية التي أصبحت تستوطن أرض الكنانة، بينما تابع البعض الآخر مسيرته برا أو بحرا؛ إما نزولا عند أوامر مولاي سليمان، أو حرصا منهم على أداء هذه الفريضة مهما كلّف ذلك من ثمن، أو طلبا للجهاد. إلا أن السلطات الفرنسية بمصر التي كانت تمر بظرف أمني حرج بسبب حملة الشام لم تطمئن إلى حضورهم المفاجئ إلى القاهرة. فاشتبهت في نواياهم واتهمتهم بالتآمر ورفع شعار «الجهاد أفضل من الحج». فكانت النتيجة أن أستجوبت أميرهم، وأخضعتهم

(٣٨) ذكر أمير ركب الحج المراكشي خلال استجوابه من طرف حاكم القاهرة الجنرال دوكًا، أن ركب الحج الفاسي عاد فعلاً إلى المغرب. انظر: Reybaud, *Histoire scientifique et militaire de l'expédition française en Égypte*, vol. 5. p. 177.

كما أبدى تاليران في أحد رسائله إلى قنصل بلاده في طرابلس أسفه لعودة الحجاج السلاويين إلى بلادهم بعد وصولهم إلى طرابلس. لكنه أبدى في نفس الوقت استغرابه من أن يكون السبب في ذلك هو الأوامر التي وصلتهم من مولاي سليمان.

(٣٩) A.D.N, Tripoly 97, Paris, Talleyrand à Beausier, 21 thermidor an 7 (8 août 1799).

(٤٠) A.D.N, Tripoly 97, Paris, Talleyrand à Beausier, 23 germinal an 7 (12 juin 1799).

لمراقبة عسكرية مشددة. ثم استعجلتهم في الرحيل عن مصر(٤١).

وسواء أراودتهم فكرة الجهاد أو لم تراودهم، فالثابت لدينا أن ركب الحاج المراكشي التزم بتوجيهات مولاي سليمان؛ حيث لم يصدر منه أي سلوك مناوئ لجيش الشرق. أما من سلك منهم طريق البحر فقد كلفهم رفضهم العمل ضمن قوات أحمد باشا الجزار، التي كانت تقاتل ساعتها جيش الشرق بفلسطين، المكوث تحت طائلة التعذيب والأعمال الشاقة(٤٢).

٣ ـ موسم ١٢١٤هـ/ ١٧٩٩ ـ١٨٠٠م

خلافا لما يوحي به سكوت الضعيف الرباطي وغيره من المؤرخين المغاربة، تؤكد عدد من المصادر أنه على الرغم مما حصل لركب الحاج المغربي خلال هذه السنة استمر الحجاج المغاربة يفدون على الديار المقدسة خلال موسم ١٢١٤هـ إلا أن أعدادهم تقلصت بشكل ملحوظ، ولم تصدر منهم أية حركة مناوئة للوجود الفرنسي بمصر. كما أن مرورهم بهذا البلد اقتصر على مرحلة الإياب، بسبب الحرب التي كانت تدور هناك بين جيش الشرق وقوات الصدر الأعظم العثماني.

ورغم ذلك استمر هؤلاء الحجاج يشكلون في نظر السلطات العليا الفرنسية بمصرمصدر قلق دائم؛ سواء عندما تحقق لديها خروجهم من المغرب(٤٣)، أو عندما قفلوا عائدين من مكة عبر طريقهم البري المعتاد، حيث أخضعتهم لمراقبة أمنية مشددة(٤٤). إلا أن ذلك لم يمنعها من إسعاف

---

(٤١) وردت الإشارة إلى الأحداث والتطورات التي رافقت مرور ركب الحاج المراكشي بالقاهرة خلال موسم ١٢١٣، في عدد من الوثائق. لكن أخبارها وردت ملخصة في المصدرين التاليين: الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ج ٢، ص ٢٧٠، و Reybaud, *Histoire scientifique et militaire de l'expédition française en Égypte*, vol. 5, pp. 176-185.

(٤٢) **صحف بونابرت في مصر، ١٧٩٨ ـ ١٨٠١**، ترجمة صلاح الدين البستاني، ١٠ مج (القاهرة: دار العرب للبستاني، ١٩٨١)، و**كوربيه دي ليجبت**، العدد ٣٥، ص ١٣٦.

(٤٣) Dugua à Menou, 3 pluviôse an 8 (23 janvier 1800).

دار الوثائق، حافظة رقم ٦، ملف ٨.

(٤٤) Ordre du général Belliard, no. 226, 3 fructidor an 8 (20 août 1800).

دار الوثائق، حافظة رقم ٩، ملف ١، و A.M.G., B6 55, Le Caire, Abdellah Menou à Muley Soliman, 30 Vendémaire an 9 (22 octobre 1800).

معوزيهم، واستقبال اثنين منهم من طرف القائد العام، الجنرال عبد الله مونو، وتسليمها رسالة منه إلى مولاي سليمان يؤكد له فيها حسن المعاملة التي سيلاقيها بمصر كل مغربي يرغب في الحج أو التجارة[٤٥].

٤ ـ موسم ١٢١٥هـ/ ١٨٠٠ ـ ١٨٠١م

يبدو أن الأصداء المحزنة التي خلفها قمع ثورة القاهرة الثانية واغتيال القائد العام، الجنرال كليبر، لحظات قليلة قبل حلولهم بمصر، وما نجم عن ذلك من إجراءات أمنية وعسكرية مشددة، ثم استمرار انقطاع خروج ركب الحاج المصري قد ثبط عزائم الحجاج المغاربة على المرور بمصر خلال موسم سنة ١٢١٥، بل ربما أقعدهم أصلا عن القيام بهذه الشعيرة الدينية. لكن، يرجح أن يكون جزء من حجاج هذا الموسم قد فضلوا المرور عبر الشام الذي كان قد استتب به الأمن منذ مدة طويلة نسبيا.

٥ ـ موسم ١٢١٦هـ/ ١٨٠١ ـ ١٨٠٢م

يظهر أن نفس الأمر قد تكرر خلال موسم سنة ١٢١٦هـ؛ حيث لم ترد في المصادر المعلومة لدينا أية إشارة إلى خروج ركب الحاج المغربي رغم أن تاريخ خروجه تزامن مع خروج الحملة من مصر[٤٦]. ويمكن تفسير ذلك بعدة أسباب، لعل أهمها المعارك المتقطعة التي شهدتها مصر طيلة الأشهر الأخيرة من عمر الحملة إثر الهجوم العثماني ـ الإنجليزي المشترك الذي توج بتحرير مصر، ثم عدم توصل المغاربة في الوقت المناسب بخبر انتهاء هذه المعارك وعودة مصر إلى الحكم العثماني؛ حيث لم يرد على أهل الرباط وسلا خبر أخذ المسلمين لمصر «من يد النصارى الفرنسيس»، إلا في منتصف جمادى الثانية سنة ١٢١٦هـ[٤٧]، بينما بقي

---

(٤٥) Ibid.

(٤٦) جرت العادة أن يخرج ركب الحج المغربي من فاس في سابع وعشرين جمادى الثانية أو الثامن والعشرين منه. وقد تصادف هذا التاريخ هذه السنة، مع الرابع والخامس من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر من سنة ١٨٠١. أما خروج الفرنسيين نهائياً من مصر فكان قد تحقق منذ نهاية شهر أيلول/ سبتمبر ١٨٠١، حيث أبرمت معاهدة في شأن ذلك بين العثمانيين والإنكليز والجنرال مونو.

(٤٧) الضعيف، **تاريخ الضعيف: تاريخ الدولة السعيدة**، ص ٣٢٣.

مولاي سليمان غير متأكد من صحة هذا الخبر إلى حدود الرابع من شعبان من نفس السنة، مما اضطره إلى توجيه السؤال عن ذلك إلى أنطوان كَليط، لأنه «قال أيده الله، لا يأت الخبر الحقيقي إلا على يد قنصو الفرانسيس»[٤٨].

خلاصة القول، إن الحملة الفرنسية التي استهدفت مصر والشام، أثرت بشكل قوي على السير العادي لركب الحاج المغربي الذي كان يتخذ من هذين القطرين الإسلاميين طريقه الرئيس نحو الديار المقدسة بالحجاز وفلسطين. فتقلصت بسبب ذلك أعداد هذا الوفد الحجي من بضعة آلاف إلى بضع مئات، وربما انقطع كلية في إحدى السنوات، كما لم يعد بإمكان من استطاع من أفراده المرور عبر مصر الاختلاط بساكنتها وارتياد أسواقها ومجالس العلم بها؛ الشيء الذي سيترتب عنه مؤقتا توقف الصلات العلمية والتجارية التي ظلت تربط، منذ قرون عديدة، بين أهل هذا البلد وأفراد هذه السفارة الحجية المتنقلة.

وسواء أكتفي هؤلاء الحجاج بهدفهم الأصلي الذي هو الحج، أم دفعتهم غيرتهم الدينية إلى المشاركة في حركة الجهاد والانخراط في صفوفها، فإن مجرد مرورهم بمصر خلال هذه اللحظات الاستثنائية التي كان يعيش فيها هذا البلد على إيقاع الحملة الفرنسية سيولد لديهم لا محالة عدة أسئلة حول طبيعة وماهية هذه الحملة، ليس باعتبارها حدثا عدوانيا صرفا استهدف بلدا إسلاميا، ومن ثم وجبت مدافعته بمختلف الوسائل والأسباب، لكن من حيث هي صورة مركزة لأهم ما توصلت إليه الحضارة الغربية عموما من تقدم وحازته من إنجازات في مختلف أوجه الحياة، سيما منها تلك المتصلة بالنظم الإدارية والسياسية والقيم الفكرية والثقافية التي تمخضت عن الثورة الفرنسية وشكلت هذه الحملة طليعتها الأولى داخل العالم العربي الإسلامي. لهذا، يجدر بنا أن نخصص النقطة الأخيرة من هذا المبحث لنبيّن الكيفية التي تفاعل بها هؤلاء الحجاج مع هذه الحملة انطلاقا من هذه الوجهة.

---

(٤٨) رسالة الوزير محمد بن عبد السلام السلاوي إلى أنطوان كَليط، في ٤ شعبان ١٢١٦، مديرية الوثائق الملكية، الرباط، سجل رقم ١٤٤٩٦.

ثالثاً: قراءة الحجاج المغاربة لحدث الحملة في بُعدها الحضاري العام

إن ما يدفعنا إلى إثارة هذا النقطة هو الاحتكاك المباشر والقوي الذي لا شك أنه حصل بين هذه الحملة بمختلف مكوناتها وهؤلاء الحجاج خلال عبورهم للقطر المصري ذهابا وإيابا. وغني عن القول إن لقاءً من هذا النوع سيولد لدى هاته الشريحة العالمة ليس فقط غيرة دينية، بل سيدفعهم كذلك إلى تفحص واستجلاء حقيقة هذه الآلة الحربية بمختلف مكوناتها البشرية والتنظيمية والتقنية، رغبة منهم في الإحاطة بالأسباب التي مكّنت جيش الشرق من قهر جند المماليك وتحقيق ذلك القدر من الغلبة والتمكن مع ما رافقه من تغيير في أساليب الحكم ونظم الإدارة.

لا أحد يجادل في أن الحجاج المغاربة عايشوا خلال سنوات الحملة هاته حدثا غير مسبوق حينما أصبحوا لأول مرة في تاريخهم يمرون عبر مصر وهي واقعة جزئيا أو كليا تحت إدارة دولة مسيحية مثل فرنسا. وعوض أن يستقبلهم حكامها المسلمون ويحظون بشرف خدمتهم وحمايتهم ويهيئوا لهم أسباب الزيارة والتجارة وتحصيل ما يرغبون فيه من علوم، أصبح هؤلاء الحجاج يعبرون هذا القطر الإسلامي الذي كان يشكل إلى عهد قريب امتدادا طبيعيا لموطنهم الأصلي تحت حراسة عسكرية مشددة من لدن حكام مصر الجدد الذين توزعتهم، في نفس الآن، رغبة اغتنام هذه المناسبة لتمرير سياستهم «الإسلامية»، وحساسية مرهفة تجاه ما يمكن أن يصدر من هؤلاء الحجاج من تهديد لمشروعهم الاستعماري في حالة تحالفهم مع إحدى الجهات المعادية للحملة.

ـ فهل تهيأ فعلا لهؤلاء الحجاج متسع من الوقت وقدر من الفضول الفكري لقراءة هذا الحدث من مختلف وجوهه وتجاوز ما هو عرضي ويومي إلى ما هو جوهري وخاص في هذه الحملة؟ وإلى أي حد استطاع الحجاج المغاربة التوفيق بين هذا الفضول الفكري أو المعرفي المفترض في حالة مثل هاته، وتلك الإجراءات الأمنية والعسكرية الصارمة التي أخضعوا لها طوال مدة إقامتهم وتنقلهم بمصر؟

تقتضي الإجابة عن هذه الأسئلة في بحث من هذا النوع الاستناد إلى

يمكن أن يكون قد صدر عن هؤلاء الحجاج من آثار مكتوبة سواء كانت في شكل رحلات أو كتابات أخرى. للأسف الشديد، هذا أمر غير متيسر في الوقت الحالي؛ لأن هؤلاء الحجاج لم يخلفوا لنا، في ما نعلم، أي أثر مكتوب عن هذه التجربة الفريدة من نوعها على الرغم من معايشتهم الميدانية والمباشرة لحدث الحملة، وانخراط البعض منهم في حركة الجهاد والمقاومة واتصالهم المباشر بأحد جوانب هذه الحملة القوية، ألا وهو آلتها العسكرية بشقيها التنظيمي والتقني. كما لا ننسى أن البعض منهم، سيما شيوخ ركب الحج وبعض كبراء القوم، أتيحت لهم في عدد من المناسبات فرصة مجالسة عدد من كبار الضباط والموظفين الفرنسيين بمن في ذلك الحكام العامون من حجم نابليون ومونو، وسمح لهم كذلك بالتجوال في القاهرة لبضعة أيام[٤٩]. ناهيك عن اتصال هؤلاء الحجاج خلال زيارتهم لمكة والمدينة بمختلف ركاب البلدان الإسلامية التي كانت توجد في حالة حرب مع فرنسا مثل ركب الحاج الشامي والتركي، إضافة إلى أهل الحجاز واليمن الذين كانوا عائدين لتوّهم من مقاتلة الفرنسيين بإقليم الصعيد.

رغم كل هذا لم نظفر بأي أثر مكتوب يعكس وجهة نظر هؤلاء الحجاج تجاه هذه الحملة. وهذا أمر مخالف، في نظرنا، لما اعتاد عليه الحجاج المغاربة من تدوين لرحلاتهم الحجية بغرض تخليد هذه الذكرى الفريدة من نوعها وتعميم الفائدة وتقديم المساعدة لمن يرغب مستقبلا في القيام بهذه الشعيرة الدينية. لكن، يبدو أنهم لم يقبلوا، حسب معتقدهم، تلطيخ صحائفهم بأخبار ومشاهد هذا الحدث الذي حط كثيرا من كبرياء وشموخ كل مسلم غيور على دينه وأمته، سيما إذا كان عائدا لتوّه من الحج وروحه مشبعة بنفحات تلك الأمكنة المقدسة التي تشرفت بميلاد الإسلام ورسوله عليه الصلاة والسلام.

---

(٤٩) اجتمع أمير ركب الحاج المراكشي بحاكم القاهرة الجنرال دوكًا في شهر نيسان/ أبريل من سنة ١٧٩٩. وكانت له اتصالات أخرى مع عدد من كبار موظفي وضباط الحملة. وسمح له صحبة عدد من مرافقيه، بالتجوال في القاهرة وقضاء بعض حوائجهم. وخلال عودته من الديار المقدسة اجتمع بقائد الحملة نابليون بونابرت، وتسلم منه رسالة إلى مولاي سليمان. كما اجتمع الجنرال عبد الله مونو بعدما أصبح قائداً لجيش الشرق، بعدد من الحجاج المغاربة وسلمهم بدوره رسالة إلى مولاي سليمان.

أما من جهتنا، فنقول إن غياب هذه الآثار المكتوبة، يُعد في حد ذاته موقفا. لكنه، مع الأسف الشديد، موقف صامت وسيظل غامضا مهما اجتهدنا في تفسيره وتأويله، اللهم إذا أرجعناه إلى عجز هؤلاء الحجاج عن إدراك وتفكيك عناصر الصورة التي تمثلت لهم بها هذه الحملة على أرض الواقع. فبقيت، بالنسبة لهم، حدثا عابرا انتهى باندحار هؤلاء «الكفار»، وعودة الشام ثم مصر إلى حظيرة «دولة الإسلام الكبرى». فالتأم الجرح، وعادت الحياة إلى مجراها الطبيعي المعتاد.

وإذا كان حجاج المواسم التي تزامنت مع الحملة قد احتفظوا بذكرى هذه التجربة لأنفسهم ولم يشاءوا، لسبب أو لآخر، إشراك معاصريهم في الاطلاع عليها، فإن حاجا مغربيا غير عادي شكل استثناء لهذه القاعدة العامة. إنه الأمير مولاي سلامة الذي تنازل عن السلطنة سنة ١٢٠٦هـ/ ١٧٩٢م بعد أن تولاها حوالى شهرين، ثم غادر المغرب بعد أن «رأى شوكة أخيه سليمان قد بلغت الغاية في الشدة»[٥٠]. فزار مكة مرتين، وحل بمصر مرتين كذلك، تصادف خلال واحدة منهما مع نزول جيش الشرق بهذه الأخيرة[٥١]. فاجتمع هناك بنابليون، ووقعت «بينهما المعاهدات»[٥٢].

ملخص القول، شكلت إقامة هذا الأمير المغربي الطريد[٥٣] بمصر بعد عودته من الحج وربطه لتلك العلاقات الودية مع نابليون وغيره من الشخصيات العلمية والإدارية والعسكرية المرافقة له مناسبة اطلع من خلالها على الجوانب التنظيمية والعسكرية لهذه الحملة، ومكّنته من الاحتكاك بقادتها المدنيين والعسكريين، وفي مقدمتهم قائدها العام الذي

---

(٥٠) عبد الرحمن بن محمد بن زيدان، **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس أو عبير الآس من روض تاريخ مكناس أو حسن الإقتباس من مفاخر الدولة العلوية وتاريخ مكناس**، ٥ مج (الرباط: المطبعة الوطنية، ١٩٢٩ ـ ١٩٣٣)، مج ٤، ص ٣٥٢ ـ ٣٥٣.

(٥١) المصدر نفسه، ص ٣٥٣.

(٥٢) أبو العباس أحمد بن عمر بن أبي الضياف، **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، ٨ ج (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٧٦ ـ ١٩٧٩)، ج ٣، ص ٥١.

(٥٣) سمى الضعيف الرباطي مولاي سلامة بـ «الأمير» فقط. والسبب في ذلك راجع، حسب ما ذهب إليه المحقق، إلى عدم حصول بيعته في إحدى العاصمتين فاس ومراكش. انظر: الضعيف، **تاريخ الضعيف: تاريخ الدولة السعيدة**، ص ٢٤٣.

نال منه إعجابا كبيرا. فقد أدهشه هذا القائد بجمعه بين الحزم والشجاعة وشدة التواضع والتقشف؛ إذ على الرغم من قيادته لجيش الشرق وقهره لجند المماليك، كانت داره بمصر تحتوي، كما قال مولاي سلامة: «على فراش منامه وموضع جلوسه، وأمامه مائدة عليها دواة وقراطيس، وأرائك لجلوس من يأتيه لا غير»[٥٤]. لم يقف مولاي سلامة عند حدود إبداء هذه الملاحظة الذكية، بل عبر من خلالها لتعيين الأسباب الكامنة وراء تخلف المسلمين وحلول الهزيمة بجيوشهم. وهي كما قال ابن الضياف على لسان مولاي سلامة: أسباب عقلية؛ «من الانغماس في النعم، والتعمق في الحضارة، واستعمال السرف في ميدان الترف حتى إن أثقال أمراء الجيوش، توازي أثقال الجيش أو معظمه»[٥٥].

وكما يبدو من منطوق هذه العبارات ذات النكهة الخلدونية، يتبدى لنا الحاج مولاي سلامة الذي كان يلوك في تلك اللحظات هزيمة مضاعفة ـ واحدة في الوطن الأم وأخرى في مصر ـ ويقاسي من لوعة التغرب عن الأهل والوطن[٥٦]، قارئا متفحصا لمفردات هذه الحملة،

---

(٥٤) ابن أبي الضياف، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٥٢. هذه الملاحظة الذكية التي أبداها مولاي سلامة في ما يخص تواضع وتقشف نابليون الأول، أكدها غير واحد ممن حصلت له فرصة التعرف عن قرب على هذا القائد الفرنسي. نذكر على سبيل المثال ما سجله كاتب مذكراته ورفيقه في منفاه بسانت هيلين، لاس كازاس: «Petitesse de son lit l'empereur a continué à souffrir. Je l'ai trouvé (10 septembre 1816), fort abattu et faisait changer son lit de place. Ce lit si longtemps le fidèle compagnon de ses victoires, n'était plus aujourd'hui que son grabat de douleur. L'Empereur dans sa souffrance, ce plaignait qu'il fût trop petit pour sa personne. Il trouvait à peine à s'y remuer; mais l'espace de sa chambre n'en comportait pas de plus grand. Il l'a fait porter dans son cabinet à côté d'un petit lit de repos ou canapé, de manière à ce que, assujettis ensemble, ils lui compassent un lit plus spacieux. Voilà pourtant à quoi il en est réduit».

انظر: Emmanuel Las Cases, *Mémorial de Sainte-Hélène* (Paris: [s. n.], 1823), vol. 1, p. 337.

(٥٥) ابن أبي الضياف، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٥٢.

(٥٦) توسط كل من علي بن ريسون وابن الصادق لدى مولاي سليمان سنة ١٢٠٩هـ من أجل السماح لأخيه مولاي سلامة بالسكنى في فاس أو غيرها من بلاد المغرب. فكان رد مولاي سليمان بعدم السماح له بذلك، ورخص له فقط بالتوجه إلى تافلالت والاستقرار بها «. . . أما سكناه في الغرب كله، فلا سبيل إليه ولا نوافق عليه ولا نقبله أبداً ولا نغرر به». أما أولاده، فكانوا في قبضة مولاي سليمان «إخماداً لنار الفتنة حيث مكننا الله منهما من غير عهد ولا عقد». انظر: محمد داود، **تاريخ تطوان**، ٦ ج (تطوان: المطبعة المهدية، ١٩٦٥)، ج ٣، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

خاصة ما يتصل منها بسلوك قائدها الأعلى الذي أدهشه بتقشفه وتواضعه وزهده في ما انغمس فيه وتعمّق قادة المسلمين من ألوان النعيم. فكانت نتيجة كل ذلك أن حاقت بهم الهزيمة والخذلان.

هكذا إذن، يتيح دخول الفرنسيين إلى مصر لحاج مغربي مثل الأمير مولاي سلامة إمكانية المقارنة بين واقع المسلمين الذين حلت بهم هذه الهزيمة المذلة، وقوة سلوك قادة جيش الشرق، وعلى رأسهم نابليون بونابرت الذي تحقق على يديه ذلك الانتصار غير المسبوق في تاريخ مصر منذ حملة لويس التاسع الفاشلة. وإذا كان قد امتزج بهذا الموقف الاستثنائي قدر معين من الأسباب الشخصية، فهو رغم ذلك ينم عن قدرة هذا الحاج المغربي، غير العادي، على استشعار الخطر الذي بات يتهدد بلاد المسلمين. فجاءت ملاحظاته تلك في شكل تحذير من السلوكات الشاذة التي اعتاد عليها أمراء وقادة المسلمين، وكأن لسان حاله يريد أن يقول إن ما حل بمصر من غزو واحتلال إنما هو بسبب الفساد السياسي الذي كان يعاني منه العالم الإسلامي بشكل عام ومصر بشكل خاص.

لا نعرف على وجه التحديد إلى أي حد وصلت العلاقة بين نابليون ومولاي مسلمة. ولكن الذي نستطيع أن نجزم به هو أن هذه الشخصية العالمة والمتصلة مباشرة بالأسرة الحاكمة بالمغرب تفاعلت بقوة مع هذه الحملة حين استرعت انتباهها وفجرت لديها إمكانية المقارنة والمفاضلة بين حال المسلمين الذين حلّت بهم هذه الهزيمة، وحال أولئك «الكفار» الذين أصبحت لهم الكلمة العليا في واحدة من أقطار العالم الإسلامي التي لم تطلها يد المغول والصليبيين في سابق الأزمان[٥٧]. هذا في الوقت الذي يبدو فيه أن غيره من الحجاج المغاربة آثروا عدم الخوض في هذا الموضوع؛ إما رعيا لمصالحهم الشخصية، أو حفاظا على مشاعرهم الدينية بعد رحلة حجية شاقة ومكلفة.

---

(٥٧) حاول كل من هولاكو ولويس التاسع غزو مصر، لكن أياً منهما لم ينجح في ذلك، حيث انهزم الأول في معركة عين جالوت سنة ١٢٦٠م، أمام السلطان المملوكي قطز، بينما وقع لويس التاسع أسيراً، بعد انهزامه في معركة منصورة سنة ١٢٥٠م.

رابعاً: التجار المغاربة في مواجهة انعكاسات الحملة

قريبا من الحجاج وأحيانا بمعيتهم كانت تتحرك شريحة اجتماعية لا تقل نخبوية عن هؤلاء. أقصد بذلك التجار المغاربة الذين كانوا يمارسون نشاطهم مع بلدان المشرق وعدد من دول البحر الأبيض المتوسط، وقادتهم ظروفهم المهنية إلى الاختلاط والتفاعل مع الحملة بمصر أو الدولة التي أوفدتها إلى هناك. لذلك، نعتقد أن من شأن تتبع أخبار هؤلاء التجار وتقصي أحوالهم وظروفهم بهذه المناسبة أن يساعدنا على توسيع دائرة إلمامنا بالكيفية التي تفاعلت بها هذه الشريحة الاجتماعية مع حدث الحملة.

قبل الخوض في تفاصيل هذا المبحث تجدر الإشارة إلى أن هذا الحدث تمثل بالنسبة للتجار المغاربة عبر صورتين اختلفتا باختلاف تجربة كل فريق منهم على حدة. فالتجار الذين كانوا يتعاملون مع مصر كانت لهم تجربة مخالفة عن أولئك الذين كانوا يمارسون نشاطهم التجاري مع موانئ البحر الأبيض المتوسط. ومن عاش منهم تحت حراب جيش الشرق ليس كمن قضى شهورا أو أعواما بباريس. لهذا الاعتبار، نقترح معالجة هذا المبحث عبر مرحلتين: **مرحلة أولى**، نحاول من خلالها تبين الكيفية التي تفاعل بها التجار الذين كانوا يتعاملون مع مصر وبلدان المشرق عموما. أما **المرحلة الثانية**، فسنخصصها للكشف عن تجربة التجار الذين وجدوا أنفسهم بين أحضان الدولة التي أوفدت هذه الحملة إلى مصر.

١ ـ تجار المحور المشرقي بين انقطاع الطرق وأسباب المتاجرة

ارتبط المغرب، منذ قرون طويلة، لأسباب دينية وأخرى بشرية واقتصادية[٥٨] بعلاقات تجارية قوية مع بلدان المشرق عموما، ومصر منها

(٥٨) نقصد بالأسباب الدينية مرور ركب الحاج المغربي سنوياً بمصر وتوقفه، خلال رحلتي الذهاب والإياب، بأهم مدنها، وخاصة منها القاهرة قصد زيارة بعض أضرحتها المشهورة والاتصال بعلمائها وصلحائها. أما الأسباب الاقتصادية فتتمثل في قيام هؤلاء الحجاج بعمليات بيع وشراء لتغطية تكاليف السفر وما يقتضيه من مستلزمات. ومما شجع المغاربة على ممارسة هذا النشاط التجاري، سواء كان في إطار مواسم الحج أو خارجها، وجود جالية مغربية قوية من كبار التجار، خاصة بمدينتي القاهرة والإسكندرية. يضاف إلى هذا وذاك، توفر السوق المصرية على رواج تجاري =

على وجه الخصوص. وكان هذا النشاط التجاري الهام يتم عبر الطريقين البري والبحري. إلا أن القسط الأوفر منه كان من نصيب الطريق البري الذي كان يسلكه عادة ركب الحاج المغربي، مما يؤكد العلاقة التلازمية التي وجدت دائما بين تلك السفارة الحجية السنوية وهذا النشاط التجاري. لذلك، غالبا ما ارتبطت الإشارة إلى هذا الأخير بما كان يحمله معهم الحجاج المغاربة من بضائع خلال مرحلتي الذهاب والإياب.

فقد ذكر أحد علماء الحملة ممن اهتموا باستقصاء أخبار هذا النشاط التجاري عبر هذا الخط أن حجاج مراكش وفاس كانوا يحملون معهم سنويا من مصر ما يقرب من ثلاثمائة إلى ستمائة بالة[٥٩] من الحرير السوري، وثمن البالة الواحدة خمسمائة بوطاقة[٦٠]، والأقمشة القطنية المصبوغة باللون الأحمر، وخيوط الغزل من نفس اللون وبكميات كبيرة تكفي لحمولة خمسمائة جمل إلى ستمائة جمل، وتزن حمولة الجمل الواحد نحو خمسة قناطر زنة القنطار الواحد مائة رطل، ويحتوي القنطار، عادة، على تسعين إلى مائة قطعة من القماش، يتراوح سعر القطعة بين ستين إلى مائة بارة[٦١]. ويحملون معهم إضافة إلى ذلك مائة جمل من الأقمشة القطنية السورية، وأقمشة الألاجة والقطني. وتقدر

= قوي. للإلمام أكثر بأهمية وخصوصية هذه العلاقات المتنوعة التي ربطت بين المغرب ومصر، انظر: يونان لبيب رزق ومحمد مزين، **العلاقات المغربية ـ المصرية منذ مطلع العصور الحديثة العصور الحديثة حتى عام ١٩١٢** (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠)، ص ٣٩ ـ ٢٢٧، و André Raymond, *Artisans et commerçants au Caire au XVIIIème siècle*, 2 vols. (Damas: Institut français de Damas, 1973), vol. 1, pp. 165-172, and vol. 2, pp. 470-476.

(٥٩) حزمة تضم كمية معينة من الأثواب. ولعلها تعريب لكلمة «balle» التي تحمل نفس المعنى في اللغة الفرنسية.

(٦٠) ريال نمساوي من الفضة، كان شائع التداول في مصر خلال القرن الثامن عشر. كان يسمى أحياناً «أبو طيزة» نسبة إلى طائر النسر المنقوش على أحد وجهيه. كما كان يسمى أيضاً بـ «أبو طاقة» نسبة إلى رسم النافذة أو الطاقة أو هيئة الشباك الصغير الذي كان يظهر أيضاً على أحد وجهيه. انظر: عبد الرحمن فهمي، «النقود المتداولة أيام الجبرتي،» ورقة قدمت إلى: **عبد الرحمن الجبرتي: دراسات وبحوث: أعمال الندوة التي نظمتها «الجمعية المصرية للدراسات التاريخية» من ١٦ ـ ٢٣ أبريل ١٩٧٤**، بإشراف أحمد عزت عبد الكريم (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦)، ص ٥٥٨.

(٦١) وحدة نقدية عددية تعادل نصف فضة. أصل هذه التسمية فارسي. كانت واسعة الاستعمال بمصر خلال القرن الثامن عشر. انظر: فهمي، المصدر نفسه، ص ٥٧٣.

أثمان حمولة الجمل بنحو خمسمائة إلى ستمائة بوطاقة. أما البخور والجاوي والمسك وطيب الزباد التي كانت تجلبها قوافل فاس ومراكش من مصر فتقدر بنحو ألفين إلى ثلاثة آلاف بوطاقة[٦٢].

أما الصادرات المغربية إلى مصر فتؤكد الإحصائيات أن حجمها كان أقل من الواردات، وكانت تتركز أساسا على تصدير منتوجات الصناعة التقليدية، مثل الطرابيش والبرنص والأحرمة والشال والبلغ، إضافة إلى المواد الغذائية. فقد ذكر المصدر السابق أن الإسكندرية كانت تستقبل من فاس وسوس بواسطة السفن الأوروبية: الزيت والطرابيش. ويبلغ عدد السفن التي تقوم بجلب هذه السلع في السنوات العادية من سبع إلى ثماني سفن. ويصل سنويا من نفس الطريق: ثلاثمائة صندوق من الطرابيش، يحتوي كل صندوق على خمسين إلى مائة دستة[٦٣]، ويتراوح ثمن الدستة من عشرة إلى خمسة وعشرين بوطاقة حسب النوع، وثلاثين إلى أربعين بالة من الشيلان الصوفية البيضاء للعمامة، وتضم كل بالة من مائتين إلى أربعمائة قطعة، متوسط ثمن القطعة بوطاقتان، وثلاثين ألف زوج من النعال المغربية الصفراء المصنوعة في مراكش وطرابلس وتونس[٦٤].

وإذا نحن تذكرنا أن القسط الأوفر من المبادلات التجارية بين المغرب ومصر كان يتم عن طريق البر، أمكننا تصور ما كان يصل إلى مصر من سلع مغربية عبر قافلة الحج. لذلك، يجدر بنا تقصي أخبار هذا التيار المتدفق من المبادلات التجارية، في وقت أصبحت فيه مصر تحت الحراب الفرنسية.

نستطيع القول، من خلال ما توافر لدينا من معلومات، إن هذه العلاقات التجارية قد عرفت خلال سنوات الحملة حالة من الاضطراب

(٦٢) ب. س. جيرار، «تجارة مصر مع دول البربر،» في: **موسوعة وصف مصر**، ترجمة زهير الشايب، ٩ ج (القاهرة: الهيئة المصرية العمة للكتاب، ٢٠٠٢)، ج ٤، ص ٢٥٣ ـ ٢٥٨.

(٦٣) لعلها تحمل نفس معنى دزينة في الاستخدام الدارجي المغربي. وهي كلمة ذات أصل لاتيني.

(٦٤) المصدر نفسه، ص ٢٥٣ ـ ٢٥٨.

والتراجع جعلتها أقرب ما تكون في حالة توقف شبه تام. وذلك لعدة أسباب؛ منها، على الخصوص، التدابير الأمنية التي أخضع لها ركب الحاج المغربي الذي عرف بدوره تراجعا ملحوظا وربما انقطع كلية في إحدى السنوات. يضاف إلى ذلك غلاء أو انقطاع السلع التي كان يتاجر فيها المغاربة، بسبب الحصار البري والبحري الذي أخضعت له مصر من طرف الدولة العثمانية وإنجلترا. ناهيك عن حالة الحرب التي كانت تخيم، طيلة هذه المدة، على مصر والشام. مصداق ذلك كله ما قاله الجبرتي في معرض كلامه على حوادث سنة ١٢١٥هـ/ ١٨٠٠ ـ ١٨٠١م: «ومنها، استمرار انقطاع الطرق وأسباب المتاجرة وغلو البضائع المجلوبة من البلاد الرومية والهندية والحجازية والمغرب، حتى غلت أسعار جميع الأصناف، وانتهى سعر كل شيء إلى عشرة أمثاله وزيادة على ذلك. فبلغ رطل الصابون ثمانين نصفا[٦٥]، واللوزة الواحدة بنصفين، وقس على ذلك»[٦٦]. ويستفاد من إشارة أخرى وردت أيضا عند الجبرتي، أنه على الرغم من المجهودات التي بذلتها إدارة الاحتلال الفرنسية لتنشيط المبادلات التجارية مع بلدان المغرب، خاصة على عهد الجنرال عبد الله مونو، استمر الوضع على حالته السابقة، حيث «لم يظهر لذلك أثر»[٦٧].

نستخلص مما سبق أن التجار المغاربة الذين اعتادوا التردد على البلدان المشرقية ومصر منها على وجه الخصوص، وتمكنوا من خلق جالية تجارية قوية بجل هذه البلدان، تلقوا ضربة قاسية بسبب هذا الحدث العدواني الذي استهدف مصر وتسبب في توقف تلك الصلات التجارية أو على الأقل تراجعها بشكل كبير. بهذه الصورة إذن ستتمثل الحملة الفرنسية على مصر والشام للتجار المغاربة الذين اعتادوا تنمية مبادلاتهم وأنشطتهم التجارية مع هذين البلدين الإسلاميين. وهي كما نرى، صورة سلبية من جهتين: من جهة نزولها بساحة بلد إسلامي شقيق

---

(٦٥) نصف فضة: وحدة نقدية عددية صغيرة لمساعدة النقود الرئيسة من الذهب والفضة على إتمام الصفقات التجارية وتسهيل المبادلات الضئيلة القيمة. انظر: فهمي، المصدر نفسه، ص ٥٦١ و٥٧٣.

(٦٦) الجبرتي، **مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس**، ج ٢، ص ٤٩٣ ـ ٤٩٤.

(٦٧) المصدر نفسه، ص ٤٤٧ ـ ٤٤٨.

كانت تربطه بهؤلاء التجار علاقات وجدانية خاصة. ومن جهة حرمانها إياهم من ارتياد هذا البلد الذي كان يسمح لهم، قبل قليل، بمبادلة سلعهم التجارية وتنمية مداخيلهم. ولعل هذا هو ما عناه الزجال المغربي، ولد ارزين، حينما قال، في قصيدته «المصرية»، مبشرا التجار المغاربة باستعادة نشاطهم التجاري المعهود مع مصر:

«دابا تجارها تتسوق ويفر كل كاسب

والبيع والشرا يتحرك وتجود به الأيام»[٦٨].

٢ ـ تجار المحور الأوروبي بين جاذبية الأسواق الأوروبية وتهديدات القراصنة

لم تقتصر علاقات المغرب التجارية على بلدان المشرق، بل واكبها أيضا انفتاح تدريجي للتجار المغاربة على الأسواق الأوروبية التي كانت تعرف ساعتها انتعاشا حقيقيا بفضل الآثار الإيجابية المترتبة على التحولات البنيوية التي كانت تشهدها آنذاك اقتصاديات أوروبا الغربية. لذلك، وجب علينا استكمال هذا المبحث بالتوقف عند الحالة التي سيؤول إليها وضع هؤلاء التجار في علاقتهم بهذه الحملة.

ورد في أحد تقاييد الضعيف الرباطي لسنة ١٢١٢هـ/١٧٩٧ ـ ١٧٩٨م أن مولاي سليمان «بعث (...) كتابه أن لا يطلع أحد من أهل فاس للعيادة إلا من بعث له»[٦٩]. أما السبب في ذلك فهو أن السلطان كان «مغاضبا على أهل فاس حين أمرهم بالحج وتربصوا عليه، حتى قال السلطان لأهل فاس: أمرتكم بالحج فأبيتم، وطلبت منكم الزكوة فامتنعتم، ولا أردتم إلا بر النصارى، فأنا أترككم لبر النصارى لكي تعودون [كذا] من جملتهم من أجل حب الدنيا»[٧٠].

وبغض النظر عن موقف مولاي سليمان من أهل فاس بخصوص

---

(٦٨) محمد الفاسي، «مشاركة المغرب في الجهاد المصري للحملة الفرنسية،» **دعوة الحق**، السنة ١٦، العددان ٤ ـ ٥ (١٩٧٤)، ص ٦٤.

(٦٩) الضعيف، **تاريخ الضعيف: تاريخ الدولة السعيدة**، ص ٣٠٥.

(٧٠) المصدر نفسه.

مسلكياتهم الخلقية، يستفاد من هذه المعلومة أن تغيرا ما بدأ يطرأ على المحاور التقليدية التي كان يتحرك عبرها التجار المغاربة. ففي الوقت الذي كان يشهد فيه المحور التجاري الرابط بين المشرق والمغرب تراجعا ملحوظا، كانت علاقة التجار المغاربة بأوروبا وموانئ البحر الأبيض المتوسط عموما تتقوى أكثر فأكثر. كما أن هذا التحول لم يعد يقتصر على تجار الموانئ المتوسطية والأطلسية، مثل الصويرة وأسفي والجديدة وتطوان، بل طالت آثاره تجار المدن الداخلية، مثل فاس التي اشتهرت بروابطها التجارية القديمة مع المشرق.

ومما يؤكد أكثر شيوع هذه الظاهرة هو ما جاء في الرسالة التي كتبها بهذه المناسبة الفقيه والكاتب المخزني، محمد الرهوني، تحت عنوان يختزل موقف هذه الشخصية الدينية والسياسية من المتاجرة مع أوروبا، وهو «الرسالة الوجيزة المحررة في أن التجارة إلى أرض الحرب وبعث المال إليها ليس من البررة»[٧١]. قال في في مستهل هذه الرسالة: «إنه عمت البلوى في هذا العصر بمسألة، وهي سفر تجار المسلمين إلى أرض الحرب والكفر. ومن لم يسافر بنفسه بعث معهم البضائع بأجر وبغير أجر من دون تغيير أحد عليهم ذلك ولا نكير. مع أن تحريم ذلك جلي شهير»[٧٢].

وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى أنه لم يكن يسمح بالسفر إلى «أرض الحرب والكفر» هاته والمتاجرة معها إلا لمن كان «من أهل المروءة والدين والمال دون غيرهم»[٧٣]، ويمنع عنه «السفلة وقليل الدنيا والدين»[٧٤]. يستفاد من هذا أن هذا النشاط التجاري كان محصورا في عدد من العائلات المشهورة والمتنفذة، مثل عائلة ابن زاكور بفاس

---

(٧١) محمد الرهوني، «الرسالة الوجيزة،» (مخ. خ. ع.)، ص ٣٥٨.

(٧٢) المصدر نفسه.

(٧٣) انظر الرسالة التي بعثها السلطان مولاي عبد الرحمن إلى قائد تطوان عبد الرحمن أشعاش في رجب سنة ١٢٤١هـ/ ١٨٢٤م، يأمره فيها بأن لا يسمح بركوب البحر من مينائها بقصد التجارة في الخارج، إلا لمن توفرت فيه هذه الشروط الثلاثة، إسوة بما كان عليه الحال في عهد والده مولاي سليمان حيث كان «لا يركبه إلا فلان وفلان ممن له دنيا ودين». انظر أيضاً: داود، **تاريخ تطوان**، ج ٨، ص ٩١ ـ ٩٢.

(٧٤) المصدر نفسه.

وأولاد العطار بتطوان وابن صالح بأسفي وغيرهم. وهذا معناه أنه خلافا لتركيبة تجار المحور المشرقي، التي اتسعت في ما يبدو لمختلف أصناف التجار، امتاز هذا المحور باقتصاره على التجار الكبار ممن كانت لهم القدرة على ارتياد البحر والتنقل بين مختلف الموانئ والمدن الأوروبية، بل والسفر إلى عواصمها الكبرى، مثل باريس، والإقامة هناك شهورا، وأحيانا أعواما للمطالبة باسترجاع حقوقهم المغتصبة من طرف القراصنة الفرنسيين.

- فكيف إذن سيتعامل تجار من هذا الحجم مع حدث الحملة، الذي لا شك أنه وصلتهم بعض آثاره وانعكاساته؟

إذا كانت أبواب التجارة قد سدت أمام المغاربة في ما يخص مصر والمشرق بصفة عامة بسبب الحملة، فإن سبل المتاجرة بين هؤلاء وأوروبا لم تكن في الغالب ميسورة بسبب ما كانوا يتعرضون له من حجز ومصادرة من قبل القراصنة الفرنسيين. فقبل نزول الحملة بأرض مصر كانت فرنسا قد سنت عدة قوانين وإجراءات حربية تخول بموجبها لقراصنتها حجز ومصادرة أي مركب تجاري يخرج من دولة معادية أو توجد على متنه سلعة من صنع مصدر معاد مثل إنجلترا أو البرتغال(٧٥). وبعد دخول القوات الفرنسية مصر والشام ومحاصرتها هناك من طرف الأسطول البحري الإنجليزي وحليفه البرتغالي تشددت حكومة الإدارة أكثر في تطبيق هذه الإجراءات. فشجعت بذلك قراصنتها على وضع أيديهم على عدد من المراكب التجارية التابعة لعدد من الدول الأوروبية المعادية منها والصديقة. فنتج عن ذلك وقوع عدد من التجار المغاربة ممن كانوا يوجدون بهذه المراكب تحت طائلة الحجز والمصادرة لهذا السبب أو ذاك. ووافق ذلك هوى قناصلة فرنسا الذين حكموا دائما لصالح قراصنتهم في مجمل الدعاوى التي عرضت عليهم.

ما يهمنا من هذا كله هو أن أغلب التجار المغاربة الذين تضرروا من هذه العمليات القرصنية سواء قبل الحملة أو بعدها عرضوا شكاواهم في

---

(٧٥) كان قانون ٢٦ تموز/ يوليو ١٧٧٨ هو الذي يمنح للقراصنة الفرنسيين شرعية التعرض للسفن القادمة من بلد عدو وحجز بضائعها. ثم أكد مرسوم ٤ ميسيدور سنة ٧، هذا القانون.

بادئ الأمر على مولاي سليمان وقنصل فرنسا بطنجة اللذين راسلا بدورهم حكومة الإدارة وطالباها بإنصاف هؤلاء التجار وتمكينهم من استعادة أموالهم وأمتعتهم. وعندما يئس الجميع من استجابتها لهذه المطالب تسلم هؤلاء التجار بدورهم رسائل من مولاي سليمان وقنصل فرنسا، ثم سافروا إلى باريس لعرض مطالبهم هناك مباشرة على حكومة الإدارة. ونخص بالذكر، من بين هؤلاء، الحاج عبد السلام بن زاكور وولده عبد الرحمن، والحاج محمد بن صالح ورفيقه عبد الله التهامي، ومولاي عبد السلام الدباغ ورفيقه أحمد بن إبراهيم، وعبد السلام أميار ورفيقه محمد إسماعيل، والرايس عبد الله ميكاني، والحاج عبد الرحمن العطار.

تزامن حلول هؤلاء التجار بالديار الفرنسية مع البدايات الأولى للحملة على مصر. فأضحوا لهذا السبب وجها لوجه أمام القوة التي نفذت هذا العدوان ضد بلد كانت تربطهم به علاقات خاصة، في وقت كانت تحتجز وتصادر سلعهم بموجب قوانين حربية سنتها وتشددت في تطبيقها الدولة المعتدية بهذه المناسبة.

في خضم هذه الأجواء المتأزمة أصر التجار المغاربة على استرجاع حقوقهم؛ فوجهوا إلى حكومة الإدارة، وخاصة منها وزيري الخارجية والعدل، رسائل عدة يلتمسون فيها الإسراع بتمكينهم من استرجاع أموالهم وبضائعهم المحتجزة أو التي تعرضت للمصادرة، مذكّرين في نفس الوقت بالمعاملة الحسنة التي كان يحظى بها الرعايا الفرنسيون بالمغرب، والموقف المسالم الذي اتخذه مولاي سليمان تجاه حملة بلدهم على مصر والظروف المادية والمناخية التي كانوا يعانون منها في بلد لا يتوفرون فيه على معارف أو أصدقاء.

ورغم تماطل حكومة الإدارة في الاستجابة لمطالبهم استمر هؤلاء التجار يقيمون بباريس في ظروف مزرية اضطرتهم إلى الاستدانة. وعندما عجزوا عن رد هذه الديون المتراكمة لجأوا إلى هذه الحكومة لطلب المساعدة المالية لتلبية حاجياتهم الأساسية من أكل ولباس وسكن. وإذا كان البعض منهم قد أمضى على هذه الحالة حوالى سبعة أشهر ثم رجع إلى المغرب بعد استعادته محجوزا، فقد امتد المقام بالبعض الآخر إلى ما بعد خروج الحملة من مصر ولم يحصل على شيء.

بهذه الصورة إذن ستتمثل الحملة الفرنسية على مصر والشام في أذهان هؤلاء التجار؛ لأن ما وقع لهم من حجز ومصادرة من طرف القراصنة الفرنسيين وقناصلتهم، وما سيلحقهم من عنت وضرر خلال مقامهم بباريس، كان مردّه أولا لحالة الحرب التي كانت سائدة فعلا بين فرنسا وإنجلترا منذ سنوات، لكنه ارتبط أيضا بارتفاع وتيرة المواجهة والصراع بين هاتين القوتين الاستعماريتين بعد نزول القوات الفرنسية بهذين القطرين الإسلاميين.

ومما سيؤكد لدى هؤلاء التجار أكثر ارتباط مصيرهم بتطورات هذه الحملة هي الكيفية التي ستتعامل بها حكومة الإدارة مع مطالبهم حينما أخضعتها لما تقتضيه مصلحتها الاستعمارية، وفي مقدمتها حملتها على مصر. فبعد مدة طويلة من الإهمال وعدم الاكتراث تنبهت حكومة الإدارة فجأة إلى الخطورة السياسية التي أضحت تكتسيها قضية التجار المغاربة بسبب ارتباطها المباشر بموقف المغرب من حملتها على هذا البلد الإسلامي. لذلك، بادرت إلى استخدام كل الوسائل المتاحة، القانونية منها وغير القانونية، من أجل تلبية مطالب هؤلاء التجار حفاظا منها على الموقف السلمي الذي عبّر عنه مولاي سليمان تجاه حملتها على مصر[٧٦].

هكذا إذن، رأى قسم من هؤلاء التجار الذين حلوا بباريس قبل نهاية سنة ١٧٩٨م، مثل عبد السلام بن زاكور ومحمد بن صالح ورفاقهما، بأم أعينهم كيف أن النار التي ظلوا يكتوون بها منذ أن سلبت منهم أمتعتهم وأموالهم أصبحت، لاعتبارات سياسية وعسكرية، بردا وسلاما. فكانت هذه مناسبة اكتشفت فيها هذه الشخصيات التجارية المغربية الأهمية الخاصة التي كان يحتلها المغرب في حسابات دولة استعمارية كبرى مثل فرنسا. كما اكتشفوا في الوقت نفسه خطورة الدور الذي يمكن أن يلعبه المغرب في حالة انضمامه إلى هذه الجهة أو تلك. وبكلمة واحدة، يمكن القول إن التجار المغاربة الذين استفادوا من هذه الظروف الاستثنائية تأكدوا

---

(٧٦) تعرضنا بتفصيل للكيفية التي تعاملت بها حكومة الإدارة مع هؤلاء التجار. انظر المبحث الثاني من الفصل الثاني من هذا الكتاب.

بالملموس من حساسية الموقف الذي أصبحت فيه حكومة الإدارة بسبب مغامرتها العسكرية في مصر، حين رأوا كيف أن مبدأي فصل السلط واستقلالية القضاء اللذين طالما تعللت بهما حكومة الإدارة رمت بهما فجأة عرض الحائط، وأخذت ترهف السمع، لأول مرة، لنداءاتهم.

علمنا من خلال أحد المباحث السابقة أن فرحة هؤلاء التجار لم تكتمل؛ إذ في الوقت الذي كانوا يتهيأون فيه لاستخلاص أموالهم وأمتعتهم والعودة إلى وطنهم فاجأتهم حكومة الإدارة بتجميد قراراتها السابقة ورفضها تسليمهم جوازات السفر إلى حين تحققها فعليا من أن بلدهم المغرب، لم ينضم إلى الدولة العثمانية في حربها المعلنة ضد فرنسا.

مرة أخرى إذن سيعيش هؤلاء التجار، وهم بباريس، على إيقاع الحملة العسكرية التي أوفدتها حكومة الإدارة إلى مصر والشام. لكن عوض أن يعزز هذا الحدث مواقفهم كما حصل سابقا، سيتسبب لهم هذه المرة في مزيد من الأذى والمشاكل؛ لأن الإجراءات التي اتخذت في حقهم بسبب الإشاعات التي راجت حول موقف المغرب من الوجود الفرنسي بمصر ستضطرهم إلى المكوث في باريس إلى بداية الصيف المقبل. وخلال هذه المدة التي ناهزت سبعة أشهر سيستنفذ هؤلاء التجار كل ما كان بأيديهم من أموال. مما سيضطرهم إلى الاستدانة، ثم طلب المساعدة من حكومة الإدارة لتغطية حاجياتهم الأساسية[٧٧]. هكذا إذن أصبح «أهل المروءة والدين والمال» مضطرين، بسبب الإشاعات التي راجت حول موقف المغرب من هذه الحملة، إلى مد أيديهم إلى حكومة الإدارة في وقت كان فيه قراصنتها يحتجزون، بغير وجه حق، أموالهم وأمتعتهم.

أمام هذا الوضع المتردي كثّف التجار المغاربة من اتصالاتهم

---

(٧٧) انظر على سبيل المثال الرسالة التي رفعها كل من الحاج محمد صالح ورفيقه التهامي إلى تاليران يرجوانه فيها إقراضهما ألفي فرنك لتغطية مصاريفهم المستعجلة مثل الكراء والغذاء ورد الديون التي ترتبت عليهم من جراء ذلك. انظر: A.A.E.P., C.C.C. 21, Paris, 7 pluviôse an 7, 200. (26 janvier 1799).

ومراسلاتهم بعدد من الجهات الحكومية قصد إقناعها بضرورة إعادة نظرها في القرار المتسرع الذي اتخذته في حقهم. مذكرين إياها، في نفس الوقت، بحسن العلاقات التي كانت تجمع بين المغرب وفرنسا، واستحالة إرسال مولاي سليمان لأية مساعدة عسكرية إلى مصر بسبب طول المسافة(٧٨).

قبل نهاية شهر نيسان/ أبريل من سنة ١٧٩٩، بدأت حكومة الإدارة تطمئن فعلا إلى ما قدمه إليها مولاي سليمان ومساعدوه من تأكيدات بخصوص استمرار العلاقات السلمية بين المغرب وفرنسا. فكان من نتائج ذلك، أن أذنت لثلاث مجموعات من التجار المغاربة ممن شملهم قرار المنع، بمغادرة فرنسا بعد أن زوّدتهم بقروض مالية لتمكينهم من سداد ديونهم والتحاقهم بالمدن الإسبانية التي كانت تحتجز فيها أموالهم وأمتعتهم، وسلمتهم رسائل تأمر فيها قناصلتها بهذه المدن بتمكين هؤلاء التجار من استعادة محجوزاتهم.

لكن، في الوقت الذي كانت فيه محنة هؤلاء التجار تشرف على الانتهاء كان تجار مغاربة آخرون يسقطون في شراك القراصنة الفرنسيين. فتحتجز بضائعهم، أو تتعرض للمصادرة، أو تسترجع إليهم بعد إرغامهم على تأدية غرامات مالية ثقيلة تحت دعاوى مختلفة، لكنها متصلة كلها بتداعيات الحملة وعلاقة المغرب بها؛ كأن يتهم التجار المغاربة بحيازة بضائع قادمة من مدينة تنتمي لدولة معادية مثل الدولة العثمانية كما حصل لمركبين راكوزيين كانا قادمين من مدينة سميرن العثمانية وبحوزتهما بضائع من هذه المدينة(٧٩)، أو الغليوطة المغربية المسماة بـ «المبريكة» التي وقعت بدورها تحت طائلة الحجز من طرف قرصان فرنسي بدعوى احتوائها على رسالة من مصدر إنجليزي(٨٠). كما لقي

(٧٨) ورد هذا بالخصوص في رسالة رفعها الحاج عبد السلام بن زاكور إلى تاليران. انظر:
A.A.E.P., C.C.C. 21, Paris, 21 ventose an 7, (11 mars 1799).

(٧٩) A.A.E.P., C.C.C. 21, Marseille, Boucanier à Talleyrand, 19 floréal an 7, (8 mai 1799), folio 257.

(٨٠) A.A.E.P., C.C.C. 21, Lettre du Consul marocain à Cadix à Guillet, 9 fructidor an 8 (30 septembre 1799), folio 326.

تجار آخرون نفس المصير لمجرد أنهم خرجوا من ميناء جبل طارق[٨١]، أو كانوا قادمين من الجزائر[٨٢]. وتعرض مركب مغربي، يدعى «مربوحة»، للإغراق بميناء أجد (Agde) الفرنسي، وعلى متنه حمولة تجارية في ملكية الرايس عبد الله ميكاني من الرباط[٨٣] عندما أطلقت عليه حامية الميناء المذكور نيران مدافعها لاشتباهها في نواياه. أكثر من ذلك، طالت يد القراصنة، في وقت متأخر من عمر الحملة، الباشادور الحاج محمد بن اسعيد «الذي أخذ له متاعه بغير حق ولا طريق»[٨٤].

سيدافع هؤلاء التجار، مثلهم مثل تجار المجموعة السابقة، عن أنفسهم بكل قوة واستماتة. فإذا كان البعض منهم قد مكث بالمغرب واكتفى بعرض قضيته على سلطات بلاده والقنصل الفرنسي بطنجة، فإن أشخاصا آخرين، مثل الرايس عبد الله ميكاني والحاج عبد الرحمن العطار، سافروا إلى باريس وألحوا في شكواهم على حكومة الإدارة. بل إن عبد الرحمن العطار مارس ما يشبه الاعتصام عندما استمر يحتج أمام إدارة العلاقات التجارية بالعاصمة الفرنسية على عدم قبول وزير الخارجية الفرنسية أن يتسلم منه الرسالة التي زوّده بها مولاي سليمان في هذا الموضوع.

وخلافا لتجار المجموعة السابقة الذين نالوا حقوقهم كاملة ولو بعد حين، فإن التجار الذين وقعوا تحت طائلة الحجز والمصادرة خلال سنوات الحملة لم ينالوا نفس القدر من الاهتمام من قبل حكومة الإدارة، لأنها لم تعد تعير كبير اهتمام لما يمكن أن يصدر عن المغرب من تهديد ضد جيشها بمصر. لذلك، اقتصر تدخلها على بعض القضايا التي كان لها

---

(٨١) انظر رسالة القائد عبد الله بن عبد المالك إلى أنطوان كَليط في ٢٦ جمادى الآخرة سنة ١٢١٤هـ (A.D.N., Tanger A75).

(٨٢) نقصد بذلك الحاج عبد الرحمن العطار وشركاه الذين تعرضت تجارتهم للحجز من طرف قرصان فرنسي في شهر كانون الأول/ ديسمبر سنة ١٨٠٠. انظر : A.A.E.P., C.C.C. 22, Tarifa, Guillet à Talleyrand, 26 thermidor en 9 (9 juillet 1801), folio 64.

(٨٣) انظر رسالة عبد الله بن عبد المالك إلى كَليط في ٢١ محرم الحرام سنة ١٢١٥هـ (A.D.N., Tanger, A75).

(٨٤) انظر رسالة الوزير محمد بن عبد السلام السلاوي إلى كَليط في شهر ذي القعدة الحرام سنة ١٢١٦هـ (A.D.N., Tanger, A75).

اتصال مباشر بشخص مولاي سليمان، مثل قضية المركبين الراكوزيين اللذين كان يوجد على متنهما تجار يعملون لصالح هذا الأخير وصحبتهم عدد من «جواريه». أما قضية الحاج عبد الرحمن العطار التي سافر من أجلها عدة مرات إلى باريس ولقيت دعما قويا من طرف مولاي سليمان الذي سمح له بمرافقة سفارة الحاج إدريس الرامي إلى نابليون بونابرت سنة ١٨٠٨م، فلم تجد حلا لها إلى حدود هذا التاريخ، وربما أهملت كلية[٨٥]. لأنها، مثلها مثل عدد من القضايا المشابهة، لم تعد تؤثر بنفس القوة على المصالح الاستعمارية لفرنسا وخاصة منها حملتها على مصر.

هكذا إذن ستتاح لهؤلاء التجار المغاربة، سواء من أنصفتهم حكومة الإدارة أو من لم تنصفهم، فرصة الاطلاع المباشر على حدة الصراع الجاري آنذاك بين القطبين الأوروبيين، إنجلترا وفرنسا. كما سيكتشفون، بنفس المناسبة، قوة توجيه الحملة العسكرية التي استهدفت مصر والشام باعتبارها إحدى مظاهر هذا الصراع البارزة، لسلوك هذه الحكومة من الناحيتين العسكرية والسياسية. وبين هذا وذاك، سيتكشف لهم، أكثر من غيرهم، زيف الشعارات التي ما فتئت تروّج لها أجهزة الدعاية الفرنسية على المستوى الدبلوماسي والقنصلي؛ سواء في إطار الثورة الفرنسية، أو ما عرف بـ «سياسة نابليون الإسلامية». لأنهم سيرون بأم أعينهم كيف أن مبدأي فصل السلط واستقلالية القضاء اللذين ظلت تتعلل بهما حكومة الإدارة مدة طويلة، يمكن أن يداسا إذا ما اقتضت ذلك المصالح العليا لفرنسا. كما أدركوا كيف أن استنكار هذه الحكومة الشديد لظاهرة الهدايا التي اعتاد النظام القديم تسليمها للقيادات المغاربية مجرد خرافة حينما كلف البعض منهم بنقل هدايا ثمينة إلى مولاي سليمان ووزيره ابن عثمان[٨٦]، تشجيعا لهما على الاستمرار في مواقفهما السلمية تجاه

(٨٥) للمزيد من التفصيل حول قضية الحاج عبد الرحمن العطار وشركائه، انظر: Catherine Laurent, «Le Maroc et ses relations avec la France de l'Expédition d'Egypte à la prise d'Alger (1798-1830),» 3 tomes (Thèse d'archiviste paléographe, Ecole de Chartes, Paris, 1977), tome 2, pp. 171-172.

(٨٦) كلف تاليران الحاج عبد السلام بن زاكور بنقل هدية ثمينة إلى الوزير ابن عثمان، هي عبارة عن مسدس من طراز رفيع. انظر: A.D.N., Tanger A1, Lettre de Talleyrand à Ben Ottmen, 12 germinal en 7 (1 avril 1799), folio 90.

فرنسا. أما شعار الحرية والإخاء والمساواة الذي تمحورت حوله فلسفة الثورة الفرنسية وعقيدتها فلم يعد يمثل بالنسبة لهؤلاء التجار سوى خدعة حينما صرّح كبيرهم، الحاج عبد السلام بن زاكور، في إحدى رسائله إلى حكومة الإدارة وقد امتلأ قلبه ألما وغيظا بعدما أجّلت عودته إلى المغرب وسرقت منه أمواله ولم يجد حماية من طرف السلطات الفرنسية المعنية: «إن الفرنسيين، لا يمكنهم أبدا أن يعانوا في بلدنا مثل ما نعاني نحن»(٨٧).

ومما لا شك فيه، أن الحاج عبد الرحمن العطار الذي ضاعت منه حمولة تجارية بقيمة أربعة وستين مليون فرنك لمجرد الشبهة ورفض وزير الخارجية استقباله بباريس ثم أصدر قرارا بطرده من فرنسا في ظرف عشرة أيام، والرايس عبد الله ميكاني الذي قصفت مركبه ثم أغرقت بحمولتها في إحدى الموانئ الفرنسية لمجرد الشبهة أيضا، سوف لن تنطلي عليهما ولا على شركائهما شعارات الثورة الفرنسية أو سياسة نابليون «الإسلامية».

تأكد لنا من خلال هذا الفصل أن الطريق التجاري الذي ظل يربط قرونا طويلة بين المغرب ومصر توقف بشكل شبه نهائي ولم تعد مصر وما والاها من البلدان المشرقية، مثل الحجاز والشام، تستقبل من المغرب أو تصدّر إليه سوى القدر القليل من البضائع. والسبب في ذلك راجع بالدرجة الأولى إلى حالة الحرب التي تسببت فيها الحملة الفرنسية على مصر والشام. ومن خلال استعراضنا لبعض حالات الحجز والمصادرة والابتزاز والإغراق التي كان يتعرض لها التجار المغاربة ممن كانوا يتعاملون مع بعض موانئ البحر الأبيض المتوسط، الأوروبية منها والإسلامية، تأكد لنا أن هذه الخطوط ظلت إلى حد ما نشطة. إلا أن هذا النشاط تمت عرقلته بشكل كبير بسبب الاعتداءات المتكررة التي كان يقترفها قراصنة فرنسا في حق هؤلاء التجار لاعتبارات تتعلق بملابسات الصراع التقليدي بين إنجلترا وفرنسا وحملة هذه الأخيرة على مصر والشام. وكما رأينا، تسببت هذه الاعتداءات في ضياع أموال واسعة لعدد من التجار

---

(٨٧) انظر رسالة الحاج عبد السلام بن زاكور إلى تاليران: A.A.E.P., C.C.C.21, Paris, 7 Ventôse, an 7 (25 février 1799), folio 222.

المغاربة، وأدت إلى تعطيل مصالحهم بسبب غيابهم الطويل عن بلدهم.

ومما يسترعي انتباهنا في هذا الإطار هو استماتة تجار المحور الأوروبي ممن تضرروا من عمليات القرصنة، في المطالبة باسترجاع أموالهم وأمتعتهم. فقد تحملوا من أجل ذلك مشاق كبيرة تمثلت في ترددهم بين مدنهم ومكناس وطنجة بهدف عرض قضاياهم على مولاي سليمان والقنصل الفرنسي. وبعد ما يئسوا من نيل حقوقهم عبر هذه القنوات توجهوا إلى باريس وأقاموا بها شهورا وأحيانا أعواما، في وسط بشري وطبيعي يختلف عن بلدهم من حيث اللغة والدين والعادات والمناخ وداخل عاصمة بلد تقود حكومتها أول هجوم استعماري من نوعه داخل العالم الإسلامي. وبينما هم كذلك، تعرض البعض منهم للمضايقة والمراقبة الأمنية بسبب ما راج من إشاعات حول إعلان المغرب الحرب ضد فرنسا، ومنهم من تعرض أيضا للسرقة. وأتّوا كلهم، تقريبا، من قلة ذات اليد أو نفادها بالمرة، مما اضطرهم إلى تكفف حكومة الإدارة لتزودهم بما يتعيشون به.

٣ ـ قراءة تجار المحور الأوروبي لمتغيرات الوضع الفكري والسياسي بفرنسا

قبل الانتهاء من هذا المبحث نذكر أن هذا الصنف من التجار كان يتكون من شخصيات متعلمة ومتمرسة بأمور السياسة والعلاقات بين الدول، وتتمتع بنفوذ داخل المغرب، ويعتبر السفر بالنسبة لها إلى باريس والإقامة بها والاتصال بمولاي سليمان والقنصل الفرنسي بطنجة، أو مراسلة حكومة الإدارة، أمرا عاديا. كما علمنا، من جهة أخرى، أن هذه الثلة من التجار قضت زمنا لا بأس به في التنقل بين عواصم وفضاءات أوروبية، في وقت كان لا يعلم فيه المغاربة إلا القليل عما يجري بالضفة المقابلة. ومما لا شك فيه أن شخصية مثل الحاج عبد السلام بن زاكور الذي سبق له أن عُيّن شيخا لركب الحاج المغربي[٨٨] وولده عبد الرحمن

(٨٨) لا نعلم متى عُيّن في هذا المنصب، لكنه أكد غير مرة صفته تلك في رسائله إلى حكومة الإدارة.

الذي كان يتنقل بتجارته بين موانئ البحر الأبيض المتوسط، والحاج محمد بن صالح والحاج عبد الرحمن العطار اللذين كانا ينتميان لبيوتات كبرى في أسفي وتطوان، والرايس عبد الله ميكاني الذي اشتهر بتداخله مع النصارى وخاصة التجار منهم[٨٩]، والباشادور محمد بن سعيد، كل هؤلاء كانوا مؤهلين للتفاعل مع ما كان يجري من أحداث وتطورات داخل العاصمة الفرنسية باريس التي كانت تعيش آنذاك على إيقاع الثورة الفرنسية وتتردد داخلها أصداء حملتها على مصر والشام.

يدفعنا هذا إلى التساؤل عن حدود إدراك هذه العينة المنتخبة من التجار المغاربة لهذه التطورات السياسية ذات الطبيعة الثورية؟

للأسف الشديد لم يخلف لنا هؤلاء التجار، في ما نعلم، أثرا مكتوبا نستطيع من خلاله أن نتبين حدود تفاعلهم مع تلك الفضاءات الثقافية والسياسية التي حلوا بها. إلا أن بعض الرسائل الموجهة من هؤلاء التجار إلى حكومة الإدارة أو وزيرها في الخارجية والعدل تتضمن إشارات توحي بتفاعلهم مع الخطاب السياسي والدعائي السائد آنذاك. فباسم الإنسانية «L'Humanité» والإنصاف «L'Equité» والمساواة «L'Egalité» والإخلاص «La Loyauté»[٩٠]، ترجى الحاج عبد السلام بن زاكور والحاج محمد بن صالح من وزير الخارجية الفرنسي التدخل لدى حكومة الإدارة من أجل إنهاء معاناتها. وفي رسالة موجهة من الحاج محمد بن صالح ورفيقه عبد الله التهامي إلى نفس الوزير، ترد عبارة الأمة العظمى «La Grande Nation»[٩١]. أما مولاي عبد السلام الدباغ وأحد رفاقه فوعدا وزير الخارجية الفرنسية في إحدى رسائلهما أنهما في حالة مساعدته لهما على العودة إلى المغرب سينشران أخبار «مجد وعدل ونبل الأمة العظمى»[٩٢] «publier tout le gloire, la justice et la magnanimité de la grande nation[sic]».

---

(٨٩) للمزيد من التفصيل حول هذه الشخصية، انظر: الضعيف، **تاريخ الضعيف: تاريخ الدولة السعيدة**، ص ١٩٨، و A.A.E.P., C.C.C. 21, Paris, s.d, folio 170.

(٩٠) A.A.E.P., C.C.C. 21, Paris, s.d, folio 170.

(٩١) A.A.E.P., C.C.C. 21, Paris, 16 ventôse an 7 (6 février 1799), folio 225.

(٩٢) A.A.E.P., C.C.C. 21, Paris, 17 ventôse an 7 (7 février 1799), folio 226.

يتضح، جليا، أن هذه مصطلحات مستحدثة وغير متداولة في القاموس السياسي المغربي لتلك الفترة. وسواء أجاءت هذه العبارات القوية على لسان التجار المغاربة أو كتبت بإشارة من مترجميهم، فمن المؤكد أنهم كانوا على علم ببعض معانيها المتداولة آنذاك في الأوساط الثورية الباريسية.

ورغم كوننا لا نتوفر في الوقت الحالي على أي مؤشر خارج هذه الرسائل نستطيع من خلاله قياس أهمية هذا التأثير في سلوك هذه النخبة التجارية، نعتقد أن الاتصالات المكثفة التي أجروها مع السلطات الفرنسية بباريس ومفاتحتهم لها غير مرة في موضوع القضايا التي سافروا من أجلها، مكنتهم من التعرف، بشكل أو بآخر، على مبدأين رئيسين من مبادئ القانون الدستوري، وهما: مبدأ فصل السلطات، ومبدأ استقلالية القضاء. تهيأ لهم ذلك عندما رفضت هذه السلطات، وعلى رأسها وزير الخارجية، البث مباشرة في شكاواهم، وطلبت منهم عرضها أمام محكمة الاستئناف، لأن أغلب هذه القضايا كانت قد حكمت لصالح القراصنة الفرنسيين أمام المحاكم الابتدائية. ورغم رفض هؤلاء التجار القيام بهذا الإجراء، معولين في ذلك على عدالة قضاياهم والرسائل التي كانوا قد توصلوا بها من مولاي سليمان، فإن هذه المناسبة أتاحت لهم اكتشاف أحد وجوه التطور القوية في الحياة السياسية الغربية والفرنسية منها على وجه الخصوص.

خلاصة الفصل السادس

وأخيرا، يجدر التذكير أنه في الوقت الذي كانت تقاسي فيه هذه الثلة من التجار المغاربة ألوانا من المعاناة من أجل استرجاع حقوقها العينية والمالية داخل العاصمة الفرنسية، كان الحجاج المغاربة ومن بينهم عدد من التجار يلاقون نفس المشاق في بلد إسلامي بسبب وقوعه تحت طائلة الاحتلال الفرنسي. وفي كلتا الحالتين حرصت السلطات الفرنسية، عسكرية وسياسية، لاعتبارات المصلحة الوطنية، على عدم الإساءة لهذا الصنف من الرعايا المغاربة.

وبغض النظر عن حجم النجاح الذي لاقته هذه السلطات في مسعاها هذا، سواء داخل فرنسا أو مصر، فإن القاسم المشترك بين هاتين التجربتين بالنسبة للحجاج والتجار المغاربة تمثل في الشجاعة التي تمكنوا من خلالها من اقتحام ومعايشة دول كانت تصنف عندهم؛ إما ضمن «دار الكفر» أو «دار الحرب» مثل فرنسا، أو أنها أصبحت تحت حكم هؤلاء «الكفار» مثل مصر والشام. وقد ترتب عن هذا السلوك الاقتحامي نتيجة هامة وغير منتظرة تمثلت في احتكاك جزء هام من النخبة المغربية، عبر فضاءات مختلفة، بحدثين دوليين هامين وقعا على بعد آلاف الكيلومترات من بلدهم. فإذا كانت الثورة الفرنسية وحملة الشرق قد بقيتا جغرافيا بعيدتين عن المغرب، فإنه، لأسباب دينية وأخرى تجارية، اضطر عدد من الحجاج والتجار إلى الاحتكاك المباشر بهما ونقل أخبارهما إلى المغرب.

الفصـــل السابع

موقف مطلق فئات المجتمع المغربي من الحملة: صور التضامن وأشكال التعبير

مقدمـة

كان في نيتنا عرض ومناقشة موقف مطلق فئات الشعب المغربي، قبل أن نتطرق إلى بسط موقف كل من القيادة السياسية ومختلف فئات النخبة العالمة والتجارية، اعتقادا منا أن ردود الفعل الشعبية هي أول ما يطفو على السطح بمناسبة حدث مثل الحملة الفرنسية على مصر والشام؛ لأن تحركات الشعوب غالبا ما تتفلت من ضغط الحسابات السياسية ولا تبالي كثيرا بمنطق الربح والخسارة، بل تتأسس على عفوية مطلقة منبعثة من وحدة المشاعر الدينية التي تربط بين المغاربة وغيرهم من الشعوب الإسلامية، واعتقادا منا كذلك أن المواقف الشعبية كانت من القوة بحيث يمكنها توجيه مواقف القيادة السياسية والنخب العلمية والتجارية.

غير أنه تبين لنا بعد تصفح مضامين الفصول السابقة خلاف ذلك. صحيح أن استجابة الشعوب تأتي في مناسبات مثل هاته أسرع وأصدق من استجابة النخب والقيادات السياسية. لكن، هذا لا يجب أن ينسينا أن ما يمكن أن نسميه بـ «الموقف الشعبي» في هاته الفترة البعيدة نسبيا، كان محكوما بما يسمى الآن في الخطاب السياسي المعاصر بـ «صناع الرأي العام». وغني عن القول، أن هؤلاء كان يمثلهم في ذلك التاريخ العلماء والفقهاء ومن يتصل بهم من أئمة وخطباء وشعراء وزجالين

وحجاج ومتصوفة. وكانت وراء هؤلاء جميعا القيادة السياسية التي تملي إرادتها ووجهة نظرها على الجميع بما في ذلك الأطر العلمية والدينية التابعة لها. وفي مثل الحالة التي نحن بصدد مناقشتها كان أيضا لحرب الدعاية والدعاية المضادة التي كانت تمارسها الدول الأوروبية المتصارعة نصيبها في صناعة هذا الرأي العام بسبب افتقار الدولة المغربية إلى وسائل تمكنها من نقل الخبر اليقين وتوجيهه الوجهة التي تقتضيها مصلحتها، وبسبب تهافت الأطراف المتنازعة على كسب الشعب المغربي إلى جانبها، أو على الأقل تحييده.

لهذه الاعتبارات ارتأيت أن أؤجل عرض ومناقشة موقف مطلق الفئات الشعبية إلى حين الانتهاء من بسط مواقف كل من القيادة السياسية والنخبتين العالمة والتجارية. ومعنى هذا، أنه عوض أن أتعامل مع هذه المواقف الشعبية باعتبارها عنصر ضغط وتوجيه، سأتناولها هنا من حيث هي محصلة طبيعية لتوجهات كل من الفاعلين السياسيين والنخب المتنفذة في هذه الأوساط الشعبية. لذلك، سنعتبر هذا الفصل مجرد تكملة ننهي بها هذا الباب الذي خصصناه للكشف عن أحد أوجه التفاعل والتضامن بين الشعب المغربي بمختلف مكوناته، وما حل بمصر والشام من عدوان واحتلال.

ليس من السهل العثور على آثار مكتوبة أو شفوية تعكس بشكل أو بآخر كيفية تعامل أو تعاطي مطلق أفراد الشعب المغربي مع حدث الحملة الفرنسية على مصر والشام. وذلك لأسباب مختلفة، منها، أولا، المسافة الزمنية البعيدة التي تفصلنا عن هذا الحدث، والتي جاوزت الآن قرنين من الزمن. وغني عن القول إنه بعد مضي زمن بهذا القدر يستحيل إن لم ينعدم العثور على رواية شفوية يمكننا من خلالها تبين ردود الفعل الشعبية تجاه هذا الحدث الاستعماري. وإذا كان المصدر الشفوي قد أصبح في حكم المستحيل، فإن ما تخلف من آثار مكتوبة لا يفي دائما بالغرض. ذلك، أنه إذا كانت تحركات الشعوب في مناسبة مثل هاته لا تعدم، فإن التأريخ لها غالبا ما يتم، إن هو تم فعلا، من طرف عناصر لا تنتمي بالضرورة إلى هذه الأوساط الشعبية. الشيء الذي يترتب عليه، من جهة أولى، تحيز وانتقائية هذه الكتابات بسبب مواقف أصحابها المضمرة أو الصريحة بخصوص تحركات هاته الفئات التي

غالبا ما تتهم بـ «الغوغائية»، وينتج عنه، من جهة ثانية، ضعف وقلة الوثائق أو النصوص التي تغطي الأحداث والممارسات التي قد تصدر عن مثل هذه الفئات.

وإذا كان هذا الكلام غالبا ما يصدق على الكتابات المغربية، فإن الوضع يختلف جوهريا عندما يتعلق الأمر بما كانت تلتقطه عيون القناصل الأجانب وأعوانهم؛ لأن مهمة هؤلاء كانت تتمثل أساسا في رصد وتقصي تحركات كل فئات المجتمع، وخاصة منها الفئات الشعبية التي تصعب مراقبة تحركاتها أو التكهن بردود أفعالها في حالة مثل هاته. ومعنى هذا أنه بإمكاننا التعويض، ولو جزئيا، عن القصور الذي شاب المصادر المغربية المكتوبة، من خلال ما وصلنا من تقارير وأخبار الأجهزة القنصلية الأجنبية، وخاصة منها الفرنسية. وفي هذا الإطار، نأسف لعدم تمكننا من الاطلاع بشكل مفصل على مراسلات القناصل الأوروبيين الذين ينتمون لدول معادية لفرنسا، وخاصة منها إنجلترا والبرتغال، والاقتصار على ما كتبته بهذه المناسبة أجهزة الطرف المعتدي، أي فرنسا. كما نأسف لعدم توافر الأرشيف الفرنسي على تقارير بعض الأعوان القنصليين الذين كانوا يعملون في مناطق حساسة مثل فاس ومكناس وتطوان.

ورغم ذلك، نعتقد أن ما توافر لدينا لحد الآن من معلومات، يمنحنا الفرصة لإعطاء صورة تقريبية عن مختلف ردود الفعل التي انتابت آنذاك الأوساط الشعبية بالمغرب بعد نزول القوات الفرنسية بهذا البلد الإسلامي الشقيق.

أولاً: مقاطعة شعبية لاحتفالات خروج ركب الحاج المغربي

سبق لنا إدراج الحج ضمن الممارسات النخبوية التي تقوم بها، أساسا، الفئات المتعلمة والطبقات الميسورة. لكن، هذا التصنيف لا ينفي مشاركة مطلق أفراد الشعب في أداء هذه الشعيرة الدينية. ذلك، أن فئات شعبية عريضة كانت تتجشم من أجل ذلك مشاق السفر، وتتحمل تكاليفه العالية. فقد جاء على لسان الجبرتي، وهو يصف ركب الحج المغربي بعد نزوله بالقاهرة سنة ١٢١٣هـ، بأنهم «من قرى ونواحي فاس مثل

الفلاحين»[1]. كما يلاحظ، من جهة أخرى، أن هذه الفئات كانت، بحكم ارتباطها الروحي بهذه الممارسة الدينية، معنية بحدث الحملة الفرنسية على مصر؛ نظرا لما كانت له من انعكاسات مباشرة على ظروف أدائها لهذه الفريضة الدينية التي تحظى بقدسية كبيرة لدى عموم المغاربة.

من هذا المنطلق نرى ضرورة تقصي ردود الفعل التي ستثيرها هذه الحملة داخل أوساط الشعب المغربي.

سبق أن أشرنا إلى بعض جوانب هذا الموضوع خلال مناقشتنا للمبحث المتعلق بركب الحاج المغربي في الفصل السابق. وأكتفي هنا بالإشارة إلى أن القنصل الفرنسي بطنجة، ضمّن إحدى رسائله أخبارا تفيد أن المغاربة عموما تلقوا بسخط كبير نبأ نزول القوات الفرنسية بالإسكندرية. وأن السبب في ذلك، حسب هذا القنصل، هو اعتقادهم الجازم أن احتلال الفرنسيين لمصر، سيمنعهم من أداء فريضة الحج[2].

ويبدو أن حالة السخط والتذمر التي انتابت عموم الشعب المغربي فور سماعه باحتلال مصر تُرجمت إلى نوع من المقاطعة الشعبية لهذه التظاهرة الدينية. فإذا كان ركب الحاج المغربي لسنة ١٢١٣هـ قد انطلق وفق هيئته المعهودة، فإننا لا نكاد نظفر في المصادر المغربية المعاصرة بإشارة تتحدث عن خروج هذا الركب في السنوات التالية التي استغرقتها الحملة. هذا مع العلم أن الوثائق والمصادر الفرنسية تؤكد استمرار توافد الحجاج المغاربة على الديار المقدسة. وفي هذا دلالة واضحة على تراجع وانكماش حجم وأهمية هذا الموكب الحجي وما كان يواكبه من احتفالات وأفراح في حالتي الذهاب والإياب إلى درجة لم يعد معها يمثل حدثا شعبيا يستحق الإشارة. مصداق ذلك أن الضعيف الرباطي، الذي عدد إشاراته إلى ركب الحاج الذي انطلق سنة ١٢١٣هـ، لم يذكر

---

(١) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ٣ ج (بيروت: دار الجيل، [د. ت.])، ج ٢، ص ٢٧٠.

(٢) A.A.E.P., C.C.C.21, Tanger, Guillet à Talleyrand, 10 vendémiaire an 7 (1 septembre 1798), folio 127.

شيئا عن ركاب الحج التي خرجت في السنوات التالية، لأنه لم يطرق هذا الموضوع مجددا، إلا سنة ١٢١٧هـ التي شهدت فعلا خروج موكب حجي حاشد من الرباط وغيرها من العواصم المغربية[٣].

إضافة إلى أسلوب المقاطعة الذي نرجح أن يكون قد مارسه المغاربة على أوسع نطاق بسبب هذا العدوان، نحتمل أن يكون أغلب من تخلف من الحجاج بمصر، أو انضم منهم إلى المجاهدين المغربيين الذين ظهروا بإقليمي الصعيد والبحيرة، هم من مطلق أفراد الشعب المغربي الذين كان باستطاعتهم التفلت من التوجيهات الرسمية التي كان يلتزم بها أكثر شيخ ركب الحاج ومن معه من الأطر المخزنية والدينية.

ملخص القول إن الحج إلى الديار المقدسة، باعتباره مظهرا دينيا له طابع احتفالي خاص، تأثر بشكل مباشر بالاحتلال الفرنسي لمصر. وترجم هذا التأثير بطرق مختلفة؛ تراوحت بين نوع من المقاطعة الشعبية لهذه التظاهرة الدينية، والانخراط في صفوف المجاهدين المغاربة الذين تصدوا لمنازلة القوات الفرنسية على أرض المعركة.

إضافة إلى هذا وذاك، واكب هذه المقاطعة الشعبية جو من التعبئة العامة في عدد من المدن والجهات المغربية. فقد ناقشنا في الفصل الأخير، بعض الخطب والأشعار التي قيلت بمناسبة الاحتلال الفرنسي لمصر. ولاحظنا أن خطب سليمان الحوات ومحمد الرهوني وغيرهما من الخطباء الذين لم تصلنا خطبهم، كانت موجهة أصلا إلى عامة المواطنين في الجمع والمناسبات الدينية. كما لاحظنا أن أشعار ولد ارزين الزجلية، وفي مقدمتها قصيدته «المصرية»، كانت تستهدف من حيث لهجتها والمناسبات التي كانت تلقى فيها، جمهورا عريضا يتسع لكل فئات المجتمع. فنحن هنا إذا أمام ما نسميه في لغتنا المعاصرة بـ «سوق استهلاكية» واسعة، تتألف من هذا الجمهور المتنوع الذي كانت تستهدفه هذه الخطب والأشعار الزجلية.

نستنتج مما سبق، أن هذا المنتوج النثري والشعري، كان يشكل،

---

(٣) محمد الضعيف، **تاريخ الضعيف: تاريخ الدولة السعيدة**، تحقيق وتعليق وتقديم أحمد العماري (الرباط: دار المأثورات، ١٩٨٦)، ص ٣٢٥.

من حيث مضمونه والمناسبات والأماكن التي كان يروّج فيها، نقطة التقاء بين أفراد النخبة العالمة ممن هز مشاعرهم وأحاسيسهم هذا العدوان العسكري، وجمهور عريض من المتعطشين إلى سماع الخبر اليقين عما كان يجري بأرض المعركة، وتحدوه رغبة قوية في الاستئناس برأي الفقهاء والعلماء ومن اتصل بهم من الشعراء والزجالين. ومن يدري، ربما حركت خطب وأشعار محمد الرهوني وسليمان الحوات وولد ارزين وغيرهم، داعي الجهاد في نفوس بعض الجماعات أو الأفراد بهذه المناسبة، وخلقت ما يشبه جو التعبئة العامة في مختلف المناطق المغربية، خاصة منها المدن الساحلية التي كان يراقب سكانها، صباح مساء، أساطيل القوى الأوروبية المتصارعة.

وفعلا، فإن عددا من رسائل أعوان القنصل الفرنسي تؤكد أن بعض المدن المغربية، خاصة منها الساحلية، كانت تعيش حالة أشبه ما تكون بالتعبئة العامة، يتخللها خوف شديد من احتمال هجوم أجنبي ما على هذه الجهة أو تلك، مصحوبا بتوجيه الشتائم إلى مختلف الرعايا الأوروبيين، ولا سيما منهم الفرنسيين. ولنا في الرسائل التي كانت ترد على القنصلية العامة الفرنسية بطنجة من مدينتي الرباط وسلا خير مثال على ذلك.

يتبين لنا من خلال هذه الرسائل أن افتقار المغاربة، قيادة وشعبا، إلى وسائل فعالة تمكنهم من التحقق من الإشاعات التي كان يمطرهم بها قناصل القوى الأوروبية المتصارعة، جعل الناس يعيشون في حالة من الترقب المفعم بخوف شديد من احتمال وقوع بلادهم في قبضة «الكفار». وإذا صح أن نعزو هذا الخوف إلى عدم تحكم المغرب في مصادر الخبر، فإننا نستنتج، من جهة ثانية، أن ما حصل بمصر والشام، جعل عموم الشعب المغربي أشد حساسية وأكثر ارتيابا في أقل حركة يمكن أن تصدر من جهة البحر الذي كان يعج ساعتها بعساكر القوى المتناحرة، وعلى رأسها الأسطولان الفرنسي والإنجليزي. وإذا كانت الدعاية الإنجليزية قد فعلت فعلها في أوساط الشعب المغربي وأخذت تحركه وقت ما تشاء، فإن التحذيرات التي تضمنتها أيضا الخطب والأشعار التي كانت تُلقى في شتى المناسبات ساهمت بدورها في هذه التعبئة الجماهيرية.

أول رسالة تطالعنا في هذا الصدد يرجع تاريخها إلى ٢١ تشرين الثاني/

نوفمبر ١٧٩٨، وهي صادرة عن نائب القنصل الفرنسي بالرباط .يقول فيها إنه لا يوجد لديه ما يستحق الذكر من أخبار عن المدينة، لكن بإمكانه أن يؤكد أن العميل الإنجليزي (Agent anglais)، أبوديريم (Abouderem) الذي كان آنذاك بطنجة، قد فعل كل ما في وسعه من أجل تأليب المغاربة ضد الفرنسيين. غير أن اشتهاره لديهم بالكذب، حسب قوله، جعلهم أكثر ثقة في الفرنسيين، وأنهم يعترفون صراحة أن هؤلاء كانوا دائما أشد صداقة للأتراك من الإنجليز[٤].

واضح من منطوق هذه الرسالة أن الموضوع الرئيس الذي كانت تدور حوله حملة هذا العميل الإنجليزي كان هو الاعتداء الفرنسي على مصر، مع ما يتضمن ذلك من دعوة للمغاربة إلى مساندة الدولة العثمانية التي كانت في التاريخ المذكور قد أعلنت الحرب ضد فرنسا، وعلى وشك أن تبرم حلفا عسكريا مع إنجلترا. وعلى الرغم من أن نائب القنصل الفرنسي حاول أن يقلل من أثر هذه الحملة الدعائية، يستفاد من هذه الرسالة أن قسما مهما من المغاربة قد تجاوب مع حملته تلك. ومما يؤكد هذا أكثر الرسالة التي بعثها نفس الشخص إلى أنطوان كَليط في التاسع من شهر دجنبر (كانون الأول/ ديسمبر) من هذه السنة، والتي افتتحها بقوله: «إننا هنا [في الرباط]، في خوف أكثر ما يكون شدة بسبب الأخبار السياسية التي يتم ترويجها. فبالأمس تم ترويج إشاعات تقول إن الأوروبيين يقنبلون الصويرة. وهذا الصباح، قيل إن ستة وعشرين ألف فرنسي تم إنزالهم بطنجة». ثم طلب، بعد ذلك، من القنصل أن يكاتبه في هذا الموضوع «حتى يطمئنوا، لأنه بإمكانهم أن يؤكدوا له أنهم يمرون بأوقات سيئة جدا»[٥].

ويتبين من رسالة تالية لهذا النائب أنه بدأ ينتاب أهل الرباط خوف شديد، وأضحوا يعانون من حالة تشبه الهلوسة؛ إذ كلما تراءى لهم مركب يطوف في عرض مياه الأطلسي اعتقدوه مقدمة لهجوم أجنبي وشيك. فقد أبدى هذا النائب القنصلي، في رسالة له، تعجبّه من خوف المغاربة الشديد من الحرب؛ لأن مجرد ظهور سفينة وفرقاطة قبالة

---

(٤) A.D.N., Tanger A 104, Rabat, Fournet à Guillet, 21 novembre 1798.

(٥) A.D.N., Tanger A 104, Rabat, Fournet à Guillet, 9 décembre 1798.

المدينة واقترابهما قليلا من الساحل، جعلهم يقيمون، حسب قوله، الحراسة بكل القلاع طيلة ليلتين كاملتين[٦].

أما نحن، فلا نقاسم هذا الرجل تعجّبه، بل نقول إن المغاربة كانوا، إما بسبب الدعاية الإنجليزية أو الروايات التي ينقلها الحجاج والتجار عما وقع ويقع بمصر، ينتظرون فعلا إنزالا عسكريا فرنسيا بسواحلهم شبيها بما وقع في الإسكندرية. أوَلم يطلب علماء المدن الشمالية من مولاي سليمان الترخيص لهم بحمل السلاح والتزود بالذخيرة للدفاع عن أقاليمهم ضد أي هجوم محتمل[٧]؟ ثم أوَلم يؤكد هذا النائب نفسه، في تاريخ غير بعيد، «أن المغاربة يتحدثون دائما عن الإسكندرية؟»[٨].

وإذا كان الأمر كذلك، فلا عجب أن يتعبأ المغاربة في قلاعهم للدفاع عن بلادهم كلما تراءى لهم هائم يهيم على وجهه في صفحة مياه الأطلسي الشاسعة. ألم يكن ما حصل، بالأمس القريب، بالإسكندرية، التي أضحت مدار حديثهم اليومي، مصدره البحر الذي أخذت زمامه تتفلت بقوة من يد المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها؟

ثانياً: غضب شعبي تجاه الرعايا الأوروبيين بالمغرب

ويبدو من رسالة أخرى لنائب القنصل الفرنسي بالرباط أن اشتغال أهل مدينة الرباط بالحديث عن الإسكندرية لم يكن فقط من أجل تمرير الوقت كما ادعى في رسالته السابقة، بل واكبته حالة من الغضب الشعبي جعلت العلاقة تسوء بين ساكنة هذه المدينة والرعايا الأوروبيين على وجه العموم[٩]. فأول ما افتتح به هذا النائب القنصلي رسالته إلى أنطوان

---

(٦) A.D.N., Tanger A 104, Rabat, Fournet à Guillet, 24 fevrier 1798.

(٧) الضعيف، **تاريخ الضعيف: تاريخ الدولة السعيدة**، ص ٣١٣ ـ ٣١٤.

(٨) A.D.N., Tanger A 104, Rabat, Fournet à Guillet, 4 janvier 1799.

(٩) تجدر الإشارة إلى أنه كان يوجد بالرباط عدد مرتفع نسبيا من الأوروبيين. هذا ما أكده الضعيف الرباطي حينما قال: «وفي يوم السبت الرابع والعشرين منه (محرم ١٢١١هـ) أخبرني قاسم باينا بأن الرباط تكاثرت به النصارى ويمشون للأسواق بالثلاثين والأربعين والعشرين». انظر: الضعيف، المصدر نفسه، ص ٢٧٤.

كَليط، هو شكره له عن الرسالة التي بعث بها إليه مع أحد المواطنين الفرنسيين، والتي أكد له فيها عدم صحة ما تردد من إشاعات بخصوص الإنزال الفرنسي بطنجة. ثم قال له: «إن ما يعطى من تقارير بطنجة بخصوص المعاملة السيئة التي يواجه بها الفرنسيون في الرباط لا أساس له من الصحة؛ لأننا لا نتعرض للشتم أكثر من رعايا الدول الأوروبية الأخرى. وخارج هذا فنحن، كما تعرفون، نضطر كثيرا، في بلد كهذا، أن نغض الطرف عن مثل هذه التفاهات»[١٠].

يستفاد من هذه الوثيقة أن حديث أهل الرباط المسترسل عن الإسكندرية قد اقترن فعلا بتوجيه الشتائم إلى كل رعايا الدول الأوروبية المقيمين بهذه المدينة بدون تمييز بين دولة وأخرى، باعتبارهم رمزا لهذا الاعتداء؛ لأن كل من لا ينتمي إلى دار الإسلام يصبح في لحظة حرجة مثل هذه عدوا للإسلام. هذا مع العلم أن المغاربة كانوا يعلمون من خلال مصادر مختلفة مباشرة وغير مباشرة أن الدولة التي غزت مصر والشام، هي فرنسا. لكن إذا كان هذا التمييز ممكنا في حالات السلم، فإن ذلك يتعذر في حالات الحرب والعدوان، حيث يصبح «الكفر ملة واحدة». ورغم ذلك، يبقى المستهدف الحقيقي من هذه الشتائم، في نظرنا، هم الرعايا الفرنسيون الذين اقترن اسمهم باسم الدولة التي نفذت هذا العدوان العسكري الذي كانت تجري أطواره آنذاك بمصر.

ويتضح من رسالة أخرى غير مؤرخة، ولكنها بالتأكيد واحدة من الرسائل المتبادلة بين نائب القنصل الفرنسي بسلا وأنطوان كَليط بطنجة، أن جهاز الدعاية الفرنسي المكوّن أساسا من القنصل وأعوانه، كان يستخدم الانتصارات العسكرية التي كان يحققها الجيش الفرنسي بمصر وأوروبا للتأثير على المغاربة عملا بمبدأ الترهيب والترغيب[١١]. وسبق لنا أن رأينا من خلال وثائق أخرى كيف أن هذا الجهاز لم يدّخر وسعا في ترجمة ونشر البيانات والصحف التي كانت تتحدث عن هذه الانتصارات.

لكن، إذا كان هذا النوع من الدعاية ممكنا في حالات القوة والغلبة،

---

(١٠) A.D.N., Tanger A 104, Rabat, Fournet à Guillet 15 nivôse an 7.

(١١) A.D.N., Tanger A 104, Salé, Goutier à Guillet, s.d.

فإن الأمر يغدو مختلفا كثيرا عندما تتحول هذه الانتصارات إلى هزائم منكرة كما حدث بعد معركة أبو قير البحرية، وكما كان يحدث على الساحة الأوروبية قبل عودة نابليون إلى فرنسا. وهذا ما تؤكده هذه الرسالة؛ لأنها تربط ربطا صريحا بين ما كان يحيق بالجيش الفرنسي من هزائم بأوروبا والمعاملة السيئة التي كانوا يقابلون بها داخل المغرب، وبالضبط بمدينة سلا حيث كان يوجد النائب القنصلي صاحب هذه الرسالة. لذلك، وجدناه يقول لأنطوان كَليط: «إن الأخبار التي تعلنها علينا من أوروبا، ليس من شأنها تأكيدا، أن تجعل وضعيتنا أحسن حالا. أما في ما يخص هذا البلد، فإننا نعلم جيدا كل الجهود التي يبذلها أعداؤنا، وكل الترّهات التي يشيعها عملاؤهم. لكننا، نعرف كذلك مدى تحمسك للقضاء على تأثيرهم لكي نحافظ قدر الإمكان على علاقة طيبة»(١٢).

يتبين من خلال هذه الرسالة أن ما كان يلحق من هزائم بالفرنسيين، سواء في مصر أو في أوروبا، كان يتم توظيفه مباشرة في المغرب من طرف إنجلترا وحليفتها البرتغال، من أجل التأثير على المغاربة وجرّهم إلى صفهما؛ الشيء الذي أضحى يشكل مصدر قلق مستمر بالنسبة للفرنسيين المقيمين بالمغرب، وعلى رأسهم أعضاء الجهاز القنصلي.

لا يذكر نائب القنصل الفرنسي بسلا الذي صدرت عنه هذه الرسالة شيئا عما كان يفعله هو من أجل مواجهة الدعاية الإنجليزية وكسب تعاطف، أو على الأقل، حياد المغاربة في هذا الظرف الحرج. بيد أننا وجدناه يكبر في أنطوان كَليط قدرته العالية على تدمير هذه الهجمة الدعائية الإنجليزية، وكأنه يريد أن يقول إن حجم الخطر الذي أضحت تمثله هذه الدعاية على سلامة الرعايا الفرنسيين المقيمين بسلا، وغيرها من المدن المغربية، يفوق قدرات النواب القنصليين بهذه المدن. مما يرجح الاعتقاد أن الإنجليز قد تمكنوا فعلا من التأثير على الرأي العام المغربي، ونجحوا في تحويل قسم مهم منه لصالحهم.

ومما يرجح لدينا هذا الاعتقاد أكثر هو ما ورد في إحدى رسائل القنصل الفرنسي إلى تاليران. فبعدما قال له إنه ما فتئ يبذل كل ما في

---

(١٢) Ibid.

وسعه من أجل جعل مولاي سليمان يستمر في علاقاته السلمية مع فرنسا، أوضح أن تحقيق ذلك مرتهن بجملة شروط، منها؛ استجابة حكومة الإدارة لمطالب التجار المتضررين من عمليات القرصنة البحرية، وتقديم هدايا إلى مولاي سليمان بمناسبة اعتلائه العرش أسوة ببعض الدول الأوروبية. وألح، بشكل خاص، على ضرورة إيفاد سفارة مدوية إلى المغرب؛ «لأن هي وحدها الكفيلة بالاحتفاظ بمولاي سليمان إلى جانب فرنسا». ثم أضاف، محذرا، أنه «سيكلف غاليا كل فرنسي عدم القدرة في الوقت الحاضر، في أن يعرض أمام هاته الشعوب التي يتم التأثير عليها بسهولة كل كرم وعظمة الأمة الفرنسية، وجعلهم يتخلون عن الفكرة التي لديهم عن تفوق الأمة الإنجليزية، والتي تعم كل المغاربة باستثناء بعض المتعلمين». أما السبب في ذلك فهو يكمن، حسب أنطوان كَليط، في رؤيتهم كل يوم للقوات الإنجليزية وهي ترسو بمرافئهم، وأعلام النصر ترفرف بخليج جبل طارق. هذا، في وقت لا يرى فيه هؤلاء المغاربة القوات الفرنسية، إلا من خلال ما يصلهم عنها من روايات، من دون أن يتجسد لهم ذلك بشكل مادي؛ الشيء الذي لا يخلف لديهم، حسب قول هذا القنصل، ذكرى لأي أثر(١٣).

يفهم من هذه الرسالة أن قوة التأثير التي كان يمارسها الإنجليز داخل المغرب، خلال هذه المدة، كانت تستند في أحد جوانبها إلى القوة الضاربة التي كان يتمتع بها الأسطول البحري الإنجليزي. لكن الشيء الذي لم يذكره صراحة أنطوان كَليط، هو أن إعجاب المغاربة بهذه القوات إنما كان مردّه، حسب اعتقادنا، إلى الهزيمة النكراء التي أنزلتها قواتها بأسطول جيش الشرق في معركة أبو قير البحرية، إلى جانب تحالفها مع الدولة العثمانية ضد فرنسا وحليفتها إسبانيا. إضافة إلى ذلك يستفاد من هذه الرسالة أنه خلافا للمولى سليمان وحاشيته الذين ظلوا، على ما يبدو، بعيدين عن متناول الدعاية الإنجليزية، تمكنت هذه الأخيرة من توجيه الرأي العام المغربي لصالحها. لذلك، وجدنا القنصل الفرنسي يستحث السلطات الفرنسية العليا بضرورة القيام بجملة إجراءات

(١٣) A.A.E.P, C.C.C., 21, Tanger, Guillet à Talleyrand, 27 brumaire an 7 (17 novembre 1798).

من أجل مقاومة هذا التأثير وتعويضه بصورة حية وراسخة عن القوة العسكرية الفرنسية.

أكثر من هذا، تؤكد لنا أحد المصادر القريبة من هذا التاريخ أن نجاح الإنجليز في هذا الباب وصل إلى حد جعل المغاربة يرون في نابليون الذي تزعّمَ تلك الحملة، شخصا عاديا لا يستحق أن ينادوا عليه بـ «بونابرت». اعتقادا منهم أن في الشطر الأول من اسمه العائلي، «بونا»، نوع من التفضيل أو التشريف. لذلك، اقتصروا، في الإشارة إليه، على الشطر الثاني «بارت».

يتبين ذلك، جليا، من خلال الحوار الذي دار بين تاجر من تارودانت ومواطن فرنسي عقب غرق مركب يدعى «La Sophie»، في عرض المياه المغربية، قبالة الصحراء، سنة ١٨١٩م[١٤]. وكان من بين ركابه الناجين، هذا المواطن الفرنسي، ويدعى شارل كوشيلو[١٥]. فضيفه أحد تجار تارودانت المشهورين ويدعى محمد ولد بيروك[١٦]. خلال ذلك، أخذ هذا التاجر المغربي يسأل ضيفه الفرنسي عن مغامرات نابليون العسكرية؛ لأن شهرة نابليون كان لها، كما كتب ذلك الفرنسي المذكور، بالنسبة لمحمد ولد بيروك، «وقع الرعد الذي نسمعه، ولكن لا نعرف، في الغالب، من أية جهة من السماء ينطلق»[١٧]. لكن هذا الضيف الفرنسي، لم يستطع أن يتبين، في الحال، الشخص المقصود بهذه الأسئلة؛ لأن

---

(١٤) للتعرف على الظروف والملابسات التي وقع فيها هذا الغرق والنتائج التي ترتبت عنه، انظر: Charles Cochelet, *Naufrage du brick français «La Sophie,» perdu le 30 mai 1819 sur la côte occidentale d'Afrique, et captivité d'une partie des naufragés dans le désert du Sahara, avec de nouveaux renseignemens sur la ville de Timectou*, 2 tomes. (Paris: P. Mongie aîné, 1821), tome 1.

(١٥) Ancien payeur général en Catalogne.

(١٦) كان الشيخ محمد ولد بيروك من كبار تجار الجنوب الغربي بمنطقة واد نون. وكان له وكلاء بمدينة الصويرة وعلاقات تجارية مع دول أوروبية. أما سكناه، فكانت بتارودانت. للمزيد من التفصيل عن هذا التاجر المغربي وعائلة آل بيروك بصفة عامة، انظر: دانييل شروتر، **تجار الصويرة: المجتمع الحضري والإمبريالية في جنوب غرب المغرب، ١٨٤٤ ـ ١٨٨٦**، تعريب خالد الصغير، سلسلة نصوص وأعمال مترجمة (الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٩٩٧)، ص ٣٠٣ ـ ٣٠٥، وعمر آفا، **تاريخ المغرب المعاصر: دراسات في المصادر والمجتمع والاقتصاد**، بحوث ودراسات؛ ٣٤ (الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ٢٠٠٢)، ص ٦٠ ـ ٦٥.

(١٧) Cochelot, Ibid., tome I, p. 341.

مضيفه كان يقتصر في إشارته إلى بونابرت، على بارت دون بونا[١٨].

أما السبب في ذلك، فلأن الاسم الذي كان يذكر به نابليون، آنذاك، في المغرب، هو بارت. هذا ما ذهب إليه الرحالة الإنجليزي جيمس جاكسون (James Jackson)[١٩]، واعتبره الباحث الفرنسي، هنري دو كاستري (De Castries)، صحيحا، لأن تم تأكيده، حسب قول هذا الأخير، بواسطة شهادات أخرى وتقارير قنصلية[٢٠]. أما لماذا؟ فلأن المغاربة كانوا يعتبرون اسم بونابرت مؤلفا من كلمتين: بونا ثم بارت. وبما أنهم كانوا يعتقدون أن نابليون متلبس بروح شيطانية، كانوا يأنفون، حسب التأويل الذي قال به جاكسون وأيّده فيه دو كاسري، من إضافة بونا إلى بارت. اعتقادا منهم أن الكلمة الأولى هي مجرد إضافة، وأن القصد منها هو الاعتراف لنابليون بالفضل مكافأة على انتصاراته العسكرية[٢١] التي كان من بين ضحاياها مصر والشام.

أما نحن، فنعتقد أن ما ذهب إليه الرحالة الإنجليزي، صحيح. ذلك، أن الضعيف الرباطي الذي عاصر هذه الفترة التي سطع فيها نجم نابليون، اقتصر في إحدى إشاراته إليه على «بارطي». فقد ذكر أنه في يوم الأحد السابع عشر من صفر الخير عام اثنين وعشرين ومائتين وألف، «خرجت من الرباط الخيل التي بعث عليها بارطي لمولانا سليمان»[٢٢]. ولا يورد اسمه كاملا، إلا أردفه بأدعية تفيد أن الضعيف الرباطي كان يعتبر نابليون عدوا حقيقيا للإسلام. كأن يقول: «وكان سلطان النصارى، دمره الله، وهو ملك بني الأصفر، بونابرطي، أهلكه الله، بعث للسلطان مولاي سليمان، أيده الله، على أن يبعث له الخيل بسروجها»[٢٣].

---

(١٨) المصدر نفسه.

(١٩) James Grey Jackson, *An Account of the Empire of Marocco and the District of Suse to which is Added an Account of Timbuctoo* (London: G. and W. Nicol, 1809).

(٢٠) Henri de Castries, «Napoléon et le Maroc,» *Revue Hebdomadaire*, no. 16 (1961), p. 316.

(٢١) المصدر نفسه.

(٢٢) محمد الضعيف، **تاريخ الضعيف الرباطي: تاريخ الدولة العلوية السعيدة من نشأتها إلى أواخر عهد المولى سليمان، ١٠٤٣هـ/ ١٦٣٣م ـ ١٢٣٨هـ/ ١٨١٢م**، دراسة وتحقيق محمد البوزيدي الشيخي، ٢ مج (الدار البيضاء: دار الثقافة، ١٩٨٨)، مج ٢، ص ٦٣٨.

(٢٣) المصدر نفسه، مج ٢، ص ٦٣٧.

ويبدو من خلال بعض الإشارات أن هذا الاعتقاد لم يكن مقتصرا على المغاربة بل كان شائعا في عدد من البلدان الأوروبية المعادية لنابليون. فقد ورد في رسالة من قنصل البندقية إلى الوزير المغربي، محمد بن عثمان، في ١١ حزيران/ يونيو ١٧٩٩، أن «عمارة لنجليز (. . .)، خرجت متجهة إلى طولون لتحاصر عمارة الفرانصيص التي دخلت هناك، فلا تترك أحدا يخرج منها بالجيش الذي أتى في العمارة بقصد نزوله بإسكندرية ليمدون به مالبارط، أكبتهم الله ودمرهم تدميرا»[٢٤].

خلاصة القول، تؤكد الشهادات المصدرية الموجودة بين أيدينا أن المغاربة لم تنطل عليهم حيل أجهزة الدعاية الفرنسية التي سعت بمختلف الوسائل إلى أن تصور لهم نابليون بمثابة المنقذ الذي حطّم كرسي البابوية في روما وقضى على فرسان القديس يوحنا في مالطا، وخلّص الأسرى المسلمين ومنهم مغاربة من ظروف الأسر القاسية التي كانوا يعانون منها هناك، وغير ذلك من عناصر الدعاية التي ضمنها نابليون مناشيره ودبجتها أقلام الصحفيين، وروّجت لها جرائدهم على أوسع نطاق داخل المغرب وخارجه. لأن اسم نابليون بقي مقترنا عندهم بالهجوم الذي قاده ضد مصر والشام وما نجم عن ذلك من تدنيس للأزهر الشريف وعرقلة طريق الحج والتجارة. لذلك، رفضوا أن ينطقوا اسمه كاملا. وفي هذا، دليل آخر على قوة تأثر المغاربة بما حدث لإخوانهم بمصر والشام.

بات من المؤكد من خلال ما توافر لدينا لحد الآن من معلومات، أن خبر نزول الحملة الفرنسية بمصر والشام، لم يكن خافيا عن المغاربة. وأنهم عبّروا، تبعا لذلك، عن استيائهم وغضبهم، وانتابهم، بدورهم، خوف شديد من احتمال تكرار نفس العدوان على بلدهم. فأعدوا لذلك عدته.

---

(٢٤) المصدر نفسه، ص ٢١٤، ووثائق أكاديمية علوم لشبونة، رقم ٢٠٢١ (١١ حزيران/ يونيو ١٧٩٩). ورد عند: عثمان المنصوري، «صدى الحملة النابليونية في المغرب،» ورقة قدمت إلى: **المؤتمر الدولي للعلاقات المصرية المغربية عبر التاريخ**، تنظيم كلية الآداب، جامعة حلوان ـ مصر بالتعاون مع كلية الآداب، عين الشق، جامعة الحسن الثاني (القاهرة: مطابع جامعة حلوان، ٢٠٠٣).

ثالثاً: احتفالات شعبية
بمناسبة انهزام جيش الشرق بمصر

إذا كان أهل الرباط قد كالوا الفرنسيين والأوروبيين عموما، الشتائم، فإن أهل أسفي وتطوان عبّروا عن غضبهم بتحركات ميدانية. ففي رسالة موجهة من الوزير ابن عثمان إلى القنصل الفرنسي نقرأ أن هذا الأخير وجّه إليه رسالة يشتكي فيها مما حدث في تطوان من احتفالات جماهيرية بمناسبة الهزيمة التي حلت بالجيش الفرنسي في مصر. ثم أضاف، أن ذلك كان بإيعاز من عامل المدينة، وأنه يحمد الله أنه لم يكن يوجد لحظة هذه الاحتفالات أي فرنسي بهذه المدينة، لأنه كان بإمكان عامل المدينة أو سكانها أن يضعوه في السجن.

وبغض النظر عن جواب ابن عثمان الذي أبدى فيه امتعاضا شديدا لما حصل بهذه المدينة، وقدّم تطمينات كافية للقنصل الفرنسي بخصوص سلامة الرعايا الفرنسيين[٢٥]، يفهم من هذه الرسالة أن الانهزام المحتفى به بتطوان ربما كان هو هزيمة الفرنسيين في معركة أبو قير البحرية في الفاتح من شهر آب/أغسطس سنة ١٧٩٨؛ لأننا لا نعلم بهزيمة أكبر من هاته حصلت للفرنسيين قبل تاريخ هذه الرسالة. يضاف إلى هذا أن أهل هذا الثغر كانوا قد أحيطوا بتفاصيل هذه الهزيمة التي حلت بالأسطول البحري الفرنسي، منذ فترة مبكرة بواسطة حاجين من ساكنة هذه المدينة كانا قد قدما للتو من المشرق[٢٦].

وسواء أتعلق الأمر بما حصل للفرنسيين في معركة أبو قير أو غير ذلك، فما يهمنا من ذلك هو أن سكان إحدى المدن المغربية قد اهتزوا فرحا بمجرد سماعهم أخبار انهزام الفرنسيين، وأقاموا، بهذه المناسبة، أفراحا عامة، وشاركهم في ذلك الجهاز الحاكم بهذه المدينة، وعلى

---

(٢٥) A.A.E.P., C.C.C., 21, Copie de la lettre de Sidi Mohamed Ben Othman à A. Guillet, 14 Ventôse An 7 (4 Février 1799) folio 237.

(٢٦) رسالة القنصل البرتغالي كولاصو إلى وزير خارجية بلاده كوتينيو، بتاريخ ٢٤ كانون الأول/ديسمبر ١٧٩٨ (أرشيف طوري دو طومبو، لشبونة، رقم ٢٩٩ .M.N.CX)، مراسلات سنة ١٧٩٨. ورد عند: المنصوري، المصدر نفسه.

رأسه عاملها. كما يفهم من هذه الرسالة أن الاحتفال المنوّه به كان من القوة والامتداد بحيث إنه لو وجد ساعتها فرنسي بهذه المدينة، لوضع، حسب تقدير القنصل الفرنسي، في السجن.

ونحن من جهتنا لا نستغرب ما حصل بهذه المدينة التي كانت تراقب صباح مساء ما تحفل به مياه المتوسط من عساكر القوى المتصارعة، وينتابها من جراء ذلك الخوف والذعر، سيما وأن إسبانيا، حليفة فرنسا في هذا التاريخ، كانت ـ ولا تزال ـ تحتل أراضي مغربية لا تبعد كثيرا عن تطوان، وأنه شاع، أكثر من مرة، أن النصارى يريدون الخروج إلى هذه المدينة انطلاقا من سبتة أو من البحر. لذلك، وجدنا علماءهم يطلبون من مولاي سليمان الترخيص لهم بحمل السلاح والتزوّد بالبارود. يضاف إلى ذلك أن هذه المدينة كانت ترسو بها السفن الإنجليزية، كما كان ينزل بها سفراء ومبعوثو الباب العالي إلى المغرب. ومعنى هذا أن مدينة تطوان ومدن الشمال عموما كانت مرشحة لأكثر من سبب بأن تتفاعل بقوة مع هذا العدوان الذي حصل بمصر، وأن يتملك ساكنتها «قلق من غزو محتمل من طرف إسبانيا وفرنسا، شبيه بما حدث لمصر»[٢٧].

إلى جانب مدينة تطوان، شهدت كذلك مدينة أسفي في تاريخ قريب تحركات شعبية بعد سماع ساكنتها أخبارا تتحدث عن طرد الفرنسيين من مصر، مما اضطر مولاي سليمان إلى التدخل لدى عمّاله بهذه الجهات، مذكّرا إياهم أن المغرب ما زال في سلم مع فرنسا، وأنه يمنعهم من القيام بأي احتفالات مهما وصلتهم من أخبار عن مصر، كما أمرهم بمنع أي مغربي من التظاهر بأي شكل من الأشكال ضد فرنسا[٢٨]. لكن القنصل الفرنسي الذي ساق هذا الخبر عزا هذه التحركات إلى ما كانت تحيكه أجهزة الدعاية الإنجليزية والبرتغالية ضد فرنسا بهدف إرغام

---

(٢٧) رسالة من القنصل البرتغالي إلى وزير خارجية بلاده، بتاريخ ٢٠ أيلول/سبتمبر ١٨٠١ (أرشيف طوري دو طومبو، رقم ٢٩٩ : M.N.E.CX)، ورد عند: المنصوري، المصدر نفسه، ص ٢١٦.

(٢٨) A.A.E.P., C.C.C. 21, Tanger Guillet à Talleyrand, 24 floréal an 7 (13 mai 1799), folio 263.

مولاي سليمان على قطع علاقاته بهاته الأخيرة والانضمام إلى صف الدولة العثمانية. لا، بل قال إنه مقتنع أن ثورة بناصر العبدي بهذه الجهة هي من تدبير الإنجليز والبرتغاليين(٢٩).

ربما كانت ادعاءات أنطوان كَليط صحيحة. لكن، إذا نحن استحضرنا بعض السوابق، أدركنا أن سكان هذه المدينة كانوا مهيئين منذ زمن ليس ببعيد للقيام بعمل من هذا النوع. نقصد بذلك الخلاف الذي وقع بين تجار هذه المدينة، في وقت سابق عن الحملة، والقرصان الفرنسي الذي احتجز مركبا برتغاليا كان يحمل تجارتهم، ثم حكمت هذه القضية لصالح القرصان الفرنسي على الرغم من أن الحجز تم في المياه المغربية. وكان من تبعات هذه القضية أن احتجز سكان أسفي، في تاريخ سابق على بدء الحملة، ثلاثة ضباط فرنسيين إثر نزولهم بالمدينة، انتقاما لما حدث لأولئك التجار. ولم يتم تسريح هؤلاء الضباط البحريين إلا بتدخل من مولاي سليمان الذي أكد للتجار المتضررين، حسب رسالة موجهة من ابن عثمان إلى أنطوان كَليط في ١٨ محرم ١٢١٣هـ(٣٠)، أن القنصل الفرنسي سيعمل على رد ما ضاع من تجارتهم. ونعلم، من جهة أخرى، أن شيئا من هذا لم يتحقق، وأن التجار المتضررين، وعلى رأسهم الحاج محمد بن صالح، تسلموا رسالة من مولاي سليمان وسافروا إلى باريس من أجل المطالبة باسترجاع حقوقهم، ولم يتمكنوا من التوصل إلى ذلك إلا بعد أن قضوا حوالى سبعة أشهر بفرنسا.

لهذا، نقول إن هذه الاحتفالات التي شهدتها مدينة أسفي لم تكن فقط من تدبير الإنجليز والبرتغاليين، كما جاء على لسان القنصل الفرنسي، بل تحكمت فيها أيضا ظروف خاصة تتعلق بهذه القرصنة التي ذهب ضحيتها عدد من تجار المدينة، ولم تجد مساعيهم داخل المغرب في حلها، فاضطروا، بسبب ذلك، للسفر إلى باريس والمكوث بها شهورا طويلة.

---

(٢٩) Ibid.

(٣٠) انظر النص الكامل لهذه الرسالة مترجماً إلى الفرنسية، في: A.A.E.P., C.C.C. 21, folio 103.

ومعنى هذا، أن أجهزة الدعاية الإنجليزية والبرتغالية التي اتهمها القنصل الفرنسي بتدبير هذه الاحتفالات كانت تتحرك على أرضية مهيأة مسبقا. يضاف إلى هذا، أن هذه المنطقة كانت تشهد في هذه اللحظات ثورة محلية ضد السلطة المركزية بزعامة القائد بناصر العبدي الذي كان واقعا بدوره تحت تأثير الإنجليز والبرتغاليين.

وكيفما كان الأمر، فهذه مدينة مغربية أخرى تحركت ساكنتها من أجل التعبير عن تضامنها مع مصر والاحتفال مبكرا بخروج الفرنسيين منها، مثلها في ذلك مثل أقصى مدينة في الشمال المغربي، أي مدينة تطوان التي عاشت نفس الأجواء في الفترة ذاتها. لكن، مع فارق أساسي يتمثل في أن تطوان كانت ساعة قيامها بتلك الاحتفالات توجد تحت مراقبة السلطة المركزية، مشخصة في مولاي سليمان، أما مدينة أسفي وجهة عبدة بكاملها فكانت في حالة تمرد وعصيان ضد هذه السلطة، بزعامة القائد بناصر العبدي.

وغني عن القول، إنه لا يمكن أن ننتظر من القنصل الفرنسي أن يعترف صراحة في رسالته إلى وزير الخارجية بأن ما حصل بمدينتي أسفي وتطوان هو من صميم إرادة السكان المحليين، وترجمة حقيقية لما كان يختلج بداخلهم من شعور بالغضب بسبب ما كان يتعرض له إخوانهم بمصر من عدوان؛ لأن من شأن ذلك أن يقلل من قيمة النجاحات التي ما فتئ هذا القنصل يتبجح بها في رسائله إلى الوزير المذكور.

وغير بعيد عن مدينة أسفي إلى الجنوب، كان سكان إقليمي الصويرة وسوس ينتابهم خوف شديد من هجوم فرنسي وشيك على سواحلهم. فقد تلقى نائب القنصل الفرنسي بالصويرة نبأ استجابة حكومة الإدارة لمطالب التجار المغاربة الموجودين ساعتها بباريس، ومنهم من كان من الصويرة، بارتياح كبير. وقال في رسالته إلى تاليران إنه سارع فور توصله بهذا النبأ إلى إشاعته بين السكان. ثم أضاف أن هذا الخبر ترك أثرا إيجابيا لديهم. لذلك، فهو يداعبه الأمل في أن تزول نهائيا المخاوف الشديدة التي تسود بين سكان الإقليم منذ زمن، بسبب

اعتقادهم أنهم مهددون بهجوم عسكري من طرف الفرنسيين[٣١]. وقبل ذلك بأيام قليلة كتب نفس النائب القنصلي في إحدى رسائله، أن سكان إقليم سوس انتابهم ذعر كبير بسبب ما روّجه الإنجليز من أخبار عن إنزال عسكري فرنسي بسواحلهم[٣٢].

مرة أخرى إذن، يتم تفسير تحركات المغاربة بهذه الجهات، بما كانت تحيكه ضدهم إنجلترا وحليفتها البرتغال. لكن، إذا كان سبب هذه التهم المتبادلة بين هاتين القوتين الاستعماريتين يتصل بصراعهما حول مصر، فإن خوف هؤلاء السكان الشديد من هجوم فرنسي على سواحلهم ما كان ليكون بهذه القوة لو لم يكن ما حدث بمصر ماثلا بقوة في أذهانهم. ولولا ذلك، لما استطاع الإنجليز أن يؤثروا عليهم بهذه السهولة. فقد سبق لهذا القنصل أن قال: «إن أعداء فرنسا ما فتئوا ينشرون بين سكان الإقليم الإشاعات الأكثر تفاهة حول عمليات ومشاريع جيش الشرق»[٣٣]. كما سبق لنا أن رأينا من خلال مصدر آخر كيف تحول نابليون في اعتقاد أحد تجار تارودانت إلى ما يشبه أزيز الرعد الذي نسمع به، ولكن لا نعرف من أي جهة ينطلق. كل هذا يوضح لنا كيف أن هذه المناطق الجنوبية كانت تعيش، طيلة هذه المدة، على إيقاع المخاوف المتكررة من هجوم وشيك من جهة البحر على يد الفرنسيين. هذا على الرغم من أن المغرب كدولة كان يرتبط بعلاقات سلمية مع فرنسا، وأن مناشير نابليون والصحف التي كان يقوم بترجمتها القنصل المذكور ويوزعها بين الناس، وصلت، على حد قوله، إلى أقاصي الصحراء[٣٤].

لذلك، نعتقد أن هذه التحركات الشعبية التي شهدتها بعض المدن

---

(٣١) A.A.E.P., C.C.C.21, Mogador, Broussonet à Talleyrand, 10 prairial an 7 (29 mai 1799).

(٣٢) .A.A.E.P. C.C.C.21, Mogador, Broussonet à Talleyrand, 1 prairial an 7 (20 mai 1799).

(٣٣) A.A.E.P., C.C.C.21, Mogador, Broussonet à Talleyrand, 10 prairial an 7 (29 mai 1799).

(٣٤) A.A.E.P., C.C.C.21, Mogador, Broussonet à Talleyrand, 2 nivôse an 7 (22 décembre 1798), folio 167-168.

الساحلية المغربية كانت تتأسس على خلفية الصراع الإنجليزي ـ الفرنسي وما رافقه من تصعيد بعد قيام فرنسا بحملتها العسكرية على مصر والشام. ولأسباب مختلفة وجد المغاربة أنفسهم ملزمين بالانحياز والتفاعل مع هذا الطرف أو ذاك. ومما لا شك فيه أن عواطفهم ومصالحهم كانت تلتقي أكثر مع القوة التي هزمت جيش الشرق وتحالفت مع «دولة الإسلام الكبرى»، ولم يكن قراصنتها يتعقبون بنفس الحدة والعنجهية التجار المغاربة في عرض البحر.

خلاصة الفصل السابع

في ختام هذا الفصل، يجدر بنا أن نورد بعض الملاحظات التي من شأنها أن تلقي مزيدا من الضوء على جوانب من هذا الموضوع الذي تم تخصيصه لتبين الموقف الشعبي من هذا العدوان العسكري الذي استهدف مصر والشام.

ـ أول ملاحظة يمكن إجراؤها بهذا الصدد هي تركز مختلف هذه التحركات الشعبية بالمدن والأقاليم الساحلية في الشمال كما في الجنوب، وخاصة مدينة تطوان والرباط ثم أسفي والصويرة. ونحن إذا تأملنا هذه المواقع وجدنا أنها تمتاز ببعض الخصوصيات، منها أولا انفتاحها على البحر، الشيء الذي جعلها تتفاعل أكثر مع هذا الحدث الذي بدأ أولا كمغامرة بحرية. إضافة إلى ذلك كانت هذه المدن وجهاتها الخلفية، إما مجاورة للعدو كما هو الشأن بالنسبة لتطوان، أو توجد خارج المراقبة المباشرة للسلطة المركزية مثل أسفي، أو يقطنها عدد مرتفع نسبيا من الرعايا الأوروبيين، كما كان الحال بالنسبة للرباط. ناهيك عن العلاقات التجارية التي كانت تربطها مراسي هذه المدن الأربعة مع مختلف القوى الأوروبية. لهذه الأسباب كانت احتمالات ظهور تحركات من هذا القبيل بهذه المدن والجهات هي أقوى من نقاط أخرى داخلية.

ـ امتدت هذه التحركات طيلة المدة التي استغرقتها الحملة، فجاءت على شكل شتائم ومضايقات موجهة ضد الرعايا الأوروبيين عموما والفرنسيين منهم على وجه الخصوص. ثم أخذت، أحيانا، شكل

احتفالات عامة بعد سماع أخبار تفيد بخروج الفرنسيين من مصر أو انهزامهم في إحدى المعارك. وتطورت، في بعض الأحيان، إلى مطاردة للبحارة الفرنسيين بعد نزولهم ببعض المراسي المغربية والقبض على البعض منهم. وقد كانت هذه التظاهرات الشعبية من القوة بحيث إنها زرعت الخوف والرعب في نفوس أعضاء الجهاز القنصلي الفرنسي، وعلى رأسهم أنطوان كَليط، سيما وأن البعض منها كان يتم إما بإيعاز من عامل المدينة، أو على الأقل بتواطؤ منه؛ الشيء الذي جعل القنصل الفرنسي يخشى من أن يكون للقيادة العليا يد في ذلك.

ـ امتزج في هذه التحركات الاحتجاج على ما يقع في مصر والشام بما يمكن أن يقع مستقبلا بالمغرب. ومعنى هذا أن العدوان الفرنسي على هذين الموقعين فهمه المغاربة أولا باعتباره مقدمة أو خطوة أولى نحو احتلال مزيد من المواقع الإسلامية الأخرى. وربما تهيأ لهم في بعض اللحظات أن المغرب، بحكم مجاورته لمراكز انطلاق العدو وانفتاحه على البحر، سيشكل أحد الأهداف المقبلة لهذا العدوان. وانطلاقا من ذلك، يمكن القول إن العدوان الفرنسي على مصر والشام عمّق أكثر لدى المغاربة الشعور بأمنهم «القومي»، كما أن ما كان يستنتجه سكان المناطق الساحلية بخبرتهم التاريخية كان يذكيه في نفوسهم الشعراء والخطباء. هذا، مع العلم أن أجهزة الدعاية الإنجليزية والبرتغالية لم تدّخر جهدا في إلهاب هذه المشاعر «الوطنية» الممتزجة بثقافة الجهاد والصراع بين «دار الإسلام» و«دار الكفر». ناهيك عن أن ما حل بالأمس القريب بالأندلس وما تلاه من احتلال لبعض المدن المغربية الساحلية، كانت لا تزال ذكراه ماثلة في الأذهان.

وأخيرا وليس آخر، نقول إنه إذا كان المغاربة قد عانوا كثيرا خلال هذه الفترة الحرجة من ندرة الأخبار وتناقضها وعدم صحتها في كثير من الأحيان ـ مما جعلهم يتبينون بصعوبة الخبر الصحيح من مجرد الدعاية ـ فإننا بدورنا لم يصلنا سوى قدر قليل مما يمكن أن يكون قد صدر عنهم بهذه المناسبة. والسبب في ذلك راجع، حسب تقديرنا، إلى عدم التفات المؤرخين المغاربة إلى هذه الأحداث وعدم توفر الدولة المغربية على أرشيف يتولى حفظ مثل هذه الأخبار. فما عرضناه في هذا الفصل، هو

فقط ما احتفت به المراسلات القنصلية الفرنسية، وما استطعنا الحصول عليه من مراسلات مولاي سليمان ورجالات المخزن. وهذا، غير كاف، في اعتقادنا، للإحاطة بما كان يجري بمختلف نقاط المغرب بهذه المناسبة، خاصة منها المدن الداخلية مثل فاس ومكناس التي لم يصلنا عنها أي شيء. لذلك، وجب التعامل مع هذه المعلومات بحسب الجهات التي تناقلتها، واعتبارها حدا أدنى لما يمكن أن يكون قد شهده فعلا «الشارع المغربي» من مظاهر الاحتجاج والاستنكار خلال هذه المدة التي استغرقتها الحملة الفرنسية على مصر والشام.

خلاصة القسم الثاني

تبين لنا، من خلال فصول ومباحث هذا القسم أن المغاربة على اختلاف انتماءاتهم الفكرية ومواقعهم الاجتماعية، تفاعلوا بقوة مع الحملة العسكرية التي استهدفت مصر والشام؛ فنادى علماؤهم وفقهاؤهم بالسماح بحمل السلاح والتزود بما يلزم من آلات الحرب للدفاع عن مدنهم وأقاليمهم ضد أي هجوم قد يأتيهم من البحر شبيه بما حدث بمصر، وحرّكت هذه الحملة لدى أئمتهم وخطبائهم ذكرى نكبة الأندلس؛ فأفردوا لها خُطَبا ضمنوها دعواتهم إلى الجهاد بالمال والنفس والاجتهاد في أخذ الحيطة والحذر وعدم التهوين من أمر «العدو الكافر» الذي استولى على «أعظم بلدة»، وبات خطره يخيم على المغرب، وترددت أصداؤها القريبة والبعيدة في قصائد الشعراء والزجالين، بل إن أحد الزجالين خصّها بإحدى قصائده المشهورة. فأصبحت أخبارها، بفضل ذلك، حاضرة في أكثر من مجلس ومناسبة، ونفذت بقوة إلى وجدان ومخيلة رجالات التصوف وأهل العرفان. فاعتبرها أحدهم من العلامات الممهدة لقيام الساعة، واستبشر آخر بقرب عودة مصر إلى المسلمين، بينما وظف آخرون كراماتهم وجهاداتهم من أجل دحر جيشها وإرغامه على الخروج من هذا القطر الإسلامي الشقيق.

أما الحجاج والتجار الذين داهمتهم هذه الحملة وهم عائدون إلى بلدهم، أو اختلطوا بها بعدما علموا بنزولها بالديار المصرية والشامية، فمنهم من اضطر إلى مداراتها وتجاهلها، ومنهم من وقف في وجهها وحاربها. هذا في وقت التزم فيه أغلب المؤرخين ممن عاصروا هذا الحدث جانب الصمت، ولم يعتنوا بالإشارة إليها ضمن تآليفهم

ومصنفاتهم. أما من حل منهم بمصر بعد خروج الحملة، فتوقف عند أهم أحداثها، واستقصى أخبارها من مصادر ورجالات عاصرت أو عايشت هذا الحدث.

أما مطلق أفراد الشعب المغربي فقد تملّكهم خوف وغضب شديدان عندما تأكد لديهم خبر دخول الفرنسيين إلى مصر. وازداد قلقهم حينما ربطوا بين خبر هذا الغزو بصعوبة قيامهم بفريضة الحج، أو استحالتها كلية وإمكانية تعرض بلدهم لهجوم واحتلال شبيهين بما حدث في مصر. لذلك، لم يخف عامة المغاربة فرحتهم وابتهاجهم كلما سمعوا بانهزام جيش الشرق في إحدى المعارك، أو خروجه من مصر.

وإذا كان عموم المغاربة قد وقفوا عند هذا الحد، فإن منهم من عبّر عن استنكاره الشديد لهذا العدوان بشتى الصور والأشكال، بينما ترجم آخرون تضامنهم مع أهل مصر والشام من خلال حضورهم إلى عين المكان ومساهمتهم المباشرة في مدافعة العدو بكل ما يملكون من مؤهلات دعوية وإمكانات قتالية. وهذا ما سنسعى إلى توضيحه، بتفصيل، من خلال فصول ومباحث القسم التالي.

القسم الثالث

المشاركة المغربية في حركات المقاومة والجهاد
ضد قوات الحملة في مصر:
دواعي الحضور وحجم المشاركة

مقدمة

قد يتبادر إلى ذهن القارئ أن موقف المغاربة من الحملة توقف عند حدود إلقاء الخطب والمواعظ ونظم القصائد الشعرية والاستبشار بقرب عودة مصر إلى المسلمين، أو ترقب قيام الساعة لإنهاء هذه الحالة الشاذة التي تمثلت في استيلاء النصارى على مصر وظهور الطاعون بالمغرب. لكن الوقائع التاريخية تؤكد أنهم أدلوا بسهم وافر في الدفاع عن مصر، وكان لهم دور فعال في تحريرها من الغزو الفرنسي. تمثل ذلك في حركة الجهاد التي تزعمها الشيخ محمد الجيلاني بالصعيد، ومحمد بن الأحرش الدرعاوي بإقليم البحيرة ومواطن أخرى، وشاركهم فيها عدد كبير من أهل المغرب الأقصى.

لكن إذا كانت هذه الوقائع تؤكد قوة هذه المساهمة الجهادية وانتماء زعيميها إلى المغرب الأقصى، فإن كثيرين من المؤرخين والكتاب الذين عاصروا هذا الحدث، وبعض الدارسين والباحثين ممن ساروا على منوالهم، أخطأوا في تقدير قيمة وأهمية وأصالة هذه المساهمة. لهذا السبب آثرنا تخصيص هذا الباب لنتبين من خلاله القيمة النوعية لهذه المشاركة الجهادية التي صدرت عن المغاربة عموما، وأهل المغرب الأقصى منهم على وجه الخصوص في عين المكان.

ـ فما هو إذن موقع المغاربة من الدفاع عن مصر بمناسبة هذا العدوان؟ للإجابة عن هذا السؤال الرئيس وما يتفرع عنه من موضوعات وقضايا نقترح استجلاء هذه المساهمة الجهادية من خلال فصلين رئيسين. سنخصص الفصل الثامن منهما للتعرف على الحركة التي قادها المجاهد المغربي الشيخ محمد الجيلاني بإقليم الصعيد ضد قوات الجنرال ديزي

(Desaix) الذي كلفه نابليون بإخضاع هذا الإقليم الشاسع وباقي أقاليم الوجه القبلي. أما الفصل التاسع فسنتعرف من خلاله على الحركة الجهادية الكبرى التي قادها الشيخ محمد بن الأحرش الذي اشتهر في المصادر الفرنسية والمشرقية باسم مولاي محمد المغربي، بإقليم البحيرة وباقي أقاليم الوجه البحري.

الفصل الثامن

حركة الشيخ محمد الجيلاني المغربي
بإقليم الصعيد

مقدمـة

بعد دخول نابليون القاهرة وإحكام سيطرته على الوجه البحري من مصر، بدأ يعد العدة لإخضاع أقاليم الوجه القبلي. وذلك لأسباب مختلفة؛ منها، على الخصوص، رغبته في استكمال سيطرته العسكرية على كامل التراب المصري الذي كانت حدوده تمتد إلى أسوان بالجنوب، ثم الاستفادة من الإمكانات الفلاحية والمداخيل المالية التي يتيحها هذا الإقليم الشاسع والخصب، إضافة إلى رغبة نابليون ومن أصطحبهم معه من العلماء في اكتشاف آثار ومخلفات الحضارتين الفرعونية والرومانية بهذه المنطقة. لكن، السبب الرئيس الذي تحكم أكثر في استعجال نابليون في إيفاد ما أصبح يعرف بـ «حملة الصعيد»، هو فرار الزعيم المملوكي الكبير مراد بك وأتباعه إلى هذه الجهة بعد انهزامهم في معركة الأهرام الحاسمة في ٢١ تموز/ يوليو ١٧٩٨.

لهذه الأسباب، كلّف نابليون أحد جنرالاته المشهورين، الجنرال ديزي، بإخضاع إقليم الصعيد؛ فوضع تحت تصرفه منذ ٢٥ آب/ أغسطس ١٧٩٨ خمسة آلاف جندي، منهم ستمائة فارس وأربعة آلاف وثلاثمائة من المشاة وأسطولاً مكوّناً من عدة سفن حربية، إضافة إلى ثلاثمائة مدفع[١].

لكن، ما كان يعتبر مجرد حملة عسكرية خاطفة ضد فلول المماليك

---

(١) Napoléon Bonaparte, *Campagnes d'Égypte et de Syrie*, présentation Henry Laurens, Acteurs de l'histoire (Paris: Impr. nationale éd., 1998), p. 178.

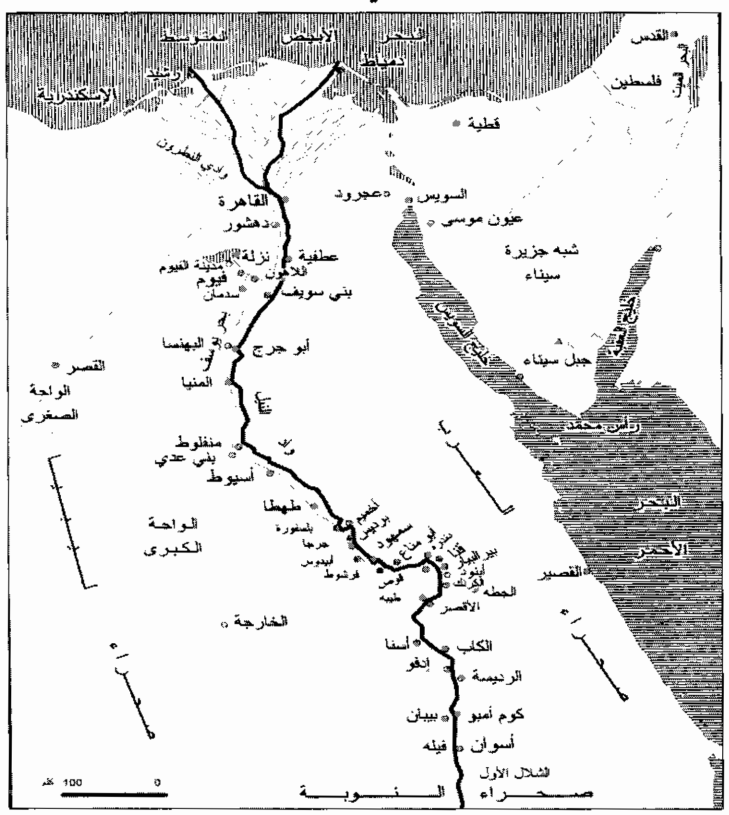
الذين هزموا شر هزيمة في معارك شبراخيت والرحمانية ثم الأهرام، تحول، بصورة غير متوقعة، إلى معضلة عسكرية حقيقية واجه خلالها جيش الشرق مقاومة شديدة؛ حيث استغرق حوالى السنة في إخضاع هذا الإقليم، استهلك النصف الأول منها في الغزو، وأمضى النصف الثاني في إخماد الثورات التي ما انفكت تشتعل هنا وهناك على طول ضفتي نهر النيل. وكان مجموع المعارك التي تخللت هاتين المرحلتين أربعة عشر معركة، تكبّد فيها الجيش الفرنسي خسائر بشرية جسيمة، وأنزلت به هزائم عسكرية مذلّة لم يسبق لها مثيل لا في أقاليم الوجه البحري ولا خلال حملته على الشام.

تألفت جبهة المقاومة هذه من أطراف متعددة من داخل مصر ومن خارجها. إلا أن أداتها الرئيسة تمثلت في أمراء وجند المماليك الذين كانوا يمثلون السلطة العليا في البلاد، ويتوفرون على المقومات القتالية والمادية للاضطلاع بهذا الدور؛ نظرا لخبرتهم العسكرية الطويلة وحيازتهم للأسلحة المناسبة. وقد مثل هذا الطرف الزعيم المملوكي الكبير، مراد بك الذي كان يتقاسم السلطة سابقا مع إبراهيم بك الذي فر بدوره إلى الشام. لكن، خلافا لهذا الأخير، ظل مراد بك محاطا بعدة كوادر مملوكية عليا؛ مثل حسن بك الجداوي، وعثمان بك الشرقاوي، ومحمد الألفي، وغيرهم، ويتحرك ضمن خريطة سياسية تدين له بالولاء والطاعة. لذلك، اعتبر نابليون القضاء عليه شرطا ضروريا لإحكام سيطرته على كامل مصر.

إضافة إلى جند المماليك وأمرائهم، تألفت جبهة المقاومة من أهالي الصعيد الذين سجلوا حضورهم القوي في مختلف المعارك التي دارت رحاها بهذه المنطقة؛ سواء خلال مرحلة الغزو التي واجهوها بكل قوة؛ إذ لم يتمكن الجنود الفرنسيون من احتلال قراهم إلا بعد أن استنفدوا كل إمكانات القتال، أو خلال المرحلة الثانية التي اشتعلت فيها نيران الثورة في مجموع إقليم الصعيد؛ حيث كانوا يحولون أدوات عملهم الفلاحية إلى أسلحة، وينضمون إلى صفوف المقاتلين، أو يتزوّدون بالرماح والبنادق، ويهاجمون الوحدات الفرنسية، كما كان البعض منهم يُجهز على جرحى العدو، ويقدم للجنود الفرنسيين معلومات خاطئة ليوقعوهم في كمائن. وحينما كانت تعوزهم هذه الوسائل كانوا يقومون بإخلاء قراهم حتى لا يرغمهم الفرنسيون على تقديم أية

خدمة[٢]، وإلى جانب الأهالي استنجد مراد بك بعدد من المتطوعين الذين وفدوا عليه من بلاد النوبة، مسلحين بالسهام والنبال[٣]، إضافة إلى آخرين قدموا إليه من إثيوبيا[٤]. (انظر الخريطتين الرقمين (٨ ـ ١) و(٨ ـ ٢)).

الخريطة الرقم (٨ ـ ١)
مصر الوسطى والعليا في أواخر القرن الثامن عشر



المصدر: هنري لورنس، **الحملة الفرنسية في مصر**، ترجمة بشير السباعي (القاهرة: دار سينا للنشر، ١٩٩٥)، ص ٦٠ (بتصرف).

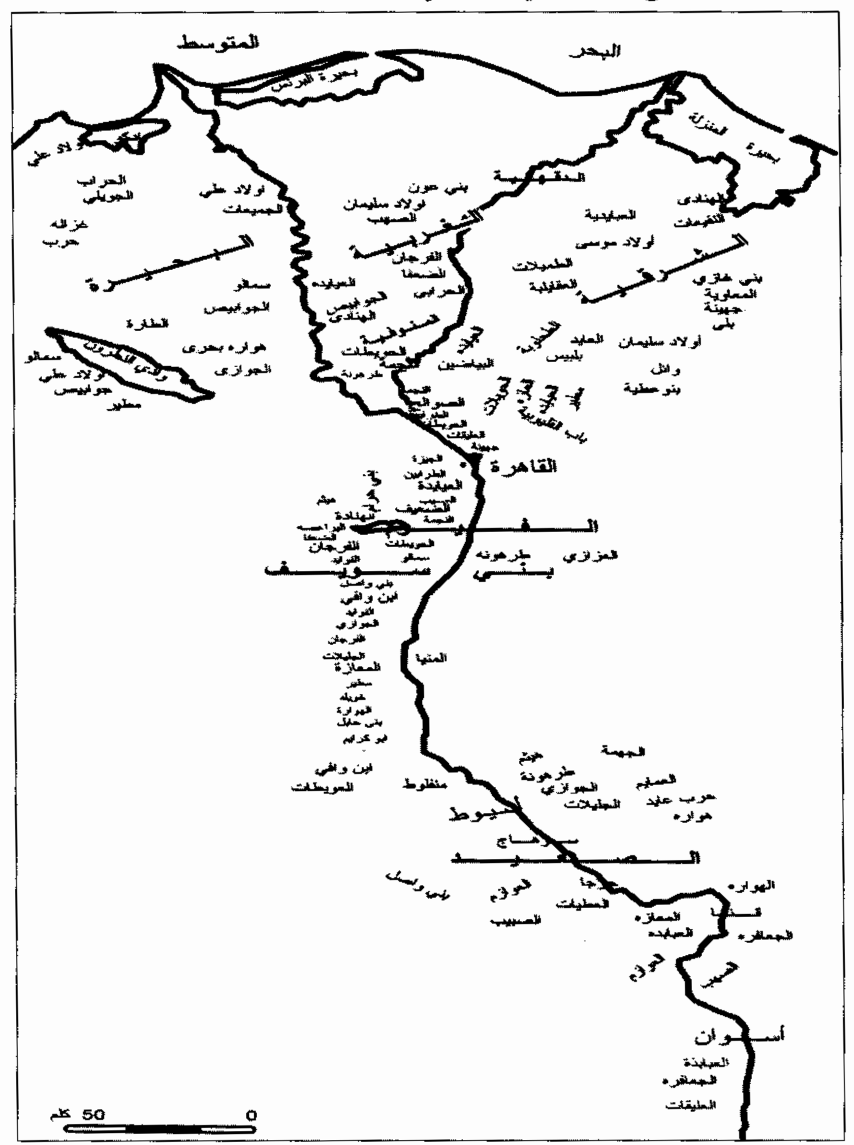
---

(٢) Henri Deherain, «L'Egypte turque,» dans: Gabriel Hanotaux, dir., *Histoire de la nation égyptienne*, 7 vols. (Paris: Plon, 1931-1940), vol. 5, p. 386.

(٣) Jacques Miot, *Mémoires pour servir à l'histoire des expéditions en Égypte et en Syrie pendant les années VI, VII et VIII de la République française* (Paris: Le Normand, 1814), p. 231.

(٤) Louis Reybaud, *Histoire scientifique et militaire de l'expédition française en Égypte*, 10 vols. (Paris: [A.-J. Dénain], 1830), vol. 3, p. 514.

الخريطة الرقم (٨ ـ ٢)
توزيع القبائل في مصر في أواخر القرن الثامن عشر



المصدر: عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، إعداد وتحقيق جمال الدين عبد العزيز، صفحات من تاريخ مصر؛ ٣٧، ٥ ج (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٧)، ج ٤: **الغزوة الفرنسية**، ص ٧٨٤ ـ ٧٨٥ (من ملحقات التحقيق).

إلا أن أقوى إمداد تلقّاه مراد بك، كما لاحظ ذلك أحد الدارسين

الأمريكيين، هم المقاتلون القادمون من الحجاز الذين عبروا البحر الأحمر بالألوف، وانضموا إلى جبهة المقاومة بالصعيد، وشاركوا في أغلب المعارك التي شهدها هذا الإقليم[٥]، وتزعموا عددا منها، وتمكنوا من تحريك جموع غفيرة من الأهالي والفلاحين، ونسّقوا عملياتهم القتالية مع الزعماء المماليك في أكثر من موقعة، وتصدوا للجهاد ضمن الصفوف الأمامية، وتميزوا باستماتتهم في القتال، كما نجحوا في إلحاق الهزيمة بالعدو في أكثر من مواجهة، واستولوا على أمواله وأسلحته بما في ذلك المعدات الثقيلة مثل المدافع، وقتلوا أكبر عدد من جنوده.

لهذه الاعتبارات كان لحضور هؤلاء المجاهدين إلى إقليم الصعيد ومصر بصفة عامة كبير الأثر على مجريات الأحداث المتصلة بهذه الحملة؛ حيث إنهم استطاعوا بجهادهم ذاك أن يُطيلوا عمر المقاومة بهذه الجهة، وأن يُرغموا العدو على الدخول في عدد من المعارك، ويُثيروا الأهالي ويُحرّضوهم على الثورة، بل إنهم أرغموا، غير مرة، المماليك على متابعة القتال. وقد تجلى دورهم هذا أكثر، وظهر خطرهم عندما نجحوا في التسلل إلى القاهرة، وانتشروا بأقاليم الوجه البحري حيث كانت تجري أطوار ثورتي أمير الحج المصري، صالح بك، ومولاي محمد المغربي. كما بدا أثرهم واضحا في ثورة القاهرة الثانية، وظلوا يشكلون مصدر تهديد دائم للجيش الفرنسي إلى حدود مغادرته مصر.

أولاً: الانتماء القطري للشيخ محمد الجيلاني ومختلف مقاتليه

شكل تحديد الانتماء القطري لهؤلاء المقاتلين واسم وهوية القائد الفعلي الذي كان يتزعمهم، مثار تضارب واختلاف بين المصادر التي تحدثت عنهم، رغم إجماعها على قدومهم من الحجاز. فقد أورد الجبرتي خبرهم في **عجائب الآثار**، تحت عنوان «أهل الحجاز»[٦]،

---

(٥) كريستوفر هيرولد، **بونابرت في مصر**، ترجمة فؤاد أندراوس؛ مراجعة محمد أحمد أنيس (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨)، ص ٢٥٨.

(٦) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ٣ ج (بيروت: دار الجيل، [د. ت.])، ص ٢٥٠ ـ ٢٥١.

وتناولهم في **مظهر التقديس** تحت اسم «الحجازيون»[٧]. وردد المؤرخ الشامي، المعلم نقولا الترك، خبرهم تحت عنوان «أهل الحجاز»[٨]. أما المؤرخ اليمني، لطف الله جحاف الذي انفرد بإيراد تفاصيل مهمة حول هؤلاء المجاهدين في حولياته فأشار إليهم باسم «المتطوعة» أو «متطوعة المسلمين»، ونسب كل فئة منهم إلى المدينة التي خرجت منها، وكلها مدن حجازية[٩].

أما المصادر الفرنسية التي كتبت في أغلبها من طرف ضباط شاركوا في حملة الصعيد، أو الحملة العامة التي شملت مصر والشام، فأوردتهم، هي بدورها، تحت أسماء مختلفة، لكنها اتفقت كلها على أن مركز انطلاقهم جميعا هو منطقة الحجاز. فقد أورد الجنرال بيرتييه (Berthier)، خبرهم تحت اسم «عرب ينبع» «Arabes d'Ymbo»[١٠]، واقتصر ميو (Miot) على الإشارة إليهم بـ «قادة ينبع وجدة» (Les Chefs d'ymbo et de Jedda)[١١]. أما دينون فيفون (Denon Vivant) الذي كان يرافق الجنرال ديزي خلال حملته لأغراض علمية، فتحدث عنهم تحت اسم «المكيين»[١٢] (Les Mekkins)، وسماهم نابليون الذي كانت تصله أخبارهم وهو يقاتل الجزار عند أسوار عكا بفلسطين بـ «عرب ينبع» (Arabes d'Ymbo)، وأشار إليهم أيضا في أمكان أخرى بـ «شرفاء ينبع» (Les chérifs d'Ymbo)[١٣]. أما الجنرال دوكا الذي كان يتولى الإشراف العام على هذه الحملة ويتزوّد بمختلف التقارير عن

---

(٧) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، **مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس**، تحقيق ودراسة وتعليق عبد الرزاق عيسى وعماد أحمد هلال، ٢ ج (القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، ١٩٩٨)، ج ١، ص ٢٤٩.

(٨) نقولا الترك، **حملة بونابرت إلى الشرق**، دراسة وتحقيق أمل بشور (بيروت: جروس برس، ١٩٩٣)، ص ١٢٨.

(٩) **نصوص يمنية عن الحملة الفرنسية على مصر**، نشر وتحقيق سيد مصطفى سالم (صنعاء: مركز الدراسات اليمنية، ١٩٨٩)، ص ٩٦ ـ ١٠٤.

(١٠) Alexandre Berthier, *Relation des campagnes du général Bonaparte en Egypte et en Syrie* (Paris: De l'impr. de P. Didot l'aîné, an VIII, 1800), pp. 156 et 163.

(١١) Miot, *Mémoires pour servir à l'histoire des expéditions en Égypte et en Syrie pendant les années VI, VII et VIII de la République française*, p. 239.

(١٢) Vivant Denon, *Voyage dans la Basse et la Haute Egypte* (Paris: Gallimard, 1998), pp. 239-247 et 272.

(١٣) Bonaparte, *Campagnes d'Égypte et de Syrie*, pp. 177-186.

هؤلاء المقاتلين الذين قضّوا مضجعه واضطروه في غير مرة إلى توجيه نداءات استغاثة إلى نابليون، فأحالهم، في مختلف مراسلاته، إلى الحجاز.

ولم يتخلف عن هذا الإجماع، حسب علمنا، سوى القبطان كَاربي (Garbé) الذي تواجه معهم في أكثر من معركة، ونبّه في أحد مراسلاته إلى أنهم مجرد عصابة من سكان شمال إفريقيا، انضم إليهم أناس من الحجاز.
«Mais il est bon de dire, que c'est tout simplement une horde de barbaresques qui se trouvaient à la Mèque, auxquels se joignent des gens sans aveu du même pays»[١٤].

وتجدر الإشارة، إلى أن اختلاف هذه المصادر، بشقيها المشرقي والفرنسي، حول تسمية هؤلاء المقاتلين، طال أسماء ومواطن القيادة التي كانت على رأسهم. فإذا كانت المصادر العربية قد أجمعت على أن متزعم هذه العملية الجهادية هو «محمد المغربي الجيلاني الهاشمي» حسب لطف الله جحاف[١٥]، أو «السيد محمد الجيلاني» حسب نقولا الترك[١٦]، أو «العالم المغربي الشيخ محمد الكيلاني» حسب عبد الرحمن الجبرتي[١٧]، فإن جل الوثائق الفرنسية لا يرد فيها إلا اسم الشريف حسن باعتباره الزعيم الأوحد لهؤلاء المقاتلين الذين أتوا من الحجاز. ولم يستثن من هذه القاعدة، حسب علمنا، سوى القبطان ماك شيهي (Mac Shehy) قائد حامية السويس الذي تحدث عن متزعم هذه الحركة، في أكثر من مراسلة، تحت اسم الشيخ الجيلاني (Cheik Gillani). ثم أورد اسمه، في مناسبة أخرى، على الشكل التالي (Cheik Bekery Gillani)[١٨]. أما حاكم القاهرة الجنرال دوكَا الذي كان يتلقى بشأنه تقارير دورية من قائد حامية السويس آنف الذكر، فأشار إليه في أحد رسائله إلى نابليون، باسم الشيخ محمد الجيلاني (Mohammed-el-Gillani)[١٩].

---

(١٤) «Relation du Capitaine Garbé,» dans: Clément de La Jonquière, *L'Expédition d'Egypte*, 5 vols. (Paris: C. Lavauzelle, 1899), vol. 3, p. 514.

(١٥) **نصوص يمنية عن الحملة الفرنسية على مصر**، ص ٩٦.

(١٦) الترك، **حملة بونابرت إلى الشرق**، ص ١٢٨.

(١٧) الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ج ٢، ص ٢٥٠.

(١٨) A.M.G., B6 22, Souez, lettre de Mac Sheehy à Dugua 23 floréal an 7 (12 mai 1799).

(١٩) Le Caire, Dugua à Napoléon, 30 ventose an 7 (20 mars 1799) dans: La Jonquière, *L'Expédition d'Egypte*, vol. 5, p. 26.

إضافة إلى هذا وذاك، يبدو أنه، باستثناء لطف الله جحاف وعبد الرحمن الجبرتي اللذين أكدا صراحة انتماء الشيخ الجيلاني إلى المغرب بمفهومه الواسع، لم يرد في أي مصدر من المصادر العربية أو الفرنسية، والوثائق الصادرة عن مختلف السلطات العسكرية بمصر، أية إشارة صريحة إلى هويته الوطنية؛ إذ ظل الأمر بالنسبة لهم يتعلق برجل من ينبع يتزعّم فلول من المتطوعة القادمين من المدن والقرى الحجازية. واسم هذا الرجل بالنسبة للقادة العسكريين الميدانيين بإقليم الصعيد، هو الشريف حسن الذي كان يقاتلهم فعلا في مختلف المعارك التي جرت أطوارها بهذا الإقليم. أما بالنسبة لقائد حامية السويس والجنرال دوكَا ونابليون، فهو الشيخ محمد الجيلاني من دون تحديد لهويته الوطنية التي لم تتجاوز عندهم حدود شبه الجزيرة العربية.

امتد هذا الخلط والاختلاف الذي شاب المصادر التاريخية ذات الصلة بهذا الحدث الهام إلى بعض الدراسات والأبحاث المعاصرة الأجنبية منها والعربية. وهكذا، وجدنا الباحث الفرنسي، هنري لورنس، الذي أفرد أحد مؤلفاته لحملة نابليون على مصر، لم يتجاوز من حيث معالجته لهذه النقطة مستوى ما أتاحته له المصادر والوثائق الفرنسية والإنجليزية. لذلك، لم يرد عنده ذكر للشيخ محمد الجيلاني، كما لم يتقص حقيقة المجاهدين الذين أجابوا دعوته[٢٠]. ويمكن أن يقال نفس الكلام على الباحث الأمريكي، هيرولد كريستوفر الذي لم يضف شيئا يذكر إلى هذه النقطة المتصلة بمتطوّعة الحجاز، رغم نبرته النقدية بخصوص تقييم عمل الحملة ككل[٢١].

وإذا كان الأمر قد بقي عند هذا المستوى بالنسبة لهذين الباحثين الأجنبيين، فإن بعض الدارسين العرب حاولوا الإجابة عن بعض الأسئلة المتصلة بهذه النقطة، لكنهم لم يتوفقوا دائما في إيجاد الأجوبة الصحيحة. وهكذا، وجدنا كمال الدين حسين عبد الرحيم يقول، متحدثا عن متطوعة الحجاز، إن الذي كان يقودهم هو «الشريف حسن، حاكم

---

(٢٠) هنري لورنس، **الحملة الفرنسية في مصر**، ترجمة بشير السباعي (القاهرة: دار سينا للنشر، ١٩٩٥).

(٢١) هيرولد، **بونابرت في مصر**.

ينبع التي كانت في ذلك الوقت تابعة لدولة المماليك في مصر»[٢٢]. أما شفيق شوكت العمروسي فقد استعصى عليه القبول بانتماء الشيخ محمد الجيلاني إلى المغرب رغم ورود صفة المغربي مقرونة باسمه، فقال: «وبالفعل، فإن ذكر لقب الهاشمي يقطع بأنه من أهالي الجزيرة العربية؛ إذ من المعروف أن بني هاشم، بطن قريشي. كما يؤكد هذا، خلع صفة الشريف عليه هو وابن أخته [الشريف حسن]. ثم إنه ليس من المعقول أن يتطوع الآلاف من أبناء الجزيرة العربية (. . .) بينما يتولى قيادتهم مجاور مغربي». وأضاف معقبا: «ونعتقد أن ما دفع الجبرتي إلى هذا الاعتقاد الخاطئ هو اسم المغربي الذي يحمله، بالإضافة إلى وجود عدد كبير من المتطوعين المغاربة في الجيش الحجازي»[٢٣].

يتضح من خلال ما سبق، أن صاحب القول الأول، كمال الدين حسين عبد الرحيم، حاول حل الإشكال المطروح عن طريق إدراج إقليم الحجاز تحت الحكم المصري، ليصبح بالنسبة إليه مجيء هؤلاء المجاهدين للقتال إلى جانب المماليك والأهالي مجرد امتداد طبيعي لحركة «وطنية» شاملة ضمن الحدود السياسية لمصر في تلك الفترة. وإذا كان هذا الباحث قد جعل إقليم الحجاز ضمن الحدود السياسية المصرية، رغم ما يتضمنه هذا القول من تناقض صريح مع الحقائق التاريخية المؤكدة، فقد رفض الباحث الذي تلاه، شفيق شوكت العمروسي، الاعتراف بالحقائق التي تضمنتها إحدى المصادر المعتمدة في هذا الموضوع، جاعلا من لقب «الهاشمي» دليلا قاطعا على انتماء هذا المجاهد المغربي إلى الجزيرة العربية، وكأن بطن بني هاشم لم يتحرك من مكانه وينتشر أفراده في شتى أنحاء العالم الإسلامي بما في ذلك المغرب. كما لم ير هذا الباحث من المعقول في شيء أن يتزعم رجل من المغرب آلاف المجاهدين من أبناء شبه الجزيرة العربية، وكأن الجهاد في تلك الفترة كان حكرا على جزء من العالم الإسلامي دون

---

(٢٢) حسين عبد الرحيم كمال الدين، **بونابرت والقصير والمعارك الرئيسية في جنوب الصعيد** (القاهرة: مطابع الأهرام، ١٩٩٦)، ص ١١.

(٢٣) شفيق شوكت العمروسي، «المكيون في مصر، دور عرب الجزيرة في مقاومة الحملة الفرنسية،» **مجلة الدارة** (الرياض) العدد ١ (حزيران/ يونيو ١٩٨٤)، ص ٥٩.

آخر، سيما إذا تعلق الأمر هنا بالمغرب الذي يبعد أهله عن الحجاز بمئات الكيلومترات، ولا يوجد به، حسب تلميح هذا الباحث، شرفاء من بني هاشم.

وبينما كان هذان الباحثان يغامران بأقلامهم في هذا الموضوع محاولين تلمس إجابات شافية عن الأسئلة الملحة التي تطرحها بعض قضاياه، وجدنا باحثا آخر أكثر إلماما بتطورات وتفاعلات المقاومة التي شهدها إقليم الصعيد، يتجاهل كلية دور الشيخ محمد الجيلاني في هذه المقاومة؛ حيث لم يرد في ثنايا كلامه على مختلف معارك الصعيد أية إشارة إلى الشيخ محمد الجيلاني حينما اقتصر على ذكر الشريف حسن باعتباره قائدا للمتطوعين الذين أتوا من الحجاز، ولم يُكلّف نفسه عناء تقصي هوية هؤلاء المجاهدين، مكتفيا بترديد نفس الأسماء التي كان يطلقها عليهم الفرنسيون، من مثل «المكيون» أو «عرب ينبع». أكثر من ذلك، وجدناه، في أحيان كثيرة، وكأنه يتعمد التقليل من أهمية الدور الجهادي الذي قام به هؤلاء المقاتلون، متجاهلا ما تحفل به المصادر والوثائق الفرنسية من تأكيدات بهذا الخصوص. لا، بل إنه يثور، في بعض الأحيان، ضد التقارير العسكرية الفرنسية، متهما إياها بالتحيز حينما تنسب «خسائر الثوار من أهالي ومماليك وعرب ينبع إلى عرب ينبع فقط. وكأن عرب ينبع، هم وحدهم الذين تصدوا للفرنسيين، وهم وحدهم الذين لحقت بهم الخسائر (. . .)». أقصد بذلك، الباحث المصري، السيد نبيل الطوخي الذي كرس بحثه لحملة الصعيد[٢٤].

انطلاقا مما سبق، نقول إن موضوع هذه المساهمة الجهادية الذي يتصل مباشرة بموقف المغاربة من هذه الحملة الاستعمارية التي استهدفت مصر يحتاج إلى وقفة متأنية لرفع اللبس الذي طال بعض جوانبه وإجلاء ما شاب بعض شخصياته وأحداثه من غموض، أو لحقها من تشويه بغية إبراز القيمة الحقيقية لهذا المظهر التضامني بين شعوب العالم الإسلامي خلال هذه المناسبة الأليمة.

---

(٢٤) نبيل السيد الطوخي، **صعيد مصر في عهد الحملة الفرنسية، ١٧٩٨ ـ ١٨٠١** (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧).

في هذا الإطار نؤكد أن القائد الفعلي لجموع المجاهدين الذين قَدِموا من الحجاز وقاتلوا قوات الحملة الفرنسية بإقليم الصعيد هو الشيخ محمد الجيلاني، وليس الشريف حسن كما ذهبت إلى ذلك عدد من المصادر والكتابات المعاصرة. هذه الحقيقة التاريخية نجدها مدونة في أكثر من مصدر ووثيقة؛ بدءا بلطف الله جحاف والشيخ عبد الرحمن الجبرتي والمعلم نقولا الترك، ومرورا بالسلطات العسكرية الفرنسية بمصر، وانتهاء بالمصادر المغربية.

أما المؤرخ اليمني، لطف الله جحاف الذي عاصر دخول الفرنسيين إلى مصر فقد أكد، منذ الوهلة الأولى، أن متزعمها هو الشيخ محمد الجيلاني، حيث قال: وفي سنة ١٢١٣هـ «قام في البلدة الحرام بوظيفة الدعاء إلى إقامة شعار سنام الإسلام، محمد المغربي الجيلاني الهاشمي لما وردت الأعلام بما صنعه الكفار اللئام من الهجوم على ساحات مصر. وتصدر بالحرم الشريف، فالتف عليه خلائق، واستمعوا إلى إرشاده إلى أنصح الطرائق، وفعل دعاؤه في القلوب ما فعل. وتسامع الناس بأخباره، فوردوا إليه، وبذلوا نفوسهم وأموالهم بين يديه»[٢٥]. كما يستفاد مما ورد عند هذا المؤرخ أن الشيخ محمد الجيلاني كان ينتقل بنفسه بين مختلف المدن الحجازية؛ من مكة إلى جدة، ومنها إلى المدينة، ثم العودة إلى ينبع. يشيع في الناس خبر هذا الاعتداء الفرنسي المفاجئ على مصر، ويعظهم ويُحرّضهم على بذل المال والنفس لمقاتلة هؤلاء الغزاة، ثم عبر بهم البحر الأحمر إلى إقليم الصعيد، فدعا هنالك الفرنسيين «إلى الإيمان بالله ورسوله، فإن أطاعوا وإلا هو مقاتلهم. فأجابوه بالقتال»[٢٦].

لم ينفرد لطف الله جحاف بإقرار هذه الواقعة التاريخية، فقد شاركه في ذلك مؤرخون آخرون، منهم؛ عبد الرحمن الجبرتي الذي على الرغم من بعده عن إقليم الصعيد، وصلته أصداء هذه الحركة الجهادية التي خرجت من الحجاز، فخلف لنا عنها وعن الشخص الذي

---

(٢٥) **نصوص يمنية عن الحملة الفرنسية على مصر**، ص ٩٦.

(٢٦) المصدر نفسه، ص ١٠٠.

تزعمها معلومات مهمة، حين قال: ومن مجمل حوادث شهر شعبان من سنة ١٢١٣هـ «تواتر الأخبار من ابتداء شهر رجب، بأن رجلا مغربيا عالما يقال له الشيخ الكيلاني، كان مجاورا بمكة والمدينة والطائف، فلما وردت أخبار الفرنسيس إلى الحجاز، وأنهم ملكوا الديار المصرية، انزعج أهل الحجاز لذلك، وضجوا بالحرم، وجردوا الكعبة، وأن هذا الشيخ، صار يعظ الناس ويدعوهم إلى الجهاد، ويحرضهم على نصرة الحق والدين. وقرأ بالحرم كتابا في معنى ذلك مؤلفا، فاتعظ جملة من الناس، وبذلوا أموالهم وأنفسهم. واجتمع نحو الستمائة من المجاهدين، ركبوا البحر إلى القصير»[٢٧]. ثم أورد بعد ذلك بعضا من صور القتال الذي دارت بين رجال الشيخ محمد الجيلاني والجنود الفرنسيين بإقليم الصعيد[٢٨].

أما المؤرخ الشامي، المعلم نقولا الترك الذي كان يتابع كتابة تقريره السري بالقاهرة فلم تفته الإشارة إلى حركة هذا المجاهد المغربي، فقال: «وكان حينما بلغ أهالي الحجاز دخول الفرنساوية الديار المصرية، فارتجت سكان تلك الأرض وماجت، واضطربت وهاجت. فتحرك من الأشراف السيد محمد الجيلاني. وقد جمع سبعة آلاف أماجيد، وحضر بهم إلى الصعيد. واجتمع إليه العربان من أهل تلك البلدان، عشرة آلاف من غير خلاف، وظهر أمره واشتهر خبره»[٢٩].

أما المؤرخ العثماني عزت حسن الداردنلي الذي كان يصاحب الوزير الأعظم يوسف ضيا باشا في حلّه وترحاله نحو مصر لتحريرها من الفرنسيين فلم يفته بدوره أن يُضمّن تقريره حول هذه الرحلة، أخبارا تؤكد تزعم الشيخ محمد الجيلاني لهذه الحركة، فقال: «واتفق أن كان هناك شيخ شجاع من المغاربة، يقال له الشيخ الكيلاني، وكان مجاورا بالحرمين الشريفين. ولما جاء إليه نبأ استيلاء الفرنسيين على مصر، خرج في سبيل الله. فتحلق حوله بعض الأتباع من أهل الحجاز، وعبر بهم

---

(٢٧) الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ج ٢، ص ٢٥٠.

(٢٨) المصدر نفسه، ص ٢٥٠ ـ ٢٥١.

(٢٩) الترك، **حملة بونابرت إلى الشرق**، ص ١٢٨ ـ ١٢٩.

بحر السويس إلى القصير. فالتف حوله ثلة من أهل الصعيد والفارين من المماليك»[٣٠].

إلى جانب هؤلاء المؤرخين الأربعة الذين عاصروا حدث الحملة، وتوزعت انتماءاتهم الجغرافية بين اليمن ومصر والشام والأناضول، يؤكد حقيقة تزعم الشيخ محمد الجيلاني المغربي لهذه الحركة الجهادية، أحد تلامذته بالمغرب الأقصى، وهو محمد الأوبيري، المعروف بأبي عبد الله الحميري، صاحب مخطوطة **إتحاف الخل المواطي في مناقب الإمام السكياطي**، حين قال: «ومات رحمه الله في توجهه للغزو ببلد الصعيد؛ فالتقى مع النصارى، وتقاتل معهم أشد القتال»[٣١].

إضافة إلى هذا وذاك، نلاحظ أنه في الوقت الذي كان فيه مدوّنو هذه المصادر المشرقية يلتقطون أخبار الشيخ محمد الجيلاني من بعيد بوسائلهم الخاصة، كان قائد الحامية الفرنسية بالسويس يراقب عن كثب ما يجري على الضفة المقابلة للبحر الأحمر، محاولا الكشف عن المحرك الرئيس لهذه الجموع من المقاتلين التي ما فتئت تتقاطر على ميناء القصير. وخلافا لضباط حملة الصعيد الذين ظلوا يعتقدون أن الشريف حسن هو زعيم هؤلاء المتطوعة، تمكن هذا القائد الفرنسي، ذي الأصل المالطي، من خلال التقارير التي كانت تصله من عين المكان، أن يتأكد، في وقت مبكر نسبيا، من أن الشيخ الجيلاني هو الزعيم الفعلي لهذه الحركة الجهادية. فبناء على أخبار مؤكدة زوده بها رجل من قبيلة مزونة الحجازية (Mazzona)، كان قد التقى فعلا بالشيخ محمد الجيلاني، وآخر من ينبع، وجّه هذا القائد إلى الجنرال دوكَا رسالة قال له فيها: إن أكثر من ثمانية آلاف من المقاتلين قدموا من مكة والمدينة ونزلوا بالقصير، وأنهم يشكلون جزءا من من عساكر الشيخ محمد الجيلاني «الرسول الجديد الذي ظهر بمكة». ثم أضاف، قائلا: إن هدف

---

(٣٠) عزت حسن أفندي الداردنلي، **الحملة الفرنسية على مصر في ضوء مخطوط عثماني: مخطوطة «ضيانامة»**، دراسة وترجمة جمال سعيد عبد الغني، تاريخ المصريين؛ ١٣٤ (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩)، ص ١٧٧.

(٣١) محمد التهامي الحميري الأوبيري، «إتحاف الخل المواطي ببعض مناقب الإمام السكياطي،» (مخ.خ.ع.، ك ١٠٣٦)، ص ٥.

هذا الشيخ، هو الاستيلاء على السويس أولا، ثم النزول إلى القاهرة لمحاربة الفرنسيين. ثم أضاف أن رجلا من ينبع أخبره أنه عدل عن مشروعه هذا، وأن نواياه تتمثل الآن في الذهاب إلى مصر العليا للقضاء على الفرنسيين بهذه الجهة، ثم النزول بعد ذلك إلى القاهرة[٣٢].

ورغم أن قائد حامية السويس وحاكم القاهرة ظلا يعتقدان إلى حدود ٢٠ آذار/ مارس ١٧٩٩، على الأقل، أن الشيخ محمد الجيلاني ما زال بالضفة الشرقية للبحر الأحمر، فقد كان الجنرال دوكَا على يقين تام من أن المقاتلين الذين يشتبكون مع الفرنسيين بإقليم الصعيد هم رجال هذا الشيخ[٣٣]. وتؤكد رسالة تالية صادرة عن ماك شيهي «أن رسول ينبع الذي أثار مواطنيه ضدنا، والذي كان يسمى الشيخ بكري جيلاني، قُتِل بمصر العليا. وكذلك الشأن بالنسبة لأغلب مقاتليه»[٣٤].

يستنتج من كل ما سبق أنه خلافا لعدد من المصادر والوثائق التي توهمت خطأ أن الشريف حسن هو القائد الفعلي وربما الأوحد لما عرف بمتطوعة الحجاز، تؤكد المصادر المنوه بها، بما لا يدع مجالا للشك، أن الشيخ محمد الجيلاني هو متزعم هذه الحركة الجهادية، سواء داخل الحجاز، أو على أرض المعركة بالصعيد.

ـ فما هي علاقة الشريف حسن بالشيخ محمد الجيلاني؟

تجدر الإشارة، أولا، إلى أن المصادر المشرقية التي ذكرناها آنفا، باستثناء ما ذكره لطف الله جحاف، لم يرد فيها ذكر للشريف حسن، وإنما ربطت ربطا مباشرا بين هذه الحركة والشيخ محمد الجيلاني. أما المصادر والوثائق الفرنسية فإن أغلبها كان يجهل اسم الشيخ محمد الجيلاني. لذلك، نسبت كل ما صدر عن هؤلاء المقاتلين إلى الشريف حسن. لكن، بعدما ثبت لنا الآن بالدليل القاطع أن متزعم هذه الحركة هو الشيخ محمد الجيلاني، نقول إن العلاقة التي ربطت بينه وبين

(٣٢) Suez, A.M.G., B^6 18 Mac Shéehy à Dugua, 25 Ramadane 1213 (2 février 1799).

(٣٣) Dugua à Bonaparte, 30 ventose an 7 (20 mars 1799), dans: La Jonquière, *L'Expédition d'Egypte*, vol. 5, p. 35.

(٣٤) A.M.G., B6. 22, Mac Sheehy à Dugua, 23 floréal an 7 (12 mai 1799).

الشريف حسن هي علاقة عائلية؛ لأن هذا الأخير هو ابن أخت الشيخ الجيلاني كما أثبت ذلك لطف الله جحاف حين قال: «وكان السابقون من مكة، قدموا من ريف مصر، وعليهم السيد حسن الجيلاني ابن أخت السيد محمد [الجيلاني] والسيد طاهر أخو السيد محمد، فنزلوا بقنا»[٣٥].

يتضح من هذه الرواية المصدرية أن الشريف حسن لم يكن فقط ابنا لأخت الشيخ الجيلاني، بل كان أيضا ابنا لأب ينتمي لعائلة الجيلاني. كما تأكد، من جهة أخرى، أن الشريف حسن الذي نال تلك الشهرة الواسعة داخل الأوساط العسكرية الفرنسية، لم يكن يوجد وحده على رأس الدفعة الأولى من متطوعة الحجاز، بل كان يتحمل المسؤولية إلى جانبه السيد طاهر أخو الشيخ محمد الجيلاني.

وعليه، يمكن القول إن الطاقم القيادي لهذه الحركة الجهادية التي انطلقت من الحجاز في اتجاه مصر لقتال الفرنسيين كان يتألف من ثلاثة أفراد ينتمون كلهم لعائلة واحدة هي عائلة الجيلاني المغربية، مثل الشيخ أحمد الجيلاني، زعيمها الروحي، بينما مثّل ابن أخته، الشريف حسن، وأخوه، السيد طاهر، قادتها الميدانيين في أغلب المعارك؛ لأنهما كانا على رأس الدفعة الأولى التي التحقت بمصر، بينما بقي الشيخ الجيلاني بالحجاز يحرض الناس على الجهاد في مختلف المدن والقرى الحجازية، ولم يلتحق بميدان المعركة إلا في وقت متأخرا نسبيا ووافته المنيّة أياما بعد ذلك. لهذه الأسباب، طغى اسم الشريف حسن على اسم الشيخ محمد الجيلاني، خاصة لدى القادة العسكريين الفرنسيين الذين واجهوه في أغلب المعارك.

ـ فمن هو إذن الشيخ محمد الجيلاني الذي نذر نفسه هو واثنين من أقربائه لتحريك تلك الجموع من المقاتلين والانتقال بهم إلى إقليم الصعيد لمواجهة الغزو الفرنسي لمصر؟

ـ قبل الإجابة عن هذا السؤال نلفت الانتباه إلى أن اسم هذا الرجل لم يرد موحدا في كل المصادر التي أشارت إليه. فإذا كان لطف الله

(٣٥) **نصوص يمنية عن الحملة الفرنسية على مصر**، ص ٩٩.

جحاف قد أشار إليه باسم «محمد المغربي الجيلاني الهاشمي»[٣٦]، فإن المعلم نقولا الترك قد دعاه بـ «محمد الجيلاني فقط»[٣٧]. أما الشيخ عبد الرحمن الجبرتي[٣٨] والداردنلي[٣٩] فقد ذكراه في مؤلفاتهم باسم «الشيخ الكيلاني». في حين أشار إليه قائد حامية السويس؛ مرة باسم «الشيخ محمد الجيلاني»، بينما أورده في أخرى باسم «محمد بكري الجيلاني». أما تلميذه، محمد الأوبيري، فقد ترجم له تحت اسم «سيدي الجيلاني بن أحمد بن المختار السباعي»[٤٠]. أما معاصره، الإسغركيسي فقد تحدث عنه في ذيل فهرسته تحت اسم «السيد الجيلالي بن أحمد السباعي الشريف الحسني»[٤١].

وكما يبدو، فإنه رغم هذه الاختلافات التي تراوحت بين الحذف والزيادة في بعض الألقاب التي كان يعرف بها هذا العالم، فإن لقب الجيلاني أو الجيلالي أو الكيلاني ظل يلازمه في كل المصادر؛ سواء كانت عربية أم فرنسية. وبغض النظر عن هذا الاختلاف، يبقى الاسم الذي عرف به أكثر هو الشيخ محمد وأحمد الجيلاني أو الجيلالي، كما أكدت ذلك المصادر المغربية.

بقي الفرنسيون يجهلون، طيلة أيام الحملة، الهوية الوطنية الحقيقية لهذا الشيخ، فعدوه واحدا من مواطني الحجاز، ولم يرد في كل المصادر والوثائق التي اطلعنا عليها أي تساؤل عن هويته الوطنية. أما الدارسون المحدثون وخاصة المصريون منهم فقد استعصى عليهم القبول بحقيقة انتمائه إلى بلد آخر غير الحجاز. لكن عددا من المصادر العربية التي عاصرت الحملة تؤكد بما لا يدع مجالا للشك، أن الشيخ محمد

---

(٣٦) المصدر نفسه، ص ٩٦.

(٣٧) الترك، **حملة بونابرت إلى الشرق**، ص ١٢٨.

(٣٨) الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ج ٢، ص ٢٥٠.

(٣٩) الداردنلي، **الحملة الفرنسية على مصر في ضوء مخطوط عثماني: مخطوطة «ضيانامة»**، ص ١٧٧.

(٤٠) الأوبيري، «إتحاف الخل المواطي ببعض مناقب الإمام السكياطي،» ص ٣١٨ ـ ٣٢١.

(٤١) ذكره: العباس بن إبراهيم، **الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الاعلام** (فاس: المطبعة الجديدة، ١٩٣٦ ـ ١٩٣٧)، ج ٦، ص ١٤٨.

الجيلاني، مغربي المولد والنشأة والموطن. أشار إلى ذلك، صراحة، كل من لطف الله جحاف حينما قال: «محمد المغربي الجيلاني»(٤٢)، وعبد الرحمن الجبرتي حينما قال أيضا: «رجلا مغربيا عالما يقال له الشيخ الكيلاني»(٤٣). ونفس الشيء فعله الداردنلي حيث قال: «واتفق أن كان هناك شيخ شجاع من المغاربة يقال له الشيخ الكيلاني»(٤٤). ولم يتخلف عن هذه القاعدة، حسب علمنا، سوى المعلم نقولا الترك الذي لم يتجاوز ذكر اسمه الشخصي والعائلي، فقال: «فتحرك من الأشراف، السيد محمد الجيلاني»(٤٥). وكأنه يريد أن يقول بانتمائه إلى الجزيرة العربية الموطن الأصلي لهؤلاء الأشراف.

ورغم ذلك، فإن القول بانتماء محمد الجيلاني إلى المغرب، حسب ما ورد في هذه المصادر، لا ينهي الاختلاف القائم حول نسبته القطرية؛ لأن مفهوم المغرب في تلك الفترة كان ينسحب على كل بلدان شمال أفريقيا بدون تمييز. اللهم إذا قرن اسم الشخص المذكور باسم المدينة أو البلدة التي ينتمي إليها. والحال أن اسم الشيخ محمد الجيلاني لم يقرن بأية إشارة تحيل على موطنه الأصلي بالمعنى الذي أوضحنا.

ورغم ذلك، فإن هذا الإشكال يعتبر، بالنسبة لنا، منتهيا، لاعتبارات عدة، نذكر منها؛ أن المصادر المغربية التي اعتنت بترجمة هذا الشيخ، أكدت انتماءه، بشكل صريح، إلى المغرب الأقصى، وبالذات إلى قبيلة أولاد أبي السباع المستوطنة بأحواز مراكش. فقد ذكر معاصره، الإسغركيسي، في ذيل فهرسته، أنه لقيه بمراكش عام طلوعه للحجاز»(٤٦). أما تلميذه، محمد الأوبيري، فقال مترجما له: «وكان حدثني بعض الأشياخ بأن جده سيدي المختار قال في حقه الشيخ سيدي أحمد بن ناصر: المختار هو ياقوتة المغرب، وما يشابه أباه فما ظلم»(٤٧).

---

(٤٢) **نصوص يمنية عن الحملة الفرنسية على مصر**، ص ٩٦.

(٤٣) الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ج ٢، ص ٢٥٠ ـ ٢٥١.

(٤٤) الداردنلي، **الحملة الفرنسية على مصر في ضوء مخطوط عثماني: مخطوطة «ضيانامة»**، ص ١٧٧.

(٤٥) الترك، **حملة بونابرت إلى الشرق**، ص ١٢٨.

(٤٦) ذكره: بن إبراهيم، **الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الاعلام**، ج ٦، ص ١٤٨.

(٤٧) الأوبيري، «إتحاف الخل المواطي ببعض مناقب الإمام السكياطي،» ص ٣١٩.

ويستفاد مما ذكره محمد بن عبد السلام بناني في معرض حديثه عن هذا الشيخ أنه ينتمي إلى قبيلة أولاد أبي السباع القاطنة بأحواز مراكش، والمعروفة بانتمائها إلى فرع الشرفاء الأدارسة. ومن هنا اتصال لقبي السباعي والهاشمي باسم هذا الشيخ وبقية أفراد عائلته الذين حاربوا معه في مصر. فقد ورد عند هذا المؤلف التراجمي قوله على محمد بن أحمد الجيلاني: «هو الشيخ العالم الحسني، أصله من أولاد بن السبع»[٤٨]. ثم قص خبر دخوله فاس، وانتقاله من هناك إلى الحجاز، وخروجه بعد ذلك إلى مصر العليا برسم الجهاد. وهذا معناه أن الشيخ محمد الجيلاني وابن أخته حسن وأخوه طاهر، كلهم أفراد عائلة شريفة من المغرب الأقصى، وبالذات قبيلة أولاد أبي السباع الإدريسية الحسنية الهاشمية المغربية.

ثانياً: انتقال الشيخ محمد الجيلاني من الحج والمجاوَرة بالحرمين إلى المقاومة والجهاد بالصعيد

تفيد المعلومات المصدرية المتوافرة لدينا أن الشيخ محمد الجيلاني كان موجودا بالحجاز قبل دخول الفرنسيين مصر بوقت طويل نسبيا. فكل الذين تحدثوا عن حركته أكدوا أنه كان «في البلدة الحرام»، كما جاء ذلك عند لطف الله جحاف[٤٩]، أو أنه «كان مجاورا بمكة والمدينة والطائف»، كما ورد عند الجبرتي[٥٠]. أما الداردنلي فقد ذكر أنه «كان مجاورا بالحرمين الشريفين»[٥١]، في حين أكد المعلم نقولا الترك

(٤٨) محمد بن عبد السلام بناني، «تحلية الآذان والمسامع بنصرة الشيخ أبي زكري العلامة الجامع،» (مخ. خ. س. رقم ٣٤٥)، ص ٢٩٩. للإلمام أكثر بأصل وموطن هذه القبيلة المغربية وأدوارها الاجتماعية والسياسية في تاريخ المغرب، انظر: عبد الله بن عبد المعطي السباعي، **الدفاع وقطع النزاع عن نسب الشرفاء أبناء أبي السباع**، تصحيح محمد الموقت المراكشي (الرباط: المطبعة الاقتصادية، ١٩٤٠)، ص ١٢؛ مولاي الحسن الكنفاني، «قبيلة أولاد أبي السباع في القرن التاسع عشر،» (دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب، الرباط، ١٩٨٧ ـ ١٩٨٨)، ج ١، ص ٢٣٧ ـ ٢٤٥، وصالح بن بكار السباعي، **الأنس والإمتاع في أعلام الأشراف أولاد أبي السباع** (مراكش: دار وليلي للطباعة والنشر، ٢٠٠٠).

(٤٩) **نصوص يمنية عن الحملة الفرنسية على مصر**، ص ٩٦.

(٥٠) الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ج ١، ص ٢٥٠.

(٥١) الداردنلي، **الحملة الفرنسية على مصر في ضوء مخطوط عثماني: مخطوطة «ضيانامة»**، ص ١٧٧.

تحركه من عين المكان عندما قال: «فتحرك من الأشراف السيد محمد الجيلاني»[٥٢]. أما المصادر والوثائق الفرنسية التي تعاملت معه كواحد من سكان الحجاز فلم يدر بخلدها أن تتساءل عن ظروف حلوله بهذه المنطقة.

وأجمعت المصادر المغربية التي اعتنت بأخبار جهاده بمصر على أنه كان موجودا بالحجاز قبل الغزو الفرنسي لهذا البلد. فقد أخبرنا محمد بن عبد السلام الناصري أنه أثناء زيارته لقبر الرسول صلى الله عليه وسلم خلال حجته الثانية ستة ١٢١١هـ، أنزله «الأحب الأفضل العالم الزاهد الورع الشيخ الجيلاني السباعي المغربي ببيته، وكان ذلك بوعد مني له تجاه الكعبة، إذ طلبه أيام اجتماعي به بمكة»[٥٣]. وذكر محمد بن عبد السلام بناني، صاحب التحلية، أن الشيخ مجمد الجيلاني دخل فاس «وصحبه فيها جماعة من طلبة العلم وغيرهم، ثم ارتحل إلى المشرق، فحج وجاور في الحرمين الشريفين، إلى أن نزل بأهل مصر ما مضى ذكره»[٥٤]. أما الضعيف الرباطي فكان أكثر دقة حين عيّن تاريخ حلوله بالمشرق، فقال: «وفي عام ١٢٠٢هـ (١٧٨٧/١٧٨٨م) توجه الفقيه الخاشع سيدي الجيلاني السباعي للمشرق»[٥٥].

يتأكد من خلال هذه المعلومات المصدرية أن حضور الشيخ محمد الجيلاني إلى الحجاز لم يكن أصلا بغرض الجهاد ضد الفرنسيين الذين لم يدخلوا مصر إلا بعد مضي أكثر من عشر سنوات من حلوله بهذه الديار، وإنما كان الأصل فيه هو حج بيت الله الحرام والمجاورة بالمدينتين المقدّستين.

أما عن كيفية حلول أخيه طاهر وابن أخته حسن بالحجاز، فلا نملك بخصوصها أية إجابة مقنعة. لكننا، نحتمل أن يكونا قد رافقاه في رحلته

(٥٢) الترك، **حملة بونابرت إلى الشرق**، ص ١٢٨.

(٥٣) محمد بن عبد السلام الناصري، **الرحلة الصغرى**، ص١٢٣.

(٥٤) بناني، «تحلية الآذان والمسامع بنصرة الشيخ أبي زكري العلامة الجامع،» ص ٢٩٩.

(٥٥) محمد الضعيف، **تاريخ الضعيف: تاريخ الدولة السعيدة**، تحقيق وتعليق وتقديم أحمد العماري (الرباط: دار المأثورات، ١٩٨٦)، ص ٣٨٩.

وشكّلا جزءا من الجماعة التي خرجت معه من فاس، والتي تألفت «من طلبة العلم وغيرهم»(٥٦). كما لا يستبعد أن يكونا قد التحقا به في إطار أحد مواسم الحج التي سبقت دخول الفرنسيين مصر.

أما عن انتقاله من حالة الاعتكاف والمجاورة بمكة والمدينة إلى المجاهدة والقتال بمصر العليا فقد تحكمت فيه، حسب تقديرنا، أسباب ذاتية وأخرى موضوعية.

فمن جهة الأسباب الذاتية يلاحظ أن رجلا مثل الشيخ محمد الجيلاني لم يكن لتنقصه المحفزات الضرورية للقيام بعمل من هذا النوع في مثل ذلك الظرف. نقصد بكلامنا هذا، أن الشيخ محمد الجيلاني كان يوجد أصلا في حالة جهاد نفسي وروحي قبل أن يحل الفرنسيون بمصر. ذلك، أن رحلته من المغرب الأقصى إلى المشرق ومجاورته بالمدينتين المقدّستين بعد قضاء مناسك الحج والعمرة، ينمان عن رغبته القوية في تطهير النفس والسمو بها في مدارج الكمال الروحي وتحقيق أعلى درجات القرب من الله تبارك وتعالى. وهذا كما نعلم، شكل من أشكال الجهاد المطلوبة شرعا التي تستدعي تحمل ألوان من الصبر والمكابدة، أقلها الانقطاع لزمن قد يطول أو يقصر، عن الوطن، وربما كذلك عن الأهل والأحباب، والإعراض عن الدنيا والإقبال بالكلية على الآخرة. وغني عن القول إن نيل هذا المقام الرفيع على الوجه الأكمل يتطلب من صاحبه الانتقال من العوالم «المدنسة» والحلول بالمشرق الذي يرمز في المخيال العام إلى القداسة والطهر. ألم يحث هذا الشيخ معاصريه من المغاربة على القيام بهذه الرحلة الروحية حينما بعث رسالة إلى أصحابه بفاس يحذرهم فيها من التكالب على حلال الدنيا قبل حرامها، وينصحهم باتخاذ «الزهد من الدنيا شعارا، ومن بزتها دثارا؟». ثم ألم ينهاهم عن التملق، و«أرسل إليهم يحذرهم من المقام في المغرب والمكث فيه، ويأمرهم بالذهاب إلى المشرق»(٥٧)؟

فكما نرى، إن رجلا يعرض عن الدنيا بهذه القوة، وتتملّكه رغبة من

(٥٦) بناني، المصدر نفسه، ص ٢٩٩.

(٥٧) المصدر نفسه، ص ٣٠٠.

هذا المستوى في تطهير نفسه وبدنه عبر الحلول بالمشرق والمجاورة بالمدينتين المقدّستين بعيدا عن أهله ووطنه، وينصح بذلك معاصريه من علماء المغرب ذوي الشهرة والمكانة مثل حمدون بن الحاج السلمي[٥٨] والعربي بنيس[٥٩]، سوف لن يتردد في اهتبال هذه الفرصة التي لاحت فجأة أمام ناظريه، فيتحول من المجاورة بالحجاز إلى مقاتلة جنود الاحتلال الفرنسيين بمصر استجابة منه لنادي الجهاد وطلبا للشهادة.

إلى جانب هذا المقوم الروحي الذي انتشل هذا الشيخ الزاهد من حالة الاستغراق في التعبد، إلى التنقل بين المدن والقرى الحجازية يعظ الناس ويحرضهم على بذل المال والأنفس من أجل نصرة إخوانهم بمصر، نلاحظ أن محمد الجيلاني لم يكن شخصا بسيطا يطلب خلاصه الفردي عبر الإعراض عن هذه الدنيا الفانية، بل كان له اهتمام قوي بالشأن السياسي وخاصة ما يتصل منه بالمغرب، إلى درجة يمكن اعتباره معها واحدا من أقطاب المعارضة الأقوياء للسياسة التي كان ينتهجها السلطان مولاي سليمان. فقد ذكر محمد الأوبيري، أنه «تحدث معنا ذات يوم، فقال: إن السلطان مولاي سليمان أرسل إليه مائتي دينار، وقال للرسول وهو الفقيه سيدي محمد الزروالي، قل له إذا وصلتها إليه إن هذه لم تدخل بيدي بل أتتك من دار الأعشار للنصارى برباط الفتح

---

(٥٨) هو حمدون بن عبد الرحمن المرداسي السلمي الفاسي، أبو الفيض. المعروف بابن الحاج. ولد بفاس سنة ١١٧٤هـ/ ١٧٦٠م، وتوفي بها سنة ١٢٣٢هـ/ ١٨١٨م. أديب وفقيه وكاتب مخزني، «انتهت إليه الرياسة في جميع العلوم واستكمل أدوات الاجتهاد على الخصوص والعموم» وكان مقدماً على غيره من العلماء لدى السلطان مولاي سليمان، ومقرباً من الشيخ أحمد التيجاني. تولى الحسبة بفاس، والقيادة بالغرب، واشتغل بالتدريس. وله أشعار كثيرة في مدح مولاي سليمان، جمعها في ديوان له. وكان من تلامذة الشيخ محمد الجيلاني. للمزيد من المعلومات حول هذه الشخصية العلمية والمخزنية، انظر: محمد بن عبد الكبير بن هاشم الكتاني، **زهر الآس في بيوتات أهل فاس، ويليه تحفة الأكياس ومفاكهة الجلاس فيما غفل عنه صاحب زهر الآس في بيوتات أهل فاس**، تحقيق علي بن المنتصر الكتاني، الموسوعة الكتانية لتاريخ فاس؛ ١ ـ ٢، ٢ مج (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، ٢٠٠٢)، مج ١، ص ٣٢١ ـ ٣٢٣، وبن إبراهيم، **الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الاعلام**، ج ٣، ص ١٢٠ ـ ١٢٤.

(٥٩) هو أبو حامد سيدي العربي بن أحمد بن محمد بنيس. فقيه وعالم. اشتغل بتدريس العلوم بفاس، وخاصة منها علم الفرائض. وكان السيد محمد الجيلاني أحد شيوخه مثله في ذلك مثل معاصره حمدون بن الحاج السلمي. توفي في شهر ذي الحجة من سنة ١٢١٣هـ/ ١٧٩٩م، ودفن بفاس. انظر: الكتاني، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٧٨.

فاقبلها. قال الشيخ، فقلت له: أقرئه السلام، وقل له: إن كان كما قلت، فاقض بها الدين الذي عليك، فإن الدين لا يقضى إلا من الحلال. وأما أنا فقد أغناني الله عنها. وردّها إليه، ثم قال لنا: إنه صرف لي وقال: ادع الله أن يعينني، فإني أتكلف العدل ما أمكنني. قال فقلت له: كيف تعدل وأنت تولي على المسلمين العمال الظالمين مثل فلان وفلان»، وتهمل «العلماء الأتقياء أولياء الله»[٦٠].

يتضح من خلال هذه الشهادة الحية أن الشيخ محمد الجيلاني كان يحظى بمكانة خاصة لدى السلطان مولاي سليمان، ويتمتع بسلطة روحية قوية داخل المغرب. لذلك، خطب وده بهذه الأعطية، مؤكدا له أنها خالية من أية شبهة. أما حينما رفضها، فطلب منه مجرد الدعاء، محاولا إقناعه بأنه يتكلف العدل ما أمكنه، وكأنه يريد أن يبرئ ذمته لدى هذا العالم الذي كان يبعد عنه بآلاف الكيلومترات.

ومما لا شك فيه أن هذا الحس السياسي والنقدي الذي كان يتملك هذه الشخصية المغربية تجاه ما كان يجري على الساحة الوطنية، سيرافقه في رحلته إلى المشرق، وسيكون له أثر مباشر على الكيفية التي سيتفاعل بموجبها مع نداء الاستغاثة الذي جاء من مصر. ذلك أنه لا يعقل أن يوجه كل تلك الانتقادات إلى مولاي سليمان، ويبقى مكتوف اليدين أمام هذا العدوان الذي لا شك أنه استنفر فيه غيرته الإسلامية.

ومعنى هذا أن تصرف الشيخ الجيلاني، بهذه المناسبة، يعتبر، من وجهة نظرنا هاته، امتدادا طبيعيا لسلوكه بالمغرب حينما رفض السقوط في شرك السلطان الذي كان يولي، حسب قوله، «على المسلمين، العمال الظالمين». ذلك أن الشخص الذي استطاع أن يواجه سلطة الإغراء المالي بهذه القوة ويجهر بمعارضته لسياسة السلطان مولاي سليمان، رغم بعثه إليه من يخطب وده وهو مجاور بالحجاز، قادر على مقاومة الظلم والعدوان الذي اقترفه الفرنسيون بحق المسلمين عامة وأهل مصر منهم على وجه الخصوص.

---

(٦٠) الأوبيري، «إتحاف الخل المواطي ببعض مناقب الإمام السكياطي،» ص ٣١٨ ـ ٣٢١، وبن إبراهيم، المصدر نفسه، ج ٦، ص ١٥٤.

أما الأسباب الموضوعية التي نقلت محمد الجيلاني من عالم التعبد والمجاورة بالمدينتين المقدّستين نحو إعداد وتنفيذ حركته الجهادية، فتتمثل، حسب رأينا، في ثلاثة أسباب رئيسة؛ منها:

أولا: تزامن الحملة الفرنسية على مصر مع وجوده بالديار الحجازية. ذلك أن وجوده في هذا المكان في ذلك التاريخ بالذات جعله مثل غيره من سكان الجزيرة العربية يعاين هذا الحدث عن كثب بواسطة ما كان يصله من أخبار طرية ومباشرة؛ نظرا لعامل القرب الجغرافي والعلاقات البشرية الوثيقة الموجودة آنذاك بين الحجاز ومصر، وخاصة منها إقليم الصعيد الذي لم يكن يفصله عن هذه المنطقة سوى شريط بحري ضيق لا يتجاوز عرضه ١٦٠م، وربما أقل من ذلك بكثير في بعض النقاط[٦١].

ثانيا: التهديد المباشر الذي أضحى يعيشه سكان الجزيرة العربية ككل، وأهل الحجاز منهم على وجه الخصوص من جراء هذا العدوان العسكري المفاجئ الذي أحكم سيطرته في وقت قياسي على القاهرة والوجه البحري، وشتت جموع المماليك الذين اشتهروا بشدة بأسهم ومراسهم العسكري. وازداد شبح هذا التهديد العسكري أكثر عندما أصبح جزء من قوات جيش الشرق ترابط بمدينة السويس، وحشود منها تتقدم في مصر العليا الشديدة القرب والارتباط بالحجاز. يضاف إلى هذا وذاك، أنه في الوقت الذي كان فيه الجنرال ديزي يتعقب فلول المماليك عبر صحراوات ووديان إقليم الصعيد محاولا السيطرة على مدنه وقراه ومنافذه البحرية، كانت حملة أخرى تتوجه صوب الشام وعلى رأسها نابليون شخصيا، مما جعل منطقة الحجاز مطوقة من جهتي الشمال والغرب.

ومما لا شك فيه أن وضعا أمنيا حرجا كهذا سيستنفر لدى سكان المدن والقرى الحجازية واليمنية مشاعر الخوف والحذر على مستقبلهم، كما سيحرك في قلوبهم دواعي الغيرة الدينية وهم يرون إخوانهم في

(٦١) للتوسع أكثر في العلاقات الخاصة التي ربطت بين مصر والحجاز خلال القرن الثامن عشر، انظر: حسام محمد عبد المعطي، **العلاقات المصرية الحجازية في القرن الثامن عشر** (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩).

مصر والشام، يقعون تباعا تحت طائلة الاحتلال الفرنسي. في هذا الجو المشحون بالتهديد الأمني والمفعم بالعواطف الدينية الجياشة، سيكون لزاما على شخصية من صنف الشيخ محمد الجيلاني أن تهب إلى حمل راية الجهاد نصرة للدين ودفعا للأذى الذي لحق بالمسلمين من جراء هذا العدوان الذي نفذته إحدى الدول المسيحية التي التصق اسمها بالحروب الصليبية حين سماها المسلمون بـ «حروب الفرنجة».

ثالثا: أما السبب الذي تحكم، ربما، أكثر في ما أقدم عليه هذا الشيخ المغربي فيتمثل في ورود رسائل من السلطان العثماني باعتباره خليفة لجميع المسلمين، يدعو فيها حكام الجزيرة العربية إلى رفع راية الجهاد ودفع هذا العدوان، محذرا، في نفس الوقت، من أن آثاره ستطال العرب قبل غيرهم؛ لأن خطة هذا العدو تقتضي، حسب الرسالة التي زعم السلطان العثماني أنها وُقّعت بيد أحد جواسيسه، انقضاض نابليون، الذي وُجّهت إليه هذه الرسالة من حكومة الإدارة على «طوائف العرب لتبلغ فيهم أقصى مرام وأعز مطلب، وتبذل الجهد في إخراج الرعية من الإسلام عن طاعة من وُلّي عليهم من الحكام، حتى تكون لنا الصولة العظمى، ويصيرون الجميع لنا مغنما. فينقطع بذلك نظامهم، وينفصم عقد انتظامهم. فنملك حينئذ، رقابهم وأموالهم. فإن العرب أسرع ما يتولى على ديارهم، لتفرقهم في أوديتهم من أقطارهم وغفلتهم عن حزم أحوالهم. فإن أعظم ما يشتت جموع الإسلام ويفل حد سنانهم عن الانتظام، هدم قبلتهم، وحرق مساجدهم. وإذا ظفرنا بأقطارهم، وهُدِمَت كعبتهم، وبيت مقدس لهم، انقطع أملهم، وتفرق شملهم، وملكنا ديارهم (. . .) فنقتل جميع رجالهم، ومن يعقل من صبيانهم. فحينئذ نقتسم ديارهم وأموالهم وأملاكهم، ونحوّل بقية الناس إلى أصولنا وقواعدنا ولساننا وديننا. فيمحي الإسلام وقواعده وشرائعه، وتندرس رسومه وآثاره من وجه الأرض من شرقها وغربها، وجنوبها وشمالها، وعربها وعجمها. فهذا ما اتفق عليه رأي الفرنسيين اللعين، من سوء المقاصد في المسلمين». لذلك، فالمطلوب من «شريف مكة، وسادات الأشراف، وقايات العرب وحماة الدين، وكماة المسلمين (. . .) أن يشدوا عزائمهم للقاء الفرنسيين، وأن يحفظوا جهاتهم وسواحلهم ومنافذ بلدانهم، وإن يسارعوا إلى الرباط إلى حدود الكفرة

اللئام، ببندر جدة وينبع وما والاهما لما فيه صيانة المسلمين»[٦٢].

رغم أن الكلام الوارد في هذه الرسالة السلطانية التي كانت أيضا بمثابة فرمان ملزم لمن هو مخاطب به، لا يخرج عن إطار الدعاية المضادة التي كان يواجه بها الباب العالي ما عرف بـ «سياسة نابليون الإسلامية»، فإن مجرد إذاعته في الناس من خلال منابر المساجد، سيشكل أحد الدوافع القوية لجعل شخصية دينية من حجم الشيخ محمد الجيلاني تسارع إلى التحرك في اتجاه رفع راية الجهاد استجابة لهذا النداء الذي صدر من خليفة المسلمين، رغبة منه في كسر ذلك المخطط التدميري الذي يستهدف، حسب الرسالة السلطانية، عامة المسلمين والعرب منهم على وجه الخصوص، مع ما يترتب على ذلك من«هدم كعبتهم، وحرق مساجدهم (. . .)».

إلا أن هذه الاستجابة العفوية والمنتظرة في مناسبة مثل هاته ستكتسي طابعا أكثر استعجالية وقوة عندما تتدفق العساكر الفرنسية على إقليمي الصعيد، ويتأكد تقاعس أمير مكة وإمام اليمن عن رفع راية الجهاد[٦٣]. آنذاك، ستتحول هذه الاستجابة من مجرد المرابطة بموانئ الحجاز كما جاء في الرسالة السلطانية، إلى الانتقال إلى مصر من أجل إيقاف تقدم هذا العدوان باتجاه أراضيهم ومقدساتهم وتحرير مصر بعد ذلك.

وهكذا، يمكن القول إن ورود هذا الفرمان السلطاني إلى الديار الحجازية وإذاعته بين سكانها واستمرار أمير مكة في علاقاته المريبة مع سلطات القاهرة الجدد مع ما رافق كل ذلك من تهديد أمني، سيشجع

---

(٦٢) **نصوص يمنية عن الحملة الفرنسية على مصر**، ص ١١٤.

(٦٣) رغم نداءات الجهاد التي كانت تفد على أمير مكة الشريف غالب بن مساعد من السلطان العثماني وعدد من المجاهدين من أمثال الشيخ محمد الجيلاني المغربي، ظل هذا الأمير وفيّا لعلاقات الصداقة والتعاون التي ربطها مع إدارة الاحتلال الفرنسية منذ الوهلة الأولى. لذلك نعته الشيخ محمد الجيلاني، حسب ما جاء في أحد رسائل القائد الفرنسي لحامية السويس ماك شيهي، بـ «المرتد». للإلمام أكثر بموقف هذا الأمير من الحملة الفرنسية على مصر والتأكد مما قاله في حقه الشيخ محمد الجيلاني، انظر: A.M.G., B6 18, Suez, Mac-Sheehy à Dugua, 2 ventose an 7 (20 février 1799), and Abir Mordachai, «Relations between the Government of India and the Sharif of Mecca during the French Invasion of Egypt, 1798-1801,» *Journal of the Royal Asiatic Society*, vol. 97, no. 1 (January 1965).

هذا الشيخ الذي كان في حالة قصوى من التشبع الروحي على القيام بفرض الجهاد من خلال عمله ذاك.

لكن، إذا كانت رسالة السلطان العثماني قد طرقت مسامع أهل الحجاز، ومن بينهم الشيخ محمد الجيلاني من بعيد فحركت في البعض منهم نادي الجهاد وتقاعس عنه آخرون وخصوصا منهم الحكام، فإن دعوات أخرى أكثر استعجالية كانت ترد على هؤلاء السكان من إقليم الصعيد مباشرة، واصفة لهم ما يتعرض له إخوانهم في الدين من فتك وعدوان من طرف الجند الفرنسيين.

فقد وردت على أهل الجزيرة العربية عامة والأمراء والشيوخ منهم على وجه الخصوص، دعوات مباشرة من لدن مراد بك، طالبة منهم الانتقال إلى مصر العليا والانضمام إليه في حربه ضد قوات الجنرال ديزي. لا نعرف في ما إذا كانت هذه الدعوات قد وجهت إلى الشيخ محمد الجيلاني شخصيا فاستجاب لها؟ غير أنه لا يستبعد أن تكون هذه الصرخة التي صدرت من عين المكان قد حركت أكثر داعي الجهاد في قلوب الحجازيين وعلى رأسهم هذا الشيخ الذي كان يجاور بالمدينتين المقدّستين، «ويقرأ التفسير بين العشاءين بالمسجد النبوي»[٦٤].

مهما اجتهدنا في تقصي أسباب هذه الحركة الجهادية وتعمقنا في شرحها، تبقى استجابة محمد الجيلاني ومن رافقه من أفراد عائلته وغيرهم من المجاهدين، محتفظة بكامل عفويتها وبساطتها بعيدة عن تعقيدات هذه التحاليل التي تفصل بين ما هو ذاتي وما هو موضوعي. مصداق ذلك ما جاء على لسان المؤرخ اليمني لطف الله جحاف وهو يصوّر تجاوب أهل الجزيرة وعلى رأسهم الشيخ الجيلاني مع الأخبار التي أتتهم من مصر، حيث قال: وفي سنة ١٢١٣هـ/١٧٩٨م، «قام بالبلدة الحرام، بوظيفة الدعاء إلى إقامة شعار سنام الإسلام، محمد المغربي الهاشمي لما وردت الأعلام، من الهجوم على ساحات مصر، وتصدر بالحرم الشريف. فالتف عليه خلائق، واستمعوا إلى إرشاده إلى أنهج الطرائق، وفعل دعاه [كذا] في القلوب ما فعل، وتسامع بأخباره

(٦٤) الأوبيري، «إتحاف الخل المواطي ببعض مناقب الإمام السكياطي،» ص ٣٢٠.

فوفدوا إليه، وبذلوا أموالهم وأنفسهم بين يديه. وكانت النساء تأتي إليه، فتسمع إلى ما يمليه من أحاديث الحض على الجهاد، فيلقين إلى الحلقة فتخاتهن (خواتمهن) وعقودهن وملبوسهن، ويقلن ذلك الذي علينا. فاجتمعت عنده أموال واسعة، ووردت إلية المتطوعة من البلاد الشاسعة. فسار بهن لمناجزة أعداء الله الفرانسة»[٦٥].

هكذا إذن، انتهت رحلة الشيخ محمد الجيلاني التعبدية بجوار مكة والمدينة، وبدأت رحلته الجهادية ضد الغزو الفرنسي لمصر. ليصبح بعد ذلك زعيما لهذه الحركة الجهادية التي انطلقت من الحجاز باتجاه الصعيد.

ـ فكيف إذن تمكن هذا الشيخ محمد الجيلاني من استنفار هذا الحشد من الجاهدين الذي بلغ تعداده حسب بعض المصادر حوالى ثمانية آلاف متطوع أو يزيد؟

ثالثاً: خطة الشيخ محمد الجيلاني في تعبئة المجاهدين بالحجاز والانتقال بهم إلى مصر

بادئ ذي بدء، نقول إن ما فعله الشيخ محمد الجيلاني بهذه المناسبة لم يكن بدعا، بل يندرج ضمن سلوك إسلامي متواتر منذ عهود. ذلك، أن العالم الإسلامي الذي نحن بصدده لم يكن قد مسته بعد عدوى النزعة القومية أو سيّجته الحدود السياسية، بل كان ـ ولا يزال ـ يشكل مجالا مشتركا ومفتوحا لكل المسلمين بغض النظر عن قوميتهم أو انتمائهم الوطني. لذلك، وجب علينا أن لا نستغرب حركة مثل تلك التي صدرت عن محمد الجيلاني المغربي في بلد يبعد عن موطنه الأصلي بآلاف الكيلومترات.

يضاف إلى هذا أن الشيخ محمد الجيلاني كان يتوفر على عدة مؤهلات شخصية مكّنته من إحراز كل ذلك النجاح. يأتي على رأس هذه المؤهلات مقوم الشرافة الذي كان يحظى به هذا العالم ويشاركه فيه أخوه طاهر وابن أخته حسن. وغني عن القول إن مقوم الشرافة هذا كانت له في ذلك التاريخ

(٦٥) **نصوص يمنية عن الحملة الفرنسية على مصر**، ص ٩٦.

أهمية خاصة في تعبئة الأتباع والمريدين؛ فغالبا ما قامت أساسه دول وسقطت بسببه أخرى، نظرا لشدة تشبث المسلمين بأفراد آل البيت وقوة اعتقادهم في دعواهم، خاصة إذا صادفت هذه الدعوة ظروفا مواتية من قبيل الفساد السياسي أو الغزو الأجنبي كما حصل في هذه المناسبة[٦٦].

إلى جانب هذا، يلاحظ أن الشيخ محمد الجيلاني كان واحدا من العلماء الذين حازوا الشهرة الواسعة داخل المغرب والمشرق على حد سواء. فقد وصفه محمد بن عبد السلام الناصري بـ «العالم الزاهد»[٦٧]، وأطراه محمد بن عبد السلام بناني بقوله «العالم العلامة العارف بالله الزاهد»[٦٨]. أما الإسغركيسي الذي التقى به في مراكش عام طلوعه للحجاز وتبادل معه الحديث في أمور عدة واستفتاه في إحدى القضايا التي استشكلت على غيره، فقال فيه: «كان صاحب الترجمة آية من آيات الله في الإتقان والعلم والعرفان والإيقان. لا يكاد يوجد مثله في زماننا هذا، ولا يبعد أن يكون هو المجدد على رأس هذه المائة لكثرة ما جمع من العلوم، مع اتساع الحفظ والباع في الأنظار والمفهوم، بحيث لا يجارى في الحفظ ولا يبارى، ولا يغالب في صحة الفهم ولا يمارى، حتى قيل: إنه استجمع واستظهر كتاب القاموس حفظا وإتقانا، وهذا أغرب ما يكون في هذا الزمان (. . .)»[٦٩].

هكذا تبدى الشيخ محمد الجيلاني لمعاصره الإسغركيسي. لأجل ذلك حمد الله وشكره على أن صلّى خلفه «إذ الصلاة خلف أمثاله، مما يرغب فيه ويسر به»[٧٠]. أما تلميذه محمد الأوبيري، فقال حين ترجم له: «هو حافظ حديث النبي صلى الله عليه وسلم، كوكب سمائه وشيخ العلم

(٦٦) للوقوف على أهمية الدور الذي يمكن أن يلعبه مقوم الشرافة في مجال الممارسة السياسية، انظر على الخصوص الفصل التمهيدي الذي ناقش فيه الشرف كإيوالية للشرعنة: محمد ضريف، **مؤسسة السلطان الشريف بالمغرب: محاولة في التركيب** (الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، ١٩٨٨)، ص ١٥ ـ ٣١، و Abdallah Laroui, *Les Origines sociales et culturelles du nationalisme marocain, 1830-1912* (Casablanca: Centre Culturel Arabe, 1993), pp. 92-97.

(٦٧) الناصري، **الرحلة الصغرى**، ص ١٢٣.

(٦٨) بناني، «تحلية الآذان والمسامع بنصرة الشيخ أبي زكري العلامة الجامع،» ص ٢٩٩.

(٦٩) بن إبراهيم، **الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الاعلام**، ص ١٤٩.

(٧٠) المصدر نفسه، ص ١٤٨.

وحامل لوائه. قد برز في الأدب، وتناسلت إليه الفضائل من كل حدب، وله ما يبهر العقول إذا توجهت همته إلى معقول أو منقول (. . .)»[٧١].

وهكذا، بفضل انتساب الشيخ محمد الجيلاني إلى نسل الرسول صلى الله عليه وسلم، وتضلّعه في شتى أنواع العلوم النقلية منها والعقلية، مع شدة زهده وورعه وربما أيضا كراماته، نال الشهرة في المغرب منذ أيام السلطان سيدي محمد بن عبد الله الذي قال فيه «حين قدم رحمه الله ورضي عنه عام ستة وتسعين [ومائة وألف] لمراكش، فاهتزت القبائل للقياه، واجتمع من الخلق لما وصل للمدينة، فلا يحصي عدده إلا الله. وصعد سيدي محمد بن عبد الله على منارة، وقال: هذا هو السلطان لا محمد بن عبد الله»[٧٢].

وقد وصلت شهرة هذا العالم في المغرب درجة من القوة، جعلته يمتنع عن صلاة الجماعة لشدة الازدحام عليه. أما إذا كان في صلاة الجمعة فتغلق الأبواب حتى يسلك به إلى داره. هذا ما أكده الأوبيري حين قال: «وكان رحمه الله إذا برز للناس، لا يقدر على الوصول إليه لكثرة الازدحام عليه، إلا بعد جهد جهيد. وكان ذات يوم قال لي: قد منعني ما ترى من صلاة الجماعة في المسجد. فإذا خرج يوم الجمعة للصلاة، غلقت الأبواب حتى يسلك به إلى داره من كثرة الازدحام لضعف بنيته رحمه الله»[٧٣].

بهذه الصفات، حل الشيخ محمد الجيلاني بأرض الحجاز وجاور بالمدينتين المقدّستين. فإضافة إلى نسبه الشريف الذي قوى لديه وشائج الصلة والتواصل مع أهل هذه الديار المقدسة، وخاصة منهم بنو عمومته من الأشراف، تمثل هذا الشيخ بالنسبة لساكنة هذه المنطقة التي ستنطلق منها حركته الجهادية، في صورة عالم متضلع في شتى أنواع العلوم «يقرأ التفسير بين العشاءين بالمسجد النبوي»[٧٤]، شيمته الورع، وسلوكه

---

(٧١) المصدر نفسه، ص ١٥٣.

(٧٢) الأوبيري، «إتحاف الخل المواطي ببعض مناقب الإمام السكياطي،» ص ٣٢٦.

(٧٣) بن إبراهيم، المصدر نفسه، ج ٦، ص ١٥٤.

(٧٤) الأوبيري، المصدر نفسه، ص ٣٢٠.

الزهد. أما أخوه طاهر وابن أخته حسن اللذان تقاسما معه أعباء قيادة هذه الحركة الجهادية، فلا شك أنهما كانا يشاركانه حظه في العلم والزهد، ناهيك عن الشرافة، ويسيران على نهجه، مما جعلهما يحظيان بتلك الثقة لدى متطوعة الحجاز الذين لم يترددوا في القتال خلفهما ببلاد الصعيد.

إضافة إلى هذه المؤهلات الشخصية وما صادفها من ظرف موضوعي، سبق أن رأينا أن الشيخ محمد الجيلاني كان يتبع في دعوته إلى القيام بهذه الفريضة خطة محكمة مبنية على الاتصال المباشر بأهل المدن والقرى الحجازية المحيطة بالمدينتين المقدّستين بمختلف فئاتهم الاجتماعية ومواقعهم السياسية، يعظهم ويحرضهم ويُرغبهم في الجهاد بأموالهم وأنفسهم، «فاجتمعت عنده أموال واسعة، ووردت إلية المتطوعة من البلاد الشاسعة»[٧٥].

لا نعرف العدد الحقيقي لهؤلاء المتطوعين الذين لبوا نداء الشيخ محمد الجيلاني؛ لأن المصادر تمدنا بأربعة أرقام مختلفة، أدلى بها كل من المؤرخ اليمني لطف الله جحاف، والقائد الفرنسي لحامية السويس ماك شيهي، والمؤرخ الشامي المعلم نقولا الترك، وأمير مكة ساعد بن مغالب. لكننا نميل إلى الاعتقاد أكثر في الرقم الذي جاء في رسالة لهذا الأخير إلى إمام اليمن، المنصور بن علي، وضمنه نقولا الترك تقريره السري، وهو سبعة آلاف متطوع للجهاد. فقال الأول في رسالته: «وهرع إلى جهادهم المسلمون من كل مكان، حتى من أقطارنا الحرمية ظهرت منها للجهاد سبعة آلاف، يريدون الموت والإتلاف»[٧٦]، وكتب الثاني في تقريره: «فتحرك من الأشراف السيد محمد الجيلاني، وقد جمع سبعة آلاف أماجيد»[٧٧].

ونعلم من مصادر أخرى أن عددهم هذا سيتكاثر بشكل كبير بعد حلولهم بساحة المواجهة في إقليم الصعيد؛ إذ سينضم إليهم، حسب رواية

---

(٧٥) **نصوص يمنية عن الحملة الفرنسية على مصر**، ص ٩٧.

(٧٦) المصدر نفسه، ص ١٠٩.

(٧٧) الترك، **حملة بونابرت إلى الشرق**، ص ١٢٨.

الجبرتي «جملة من أهل الصعيد، وبعض أتراك ومغاربة»[٧٨]، ليصل العدد، حسب نقولا الترك، إلى عشرة آلاف من غير خلاف»[٧٩].

خلافا لما قد يتبادر إلى الذهن وعكس ما تضمنته عدد من المصادر، خاصة منها الفرنسية، لم ينحصر عدد هؤلاء المتطوعين في أبناء الجزيرة العربية؛ لأن إشارات مصدرية كثيرة تؤكد أنه كان بين صفوف هؤلاء المجاهدين مقاتلون من بلدان إسلامية أخرى، منها المغرب. فبعد معركة أبنود البرية التي واجه فيها «متطوعة الحجاز» الجنود الفرنسيين مدة ثلاثة أيام، ذكر الجنرال بليار الذي قاد هذه المعركة عن الجانب الفرنسي، في رسالة له إلى الجنرال ديزي، أن من تبقى من المكيين انقسم إلى قسمين: جزء منهم عول على العودة إلى الحجاز، بينما تفيد التقارير أن الجزء الآخر الذي يوجد تحت قيادة الشريف حسن يحاول تنظيم نفسه والتنسيق مع المماليك من أجل معاودة الهجوم. ثم قال إنه كان يوجد بين المكيين خمسمائة إلى ستمائة مقاتل من الجزائريين والباربريسك والتونسيين وغيرهم. وأضاف أنه أنقذ اثنين من التونسيين من أتون هذه المعركة، وأنه عرضهم على ثلاثين من مواطنيهم العائدين من مكة، فتعرفوا عليهم. فكما يبدو من هذه المعلومات المصدرية، كانت هناك مشاركة واضحة لأهل شمال إفريقيا، على اختلاف انتماءاتهم الوطنية، في هذه الحركة الجهادية، سيما منها معركة أبنود البرية التي خاضها هؤلاء المتطوعون تحت الرئاسة الفعلية للشيخ محمد الجيلاني[٨٠].

ويبدو أنه في المراحل الأخيرة من هذه الحركة أصبح عدد المقاتلين المغاربة متفوقا على نظيره من الحجازيين. فقد ورد في رسالة صادرة عن القبطان غاربي، بمناسبة توجه الجنرال ديزي في ٢٩ آذار/مارس ١٧٩٩ لمطاردة المكيين والمماليك جهة قوص على طريق القصير، أن حوالى أربعمائة من المكيين، وأغلبهم من التجار والبحارة، قد أخذوا طريقهم نحو مكة، بينما تفرق الآخرون في البلاد. أما الشريف حسن، فقد نزل

---

(٧٨) الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ج ٢، ص ٢٥١.

(٧٩) الترك، المصدر نفسه، ص ١٢٨ ـ ١٢٩.

(٨٠) Keneh, Belliard à Desaix, 22 ventose an 7 (12 mars 1799), dans: La Jonquière, *L'Expédition d'Egypte*, vol. 3, pp. 601-602.

إلى الصحراء جهة قنا بأرض أبو مناع وصحبته ثلاثمائة إلى أربعمائة رجل، أغلبهم مغاربة (Des maugrabins)، أو حجاج من شمال إفريقيا (Des barbaresques)، كانوا قد عادوا من مكة[٨١].

يتضح من خلال هذه الروايات الصادرة عن قادة عسكريين ميدانيين، أن بضعة مئات من حجاج سكان شمال إفريقيا كانوا يقاتلون إلى جانب الشيخ محمد الجيلاني. كما تؤكد هذه المصادر أنه في الوقت الذي كان فيه أغلب أهل الحجاز يعودون إلى مواطنهم، بعد وفاة الشيخ الجيلاني بإقليم الصعيد، استمر أهل شمال إفريقيا يقاتلون الفرنسيين صحبة ابن أخته الشريف حسن، مما جعل أغلب مقاتليه يتألفون من هذه العناصر.

رابعاً: مشاركة الشيخ محمد الجيلاني في مقاومة القوات الفرنسية بإقليم الصعيد

يُجمع عدد من المصادر والوثائق التي تناولت أحداث الحملة الفرنسية على مصر على مستوى الخطورة التي مثلتها هذه الحركة الجهادية بالنسبة لمجريات هذه الحملة ومستقبلها. فقد اعتبرها البعض أحد الأسباب الرئيسة التي أخّرت إخضاع مصر العليا إلى ما يقارب السنة، كما صنفها نابليون ضمن العوامل المسؤولة مباشرة عن رفعه حصاره عن عكا وعودته على وجه الاستعجال إلى مصر وفشل ما عرف بـ «حملة الشام»[٨٢].

وحتى نكوّن صورة واضحة عن القيمة النوعية التي مثلتها هذه الحركة الجهادية التي قادها الشيخ محمد الجيلاني المغربي، نقترح التوقف عند بعض المحطات التي جمعت بين رجال هذا الشيخ وجنود الجنرال ديزي قائد حملة الصعيد.

---

(٨١) هذا ما انتهى إليه أيضاً الباحث الأمريكي كريستوفر هيرولد عندما قال: «وقد تبين أن كثيرا منهم من الحجاج المغاربة الذين التقطوا بسرعة في الطريق». انظر: هيرولد: **بونابرت في مصر**، ص ٢٥٨.

(٨٢) انظر بهذا الخصوص البيان الذي أصدره نابليون بمناسبة رفع حصاره على عكا، عند: الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ج ٢، ص ٢٨٨.

قبل أن نستطرد في تفاصيل هذه المحطات، تجدر الإشارة إلى أن رجال الشيخ محمد الجيلاني كان لهم حضور قوي ومتميز في أغلب المعارك التي شهدتها مصر العليا؛ مثل معركة سمهود التي وقعت في ٢٢ كانون الثاني/ يناير ١٧٩٩ وقاتل فيها رجال الشريف حسن في الصفوف الأمامية، ومعركة قنا التي وقعت خلال يومي ١٢ و١٣ شباط/ فبراير من نفس السنة وقادها الشريف حسن ضد الجنود الفرنسيين داخل هذه المدينة، ومعركة أبو مناع التي وقعت في ١٧ شباط/ فبراير من هذه السنة أيضا، وأبلى فيها رجال الشريف حسن بلاء حسنا رغم انهزامهم في آخر المطاف، ومعركة بئر عنبر التي وقعت بتاريخ ٢ نيسان/ أبريل ١٧٩٩، ودارت رحاها بين المماليك والفرنسيين، وشارك فيها «متطوعة الحجاز» بقوة، ومعركة جرجا التي وقعت بتاريخ ٧ نيسان/ أبريل ١٧٩٩، بعدما تمكن رجال الشريف حسن من التسلل إلى قلب المدينة وحاولوا الاستيلاء على مخازنها يساندهم في ذلك المماليك وسكان المدينة، ومعركة بني عدي الشهيرة التي وقعت في ١٨ نيسان/ أبريل ١٧٩٩، وتزعمها هؤلاء المجاهدون وسط حشد كبير من المماليك والفلاحين ورجال قافلة من دارفور كانت توجد آنذاك بهذه القرية، وأخيرا وليس آخر معركة المنيا التي امتدت من ٢٣ نيسان/ أبريل حتى ٢٥ منه، واقتحم خلالها مقاتلو الشريف حسن والمماليك المدينة وحاولوا السيطرة عليها، لكنهم اضطروا لإخلائها بسبب وقوف ساكنتها إلى جانب الفرنسيين[٨٣].

وإذا كانت هذه المعارك المختلفة التي تزعمها رجال الشيخ الجيلاني أو شاركوا فيها، قد انتهت كلها لصالح الفرنسيين، بسبب تفوقهم العسكري، فإنه يجدر التنويه بأن هؤلاء المتطوعة الذين كانت تؤطرهم عائلة متكاملة من المغرب الأقصى، وتخلل صفوفهم أعداد مهمة من المغاربة، قد تمكنوا، في بعض المناسبات، من إنزال هزائم غير مسبوقة بقوات الجنرال ديزي، وكبّدوهم أكبر الخسائر المادية

---

(٨٣) للمزيد من التفصيل عن هذه المعارك والإلمام بالدور المتميز الذي لعبه فيها رجال الشيخ محمد الجيلاني، انظر: Dominique di Pietro, *Voyage historique en Égypte pendant les campagnes des généraux Bonaparte, Kléber et Menou* (Paris: L'Huillier, 1818), et Denon, *Voyage dans la Basse et la Haute Egypte*.

والبشرية، وأثروا تأثيرا بليغا على سير الحملة الفرنسية بالصعيد والشام.

١ ـ رجال الشيخ محمد الجيلاني يفشلون مشروع استيلاء الفرنسيين على ميناء القصير الاستراتيجي

كان نابليون على وعي تام بالأهمية الخاصة التي كانت تمثلها الجزيرة العربية بالنسبة لمستقبل حملته على مصر؛ سواء على صعيد سياسته «الإسلامية» التي كانت تقتضي تقوية روابطه بأمير مكة قصد مقاومة نداء الجهاد الذي أعلنه الخليفة العثماني، أو على صعيد علاقاته التجارية ومراسلاته السياسية مع بعض القوى الإسلامية للتنسيق معها ضد محاولات إنجلترا، إضافة إلى وعيه بالخطورة العسكرية التي أضحت تمثلها هذه الجهة بالنسبة للوجود الفرنسي بمصر في حالة تجاوبها مع نداء السلطان العثماني وحليفته إنجلترا. لذلك وجدناه يسارع فور دخوله القاهرة إلى مراسلة أمير مكة مرغبا إياه صون العلاقات التقليدية التي جمعت دائما بين إمارته ومصر وتقويتها أكثر من أجل «الصالح العام المشترك». وقد لقيت هذه الدعوة ترحيبا من قبل أمير مكة؛ لأنه كانت تحدوه رغبة أكيدة في الحفاظ على مصالحه الاقتصادية وضمان أمنه العسكري، وربما تقوية موقعه العسكري تجاه الدولة العثمانية.

أما على الصعيد الميداني فقد ترجمت هذه السياسة من الجانب الفرنسي في محاولة نابليون التحكم في المواقع البحرية التي كانت تربط بين الجزيرة العربية ومصر. وكانت أول خطوة له في هذا الاتجاه قد تمثلت في احتلال موقع السويس الاستراتيجي وإخضاعه لمراقبة مستمرة بواسطة حامية عسكرية. أما الخطوة الثانية فكانت تقتضي احتلال ميناء القصير، لأنه كان يشكل المعبر الرئيس للتجار والحجاج منذ قرون، وربما المجاهدين هذه المرة.

لهذه الأسباب مجتمعة أوكل نابليون تنفيذ هذه المهمة إلى الأميرال جانتوم (Ganthaume) منذ ١٥ كانون الثاني/ يناير ١٧٩٨[٨٤]. غير أن

---

(٨٤) C.N., no. 3855, Napoléon au Contre Amiral Ganthaume, 26 nivôse an 7 (15 janvier 1799), vol. 5, p. 335.

استدعاء هذا الأخير لتهيئة القوات البحرية الداعمة لحملة سوريا، حال دون قيامه بذلك، فأسندت هذه المهمة للعقيد كولو (Collot) الذي توجه إلى هذا الميناء بأسطول حربي مؤلف من خمس سفن مقنبلة. لكن مهمته هاته تعرضت لفشل ذريع عندما تعرض الأسطول الحربي الفرنسي لهجوم مكثف من طرف رجال الشيخ محمد الجيلاني؛ فأغرقت واحدة من السفن الخمسة وأحرقت أخرى، بينما اضطرت السفن الثلاثة الناجية إلى الفرار إلى ميناء السويس، مخلّفة وراءها خسارة بشرية ضخمة حصرها أحد الضباط العسكريين في مقتل أربع وعشرين جنديا فرنسيا[٨٥]، إضافة إلى خسارة حربية لاتقل أهمية، لأن فشل هذا الهجوم سيبقي ميناء القصير مفتوحة أمام المجاهدين لمدة طويلة، وسوف لن يتمكن الفرنسيون من السيطرة عليها وإيقاف ذلك التيار المتدفق من المقاتلين الذين كانوا يعبرونها بكل حرية، إلا في ٢٩ أيار/ مايو ١٧٩٩.

٢ ـ رجال الشيخ محمد الجيلاني يستولون على سفينة نابليون المفضلة «إيطاليا» في معركة أبنود الأولى

وبعد أن تم تأمين عملية العبور بواسطة هذا الانتصار البحري، التأم مقاتلو الدفعة الأولى الذين كانوا قد حلوا بالصعيد منذ بداية سنة ١٧٩٩ وعلى رأسهم الشريف حسن مع مقاتلي الدفعة الثانية على أرض المعركة. فأصبحت جموع المجاهدين تحت قيادة الشيخ محمد الجيلاني، فـ «سار بهم حتى إذا حاذى مدينة أبنود، كتب إلى النصارى كتابا يدعوهم إلى الإيمان بالله ورسوله، فإن أطاعوا وإلا هو مقاتلهم، فأجابوا إلى القتال»[٨٦]. لكن، زمان ومكان هذا القتال سوف لن يكون من اختيار الجنود الفرنسيين؛ لأنهم رغم علمهم بحلول الدفعة الأولى، لم يتمكنوا من التكهن بطبيعة الضربة الموجعة التي سوف توجه إليهم بشكل مفاجئ وقوي من طرف هؤلاء المجاهدين.

---

(٨٥) A.M.G., B^6 18, Extrait du rapport fait par le commandant Chessoutaine, 2 ventose an 7 (20 février 1799).

(٨٦) نصوص يمنية عن الحملة الفرنسية على مصر، ص ١٠٠.

تمثل ذلك في هجوم مباغت نفّذه رجال الشيخ محمد الجيلاني ضد أسطول فرنسي كان قادما من القاهرة إلى الصعيد عبر نهر النيل، مؤلف من عدة سفن حربية، وعلى رأسها سفينة نابليون المفضلة المسماة «إيطاليا» (l'Italie)، وعلى متنها عتاد حربي ضخم وبضع مئات من الجنود. فأبيد هذا الأسطول عن آخره في ٣ آذار/ مارس ١٧٩٩، وأعدم من كان به من الركاب وعددهم فوق الخمسمائة ما بين جنود ومدنيين، وغنم المجاهدون عتادا عسكريا ضخما ومتطورا وكمية كبيرة من الأموال.

تفاصيل هذا الهجوم الناجح رددتها عدد من المصادر والوثائق. واتفقت كلها على ضلوع رجال الشيخ الجيلاني في تدبيره بدعم ومؤازرة من أهالي القرى المصرية المحيطة وبعض المماليك. فقد قال لطف الله جحاف، متابعا كلامه على السيد محمد الجيلاني حين دعا النصارى إلى الإيمان بالله ورسوله فأجابوه إلى القتال، «فخرجت من مرسى أبنود اثني عشر مركبا، فقصدها جماعة من المسلمين فنهبوها، وأغرقوا كثيرا من أهلها وملكوها، ووجدوا بها ثمانين ألف ريال»[٨٧]. أما الجنرال ديزي فكتب في تقرير له إلى نابليون أن الشريف حسن تلقى دفعة ثانية من المقاتلين قوامها ألف وخمسمائة رجل، ثم انضاف إليهم من تبقى من الدفعة الأولى. وفور علمه بوجود المراكب الفرنسية على مقربة من مرسى أبنود، أخبر بذلك عثمان حسن بك الموجود ساعتها باللقيطة، ثم تحرك صوب النيل. فور ذلك، تعرضت المراكب الفرنسية للهجوم، فردت سفينة إيطاليا بإطلاق النار، فقتلت مائة من رجال الشريف حسن. لكن المراكب الصغيرة المرافقة لهذه السفينة الأم تملكها المقاتلون وأغرقوها بذخيرتها الحربية المكونة من الرصاص الحي والمدفعية. ثم شحنوها بالمقاتلين وتعقبوا سفينة إيطاليا بهدف الاستيلاء عليها. وعندما داهموها يئس قائدها القبطان موراندي (Morandi) من إنقاذها، فأضرم النار في البارود المخزن بها، وحاول هو الهرب سباحة. لكن المقاتلين أحاطوا به من كل جانب، وانهالوا عليه بالضرب حتى لفظ أنفاسه. أما من بقي من ركاب هذه السفينة الضخمة على قيد الحياة، فقد أنزلوا إلى

(٨٧) المصدر نفسه، ص ١٠٠ ـ ١٠١.

البر، ثم قتلوا جميعا شر قتلة على يد رجال الشريف حسن(٨٨).

وإذا كان الجنرال ديزي قد أحجم عن حصر عدد القتلى والكشف عن هويتهم والطريقة التي قتلوا بها، فإن مصادر أخرى معاصرة ذكرت، بعدما أكدت تزعم الشريف حسن لهذا الهجوم، أن عدد القتلى وصل إلى خمسمائة بحار وجندي؛ منهم عدد من الضباط، وصراف أحد الفرق العسكرية مرفوقا بصندوقه، وتسعة منقبين عسكريين وكابورال، وقائد السفينة الذي كان برتبة قبطان، إضافة إلى البحارة وفرقة موسيقية؛ البعض منهم قتل أثناء الهجوم، وأغلبهم أنزل إلى البر ثم قتلوا على نغمات أعضاء الفرقة الموسيقية الذين قتلوا بعد ذلك. أما الخسائر المادية فتمثلت في استيلاء المجاهدين على كمية كبيرة من الأموال قدّرها لطف الله جحاف بثمانين ألف ريال، وعددا من المدافع المتحركة وكمية من الذخيرة الحية(٨٩).

أما الآثار المعنوية التي ترتبت على هذه الهزيمة النكراء التي ألمّت على حين غرة بجنود الحملة في ما أسماه أحد الباحثين المصريين بـ «معركة أبنود النيلية»(٩٠)، فكانت كبيرة جدا وشديدة المفعول على نفسية الجنود الفرنسيين ومستقبل الحملة ككل. فقد أثر عن نالبليون قوله، في مذكراته بجزيرة سانت هيلين بعدما حصر العدد الإجمالي للقتلى: «لقد كانت هاته أكبر خسارة مني بها الجيش في هذه الحملة. هذه الكارثة التي ستبقى ذكراها عالقة لزمن طويل، أثرت بشكل قوي على الجنود»(٩١).

أما الآثار البعيدة التي تركتها هذه «الكارثة» على نابليون نفسه،

---

(٨٨) «Relation du Capitaine Garbé,» dans: La Jonquière, *L'Expédition d'Egypte*, vol. 3, pp. 295-296, marge no. 1.

(٨٩) للإلمام أكثر بتفاصيل هذا الحدث والتأكد من الدور الطليعي الذي قام به رجال الشيخ محمد الجيلاني وعلى رأسهم ابن أخته الشريف حسن، انظر: A.M.G., B^6 20, Asiot, Desaix à Dugua, 27 ventôse an 7 (17 mars 1799); Pietro, *Voyage historique en Égypte pendant les campagnes des généraux Bonaparte, Kléber et Menou*, pp. 136-138, et Bonaparte, *Campagnes d'Égypte et de Syrie*, pp. 190-191.

(٩٠) وردت هذه التسمية عند: السيد الطوخي، **صعيد مصر في عهد الحملة الفرنسية، ١٧٩٨ - ١٨٠١**، ص ٢٠٤ - ٢٠٦. وذلك تمييزاً لها عن معركة أبنود البرية التي ستقع في أيام ٨ و٩ و١٠ آذار/ مارس من نفس السنة.

(٩١) Bonaparte, Ibid., p. 191.

فكانت أشد وأعمق، ليس فقط بسبب الخسائر المادية والبشرية المترتبة عنها، بل أيضا لارتباط اسم السفينة الأم التي تعرضت للإحراق، بإيطاليا التي صنعت مجد نابليون وأذاعت شهرته. فقد وصف كاتبه الخاص، بوريين (Bourrienne)، في مذكراته، وقع هذا الخبر على نابليون، وهو يراوح مكانه قبالة أسوار عكا، قائلا: «إن هذا الخبر السيِّىء، بتفصيلاته المروعة واسم السفينة، أثرا عميقا على الجنرال الذي قال لي بنبرة تنبئية: عزيزي، إن فرنسا قد فقدت إيطاليا. لقد قضي الأمر. إن حدسي لا يخدعني أبدا. وقد أوضحت له أنه لا يمكن أن تكون هناك في الواقع علاقة بين إيطاليا ومركب جرى تدميرها على بعد ثمانمائة فرسخ منها كان قد منحه اسم ذلك البلد. ولم يكن في وسع أي شيء أن يحوله عما استشعره في البداية. وسوف يتحقق هذا الحدس، بعد قليل»[٩٢].

وإذا كانت هذه الكارثة قد خلفت كل هذا التأثير السيئ على جنود الحملة بمن في ذلك قائدهم الأعلى نابليون، فإنها زادت رجال الشيخ محمد الجيلاني وابن أخته الشريف حسن قوة، ورفعت من معنوياتهم، ووسعت دائرة نفوذهم بإقليم الصعيد، مما شجعهم على خوض سلسلة من المعارك، وتنفيذ هجومات أخرى ضد الجنود الفرنسيين بفضل الأموال والذخيرة الحية والمدافع المتحركة التي غنموها من هذه السفينة الحربية. لذلك، قال أحد الضباط المشاركين في حملة الصعيد في تعليق له على نتائج هذا الهجوم: «رفع هذا النجاح المحزن من تعصب وجرأة عرب ينبع»[٩٣]، يقصد رجال الشريف حسن الذي كان يتولى القيادة الفعلية لهذه المعركة.

وفعلا، فإنه بفضل هذه الجرأة والتعصب سيقاتل هؤلاء المجاهدون جنود الجنرال ديزي في إحدى المعارك الفاصلة، وسيكبدونهم خسائر عالية في الأرواح والعتاد الحربي قبل أن ينهزموا وينفرط عقدهم.

---

(٩٢) Louis-Antoine Bourrienne, *Mémoires de M. de Bourrienne, ministre d'Etat, sur Napoléon, le Directoire, le Consulat, l'Empire et la Restauration*, refondue et annotée par Désiré Lacroix, édition nouvelle, 2 tomes (Paris: Garnier Frères, 1829), tome 2, p. 238.

(٩٣) Nicolas-Philibert Desvernois, *Mémoires du général baron Desvernois, 1789-1815*, [publiés] par Albert Dufourcq (Paris: Le Livre chez vous, 1898), p. 169.

أقصد بذلك ما سيجري بمعركة أبنود البرية التي استغرقت ثلاثة أيام، ودارت أطوارها تحت الرئاسة الفعلية للسيد محمد الجيلاني.

٣ ـ معركة أبنود الثانية ووفاة الشيخ محمد الجيلاني

بدأت هذه المعركة ظهر اليوم الثامن من آذار/ مارس من سنة ١٧٩٩، وانتهت يوم العاشر منه. وجاءت كرد فعل مباشر على الكارثة التي حلت بالأسطول الفرنسي في الهجوم الأخير. بدأت أطوار هذه المواجهة عندما سمع الجنرال بليار بما حدث لهذا الأسطول. فاتجه بجنوده إلى أبنود للانتقام من المجاهدين الذين كانوا قد تجمعوا في مكان قريب اسمه اللقيطة لإيقاف تقدم الجنود الفرنسيين نحو المدينة، فدارت معركة شرسة هناك في اليوم الثامن من آذار/ مارس، عرفت بـ «معركة اللقيطة»، وكانت الدائرة فيها على رجال الشيخ محمد الجيلاني، فأعقبها تراجع هؤلاء إلى مدينة أبنود التي كانوا قد حصنوها وأحاطوها بالمدافع المتحركة التي غنموها قبل أيام من الأسطول الفرنسي.

وهناك، دارت معركة حامية الوطيس بين مقاتلة الحجاز وعلى رأسهم الشيخ محمد الجيلاني وجنود الجنرال بليار. لكن، عندما أدرك الفرنسيون أن الدائرة ستدور عليهم أضرموا النار في المدينة، فاضطر الشيخ الجيلاني وعدد من رجاله، قدّرتهم المصادر الفرنسية بحوالى ستمائة مقاتل، إلى التحصن داخل منزل كان مقرا لكشاف المماليك ومسجد كان بجواره، فأحرق المسجد ومن بداخله، وبقي المنزل المملوكي الحصين، صامدا مدة يومين. لكن الجنود الفرنسيين تمكنوا، في اليوم التالي، من التسلل إلى إحدى ساحاته، ثم قاموا بإشعال النار في البناية، فاضطر المجاهدون إلى النزول إلى الساحة الكبرى للمسجد، واستمروا في المقاومة رغم النيران الكثيفة التي سلطت عليهم ونفاذ ما عندهم من ماء وغذاء. وخلال الليلة الثالثة من عمر هذه المعركة غير المتكافئة عدة وعددا، نجح الشيخ محمد الجيلاني، بصحبة عدد من رجاله، من اختراق الحصار، والخروج عبر ثقب كانوا قد أحدثوه في أحد الجدران. وتخلف داخل المنزل المملوكي، حوالى ثلاثين من الجرحى ظلوا يقاتلون إلى آخر رمق.

حُسمت هذه المعركة لصالح الفرنسيين، إلا أنهم دفعوا ثمن ذلك غاليا. فقد حصر الجنرال بليار خسائره البشرية في ٣٥ قتيلا و١٣٤ جريحا، منهم خمسة ضباط[٩٤]. أما دي بييترو (Di Pietro) الذي شارك في هذه العمليات، فقال، مختتما كلامه عن هذه المعركة: «إن النصر الذي انتزعناه (. . .) اشتريناه بصعوبة بالغة، بالخسائر المتنوعة التي كبدها لنا الأعداء بسبب عنادهم واستماتتهم». ثم قدر هذه الخسائر بأكثر من ٣٠٠ من الجنود غير القادرين على القتال، إضافة إلى نفاذ كل ما كان بحوزة جنود الجنرال بليار من رصاص، الشيء الذي أقعدهم، مؤقتا، عن مطاردة رجال الشيخ الجيلاني والمماليك[٩٥]. أما فيفون دينون الذي كان يرافق الجنرال بليار في هذه المعركة فقدّر عدد الجنود الفرنسيين الذين قتلوا قبل اقتحامهم المنزل المملوكي بستين رجلا وعدد مماثل من الجرحى[٩٦].

وفي ما يتعلق بالخسائر التي مني بها رجال الشيخ الجيلاني ومن كان يقاتل معهم من الفلاحين والمماليك، فتراوحت، حسب تقديرات الجنرال بليار بين ٥٠٠ و٦٠٠ قتيل، وعدد كبير من الجرحى[٩٧].

ورغم ذلك، فإن حدة القتال التي واجه بها رجال الشيخ الجيلاني العدوان الفرنسي خلال هذه المعركة، تركت اندهاشا كبيرا لدى كبار الضباط الفرنسيين. فخلفوا بصددها أكثر من شهادة، يُقرّون فيها بمدى قوة وشجاعة أولائك المجاهدين. نذكر من بين هؤلاء قائد هذه المعركة عن الجانب الفرنسي، الجنرال بليار الذي كتب في رسالته السابقة إلى الجنرال ديزي، يقول: «أعترف أنني لم أجد بعد قوات بهذه الشجاعة، وتقاتل بمثل هذه الاستماتة»[٩٨]. أما الضابط دي بييترو فقال في خضم

---

(٩٤) Benout, Belliard à Desaix, 20 ventôse an 7 (10 mars 1799), dans: La Jonquière, *L'Expédition d'Egypte*, vol. 3, pp. 597-599.

(٩٥) Pietro, *Voyage historique en Égypte pendant les campagnes des généraux Bonaparte, Kléber et Menou*, pp. 145-146.

(٩٦) Denon, *Voyage dans la Basse et la Haute Egypte*, pp. 242-243.

(٩٧) A.M.G. Donzelot, à Berthier, Siout, 27 ventôse an 7 (17 mars 1799).

(٩٨) Ibid.

وصفه لأطوار هذه المعركة: «أبدا، لم نواجه، منذ وصولنا لمصر، بمقاومة بمثل هذه القوة»(٩٩).

وإذا جاز لنا أن نفسر طول هذه المعركة وضراوتها بالعتاد الحربي المتطور الذي غنمه رجال الشيخ الجيلاني من سفينة إيطاليا المنكوبة وخاصة المدافع المتحركة التي نجحوا في استخدامها بكفاءة عالية، فإن ذلك يرجع أيضا إلى قوة التأثير الروحي التي كان يمارسها محمد الجيلاني وابن أخته حسن على جموع المجاهدين. فقد ذكر نابليون في مذكراته أن الشريف حسن أخذ ينادي في كل مكان، بعد استيلائه على سفينة إيطاليا، بنبرة تنبئية، إن زمن تحطيم الفرنسيين قد حان، وإنهم سوف لن يتذوّقوا بعد الآن سوى طعم الهزيمة، فانضم إليه كثير من الفلاحين. ثم أضاف، قائلا، إن الشريف حس نادى في أتباعه، بعدما تحصن بالبيت المملوكي: أريد أن أموت موتة الشهداء(١٠٠).

أما دي بيترو فقال متحدثا عن المقاومة العنيفة التي كان يلاقيها الجنود الفرنسيون خلال هجومهم على المنزل المملوكي: «كانوا يصحبون دفاعهم داخل المنزل بأصوات مخيفة، ثم يقطعونها من وقت لآخر بصمت عميق يخترقه صوت أحد شرفائهم الذي كان يحاول دون شك، بواسطة أغانٍ دينية، جلب حماية السماء لنفوس هؤلاء الشجعان المدافعين عن الإسلام. وفور انتهاء هذه الصلاة، يعودون للقتال بدرجة أعلى من السعار والهذيان. ورغم افتقارهم كلية للمواد الغذائية، لم يكن في نيتهم أبدا الاستسلام»(١٠١).

أما فيفون دينون فيذكر من جانبه أنه عندما استسلمت المدينة، أخبرته نساؤها أن الشيخ محمد الجيلاني الذي كان يقود هؤلاء المجاهدين، ظل يصلي، طول الحصار، ولا يقاتل، وأنه كان يخرج، بين الحين والآخر، من خلوته ويقول للمقاتلين: «أدعو الله لكم، وعليكم أن تقاتلوا من

---

(٩٩) Pietro, *Voyage historique en Égypte pendant les campagnes des généraux Bonaparte, Kléber et Menou*, p. 145.

(١٠٠) Bonaparte, *Campagnes d'Égypte et de Syrie*, p. 191.

(١٠١) Pietro, Ibid., pp. 144-145.

أجله». ثم أضاف معلقا: «بعد هذه المواعظ، كنا نسمع الأناشيد المقدسة، متبوعة بنداءات الحرب والخرجات وإطلاق النار»[١٠٢].

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الإطار أنه في الوقت الذي كان فيه الشيخ محمد الجيلاني ورجاله يكابدون هذه الأهوال وسط معمعان الحرب ضد جنود الجنرال بليار الذي كانت تسكنه رغبة شديدة للانتقام لما حل بركاب الأسطول النهري الخمسمائة، كان المماليك يراقبون أطوار هذه المعركة من بعيد، ولم يصدر عنهم أي تدخل جدي لصالح المجاهدين. أما فلاحو القرى المصرية فقد لبوا بكثافة نداء الجهاد، وعبّروا عن موقفهم الرافض لهذا الاحتلال بإخلائهم للقرى التي كان يمر بها الجنود الفرنسيون حتى لا يمكنوهم من المواد الغذائية والعناصر المتعاونة. فقد كتب الجنرال بليار في إحدى رسائله إلى الجنرال ديزي الذي كان يشرف على حملة الصعيد، يقول: «أعيش بصعوبة كبيرة، كل القرى يتم إخلاؤها حينما أقترب منها، لا أجد أي مورد ولا أي فلاح للتجسس وحمل الرسائل. لا أعرف إلى ماذا أعزي هذا الفرار العام»[١٠٣].

وينبغي التنبيه، من جهة أخرى، إلى أن الجنود الفرنسيين ظلوا يعتقدون أن القائد الفعلي لهذه المعركة هو الشريف حسن الذي كان يقاتلهم منذ شهر كانون الثاني/ يناير، وأنه قتل خلال هذه المعركة عندما انفجر مخزن البارود بالمنزل المملوكي. هذا، بينما أثبت لطف الله جحاف الذي كان يتلقى شهادات مباشرة ممن شارك في هذه المواجهة، أن أطوار هذه المعركة كانت تدور تحت الرئاسة الفعلية للشيخ محمد الجيلاني، وأن الشريف حسن الذي كان يقاتل تحت إمرته، بقي على قيد الحياة[١٠٤]. وتشير عدة قرائن إلى أن عمر هذا الأخير امتد لفترة أطول، وخاض معارك قوية ضد الفرنسيين بتنسيق وتعاون مع المماليك والأهالي؛ مثل معركة جرجا (١٧ نيسان/ أبريل ١٧٩٩)، ومعركة بني عدي (١٨ نيسان/ أبريل ١٧٩٩)، ومعركة المينيا (٢٣ ـ ٢٥ نيسان/ أبريل

---

(١٠٢) Denon, *Voyage dans la Basse et la Haute Egypte*, pp. 247-248.

(١٠٣) Benout, Belliard à Desaix, 20 ventôse an 7 (10 mars 1799), dans: La Jonquière, *L'Expédition d'Egypte*, vol. 3, p. 600.

(١٠٤) **نصوص يمنية عن الحملة الفرنسية على مصر**، ص ١٠٢.

١٧٩٩)، نزولا عند وصية خاله الشيخ محمد الجيلاني الذي وافته المنيّة، فعلا، أياما قليلة بعد قيادته لمعركة أبنود البرية. فقد أجمعت كل الرويات أنه توفي بقرية حجازة أو حكازة التي كان قد التجأ إليها مع جماعة من أصحابه بعد نجاحه من الإفلات من الحصار الذي ضربته قوات الجنرال بليار على المنزل المملوكي بأبنود[١٠٥]. وترك وصية لجميع المسلمين حثّهم فيها على «تقوى الله والجهاد في سبيل الله والصبر على ملاقاة الأعداء»[١٠٦].

ويبدو أن الخسائر التي تكبدها رجال الشيخ محمد الجيلاني في معركة أبنود الثانية والمعارك الأخرى التي خاضوها بعد وفاته، قد دفعهم إلى سلوك طرق شتى. فقد قال لطف الله جحاف معلقا على معركة جرجا (٧ نيسان/ أبريل ١٧٩٩): «وانفصم عقد نظام المتطوعة، وذهب الناس إرسالا لا أمير لهم؛ منهم الذاهب إلى مصر، والذاهب إلى الشام، والعائد إلى الحرمين»[١٠٧].

٤ ـ التحاق رجال الشيخ محمد الجيلاني بمولاي محمد المغربي بالوجه البحري

مهما اختلفت وجهة من كان يسميهم لطف الله جحاف بالمتطوعة، كان لزاما عليهم، حسب تقديرات الجنرال ديزي الذي كان يتعقبهم، من أن يمروا عبر القاهرة[١٠٨]. لكن، إذا البعض منهم قد وقع في شراك

(١٠٥) تجمع عدد من المصادر أن الشيخ محمد الجيلاني توفي بعد هذه المعركة الفاصلة، ودفن هناك بقرية حجازة أو أحكاز. وتحول قبره بهذه القرية إلى مزارة يؤمها أهالي المنطقة. وقد زودتنا باحثة مصرية من أصل مغربي (مدينة وزان) اسمها عائشة التهامي، بصورة لقبر هذا المجاهد المغربي تظهر الهيئة التي يوجد عليها لحد الآن باعتباره أحد المزارات الدينية (انظر الصورة الرقم (٨ ـ ١)). للإلمام بظروف وفاة هذا الشيخ المجاهد، انظر: المصدر نفسه، ص ١٠٣؛ الأوبيري، «إتحاف الخل المواطي ببعض مناقب الإمام السكياطي،» ص ٣٢٠؛ الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ج ٢، ص ٢٧٣، وبناني، «تحلية الآذان والمسامع بنصرة الشيخ أبي زكري العلامة الجامع،» ص ٢٩٩.

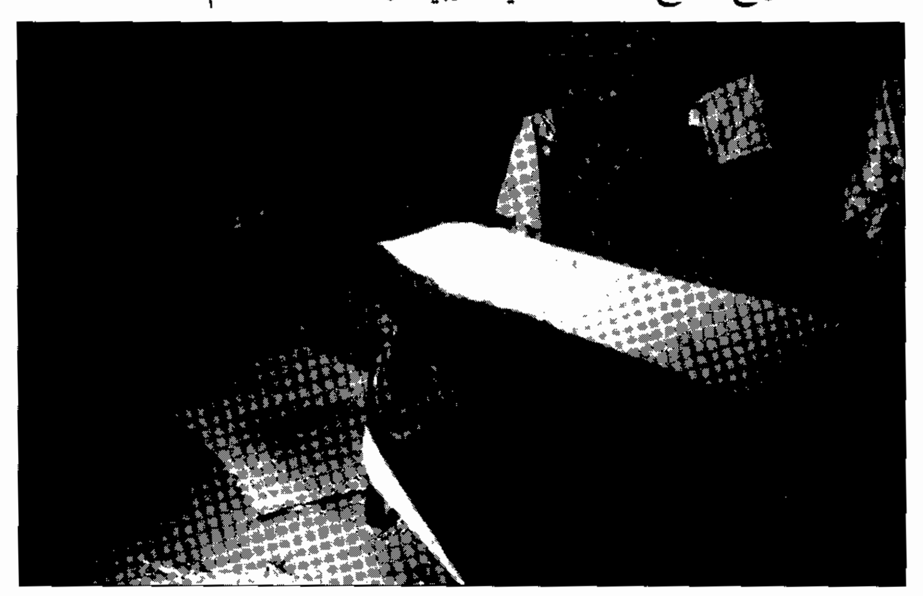
(١٠٦) **نصوص يمنية عن الحملة الفرنسية على مصر**، ص ١٠٣.

(١٠٧) المصدر نفسه، ص ١٠٤.

(١٠٨) Hagazi, Desaix à Belliard, 11 germinal an 7 (31 mars 1799), dans: La Jonquière, *L'Expédition d'Egypte*, vol. 3, p. 620.

السلطات الفرنسية فور دخولهم هذه المدينة، فإن ما بين خمسمائة وستمائة مقاتل منهم قد نجحوا في التسلل إلى الوجه البحري حيث كانت تدور، منذ نهاية نيسان/أبريل ١٧٩٩ أطوار حركة مولاي محمد المغربي الجهادية[١٠٩]. كما تؤكد عدد من المصادر أنهم حاربوا في إقليمي البحيرة والشرقية إلى جانب المماليك. أما بعدما أصيب هؤلاء بالإعياء وتدهورت أحوالهم العسكرية وانفصل عنهم مائة من «المكيين» ممن نزلوا معهم من الصعيد، فقد انضموا إلى مولاي محمد المغربي[١١٠].

الصورة الرقم (٨ ـ ١)
ضريح الشيخ محمد الجيلاني المغربي بقرية حجازة بإقليم الصعيد



وكيفما كان الحال، فإن محاربة بعض من هؤلاء المتطوعة إلى جانب مولاي محمد المغربي ثم انضمامهم إليه، لينهض دليلا قاطعا على

(١٠٩) Le Caire, Dugua à Napoléon, 11 floréal an 7 (30 avril 1799), dans: La Jonquière, Ibid., vol. 5, pp. 75-76.

(١١٠) Menouf, Lanusse (général) à Dugua, 10 prairial an 7 (29 mai 1799), dans: La Jonquière, Ibid., vol. 5, pp. 100-101.

وحدة حركة الجهاد التي دشنها الشيخ محمد الجيلاني بإقليم الصعيد، وتابع أطوارها مولاي محمد المغربي في إقليم البحيرة. ومما يؤكد هذه الوحدة أكثر أنه على الرغم من فشل ثورة مولاي محمد المغربي بإقليم البحيرة وتفرق المماليك والأهالي من حوله، بقي هؤلاء المتطوعة يحاربون إلى جانبه حتى خروج الفرنسيين من مصر. فقد ذكر الشيخ عبد الرحمن الجبرتي، بمناسبة حديثه عن الأطراف الإسلامية المشاركة في ثورة القاهرة الثانية: «وحضر أيضا رجل مغربي، يقال إنه الذي كان يحارب الفرنسيس بجهة البحيرة سابقا، والتف عليه طائفة من المغاربة البلدية وجماعة من الحجازية ممن كان قدم صحبة الجيلاني»[١١١].

ويحتمل جدا أن يكون هؤلاء الحجازيون قد حاربوا، خلال هذه الثورة، تحت قيادة زعيمهم الشريف حسن. فخلافا لما توحي به أحد أقوال لطف الله جحاف وعكس ما توهمته عدد من المصادر الفرنسية، لم يقتل هذا الزعيم في معركة أبنود البرية أو جرجا، بل بقي على قيد الحياة إلى حدود نهاية هذه الحملة؛ حيث استمر ينسق عملياته الجهادية مع مولاي محمد المغربي، واشترك معه في محاولة إثناء مراد بك عن الحلف، الذي كان قد أبرمه مع الفرنسيين، وإعادته إلى الصف العثماني حسب ما أدلى به عبد الله وافي، زعيم إحدى القبائل بمصر الوسطى، للجنرال دونزيلو (Donzelot)[١١٢].

يستنتج مما سبق أن حركة الجهاد التي دشنها الشيخ محمد الجيلاني، لم تتوقف عند حدود إقليم الصعيد الذي تحققت فيه الغلبة للفرنسيين، بل جاوزته لتشمل أقاليم الوجه البحري وثورة القاهرة الثانية. ثم استمرت بعد ذلك في شكل هجومات متقطعة، بتنسيق مع مولاي محمد المغربي. وخلال هاته المحطات المختلفة تحقق الاندماج والتعاون بين هاتين الحركتين حينما أصبحتا تحت قيادة مغربية مشتركة. وبعد أن خلد المماليك إلى الراحة وتحالف زعيمهم مراد بك مع الفرنسيين

---

(١١١) الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ج ٢، ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧.

(١١٢) A.M.G., B[6] 63, Siout, Donzelot à Menou (général en chef) 27 pluviôse an 9 (16 février 1801).

واضطر الأهالي إلى التسليم بالأمر الواقع تحت ضغط الإرهاب الفرنسي، زاوج هذان الزعيمان المغربيان ـ الشريف حسن ومولاي محمد المغربي ـ بين عملياتهم القتالية ضد جيش الشرق ومساعيهما التوفيقية بين مراد بك والدولة العثمانية، من أجل تكوين جبهة جهادية مشتركة ضد الوجود الفرنسي بمصر.

خلاصة الفصل الثامن

يجدر بنا القول، في ختام هذا الفصل، إن الحركة الجهادية التي قادها الشيخ محمد الجيلاني المغربي بإقليم الصعيد وشاركه فيها أخوه طاهر وابن أخته حسن، كان لها أبلغ الأثر على عملية المقاومة التي شهدها هذا الجزء الهام من مصر؛ لأن «متطوعة المسلمين» الذين حاربوا تحت إمرة هذه القيادة المغربية، تمكنوا من إرغام العدو على خوض عدة معارك عنيفة وكبدوه خسائر مهمة في الأرواح والعتاد الحربي والأموال، وأثاروا ضده الأهالي، وقدموا مساعدة لا تقدر بثمن للمماليك الذين عجزوا بمفردهم عن رد هذا العدوان، ووصلت أصداء انتصاراتهم إلى مسامع نابليون بالشام، وساهمت في إفشال مشروعه التوسعي في هذه الجهة بعد أن أصابته بالارتباك. وعلى الرغم من أن صفوف هؤلاء المجاهدين ضمت رجالا من عدد بلدان العالم الإسلامي، فإن أطرها القيادية ونواتها الأساسية كانت مغربية. وفي هذا دليل واضح على قوة تفاعل أهل شمال إفريقيا، بأقطارهم المختلفة، مع هذا الحدث العدواني الذي نزل بأرض مصر والشام.

وحتى نتمكن من الإلمام بمختلف مكونات هذه الحركة الجهادية العامة التي تصدرها المغاربة بمصر، ننتقل الآن إلى بسط الكلام عن المساهمة البطولية التي صدرت عن مولاي محمد المغربي بأقاليم الوجه البحري والقاهرة.

الفصل التاسع

حركة مولاي محمد المغربي
بإقليم البحيرة والقاهرة

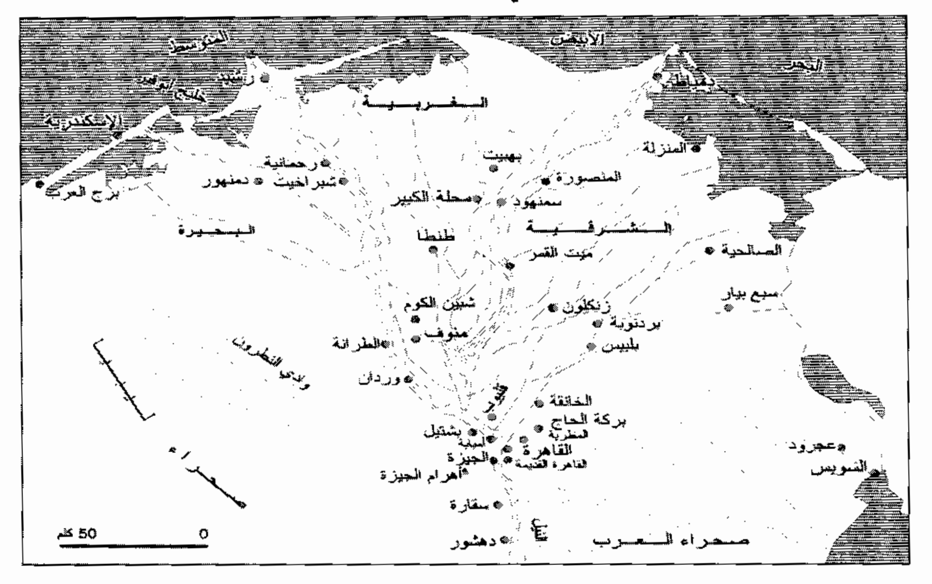
مقـدمـة

في الوقت الذي كانت فيه حركة المقاومة بإقليم الصعيد تشرف على نهايتها وشعلة الجهاد لدى رجال الشيخ محمد الجيلاني المغربي توشك على الانطفاء، ظهر فجأة بإقليم البحيرة مولاي محمد المغربي مع نهاية شهر نيسان/ أبريل من سنة ١٧٩٩، وقاد من هناك حركة مقاومة وجهاد ضد الاحتلال الفرنسي لمصر، ثم اتسع نطاق هذه الحركة، فشمل إقليم الشرقية وباتت تهدد القاهرة وضواحيها. ومما زاد في خطورة هذه الحركة وأكسبها بعدا أمنيا خاصا، اجتياحها لكل أقاليم الوجه البحري المتصلة مباشرة بالأسطول الإنجليزي؛ سواء المرابط منه بالبحر الأبيض المتوسط، أو ذاك الذي كان يقوم بمظاهرة بحرية قبالة ميناء السويس، وتزامنها مع غياب نابليون بالشام، وجلبها المماليك ورجال الشيخ محمد الجيلاني من إقليم الصعيد.

ورغم أن التاريخ المذكور أعلاه تزامن مع نهاية الثورات الكبرى التي عاشها إقليم البحيرة خلال نهاية شهر نيسان/ أبريل وبداية شهر أيار/ مايو، فإن مجرد انتقال هذا الحشد من المقاتلين المدربين على منازلة الجنود الفرنسيين في مصر العليا إلى هذه الأقاليم المتاخمة للقاهرة، شكل تهديدا إضافيا للقوات الفرنسية التي أضحت شبه محاصرة من قبل

الأطراف المنخرطة في هذه الجبهة الجهادية المشتركة التي جمعت، في صعيد واحد، رجال مولاي محمد المغربي وأهالي الوجه البحري من جهة، والمماليك ورجال الشريف حسن من جهة ثانية. ثم ازداد هذا الوضع إحراجا، عندما تواترت الأخبار بقدوم جيش مغربي كبير نحو الإسكندرية (انظر الخريطة الرقم (٩ ـ ١)).

الخريطة الرقم (٩ ـ ١)
مصر السفلى في نهاية القرن الثامن عشر



المصدر: هنري لورنس، **الحملة الفرنسية في مصر**، ترجمة بشير السباعي (القاهرة: دار سينا للنشر، ١٩٩٥)، ص ٦١ (بتصرف).

وبدا الأمر بالنسبة للسلطات الفرنسية وكأن هناك تنسيقا مسبقا بين هذه الأطراف المختلفة من جهة، والدولة العثمانية وحليفتها إنجلترا من جهة ثانية، مما دفع الجنرال دوكَا، باعتباره حاكما للقاهرة ومسؤولا عن أقاليم الوجه البحري، إلى طلب المساعدة من الجنرال ديزي المرابط بإقليم الصعيد، واستعجال نابليون في العودة إلى مصر لإرهاب الأهالي والقضاء على هذه الحركة التي اتخذت شكل مخطط هجومي مشترك بين أطراف داخلية وأخرى خارجية.

إلا أن الحزم والصرامة اللذين ستواجه بهما القوات الفرنسية هذه المقاومة منذ ساعاتها الأولى، وما رافق ذلك من إرهاب جماعي لأهالي القرى والمدن المصرية، وغياب التنسيق المحكم بين قادتها، سيؤدي كل ذلك إلى إضعافها ثم القضاء عليها قبل عودة نابليون من الشام في أوائل شهر حزيران/ يونيو.

ورغم ذلك، لم تنطفئ نهائيا جذوة المقاومة والجهاد التي أشعلها محمد المغربي ورجاله، بل استمرت بشكل متقطع حتى خروج الفرنسيين من مصر، واتخذت طابعا أكثر حدة وخطورة، خلال ثورة القاهرة الثانية حينما أصبح هذا المجاهد المغربي أحد قادة هذه الثورة الرئيسيين، وأبدى من التشدد في المقاومة ورفض عروض الصلح ومهادنة الفرنسيين ما أدهش الجميع. فطال، بسبب ذلك، أمد الثورة واتسع نطاقها.

شكلت حركة مولاي محمد المغربي، بفضل ما تخللها من معارك وثورات، أحد الوجوه القوية التي عبّر من خلالها المغاربة عن عميق تفاعلهم وتضامنهم مع المحنة التي عاناها إخوانهم بمصر من جراء هذا العدوان الاستعماري. ورغم ذلك، تحتاج هذه الوقائع التاريخية إلى من يستجلي صورها ويستقصي عناصرها؛ نظرا للغموض الكثيف الذي يكتنف كثيرا من جوانبها، بل والأخطاء التي ارتكبت في حقها من قبل بعض الباحثين والدارسين الذين اشتغلوا بها، كما أن تناولها في سياق المقاومة المصرية للاحتلال الفرنسي لم يخل من حساسيات قطرية ضيقة تتنافى تماما مع طبيعة المناسبة والظرفية التي ظهرت فيها هذه الحركة، والتي لم يكن فيها للحدود السياسية بين بلدان العالم الإسلامي والهويات الوطنية بمعناها الحالي أي اعتبار يذكر.

أولاً: النسبة العائلية والانتماء القطري لمولاي محمد المغربي

أول ما يسترعي انتباهنا، ونحن نحاول الكشف عن حقيقة هذه الحركة، هو اختلاف المصادر حول تحديد اسم قائدها والبلد الذي ينتمي إليه.

ففي النقطة **الأولى**، يلاحظ أن اسم قائد هذه الحركة قد ورد في المصادر الفرنسية بصيغ مختلفة وإن بدت متقاربة، نذكر منها على الخصوص: أحمد المهدي (Ahmed-el Mahdi)، ومولا محمد (Molla Muhamet)، ومحمد

الشريف (Mohamet Shérif)، ومحمد المغربي (Mohamed Maghraby)، والشيخ محمد المغربي (Cheikh Mohamed Maghraby)، والشريف المغربي (Le Chérif Maugrabin)، والمغربي (El Maugrébin). كما أشارت إليه، أحيانا كثيرة، بـ «الملاك المهدي» (L'Ange El Mahdi)، ودعته، في بعض الأحيان، بـ «النبي الملك» (Le Prophète-Roi).

أما المصادر المشرقية، فغالبا ما اكتفت بالإشارة إليه باسم «مولاي محمد المغربي»، وهو الاسم الذي ذكره به الضابط الإنجليزي، طوماس ويلسون، الذي قابله أثناء الهجوم الإنجليزي - العثماني الأخير على جيش الشرق بمصر، فأورد اسمه على الشكل التالي: مولاي محمد (Mulley Mohammed)[(١)].

وإذا كانت هذه هي حال الكتابات المصدرية، فلم تخل الدراسات المعاصرة من هذا الاختلاف. فقد فتحدث عنه هنري لورنس[(٢)] تحت اسم «مهدي دمنهور»، أما ديهيران[(٣)] وهيرولد[(٤)] اللذان لم ينفيا عنه لقب المهدي، فقالا إن اسمه أحمد، ونفس الاسم، تقريبا، ردده عدد من الدراسات المصرية.

يستنج مما سبق أن مختلف المصادر والدراسات تتفق حول الأصل الشريف لمولاي محمد المغربي، وعلى ادعائه المهدوية. كما أن اسمه الشخصي لم يخرج عن محمد أو أحمد.

أما فيما يتصل بالنقطة **الثانية** المتعلقة بانتمائه الوطني، فقد أجمعت كل المصادر على انتمائه إلى المغرب بمفهومه الواسع المتداول آنذاك. أما عندما حاولت ربطه ببلد بعينه، فاختلفت في ذلك اختلافا كبيرا،

---

(١) Robert Wilson, *History of the British Expedition to Egypt; to Which is Subjoined, a Sketch of the Present State of that Country and its Means of Defence* (London: C. Roworth and sold by T. Egerton, 1802), p. 79.

(٢) هنري لورنس، **الحملة الفرنسية في مصر**، ترجمة بشير السباعي (القاهرة: دار سينا للنشر، ١٩٩٥)، صفحات متفرقة.

(٣) Henri Deherain, «L'Egypte turque,» dans: Gabriel Hanotaux, dir., *Histoire de la nation égyptienne*, 7 vols. (Paris: Plon, 1931-1940), passim.

(٤) كريستوفر هيرولد، **بونابرت في مصر**، ترجمة فؤاد أندراوس؛ مراجعة محمد أحمد أنيس (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨).

ولم يحالفها دائما الصواب. فقد ذهب عدد من المؤلفين ممن كان لهم اتصال مباشر بالحملة مذاهب مختلفة. فبالنسبة للبعض منهم يرتبط أصل مولاي محمد المغربي بمدينة درنة أو برقة بليبيا. ومن هناك انتقل صحبة عدد من أتباعه ومشايعيه إلى مصر حيث سيخوض حربه ضد الفرنسيين[٥]. أما بالنسبة للبعض الآخر فقد أتى من داخل إفريقيا، ونزل بدرنة. وقام بدعوته إلى الجهاد ضد الفرنسيين وسط القبائل العربية بصحراء برقة؛ فانضم إليه بعضها، وانضافت إليها جماعة معتبرة من حجاج المغرب الأقصى، ثم انتقل، صحبة هذه القبائل والحجاج، إلى إقليم البحيرة[٦].

أما الجبرتي والمعلم نقولا الترك فلم يكلفا نفسيهما عناء البحث عن هويته الوطنية. لكنهما، اتفقا على أنه من المغرب بمفهومه الواسع. إلا أن نيقولا الترك قرن الإشارة إليه بمعلومة دقيقة حينما قال: «رجل مغربي، وقيل إنه سلطان الغرب»[٧]. أما الضابط الإنجليزي ولسون، فكان أكثر دقة عندما قال: «مولاي محمد، أمير فاس»[٨]. أما هو فقد «ادعى أنه من سلاطين المغرب»[٩].

وإذا كانت هذه هي حال المؤلفين الذين عاينوا ظهور مولاي محمد المغربي بمصر، أو سمعوا به ووصلتهم أخبار حركته هناك، فإن

---

(٥) François Bernoyer, *Avec Bonaparte en Égypte et en Syrie, 1798-1800: 19 lettres inédites*, retrouvées et présentées par Christian Tortel, collection Le Temps traversé, 2ème éd. (Poet-Laval: Editions Curandera, 1981), p. 130, et Antoine-Claire Thibaudeau, *Histoire de la campagne d'Egypte* (Paris: Impr. de Mme Huzard, 1839), p. 251.

(٦) Jean-Pierre Doguereau, dans: *Journal de l'Expédition d'Egypte* (Paris) (1904), p. 267, et Pierre Dominique Martin, *Histoire de l'expédition française en Égypte*, 2 vols. in 8 (Paris: J.-M. Eberhart, 1815), vol. 1, p. 331.

(٧) نقولا الترك، **حملة بونابرت إلى الشرق**، دراسة وتحقيق أمل بشور (بيروت: جروس برس، ١٩٩٣)، ص ١٧٤.

(٨) Wilson, *History of the British Expedition to Egypt; to Which is Subjoined, a Sketch of the Present State of that Country and its Means of Defence*, p. 71.

(٩) ورد هذا في بيان أرسله نابليون من عكا إلى «الفرنساوية المقيمين بمصر»، يتحدث فيه عن الثورة التي كان يقودها مولاي محمد المغربي بإقليم البحيرة أثناء غيابه بالشام. انظر: عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ٣ ج (بيروت: دار الجيل، [د. ت.])، ج ٢، ص ٢٧٣.

الدراسات المعاصرة، لم تقدم جوابا شافيا عن هذه المسألة، بل منها من زادها تعقيدا. فهيرولد وديهران اللذان كانا من المفترض أن يقوما باستقصاء شافٍ حول هذه النقطة الهامة، لم يضيفا شيئا يذكر؛ حيث اكتفى الأول بالقول: «إنه فقير أودرويش من درنة بليبيا»[١٠]، بينما قال الثاني، إنه: «أتى من درنة»[١١]. أما شارل فرنسوا غو، فلم يحدد له موطنا بعينه، واكتفى بالقول: «إنه من شمال إفريقيا (un barbaresque)، هاجر من درنة إلى إقليم البحيرة»[١٢]. لكن هنري لورنس الذي أبدى اهتماما حقيقيا بتحديد أصل مولاي محمد المغربي، صرح في مختتم كلامه حول هذه النقطة: «إن مؤشرات (. . .) تدل على أنه من فاس»[١٣].

أما فيما يخص الكتّاب والباحثين المصريين فيبدو أنهم لم يهتموا كثيرا بتحديد هوية مولاي محمد المغربي، حيث اكتفوا بترداد ما كتبه الجبرتي وما جاء في المصادر الفرنسية. أما من حاول منهم الاجتهاد في هذا الاتجاه فلم يحالفه الحظ. وخير مثال نسوقه في هذا الإطار هو الباحث أحمد عوض الذي أنجز عملا ضخما حول الحملة، لكنه أخطأ عندما اعتبر مولاي محمد المغربي هو سلطان المغرب، سيدي محمد بن عبد الله الذي جاء حسب قوله: «لمحاربة الفرنسيين عن غيرة دينية»[١٤]. وأسس اجتهاده هذا على ما جاء عند الجبرتي من كلام بخصوص هذا السلطان المغربي «الذي كان يرسل الصدقات إلى العلماء والمشايخ وطلاب العلم بالأزهر الشريف»[١٥]، ومما جاء عند الضابط الإنجليزي ولسون حينما قال عن مولاي محمد المغربي: إنه «أمير من فاس»[١٦]. وغني عن القول إن ما ذهب إليه هذا الباحث المصري مجانب تماما

---

(١٠) هيرولد، **بونابرت في مصر**، ص ٣٢٩.

(١١) Deherain, «L'Egypte turque,» p. 434.

(١٢) François Charles-Roux, *Bonaparte gouverneur d'Egypte* (Paris: Plon, 1946), p. 245.

(١٣) لورنس، **الحملة الفرنسية في مصر**، ص ٤١٨، هامش رقم (٨٩).

(١٤) أحمد حافظ عوض، **فتح مصر الحديث أو نابليون بونابرت** (القاهرة: مطبعة مصر، ١٩٢٥)، ص ٣٥٧.

(١٥) المصدر نفسه.

(١٦) Wilson, *History of the British Expedition to Egypt; to Which is Subjoined, a Sketch of the Present State of that Country and its Means of Defence*, p. 71.

للصواب؛ لأن السلطان سيدي محمد بن عبد الله الذي كان يحظى فعلا بشهرة واسعة داخل مصر، توفي سنة ١٧٩٢م، ولم يظهر مولاي محمد المغربي على مسرح الأحداث بهذا البلد، إلا بمناسبة نزول الحملة به سنة ١٧٩٨م.

أما أحمد صادق سعد الذي ردد بدون تعليق الرواية التي وردت في بعض المصادر الفرنسية، والتي تقول إن مولاي محمد المغربي «ابن سلطان إفريقيا»، فقد وقع بدوره في نفس الخطأ الذي وقع فيه سلفه أحمد عوض عندما خلط بين اسم هذا المجاهد واسم سيدي محمد بن عبد الله سلطان المغرب الذي تحدث عنه الجبرتي[١٧].

وإذا جاز لنا اعتبار ما قام به أحمد عوض وأحمد صادق سعد مجرد اجتهاد غير موفق، فإن ما ذهب إليه الباحث الليبي عبد الكريم وافي يصنف، حسب تقديرنا، ضمن المغالطات التاريخية؛ إذ عوض أن يتقصى أخبار هذا المجاهد من مصادرها الأصلية، اكتفى بما جمعه حوله عبد الرحمان الرافعي في كتابه **تطور الحركة القومية بمصر**، مع إضافات بسيطة من هنا وهناك، ليثبت من خلالها أن مولاي محمد المغربي «مجاهد ليبي، أصله من مدينة درنة»[١٨]. كي يصبح بعد ذلك هذا المجاهد الليبي، على حد زعمه، هو «محمد المهدي الدرناوي»[١٩]، ثم «الشيخ الدرناوي»[٢٠]. ناهيك عن وقوعه في مغالطة أخرى لا تقل خطورة عن سابقتها، وتتمثل في جعله كل الذين اصطحبهم مولاي محمد المغربي إلى مصر لمقاتلة الفرنسيين، من ليبيا[٢١]. والحال، أنهم كانوا يتألفون من مختلف بلدان شمال إفريقيا، كما سنثبت ذلك في ما بعد.

ومما يبرز خصوصية هذه النقطة وخطورتها أن باحثين مغاربة مثل

---

(١٧) أحمد صادق سعد، **تاريخ العرب الاجتماعي: تحول التكوين المصري من النمط الاسيوي إلى النمط الرأسمالي** (بيروت: دار الحداثة للطباعة والنشر، ١٩٨١)، ص ٢٠١.

(١٨) محمد عبد الكريم الوافي، **في تاريخ العرب الحديث: يوسف باشا القرمانلي والحملة الفرنسية على مصر** (طرابلس، ليبيا: المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ١٩٨٤)، ص ٣٠٣.

(١٩) المصدر نفسه.

(٢٠) المصدر نفسه، صفحات متفرقة.

(٢١) المصدر نفسه، ص ٣٠٩.

عبد الحفيظ حمان[٢٢]، ومحمد البوزيدي الشيخي[٢٣] لم يسلموا بدورهم مما وقع فيه غيرهم من الدارسين والباحثين الأجانب حينما اعتبروا مولاي محمد المغربي ومحمد بن الأحرش مجاهدين مغربيين حلّا بمصر لمقاتلة الفرنسيين. والحال أنهما اسمان لشخص واحد.

هكذا إذن، يتبين لنا مدى الاختلاف الذي يوجد بين المصادر من جهة، والدراسات من جهة ثانية، حول تحديد الهوية الوطنية لمولاي محمد المغربي، ما يقتضي التدقيق في هذه النقطة الهامة.

إلى جانب هاتين النقطتين، توجد اختلافات وأحيانا تناقضات تتصل بتاريخ وأسباب وفاة هذا المجاهد المغربي؛ إذ في الوقت الذي أوردت فيه بعض المصادر أنه قتل بطلقة مدفع أو رصاص في أحد المعارك أو المطاردات التي أعقبت القضاء مؤقتا على ثورته خلال شهر ماي (أيار/ مايو) من ستة ١٧٩٩، ظل بالنسبة لأخرى يقاتل ويحرض على الجهاد ويعمل على لم صفوف المقاتلين حتى خروج الفرنسيين من مصر. هذا، في الوقت الذي أكدت فيه كتابات أخرى أنه نقل نشاطه الثوري، بعد انتهاء هذه الحملة من مصر إلى الجزائر، حيث سيقود في شرقها معارك ضارية ضد الحكام الأتراك حوالى سنتي ١٨٠٧ و١٨٠٨.

هذا، إضافة إلى اختلافات أخرى نشأت حول ارتباطات مولاي محمد المغربي السياسية والأسباب الحقيقية التي دعته للحضور إلى مصر ومقاتلة الفرنسيين بها، وكذا علاقته بالمجاهدين المصريين من الأهالي والمماليك. ففي الوقت الذي اعتبرته بعض المصادر عميلا للدولة العثمانية وحليفتها إنجلترا، وقدمته أخرى بمثابة مشعوذ يستخدم أقوى أساليب الخداع والتضليل لتحقيق أغراضه الشخصية، رأت فيه بعض الكتابات المصرية مندسا أجنبيا لا يراعي مصلحة أهل البلد. وقليل منها من رأى في حركته تلك ترجمة ميدانية لواجب التضامن بين بلدين

---

(٢٢) عبد الحفيظ حمان، **المغرب والثورة الفرنسية** (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، ٢٠٠٢)، ص ١١٠ ـ ١١١.

(٢٣) محمد الشيخي البوزيدي، «العلاقات المغربية الخارجية في القرن الثامن عشر من خلال المصادر المغربية،» (أطروحة دكتوراه الدولة، شعبة التاريخ، كلية الآداب، بني ملال، ٢٠٠٠ ـ ٢٠٠١)، ج ١، ص ٣٠٣ ـ ٣٠٥.

إسلاميين بغض النظر عن أية حساسيات أو اعتبارات وطنية ضيقة، والتي لم يكن لها آنذاك كبير أثر في توجيه سلوكات وممارسات المسلمين على اختلاف انتماءاتهم الإقليمية.

لهذه الأسباب مجتمعة يحتاج منا هذا الرجل والحركة الجهادية التي قادها ضد الاحتلال الفرنسي لمصر وقفة عميقة ومتأنية حتى نتمكن من معالجة مختلف هذه القضايا والإشكالات المطروحة بهدف تبين القيمة الحقيقية التي مثلتها حركته هاته في هذه المواجهة العسكرية الأولى من نوعها في التاريخ الحديث، متغيين من وراء ذلك الإلمام أكثر بمستوى وطبيعة التفاعل اللذين حصلا بهذه المناسبة بين المغاربة وإخوانهم بمصر.

قمنا في نقطة سابقة من هذا الفصل باستعراض مختلف الأسماء التي أوردتها المصادر الفرنسية والمشرقية لمولاي محمد المغربي. وتبين لنا أنها لم تخرج عن محمد أو أحمد، مقرونة دائما إما بـ «مولاي» أو «الشريف»، مع إضافة «المغربي». ومعنى هذا أن الاسم الشخصي لهذا الرجل هو إما أحمد أو محمد أو هما معا، وأنه ينتمي إلى عائلة شريفة. لكن هذه الإشارات كلها لا تتضمن أية إحالة صريحة على اسمه العائلي. وإذا كان نسب «المغربي» الذي لازمه عبر كل هذه الإشارات يدل على ارتباطه ببلاد المغرب بمفهومها الواسع، فإنه لا يقطع بانتمائه لبلد بعينه من البلدان المغاربية التي يتألف منها هذا الإقليم الواسع في تشكيلته الحالية.

لمعرفة الاسم الكامل لمولاي محمد المغربي وتحديد البلد المغاربي الذي ينتمي إليه يتحتم علينا تجاوز ما خطّته أقلام المؤلفين الفرنسيين والمشارقة حول هاتين النقطتين وتوسيع دائرة البحث في مظان أخرى، وأخص بالذكر منها المصادر الجزائرية والتركية التي وردت فيها معلومات قيمة حول هذا الرجل بفضل تعرف أصحابها عليه عن كثب خلال ثورته بشرق الجزائر. أما المصادر المغربية فلم تعدم هي الأخرى الإشارة إليه؛ إما من خلال متابعتها لنشاطه الثوري بشرق الجزائر، أو على سبيل الترجمة له كواحد من أتباع الطريقة الدرقاوية. يضاف إلى هذا أن السلطات الإنجليزية التي كانت تربطها به علاقة قوية قدمت بشأنه معلومات قيمة.

وهكذا يلاحظ أن عددا من المصادر الجزائرية والتركية المتوافرة لدينا تجمع على أن الاسم الكامل لمولاي محمد المغربي الذي «صار له جيش عظيم وحارب الفرنسيين بمصر»، هو محمد بن عبد الله بن الأحرش، من شرفاء المغرب الأقصى. وأول ما يطالعنا بهذا الصدد مذكرات الحاج أحمد الزهار الذي عاصر حملة نابليون على مصر وثورة محمد بن الأحرش بشرق الجزائر، والذي قال متحدثا عن زعيمها: «عندما كان الفرنسيس بمصر، قام بن الأحرش هذا وجمع إليه أناسا من المغاربة وأهل الواسطة، وأصبح يقاتل الفرنسيس خارج مصر، بما قدر عليه، وأثرت شوكته فيه، وأصبح له صيت بمصر إلى أن فتحها الله ورجعت للمسلمين»[٢٤]. أما الحاج أحمد العطار الذي اعتنى بكتابة تاريخ قسنطينة انطلاقا «مما سمع من الناس جيلا بعد جيل»، فقال عن مدينته: «وغزاها الشريف بن الأحرش سنة تسعة عشر ومائتين وألف (١٨٠٤/ ١٨٠٥م)، وهو رجل مغربي، يزعم أنه من شرفاء ملوك فاس»[٢٥]. أما محمد بن يوسف الزياني الذي أرخ لمدينة وهران ووقف مطولا عند ثورات درقاوة بغرب الجزائر، فقد تضمنت روايته معلومات إضافية عن هذا الرجل حينما قال: «ابن الأحرش فتى مغربي، مالكي مذهبا، درقاوي طريقة، درعي نسبا»[٢٦]. أما محمد بن عبد القادر الجزائري، صاحب **تحفة الزائر في أخبار الجزائر والأمير عبد القادر**، الذي كتب في فترة متأخرة نسبيا، فقال عند ذكره أخبار ابن الأحرش: «وفي سنة ثمان عشرة ومائتين وألف (١٨٠٣/ ١٨٠٤م)، ثار ابن الأحرش في نواحي قسنطينة، وهو من عرب المغرب الأقصى، رحل من بلاده للحج، ولما أجلب نابليون الأول على مصر، جمع ابن الأحرش جيشا من أعراب المغربين وإفريقية، وانضم إلى

---

(٢٤) **مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر، ١١٦٨ ـ ١٢٤٦هـ/ ١٧٥٤ ـ ١٨٣٠م**، تحقيق أحمد توفيق المدني، ذخائر المغرب العربي، ط ٢ (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٨٠)، ص ٨٦.

(٢٥) الحاج أحمد العطار، «تاريخ قسطنطينة،» (مخ.خ.ع.، د ٧٠٩، الرباط، رقم ٧٠٩)، ص ٢٦٥.

(٢٦) محمد بن يوسف الزياني، **دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران**، تقديم وتعليق المهدي البوعبدلي، النصوص والدراسات التاريخية؛ ٢ (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الشركة الوطنية، ١٩٧٩)، ص ٢٠٧.

الجنود المصريين لقتال نابليون، وأبلى في تلك الحروب بلاء حسنا، فاكتسب الشهرة. ولما انقلب نابليون إلى فرنسا، قفل ابن الأحرش راجعا إلى المغرب (. . .)»[٢٧]. وهذا ما أكده المؤرخ التركي عزيز سامح الترفي كتابه «الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية»، الذي جمع مادته من وثائق الأرشيف التركي، حيث قال: «محمد بن عبد الله بن الأحرش، أحد أنصار الدرقاويين، وهو من مرابطي فاس. أثناء عودته من مكة، مر بمصر واشترك بالجهاد ضد الفرنسيين»[٢٨].

يتضح لنا مما سبق أن المجاهد المغربي الذي حارب الفرنسيين بمصر واشتهر هناك باسم «مولاي محمد المغربي» هو محمد بن عبد الله بن الأحرش الدرعاوي، وأنه ينتمي إلى المغرب الأقصى. ذلك، لأنه لا يوجد، حسب علمنا، مغربي آخر حارب الفرنسيين بمصر وأثرت فيهم شوكته واكتسب الشهرة بسبب ذلك وانتشر صيته غير مولاي محمد المغربي الذي أتى، حسب أغلب المصادر الفرنسية، من داخل إفريقيا، وعرف بنسبته المغربية وأصله الشريف.

إضافة إلى هذا، أكدت مختلف المصادر الفرنسية والمشرقية المعاصرة للحملة أن مولاي محمد المغربي الذي حارب الفرنسيين بمصر كان من أهل التصوف، وادعى أنه هو المهدي المنتظر. ولذلك، عرف لدى عدد منها، بـ «المهدي» أو «الملاك المهدي». ولم تخف مصادر أخرى أنه ادعى النبوة[٢٩]. ثم أوردت هذه المصادر كلاما مفصلا عما كان يدعيه هذا الرجل من كرامات من أجل إقناع الناس بزعمه ذاك وتعبئتهم وراءه لمحاربة الفرنسيين. وقد لخصها هيرولد كريستوفر في قوله: «وراح هذا الدرويش المجرد من الثياب تقريبا، المختلط العبارات يدهش سامعيه بدعاوى لا يتوقعونها إلا من نبي صادق. فهو يزعم أنه يستطيع إحالة الفرنسيين إلى تراب لمجرد النظر إليهم، ووقف قذائف المدافع في الهواء، ومنع المدافع من الانطلاق بنفخه أنفاسه

---

(٢٧) محمد بن عبد القادر الجزائري، **تحفة الزائر في أخبار الجزائر والأمير عبد القادر**، شرح وتعليق محمود حقي (بيروت: دار اليقظة العربية، ١٩٦٤)، ص ٧٧.

(٢٨) عبد العزيز سامح التر، **الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية**، ترجمة محمود علي عامر (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨٩)، ص ٢٨٥.

(٢٩) الترك، **حملة بونابرت إلى الشرق**، ص ١٧٥.

صوبها، وتحويل كل ما يمسه إلى ذهب. أما الرصاص فلا يؤذيه ولا يؤذي أتباعه. وأما جسده فروح خالص. وهو يقتات على غمس أصبعيه في إبريق لبن مرة في اليوم ودعك شفتيه بهما»(٣٠).

بهذه الصفات تحدثت عنه أيضا المصادر الجزائرية وهي تنقل أخبار ثورته بنواحي قسنطينة. فقال صاحب **دليل الحيران**: «وادعى [محمد بن الأحرش]، أنه الإمام المهدي المنتظر. وكان صاحب شعوذة وحيل وخبر. فرأت منه الناس العجائب، وأظهر لهم أمور الغرائب، التي هي قلب العين، لا حقيقة لها دون مين»(٣١). أما صالح العنتري، صاحب **مجاعات قسنطينة**، فقال: «زعم أنه صاحب الوقت، وأن دعوته مستجابة، والنصر يتبعه حيثما توجه، وبارود عدوه لا يضره ولا يصيب أتباعه، بل يرجع لديهم ماء. وإلى غير ذلك من الدعوات [كذا] الكاذبة»(٣٢). ونفس المعنى أثبته مسلم بن عبد القادر صاحب **أنيس الغريب والمسافر**، بقوله: «أتى إلى القبائل أصحاب الأرياف، وادعى أنه صاحب وقت. وكانت له حيل أظهرها إليهم، فنصروه»(٣٣). وهذا ما أكده الأغا بن عودة المزاري حينما فقال: «كان صاحب شعوذة وخنقطرة وحيل وخبر. يبدل بها الأشياء للشيء الذي يريد فورا. كاستحالة البعر زبيبا، وتقطير السيف دما، والحجارة درهما، والروث ثمرا»(٣٤). وإلى جانب هذه المصادر الجزائرية نجد أحد أتباع الطريقة الدرقاوية يروي عن شيخه الذي عاصر محمد بن الأحرش، أن هذا الأخير «كان من أرباب خوارق العادات، وكثرة الكرامات»(٣٥).

---

(٣٠) هيرولد، **بونابرت في مصر**، ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠.

(٣١) الزياني، **دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران**، ص ٢٠٧.

(٣٢) صالح العنتري، **مجاعات قسنطينة**، تحقيق وتقديم رابح بونار، ذخائر المغرب العربي (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٧٤)، ص ٣٠.

(٣٣) مسلم بن عبد القادر، **أنيس الغريب والمسافر في طرائف الحكايات والنوادر أو تاريخ بايات وهران المتأخر**، تحقيق وتقديم رابح بونار، ذخائر المغرب العربي (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٧٤)، ص ٦٧.

(٣٤) الآغا بن عودة المزاري، **طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر**، تحقيق ودراسة يحيى بوعزيز، ٢ مج (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٠)، ص ٢٩٩.

(٣٥) محمد المهدي بن القاضي، «النور القوي في ذكر شيخنا عبد الواحد الدباغ وشيخه مولاي العربي الدرقاوي،» (مخ. خ. ع. ، ك ٢٣٠١)، ورقة ٤٧/أ.

وهذا، يمثل، في نظرنا، دليلا آخر على أن مولاي محمد المغربي، هو محمد بن عبد الله بن الأحرش الذي حارب الفرنسيين في مصر والأتراك في شرق الجزائر، حيث استخدم في كلتا الحالتين نفس الأسلوب الذي تمحور حول المهدوية باعتبارها عنصر تحريك وتعبئة بامتياز في مناسبات مثل هاته؛ لأنه لم يثبت لدينا أن شخصا آخر ادعى المهدوية وحارب الفرنسيين في مصر والأتراك بالجزائر، واستخدم هذا الأسلوب في تعبئة الأتباع والمقاتلين غير مولاي محمد المغربي بمصر ومحمد بن الأحرش الذي ظهر بعد ذلك بشرق الجزائر. وهكذا، يمكننا القول إن محمد بن الأحرش الدرعاوي، هو مولاي محمد المغربي، نسبة إلى المغرب الأقصى، كما قطعت بذلك المصادر الجزائرية.

ومما يؤكد هذا أكثر ما أسفرت عنه تحريات عدد من الدارسين الفرنسيين ممن اهتموا بثورة ابن الأحرش في شرق الجزائر، فأكدوا كلهم ما ذكرته المصادر الجزائرية بخصوص هذه الثورة، وخاصة ما يتصل منها بسابقته في الجهاد بمصر. وقد انفرد من بين هؤلاء بتعمقه في هذا الموضوع، شارل فيرو حينما استقصى أخبار ابن الأحرش مباشرة من المنطقة التي ظهر بها بشرق الجزائر. فحصل بفضل ذلك، حسب قوله، على معلومات قيمة من مصادر موثوقة مكنته من الإلمام بحياة وسيرة هذا الرجل. منها، أن ابن الأحرش عيّنه شرفاء المغرب كعادتهم، على رأس موكبهم الحجي. لذلك، أضحى يعرف في الأوساط الجزائرية، على الأقل، بـ «بودالي»، وهو لقب كان يطلق، حسب قوله، على من كان يقوم بهذه المهمة. وقد تزامن تعيينه ذاك مع هجوم الفرنسيين على مصر، «فحاربهم بحماسة قوية مع من تبعه من الحجاج»[٣٦]. ثم أضاف، أن ثوته بشرق الجزائر، كانت بدعم وتدبير من إنجلترا التي لم يرقها توقيع داي الجزائر اتفاقية الصلح مع فرنسا، وهو الشيء الذي استغله محمد بن الأحرش، مستندا في ذلك إلى ما صدر عن فرنسا من عدوان في حق مصر[٣٧]. كما أكد أن محمد بن الأحرش كان يلهب مشاعر مستمعيه بشرق الجزائر،

(٣٦) Laurent-Charles Féraud, «Les Chérifs kabyles de 1804 et 1809 dans la province da Constantine,» *Revue Africaine* (1869), p. 215.

(٣٧) المصدر نفسه، ص ٢١٦ ـ ٢١٧.

بروايته لوقائع حربه ضد الفرنسيين بمصر، «واختلاق صوت يخرج من تحت الأرض يقول: محمد بن الأحرش، هو صاحب الوقت»[٣٨].

لذلك، نقول إن ما توصل إليه هذا الباحث الفرنسي من معلومات من عين المكان، يؤكد بقوة أن محمد بن الأحرش الذي ثبتت لنا نسبته إلى المغرب الأقصى من خلال أكثر من مصدر، هو فعلا مولاي محمد المغربي الذي حارب الفرنسيين في مصر عندما تعرضت للاحتلال الفرنسي.

إضافة إلى هذه الشواهد المصدرية نملك إشارات أخرى تسمح لنا بالاطمئنان أكثر إلى أن مولاي محمد المغربي هو فعلا محمد بن عبد الله بن الأحرش البودالي، وأن هويته الوطنية هي المغرب الأقصى. كما ستكشف لنا أن ابن الأحرش كان يعرف، أيضاً، بـ «الدرعي»، و«الدرعاوي»، و«أبو عبد الله»، وينتمي إلى نواحي وزان، وأنه كان من أتباع الطريقة الدرقاوية، بل من المريدين الذين تكونوا على يد مؤسسها الشيخ مولاي العربي الدرقاوي.

أول إشارة تطالعنا بهذا الصدد تأتي من الضابط الإنجليزي ولسون الذي شارك في الهجوم الأخير ضد القوات الفرنسية بمصر سنة ١٨٠١م، وقابل شخصيا مولاي محمد المغربي، فتحدث عنه قائلا: «على الطريق، انضم إلينا مولاي محمد، أمير فاس الذي جاء من طرف مراد بك. وكان ملازموه، قليلين. لكنهم رجال جد رائعين، مجهزين تجهيزا جيدا. وكان هو نفسه على صهوة جواد عربية، جد ممتازة. وكان هذا الرجل الفريد، يعتبره السكان قديسا. وقد أكسبه ورعه هذا الطابع. ولا يمكن إرجاع شجاعته إلا إلى إحساسه أنه لا يقهر. ولما كان دائما عدوا للفرنسيين فقد قاد الانتفاضة في دمنهور، عندما كان بونابرت في سوريا. وقد أسهم بالكثير في تأخير ثورة القاهرة التالية. وتم تخصيص مكافأة لمن يأتي برأسه. لكنه أحرز من ولاء جماعته انتصارا أعظم»[٣٩]. بعد هذا، تحدث بتفصيل عن شخصية مولاي محمد المغربي، فقال: «إن عينيه السوداوين

---

(٣٨) المصدر نفسه، ص ٢١٩.

(٣٩) Wilson, *History of the British Expedition to Egypt; to Which is Subjoined, a Sketch of the Present State of that Country and its Means of Defence*, p. 79.

حادتان بشكل ملحوظ، ووجهه متورد، وهو أنيق إلى أبعد حد: يرتدي عمامة وعباءة بيضاويتين، لهما حواف مذهبة. ويتدلى من على كتفية بحزام عريض مقصب بالذهب، كيس موشى باللون الأحمر ومقصب بالذهب، وذراعاه بارعتان بشكل فائق، وفروسيته ورشاقته جديرتان بالإعجاب. والواقع أن كل حركة من حركاته تتميز بالرشاقة. وهيبته المتواضعة ولكن النبيلة، وتعبير معين عن القداسة في كل أفعاله، يؤكدان فكرة مباشرة عن مزاعمه وشخصيته»(٤٠).

يستفاد من هذه الشهادة الحية أن مولاي محمد المغربي ينتمي فعلا إلى المغرب الأقصى أو فاس كما كان يعرف آنذاك عند الدولة العثمانية، وأنه قاد ثورة دمنهور، وشارك في ثورة القاهرة الثانية. كما يستفاد من هذه الرواية، بطريق غير مباشر، أن مولاي محمد هذا هو محمد بن الأحرش الذي حارب الأتراك في شرق الجزائر؛ لأن بعض معلومات هذه الشهادة تتطابق مع الرواية التي حصل عليها شارل فيرو من أبناء المنطقة التي ظهر بها ابن الأحرش في شرق الجزائر سنة ١٨٠٧م. وفي هذا، دليل

---

(٤٠) المصدر نفسه، ص ٧١ ـ ٧٢. ورد هذا النص مترجماً إلى العربية ضمن الترجمة الكاملة التي قام بها بشير السباعي لكتاب: لورنس، **الحملة الفرنسية في مصر**، ص ٦٦٠، هامش رقم (١٨١) (بتصرف)، وحتى نتعرف على شهادة هذا الضابط في لغتها الأصلية، نورد هنا النص الإنكليزي:
«On March, Mulley, Mohamed, the Prince of Fez, who had come from Morad Bey joined; his at-attendants were but few, but those very fine men, well appointed, and himself was mounted on an Arabian mare, of considerable excellence. This singular man was considered by the inhabitants as a saint; his piety had acquired this character, and his bravery could only be accounted for from his consciousness of being invulnerable. Always a determined enemy of the French, he had headed the insurrection et Damanhour, when Bonaparte was in Syria, and contributed much to retard the subsequent capitulation of Cairo. A reward had been set on his heads, but he gained greater triumph from the fidelity of the people: his dark eye was remarkably deem, his face florid, and extremely handsome: his turban and robe were white, edged with gold; a red and gold embroidered pouch was suspended from his shoulders by a broad gold lace belt: his arms were superiorly fine, his horsemanship and dexterity admirable; indeed, every motion was graceful; his modest yet noble mien, a certain expression of sanctity in all his actions, forced an immediate idea of his pretensions and character. He prophesied success to the English, and remained their zealous fried; but after the fall of Cairo, avarice produced him enemies, and he was compelled to fly from Turkish persecution. A few days previously he came to seek the General, from whom he had received every proof of favour and regard, but who unfortunately was now gone in to Cairo. His countenance had lost his animation, and his spirit seemed broken with misfortune».
انظر: Wilson, Ibid., pp. 71-72.

آخر على صحة ما ذهبنا إليه في ما يخص اسم هذا المجاهد وهويته.

فمن جهة أولى، ورد عند هذا الضابط أن مولاي محمد كان يركب «صهوة فرس عربية جد ممتازة (...)، وفروسيته ورشاقته جديرتان بالإعجاب»[٤١]. وقد توصل شارل فيرو إلى نفس المعلومات في بحثه الميداني، لكنه أضاف أن ابن الأحرش كان يستعرض كفاءاته الحربية وفروسيته على ظهر فرس تسمى «الفاسية»[٤٢]. وفي هذا دليل آخر على قوة العلاقة التي كانت تربط «أمير فاس» هذا بالمغرب ومدينة فاس منه على وجه الخصوص. ثم قال: «إن الذين رأوا ابن الأحرش يقولون إن عمره كان حوالى خمس وأربعين سنة، وقامته عالية، ووجهه ملون (Coloré)، ولحيته تميل إلى الحمرة (Rougeâtre)»[٤٣]. يلاحظ مما سبق أن الروايتين تشتركان معا في تحديد الملامح العامة لهذه الشخصية؛ حيث اتفقتا على أنه كان يتمتع بجاذبية خاصة من حيث مهاراته الحربية وفروسيته وخصائصه الجسمانية ولباسه الأنيق والمتميز.

ومما يؤيد كذلك انتماء مولاي محمد إلى المغرب الأقصى ربطه الدائم بين شخصه والأسرة الحاكمة بهذا البلد. فقد نقلت عنه عدد من المصادر الفرنسية قوله إنه «ابن سلطان إفريقيا الغربية». أما المعلم نيقولا الترك الذي يبدو أنه تقصى أخباره من مصادر متعددة، فقال: «إنه رجل مغربي، وقيل إنه ابن سلطان الغرب»[٤٤]. وهذا ما أكدته فعلا المصادر الجزائرية. فقد قال الحاج أحمد العطار، مؤرخ قسنطينة التي ثار بها محمد بن الأحرش ضد الأتراك: «وهو رجل مغربي، يزعم أنه من شرفاء ملوك فاس»[٤٥]. هذا، ناهيك عما ذكره الضابط الإنجليزي ولسون بشأنه حينما سماه «مولاي محمد أمير فاس»[٤٦]. ومما

---

(٤١) المصدر نفسه.

(٤٢) Féraud, «Les Chérifs kabyles de 1804 et 1809 dans la province da Constantine,» p. 219.

(٤٣) المصدر نفسه، ص ٢١٦.

(٤٤) الترك، **حملة بونابرت إلى الشرق**، ص ١٧٥.

(٤٥) العطار، «تاريخ قسطنطينة،» ص ٢٦٥.

(٤٦) Wilson, *History of the British Expedition to Egypt; to Which is Subjoined, a Sketch of the Present State of that Country and its Means of Defence*, p. 71.

يرجح لدينا هذا الإدعاء ويؤكد أكثر صلة مولاي محمد المغربي بالمغرب الأقصى، ما ذكره الباحث الجزائري المهدي البوعبدلي من أن مولاي سليمان طلب نقل جثته إلى المغرب، وأن طلبه قد أجيب، وتمت إعادة دفنه بفاس[٤٧].

وكيفما كان الحال، فإن ارتباط شخص مولاي محمد بالمغرب وسلطان المغرب ومدينة فاس بالذات، كما أكدت ذلك المصادر الفرنسية والمشرقية والتركية والجزائرية والإنجليزية، يقطع بنسبته إلى المغرب الأقصى دون غيره من البلدان المغاربية الأخرى.

ومما يعضد أكثر هذه النسبة أن بعض المصادر الجزائرية لم تكتف بتأكيد انتسابه إلى المغرب، بل حددت بدقة انتماءه الإقليمي والمذهبي والطرقي. فقد ذكر محمد بن يوسف الزياني الذي أرخ لمدينة وهران، ووقف مطولا عند ثورات درقاوة بغرب الجزائر وشرقها، أن «ابن الأحرش، فتى مغربي، مالكي مذهبا، درقاوي طريقة، درعي نسبا»[٤٨]. أما الوزير المغربي محمد بن عبد السلام السلاوي فأكد في رسالة له إلى قنصل إنجلترا في ١٣ جمادى الأولى سنة ١٢٢٠هـ/ ٩ آب/ أغسطس ١٨٠٥م أن «القائم الذي قام على وهران وتلمسان، ليس هو الدرعاوي. فإن الدرعاوي لم تقم له قائمة، وهو بالجبال طريدا. وهذا القائم الثاني، اسمه عبد القادر بن الشريف»[٤٩]. وغني عن القول، إن القائم الأول هنا والمومأ إليه باسم الدرعاوي، هو محمد بن الأحرش الذي ثبتت نسبته إلى درعة من خلال المصدر السابق. أما محمد بن القاضي الذي اعتنى بترجمة شيخه مولاي عبد الواحد الدباغ فلم تفته الإشارة ولو باقتضاب إلى كل من حدثه شيخه بهم «وكان كثيرا ما يتحلى بذكرهم ويثني عليهم

---

(٤٧) أورد الشيخ المهدي البوعبدلي هذه الإشارة، ضمن المقدمة التي صدر بها تحقيقه لمخطوط أحمد ابن سحنون. انظر: أحمد بن محمد بن علي بن سحنون، **الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني**، تحقيق المهدي البوعبدلي (الجزائر: منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، ١٩٧١)، ص ٤٣.

(٤٨) الزياني، **دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران**، ص ٢٠٧.

(٤٩) Mohamed El Mansour, «Political and Social Development under the Reign of Moulay Solayman (1792-1822),» 2 tomes (Doctorate, University of Landers, 1981), tome 2, annexe no. 21, p. 33.

ويستشهد بكلامهم ويذكرنا بحالهم»، فقال متحدثا عن من مات منهم قبل موت شيخه: «ومنهم الشيخ أبو عبد الله ولي الله تعالى سيدي محمد بن لحرش الدرعي، من ناحية وازان، وكان من أرباب العادات وكثرة الكرامات»(٥٠).

وبناء على هذه المعلومة القيمة التي تضمنها مخطوط ابن القاضي حول انتماء ابن الأحرش إلى ناحية وزان، وانطلاقا مما ورد في أحد التقاييد حول انتماء أولاد ابن الأحرش إلى الشرفاء العمرانيين وسكناهم بمدشر حمى ميمون بقبيلة بني سريف الهبطية، ورغبة منا في تقديم دليل ملموس يضع حدا نهائيا لهذا الاختلاف القائم بين المهتمين حول الهوية الوطنية لهذا المجاهد، قمنا بزيارة ميدانية لهذا المدشر يوم السبت ٢٤ آب/أغسطس سنة ٢٠٠٢، واستقصينا أخبار عائلة ابن الأحرش من عدد من السكان، أذكر منهم على وجه الخصوص، الطاهر المؤذن وعلي المؤذن، وكلاهما من مواليد العشرينات من القرن العشرين. وثبت لدينا من خلال أجوبتهم أن ابن الأحرش كان قائدا مقيما بهذا المدشر خلال القرن التاسع عشر، واشتهر بحزمه وشدة بأسه وسعة ثرائه، وكان يحكم على الناس ويودعهم السجن بالمدشر المذكور. ثم اندثرت هذه العائلة نهائيا ولم يعد لها، حاليا، أي وجود بهذا المدشر، لأسباب يجهلونها، لكن ذكراها بين الأشخاص المسنين ما زالت قائمة إلى حد الآن.

نستخلص من هذه المصادر الشفوية أن عائلة ابن الأحرش كانت موجودة فعلا بهذا المدشر، وهي عائلة شريفة، واسعة الثراء والشهرة، مارست الخدمة المخزنية قبل الاستعمار، ثم انتهى أمرها إلى الزوال. ورغم عدم توافر أدلة قاطعة تؤكد انتماء محمد ابن الأحرش إلى هذه العائلة، فإننا نميل إلى الاعتقاد أن علاقة ما جمعت بين هذا الشيخ الدرقاوي الذي تملك تلك الجرأة والشجاعة لمقارعة جيش الشرق بمصر وأجناد الترك بالجزائر وهذه العائلة المخزنية المتنفذة بالقبائل الهبطية بشمال المغرب الأقصى.

---

(٥٠) ابن القاضي، «النور القوي في ذكر شيخنا عبد الواحد الدباغ وشيخه مولاي العربي الدرقاوي،» ورقة ٤٧/أ.

يستفاد من كل ما سبق، أن محمد بن لحرش، الذي تأكد لدينا أنه هو مولاي محمد المغربي، سكن بناحية وزان، وانتمى إلى الطريقة الدرقاوية، وأصبح من شيوخها المشهورين حيث صنفه واحد من أتباع هذه الطريقة ضمن «أرباب خوارق العادات وكثرة الكرامات». وهي الصفات التي اشتهر بها أيضا في مصر والجزائر بعد أن عرف بها في المغرب، ما يدل على أن مولاي محمد المغربي الذي دوخ الفرنسيين بمصر، أو محمد بن الأحرش الذي حارب الأتراك بشرق الجزائر كان شخصية طرقية قوية تتمتع بتأثير قوي ونفوذ واسع بفضل ما توافر لديه من نسب شريف وتأثير روحي وقدرات قتالية عالية.

لذلك، نقول، بعد هذه الجولة في مختلف المصادر والدراسات، إن مولاي محمد المغربي الذي تصدر للجهاد ضد الفرنسيين بمصر، هو أبو عبد الله سيدي محمد بن عبد الله بن لحرش البودالي، المالكي مذهبا والدرعي نسبا والدرقاوي طريقة، سكن بناحية وزان بالمغرب الأقصى(٥١).

ـ فما الذي دفع بهذه الشخصية المغربية المتميزة، إلى الانتقال إلى أرض الكنانة لمقاتلة جيش الشرق؟

للإجابة عن هذا السؤال ينبغي التمييز أولا بين الأسباب الموضوعية التي بإمكانها أن تحرك أي شخص من صنف محمد بن الأحرش في اتجاه المقاومة والجهاد في ظرف مثل هذا، والأسباب الذاتية التي ينحصر فعلها في دائرة تحقيق المصالح الشخصية التي يمكن أن يحصل عليها رجل بعينه من وراء عمل من هذا القبيل.

ـ فأين يوجد محمد بن الأحرش من هذين الشخصين المتوقعين في مثل هذه الحالة التي يمكن أن ينطبق عليها هذا الصنف من الأسباب أو ذاك؟

---

(٥١) ابتداء من هذه الصفحة سنورد أخبار هذا المجاهد المغربي تارة باسم مولاي محمد المغربي، وتارة أخرى باسم محمد بن الأحرش، اقتناعاً منا بأن مولاي محمد المغربي هو محمد بن الأحرش الدرعاوي.

ثانياً: انتقال مولاي محمد المغربي من الحج والزيارة إلى المقاومة والجهاد بإقليم البحيرة

بادئ ذي بدء، نقول إن محمد بن الأحرش، أو من اشتهر بمولاي محمد المغربي، صادفه ظرف موضوعي جعله يحتك مباشرة بحقيقة الحملة الفرنسية على مصر. تمثل ذلك في عودته من الحج، ومروره ضمن قافلة الحجاج المغاربة بمصر التي كانت تشهد ساعتها دخول جيش الشرق إلى أراضيها. وغني عن القول إن المعايشة الميدانية لحدث من هذا النوع في جو روحي بذاك التميز، سيكون له وقع قوي على شخصية مثل محمد بن الأحرش. فقد رأى بأم عينيه، مثل باقي أفراد ركب الحج المغربي، كيف اقتحم الجنود الفرنسيون جزءا عزيزا من أرض الإسلام، وربما سمع أو شاهد الجرائم التي رافقت هذا الاقتحام، وجال في خاطره أن أرض الكنانة التي كانت تشكل قبل قليل المعبر الرئيس للحجاج المغاربة ومركزا مشهورا لتحصيل العلوم وتنمية المعارف، قد ضاعت من المسلمين، سيما وأن نكبة الأندلس كانت ذكراها لا تزال حية في الأذهان.

يضاف إلى هذا، أن محمد بن الأحرش لم يكن يتلقى دلالات ومعاني هذا الحدث المفاجئ مثل أي مسلم عادي، بل عاشه وهو في أعلى درجات التشبع الروحي والتوتر العاطفي؛ حيث كان عائدا لتوه من الديار المقدسة. أما إذا تذكرنا أن هذا الزعيم المغربي كان ينتمي قبل حلوله بالمشرق إلى إحدى الطرق الصوفية الأكثر قوة ونشاطا في تلك الفترة، وربما كذلك الأكثر انغماسا في الشأن السياسي العام، سواء الوطني منه أو الإسلامي(٥٢)، فسهل علينا تصور كيفية تفاعله وتعاطيه مع

(٥٢) أقصد بذلك الطريقة الدرقاوية التي زاوجت بين التربية الصوفية والانخراط في الشأن السياسي العام، والأدل على ذلك موقف قطبها مولاي العربي الدرقاوي من بيعة مولاي سليمان وثورة بعض تلامذته ضد الحكم التركي بالجزائر. انظر بهذا الخصوص: Auguste Cour, *L'Etablissement des dynasties des chérifs au Maroc et leur rivalité avec les Turcs de la Régence d'Alger, 1509-1830* (Paris: E. Leroux, 1904).

انظر أيضاً: عبد المجيد الصغير، **من تاريخ التصوف المغربي: إشكالية إصلاح الفكر الصوفي في القرنين ١٨ ـ ١٩م: أحمد ابن عجيبة ومحمد الحراق**، ط ٢ (الدار البيضاء: دار الآفاق الجديدة، ١٩٩٤)، ومحمد الخداري، «درقاوة والمخزن في عهد مولاي سليمان (١٧٩٢ ـ ١٨٢٢)،» مجلة **أمل**، العددان ٢٢ ـ ٢٣ (٢٠٠١)، ص ٦٢ ـ ٧٨.

هذا الهجوم العسكري الذي نفذته واحدة من الأمم المسيحية ضد إحدى البلدان الإسلامية الأكثر حضورا في وجدان المغاربة بعد مكة والمدينة والقدس.

هذا، ناهيك عن المرجعية المحلية التي كان يصدر عنها هذا الزعيم المغربي، والتي اتسمت بكثافة تجربة الجهاد والوعي بخطورة المخطط المسيحي منذ سقوط غرناطة واحتلال المدن والمراكز الساحلية بالمغرب. ويمكن أن نضيف إلى ما أثاره موقف مولاي سليمان غير الواضح من هذا العدوان من ردود فعل غاضبة لدى مطلق الفئات الشعبية، وخاصة منها تلك التي كانت تخضع لتأطير روحي مكثف وتوجيه سياسي قوي مثل أتباع الطريقة الدرقاوية.

لكن، هذا التفسير الذي يبدو منطقيا ومتماسكا لا يؤيده ما جاء في بعض المصادر والدراسات التي اعتبرت مولاي محمد المغربي مجرد عميل للدولة العثمانية وحليفتها إنجلترا، وُظّف من قبلهما لتحريك عملية المقاومة ضد الوجود الفرنسي بمصر. ولأجل تحقيق هذا الهدف المشترك دعماه بما يكفي من المال والسلاح. وتكاد تشكل هذه النظرة قاسما مشتركا بين جل المصادر والدراسات الفرنسية التي تناولت هذا الموضوع.

وهكذا، نجد مهندس الطرق والقناطر، دومنيك مارتان الذي كان يتابع باهتمام ما يجري من أحداث على الساحة المصرية، يقول في مختتم كلامه على مولاي محمد المغربي: «كل هذه الحركات كانت مرتبطة بالمحاولات التي كان الإنجليز يوحون بها إلى الأتراك؛ لأن هؤلاء كانوا يعدون جيشا ضخما بجزيرة رودس، ويرغبون في مد يد المساعدة للمماليك بمصر العليا بواسطة سكان إقليم البحيرة»[٥٣]. ثم قال في مكان آخر، «كان الملاك ـ المهدي على اتصال بمراد بك. ولأجل تيسير الالتحام به في الوجه البحري حيث كانت تجري أطوار الثورة، أرسل قبيلة عربية إلى الأهرام»[٥٤]. نفس الكلام تقريبا ورد في أحد أجزاء السلسلة الجماعية التي ألفها واحد من كبار الضباط الذين

(٥٣) Martin, *Histoire de l'expédition française en Égypte*, vol. 1, p. 334.

(٥٤) المصدر نفسه، ص ٣٧٥.

رافقوا نابليون في حملاته العسكرية داخل مصر وخارجها[55]. أما فيفون دينون الذي كان يرافق الجنرال ديزي خلال حملته على الصعيد، فقد ذهب إلى أبعد من ذلك حين قال: «إن مراد بك كانت له مخابرات مع مصر السفلى وشمال إفريقيا، وأنه كان وراء مجيء الملاك ـ المهدي إلى إقليم البحيرة وقيادته من هناك لحركة المقاومة ضد الفرنسيين»[56].

أما بيرنويير الذي كانت تربطه علاقات قوية مع كبار ضباط الحملة بحكم مهنته، وينقل أخبارها بانتظام إلى أحد أصدقائه بفرنسا، فقد كتب في إحدى رسائله أن الإنجليز يريدون طرد الفرنسيين من مصر. لأجل ذلك يستخدمون السلطان العثماني ويستغلون غباوة الأهالي. وهكذا، فإن ظهور مولاي محمد المغربي بإقليم البحيرة، كان، حسب قوله، بوحي وتدبير من إنجلترا، وتولى العثمانيون تنفيذ هذه الخطة حينما «كتبوا داخل كل المساجد الآية القرآنية التي تبشر بمجيء المهدي المنتظر. ثم رغبت الناس في العمل بمقتضاها». فلم يبق لها، بعد ذلك، تتابع الرسالة، سوى تعيين الشخص المناسب للقيام بهذه المهمة الخاصة. فكان أن وجدته، حسب قوله، في القسطنطينية حيث زودته بتعليمات قوية وكميات كبيرة من الذهب. ثم بعثته إلى مصر. وقبل وصوله إلى هناك، سبقه أشخاص من صنفه، يخبرون الناس أنهم رأوا في الصحراء رجلا ينزل من السماء، وأنه مرسل من الله للقضاء على الجيش الفرنسي بمصر. ثم أضاف، معللا الاستجابة الواسعة التي لقيتها هذه الدعوة: «وإنهم بفضل الذهب الذي كانوا يوزعونه بسخاء، استطاعوا أن يقنعوا الناس بزعمهم ذاك»[57].

لا نعرف من أين حصل بيرنويير على هذه المعلومات الدقيقة والمفصلة. لكن يبدو أن ما جاء في روايته يشوبه التناقض، وتفنده بعض الوقائع الآتية. فمن جهة أولى، نلاحظ أن محمد بن الأحرش العائد لتوه من الحج لم يكن لديه ما يكفي من الوقت، ومن الضمانات الأمنية لكي

---

(٥٥) *Victoires, conquêtes, désastres, revers et guerres civiles des Français, de 1792 à 1815* (Paris: C. L. F. Panckoucke, 1817-1821), vol. 10, pp. 306-307.

(٥٦) Vivant Denon, *Voyage dans la Basse et la Haute Egypte* (Paris: Gallimard, 1998), p. 313.

(٥٧) Bernoyer, *Avec Bonaparte en Égypte et en Syrie, 1798-1800: 19 lettres inédites*, pp. 128-129.

يذهب إلى القسطنطينية بتدبير من الإنجليز ويتصل هناك بالسلطات العثمانية، ثم يعود إلى صحراء برقة بطرابلس الغرب، لينفذ مهمته القتالية بإقليم البحيرة بمصر. اللهم إلا إذا كان ابن الأحرش معروفا لدى الإنجليز والعثمانيين بما يكفي من الوقت لكي يضعوا فيه ثقتهم ويحملوه مسؤولية من هذا النوع.

ومما يقلل أكثر من صحة هذه الرواية هو الخلاف السياسي الحاد، بل والصراع العسكري اللذان سينشآن بين محمد بن الأحرش والسلطات العثمانية بمصر والجزائر. فخلافا لنصوح باشا الذي كان يمثل الجيش العثماني في هذه الثورة، رفض مولاي محمد المغربي الدخول في أية مفاوضات مع السلطات العسكرية الفرنسية، وألح على ضرورة استمرار الجميع في القتال. بل، إنه أصدر بيانا أقرب ما يكون إلى الفتوى، يجرم فيه كل من يدعو إلى الاستسلام[٥٨]. ثم بلغ هذا الخلاف أوجه عندما تزعم محمد بن الأحرش ثورة مسلحة قوية ضد الحكم التركي بشرق الجزائر مباشرة بعد خروج الفرنسيين من مصر.

ورغم كل هذا، بقي محمد بن الأحرش، أو من كان يعرف بـ «مولاي محمد المغربي»، بالنسبة لجل المصادر الفرنسية مجرد عميل للدولة العثمانية وحليفتها إنجلترا مقابل ما كان يتلقاه، حسب زعمها، من أموال ودعاية.

ومما يجدر ذكره بهذا الصدد أن هذه النظرة تعمقت أكثر لدى الدارسين الفرنسيين عندما تعرضوا للبحث في الأسباب التي أدت إلى قومته لاحقا ضد أتراك الجزائر سنة ١٨٠٣م؛ حيث اعتبروا عمله ذاك مجرد استمرار للمخطط الإنجليزي الذي كان وراء إخراج الفرنسيين من مصر قبل قليل، ثم تحول هذه المرة إلى إثناء الجزائر عن معاهدة الصلح التي كانت فد أبرمتها مع فرنسا قبل سنتين[٥٩].

ولا داعي إلى التذكير بأن هذا الموقف الفرنسي المتشكك الذي

---

(٥٨) الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ج ٢، ص ٣٣٥.

(٥٩) Féraud, «Les Chérifs kabyles de 1804 et 1809 dans la province da Constantine,» p. 216, et Sander-Rang, dans: *Tableau des établissements français* (Paris: Impr. Impériale, 1840), p. 560.

درج على رمي كل من خرج عن خطه بالعمالة للإنجليز، إنما مرده إلى العداء المستحكم آنذاك بين فرنسا وإنجلترا الذي تمخض عنه صراع محموم حول مصر وسائر ممتلكات الدولة العثمانية. معنى هذا انه ينبغي ألا نفاجأ إذا وجدنا من المؤلفين الفرنسيين من ينظر بعين كسيرة إلى ما صدر عن هذا المجاهد المغربي في مصر والجزائر، أو أن يجانب الموضوعية في الحكم على حركته، نظرا لشدة توطن عقدة المؤامرة لديهم تجاه كل ما يمكن أن يصدر عن إنجلترا التي استمرت إلى ذلك التاريخ تطاردهم بقوة في أغلب المستعمرات التي حصلوا عليها في العالم الجديد وغيره من المناطق الأخرى.

ورغم ذلك، توجد، في نظرنا، عدة أسباب تغري الباحث المعاصر قبل غيره من هؤلاء المؤلفين الذين عايشوا حركة ابن الأحرش، أو سمعوا بها من قريب، بالاشتباه في الدوافع التي حركت هذا الرجل في اتجاه مقاتلة الفرنسيين بمصر، وكذا طبيعة العلاقة التي يحتمل أن تكون قد جمعت بينه وبين إنجلترا.

تتمثل هذه الأسباب، أولا، في الخصوصية الأمنية والعسكرية للمنطقة التي ظهر بها ابن الأحرش، والظرفية الخاصة التي كانت تمر بها قوات الحملة بمصر والشام، ناهيك عما كان يتوفر عليه هذا الرجل من إمكانات قتالية ومالية، وما صدر عنه من أقوال وأفعال بعد انتهاء الحملة وظهوره مرة أخرى بشرق الجزائر.

ففيما يخص النقطة الأولى، نعلم أن أقاليم الوجه البحري التي شكلت نقطة الانطلاق بالنسبة لحركة مولاي محمد المغربي، خضعت للسيطرة الفرنسية منذ البدايات الأولى للحملة. غير أن هذا الخضوع ظل سطحيا ومؤقتا؛ إذ استمرت الأقاليم المذكورة تشهد، بين الحين والآخر، قيام عدد من الحركات التمردية التي استدعى إخمادها إيفاد تعزيزات عسكرية قوية بشكل متتالٍ. يستنتج ذلك من وثائق، نذكر من منها رسالة نابليون إلى الجنرال بيرتيي في ١٤ تيرميدور سنة ٧، التي طلب منه فيها أن يوجه الجنرال بريب (Bribes) إلى إحدى جهات هذه المنطقة ليخبر أهاليها أن نابليون جد مستاء من تصرفاتهم، وأنه يعلم أنهم أطلقوا النار على المراكب الفرنسية بعد معركة الأهرام. لذلك، ينبغي تجريدهم من

السلاح، وإخبارهم أنه إذا ما توصل بأدنى شكوى منهم، فسيحرق قريتهم. كما أمره في هذه الرسالة بتجريد مدينة دمنهور من السلاح وقطع رؤوس خمسة أشخاص من أكابرها، وأخذ خمس وعشرين رهينة وإرسالهم إلى القاهرة[٦٠]. وبعد حوالى شهر من هذا التاريخ، وجه رسالة شديدة اللهجة إلى الجنرال بيرتيي أمره فيها بضرورة انتقال الجنرال مورا (Murat) إلى منوف كي يلتقي بالجنرال لانوس (Lanusse)، وينفذا معا هجوما مشتركا على عرب درنة. إلا أن هذا الهجوم يجب أن يتم، حسب رغبة نابليون، في أقرب وقت ممكن، ويؤدي إلى القضاء على جميع هؤلاء العرب. أما إذا قضي على جزء منهم فقط وطلب الجزء الآخر التفاوض، فينبغي ألا يتم ذلك إلا بعد أخذ مائتي فرس وتسعمائة بندقية وثلاثين رهينة من علية القوم[٦١].

وتكشف لنا مراسلات أخرى أن هذه القرى والمدن التي كانت تصدر عنها هذه التصرفات المعادية للفرنسيين، والتي ستنضم، عما قريب، إلى مولاي محمد المغربي في قومته، كان بعضها يرتبط بعلاقات مخابرة وتعاون مع الأسطول الإنجليزي المرابط بالبحر الأبيض المتوسط. فهذا نابليون يطلب من الجنرال لاجودان لوتيرك (Le Turcq) المرابط بالرحمانية، التأكد في ما إذا كانت لمدينة دمنهور علاقة مخابرة مع الإنجليز. ولأجل التحقق من ذلك، أشار عليه بضرورة أخذ رهائن[٦٢]. وحوالي هذا التاريخ كان أحد الزعماء المشهورين بولائهم للمماليك والإنجليز، يجوب أطراف أقاليم الوجه البحري محاولا ربط الاتصال مع الأسطول الإنجليزي. أقصد بذلك عبد الله باشا ذي الأصل المغاربي الذي كان يدير، إلى جانب محمد كريم، مصالح مراد بك بالإسكندرية قبل الحملة[٦٣]. ورغم

---

(٦٠) C.N., no. 2915, le Caire Napoléon à Berthier, 14 thermidor an 7 (1 août 1798), vol. 4, p. 409.

(٦١) C.N., no. 3387, le Caire Napoléon à Berthier, 5 vendémiaire an 7 (26 septembre 1798), vol. 5, p. 7.

(٦٢) C.N., no. 3591, El Rahmanieh, Napoléon à Le Turcq (Adjudant-général, aide- de-camp du général Berthier), 19 brumaire an7 (9 novembre 1798), vol. 5, p. 155.

(٦٣) Marmont (général) à Bonaparte, Alexandrie, 2 brumaire an 7 (23 octobre 1798), dans: Clément de La Jonquière, *L'Expédition d'Egypte*, 5 vols. (Paris: C. Lavauzelle, 1899), vol. 3, p. 318.

مطاردته في كل الجهات، بقي هذا الرجل خارجا عن متناول القوات الفرنسية. لكنه لم يتوان في الانضمام إلى مولاي محمد المغربي والمساهمة بقوة في حركته إلى أن قتل في إحدى المعارك[٦٤]. ونقرأ في أحد أعداد جريدة **لوكوريبه دي ليجبت**، أن البريطانيين صرفوا أموالا طائلة للعربان ذوي الأصول المغاربية، وخاصة منهم قبائل الهنادي وأولاد علي والفواهيد[٦٥] الذين سيتشكل منهم، عما قريب، الحلفاء الرئيسيون لمولاي محمد المغربي.

وهكذا، يمكن القول إن ظهور مولاي محمد المغربي بالوجه البحري وإقليم البحيرة منه على وجه الخصوص لم يكن اعتباطيا، بل اندرج ضمن خطة محكمة مؤسسة على فهم عميق لخصوصية هذه المنطقة من الناحتين الأمنية والعسكرية. فقد كانت توجد على تماس مباشر وعلاقة قوية مع الأسطول الإنجليزي الذي كان يمارس سيطرة شبه مطلقة على الساحل المتوسطي لمصر، وكانت تعيش حالة اضطراب أمني متواصلة، وتقطنها قبائل مقاتلة تربطها صلات وثيقة ببلدان المغرب.

ومما يدعو إلى الاشتباه أكثر في حركة مولاي محمد المغربي، هو تزامنها مع اللحظات الأخيرة من ثورة أمير الحج المصري صالح بك بإقليم الشرقية، وغياب نابليون بالشام حيث كان يدير أطوار معركة ضارية ضد قوات أحمد باشا الجزار في الوقت الذي كانت تشهد فيه جزيرة رودس استعدادات عسكرية مكثفة للأسطولين العثماني والإنجليزي من أجل تنفيذ هجومهما المشترك على مصر في شهر غشت (آب/ أغسطس) المقبل.

ورغم كل ذلك، لا نستطيع الجزم بوجود علاقة مباشرة بين مجيء محمد بن الأحرش إلى إقليم البحيرة وثورة أمير الحج المصري بإقليم

(٦٤) *Victoires, conquêtes, désastres, revers et guerres civiles des Français, de 1792 à 1815*, vol. 10, pp. 304-306.

(٦٥) **صحف بونابرت في مصر، ١٧٩٨ ـ ١٨٠١**، ترجمة صلاح الدين البستاني، ١٠ مج (القاهرة: دار العرب للبستاني، ١٩٨١)، **وكوريبه دي ليجبت**، ١٨ فريمير سنة ٧ (٩ كانون الأول/ ديسمبر ١٧٩٨)، عدد ٢٠، ص ٦٦.

الشرقية وأطراف المقاومة بالصعيد أوالقوات العثمانية والإنجليزية التي كانت ترابط بعرض البحر الأبيض المتوسط. إلا أن هذا لا يمنعنا من القول إن محمد بن الأحرش لم يكن ليغامر بالدخول إلى إقليم البحيرة، لو لم يكن واثقا من الاستجابة التي ستقابل بها دعوته من طرف أهالي القرى والمدن المصرية بهذه الجهة، ولو لم يكن على علم بالمساندة التي يمكن أن تأتيه من جهة الإنجليز والعثمانيين وحلفائهم من المماليك ورجال الشريف حسن.

ومما يرجح لدينا أكثر هذا الاعتقاد هو التحاق كل هؤلاء المقاتلين بمن فيهم مراد بك، بمولاي محمد المغربي وتنفيذهم جميعا عدة هجومات على الحاميات الفرنسية بهذه الجهة. ومما يؤكد أكثر متانة العلاقة التي جمعت بين مولاي محمد المغربي والسلطات العثمانية والإنجليزية، ويجعلنا نشتبه في وجود تنسيق ما بين الطرفين هو أنه رغم فشل ثورته بإقليم البحيرة وثورة القاهرة الثانية التي كانت له فيها مشاركة قوية لم يعد إلى المغرب، بل انسحب صحبة جيش الصدر العظم العثماني المنهزم إثر هذه الثورة إلى الشام، ليعاود الظهور مرة أخرى بمصر وينفذ عدة هجومات ضد القوات الفرنسية. كما أنه بذل مجهودات كبيرة في ردم الهوة بين العثمانيين والزعيم المملوكي الكبير مراد بك الذي كان قد دخل في صلح مشروط مع الفرنسيين.

يضاف إلى هذا أنه إذا كانت علاقة مولاي محمد المغربي بالعثمانيين قد ساءت في اللحظات الأخيرة من عمر الحملة، وتحولت إلى مواجهة مفتوحة عندما أقدم على ثورته بشرق الجزائر، فقد توطدت أكثر بحليفتها إنجلترا. فقد أكدت شهادات لاحقة أن محمد بن الأحرش والمغاربة الذين كانوا يقاتلون صحبته بمصر، عادوا إلى بلدانهم على متن سفن إنجليزية، لا بل تقول إن محمد بن الأحرش وبعض من رجاله نزلوا بتونس أو أحد موانئ شرق الجزائر، ليفجروا بها من هناك ثورة أخرى ضد أتراك الجزائر، بإيعاز من الإنجليز الذين غاظهم عقد هذه الأخيرة معاهدة صلح مع فرنسا منذ نهاية سنة ١٨٠١م. إلى جانب هذا، تؤكد هذه المصادر أن محمد بن الأحرش دشن هذه الثورة بالقبض على مجموعة من البحارة الفرنسيين، ثم ما انفك يدافع، بعد ذلك، عن

إنجلترا ويشيد بما فعلته في مصر إلى جانب الدولة العثمانية[٦٦].

وزيادة على هذا وذاك تكشف لنا مصادر أخرى أن مولاي محمد المغربي كان يوزع، عقب انتهائه من خطاباته بمصر، كميات كبيرة من الذهب على أتباعه؛ مدعيا تارة «أنها تأتي مباشرة من السماء لكي تسلم إليهم»، وزاعما تارة أخرى «أنه يملك سر استخلاص الذهب من أي شيء وضع يده عليه»[٦٧]. هذا، بينما أشار أحد الدارسين إلى أن الذهب الذي كان يوزعه مولاي محمد بسخاء لم يكن سوى عملة عثمانية تحمل صورة السلطان العثماني[٦٨].

وإذا كان مجرد مقاتلة مولاي محمد المغربي لجيش الشرق بمثل هذه الشدة والضراوة، وإثارته لأهالي القرى والمدن المصرية في أقاليم الوجه البحري في ظرف حرج كالذي رأيناه، كافياً لرميه من طرف المصادر الفرنسية بالعمالة للعثمانيين والإنجليز، أو اتهامها له بالشعوذة والخرافة، فإن الذي نستغربه حقا هو أن تقابل حركته باستنكار وامتعاض شديدين من قبل عدد من الكتاب والباحثين المصريين، وعلى رأسهم الشيخ عبد الرحمن الجبرتي الذي اتهمه صراحة، بسبب مشاركته في ثورة القاهرة الثانية، برغبته «في دوام الفتنة؛ [لأن] بها يتوصل لما يريد من النهب والسلب، والتصور بصورة الإمارة (. . .)»[٦٩]، وأن «غالب ما وقع من النهب وقتل ما لا يجوز قتله، يكون صدوره عنه»[٧٠].

أما الدارسون والباحثون المصريون الذين اهتموا بهذا الموضوع، فلم يقفوا عند هذا الحد، بل اتهمه بعضهم بالجهالة والتطاول

---

(٦٦) Féraud, «Les Chérifs kabyles de 1804 et 1809 dans la province da Constantine,» pp. 215-216; Sander-Rang, dans: *Tableau des établissements français*, p. 560, et Napoléon Lacroix, *Les Derkaoua d'hier et d'aujourd'hui: Essai historique* (Alger: Impr. V. Heintz, 1902), p. 8.

(٦٧) Le Caire, Dugua à Bonaparte, 11 floréal an 7 (30 avril 1799), dans: La Jonquière, *L'Expédition d'Egypte*, vol. 5, p. 73, et *Victoires, conquêtes, désastres, revers et guerres civiles des Français, de 1792 à 1815*, vol. 10, p. 301.

(٦٨) Deherain, «L'Egypte turque,» p. 436.

(٦٩) الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ج ٢، ص ٢٧٤.

(٧٠) المصدر نفسه.

والسفاهة[٧١]. بينما رماه آخر بالإرهاب والمتاجرة بالثورة لصالحه الخاص[٧٢]. في حين لم يتردد أحد محققي **عجائب الآثار** في وصفه بـ «الدجال»، وأنه «يدعي الجهاد وينادي بنقض الصلح، لتحقيق مصالحه»[٧٣]. أما علي بركات الذي خص المقاومة المصرية للحملة بأحد مقالاته المطولة، فلم ينل منه مولاي محمد المغربي الذي شكل أحد زعمائها الرئيسيين، إن لم نقل أقواهم على الإطلاق، سوى الإهمال والتجاهل؛ إذ لم يتحدث عنه إطلاقا في مقالته تلك، جاعلا من هذه المقاومة شأنا مصريا محضا[٧٤].

ـ فأين هو موقع مولاي محمد المغربي من هذا الشبهات والتهم التي التقى حولها على غير موعد الجلاد والضحية؟ وهل حقا أن تنسيق عملياته القتالية مع «دولة الإسلام الكبرى» المسؤولة شرعا وقانونا عن الدفاع عن مصر وحليفتها إنجلترا العدو الأوروبي الأقوى للدولة الغازية، يعد عمالة وارتزاقا؟

بادئ ذي بدء، نقول إن مؤشرات عدة تدفعنا إلى الاعتقاد بأن مولاي محمد المغربي كان على اتصال مع الدولة العثمانية وإنجلترا، وربما حصل بينهم جميعا تنسيق مشترك قبل أن يحل هذا الزعيم المغربي بمصر. فحسب تقديرنا، لم يكن بمستطاع مولاي محمد المغربي المغامرة بالدخول إلى إقليم البحيرة في ظروف أمنية مثل تلك، لو لم يكن **أولا**؛ على علم بالوضع الحرج الذي كان يوجد عليه جيش الشرق، وكذا إمكانات الثورة التي كان يتيحها الوجه البحري بصفة عامة وإقليم البحيرة منه على وجه الخصوص، ولو لم يكن **ثانيا**؛ متأكدا من المدد الذي كان

---

(٧١) عبد الرحمن الرافعي، **تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر**، ٢ ج، ط ٤ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨١)، ج ٢، ص ١٦٩.

(٧٢) جلال كشك، **ودخلت الخيل الأزهر** (القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٩٩٠)، ص ٢٨٧.

(٧٣) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، إعداد وتحقيق جمال الدين عبد العزيز، صفحات من تاريخ مصر؛ ٣٧، ٥ ج (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٧)، ج ٤: **الغزوة الفرنسية**، ص ٣٤٤ ـ ٣٥٢.

(٧٤) علي بركات، «مائتا عام على الحملة الفرنسية: القرية المصرية في مواجهة الغزو الفرنسي،» **مجلة إبداع** (القاهرة)، العدد ٨ (١٩٩٦)، ص ١٠ ـ ٣٣.

سيأتيه من العثمانيين والإنجليز من جهة، والمماليك ورجال الشريف حسن من جهة ثانية، ناهيك عن ضرورة تأكده من جاهزية الأهالي لتلبية نداء الجهاد والمقاومة.

وإذا صح هذا الافتراض، جاز لنا القول إن ما قام به مولاي محمد المغربي، منذ نهاية نيسان/أبريل ١٧٩٩م، لا يعدو كونه مقدمة لمخطط واسع ساهمت فيه، بوعي أو بغير وعي، كل الأطراف المناوئة للاحتلال الفرنسي لمصر. مصداق ذلك، أن قومته بإقليم البحيرة تزامنت مع غياب جزء هام من جيش الشرق بالشام، وبدء الاستعدادات الحربية المشتركة بين الأسطولين العثماني والإنجليزي بجزيرة رودس. كما أن الانتقال السريع والمفاجئ للمماليك ومتطوعة الحجاز من الوجه القبلي إلى الوجه البحري، وتنسيق عملياتهم مع مولاي محمد المغربي، يدعم هذا الرأي. هذا، إضافة إلى ما صدر عنه من أقوال لصالح إنجلترا، وكذا العلاقات التعاونية الجيدة التي استمرت تربطه بها إلى ما بعد خروج الفرنسيين من مصر.

ورغم ذلك، لا يجب أن يجرنا هذا إلى التسليم بالأطروحة الفرنسية التي لم تر في مولاي محمد المغربي سوى مرتزق، أو الاتهامات المصرية التي قدمته في صورة دجال وأفاق ينحصر همه الرئيس في تحقيق كسبه الخاص دون الالتفات إلى معاناة الأهالي الذين يقع عليهم الانتقام من طرف الجند الفرنسيين. وذلك لاعتبارات مختلفة، منها؛ صعوبة، إن لم نقل، استحالة تزعم محمد بن الأحرش لحركة جهادية من ذلك الحجم في منطقة بمثل تلك الحساسية، دون أن ينسق مجهوداته الحربية في الحال والمستقبل مع السلطات العسكرية العثمانية والإنجليزية. كما أن هذا التنسيق، إن حصل فعلا، لا يمكن أن يعد ارتزاقا، بل يعتبر واجبا دينيا تفرضه دواعي التضامن والمؤازرة بين مختلف الشعوب الإسلامية ومن يدعمها من الدول الحليفة، واستجابة ضرورية لنداء الجهاد الذي أصدره السلطان العثماني باعتباره خليفة لجميع المسلمين بغض النظر عن انتماءاتهم الوطنية الضيقة.

ونلاحظ، من جهة ثانية، أن عمليات محمد بن الأحرش، خاصة الميدانية منها، كانت تتم، على ما يبدو، باستقلال عن أي توجيه أو

مشاركة أجنبية. ذلك، أن المصادر الموجودة بين أيدينا، لم تشر إلى وجود جنود عثمانيين أو إنجليز ضمن قواته. وهذا يفيد أنه كان يملك حرية كبيرة في إدارة عملياته القتالية من منطلق جمعه بين الزعامتين الروحية والجهادية. وقد تجلى هذا الاستقلال بصورة أقوى وأوضح، خلال ثورة القاهرة الثانية حينما تحول مولاي محمد المغربي إلى زعيم شعبي يلتف حوله أهالي أحياء القاهرة الرافضين للاستسلام أو القبول بالصلح، مما تسبب في إحراج شديد الوطأة على نفسية المفاوضين العثمانيين ووسطائهم المماليك. ذلك، كان كلما توصل الطرفان الفرنسي والعثماني، إلى إبرام صلح ما، ألب عليهما مولاي محمد المغربي الثوار من أهالي القاهرة والمغاربة القاطنين بها، ونادى: «الصلح مرفوض، ومن قبل به قطعت رأسه»[٧٥].

يضاف إلى هذا وذاك، أنه إذا كانت صداقة مولاي محمد المغربي للإنجليز قد استمرت إلى ما بعد خروج الفرنسيين من مصر، فيبدو أن حبل المودة الذي كان يجمعه بالعثمانيين قد شابه بعض الفتور منذ فترة مبكرة من عمر الحملة، ليتحول بعدها إلى عداء صريح وصراع عسكري مفتوح في شرق الجزائر. وفي هذا دليل آخر على الاستقلالية الواسعة التي كان يتمتع بها في تدبير ممارسة الجهادية، وعمق الخلاف الذي كان يوجد بينه وبين السلطات العثمانية في ما يخص إدارة الأزمة التي ألمت بـ «دولة الإسلام الكبرى» مع نهاية القرن الثامن عشر.

أما صداقته للإنجليز وإعجابه بهم فيمكن ردهما إلى معايشته الميدانية للتطورات العسكرية والسياسية التي تخللت هذه الحملة. فقد تهيأ له خلال هذه اللحظات التأكد من ضعف الدولة العثمانية وعدم صلاحيتها لإدارة شؤون المسلمين، ما سيشجعه مستقبلا على الثورة ضدها بشرق الجزائر. كما أتاحت له هذه المعاينة المباشرة اكتشاف القوة الضاربة لإنجلترا والتأكد من قدرتها على مقاومة التهديد الفرنسي واستعدادها لتنسيق عملياتها الحربية مع القوى الإسلامية المستهدفة. وربما وجدنا ما يؤيد هذا التأويل في ما كتبه الضابط الإنجليزي، طوماس ولسون، بشأن مولاي

(٧٥) الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار** (دار الجيل)، ج ٢، ص ٣٣٥.

محمد بمناسبة مقابلته له بمصر عندما قال: « (. . .) وقد تنبأ بالنجاح للإنجليز، وظل صديقا متحمسا لهم. إلا أنه بعد سقوط القاهرة[٧٦] أفرز له الجشع أعداء، واضطر إلى الهروب من الاضطهاد التركي. وقبل أيام قليلة، جاء في طلب الجنرال [الإنجليزي] الذي حصل منه على كل آيات المحاباة والاحترام. لكنه الآن ذهب إلى القاهرة لسوء الحظ. وقد فقد محياه حيويته، وتبدو روحه كسيرة»[٧٧].

ـ فما هي إذن القيمة النوعية للمساهمة الجهادية التي صدرت عن محمد بن الأحرش الذي اشتهر آنذاك بمصر باسم مولاي محمد المغربي؟

قبل الإجابة عن السؤال المركزي، يحسن بنا أن نتعرف على الخطة التي اعتمدها في اجتهاده ضد الفرنسيين.

ثالثاً: خطة مولاي محمد المغربي في تعبئة المجاهدين والانتقال بهم إلى إقليم البحيرة

بادئ ذي بدء، نلاحظ أن خطة مولاي محمد المغربي في مقاومة الغزو الفرنسي لمصر قد استجمعت العناصر الضرورية لتحقيق النجاح المطلوب. فقد حل بمصر في التاريخ المناسب، وبدأ تنفيذ عملياته القتالية من المكان المناسب، ونسق مجهوداته الحربية مع كل الأطراف المعنية بمقاتلة الفرنسيين المحلية منها والإقليمية والدولية؛ بما في ذلك من أهالي ومماليك ومتطوعين وعربان وعثمانيين وإنجليز.

لكن، ما ميز خطته أكثر ومكّنه من جلب المؤيدين والأتباع، وأدخل الرعب والهلع في نفوس السلطات العسكرية الفرنسية، هو، **أولا**، اعتماده المهدوية كعنصر تحريك بامتياز، واتخاذه **ثانيا** رجالا من شمال إفريقيا، ومن المغرب الأقصى منها على الخصوص، نواة أساسية لحركته الجهادية، وإشاعته بين الناس أنه هو ومقاتلوه ليسوا سوى طليعة

---

(٧٦) يقصد عودتها إلى العثمانيين بعد دخولهم إليها.

(٧٧) Wilson, *History of the British Expedition to Egypt; to Which is Subjoined, a Sketch of the Present State of that Country and its Means of Defence*, pp. 69-70.

أو مقدمة لجيش مغربي جرار يتقدم عبر الصحراء نحو مصر.

ففي ما يتعلق بالعنصر الأول، تجمع كل المصادر على أن مولاي محمد المغربي قد ادعى أنه هو «المهدي المنتظر» أو «صاحب الوقت». لذلك، عرف أكثر في الأوساط العسكرية الفرنسية بـ «المهدي الملاك» و«محمد المهدي». فقد جاء في أحد المصادر الموثوقة أن «الملاك المهدي» تقدم بعد نزوله بدرنة نحو مصر، «وأعلن بكل اطمئنان، أنه نزل من السماء لتأدية مهمته»[(٧٨)]. ويؤكد مصدر آخر أن «الملاك المهدي»، أعلن، بعد نزوله بدرنة واتصاله بالقبائل العربية بصحراء برقة، «أن الله كلفه بمهمة القضاء على الفرنسيين الذين يدنسون أرض مصر»[(٧٩)]. وأضاف مصدر آخر أن نزوله هذا من السماء «كان على ظهر فرس يسمى البراق»[(٨٠)]. ورأينا سابقا كيف أورد بيرنويير قصة ظهوره بالصحراء على هذه الكيفية حينما قال: إن عددا من معاونيه حضروا قبله إلى مصر وأوهموا الناس «أنهم رأوا رجلا نزل من السماء، وأنه مرسل من الله للقضاء على الجيش الفرنسي»[(٨١)].

وهذا ما أكدته أيضا المصادر العربية، سواء المصرية منها أو الجزائرية. فقد ذكر الجبرتي أنه «ادعى المهدوية»[(٨٢)]. وقال مسلم بن عبد القادر إنه: «ادعى أنه صاحب الوقت»[(٨٣)]. أما صالح العنتري فقال: «وزعم أنه صاحب الوقت»[(٨٤)]. في حين، أكد صاحب **دليل الحيران** أنه «ادعى أنه الإمام المهدي المنتظر»[(٨٥)].

ولكي يصدق الناس دعواه هذه، ويستجيبوا لدعوته إلى الجهاد، قرن

---

(٧٨) *Victoires, conquêtes, désastres, revers et guerres civiles des Français, de 1792 à 1815*, vol. 10, p. 300.

(٧٩) *Les Français en Égypte, ou Souvenirs des campagnes d'Égypte et de Syrie*, par un officier de l'expédition (le colonel Chalbrand), recueillis et mis en ordre par J.-J.-E. Roy (Tours: Mame, 1857), pp. 202-203.

(٨٠) Gaston Pastre, *Bonaparte en Égypte* (Paris: Editions des Portiques, 1932), p. 198.

(٨١) Bernoyer, *Avec Bonaparte en Égypte et en Syrie, 1798-1800: 19 lettres inédites*, p. 129.

(٨٢) الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار** (دار الجيل)، ج ٢.

(٨٣) ابن عبد القادر، **أنيس الغريب والمسافر في طرائف الحكايات والنوادر أو تاريخ بايات وهران المتأخر**، ص ٦٧.

(٨٤) العنتري، **مجاعات قسنطينة**، ص ٢٩.

(٨٥) الزياني، **دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران**، ص ٢٠٧.

ادعاءه المهدوية بجملة أقوال وممارسات لا يمكن أن تصدر إلا عن رجل غير عادي؛ لأنها تدخل، كما يقال في لغة المتصوفة، في خانة الكرامات وخوارق العادات لايأتيها أو يتأتاها إلا الشيوخ الكبار الواصلين مثل محمد بن الأحرش الذي كان، حسب ما ذكره أحد مترجميه، «من أرباب خوارق العادات وكثرة الكرامات»[٨٦]. وتتألف هذه الكرامات من جانبين: جانب قولي وآخر فعلي.

أما الجانب القولي، فيتلخص، كما رأينا سابقا، في قدرته على إحالة الجنود الفرنسيين «إلى تراب بمجرد النظر إليهم، ووقف قذائف المدافع في الهواء ومنع المدافع من الانطلاق بنفخه أنفاسه صوبها، وتحويل كل ما يمسه إلى تراب. أما الرصاص فلا يؤذيه ولا يؤذي أتباعه، لأن جسده روح خالص. وهو يقتات على غمس أصبعيه في إبريق لبن مرة في اليوم ودعك شفتيه بهما»[٨٧]، حسبما نقله المؤرخ الإنجليزي هيرولد، وتأكد لنا من خلال ما جاء في تقرير للجنرال دوكا إلى بونابرت[٨٨].

أما الجانب الفعلي، والمتمثل في ما زعم من خوارق وكرامات، فيكمن أساسا في توزيعه الذهب بسخاء على المؤيدين والأتباع، خاصة منهم الذين التحقوا به منذ البدايات الأولى، زاعما أن هذا الذهب يأتيهم مباشرة من السماء. ولكي يقنعهم بعدم قدرة رصاص الفرنسيين على إذاية جسده، وقدرته هو على إبطال مفعول أسلحتهم، «كان يركب، كما قال أحد الضباط الفرنسيين ممن عاينوا هذه الواقعة، فرسا أسود، ويركض، وهو مجرد تماما من الملابس، قبالة جنودنا، ثم يرميهم بحفنات من التراب، زاعما أن هذا التراب يرجع الرصاص والقذائف إلى مصادرهما». ثم أضاف: «وبما أن الحظ شاء أن لا يمسه شيء من رصاص الفرنسيين، فإنه أصبح يعتبر في أعين الناس، فعلا معصوما»[٨٩].

---

(٨٦) ابن القاضي، «النور القوي في ذكر شيخنا عبد الواحد الدباغ وشيخه مولاي العربي الدرقاوي،» ورقة ٤٧/أ.

(٨٧) هيرولد، **بونابرت في مصر**، ص ٣٢٩ - ٣٣٠.

(٨٨) Le Caire, Dugua à Napoléon, 11 floréal an 7 (30 avril 1799), dans: La Jonquière, *L'Expédition d'Egypte*, vol. 5, p. 73.

(٨٩) Pastre, *Bonaparte en Égypte*, p. 198.

ليس بإمكاننا تقدير درجة الصحة والافتراء أو الكذب في ما نقل عن مولاي محمد من «كرامات» و«خوارق». إلا أننا نستطيع القول إن استخدامه لهذه الحيل، وادعاءه المهدوية، كان من شأنه أن يدفع كثيرا من الناس إلى الاعتقاد في مزاعمه والانضمام إليه بإخلاص في حربه ضد الفرنسيين. ذلك، لأن المهدوية، باعتبارها فكرة قديمة ومتجذرة في وجدان وثقافة الشعوب الإسلامية، كانت ـ ولا تزال ـ تمتلك قوة تحريكية عالية. كما أن حالة الذهول التي سيطرت على المسلمين عامة من جراء هذا العدوان الشرس والمفاجئ من طرف دولة كانت تصنف عندهم، إلى ذلك الحين، ضمن بلاد الكفر والحرب، قد وفرت حالة مثالية لظهور مخلص أو منقذ من صنف محمد المهدي، يملك سر إحالة هؤلاء الأعداء إلى تراب بمجرد النظر إليهم، ويوقف قذائفهم في الهواء، بل ويحيل بارودهم إلى ماء، ويمنع مدافعهم التي زرعت الرعب في نفوس المقاومين، من الانطلاق[(٩٠)].

وفعلا، فإن هذه الوصفة السحرية ستعطي أكلها على أحسن وجه؛ حيث سيتحول الحاج محمد بن الأحرش الذي اشتهر بمصر بمولاي محمد المغربي، في ظرف وجيز، إلى زعيم كبير تلتف حول شخصه جموع غفيرة من المغاربة والعربان وأهالي القرى والمدن المصرية والمماليك ورجال الشريف حسن، ليقود على رأس هذا التجمع الضخم، أكبر حركة جهادية عرفها إقليم البحيرة والوجه البحري بصفة عامة. فقد قدّرت أحد المصادر الفرنسية عدد الذين قاتلوا تحت قيادته في إحدى المعارك بين عشرين ألفا وخمسة وعشرين ألف رجل[(٩١)]. وهذا رقم يدل

---

(٩٠) للإلمام أكثر بخصوصية الدور الذي لعبته المهدوية في تاريخ الشعوب الإسلامية والمغرب منها على الخصوص، انظر: عبد الله حمودي، «المهدوية كإديولوجية سياسية بالمغرب،» **المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي**، العدد ٣ (حزيران/ يونيو ١٩٨٧)، ص ٥٤ ـ ٦٢؛ محمد حواش، «قراءة في وثيقة مغربية حول أحمد باشا الجزار «المهدي المنتظر»،» **مجلة كلية الآداب** (بني ملال)، العدد ٢ (١٩٩٧)، ص ٦١ ـ ٧٣، وهاشم العلوي، «حركة المهدوية في الغرب الإسلامي، ٨٦٥م ـ ١٦٤٠م،» **مجلة كلية الآداب** (فاس ظهر المهراز)، العدد ١٠ (١٩٨٩)، ص ١٧٧ ـ ١٨٧.

(٩١) Rahmanieh, lettre de Lucien Lefebvre (général) à Dugua, 15 floréal an 7 (4 mai 1799), dans: La Jonquière, *L'Expédition d'Egypte*, vol. 5, p. 70.

على مدى النفوذ والشعبية اللتين حظي بهما هذا المجاهد المغربي في بلد إسلامي يبعد عن موطنه الأصلي آلاف الكيلومترات.

إضافة إلى هذا، تجدر الإشارة إلى أن مولاي محمد المغربي كان يستند في حركته هذه إلى عصبية قوية من المقاتلين ربطتهم به أواصر الانتماء الوطني والإقليمي وربما الانتماء أيضا إلى إحدى الطرق الصوفية الأكثر حيوية ونشاطا في تلك الفترة، ألا وهي الطريقة الدرقاوية التي كان يعتبر أحد شيوخها المشهورين. كل هذا هيأ لحركته انطلاقة موفقة منذ البداية، وأمن لها حماية قوية، ومكنها من الاستمرار لأطول مدة ممكنة بعد أن تخلى عنه الأهالي بسبب إرهاب الجنود الفرنسيين، وخبا صوت المماليك ورجال الشيخ محمد الجيلاني، أو ما عرف بـ «متطوعة الحجاز».

ففي ما يخص النقطة الأولى المتعلقة بكيفية دخوله التراب المصري، تجمع المصادر على أن مولاي محمد المغربي لم يقتحم الحدود المصرية بمفرده، وإنما فعل ذلك بعد أن «جمع إليه أناسا من المغاربة وأهل الواسطة»[٩٢]، أو كما قال صاحب **تحفة الزائر**، بعد أن «جمع (...) جيشا من أعراب المغربين وإفريقية»[٩٣]. وإذا كانت المصادر الجزائرية قد وقفت في روايتها عند هذا المستوى من التعميم، فإن نظيرتها الفرنسية قد أوردت تفاصيل تستحق الذكر. فهي تكاد تجمع على أن النواة الأساسية التي انطلق بها مولاي محمد المغربي نحو مصر تألفت أساسا من بضع مئات من حجاج المغرب الأقصى. فقد كتب الجنرال دوكًا الذي اعتبر مولاي محمد أحد الأولياء المشهورين بصحراء برقة، إن الملاك المهدي كوّن حراسه من مائة وعشرين مقاتلا من قبيلته. وعندما حل بالواحة الكبرى التقى بمحض الصدفة بقافلة مؤلفة من مائتي رجل من فاس. وبعد أن ألهبهم بخطاباته، وضعوا أنفسهم تحت إمرته، وكانوا جيدي التسليح، ويتوفرون على عدد كبير من الجمال. آنذاك فقط

---

(٩٢) **مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر، ١١٦٨ ـ ١٢٤٦هـ/ ١٧٥٤ ـ ١٨٣٠م**، تحقيق أحمد توفيق المدني، ذخائر المغرب العربي، ط ٢ (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٨٠)، ص ٨٦.

(٩٣) ابن عبد القادر الجزائري، **تحفة الزائر في أخبار الجزائر والأمير عبد القادر**، ص ٥.

عبر مولاي محمد الصحراء متجها نحو إقليم البحيرة[٩٤]. أما فيفون دينون الذي استقى روايته من أحد الحجاج المغاربة، فقال إن هذا الأخير رأى مولاي محمد المغربي «وهو يقود [نحو مصر] مائتي مغربي (Mougrebins)»[٩٥]. نفس الرواية أكدها الجنرال بيرتيه[٩٦] والجنرال دوجيرو[٩٧]. أما ديزيري دو لاكروا (Désiré de Lacroix)، الذي يعتبر مصدرا متأخرا، فأكد نفس المعلومات التي أوردها الجنرال تيبودو. لكنه أضاف أن عدد أفراد القافلة الفاسية التي انضمت إليه بالواحة الكبرى، بلغ أربعمائة رجل[٩٨].

إضافة إلى كل هذا، وجب علينا التنبيه إلى أن الجيش الذي كوّنه محمد بن الأحرش قبل اقتحامه الحدود المصرية لم يقتصر على قافلة الحجاج الفاسية الجيدة التسليح، بل تألف أيضا من باقي بلدان شمال إفريقيا. ذلك، أنه إضافة إلى المعلومات التي تضمنتها المصادر الجزائرية آنفة الذكر، تؤكد لنا عدة مصادر فرنسية أن قبائل صحراء برقة قد انضموا إليه[٩٩]. كما أشار قائد الكتيبة المتنقلة لمحلة أبو علي في إحدى رسائله إلى أن سكان إقليم البحيرة أكدوا له أن مولاي محمد المغربي نفذ أول هجوم له على حامية دمنهور، صحبه أربعة ألف إفريقي من الجزائر أو تونس[١٠٠]. قد يبدو هذا الرقم الأخير مبالغا فيه، وربما أمكن تفسيره بانضمام بعض القبائل العربية ذات الأصول المغاربية، التي كانت تتنقل بين مصر وليبيا؛ مثل أولاد علي الذين حل بهم مولاي محمد ضيفا منذ نزوله بالقطر المصري، وكذا قبيلتي الهنادي والفواهيد.

---

(٩٤) Thibaudeau, *Histoire de la campagne d'Egypte*, pp. 251-252.

(٩٥) Denon, *Voyage dans la Basse et la Haute Egypte*, p. 313.

(٩٦) Alexandre Berthier, *Relation des campagnes du général Bonaparte en Egypte et en Syrie* (Paris: De l'impr. de P. Didot l'aîné, an VIII, 1800), p. 99.

(٩٧) Doguereau, dans: *Journal de l'Expédition d'Egypte* (1904), p. 265.

(٩٨) Désiré Lacroix, *Bonaparte en Egypte, 1798-1801* (Paris: Garnier, 1899), p. 351.

(٩٩) *Victoires, conquêtes, désastres, revers et guerres civiles des Français, de 1792 à 1815*, vol. 10, p. 300.

(١٠٠) Bourbel à Fugière, 7 floréal an 7 (26 avril 1799), dans: La Jonquière, *L'Expédition d'Egypte*, vol. 5, p. 75, marge no. 1.

وكيفما كان الأمر، تمكن الحاج سيدي محمد بن الأحرش الذي يبدو أنه كان يتمتع بشهرة واسعة في بلدان شمال إفريقيا، بعد أن أشهر سلاح المهدوية، من تجييش بضع مئات، إن لم يكن آلاف من المجاهدين من المغرب والجزائر وتونس وليبيا، وتوجه بهم إلى إقليم البحيرة بمصر لمنازلة جيش الحملة الفرنسية.

ومما لاشك فيه، سيكون لهذا التماسك الوطني والإقليمي الذي ميز جيش محمد بن الأحرش الذي سيشتهر بعد قليل باسم مولاي محمد المغربي، أثر كبير على أداء ومستقبل حركته الجهادية بهذا القطر الإسلامي الشقيق؛ إذ سيتمكن بواسطته من إرغام الجنود الفرنسيين على التسليم بالهزيمة في أكثر من معركة، وجذب ما تبقى من جند المماليك ورجال الشيخ محمد الجيلاني من مصر العليا، وإرغام نابليون على رفع حصاره عن عكا والعودة على وجه الاستعجال إلى مصر لمكافحة هذه الحركة الجهادية التي باتت تهدد مشروعه الاستعماري.

إضافة إلى هذا، نود القول إن التجاوب الواسع الذي قوبلت به دعوة مولاي محمد بن الأحرش قبل وبعد دخوله مصر، لا يمكن ربطه فقط بادعائه المهدوية ودعوته إلى مقاتلة «الكفار» بعد استباحتهم لواحدة من البلدان الإسلامية الأكثر قربا من وجدان المغاربة، أو علاقات الانتماء الوطني والإقليمي الذي كانت توجد بين أتباعه ومؤيديه، بل وجب أن نضيف إلى هذا، أن زعيم هذه الحركة الجهادية الذي «كان من أرباب خوارق العادات وكثرة الكرامات»، كان يتحرك ضمن خريطة بشرية وسياسية معروفة لديه منذ أن كان يقود ركب حجاج الشرفاء المغاربة. كما أن معرفته بهذه الخريطة لم تنحصر في إلمامه بأسماء القبائل والقوى السياسية الممتدة على طول هذا المحور الحجي، بل كانت تبدو له في صورة شبكة متراصة من الأتباع المخلصين الذين تربطهم به علاقات أقوى تتجاوز بكثير حدود الانتماء للوطن الواحد أو الإقليم الواحد. أقصد بذلك الانتشار الكثيف الذي كانت تعرفه آنذاك الطريقة الدرقاوية على طول هذا الخط الذي كانت تعبره قوافل الحجاج والتجار وطلاب العلم، والذي سيتحول بهذه المناسبة إلى مجال خصب لتعبئة المجاهدين من أجل تحرير مصر والشام من الاحتلال الفرنسي.

فقد ذكر ابن القاضي في ترجمة شيخه مولاي عبد الواحد الدباغ، أنه قد سمع «بعض الفقراء يحكي عن بعض أرباب الهندسة منهم، أنه قدر في حياة الشيخ [مولاي العربي الدرقاوي]، ما يزيد على مائة ألف مريد كانت تتبعه. وهذا لا يبعد باعتبار أتباع أصحابه الذين تقدم ذكرهم»(١٠١). ثم أضاف، مبينا طبيعة الامتداد الجغرافي لهؤلاء الأتباع: «سمعت من شيخنا مولاي عبد الواحد الدباغ يقول سمع مولاي العربي [الدرقاوي]، يقول: «لا زال الفقير يمشي من هنا [من المغرب] إلى بلاد المشرق وهو يبيت عند إخوانه في الله حتى يصل إلى الحرمين الشريفين، فيجد هناك إخوانه أيضا. وقد رأينا ذلك عيانا»(١٠٢).

أما صاحب **نزهة الأبصار**، الذي يعتبر مصدرا متأخرا، فيزوّدنا ببعض التفاصيل المهمة حول هذا الانتشار الذي كانت تعرفه الطريقة الدرقاوية، فيقول ملخصا كلامه في هذا الموضوع: «وحاصله أن طريقة مولاي العربي الدرقاوي، انتشرت في المعمور شرقا وغربا قبلة وجوفا حتى إنها كادت تنسخ الطرق التي قبلها. فلا ترى في واسطة المغرب سوى الدرقاوي (. . .). وامتدت هذه الطريقة إلى أن جاوزت الحرمين الشريفين. فقد كان بمصر الشيخ الشعبيني تلميذا لمولاي العربي الدرقاوي بواسطة سيدي محمد المدني المستوطن بزاويته بين تونس وطرابلس، ونشر هذه الطريقة في معمور الحاضرتين تلا وسحرا. ولا زالت هذه الطائفة أمرها في ازدياد وسيرها في استعداد قوي الإمداد. فلم يمت شيخها حتى ترك أقطابا وأوتادا وأبدالا وأفرادا»(١٠٣).

وحتى لا نذهب بعيدا، كفانا دليلا على قوة انتشار هذه الطريقة في هذا التاريخ الذي تحرك فيه مولاي محمد المغربي في اتجاه مصر، ما قام به هو أولا ثم تلميذه عبد القادر بن الشريف من ثورة في شرق الجزائر وغربها ضد الحكم التركي، وما لقيته هذه الثورة من استجابة

---

(١٠١) ابن القاضي، «النور القوي في ذكر شيخنا عبد الواحد الدباغ وشيخه مولاي العربي الدرقاوي،» ورقة ٥٠/أ.

(١٠٢) المصدر نفسه.

(١٠٣) العربي المشرفي، «نزهة الأبصار لذوي المعرفة والاستبصار،» (مخ.خ.ع.، الرباط، ك.٥٧٩)، ص ١٢٥.

واسعة لدى مختلف القبائل بهذه الإيالة العثمانية[١٠٤]، ناهيك عما كانت تتمتع به هذه الطريقة من نفوذ في موطنها الأصلي بالمغرب الأقصى.

ومما لاشك فيه، سيوفر هذا المقوم الروحي المؤسس على الانتماء الصوفي الحركي للشيخ محمد بن الأحرش، أتباعا مخلصين، كما سيضفي على حركته جوا طقوسيا خاصا سمته الخضوع الطوعي والانضباط الصارم لشيخ اشتهر في موطنه الأصلي «بخوارق العادات وكثرة الكرامات»، وتحول الآن بمناسبة هذا الحدث الجلل الذي زلزل المسلمين مشرقا ومغربا إلى «المهدي المنتظر» الذي يقود أتباعه وغيرهم من المسلمين للجهاد ضد «حملة الصليب الذين دنسوا بشركهم وكفرهم أرض الكنانة». فإذا أضفنا هذا العنصر إلى قائمة العناصر الأخرى التي أسلفنا، أدركنا أسباب النجاح الذي لاقته حركته بمصر، وفهمنا سر استمرارها رغم العنف الذي سلط عليها من قبل جيش الشرق والخلافات إن لم نقل العداء الذي ذب بينه وبين الأهالي الذين أرهبهم سلاح العدو وكذا السلطات العسكرية العثمانية التي لم تكن دائما على تفاهم تام معه.

قبل أن نختم هذه النقطة المتعلقة بالأسباب والوسائل التي اعتمدها محمد بن الأحرش في حركته الجهادية بمصر، تجدر الإشارة إلى أنه أضاف إلى خطته تلك عنصرا آخر لا يقل أهمية وخطورة عن العناصر التي أسلفنا. أقصد بذلك حرب الإشاعة التي استخدمها هو واتباعه، بحنكة ودهاء. ذلك، أنه بمجرد دخوله التراب المصري، أخذ هو ورجاله يشيعون في الناس أنهم لا يمثلون سوى جزء يسير من جيش مغربي جرار يتقدم عبر الصحراء نحو مصر لاستخلاصها من الفرنسيين.

وقد أعطت هذه الخطة أكلها على الوجه الأكمل حينما أوقعت السلطات العسكرية الفرنسية في حالة من الارتباك والذهول؛ فتعطلت لدى الكثير من قادتها حرية التحرك واتخاذ القرارات المناسبة. في حين شجعت حرب الإشاعة هذه الأهالي على الانضمام بوثيرة متزايدة إلى

---

(١٠٤) للإلمام بحيثيات وتفاصيلها الثورة التي قادها هذان الزعيمان، انظر: الغالي الغربي، «الثورات الشعبية في الجزائر أثناء العهد التركي (١٧٩٢ ـ ١٨٣٠)،» (رسالة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الحديث، جامعة دمشق، كلية الآداب، ١٩٨٤ ـ ١٩٨٥)، و Lacroix, *Les Derkaoua d'hier et d'aujourd'hui: Essai historique.*

صفوف «جيش الإنقاذ» هذا الذي حضر على حين غرة بين ظهرانيهم في تلك اللحظات العصيبة. وهذا ما تؤكده مختلف المراسلات المتبادلة بين السلطات الفرنسية العليا. هكذا، نجد قائد الإسكندرية، الجنرال مارمون (Marmont)، يوجه رسالة إلى نابليون الموجود ساعتها بالشام، يحيطه فيها علما بالمذبحة التي أوقعها مولاي محمد المغربي ورجاله بجنود الحامية الفرنسية بدمنهور، وكذا الصعوبة التي يجدها هو وجنوده في قمع هذه الحركة، ثم قال: «إنه غير قادر على مبارحة موقعه بالإسكندرية، بسبب ما راج من أخبار عن اقتراب جيش مغربي (une armée de maugrabins)». وأرفق كلامه بملاحظة تفيد أن «هذه الأخبار متطابقة في ما بينها، وما فتئت تتأكد يوما بعد يوم»(١٠٥). ثم أضاف في مكان آخر من هذه الرسالة، أن هذه الأخبار شاعت مباشرة بعد دخول ثمانين نفرا من المغاربة (Maugrabins) إلى قبيلة أولاد علي، قبل عشرة أيام(١٠٦). وهذا معناه، أنه قبل أن ينفذ مولاي محمد المغربي أول عملية له في دمنهور ليلة الخامس والعشرين من شهر نيسان/ أبريل سنة ١٧٩٩م، أشاع في الناس، إن بطريق مباشر أو غير مباشر، قدوم هذا الجيش المغربي المزعوم.

أما الرائد لوسيان لوفيفر (Lucien Lefebvre)، الذي كان أول من تصدى لمواجهة مولاي محمد المغربي المتحصن بدمنهور ومنيت محاولته تلك بالفشل، واضطر إثر ذلك إلى مغادرة ساحة المعركة، فقد وجه رسالة إلى حاكم القاهرة الجنرال دوكًا، يقول له فيها إن إقليمي رشيد والبحيرة مهددين بشكل جدي. لذلك، فهو يطلب أن ترسل إليهما النجدات الأكثر قوة ونجاعة. ثم أضاف أن الجنرال مارمون، حاكم الإسكندرية، لا يستطيع خفض قواته لأنه هو بدوره مهدد بوصول جيش إفريقي(١٠٧).

ومما يؤكد أكثر قوة وخطورة حرب الإشاعة هذه التي اعتمدها مولاي محمد، استمرار شبح هذا الجيش المغربي الجرار ينيخ بكلكله

---

(١٠٥) Alexandrie, Marmont à Napoléon, 11 floréal an 7 (30 avril 1799), dans: La Jonquière, *L'Expédition d'Egypte*, vol.5, pp. 67-68.

(١٠٦) Ibid.

(١٠٧) Rahmanieh, Lefèvre à Dugua, 15 floréal an 7 (4 mai 1799), dans: La Jonquière, Ibid., vol. 5, p. 70.

على مخيلة جيش الشرق وإدارته العليا طيلة المدة التي استغرقتها الحملة مع ما رافق ذلك من تشوش وارتباك.

قبل هذا وذاك، يبقى السبب الرئيس وراء التعبئة الواسعة التي حققها محمد بن الأحرش في صفوف المجاهدين، بمختلف انتماءاتهم، كامنا في عدالة قضيته التي ارتبطت منذ البداية برفع راية الجهاد ضد عدوان من هذا القبيل على بلد إسلامي مثل مصر. إلا أن تقمصه لشخصية «المهدي المنتظر»، واستناده إلى عصبية وطنية وإقليمية قوية وتنسيق عملياته مع مختلف القوى المحلية والدولية المناهضة لهذا العدوان واستخدامه لحرب الإشاعة على أوسع نطاق، كل ذلك منحه قوة إضافية كان لها أثر بالغ في إحرازه ذلك النجاح.

الآن وقد تعرفنا على الهوية الحقيقية لهذا المجاهد اسما ووطنا وموطنا، وكذا الأسباب التي دعته للقيام بعمله ذاك ثم الكيفية التي دخل بها أرض مصر، ننتقل إلى التعريف بمساهمته الجهادية ضد قوات الحملة الفرنسية بمصر.

رابعاً: مشاركة مولاي محمد المغربي في ثورات الوجه البحري وثورة القاهرة الثانية

حتى يتسنى لنا التعريف بمشاركة مولاي محمد المغربي في مقاومة الغزو الفرنسي لمصر، ينبغي، في نظرنا، التوقف مليا عند أهم فصول حركة المقاومة والجهاد التي قاد أطوارها في إقليم البحيرة وثورة القاهرة الثانية، قصد رصد واستجلاء آثارها على الحملة كمواجهة عسكرية ومشروع استعماري. أي أننا سنحاول، انطلاقا من الأحداث والوقائع المؤكدة، تبين المكانة التي احتلتها مساهمة محمد بن الأحرش القتالية ضمن المواجهة العامة التي قوبلت بها هذه الحملة من حيث هي عدوان عسكري، وعلى مستوى النتيجة النهائية التي آلت إليها هذه الحملة كمخطط استعماري كان يستهدف مجالا جغرافيا يتجاوز حدود مصر والشام بكثير.

اشتهر مولاي محمد المغربي بقيادة ثورة إقليم البحيرة. إلا أن

مشاركته في ثورة القاهرة الثانية، ومساهمته الفعالة في لمّ صفوف المقاومة، لا يقل أهمية عن ذلك. لهذا، ستتمحور معالجتنا لهذا المبحث على هذين الجانبين.

١ ـ قيادة مولاي محمد المغربي لثورة إقليم البحيرة

دشن محمد بن الأحرش، أو من اشتهر في مصر بمولاي محمد المغربي، دخوله إلى إقليم البحيرة بتنفيذ هجوم مباغث على حامية دمنهور ليلة الخامس والعشرين من شهر نيسان/أبريل سنة ١٧٩٩م، فقتل أفرادها المكونين من مائة وسبعة عشر جنديا فرنسيا. وكانت هذه الضربة المفاجئة والموجعة هي المناسبة الأولى التي قدّم بها من سيعرف في الكتابات الفرنسية بـ «مولاي محمد المغربي» أو «الملاك المهدي»، نفسه إلى جيش الشرق الذي لا يقهر.

ومما يجدر ذكره، أن السلطات العسكرية الفرنسية، وعلى رأسها حاكم القاهرة والمسؤول الأول عن إدارة إقليم البحيرة الجنرال دوكَا، كانت على علم تام ومسبق بوجود مولاي محمد المغربي، وأحيطت علما في الوقت المناسب بأدق تفاصيل العملية التي سينفذها ضد حامية دمنهور. لكنها لم تعر هذه التهديدات الاهتمام اللازم، بل اعتبرت ذلك مجرد ادعاءات عارية من الصحة سرعان ما سيبطلها رصاص الجنود الفرنسيين. وهكذا، نجد الجنرال دوكَا الذي لم يكن قد توصل بعد بأخبار المذبحة التي حصلت بدمنهور، يوجه رسالة إلى نابليون الموجود ساعتها بالشام يقول له فيها: إن مهرجا من شمال إفريقيا (un jongleur barbaresque) حل بقبيلة أولاد علي الموجودة بمريوط، متقمصا صفة جنرال، ومدّعيا أنه يملك سر إحالة كل ما تمسه يداه إلى ذهب، وإبطال مفعول الرصاص والقذائف التي توجه ضده أو ضد أتباعه ويوقفها في الهواء. ثم أردف قائلا إن الطلقات الأولى للبنادق ستكشف لأتباعه بطلان هذه الادعاءات. وقبل أن ينهي كلامه قال إن أحد مخبريه، وهو المستعرب ماركو كلفاجي (Marco Calavagi) الذي زوّده بهذه المعلومات، أخبره أيضا أن الحديث جاري حول محاولة تحاك من طرف أولاد علي ضد حامية دمنهور، وأنها ستنفذ يوم الخامس والعشرين من الشهر الجاري، أي نيسان/أبريل.

ثم أضاف أن ماركو كلفاجي، مقتنع بأن ذلك مجرد خدعة(١٠٨).

وفي الوقت الذي كان فيه الجنرال دوكَا يخط هذه الرسالة مستكينا هو ومخبره إلى تفوقهما العسكري، ومستهينا بما كان يصدر عن هذا «المشعوذ البربري»، كان الجنرال مارمون، حاكم الإسكندرية، يخبره بما حل بحامية دمنهور، مؤكدا له أنه نهار اليوم الذي وقعت فيه المجزرة الجماعية حذر شيخ دمنهور قائد الحامية الفرنسية بها القبطان مارتان، ثلاث، مرات ناصحا إياه باتخاذ الاحتياطات اللازمة، لكنه أهمل ذلك واستهان به(١٠٩).

وهكذا، يتأكد لنا أن الهجوم الذي نفّذه مولاي محمد المغربي ضد حامية دمنهور لم يكن خافيا على أحد. لكن السلطات العسكرية الفرنسية لم تكن تنتظر أن يتجرأ على المساس بكبريائها وجبروتها رجل كانت تحسبه مشعوذا، في وقت كانت تؤكد فيه جميع التقارير العسكرية هدوء المنطقة وخضوعها التام لسلطان جيش الشرق، إلا أن ما وقع في دمنهور كشف القناع عما كان يعتمل في نفوس الأهالي من رفض صميم لواقع الاحتلال الذي قبلوا به ظاهريا تحت طائلة التهديد والإرهاب. كما كشف لهم، من ناحية ثانية، أن مقاومة هذا الغزو ليست محصورة بالضرورة في أهل هذا البلد المستهدف حتى إذا سلم بالأمر الواقع ظن الغزاة أن حبل المقاومة والجهاد قد انقطع بالكلية، بل أكد لهم أن مقاومة هذا الاحتلال والاستماتة فيها قد تتأتى من أي جهة من جهات العالم الإسلامي البعيدة منها والقريبة. وهذا ما حصل فعلا في ليلة الخامس والعشرين من شهر نيسان/ أبريل.

وغني عن القول، إن حدثا مثل هذا سيقلب المعادلة الأمنية والعسكرية الفرنسية رأسا على عقب؛ لأنه أسفر عن إبادة حامية بكاملها، والاستيلاء على أسلحتها الخفيفة والثقيلة، وتزامن مع نزول المماليك ومتطوعة الحجاز من مصر العليا وتنفيذهم هجومات مماثلة في نفس

---

(١٠٨) Le Caire, Dugua à Napoléon, 11 floréal an 7 (30 avril 1799), dans: La Jonquière, Ibid., vol. 5, p. 73.

(١٠٩) Alexandrie, Marmont à Dugua, 11 floréal an 7 (30 avril 1799), dans: La Jonquière, Ibid., vol. 5, p. 67.

التاريخ ونفس المنطقة، كما ترافق مع تردد أخبار قوية عن تقدم جيش مغربي جرار عبر الصحراء في وقت كان فيه الأسطول الإنجليزي يحاول الاتصال بالمقاومين من جهة البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر، ونابليون غارق في مغامرته العسكرية وسط عساكر أحمد باشا الجزار بفلسطين. بهذه الكيفية، ستقرأ السلطات العسكرية الفرنسية تفاصيل ما حدث في دمنهور التي استخلصها الآن محمد بن الأحرش، أو من كان يعرف في الكتابات الفرنسية بمولاي محمد المغربي، لنفسه وتحولت إلى قلعة للجهاد.

لذلك، سوف لن تتوانى هذه السلطات، على اختلاف مراتبها ومراكزها بدءا من أقاليم الوجه البحري إلى مصر العليا، في التصدي بحزم وقوة لهذه الشعلة الجهادية التي انطلقت من دمنهور، مستخدمين في ذلك كل ما أوتيت آلتهم العسكرية من عدة وعتاد وخبرة في إرهاب الأهالي وقطع دابر الثوار والمجاهدين. فبمجرد ما تناقل القادة الميدانيون أخبار ما جرى، تقاطر الجنود الفرنسيون إلى هذه المدينة.

وكان أول من تصدى لهذا التجمع الكبير الذي أصبح مركزه مدينة دمنهور، هو الرائد لوفيفر الذي كان يقوم بجمع الضرائب بهذه المنطقة. فتقابل الجمعان في مكان قريب من دمنهور يدعى سنهور، ودارت هناك رحى معركة شرسة بين الطرفين، كانت فيها الدائرة على الجنود الفرنسيين بسبب النار الكثيفة التي سلطت عليهم من قبل جيش محمد بن الأحرش الذي قدّره هذا الضابط الفرنسي ما بين عشرين وخمسة وعشرين ألفا؛ منهم حوالى ثلاثة آلاف فارس، مما اضطره، بعد قتال دام سبع ساعات، قُتِلَ خلاله خمسة من جنوده وجرح ثمانية وثلاثون، إلى اللجوء إلى مدينة الرحمانية والتحصن داخل برجها[١١٠]. وقبل هذا، كان مولاي محمد المغربي قد هزم كتيبة أرسلها الجنرال مارمون من الإسكندرية لإسناد الرائد لوفيفر، بعد معركة دامت خمس ساعات[١١١].

(١١٠) El Rahmanieh, Lefebvre à Dugua, 15 floréal an 7 (4 mai 1799), dans: La Jonquière, Ibid., vol. 5, p. 7.

(١١١) *Victoires, conquêtes, désastres, revers et guerres civiles des Français, de 1792 à 1815,* vol. 10, p. 302.

بعد خوض مولاي محمد المغربي هذه المعارك المظفرة ضد قوات الحملة، سيضطر إلى الانسحاب من دمنهور إثر الهجوم الذي تعرضت له هذه المدينة في التاسع من ماي (أيار/ مايو) بقيادة الجنرال لانوس (Lanusse)[١١٢]. ورغم هذه الهزيمة التي حلت بمقاتلي مولاي محمد المغربي وما رافقها من استباحة لمدينة دمنهور وإخضاع أهلها لأشد أنواع النهب والقتل، وكذا الانتقام الشديد الذي تعرض له سكان الأقاليم المجاورة مثل المنوفية والغربية بدعوى مشاركتهم في هذه الثورة، فإن حركة المقاومة التي أوقد فتيلها منذ أواخر نيسان/ أبريل، لم تنطفئ شعلتها، بل استمرت قائمة إلى بداية شهر حزيران/ يونيو.

خلال هذه المدة التي قاربت الشهر، نقل مولاي محمد مسرح عملياته إلى الأقاليم المجاورة، ونجح في ربط الاتصال وتنسيق عملياته القتالية، خاصة الهجومية منها، مع المماليك ورجال الشريف حسن الذين جاءوا من مصر العليا خصيصا لتحقيق هذا الغرض، إضافة إلى بعض القبائل الشديدة الاتصال بمولاي محمد، مثل أولاد علي. فقد ذكر الرائد لوفيفر، في أحد رسائله إلى الجنرال دوكًا في ١٥ أيار/ مايو ١٧٩٩، أنه توصل بمعلومات تفيد أن المماليك، وعددهم ما بين خمسمائة وستمائة، ومعهم عدد كبير من القبائل العربية، قد انضموا إلى المغاربة (Les Maugrabins) وزعيمهم مولاي محمد، وأن مراد بك يحاول بدوره الاتصال بهم[١١٣].

وبعد مدة طويلة من هذا التاريخ، أكد مصدر آخر أن مولاي محمد المغربي قد أصبح على رأس جيش لا يقل عن أربعة آلاف مقاتل. فقد

---

(١١٢) أسفر هذا الهجوم عن مواجهة قوية بين الطرفين، اضطر بعدها رجال مولاي محمد إلى الانسحاب من دمنهور بعد أن فقدوا في هذه المعركة، حسب تقرير الجنرال لانوس، حوالى ثلاثة مقاتلين، واسترجع منهم المدفع الذي كانوا قد غنموه سابقاً. أما العربان الذين كانوا يقاتلون معهم «فقد لاذوا بالفرار كالجبناء»، وانصب الجزء الأكبر من انتقام الجنود الفرنسيين على سكان المدينة؛ حيث قتلوا منهم حسب هذا التقرير مائتين أو ثلاثمائة رجل وهم في حالة فرار. بعد ذلك، استبيحت المدينة لأقصى أنواع النهب والقتل، وأصبحت أثرا بعد عين. ثم أضاف هذا التقرير، أن ما بين ألف ومائتين إلى ألف وخمسمائة من ساكنتها أحرقوا أو أعدموا رمياً بالرصاص. بعد ذلك، تم الانتقام أيضاً من سكان إقليم المنوفية والغربية بدعوى مشاركتهم في ثورة دمنهور. انظر: El Rahmanieh, Lanusse à Dugua, 21 floréal, an 7 (10 mai 1799), dans: La Jonquière, Ibid., vol. 5, p. 88.

(١١٣) El Rahmanieh, Lefèbvre à Dugua, 23 floréal an 7 (12 mai 1799), dans: La Jonquière, Ibid., vol. 5, p. 89.

ذكر الجنرال فوجيير (Fugière)، في إحدى رسائله، إلى الجنرال دوكَا، أنه أوقف شخصا متنكرا في زي متسول كان قد بعثه زعيم التجمع الموجود بميت القمر للتجسس على الجنود الفرنسيين. فأباح له هذا الشخص بمعلومات تقول إن هذا التجمع يتكون من مائتي مملوك تحت إمرة عدد من البكوات، إضافة إلى أربعة آلاف من المغاربة والعربان ومجموعة من عرب درنة؛ من بينهم خمسمائة فارس، يوجدون كلهم تحت إمرة أحمد المهدي(١١٤).

بفضل هذا الحشد الهائل من المقاتلين سيتمكن مولاي محمد من معاودة الظهور بقوة وينفّذ هجومات مظفرة ضد الجنود الفرنسيين. نذكر من بينها الهجوم الذي تعرض له مركب فرنسي كان على متنه عشرة جنود بين مريض وجريح، وأسفر عن قتيل واحد وأربعة جرحى(١١٥). ثم الهجوم الذي تعرضت له سفينة لاجينواز (La Génoise) بجهة ميت القمر، وأسفر عن قتل ثمانية جنود من بين حراسها الثلاثين. أما ركابها البالغ عددهم اثني عشر فردا، فقد أبيدوا عن آخرهم ذبحا، بمن في ذلك قائد السفينة وثلاثة أتراك كانوا يصحبونهم في هذه الرحلة الاستكشافية. أما السفينة فقد أحرقت بعد أن سحبت منها مدافعها الأربعة(١١٦). وكما نرى، يذكرنا هذا الحادث بما فعله رجال الشيخ محمد الجيلاني المغربي بسفينة «إيطاليا» الشهيرة بإقليم الصعيد.

بعد هذين الهجومين الموفقين تقابل رجال مولاي محمد المغربي ومن معه من المماليك ومتطوعة الحجاز والعربان، مع الجنرال لانوس مرة أخرى في الخامس من شهر حزيران/يونيو، وحسمت المعركة، بعد نصف ساعة، لصالح الفرنسيين(١١٧).

---

(١١٤) Samannoud, Fugière à Dugua, 14 floréal an 7 (de juin 1799), dans: La Jonquière, Ibid., vol. 5, p. 102, marge no. 2.

(١١٥) Sanegre, (commandant de la place de Menouf), à Dugua, 8 prairial an 7 (27 mai 1799), dans: La Jonquière, Ibid., vol. 5, p. 100, marge no. 1.

(١١٦) Zefti, Fugière à Dugua, 18 prairial an 7 (6 juin 1799), dans: La Jonquière, Ibid., vol. 5, p. 105.

(١١٧) El Hagarsch, Lanusse à Dugua, 18 prairial an 7 (6 juin 1799), dans: La Jonquière, Ibid., vol. 5, p. 104.

شكلت هذه المعركة الحاسمة التي أكدت، بما لا يدع مجالا للشك، التفوق الفرنسي، خاتمة المرحلة الأولى من عمر هذه الحركة الجهادية؛ حيث تمكنت القوات الفرنسية من إحكام قبضتها مرة أخرى على أقاليم الوجه البحري. فتشتت فلول المماليك، واضطر الأهالي إلى الخضوع تحت طائلة الإرهاب، وانضم الشريف حسن ورجاله إلى مولاي محمد، واختفى الجميع، مؤقتا، عن مسرح الأحداث بعد أن أنزلوا بجيش الشرق هزائم منكرة وأرغموهم غير مرة على الانسحاب من ميدان المعركة ونفّذوا ضدهم هجومات مظفرة، وأدخلوا إلى صفوفهم حالة من الرعب والهلع لم يعهدوها منذ أن وطئت أقدامهم أقاليم الوجه البحري.

٢ ـ مولاي محمد المغربي يتزعم الجناح الشعبي لثورة القاهرة الثانية

خلافا لما تردد في جل المصادر الفرنسية والعربية، لم يقتل مولاي محمد خلال هذه المعارك بطلقة رصاص أو ضربة مدفع، بل استمر حيا يرزق هو ومن انضم إليه من رجال الشيخ الجيلاني؛ لأنه سيعاود الظهور، مرة أخرى، بقوة بمناسبة ثورة القاهرة الثانية، ليتحول خلالها إلى زعيم شعبي ينطق بلسان حال ساكنة هذه المدينة ومن معهم من العساكر العثمانية والمملوكية.

قبل الانتقال إلى تفصيل القول في هذه النقطة، يحسن بنا تقديم لمحة موجزة عن ثورة القاهرة الثانية. يرتبط قيام هذه الثورة بما حصل من تطورات سياسية وعسكرية مفاجئة مباشرة بعد إبرام اتفاق العريش في ٢٤ كانون الثاني/ يناير ١٨٠٠ الذي كان يقضي بخروج الفرنسيين من مصر وعودتها إلى السيادة العثمانية بضمان من إنجلترا. لكن، بينما كان الفرنسيون يتهيأون لإخلاء القاهرة، صدرت أوامر من الحكومة الإنجليزية إلى ممثليها بالمنطقة، تُعِلمهم بعدم السماح للجنود الفرنسيين بمغادرة مصر، وإرغامهم على تسليم أسلحتهم وعتادهم الحربي ومعاملتهم كأسرى حرب. وعندما أحيط الجنرال كليبر بهذه الأوامر الجديدة بواسطة اللورد كرومر، قائد الأسطول الإنجليزي المرابط بالبحر الأبيض المتوسط، قرر مدافعة جيش الصدر الأعظم العثماني يوسف باشا الذي كان يستعد لدخول القاهرة، بالقوة. وبينما كان الفريقان يتحاربان بجهة المطرية بالضاحية

الشرقية للقاهرة، تسلل إلى هذه الأخيرة جزء من الجيش العثماني بقيادة نصوح باشا وصحبته عدد من القيادات العثمانية والمملوكية المتميزة على رأس عشرة آلاف فارس عثماني وألفين من المماليك وبين ثمانية آلاف وعشرة آلاف مقاتل من أهالي القرى المجاورة.

دخل هؤلاء القواد جميعا وصحبتهم هذه الجموع الغفيرة من المجاهدين القاهرة في ٢٠ آذار/ مارس، وكان في استقبالهم حوالى خمسين ألفا من سكان هذه المدينة، مسلحين بالبنادق والعصي. وفي اليوم نفسه، أعطى نصوح باشا أمره إلى المقاتلين بالهجوم على الأحياء التي كان يوجد بها الفرنسيون والأقباط، موهما الجميع أن الجيش الفرنسي قد انهزم، وأنه أتى لأخذ العاصمة باسم السلطان. هذا، في وقت كان فيه جيش الصدر الأعظم يوشك أن ينهزم في معركة المطرية التي وقعت في نفس اليوم، أمام القوات الفرنسية، لينسحب بعد ذلك إلى الشام تاركا وراءه القاهرة تصطلي بنار الثورة التي سوف لن تزيدها عودة القوات الفرنسية إلا دراما وسعارا[(١١٨)].

وفي الليلة الثانية من هذه الثورة، وقبل عودة القوات الفرنسية التي سوف لن تتحقق قبل مضي أسبوع كامل، «أجمع رأي الكبرا والرؤسا، على الخروج من البلد في تلك الليلة لعجزهم عن المقاومة»[(١١٩)]. والحال، أن مجموع الجنود الفرنسيين الذين كانوا يتولون الدفاع عن القاهرة، لم يكن يتجاوز الألفين. إلا أن قرار الانسحاب هذا سوف لن

---

(١١٨) حول تطورات هذه الثورة، انظر: نص التقرير الذي كتبه الحاكم العام الجنرال كليبر بهذه المناسبة، تحت عنوان: «Rapport fait au gouvernement français sur les événements qui se sont passés an Egypte depuis la conclusion du traité d'El Arich jusqu'à la fin du prairial (an 8),»

(وثائق الحملة، جامعة القاهرة، حافظة رقم (٨٣)).

(١١٩) علق الجبرتي على ذلك، قائلاً: «فلما أظلم الليل، أطلق الفرنساوية المدافع والبمب على البلد من القلاع ووالوا الضرب (. . .) فلما عاين ذلك الجميع، أجمع رأي الكبرا والرؤسا على الخروج من البلد في تلك الليلة لعجزهم عن المقاومة. وعدم آلات الحرب وعزة الأقوات والقلاع بيد الفرنساوية ومصر لا يمكن محاصرتها لاتساعها وكثرة أهلها، وربما طال الحال فلا يجدون الأقوات لأن غالب قوت أهلها، يجلب من قراها في كل يوم. وربما امتنع وصول ذلك إذا تجسمت الفتنة. فاتفقوا على الخروج بالليل». انظر: الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار** (دار الجيل)، ج ٢، ص ٣٢٤.

ينفذ بسبب المعارضة الشديدة التي ووجه بها من طرف السكان.

أما بعدما عاد الجيش الفرنسي إلى القاهرة وأحكم سيطرته عليها وتأكد انهزام جيش الصدر الأعظم في معركة المطرية، فأصبح ديدن القادة العثمانيين والمماليك، هو الخروج من هذه المدينة مهما كلف الثمن. وهو الشيء الذي وافق رغبة الجنرال كليبر بسبب افتقاره إلى ما يكفي من القوات لتنفيذ هجومه. ولتحقيق هذه الرغبة المشتركة استعان الطرفان بشيوخ القاهرة من العلماء الذين كانوا أعضاء في الديوان الخصوصي الذي أنشأه الفرنسيون إلى جانب رؤساء الطوائف والأخطاط. كما استخدموا في هذه الوساطة رجال مراد بك الذي كان قد أبرم معاهدة للصلح مع الجنرال كليبر منذ الخامس من نيسان/ أبريل من هذه السنة. وتوصلوا بفضل ذلك، أكثر من مرة، إلى اتفاق يقضي بإخلاء المدينة من المقاتلين وعودة الفرنسيين إليها. لكن، كلما حصل شيء من ذلك، تصدى له المجاهدون وأحالوه إلى حبر على ورق. فطال، بفضل ذلك عمر الثورة رغم تبرم القادة العثمانيين منها منذ الساعات الأولى ورغبة الفرنسيين الملحة في إنهائها مهما كلف الثمن[١٢٠].

وإذا كانت الرغبة في استمرار هذه الثورة قد شكلت قاسما مشتركا بين جميع سكان القاهرة، وساندهم في ذلك عدد لا بأس به من العساكر العثمانية والمملوكية، فإن أكثر من تشدد في ذلك وسعى له سعيه هو مولاي محمد المغربي الذي أضحى زعيما لجبهة المعارضة هاته، وطبع إيقاع هذه الثورة بطابعه الخاص. ومما لاشك فيه أن الذي هيأه للعب هذا الدور المؤثر هو ما تحصل لديه من خبرة ونفوذ خلال ثورته السالفة الذكر بإقليم البحيرة. إلا أن الذي سيمكنه هذه المرة من تبوّء هذه المكانة المتميزة داخل أحياء القاهرة، و«التصور بصورة الإمارة»، كما

---

(١٢٠) للمزيد من التفصيل حول الملابسات والظروف التي أدت إلى انفجار ثورة القاهرة الثانية وما تخللها من أحداث، انظر: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٢٤، وعبد الرحمن بن حسن الجبرتي، **مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس**، تحقيق ودراسة وتعليق عبد الرزاق عيسى وعماد أحمد هلال، ٢ ج (القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، ١٩٩٨)، ج ٢، ص ٣٧٠ ـ ٣٧١، وAndré Raymond, *Egyptiens et Français au Caire, 1798-1801* (Le Caire: Institut Français d'Archéologie Orientale, 1998), pp. 184-205.

قال الجبرتي[١٢١]، هو عندما «التف عليه جماعة من المغاربة البلدية، وجماعة من أهل الحرمين ممن كان قدم من مكة والمدينة وما والاهما مع الشيخ الجيلاني الذي تقدم ذكره»[١٢٢].

وهكذا، تحقق اللقاء، مرة أخرى، بين رجال الشيخ محمد الجيلاني المغربي ورجال الشيخ محمد بن الأحرش المغربي داخل القاهرة بعد أن حاربوا جميعا في الوجه البحري في السنة الماضية. وتدعم صف هؤلاء المجاهدين المغاربة ومن انضم إليهم من أهل الحرمين، بالمغاربة الذين كانوا يقطنون بالقاهرة ويتمتعون بنفوذ اقتصادي وإداري قويين. فأصبح، بفضل ذلك، مولاي محمد المغربي الذي أعلن صراحة خلال هذه الثورة عدم التزامه بالخط العثماني والمملوكي، يتحرك داخل أحياء القاهرة التي كان يعمرها عدد ممن أسماهم الجبرتي بـ «المغاربة البلدية»، ضمن جبهة جهادية قوية ومتضامنة، يجمع بين أغلب أفرادها الانتماء إلى المغرب بمفهومه الواسع والضيق، وخبرتها الميدانية في مقاتلة الفرنسيين بإقليمي الصعيد والبحيرة وتملك بعض عناصرها مؤهلات مالية واقتصادية قوية. كل هذا، سيؤهل هذه الجبهة على التأثير بقوة، عبر هذا الزعيم المغربي، على أحداث ثورة القاهرة الثانية. هذا، دون أن ننسى التجاوب الواسع الذي لقيته دعوة مولاي محمد المغربي بين سكان القاهرة بمختلف طوائفهم، وكذا جزء من العساكر العثمانية والمملوكية ممن رفضوا الانصياع لأوامر قادتهم حين فضلوا الانسحاب على مقاتلة الفرنسيين.

بهذه الصفة، ووسط هذه الأجواء المستعرة بنار الثورة والجهاد، سيعاود محمد بن الأحرش الظهور على مسرح الأحداث ليؤكد، مرة أخرى، قوة الحضور المغربي في هذه الحملة، وعمق تفاعله مع هذا الحدث العدواني الذي استهدف أرض الكنانة والشام.

ومما تجدر الإشارة إليه، أنه رغم مركزية الدور الذي اضطلع به مولاي محمد المغربي خلال ثورة القاهرة الثانية، ظلت السلطات العليا الفرنسية تجهل وجوده بين الثوار، معتقدة أنه قد قتل في أحد المعارك

(١٢١) الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ج ٢، ص ٣٣٥.

(١٢٢) المصدر نفسه، ص ٣٢٧.

الأخيرة التي خاضها بأقاليم الوجه البحري. لذلك، نجد أرشيف الحملة ومصادرها خالية من أية إشارة إليه ضمن أحداث هذه الثورة. ولم يستثن من ذلك، حسب علمنا، سوى صاحب «التاريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية على مصر» الذي تشكك في وجوده بين ظهراني الثوار[١٢٣].

وهكذا، نجد أن ما أنقذ مساهمة محمد بن الأحرش الجهادية في هذه الثورة من ضياع محقق، هو ما خطته يمين الشيخ عبد الرحمن الجبرتي في مؤلفيه: **مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس وعجائب الآثار في التراجم والأخبار** من أحداث مفصلة حول دوره البطولي في هذه الثورة التي استغرقت حوالى شهر ونصف.

لكن، ما يشوش على القيمة التوثيقية لهذا المصدر الفريد من نوعه في هذه النقطة، هو الكيفية التي تناول بها الدور الذي لعبه مولاي محمد المغربي في أحداث هذه الثورة. فرغم إقرار الجبرتي بكفاءة هذا الرجل القتالية وقدرته على حشد الثوار وإطالة عمر الثورة، اعتبر أن «نيته لم تكن ممحضة للجهاد»، وأن غرضه كان هو «النهب والسلب». ومما زاد من خطورة هذه الاتهامات هو تبنيها من قبل عدد من الدارسين والباحثين المصريين الذين لم يترددوا في استغلالها لإذكاء النزعة الوطنية و«تحرير» التاريخ المصري من «المندسين والدخلاء»، ولو كانوا من العرب والمسلمين مثل مولاي محمد المغربي ورجاله.

لهذه الاعتبارات، وجب التعامل مع ما حواه هذا المصدر من روايات حول مواقف وسلوكات مولاي محمد المغربي خلال هذه الثورة، بحذر شديد، والاجتهاد في تمحيصها على ضوء ما توافر لدينا من معلومات إضافية من مصادر أخرى غير مباشرة.

دشن الجبرتي حديثه عن مولاي محمد المغربي بمناسبة كلامه على القادة العثمانيين والمماليك الذين حضروا إلى القاهرة لمقاتلة الفرنسيين خلال هذه الثورة، فقال: «وحضر أيضا رجل مغربي يقال إنه الذي كان يحارب الفرنسيس بجهة البحيرة سابقا، والتف عليه جماعة من المغاربة

---

(١٢٣) Louis Reybaud, *Histoire scientifique et militaire de l'expédition française en Égypte*, 10 vols. (Paris: [A.-J. Dénain], 1830), vol. 7, p. 414.

البلدية وجماعة من أهل الحرمين ممن كان قدم صحبته من مكة والمدينة وما والاهما مع الشيخ الجيلاني»[١٢٤]. يستفاد من هذه الإشارة الأولى أن أهل الحرمين، أو كما كان يسميهم لطف الله جحاف «متطوعة الحجاز»، ألفوا هم والمغاربة، سواء منهم الذين قدموا مع محمد بن الأحرش الدرعاوي، أو الذين كانوا يقيمون بالقاهرة، جبهة قتالية موحدة لمؤازرة إخوانهم بمصر خلال هذه الثورة.

بفضل هذه الجبهة القتالية التي كان أغلب أفرادها متمرسين على منازلة الجنود الفرنسيين بإقليم الصعيد وأقاليم الوجه البحري، خاض مولاي محمد المغربي حركته الجهادية الثانية، وتحول إلى أحد القادة الرئيسيين لثورة القاهرة الثانية، بل أصبح زعيما للجبهة المعارضة للاستسلام وإبرام الصلح مع الفرنسيين. ذلك، أنه «بعد عشرة أيام من القومة التي أعقبت خروج الفرنسيين وما عقبها من عودة الفريقين إلى القاهرة وهزمهم المقاومين، عاد المفاوضون بشروط أهمها خروج المماليك ومن يحارب معهم، خارج القاهرة. فلم يرض ذلك الناس وصاروا يقولون: هؤلاء المشايخ ارتدوا وعملوا علينا فرنسيس ومرادهم خذلان المسلمين وما إلى ذلك. وتكلم السفلة والغوغاء من أمثال هذا الفضول. وتشدد في ذلك، الرجل المغربي الملتف عليه أخلاط العالم. ونادى من عند نفسه: الصلح منقوض وعليكم بالجهاد ومن تأخر ضربت عنقه»[١٢٥].

هذا النداء التحذيري الذي أطلقه مولاي محمد المغربي وحمله رجاله إلى مختلف أحياء القاهرة، جعل إحدى الشخصيات المصرية المرموقة، وهو الشيخ السادات[١٢٦]، يتحير في أمره قبل أن يهتدي إلى

(١٢٤) الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ج ٢، ص ٣٢٧.

(١٢٥) المصدر نفسه، ص ٣٣٥.

(١٢٦) الشيخ محمد السادات، سليل بيت السادات. تولى خلافة آل السادات ومشيخة سجادتهم. كان نافذ الكلمة قبل الحملة وخلالها وبعد انتهائها. رفض الانضمام إلى الديوان الخصوصي الذي أنشأه نابليون. واتهم من طرف هذا الأخير، بتدبير ثورة القاهرة الأولى. كما لم يتوان الجنرال كليبر في رميه بنفس التهمة في ما يخص ثورة القاهرة الثانية. وسجن بسبب ذلك وضرب مرارا عديدة. توفي سنة ١٢٢٨هـ/ ١٨١٣م. انظر: الرافعي، **تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر**، ج ٢، ص ٢٦٦ ـ ٢٧٣.

وسيلة تُنجيه من هذا الوعيد؛ حيث خرج هو بدوره وأمامه رجل ينادي بالالتزام بالمتاريس. علق الجبرتي على ذلك قائلا: «وكان السادات ببيت الصاوي[١٢٧]، فتحير واحتال بأن خرج وأمامه شخص ينادي بقوله: الزموا المتاريس. وليقي بذلك نفسه العامة. ووافق ذلك أغراض العامة لعدم إدراكهم لعواقب الأمور. فالتفوا عليه، وتعضد كل بالآخر»[١٢٨].

يتبيّن من خلال هذا النص أن مولاي محمد المغربي أصبح، منذ الأسبوع الأول من هذه الثورة، زعيما شعبيا يلتف عليه، حسب لغة الجبرتي، «أخلاط العالم»، ويتصدى لإبطال اتفاق الصلح الذي أبرمه للتو كبار المشايخ مع الحاكم العام لجيش الشرق.

ويفيدنا مصدر آخر، أن الأمر لم يقف عند هذا الحد لأن أعضاء الجماعة التي كانت تقاتل مع مولاي محمد المغربي أو «الباربريسك» كما سماهم هذا المصدر، أخذوا يجوبون مختلف أحياء القاهرة مهددين بالموت كل من تكلم عن الاستسلام، «وهم يذبحون هنا وهناك، بعض الضحايا الأبرياء ليطيلوا عمر النزاعات بواسطة القتل والرعب»[١٢٩]. ثم أضاف أن هذه الوسائل المختلفة حققت لهم هدفهم؛ لأن الإنكشارية الذين كانوا مبدئيا يعملون تحت إمرة القادة العثمانيين والمماليك، رفضوا فتح أبواب المدينة، مما حال دون تنفيذ بنود الصلح وأدى إلى عودة القتال مجددا[١٣٠].

هكذا، أضحى مولاي محمد، منذ الساعات الأولى لهذه الثورة، الموجه الأول لأحداثها والسبب الرئيس في استمرارها إلى التاريخ الذي انتهت إليه. مصداق ذلك ما أكده صاحب هذا المصدر حينما قال: «بفضل تحريض الباربريسك، لم يتوصل أي واحد من أعوان مراد بك

---

(١٢٧) هو الشيخ مصطفى الصاوي، أحد أعضاء الديوان الخصوصي الذي أنشأه نابليون توفي سنة ١٢٢٧هـ/ ١٨١٢م. انظر: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٧٣.

(١٢٨) الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ج ٢، ص ٣٣٥.

(١٢٩) Reybaud, *Histoire scientifique et militaire de l'expédition française en Égypte*, vol. 7, p. 421.

(١٣٠) المصدر نفسه.

[الذي كان يتولى الوساطة بين الطرفين]، إلى تفاهم بين الثوار والفرنسيين»[١٣١]. ثم أضاف، موضحا أسباب هذا الرفض: «هذه المجموعة من الثوار الأكثر تعرضا للانتقام والأكثر شغبا، جعلت كل المفاوضات عقيمة وغير مجدية»[١٣٢].

وفعلا، كان هذا هو مصير الاتفاقات المختلفة التي توصل إليها الطرفان، الفرنسي والعثماني في ما بعد. وبقي الأمر كذلك حتى اللحظات الأخيرة من عمر هذه الثورة. وذكر الجبرتي أن محاولة أخرى للصلح قد تمت بين المتحاربين، فثارت ضدها «العامة»، «وركب المغربي، فتوجه إلى الحسينية[١٣٣] وطلب محاربة الفرنسيس، فحضر أهل الحسينية [أو عقلا الحسينية كما سماهم في مظهر التقديس] إلى عثمان كتخذا[١٣٤] يستأذنونه في موافقة ذلك المغربي أو منعه، فأمر بمنعهم وكفهم عن القتال»[١٣٥]. ورغم هذا الرفض الصادر عن واحد من الشخصيات السياسية العثمانية المتنفذة، فقد حركت دعوة مولاي محمد هاته نادي الجهاد لدى شهبندر تجار القاهرة. فقد قال الجبرتي في هذا الصدد: «وركب المحروقي[١٣٦] عند ذلك، ومر بسوق الخشب، وقدامه المناداة بأن لا صلح ولزوم المتاريس. ثم فتح باب الوكالة[١٣٧]، وخرج

(١٣١) المصدر نفسه، ص ٤٤١.

(١٣٢) المصدر نفسه.

(١٣٣) هو أحد أحياء وسط القاهرة، مجاور للأزهر الشريف، وبه يوجد المسجد الحسيني وضريح الإمام الحسين. انظر: علي مبارك، **الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة**، ٢٠ ج (بولاق: المطبعة الكبرى الأميرية، ١٣٠٤ ـ ١٣٠٦هـ/ ١٨٨٦ ـ ١٨٨٨م)، ج ٢، ص ٧٧.

(١٣٤) هو أحد الشخصيات السياسية العثمانية التي دخلت القاهرة مع الوزير العثماني نصوح باشا. وكان من بين قادة ثورة القاهرة الثانية.

(١٣٥) الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ج ٢، ص ٣٥٢.

(١٣٦) هو أحمد المحروقي، شهبندر تجار القاهرة في ذلك التاريخ؛ أي كبيرهم. كان موضع احترام وتقدير لدى الفرنسيين. انتخب عن التجار ضمن أعضاء الديوان العمومي الذي أنشأه نابليون في كانون الأول/ ديسمبر سنة ١٧٩٨، واصطحب هذا الأخير في رحلته إلى السويس. وكان واحداً من زعماء ثورة القاهرة الثانية. وخرج بعد انتهائها من القاهرة صحبة الجيش العثماني إلى سوريا، ولم يعد إلى مصر، إلا بعد خروج الفرنسيين منها. توفي سنة ١٢١٩هـ. انظر: الرافعي، **تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر**، ج ٢، ص ٢٨٢ ـ ٢٨٦.

(١٣٧) يقصد وكالة ذو الفقار التي كان يقيم بها عثمان كتخذا.

منها عسكر بالعصي، فهاجوا في العامة، ففروا وسكن الحال»[١٣٨].

وتجدر الإشارة إلى أن مولاي محمد المغربي لم يكتف بإبطال الاتفاق تلو الآخر والتحريض على استمرار الثورة، بل تحول إلى سلطة تحكيمية تنزل أشد العقاب بمن تكلم على الصلح، أو كان يوالي الفرنسيين حتى ولو كان شخصية دينية من حجم الشيخ خليل البكري، نقيب الأشراف، بمصر الذي جعل منه أمثولة لكل الخونة. فقد قال الجبرتي وهو يعدد «مثالبه»: «واتهم الشيخ خليل البكري بأنه يوالي الفرنسيس ويرسل إليهم الأطعمة. فهجم عليه طائفة من العسكر مع بعض أوباش العامة، ونهبوا داره، وسجنوه مع أولاده وحريمه، وأحضروه إلى الجمالية[١٣٩] وهو ماش على أقدامه ورأسه مكشوفة. وحصلت له إهانة بالغة، وسمع من العامة كلاما مؤلما وشتما»[١٤٠].

خامساً: مولاي محمد المغربي يجري الوساطة بين السلطات العثمانية والزعيم المملوكي الكبير مراد بك

استمر مولاي محمد المغربي في حركته الجهادية حتى خروج الفرنسيين من مصر. فخلال هذه المدة المتبقية من عمر الحملة التي جاوزت السنة، كرس جهده لمساعي التقريب والمصالحة بين الزعيم المملوكي الكبير، مراد بك الذي تحول قبيل ثورة القاهرة الثانية إلى حليف لإدارة الاحتلال الفرنسية، والدولة العثمانية التي ما فتئت تبذل قصارى جهدها لاستعادة ولايتها. كما أنه أضحى يمثل، خلال هذه المدة، تهديدا حقيقيا بالنسبة لجيش الشرق، خصوصا بعد وفاة مراد بك، فسوف يمارس سيطرة شبه مطلقة على إقليم الصعيد.

وهكذا، وجدنا عددا من الوثائق تؤكد أن مولاي محمد المغربي قد عاد إلى أقاليم مصر الشرقية، صحبة عدد من رجاله، بعدما كان قد

---

(١٣٨) الجبرتي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٥٢.

(١٣٩) الجمالية: هو أحد أحياء وسط القاهرة، به كان يقيم القادة العسكريون العثمانيون خلال ثورة القاهرة الثانية.

(١٤٠) الجبرتي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٢٧.

انسحب إلى الشام إثر فشل ثورة القاهرة الثانية، وأنه قد اتصل بالقبائل التي حاربت معه في السابق، مثل قبيلة الهنادي وأولاد علي والجبالي، بهدف إثارتها من جديد ضد الفرنسيين.

هذا ما أكدته رسالة شيخ دمنهور حسن بطيشي (Hassan Batischy) إلى الجنرال فريان (Friant) حين أخبره أن مولاي محمد عاد من سوريا وحل بالعريش[١٤١]. أما الرسالة التي وجهها الجنرال دو لوكورك (Delegorgue) إلى القائد العام، الجنرال مونو، فتقول إنه قد سمع بوجود مولاي محمد بالدلتا، وإنه يحاول إثارة السكان هناك ضد الفرنسيين. ثم أضاف أن سكان البحيرة كانوا يخشون منذ مدة اقترابه منهم. لذلك تباطأوا في دفع الضرائب. ثم أورد تفاصيل أخرى ذكر فيها أن مولاي محمد عبر النيل، وأنه يدعو الناس في كل جهة يمر بها إلى الثورة ضد الفرنسيين، وأنه حاول جر قبائل الهنادي وجميعات وغيرهم إلى القتال بصحبته. لكن أحدا لم يستجب لدعوته. ثم قال إنه كان برفقته أربعة وعشرون فارسا وحوالي أربعين من المشاة. وبما أنه لم يستطع تحقيق أي من مشاريعه، على حد زعم صاحب هذه الرسالة، فقد توجه إلى مصر العليا. وأضاف أن شيخ قبيلة الهنادي، كمبري شرف (Cambary Charaffe)، يعتقد أنه ذهب للاتصال بمراد بك[١٤٢]. وهذه المعلومات، نفسها، أكدها الجنرال دو لاغرانج (De Lagrange) في رسالة له من الرحمانية[١٤٣].

وخلافا لما تضمنته الرسائل السابقة التي ادعت أن مولاي محمد ورجاله لم يلاقوا أية استجابة أو ترحيب من طرف القرى والقبائل التي مروا بها، تخبرنا رسالة القبطان رافل (Rafle)، قائد حامية بلبيس، أن مولاي محمد قد اتصل بعرب الجبالي، وأنه يوجد الآن (١٣ شباط/ فبراير ١٨٠١) بين بحيرة المنزلة ومدينة الصالحية، وأن شيخي قريتين

(١٤١) A.M.G.,B6 6^3, traduction de la réponse d'Assan Batichy, Cheikh de Damanhour, ou général Friant, commandant d'Alexandric, [s. d.].

(١٤٢) A.M.G., B^6 63, A Damanhour, Delegorgue, général de brigade, à Menou, général en chef, 12 pluviôse an 9 (1 février 1801).

(١٤٣) A.M.G., B^6 63, A Rahmanieh, De Lagrange à Friant, 13 pluviôse an 9 (2 février 1801).

من قرى هذه الجهة أعطياه كميات كبيرة من المواد الغذائية وأموالا[١٤٤]. أما الجنرال فريان الذي كان يتولى قيادة حامية الإسكندرية، فقد تحدث أيضا عن ذهابه إلى مصر العليا. غير أنه أضاف، أن صحبته حوالى مائة فارس ومائة وأربعين من المشاة مسلحون بالبنادق، وجزء من قبيلة أولاد علي[١٤٥].

أكثر من هذا، أكدت مصادر أخرى أن مولاي محمد قد ذهب فعلا إلى مصر العليا. لكنه، وهو في طريقه إلى هناك، دخل في مواجهات مسلحة مع الجنود الفرنسيين. حصل هذا أول مرة في مصر السفلى في ١ شباط/فبراير ١٨٠١[١٤٦]. أما بعد انتقاله إلى مصر العليا، فكانت له مواجهة أخرى مع قائد إقليم بني سويف في ٨ شباط/فبراير من نفس السنة[١٤٧].

ويبدو من إشارة أخرى أن مولاي محمد لم يمكث طويلا بمصر العليا. فقد أخبر أحد الجواسيس الجنرال بليار، في٢٥ جيرمنال سنة ٩ (١٤ نيسان/أبريل ١٨٠١)، أن الفرسان الذين هجموا على بلبيس، وكان على رأسهم مولاي محمد المغربي، وعددهم حوالى مائة وخمسين، قد عادوا إلى الصالحية وانضموا هناك إلى الجيش العثماني المتقدم ساعتها نحو مصر في إطار هجومه الأخير[١٤٨]، لكن، وهم في طريقهم إلى هناك، هجموا على مؤخرة كتيبة قرب بلبيس. ودارت بين الطرفين معركة قوية، زعم الجنرال بليار أن خمسة من رؤساء هؤلاء الفرسان قد قتلوا فيها ومن بينهم مولاي محمد، بينما جرح فيها، ثلاثة جنود فرنسيين[١٤٩].

وإذا كانت هذه المواجهات قد ظلت محدودة العدد والأهمية، فإن

---

(١٤٤) A.M.G., B[6] 63 Belbis, Rafle, capitaine commandant la place, à Reynier, 14 pluviôse an 9 (3 février 1801).

(١٤٥) A.M.G., B[6] 63 Alexandrie, Friant, générale de division, à Menou, générale en chef, 15 pluviôse an 9 (4 février 1801).

(١٤٦) Ibid.

(١٤٧) A.M.G., B[6] 63, Siout, Donzelot à Menou, 27 pluviôse an 9 (16 février 1801).

(١٤٨) A.M.G., B[6] 133, Registre du général Belliard, 26 gérminal an 9 (15 avril 1801).

(١٤٩) A.M.G., B[6] 133, Belliard à Menou, 24 gérminal an 9 (13 avril 1801).

مجرد حدوثها في هذا الظرف الذي كان يتميز بالخضوع التام لسلطة الفرنسيين، يؤكد، من جهة، مدى الشجاعة التي كان يتمتع بها مولاي محمد المغربي ورجاله، والتي مكنتهم من اقتحام التراب المصري للمرة الثالثة. كما أنه يعطينا، من جهة ثانية، فكرة تقريبية، عن نوعية التهديد الذي يمكن أن يكون قد مارسه ظهوره بالنسبة لإدارة الاحتلال الفرنسية، سيما وأن جولته المفاجئة هذه جمعت بين مصر العليا ومصر السفلى، وتخللتها عدة مواجهات عسكرية.

غير أن الذي نستشفه من هذه الإشارة وأخرى غيرها، أن هدف مولاي محمد خلال جولته هذه لم يكن هو إشعال ثورة أخرى مثل ما فعل في شهر نيسان/أبريل من سنة ١٧٩٩ بإقليم البحيرة؛ لأنه يبدو أن تحركاته تلك كانت تندرج ضمن مخطط أوسع كان يرمي من خلاله إلى تهيئة الأجواء والظروف لتنفيذ الهجوم العثماني ـ الإنجليزي الأخير الذي كان آنذاك قيد الإعداد. مصداق ذلك، ما أخبر به الجنرال فريان القائد العام مونو، حين قال له إن مولاي محمد المغربي الذي دخل إقليم البحيرة قادما إليها من سوريا، وجد بصحبته جاريتان سلمهما إياه الصدر الأعظم العثماني كهدية منه لمراد بك، ورسائل إلى هذا الأخير[١٥٠].

أما الجنرال دونزيلو (Donzelot) الذي كان يقيم بأسيوط، فبعد إخباره الجنرال مونو بظهور مولاي محمد بإقليم بني سويف، أرفق رسالته بالتقرير الذي زوّده به عبد الله وافي، زعيم إحدى القبائل، الذي ذكر فيه أن مولاي محمد زاره فعلا صحبة عشرين فارسا، وقالوا له إنهم انطلقوا من يافا في فاتح رمضان سنة ١٢١٦ في اتجاه مصر؛ لأن الصدر الأعظم العثماني كلفهم بنقل فرمان وسوار ذهب إلى مراد بك من أجل إقناعه بضرورة انضمامه إلى الجيش العثماني في حالة نزوله بمصر بعد متم شهر رمضان[١٥١]. وما يؤكد أكثر ما ذهبنا إليه، هو ما ذكره الجنرال فريان في إحدى رسائله من أن مولاي محمد المغربي استخبر، قبل مغادرته إقليم البحيرة، عن عدد الحاميات الفرنسية الموجودة بدمنهور

---

(١٥٠) A.M.G., B^6 63, Alexandrie, Friant à Menou, 16 pluviose an 9 (5 février 1801).

(١٥١) A.M.G., B^6 63, Siout, Donzelot à Menou, 27 pluviose an 9 (16 février 1801).

والرحمانية وغيرهما من مدن هذا الإقليم. ثم أضاف أنه قال للأهالي إنه سيعود بعد شهر(١٥٢).

وإذا كانت مهمة الوساطة التي كلف بها مع مراد بك قد باءت بالفشل بسبب وفاة هذا الأخير، فيبدو أنه نجح في إقناع جنده بالانضمام إلى جيش الصدر الأعظم العثماني. فقد أخبرتنا أحد أعداد جريدة **كوريبه دي ليجيبت** الفرنسية، أن المماليك قد انضموا إلى الإنجليز والعثمانيين خلال زحفهم على القاهرة من جهة الصعيد(١٥٣). كما أفادتنا إشارة أخرى أن نجاحات مولاي محمد المغربي لم تقف عند هذا الحد، بل تجاوزته بكثير عندما أصبح إقليم الصعيد نفسه تحت السلطة الفعلية لمولاي محمد المغربي خلال اللحظات الأخيرة من عمر الحملة. فقد كتب الجنرال مارتان، وهو يتحدث عن الوضع الصعب الذي وجدت فيه الحامية الفرنسية بالقاهرة حينما أصبحت محاصرة من طرف الجيشين العثماني والإنجليزي ووباء الطاعون يفتك بساكنتها، أن الجنرال رينيي (Reynier)، مدير المداخيل الاقتصادية، حاول أن يذهب إلى مصر العليا لجمع الضرائب، إلا أنه لم يتمكن من ذلك؛ لأن القرى المجاورة للقاهرة كانت قد أصبحت خالية من السكان بسبب الطاعون. أما ما وراء ذلك فكان واقعا تحت سيادة مولاي محمد المغربي الذي تمكن من جعل إقليم الصعيد في حالة تمرد مستمرة منذ وفاة مراد بك(١٥٤).

ومما يجدر التنويه به هنا أن تحركات مولاي محمد المغربي هاته كانت تتم صحبة إحدى الشخصيات الجهادية المغربية ممن اشتهرت أيضا بمعاركها الضارية ضد الاحتلال الفرنسي لمصر بإقليم الصعيد. أقصد بذلك الشريف حسن ابن أخت الشيخ أحمد الجيلاني السباعي متزعّم الحركة الجهادية التي ظهرت بهذا الإقليم منذ الشهور الأولى للحملة.

---

(١٥٢) A.M.G., B6 63, Alexandrie, Friant à Menou, 16 pluviose an 9 (5 février 1801).

(١٥٣) **صحف بونابرت في مصر**، ١٧٩٨ ـ ١٨٠١، ص ٤٢٤ و٤٢٨. وجدير بالذكر أن هذا الانضمام لم يتحقق كما ذكر ذلك هذا المصدر، إلا بعد وفاة زعيمهم مراد بك التي أعقبتها قيام فتنة بين جنده، وتدني إخلاصهم نحو الفرنسيين. (ص ٤١٩).

(١٥٤) Reybaud, *Histoire scientifique et militaire de l'expédition française en Égypte*, vol. 7, pp. 255-256.

ذلك ما أكده الجنرال دونزيلو في إحدى رسائله إلى القائد العام، الجنرال عبد الله مونو[١٥٥]. وإن دل هذا على شيء إنما يدل على وحدة جبهة المقاومة التي كان يتزعمها أبناء المغرب الأقصى بهذا القطر الإسلامي الشقيق. كما يدل، من جهة أخرى، على المكانة التي كان يحتلها هذان المجاهدان المغربيان لدى شخصيتين سامتين مثل الصدر الأعظم العثماني والزعيم المملوكي الكبير مراد بك. إذ لولا ذلك، لما كلفا بإنجاز مهمة من هذا المستوى في ظرف حرج كذاك الذي كانت تعيشه مصر في تلك الأثناء.

لكن، رغم هذه الجهود الموفقة التي ظل يبذلها مولاي محمد المغربي إلى حدود هذا التاريخ المتأخر من عمر الحملة، يبدو أن علاقته بالسلطات العثمانية لم تعد إلى سابق عهدها، وربما أخذ يغلب عليها طابع الصراع والعداء أكثر من أي وقت مضى، الشيء الذي سيجعله أكثر ميلا للإنجليز وحلفائهم المماليك. وربما كان هذا الخلاف من بين الأسباب الرئيسة التي ستضطره إلى مغادرة مصر لحظات قليلة بعد عودة العثمانيين إليها، وقيادته ثورة أخرى ضد سلطاتهم بالجزائر.

عن حيثيات ونتائج هذا التطور في سيرة مولاي محمد المغربي، يحدثنا الضابط الإنجليزي ولسون الذي قابله في مصر: «على الطريق [خلال زحف الجيش الإنجليزي على القاهرة]، انضم إلينا مولاي محمد، أمير فاس الذي جاء من طرف مراد بك[١٥٦] (. . .) وقد تنبأ بالنجاح للإنجليز. وظل صديقا متحمسا لهم. إلا أنه، بعد سقوط القاهرة[١٥٧] أفرز الجشع له أعداء، واضطر إلى الهرب من الاضطهاد التركي. وقبل أيام قليلة جاء في طلب الجنرال [الإنجليزي] الذي حصل منه على كل آيات المحاباة والاحترام. لكنه ذهب، الآن، إلى القاهرة لسوء الحظ. وقد فقد محياه حيويته، وتبدو روحه كسيرة»[١٥٨].

---

(١٥٥) A.M.G., B^6 63, Siout, Donzelot à Menou, 27 pluviôse an 9 (16 février 1801).

(١٥٦) يقصد إقليم الصعيد، لأن مراد بك كان قد توفي منذ مدة.

(١٥٧) يقصد خروج الفرنسيين منها ودخول جيش الصدر الأعظم العثماني إليها.

(١٥٨) Wilson, *History of the British Expedition to Egypt; to Which is Subjoined, a Sketch of the Present State of that Country and its Means of Defence*, pp. 69-70.

بهذه الصورة الحزينة التي رسم لنا معالمها بدقة هذا الضابط الإنجليزي، تنتهي رحلة المقاومة والجهاد التي قادها محمد بن الأحرش الدرعاوي أو من اشتهر في الكتابات الفرنسية والمشرقية بـ «مولاي محمد المغربي» بأرض الكنانة، بعد أن عمرت أكثر من سنتين، ليخوض مباشرة بعد ذلك ثورة أخرى أكثر عنفا ودراماتيكية بشرق الجزائر، وربما أيضا بغربها، ضد الحكام الأتراك بهذا البلد.

لكن، إذا كان مولاي محمد المغربي قد بدا لنا بهذه الصورة المثالية في ما يخص حرصه على استمرار الثورة وموقفه المتشدد من المتآمرين عليها وسعيه إلى المصالحة والتحالف بين السلطات العليا المملوكية والعثمانية، فإن عبد الرحمن الجبرتي الذي يرجع إليه الفضل في تدوين أخباره المتصلة بثورة القاهرة الثانية، لا يقاسمنا دائما هذا الرأي؛ لأنه شن ضده حملة تشهيرية، جاعلا منه أحد مجرمي هذه الثورة. وعلى منواله، سار عدد من الدارسين المصريين ممن خاضوا في تفاصيل هذا الحدث.

سادساً: حملة الشيخ عبد الرحمن الجبرتي ضد مولاي محمد المغربي: الدواعي والحيثيات

أول ما بدأ به الجبرتي القول، في إطار حملته على مولاي محمد المغربي، هو تجريده من كل ميزة قد تحسب لصالحه حتى وإن كان هو نفسه قد سبق له أن اعترف له بها. أوضح ما تجلى ذلك حين حذف من مؤلفه الثاني، **عجائب الآثار**، استدراكا كان قد أورد فيه أول إشارة إلى هذا الرجل، وتضمن اعترافا صريحا من لدنه باجتهاده في الحرب؛ حيث قال: «وفعل ذلك الرجل المغربي، أموراً تنكر عليه. لكنه كان في بعض الأوقات، يجتهد في الحرب. إلا أنه ليس في رتبة الجداوي[١٥٩]، ولا غيره من العساكر العثمانية. وغالب ما وقع من النهب وقتل ما لا يجوز

(١٥٩) حسن الجداوي: كان من مماليك الزعيم المملوكي الكبير محمد بك أبو الذهب. ولّي إمارة جدة على عهد خلفه محمد علي بك الكبير، ولذلك سمي بالجداوي. التجأ إلى الصعيد بعد معركة الأهرام، وحاربهم هناك، إلى أن توفي سنة ١٢١٥هـ.

قتله، يكون صدوره عنه»[١٦٠]. ثم اختزلت هذه الرواية في المصدر الثاني، لتصبح على الشكل التالي: «وفعل ذلك الرجل المغربي، أمورا تنكر عليه. وغالب ما وقع من النهب وقتل ما لا يجوز قتله، يكون صدوره عنه»[١٦١]. وهكذا، تحولت صورة «هذا الرجل المغربي» بين مؤلفي عبد الرحمن الجبرتي، من شخصية تجمع بين الاجتهاد في الحرب و«النهب وقتل ما لا يجوز قتله»، إلى شخص دموي همه الوحيد «النهب وقتل ما لا يجوز قتله».

لم يقف الجبرتي عند هذا الحد؛ لأنه بعد أن جرد شخصية مولاي محمد من ذلك الجانب المشرق، عوّضه بحشد من المؤاخذات والتُهم، فأردف قائلا: «فكان يتجسس على البيوت التي بها الفرنسيس والنصارى، فيكبس عليهم ومعه جمع من العوام والعسكر، فيقتلون من يجدونه منهم وينهبون الدور ويسحبون النساء وما عليهن من الحلي والثياب. ومنهم من قطع رأس البنية الصغيرة طمعا فيما على رأسها من الذهب. وتتبع الناس عورات بعضهم البعض وما دعتهم إليه حظوظ أنفسهم وحقدهم وضغائنهم»[١٦٢].

بعد هذا، انبرى الجبرتي يكيل الشتائم ويعدد التهم في حق مولاي محمد المغربي. فتوقف أولا عند ما حصل للشيخ خليل البكري من إهانة ونهب من طرف «طائفة من العسكر مع بعض أوباش العامة»؛ لأن مولاي محمد اتهمه «بموالاة الفرنسيس وإرسال الطعام إليهم»[١٦٣]. أما بعدما «تشدد» مولاي محمد في رفض اتفاق الصلح الذي توصل إليه المفاوضون بعد مضي عشرة أيام على اندلاع الثورة، فقد عدّه الجبرتي من بين «السفلة والغوغاء»[١٦٤]، ثم نفى عنه وعن من انضم إليه صفة الجهاد حينما اعتبرهم مجرد «أخلاط العالم»[١٦٥]. واعتبر «غرضه في

(١٦٠) الجبرتي، **مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس**، ج ٢، ص ٣٧٤.
(١٦١) الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ج ٢، ص ٣٢٧.
(١٦٢) المصدر نفسه.
(١٦٣) الجبرتي، **مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس**، ج ٢، ص ٣٧٤ ـ ٣٧٥.
(١٦٤) المصدر نفسه.
(١٦٥) المصدر نفسه.

دوام الفتنة»، هو السبب في رفضه الاتفاق المذكور؛ لأن «بها يتوصل لما يريد من النهب والسلب، والتصور بصورة الإمارة، باجتماع الأوزاع عليه، وتكفل الناس له بالمأكل والمشرب، هو ومن انضم إليه»(١٦٦). إضافة إلى هذا وذاك، رماه بالشطط «في المأكل، مع فقدان الناس لأدون ما يؤكل، حتى إنه كان إذا نزل جهة من جهات المدينة لإظهار أنه يريد المعونة والحرس، فيقدمون إليه بالطعام، فيقول: لا آكل إلا الفراخ، ويظهر أنه صايم [كذا]، فيكلف تلك الجهات أنواع المشتقات والتكلفات، بتعنّته في هذه الشدة بطلب أفخر المأكولات وما هو مفقود»(١٦٧).

وبعدما جرّده من فضيلة الاجتهاد في الحرب واحتفظ بجميع التهم والمؤاخذات التي سلّطها عليه، رماه أيضا بالجبن وعدم القدرة على دفع العدو؛ حيث قال: «ثم هو مع ذلك لايغني شيئا، بل إذا داهم العدو تلك الجهة التي هو فيها فارقها وانتقل لغيرها. وهكذا ديدنه وسبحه»(١٦٨). والسبب في ذلك، حسب ما يستفاد من كلام الجبرتي، هو أنه «ليس ممن له في مصر ما يخاف عليه من مسكن أو أهل أو مال أو غير ذلك، بل كما قيل: لا ناقتي فيها ولا جملي. فإذا قدّر والعياذ بالله أن العدو دخل البلد عنوة، تخلص مع حزبه إلى بعض الجهات والتحق بالريف، وتخلص. وحينئذ يكون كآحاد الناس، ويرجع لهيئته الأولى، وتبطل الهيئة الاجتماعية التي جعلها لجلب الدنيا فخا منصوبا، وتحرق بها [كذا] على سخاف العقول وأخفا الأحلام»(١٦٩).

لهذا، لا يعدو مولاي محمد المغربي بالنسبة للجبرتي كونه واحدا من «الدجاجلة» الذين يكثرون في حال الفتن، كما «أن نيته ليست ممحضة لخصوص لجهاد»(١٧٠)؛ لأنها لو كانت كذلك، «لكانت شواهد علانيته أظهر من نار على علم، أو اقتحم كغيره ممن شاهدناه من المخلصين في

---

(١٦٦) المصدر نفسه.

(١٦٧) المصدر نفسه، ص ٣٨٦.

(١٦٨) المصدر نفسه.

(١٦٩) المصدر نفسه.

(١٧٠) المصدر نفسه، ص ٣٨٧.

الجهاد في بيع نفوسهم في مرضاة الله رب العباد، لظا [كذا] الهيجا، ولم يتعنت على الفقرا، ولم يجعل همته في السلب مصروفة، وحاله وسلوكه عند الناس غير معروفة»(171). ثم ختم كلامه قائلا: «وبالجملة كان هذا الرجل سببا في تهدم أغلب منازل الأزبكية(172)، ومن جملة ما رميت به مصر من البلا»(173).

أما ما حز في نفس الشيخ عبد الرحمن الجبرتي أكثر بخصوص مولاي محمد المغربي عندما أخذ يتزعم الجبهة الشعبية المعارضة لإبرام أي صلح مع الفرنسيين، هو كونه خول لنفسه دورا لا يجوز في حقه؛ لأنه لا يمثل، حسب تقدير الجبرتي، السلطة الشرعية ممثلة في العثمانيين والمماليك. لذلك، فهو عندما «نادى (...) حين أشيع أمر الصلح وتكلم به الأشياخ: الصلح منقوض وعليكم بالجهاد، ومن تأخر ضرب عنقه»، كان «منه افتيات في حق السلطنة، وفضول، ودخول فيما لا يعنى، حيث كان في البلد مثل نصوح باشا ومثل الهمام الأعظم والرئيس الأفخم عثمان كتخذا، وغير هذين من الأمرا المصرية. فما قدر هذا الأهوج حتى ينقض صلحا أو يبرمه؟ وأي شيء يكون هو لينادي أو يترأس بدون أن ينصّبه أحد لذلك؟ ولكنها الفتن يستنسر فيها البغات، سيما عند هياج العامة وثورات الرعاع والغوغا إذا كان ذلك يوافق أغراضهم»(174).

هذه هي الصورة التي قدّم بها الجبرتي عبر مصنفيه المذكورين، مولاي محمد المغربي بمناسبة ظهوره خلال ثورة القاهرة الثانية. وهي، كما رأينا، صورة قاتمة يظهر من خلالها هذا الرجل بمثابة دجّال، همه الوحيد هو السلب والنهب، مجرد من صفات الشجاعة والتضحية وعاجز عن مدافعة العدو. أما رفضه لاتفاقات الصلح فمرده فقط إلى رغبته في دوام الفتنة؛ لأن بها يتوصل إلى ما يريد، ولأن ليس له ما يخشى عليه

---

(171) المصدر نفسه.

(172) الأزبكية: هو الحي الذي كان يسكن به أغلب الفرنسيين أيام الثورة. كما كان يوجد به، مسكن الحاكم العام الفرنسي الجنرال كليبر.

(173) المصدر نفسه، ص ٣٨٧.

(174) المصدر نفسه.

إذا دخل العدو المدينة. أما أن يبرم صلحا أو أن ينادي بنقضه، فلا يجوز في حقه؛ لأنه ليس من القادة العثمانيين أو الأمراء المصريين.

هكذا إذن، حصر الشيخ عبد الرحمن الجبرتي جهادات هذا الرجل في نطاق ضيق لا يتعدى تحقيق مآربه الشخصية. وإذا كانت العامة قد التفّت حوله «وتعضد كل بالآخر»، فلأن ذلك وافق أغراضهم «لعدم إدراكهم عواقب الأمور».

ومما تجدر الإشارة إليه، أن هذه الكيفية التي تعامل بها الجبرتي مع مولاي محمد المغربي طالت آثارها عددا من الدارسين والباحثين المصريين، فلم يكتفوا بموافقته الرأي، بل أضفوا إلى عباراته البسيطة مسحة سياسية لا تخلو من تعصب وطني ورفض لما هو دخيل أو أجنبي حتى ولو كان عربيا أو إسلاميا. ولنا في جلال كشك ومحمد عوض، خير مثال على ذلك.

وهكذا، نجد جلال كشك، صاحب كتاب **ودخلت الخيل الأزهر**، الذائع الصيت، يضم صوته، وبدون أدنى تحفظ، إلى الجبرتي. أكثر من ذلك، استغل موقفه المندد بمولاي محمد، وجعل منه وسيلة لتبرئته من التهم التي وُجّهت إليه بخصوص موقفه من الثورة، حيث قال: «إن نقد الجبرتي لهذا المغربي الدجال هو أقوى حجة ضد الذين يحاولون تشويه موقف الجبرتي من الثورة. فالجبرتي عند نقده لهذا المغربي، يرتفع إلى الذروة من الموضوعية. فهو ضده، لا لأنه في الثورة، بل لأنه ليس في الثورة ولا مع الثائرين، بل مضلل يُتْجِر بالثورة، جبان يتهرب من القتال»[١٧٥].

وقد بلغت درجة التشنج الوطني عند هذا الكاتب الذي يحسب على المدرسة الإسلامية في إعادة كتابة التاريخ، حدا جعله يقول: «المهم إن سلوك المصريين في مجموعه كان سلوك مقاومين شرفاء، وكانت مواقف المماليك الذين انضموا للثوار تتسم أيضا بالانضباط وسلوك المقاتلين. بينما اندفعت عناصر غير مصرية، ترتكب الجرائم تحت حماية الثورة،

---

(١٧٥) كشك، **ودخلت الخيل الأزهر**، ص ٢٨٧.

تماما كما كانت عناصر غير مصرية ترتكب الجرائم تحت الاحتلال»[١٧٦]. ثم ضرب لذلك مثلا بمولاي محمد المغربي الذي اعتبره من العناصر المندسة؛ لأن «معظم جواسيس فرنسا في هذه الفترة، كانت العامة تسميهم «مغاربة»»[١٧٧].

هذا، مع العلم أن العامة هي التي التفت، حسب شهادة الجبرتي نفسه، «بهذا المندس»، «وتعضد كل بالآخر»[١٧٨]. كما أنه لم يثبت لدينا، خلال تحرّياتنا في الأرشيف والمصادر الفرنسية، أن عثرنا على إشارة تفيد من قريب أو بعيد أن العامة كانت تسمي جواسيس فرنسا آنذاك، بهذا الاسم. على العكس من ذلك تماما، تأكد لدينا من خلال أكثر من شهادة مصدرية، أن عامة مصر، كانوا يعتبرون المغاربة بمثابة الجهة التي يمكن أن يتحقق على يديها خلاص مصر من الاحتلال الفرنسي. وأدل على ذلك ما حدث داخل أحياء القاهرة بمناسبة مرور ركب الحاج المراكشي سنة ١٧٩٩م، وكذا التجاوب القوي والواسع الذي لقيته حركة الجهاد والمقاومة التي تصدر لها الشيخ محمد الجيلاني المغربي بإقليم الصعيد ومولاي محمد المغربي نفسه بإقليم البحيرة وخلال ثورة القاهرة الثانية. أكثر من ذلك، ثبت لدينا من خلال مراسلات ضباط الحملة أن جواسيسهم كانت تتألف من بعض شيوخ القبائل في الوجهين البحري والقبلي.

وعلى هذا النهج سار، تقريبا، الباحث أحمد عوض، وإن كانت درجة تعصبه الوطني وإلحاحه على الجنسية المصرية كشرط لازم لممارسة الجهاد في تلك الفترة البعيدة، لم تبلغ به ما بلغت بجلال كشك. ومع ذلك، لم يتردد في اعتبار مولاي محمد أفاقيا مثله في ذلك مثل بدر المقدسي ذي الأصل الشامي الذي تزعم ثورة القاهرة الأولى؛ حيث قال: «ولا نجد مناصا من تذكير القراء بما كتبناه عن ثورة القاهرة الأولى، وما يجلبه أولائك الأفاقون مثل بدر المقدسي

---

(١٧٦) المصدر نفسه، ص ٢٩٠.

(١٧٧) المصدر نفسه.

(١٧٨) الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ج ٢، ص ٣٣٥.

السوري وذلك المهدي أو الأمير المغربي، على الأهالي المطمئنين من البلايا والمصائب كما حصل لأهالي دمنهور، وكما حصل لسكان القاهرة من قبلهم»[١٧٩].

ومع ذلك، ينبغي ألا ننسى أن دارسين مصريين آخرين، لم تؤثر فيهم لهجة الجبرتي التحاملية، ولم ينساقوا وراء النزعة الوطنية التي أضحت تهيمن على الكتابة التاريخية في هذا البلد الشقيق. أذكر من هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر، يونان لبيب رزق الذي تصدى، صحبة الباحث المغربي محمد مزين، لروايات الجبرتي في هذا الباب، فأخضعاها لمراجعة نقدية كشفت البواعث الخفية التي أطرت نظرة الجبرتي لحدث الثورة ككل، وأعمال مولاي محمد المغربي منها على وجه الخصوص[١٨٠]. أما محمد مورو فقد تصدى بدوره لكشف نوازع النظرة الضيقة، أو ما أسماه بـ «الأطروحة الإسلامية ذات التشوهات القومية» التي عالج بها جلال كشك بعض القضايا المتصلة بالمقاومة الإسلامية لجيش الحملة الفرنسية على مصر، وخاصة ما يتعلق منها بما قام به مولاي محمد المغربي من جهادات في هذا الإطار[١٨١].

أما من جهتنا، فنقول إن الحيز الذي ناله مولاي محمد المغربي في مؤلفي الجبرتي ينهض وحده دليلا قاطعا على محورية ومركزية الدور الذي قام به في هذه الثورة. ذلك، أن هذا المؤرخ الذي كان يعايش مباشرة أطوار هذا الحدث، لم يخص أحدا من قادة هذه الثورة، سواء كانوا من العثمانيين أو المماليك، بمثل ما خص به هذا «المغربي» الذي التفّ عليه «أخلاط العالم». كما نلاحظ، من ناحية أخرى، أنه إذا نحن جرّدنا رواية الجبرتي من أحكام القيمة التي تخللتها، تبدى لنا مولاي محمد بطلا حقيقيا بدون منازع، بل ربما كان هو الزعيم الشعبي الوحيد

---

(١٧٩) عوض، **فتح مصر الحديث أو نابليون بونابرت**، ص ٣٨٨.

(١٨٠) يونان لبيب رزق ومحمد مزين، **العلاقات المغربية ـ المصرية منذ مطلع العصور الحديثة العصور الحديثة حتى عام ١٩١٢** (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠)، ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦.

(١٨١) محمد مورو، **صفحات من كفاح الشعب المسلم في مصر، ١٧٩٨ ـ ١٨٠٧** (القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٩٩٢).

لهذه الثورة بعدما فتك «الثوار» بزعيمهم الحاج مصطفى البشتيلي عندما تمكن الفرنسيون من استعادة بولاق[١٨٢].

أما عن السر في تعامل الجبرتي مع مولاي محمد المغربي بهذه الكيفية، فيكمن، حسب تقديرنا، في عدة أسباب، لعل أهمها تعارض حدث الثورة في حد ذاته مع الخط المسالم الذي اعتمدته هذه الشخصية في تعاملها مع الحملة ككل، ثم الخسائر التي لحقت بممتلكاته. ويضاف إلى هذا وذاك جهله بحقيقة الوضع العسكري الذي كان عليه الفرنسيون أيام كانوا يستحثون المقاتلين على توقيع اتفاق الصلح. ثم أخيرا الدمار الشديد الذي أصاب مختلف أحياء القاهرة من جراء استمرار هذه الثورة، وما ترتب على ذلك من إزهاق للأرواح وضياع للأرزاق.

ففي ما يتعلق بالسبب الأول الذي حرك مشاعر الجبرتي ضد مولاي محمد، ينبغي البحث عنه، كما قلنا، في موقفه هو من هذه الثورة. ذلك، أنه لم يكن أصلا من المتحمسين لإشهار سلاح الثورة ضد الفرنسيين بهذه الصورة. وهذا موقف اعتمده عدد كبير من أفراد النخبة المصرية، وعلى رأسهم العلماء الذين اختيروا من طرف الإدارة الفرنسية أعضاء في الدواوين الخصوصية التي أنشأها نابليون منذ دخوله القاهرة، والتي سيصبح الجبرتي واحدا من أعضائها على عهد الجنرال عبد الله مونو. وإذا علمنا هذا، فهمنا لماذا صب جام غضبه على مولاي محمد المغربي الذي كان من أوائل من أضرموا نيران هذه الثورة، والوحيد تقريبا الذي أصرّ على استمرارها عبر تصديه لمختلف صيغ الصلح التي كان يتم التوصل إليها.

وربما كان أيضا من الأسباب التي دفعت الجبرتي إلى انتقاد هذا المجاهد المغربي، هما التلف والدمار اللذان أصابا عددا كبيرا من

---

(١٨٢) شهدت مدينة بولاق الملاصقة لمدينة القاهرة من جهة الغرب ثورة عنيفة تزعمها الحاج مصطفى البشتيلي. ورغم شدة الهجوم الذي تعرضت له هذه المدينة، رفض هذا الزعيم الاستسلام، واستمر القتال على أشده. ولم يتمكن الجنود الفرنسيون من دخول هذه المدينة إلا بعد أن أخضعوها لحصار شديد، وأضرموا الحرائق في معظم جهاتها، وقتلوا جميع من كان يتحصن بأحد جوامعها. آنذاك ألقوا القبض على زعيم هذه الثورة مصطفى البشتيلي. ثم أطلقوا سراحه «وجمعوا عصبة البشتيلي من العامة وسلموهم البشتيلي، وأمروهم أن يقتلوه بأيديهم (. . .) وأمروا أن يطوفوا به البلد، ثم يقتلوه. ففعلوا ذلك، وقتلوه بالنبابيت». انظر: الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ج ٢، ص ٤٣٩ ـ ٤٤٠.

المنازل والمحلات بالقاهرة من جراء استمرار الثورة، وشملا بعض أو جلَّ أملاكه المنتشرة عبر أحياء المدينة[١٨٣]. نستشف ذلك من خلال المقطع الذي يقول فيه: «ثم هو ليس له في مصر ما يخاف عليه من مسكن أو أهل أو مال أو غيره ذلك. بل كما قيل: لا ناقتي فيها ولا جملي»[١٨٤]. أو عندما قال: «وبالجملة كان هذا الرجل سببا في تهدم أغلب منازل الأزبكية، ومن جملة ما رميت به مصر من البلا»[١٨٥].

لذلك، يمكن القول إن تحريض مولاي محمد المغربي على الثورة كان يتناقض، حتما، ليس فقط مع خط الجبرتي المسالم وموقعه السياسي المقبل كعضو في الديوان الخصوصي، بل كان يتناقض كذلك مع مصالحه الاقتصادية التي يحتمل جدا أن تكون قد تعرضت للتلف والدمار بسبب هذه الثورة التي كان مولاي محمد من بين المحرضين عليها والمشاركين فيها.

ويبدو من إحدى الإشارات المصدرية أن حملة الجبرتي على مولاي محمد المغربي كانت تندرج ضمن حالة عامة ساهم فيها كل من كان على شاكلة الجبرتي من ذوي المصالح الاقتصادية والارتباطات القوية بإدارة الاحتلال الفرنسية. فقد ورد في قصيدة زجلية معاصرة مؤلفها مجهول ما يشبه العتاب على منكري أفضال مولاي محمد المغربي، وإقرار صريح بشجاعته التي لم يضاهيه فيها سوى حسن بك الجداوي، ذلك حينما قال:

«والمغربي ما تنكروشي فضله

بعسكره كم خاض قطع في الأسحار

---

(١٨٣) ورث الشيخ عبد الرحمن الجبرتي عن والده الشيخ حسن الجبرتي، أملاكاً واسعة داخل القاهرة وخارجها. انظر بهذا الخصوص: André Raymond, «La Fortune des Gabarti et leurs liens avec la caste dominante et les milieux commerçants,» papier présenté à:

عبد الرحمن الجبرتي: دراسات وبحوث: أعمال الندوة التي نظمتها «الجمعية المصرية للدراسات التاريخية» من ١٦ ـ ٢٣ أبريل ١٩٧٤، بإشراف أحمد عزت عبد الكريم (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦)، ص ٧٥ ـ ٨١.

(١٨٤) الجبرتي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٣٥.

(١٨٥) المصدر نفسه.

ومـــا حـــوى فـــخـــره ســـوى الـــجـــداوي

خـــاض بـــحـــار الـــمـــعـــركـــة بـــالـــبـــتـــار»[186]

يضاف إلى كل هذا أن الجبرتي ومن شاركه حملته هاته ضد مولاي محمد المغربي لم يكونوا، على ما يبدو، على بيّنة من حقيقة الصعوبات التي كان يعاني منها الجيش الفرنسي، والتي حالت لمدة طويلة دون اقتحامه المدينة واضطراره مرات عديدة إلى شراء الصلح بثمن عال. ومعنى هذا أن موقف مولاي محمد الداعي إلى استمرار الثورة والاستماتة فيها كان مؤسسا على معطيات عسكرية صحيحة، عكس الجبرتي الذي ربما ظل يعيش تحت إرهاب الآلة العسكرية الفرنسية، معتقدا أن بإمكانهم دخول المدينة متى شاءوا ذلك. وهذا ما جعله، في نظرنا، يشتبه في تصرفات مولاي محمد التي لا شك أنها بدت مناقضة لما يجب على كل مجاهد مخلص أن يفعله.

أما حجتنا في ذلك فتتلخص في ما صدر عن القادة والضباط الفرنسيين من أقوال بخصوص العجز الكبير الذي كانوا يعانون منه، والحيل التي اعتمدوها في كسر شوكة الثوار. فقد ذكر أحد الضباط الفرنسيين ممن شاركوا في الحملة وكان لهم اطلاع واسع على مجريات هذه المواجهات العسكرية، أنه أمام المقاومة الشديدة التي أبداها الثوار ونظرا للنقص الذي كان يعاني منه الفرنسيون في بعض العتاد وتشتت قواتهم، سلك الجنرال كليبر طريق المفاوضات والدعاية لزرع الفرقة وإحداث الصراع بين المجموعات التي كانت تتكون منها جبهة المقاومة وربح مزيد من الوقت. ثم أكد أن هذه الخطة حققت بعض النجاح؛ لأن عددا من القادة العثمانيين والمماليك، ركنوا إلى طلب الاستسلام[187].

وهذا ما أكده أيضا القائد الأعلى للجيش الشرق، الجنرال كليبر،

---

(١٨٦) يتخلل هذه القصيدة الزجلية ألفاظ وتعابير تقترب كثيراً من اللهجة العامية السائدة ببلدان شمال إفريقيا، وبالتحديد تلك التي يتحدث بها سكان شرق المغرب وأهل الجزائر. لهذا، يحتمل لدينا كثيراً أن يكون ناظمها من هذه الجهات. انظر النص الكامل لهذه القصيدة في: Georges Colin, «Une Complainte arabe sur l'Expédition française en Egypte,» *Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale* (Le Caire), no. 18 (1921), pp. 199-225.

(١٨٧) Doguereau, dans: *Journal de l'Expédition d'Egypte* (Paris) (1904), p. 363.

في تقريره عن هذه الثورة، حينما قال: إنه بعد تخلصه من جيش الصدر الأعظم العثماني وعودته إلى القاهرة بعد ثمانية أيام من بدء الثورة، تبين له أن المقاومين يمتلكون تجهيزا جيدا، في وقت تأكد فيه أن الفرنسيين يفتقرون إلى المعدات الكافية لتنفيذ هجومهم على المدينة. لذلك، كان لا بد من الانتظار إلى حين توصله بالمساعدات. وبينما هو كذلك، يضيف هذا القائد، سلك مسلك الحيلة لإضعاف الثوار؛ حيث أخذ يزرع الفرقة في ما بينهم عن طريق بعث المراسلات وفتح باب المفاوضات التي استغلها ليؤكد للجميع أن الهزيمة قد حلت بجيش الصدر الأعظم، بغية تخويفهم من مغبة الاستمرار في الثورة. ثم قال إنه كان يوجه رسائل خاصة في هذا المعنى إلى الشيوخ والأعيان؛ لأنه، كما يوضح ذلك في تقريره «المماليك وسكان القاهرة والعثمانيين، مصالحهم متعارضة. لذلك، لن يبقوا طويلا مجتمعين»[١٨٨]. وهذا ما حصل فعلا عندما جاء بعضهم يطلب منه المفاوضة على شروط وكيفية الاستسلام.

وإذا كان كبار القادة العثمانيين والمماليك قد وقعوا تحت تأثير هذه الدعاية وما تخللها من أساليب التضليل والخداع لتوهين الثوار وإضعاف شوكتهم، فما بالك بالشيخ عبد الرحمن الجبرتي الذي لم يكن أصلا متعاطفا مع هذه الثورة؟ فلا غرابة إذن إذا وجدناه يجرم مولاي محمد المغربي بسبب إصراره على استمرار الثورة في وقت كان فيه أغلب القادة العثمانيين والمماليك وشيوخ وأعيان القاهرة من أمثال الجبرتي يحبذون، بل يصرون على المفاوضة والاستسلام.

ورغم كل هذا، وجب علينا أيضا الاعتراف بأن الجبرتي الذي انهال على مولاي محمد المغربي بهذه التهم والشتائم، كان واقعا مثل كثير من سكان القاهرة تحت ضغط نفسي وعصبي شديد التوتر بسبب أهوال ومصائب هذه الثورة التي عمرت أكثر من شهر، وأُزهقت بسببها أرواح كثيرة وبريئة في أغلب الأحوال، وأحدثت نيرانها وقذائفها دمارا وتلفا كبيرين في جل أحياء المدينة. لذلك، كان من الطبيعي لشاهد عيان من صنف عبد الرحمن الجبرتي أن يثور ضد كل من يصب الزيت على النار

---

(١٨٨) وثائق الحملة، جامعة القاهرة، الحافظة رقم (٨٣).

ويبذل قصارى جهده من أجل إطالة عمر هذه الثورة، سيما إذا تعلق الأمر بواحد ممن سماهم هو نفسه بـ «الأغراب» الذين لا ينتمون إلى السلطة الشرعية التي كان يمثلها العثمانيون والمماليك، مثل محمد بن الأحرش الدرعاوي المغربي. فهل معنى هذا القبول والتسليم بكل ما قاله الجبرتي بخصوص مولاي محمد المغربي؟

قبل الخوض في تفاصيل الإجابة عن هذا السؤال، يجدر بنا القول إن معرفتنا بحقيقة الدور الذي اضطلع مولاي محمد المغربي بمناسبة ثورة القاهرة الثانية لا تتجاوز حدود ما دوّنه هذا المؤرخ المصري. ومعنى هذا، أننا نفتقر إلى مصادر موازية تتيح لنا إمكانية مراقبة رواية الجبرتي. ورغم ذلك، فإن معرفتنا السابقة واللاحقة بسلوك هذا الرجل وإلمامنا بحيثيات وتفاصيل هذه الثورة وتوفرنا على بعض الإشارات المباشرة أو غير المباشرة التي تضمنتها بعض الوثائق والمصادر الفرنسية ذات الصلة، كل ذلك يمنحنا فرصة مناقشة هذه التهم واستجلاء أوجه الصواب من الخطأ فيها.

وهكذا، يتأكد لنا من مصدر عثماني معاصر أن ما وقع من تقتيل للنصارى خلال الهجوم الأول الذي انطلقت على إثره ثورة القاهرة الثانية، إنما كان بأمر من الوزير العثماني نصوح باشا، وساهم فيه جميع الثوار بمختلف انتماءاتهم «الوطنية». هذا ما أكده المؤرخ العثماني، عزت حسن الداردنلي الذي كان يرافق جيش الصدر الأعظم بهذه المناسبة، حينما قال: ولما نزل الجنود العثمانيون والمماليك الذين دخلوا القاهرة قبل بداية الثورة، حي الجمالية وذو الفقار، «نادى المنادون، في أماكن متفرقة من قبل نصوح باشا، بقتال النصارى ومجاهدتهم، فهاج الأهلون وماجوا وقاموا كلهم على قدم وساق، وفتكوا بكل ما صادفوه من الفرنسيين، وكبسوا كذلك على دور النصارى والقبط، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة»[(١٨٩)]. وهذا ما أكده، فعلا الجبرتي في مؤلفيه[(١٩٠)]، والجنرال

---

(١٨٩) عزت حسن أفندي الداردنلي، **الحملة الفرنسية على مصر في ضوء مخطوط عثماني: مخطوطة «ضيانامة»**، دراسة وترجمة جمال سعيد عبد الغني، تاريخ المصريين؛ ١٣٤ (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩)، ص ٢٩٥.

(١٩٠) الجبرتي: **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ج ٢، ص ٣٢٣، و**مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس**، ج ٢، ص ٣٧٠.

كليبر في تقريره حول هذه الثورة(١٩١). هذا، إضافة إلى أن جهادات هذا الرجل كانت موجهة فقط ضد الفرنسيين ومن اشتهر بتعاونه معهم من النصارى والأقباط. ومما يؤكد حرصه على تنقية صفوف الثورة من الخونة والممالئين للمحتل، تشهيره بالشيخ خليل البكري الذي أقر الجبرتي نفسه بقوة وخطورة تداخله مع الفرنسيين، واستحق جزاء ذلك خلعه من نقابة الأشراف بعد عودة السلطة العثمانية وإعدام إحدى بناته بسبب تعاطيها الزنى مع الجنود الفرنسيين(١٩٢).

أما عن اتهام مولاي محمد المغربي بالحرص على إطالة عمر الثورة، رغبة منه في الوصل «إلى ما يريد من النهب والسلب»، فتفنده الحقائق التاريخية حينما تؤكد أن الذي كان يحرص على استمرار الثورة التي سماها الجبرتي بـ «الفتنة»، هم سكان القاهرة ومن انضم إليهم من الانكشارية والمماليك، وليس فقط مولاي محمد المغربي. فهذا أحد أعداد جريدة **كوريبه دي ليجيبت**، يخبرنا أنه في ١١ جيرمينال سنة ٨ (١ نيسان/أبريل ١٨٠٠)، توقفت المعارك وبنيت خيمة كبيرة بالأزبكية ودارت مفاوضات، وتم التوصل إلى اتفاق . ثم جاء رسول من قبل ناصف باشا(١٩٣) إلى القيادة العامة وهو يحمل رسالة موجهة إلى مصطفى باشا(١٩٤) يبدي فيها أسفه لعدم تنفيذ شروط الصلح. ويقول إن الانكشارية والمماليك وشعب القاهرة الثائر لا يرفضون بصفة قاطعة شروط التسليم فحسب، بل إنهم يفضلون دفن أنفسهم تحت أنقاض مدينتهم المشتعلة على تسليمها إلى

---

(١٩١) وثائق الحملة، جامعة القاهرة، الحافظة رقم (٨٣).

(١٩٢) كسرت رقبة زينب ابنة الشيخ خليل البكري، يوم الثلاثاء ٢٤ ربيع الأول سنة ١٢١٦هـ، بأمر من الوزير العثماني. وفي شهر ذي القعدة من نفس السنة عُزِل أبوها عن السجادة البكرية. انظر: الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ج ٢، ص ٤٨٦ ـ ٥١٦.

(١٩٣) ناصف باشا: هو القائد العسكري العثماني الذي قاد معركة المطرية ضد قوات الجنرال كليبر قبيل اندلاع ثورة القاهرة. وبعد هزيمته في هذه المعركة وانسحاب الصدر الأعظم العثماني إلى سوريا، التحق هو بالقاهرة وشارك في ثورتها إلى جانب رفيقه نصوح باشا.

(١٩٤) مصطفى باشا: هو القائد العسكري العثماني الذي قاد معركة أبو قير البرية في ٢٥ آب/ أغسطس ١٧٩٩. وإثر الجرح الذي أصابه في يده والهزيمة التي منيت بها قواته، سقط أسيراً في يد القوات الفرنسية. واستمر كذلك إلى حين اندلاع هذه الثورة حيث سيلعب دور الوسيط بين الثوار والجنرال كليبر.

الكفار»[١٩٥]. أما صاحب «التاريخ العلمي والحربي»، ريبو، الذي ركز بدوره على مساهمة المغاربة أو من أسماهم بـ «البربريسك» في تأجيج نار هذه الثورة، فأضاف أن النساء والأطفال كانوا يجثون تحت أرجل الانكشارية والمماليك، ويتوسلون إليهم أن لا يتركوهم أبدا عرضة لغضب الجنود الفرنسيين، تاركين الخيل تدوسهم بأرجلها وجاعلين من أجسادهم سدودا لمنعهم من إخلاء المدينة»[١٩٦]. وهذا ما أكده أيضا نصوح باشا في رسالة له من داخل القاهرة إلى الوزير العثماني المفاوض، مصطفى باشا، في ١ نيسان/أبريل ١٨٠٠، ثم أضاف أن الفرق العسكرية وسكان المدينة اتحدوا مع بعضهم البعض وأخذوا يهددون كل من يقترح الخروج[١٩٧].

يستفاد من كل ما سبق، أن مولاي محمد المغربي لم يكن يرغب وحده في استمرار الثورة حتى نحمله كل ما جرى بسببها. فقد شكل ذلك مطلبا شعبيا عم أغلب سكان القاهرة ومن كان يساندهم من مقاتلي العثمانيين والمماليك ممن خرجوا عن سلطة رؤسائهم. لهذا، ينبغي، في نظرنا، ألا نلقي باللائمة فقط على هذا الرجل، بسبب تشدده في رفض اتفاقات الصلح ومناداته بمتابعة الجهاد.

أما اشتطاطه في المأكل بطلبه «أفخر المأكولات وما هو مفقود»، فقد أكده مصدر آخر[١٩٨]. ولكن، بعيدا عن أن يحط سلوك من هذا القبيل من قيمته أو يبعث على التشكك في مصداقيته الجهادية، فالأولى أن يستدل به على الحظوة والقبول اللذين كان يتمتع بهما لدى سكان القاهرة الذين تجاوبوا معه بشكل واسع؛ إذ لولا ذلك لما تجرأ واشتط، كما قال الجبرتي، في طلب «أفخر المأكولات وما هو مفقود».

أما رميه بالجبن واتهامه بالدجل والقول إن نيته «لم تكن ممحضة

---

(١٩٥) **صحف بونابرت في مصر، ١٧٩٨ ـ ١٨٠١، وكوريه دي ليجيبت،** ١٨ جرمنال سنة ٨ (٨ نيسان/أبريل ١٨٠٠)، العدد ٦٣، ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥.

(١٩٦) Reybaud, *Histoire scientifique et militaire de l'expédition française en Égypte*, vol. 7, p. 421.

(١٩٧) A.M.G. B^6 43.

(١٩٨) Reybaud, Ibid., vol. 7, p. 441.

لخصوص الجهاد»، فيمكن تفنيده من خلال ما قاله الجبرتي نفسه حينما أقر بأنه المسؤول وحده عن استمرار الثورة، خاصة عندما نادى، حسب شهادة هذا المؤرخ: «الصلح منقوض وعليكم بالجهاد، ومن تأخر ضربت عنقه»[١٩٩]. أو عندما أبرم الصلح للمرة الأخيرة و«ثارت العامة وصاحوا وصرخوا، قائلين: «الصلح منقوض، ولا يكون إلا القتال (. . .). وركب المغربي [مولاي محمد]، وتوجه إلى الحسينية، وطلب محاربة الفرنسيس»[٢٠٠]. هذا، دون أن ننسى أن الجبرتي نفسه اعترف أن مولاي محمد، «كان في بعض الأوقات يجتهد في الحرب»[٢٠١].

ـ فيكف إذن يمكن أن تكون همة هذا الرجل «غير ممحضة لخصوص الجهاد» و«همته مصروفة للسلب والنهب»، وهو أحرص الناس على استمرار المقاتلة والجهاد ضد جنود الاحتلال الفرنسي الذين ما فتئوا يهددون الثوار بإخضاعهم لأقصى العقوبات في حالة دخولهم المدينة عنوة؟

هذا، دون أن ننسى أن انتقاله من المغرب الأقصى واقتحامه ساحة المعركة بإقليم البحيرة وداخل أحياء القاهرة أمر لا يتأتى، في تقديرنا، لمن «كان ديدنه وسبحه» ينحصر في «طلب أفخر المأكولات وما هو مفقود». ثم إن شخصا هذه خصاله لا يمكن أن يجتمع عليه الجمع الغفير، أو كما قال الجبرتي: «أخلاط العالم»، ويستجيب لدعواته «العامة».

يضاف إلى هذا وذاك، أن الشيخ الحاج سيدي محمد بن الأحرش البدالي الذي عرف في المصادر المشرقية والفرنسية باسم مولاي محمد المغربي، لم يكن محاربا متمرسا مثله البكوات المماليك والعساكر العثمانية حتى نقارنه بهم فنجعله في رتبة أقل أو نعود فننفي عنه بالمرة كل اجتهاد في الحرب، بل إن مولاي محمد هذا الذي «كان من أرباب الخوارق وكثرة الكرامات» وادعى المهدوية، كان أقرب إلى زعيم روحي منه إلى بطل عسكري يصول ويجول في ساحة الوغى، مثله في ذلك مثل الشيخ محمد الجيلاني السباعي الذي لم يكن يحارب قوات الجنرال

---

(١٩٩) الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ج ٢، ص ٣٣٥.

(٢٠٠) المصدر نفسه، ص ٣٥٢.

(٢٠١) الجبرتي، **مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس**، ج ٢، ص ٣٧٤.

ديزه بالصعيد بيده وإنما مارس ذلك من خلال حضوره الفعلي إلى جانب المقاتلين وحثهم على الاستماتة في مقاتلة العدو والاستمرار في ذلك.

وإذا جاز لنا أن نتفق مع الشيخ عبد الرحمن الجبرتي حين لم ير سلطة في البلاد يمكن أن تعلو على سلطة القادة العثمانيين أو «الأمرا المصرية» الذين كان يمثلهم آنذاك المماليك، أو تتكلم باسم أهل البلد، فنقول معه إن ما صدر عن مولاي محمد من نقض لاتفاقات الصلح هو «منه افتيات في حق السلطنة وفضول ودخول فيما لا يعنى»، فإنه يصعب علينا القبول بما قال به بعض الدارسين والباحثين المصريين ممن اعتبروه أفاقا أو مندسا يتجر بالثورة لتحقيق أغراضه الخاصة.

فمما لا شك فيه، أن هؤلاء الدارسين وقعوا تحت التأثير المباشر لروايات الجبرتي في هذا الموضوع دون أن يخضعوها للنقد والتمحيص كما فعلوا مع هذا المؤرخ نفسه عندما رفضوا القبول بروايته التي أكد فيها «أنه كان أكثر من يخامر على هؤلاء المجاهدين من مغاربة وحجازيين [من رجال الشيخ محمد الجيلاني]، أهل الصعيد؛ فيوهمونهم معاونتهم، وعند الحروب يتخلون عنهم. وبعض البلاد يضيفون، ويسلط عليهم الفرنسيس، فيقبضون عليهم»[٢٠٢]. كما أنهم لم يتخلصوا، وهم يعالجون أمر هذه الثورة والحملة ككل، من طغيان النزعة الوطنية الضيقة التي جعلتهم ينظرون بعين كليلة ونفس مرتابة إلى كل مسلم لا ينتمي إلى مصر، وكأن هذا البلد كان يعيش، منذ نهاية القرن الثامن عشر، على إيقاع النزعة الوطنية الضيقة أو أن الدفاع عن بلد إسلامي مثل مصر كان حكرا على من هو خالص الانتماء لهذا الوطن.

بمثل هذا المنطق تعامل الفرنسيون، قبلهم، مع مولاي محمد المغربي حين اعتبروه عميلا أو مرتزقا للدولة العثمانية، وكأن الجهاد

(٢٠٢) الجبرتي: **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ج ٢، ص ٢٧٣، و**مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس**، ج ١، ص ٢٨٧. رفض بعضهم القبول بهذه الرواية، بدعوى «أن الجبرتي يتجنى على أهل الصعيد في هذا الموقف بالذات؛ [لأن] معلوماته عن حركة المقاومة في الصعيد ضئيلة جدا (. . .) [و] يردد ما زعمه الفرنسيون حتى ينشروا روح اليأس بين أهل القاهرة». انظر أيضاً: تعليق عبد الرزاق عيسى وعماد أحمد هلال محققي كتاب **مظهر التقديس**، ج ١، ص ٢٨٧، حاشية رقم (٣).

بتنسيق مع «دولة الإسلام الكبرى»، صاحبة السيادة الشرعية على مصر، يعد خيانة وارتزاقا لبلد أجنبي. وبمثل هذا المنطق أيضا تعامل الفرنسيون وبعض الدارسين العرب مع سليمان الحلبي حينما اعتبروا اغتياله الجنرال كليبر مجرد انتقام شخصي، أو هو، في أحسن الأحوال، توظيف عثماني لحالة الغضب التي كانت تعتري هذا الشاب الحلبي[٢٠٣].

أما نحن، فنقول إن مولاي محمد المغربي لم يكن أفاقا ولا مندسا، وإنما كان مجاهدا نذر نفسه لمقاتلة جنود الاحتلال الفرنسيين والمجاهدة فيهم على أرض هي جزء من «دار الإسلام»، مثلها في ذلك مثل وطنه الأصلي المغرب، أو أي جزء من بلدان العالم الإسلامي على اختلاف مواقعها الجغرافية وانتماءاتها العرقية.

خلاصة الفصل التاسع

صفوة القول، تأكد لنا من خلال مباحث هذا الفصل أن المساهمة الجهادية التي صدرت عن هذا الزعيم المغربي ومن قاتل إلى جانبه من المغاربة والحجازيين والمماليك والأهالي شغلت حيزا زمنيا ومجاليا واسعا في المقاومة الشاملة التي وُجِهَت بها الحملة الفرنسية التي استهدفت مصر والشام، وأثرت تأثيرا بليغا في توجيه أحداثها وربما أيضا في تحديد مصيرها. ولعل أكثر ما تجلى هذا في إشعاله وإدارته لثورة إقليم البحيرة، ومساهمته الفعالة والمتميزة في ثورة القاهرة الثانية، ونجاحه أخيرا في إثارة مصر العليا ومنع الفرنسيين من الوصول إليها. تم له كل هذا في إطار من التنسيق والتعاون مع كل الأطراف الإسلامية والدولية المعنية بتحرير مصر من الاحتلال الفرنسي، واعتمادا كذلك على ما تحصل لديه من أتباع مخلصين جمعتهم به عقيدة الجهاد وروابط الانتماء إلى وطن واحد أو الحمية الجنسية بتعبير الجبرتي، وربما تقاسم معهم الانتماء إلى طريقة صوفية واحدة، لعلها الطريقة الدرقاوية.

---

(٢٠٣) انظر بهذا الخصوص: كشك، **ودخلت الخيل الأزهر**، ص ٣٤٤ ـ ٣٤٥.

خلاصة القسم الثالث

تبين لنا، من خلال فصلي هذا القسم أنه إذا كانت أوامر وتوجيهات مولاي سليمان قد ألزمت ركاب الحج المغربية على مسالمة جيش الشرق وعدم مبادرته بالعدوان، وحالت التدابير الأمنية الصارمة دون تنفيذهم شعار «الحج أفضل من الجهاد»، فإن مغاربة آخرين تفلتوا من ربقة هذه الموانع وتصدروا للجهاد ضد جيش الشرق في مواطن كثيرة وأثرت شوكتهم فيه أيما تأثير. وأوضح ما تجلى ذلك عندما أصبحت عمليات الجهاد والمقاومة بهذا القطر الإسلامي الشقيق تسير على إيقاع العمليات القتالية التي كان يديرها كل من الشيخ محمد الجبلاني المغربي بإقليم الصعيد ومولاي محمد المغربي بإقليم البحيرة وثورة القاهرة الثانية، يعضدهم في ذلك عدد من متطوعي البلدان الإسلامية، سيما منها بلدان شمال إفريقيا وشبه الجزيرة العربية.

وإذا كانت حركة المقاومة قد فشلت عموما في رد هذا العدوان، فإن ما ميز المساهمة المغربية في هذا الميدان هو انفرادها دون غيرها بما في ذلك جند المماليك، بإنزال هزائم منكرة بجيش الشرق، وتكبيده خسائر كبيرة في الأرواح والعتاد، وإطالة عمر ثورة القاهرة الثانية، وتحويلها من مجرد محاولة عثمانية فاشلة إلى ثورة شعبية تحت قيادة مولاي محمد المغربي.

خلاصة القول، شكلت هذه المساهمة الجهادية المغربية التي تصدرها كل من الشيخ محمد الجيلاني والشيخ محمد بن الأحرش الدرعاوي، أحد الوجوه البارزة في حركة المقاومة والجهاد ضد الاحتلال الفرنسي لمصر والشام، إن لم تكن أقواها جميعا. وحتى نتمكن من

استحضار الدور البطولي الذي قام به المجاهدون المغاربة بمناسبة هذا العدوان وإسهامهم المباشر والقوي في إفشال هذه الحملة من حيث هي مشروع استعماري كان يتجاوز حدود والشام، يكفينا أن نذكر، في مختتم هذا الباب، بالرسالة التي بعث بها نابليون «إلى الفرنساوية المقيمين بمصر، يقول فيها إن الموجب لانتقاله عن محاصرة عكا، خمسة عشر سببا»[١]، اثنان منها يتعلقان بمجاهدين مغربيين، وهما: الشيخ محمد الجيلاني ومحمد بن الأحرش الدرعاوي، أو من اشتهر في المصادر الفرنسية والمشرقية بمولاي محمد المغربي. وقد عبّر نابليون عن ذلك، في بيانه، بقوله: «توجه أهل الحجاز صحبة الجيلاني لناحية الصعيد»[٢]، «المغربي محمد الذي صار له جيش، وادعى أنه من سلاطين المغرب»[٣].

يستنتج من هذه الشهادة التي ضمنها نابليون أحد بياناته، أن ظهور الشيخ محمد الجيلاني ومحمد بن الأحرش الدرعاوي بإقليمي الصعيد والبحيرة وقيادتهما هناك حركة جهادية قوية، ساهم مساهمة مباشرة في إفشال الخطة الفرنسية التي كانت ترمي، حسب شهادة نابليون نفسه، ليس فقط إلى تحويل مصر إلى مستعمرة فرنسية، بل القضاء على الدولة العثمانية. ولا نحتاج إلى التذكير أن فشل حملة الشام وعودة نابليون على وجه الاستعجال إلى مصر لإنقاذ مشروعه الاستعماري، قد شكل بداية النهاية في مشروعه هذا الذي لم تكن تشكل فيه مصر سوى الخطوة الأولى.

بهذه الصورة إذن، تبدى لنا دور المغاربة الذين حضروا إلى مصر بمناسبة هذه الحملة؛ إما بصفتهم حجاجا صادفهم هذا الحدث خلال قضائهم لمناسكهم، أو خرجوا من ديارهم بنيّة الجهاد وقادوا من داخل هذا البلد الشقيق حركة مقاومة وجهاد لم تنطفئ شعلتها حتى خروج الفرنسيين منه وعودته إلى العثمانيين. هذا، في وقت كان قد خمد فيه

(١) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ٣ ج (بيروت: دار الجيل، [د. ت.])، ج ٢، ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

صوت المماليك وتشتت جموعهم، بل وأصبح زعيمهم الكبير، مراد بك، حليفا للفرنسيين. كما اضطر الأهالي، بعد أن ضحوا بأعز ما يملكون، إلى الخضوع والاستسلام لآلة القمع والإرهاب الفرنسية.

ولا ننسى أن نذكر، في نهاية هذا القسم، بالدور الإيجابي الذي قام به المغاربة المقيمون بمصر والشام في هذه المقاومة حينما انخرطوا في صفوف هذه الحركة الجهادية التي قادها هذان الزعيمان المغربيان. وبما أن علاقة هذا الصنف من المغاربة بالحملة يطرح أسئلة مختلفة ويتناول قضايا تتصل بخصوصيتهم المهنية وارتباطاتهم الإدارية، ارتأينا معالجة موقفهم من الحملة ضمن قسم خاص نختتم به هذا الكتاب (الأطروحة).

القسم الرابع

موقف المغاربة المقيمين بمصر والشام من الحملة



مقدمة

قبل نزول الحملة الفرنسية بمصر كانت تقيم بهذا البلد المشرقي طائفة مغربية مؤلفة من كل بلدان شمال إفريقيا، وأوضح ما تجلى ذلك بمدينتي القاهرة والإسكندرية اللتين حظيتا بالنصيب الأوفر من حيث كثافة ونوعية هذا الحضور المغربي المتميز على أرض الكنانة. وقد شكل أهل المغرب الأقصى العنصر الأكثر نشاطا وقوة داخل هذه الطائفة، واحتلوا، بفضل ذلك، موقعا متميزا داخل الحياة العامة بهذا البلد.

أما بلاد الشام فقد كانت تقطنها هي أيضا جالية مغربية مهمة، وربما احتل فيها، هي كذلك، أهل المغرب الأقصى مكان الصدارة، خاصة في المدن الكبرى، مثل دمشق والقدس وغيرهما. ورغم تواضع هذا الوجود المغربي بأرض الشام مقارنة مع مصر، فإن أثره في صياغة أحداث هذه المنطقة كان واضحا سيما في الميدانين الاقتصادي والعسكري.

إضافة إلى هذه الجالية المغربية التي كانت تعرف بعض الاستقرار، كان هذان البلدان المشرقيان يشهدان، كل سنة، مرور قافلة ركب الحاج المغربي التي كان يعد أفرادها بالآلاف. وقد شكل مرور هذه القافلة الحجية مناسبة لتجديد هياكل وإطارات هذه الجالية المغربية عن طريق ما كان ينضاف إليها من أفراد من مختلف الشرائح والمناطق، وما كانت تتيحه من إمكانية لتجديد علاقاتها ببلدانها الأصلية، ناهيك عن قوافل التجار المغاربة التي كانت تقصد، بشكل دوري، هذه الديار خلال مواسم الحج والعمرة.

ومما لا شك فيه أن هذه الجالية المغربية التي كان لها اندماج قوي داخل المجتمعين المصري والشامي، ستكون مدعوة لأخذ موقف ما من هذا الغزو المفاجئ الذي استهدف هذين البلدين.

ـ فهل سيشارك هؤلاء المغاربة إخوانهم المصريين والشاميين مقاومتهم لهذا العدوان والذود إلى جانبهم عن هذين البلدين اللذين كانا يستضيفانهم على أرضهما وتربطهم بمجتمعاتهما علاقات قوية، ويكفلان لهم شروط ممارسة نشاطهم الاقتصادي وتحصيلهم العلمي وأداء مناسكهم الدينية، أم أنهم سيكتفون بالدفاع عن مصالحهم الذاتية عن طريق الانخراط في سلك الطرف الأقوى الذي أصبح يمثله، في هذه المناسبة، المحتل الفرنسي، كما فعلت ذلك بعض الطوائف الأخرى؟

للإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها نخصص هذا القسم لنراقب من خلاله، عبر ثلاثة فصول، موقف هذه الجالية المغربية من مختلف الأحداث التي تخللت الحملة منذ نزولها بالإسكندرية حتى دخولها القاهرة، ثم انتشارها، بعد ذلك، في باقي الأقاليم المصرية واجتياحها، في وقت لاحق، جنوب الشام. وسنتوقف، خلال ذلك، عند أهم الأحداث مثل ثورة القاهرة الأولى وثورة القاهرة الثانية وثورة أمير الحج المصري والمعارك الضارية التي شهدتها المدن والقلاع الفلسطينية، وكذا حركة المقاومة والجهاد التي قادها الشيخ محمد الجيلاني بإقليم الصعيد والشيخ محمد بن الأحرش الدرعاوي بإقليم البحيرة.

قبل الخوض في تفاصيل هذا القسم، نرى من المستحسن التمهيد له بفصل نلقي من خلاله الضوء على طبيعة وأهمية هذه الجالية المغربية التي كانت تعمر الديار المصرية والشامية، من خلال الكشف عن المكانة التي كانت تحتلها داخل هذين البلدين في المجالات البشرية والاقتصادية والسياسية والعسكرية. لأن موقفها من الحملة سيتأسس، في جانب كبير منه، على حجم ونوعية المكانة التي كانت توجد عليها قبل نزول جيش الشرق بهذين القطرين.

الفصـــل العاشر

الحضور المغربي بالمشرق: السياق والخصوصية

مقـدمـة

كثيرة هي المصادر التي اعتنت بالإشارة إلى الحضور المغربي بمصر والشام. كما أن عددا من الباحثين والدارسين اتخذوا من هذا الحضور موضوعا لأبحاثهم ودراساتهم[1]. ورغم ذلك، لا نتوفر، في الوقت الحاضر، على ما يكفي من المعطيات لرسم خريطة تفصيلية نستطيع من خلالها الإحاطة بمختلف تجليات هذا الحضور على المستويين العمودي والأفقي، لكن هذا لا يمنعنا من إمكانية تكوين صورة تقريبية عن هذه الجالية، اعتمادا على ما تهيأ لنا الحصول عليه من معلومات متفرقة استقينا أغلبها من الأبحاث التي أنجزت حول هذا الموضوع.

لأسباب تتعلق أساسا بأداء فريضتي الحج والجهاد وتحصيل العلم والاستزادة منه وممارسة التجارة وبعض المهن الأخرى، اتخذ عدد مهم

---

(١) لأخذ فكرة واضحة عن الحضور المغربي بالمشرق، انظر: عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، «دور المغاربة في تاريخ مصر في العصر الحديث (القسم الأول)،» **المجلة التاريخية المغاربية** (تونس)، العددان ١٠ ـ ١١ (كانون الثاني/ يناير ١٩٧٨)؛ ليلى الصباغ، «الوجود المغربي في المشرق المتوسطي في العصر الحديث،» **المجلة التاريخية المغاربية**، العددان ٧ ـ ٨ (١٩٧٧)، ص ٧٥ ـ ٩٨؛ André Raymond, *Artisans et commerçants au Caire au XVIIIème siècle*, 2 vols. (Damas: Institut français de Damas, 1973-1974), et Louis Pouzet, «Maghrébins à Damas au VII/XIII siècle,» *Bulletin d'études orientales*, vol. 28 (1975), pp. 167-193.

من سكان بلدان المغرب الأقصى أرض مصر والشام مستقرا وسكنا لمدة قد تطول أو تقصر، شأنهم في ذلك شأن باقي سكان البلدان الإسلامية الأخرى. وعند دخول الفرنسيين مصر وقيامهم بتلك الجولة السريعة بفلسطين، كان الوجود المغاربي بهذين القطرين قد بلغ مستوى كبيرا من التطور والاندماج داخل الحياة العامة، لكنها ظلت تحتفظ بملامحها وخصوصياتها «الوطنية» وتضامنها الداخلي، ما جعل علماء الحملة وقادتها يخصّونهم بالإشارة ويدرجونهم دائما ضمن حساباتهم الأمنية والعسكرية، وربما نالوا منهم، اهتماما واحتراما فاق أية طائفة أخرى؛ نظرا لشدة بأسهم في الميدان العسكري، وقوة نفوذهم السياسي والاقتصادي داخل هذين البلدين.

أولاً: الحضور المغربي بمصر

إذا كان علماء الحملة قد خلفوا لنا إحصاءات مدققة عن أهم الطوائف التي كانت تستوطن مصر والقاهرة على وجه الخصوص، فإنهم لم يتركوا شيئا يذكر بخصوص طائفة المغاربة. غير أن أحد الباحثين الفرنسيين المعاصرين، تمكن، اعتمادا على تحرياته في أرشيف المحاكم الشرعية بالقاهرة، من تقدير عددهم في القاهرة وحدها بحوالى عشرة آلاف نسمة، وسط ساكنة لا تقل عن ٢٥٠ ألف نسمة[(٢)]، مما يجعلهم أقل قليلا من الطائفة العثمانية باعتبارها الأكثر عددا، وعلى نفس المستوى تقريبا مع طائفة الشوام التي كانت تحتل الدرجة الثانية. أما مدينة الإسكندرية التي كانت تضم أكبر تجمع للمغاربة بعد القاهرة، فقد قدر أحد الدارسين عددهم بها بحوالى ألفي فرد، وسط ساكنة قدر عددها الإجمالي بحوالى ثمانية آلاف نسمة[(٣)]. هذا، إضافة إلى المغاربة الذين كانوا ينتشرون عبر عدة مدن مصرية أخرى، مثل المحلة ودمياط ورشيد

---

(٢) André Raymond: «Deux familles fasi au Caire à la fin du 18ème siècle,» *Revue Occidentale du Monde Musulman*, nos. 15-16 (1973), p. 269, «Les Quartiers de résidence des commerçants et artisans maghrébins au Caire au 18ème siècle,» *Revue d'Histoire Maghrébine* (Tunis), nos. 31-32 (décembre 1983), p. 355.

(٣) محمد الحناوي، «الإسكندرية في عهد الحملة الفرنسية،» (رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة المنيا، قسم التاريخ، ١٩٨٥)، ص ٧٢.

والمنصورة، ناهيك عن المغاربة الذين كانوا يمتهنون الجندية إلى جانب عدد من القيادات المملوكية والعثمانية. لذلك، نعتقد أن عدد المغاربة الذين كانوا يقيمون بمصر في نهاية القرن الثامن عشر الذي تزامن مع الغزو الفرنسي لهذا البلد، لا يقل، في أسوء الأحوال، عن اثني عشر ألف فرد، كان أغلبهم يقيم بالقاهرة والإسكندرية، بينما كان الباقي موزعا على شكل جماعات صغيرة بين عدد من المدن والمواقع العسكرية.

ورغم تواضع هذا الرقم مقارنة مع العدد الإجمالي لسكان القاهرة المعلوم لدينا، فقد كان المغاربة يحظون داخل مصر بأهمية خاصة على الصعيد الاقتصادي والعسكري والسياسي والعلمي. فاقتصاديا، كانت لهم سيطرة شبه كاملة على أهم السلع التجارية؛ سواء منها المجلوبة من الخارج أو المصنعة محليا، وفي مقدمتها الأثواب والعطور والبن والزيوت. هذا ما أكده أحد الباحثين المصريين، حينما قال: «استطعنا إحصاء مائة وثلاثة وعشرين وكالة تجارية ومهنية، كانت قائمة في القاهرة فقط خلال الفترة العثمانية. ومن خلال فحص وثائق المحكمة الشرعية، اتضح لنا أنه لا تكاد تخلو وكالة من الوكالات التجارية والمهنية في كل من القاهرة والإسكندرية من وجود طائفة من التجار المغاربة، وأصحاب المهن الصناعية، أفراد وجماعات. وأصبح البعض منها، ينسب إلى أفراد مغاربة (. . .) مثل وكالة الشرايبي التي سميت برأس الأسرة المغربية المشهورة في تاريخ مصر الاقتصادي. وكان موقع هذه الوكالة بخط الغورية. وكذلك وكالة السيد أحمد المراكشي بشارع مرجوش. ووكالة المغاربة بخط طولون. ووكالة فتح الله الناضوري بالإسكندرية»[٤].

ويبدو، من إشارة أخرى أن هذا النشاط التجاري الذي كان يمارس علية المغاربة سيطرة شبه مطلقة، أخذ ينحو خلال القرن الثامن عشر منحى التكتل والتركيز في أيدي أسر مشهورة من المغرب الأقصى، مثل أسرة الشرايبي والأبار والسقاط والكوهن. وهو ما عدّه الباحث المصري، عبد الرحيم، أحد مظاهر التحول النوعي في بنية النظام الاقتصادي

(٤) عبد الرحيم، «دور المغاربة في تاريخ مصر في العصر الحديث (القسم الأول)،» ص ٦٣ و٦٥.

والاجتماعي بمصر العثمانية. فقال، في إطار حديثه عن ازدهار الرأسمالية التجارية بمصر في هذه الفترة: «وبدأت الحياة الاقتصادية المصرية تشهد أسرا تجارية ذات ثروات ضخمة، أصبحت بمثابة بيوت أو مؤسسات كبرى. ويكفي أن نذكر من هذه الأسر: أسرة الدادة الشرايبي الفاسي المغربي التي تشعب نشاطها التجاري حتى أصبحت من أكبر الأسر التجارية الرأسمالية في مصر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. وأسرة الأبار المغربية التي ظهرت على سطح الحياة الاقتصادية المصرية منذ القرن السابع عشر، ووصلت إلى أوج عظمتها في القرن الثامن عشر، حتى أصبحت من أكبر البيوت التجارية في مصر. وأسرة الجمالي التي اشتهر عدد كبير من أفرادها بالعمل التجاري خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر (...) وأسرة السقاط ذات الشهرة الواسعة في تجارتي البن والأقمشة (...)»[٥].

وقد تمكن هؤلاء التجار ومن كان في صحبتهم من مهنيين وحرفيين، بفضل ما حازوه من ثروات مالية ضخمة وتنظيم حرفي قوي وتضامن «وطني»، من ممارسة نفوذ قوي على مستوى الأحياء التي كانوا يمارسون بها تجارتهم مثل حي الغورية وحي الفحامين بوسط المدينة، وحي ابن طولون بجنوبها، وحي المغاربة بالإسكندرية؛ حيث توارثوا في هذه الأحياء التي اشتهرت، في الآن نفسه، بسكناهم منصب شيخ الحي وشيخ الطائفة الحرفية.

ومارس أيضا هؤلاء التجار المغاربة تأثيرا قويا على جامع الأزهر الشريف باعتباره المؤسسة العلمية الكبرى بالقاهرة. وتأتى لهم ذلك بفضل ما كانوا يغدقون عليه من هبات مالية ويوقفون عليه من أوقاف. ونال رواق المغاربة، من بين أروقته المتعددة، عناية خاصة حتى غدا أكثرها ثراء وشهرة[٦].

إضافة إلى هذا وذاك، تمكنت هذه الجالية المغربية من تحقيق

---

(٥) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، **فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني** (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠)، ص ١٦٥ ـ ١٦٦.

(٦) عبد الرحيم، «دور المغاربة في تاريخ مصر في العصر الحديث (القسم الأول)،» ص ٦٥.

اندماج اجتماعي قوي داخل المجتمع المصري عامة والقاهري منه على وجه الخصوص. ذلك، أن «انشغالهم [كذا] بالتجارة وبالحرف المهنية، جعلهم على علاقة قوية بطوائف المجتمع الأخرى، والاندماج مع هذه الطوائف، والتأثر بها، والتأثير فيها، والاندماج معها»[7]. أكثر من ذلك، أهّلهم موقعهم هذا للانتماء إلى أوجاقات الحامية العثمانية المختلفة والتمتع بامتيازاتها ومصاهرة أسر هذه الحامية والاندماج فيها[8].

وإذا كان قد تحقق لهذه الجالية كل هذا النفوذ داخل القاهرة، فإن مكانتهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية والعلمية بالإسكندرية لم تكن أقل تألقا. فقد كتب الباحث المصري، محمد الحناوي، يقول: «ونتيجة لاتساع دائرة نشاطهم فقد ازدادت علاقاتهم الاجتماعية، وصارت لهم كلمة مرموقة داخل الثغر. كما حمل الكثير منهم، لقب «الأسطى» و«الخواجا» و«المكرم»، وتولى بعضهم مشيخة الطوائف المهنية (...) وفاز بعضهم بمنصب قائمقام نقابة الأشراف بالثغر. وشاركوا في القيادة والإدارة المدنية والعسكرية؛ فمنهم سردار طائفة جاويشان وأمين الاحتساب، وغيره من قيادات المدينة (...) وتولى العديد منهم التدريس والإفتاء. وغالبا ما نجد قاضيا أو مفتيا لأحد المذاهب الأربعة من بين المغاربة الذين حازوا ثقة الناس واحترامهم. وشغل بعضهم شيخ رواق الأزهر (...)»[9].

وجدير بالذكر أن اهتمامات المغاربة بمصر لم تقتصر على تركيم رؤوس الأموال وما يتصل بها من أرباح تجارية واحتكار المهن والحرف الحيوية، بل كان لهم حضور متميز على المستوين العلمي والعسكري.

ففي ما يتعلق بالمستوى الأول، شكلت مصر، دائما، بمختلف مؤسساتها العلمية والتعليمية وعلى رأسها جامع الأزهر، قبلة لعدد من طلاب العلم المغاربة. ومما يدل على كثافة وأهمية الحضور المغربي على هذا المستوى، تخصيص جناح بهذه المؤسسة العلمية العريقة لطلاب

(٧) المصدر نفسه، ص ٦٦.

(٨) المصدر نفسه.

(٩) الحناوي، «الإسكندرية في عهد الحملة الفرنسية،» ص ٧٣.

المغرب عرف بـ «رواق المغاربة» منذ العهد المملوكي. وقد حظي هذا الرواق، أو ما أسماه المؤرخ المغربي عبد الهادي التازي بـ «سفارة المغرب الدائمة»، بعناية فائقة من طرف التجار المغاربة المقيمين بالقاهرة وكذا سلاطين المغرب(١٠)، مما وفر له ثروات ضخمة وسمح لرواده والقيمين عليه بالتحرك والتعبير عن مواقفهم بقوة وصراحة في عدد من المناسبات الهامة. لذلك، وجدنا أحد الباحثين المصريين يجازف بالقول: «وكان أهل هذا الرواق أكثر المجاورين قياما بالفتن هم والمكفوفون ساكنو زاوية العميان والصعايدة والشراقوة. وكانت أكثر مشاحنات المغاربة مع الشوام»(١١).

أما عبد الرحيم عبد الرحمن الذي تقصّى أخبار العلماء المغاربة الذين مروا بهذا الرواق وتخرجوا من جامع الأزهر، فقال منبها إلى ضخامة عددهم وقوة تأثيرهم داخل المجتمع المصري والمشرق عامة: «والمتتبع لسلسلة علماء المغاربة الذين تراجمهم في كتب التراجم الخاصة بالعصر العثماني ووثائق المحاكم الشرعية الذين حلوا بمصر ودرسوا بها، ودرسوا في مدارسها، وفي الجامع الأزهر، والنشاط العلمي الذي مارسوه، والعطاء العلمي الذي قدموه للحياة الثقافية في مصر والوطن العربي، ليندهش لضخامة هذه السلسلة ولنشاطها ومشاركتها في مختلف أوجه النشاط الثقافي. ووصل الكثير منهم إلى أعلى مناصب التدريس في الأزهر ومدارس القاهرة والإسكندرية، وكذلك منصب الإفتاء»(١٢).

وفي الوقت الذي كان فيه هؤلاء التجار يضربون في الأرض من أجل توسيع أرزاقهم، وطلاب العلم يترددون على حلقات التدريس، كانت نسبة هامة من هذه الجالية المغربية تمتهن الجندية إلى جانب عدد

---

(١٠) للوقوف على الأهمية التي حظي بها هذا الرواق داخل القاهرة ومستوى العلاقات التي جمعت بين المغرب ومصر، انظر: عبد الهادي التازي، «رواق المغاربة بالأزهر الشريف،» **دعوة الحق** (حزيران/ يونيو ١٩٨٣).

(١١) عبد الله عزباوي، «الروابط الثقافية بين مصر وبلاد المغرب في القرن الثامن عشر،» **المجلة التاريخية المغاربية**، العددان ١٩ ـ ٢٠ (١٩٨٠)، ص ٢٤١.

(١٢) عبد الرحيم، **فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني**، ص ٣٧٢.

من القيادات المملوكية في القاهرة وغيرها من المدن والأقاليم المصرية. وهؤلاء هم الذين عرفوا في المصادر المشرقية بـ «عسكر المغاربة».

لا نعرف، على وجه التحديد، متى وكيف ظهرت هذه الفئة المقاتلة من المغاربة بالديار المصرية. لكن، من المؤكد أنها لعبت دورا بارزا في التاريخ السياسي والحربي لهذا البلد في العهدين المملوكي والعثماني. فقد كانوا في طليعة من حارب العثمانيين إلى جانب الزعيم المملوكي طومان باي إبان الهجوم العثماني على مصر سنة ١٥١٧م[١٣]. وشكلوا طليعة جيش علي بك الكبير، وساهموا معه في بسط سيطرته على الشام سنة ١٧٦٩م[١٤]. كما استعان بهم الأمراء المصريون في نزاعاتهم وحروبهم، واستمروا يشكلون أحد العناصر النشطة في تكويناتهم العسكرية حتى مجيء الحملة الفرنسية. وأقيمت بينهم وبين باقي المغاربة المقيمين بمصر علاقات تداخل وتعاون قوية.

وغني عن القول، إن هذه الطائفة المغربية التي كان يتربع جزء منها على اقتصاد هذا القطر الإسلامي، ويقيم جزء آخر داخل أحد أروقة جامع الأزهر الأكثر ثراء وحيوية، بينما كان جزء آخر يحارب إلى جانب القادة المماليك والعثمانيين داخل مصر وخارجها، سيكون لها دور فاعل وقوي على مستوى الحياة السياسية لهذا البلد المضيف.

وفعلا، مارست هذه الطائفة نفوذا قويا على الصعيد السياسي فاقت فيه باقي الطوائف الإسلامية الأخرى، ومثلت، في بعض الأوقات، رادعا قويا لتجاوزات السلطات المحلية. وقد لخص عبد الرحيم عبد الرحمن هذه الأدوار، فقال: «ولم يقتصر هذا الدور [السياسي] على المغاربة المتجولين في الريف المصري، وإنما شاركهم فيه المغاربة المقيمون بالقاهرة بما توافر لهم من ثراء نتيجة لانشغالهم بالتجارة، وبما كان لهم من تنظيم قوي داخل أحياء القاهرة التجارية. ولذا، فإنهم لم يستسلموا لهذه

---

(١٣) محمد بن أحمد بن إياس، **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، تحقيق محمد مصطفى، سلسلة كتاب الشعب، ١١ ج (القاهرة: مطابع الشعب، ١٩٦١)، ج ٥، ص ١٣.

(١٤) M. C.-F. Volney, *Voyage en Syrie et en Égypte, pendant les années 1783, 1784 et 1785* (Paris: Volland; Desenne, 1787).

ورد في: Jacques Derogy et Hesi Carmel, *Bonaparte en Terre sainte* (Paris: Fayard, 1992).

السلطات [المملوكية والعثمانية]، إذا رأوها تحيد عن طريق الصواب، ولا يخشون في الحق لومة لائم، ولا يهابون كبيرا ولا أميرا»[١٥].

ثانياً: الحضور المغربي بالشام

أما الشام الذي خضع الجزء الجنوبي منه للغزو والاحتلال من طرف جيش الشرق خلال هذه الحملة فقد كانت تقطنه جالية مغربية متواضعة الحجم والكثافة، لكنها كانت واسعة التأثير والنفوذ على مجريات الأحداث داخل هذه المنطقة.

يعود استقرار المغاربة ببلاد الشام إلى أسباب مختلفة، لعل أهمها أداء فريضة الحج والعمرة وما يتصل بهما من زيارة للأماكن الإسلامية المقدسة وعلى رأسها القدس الشريف الذي غالبا ما كان يمر به الحجاج المغاربة خلال مرحلة الذهاب أو الإياب. وإذا كان أغلبهم يكتفي بالزيارة والصلاة في هذه البقعة الطاهرة، فقد وجد منهم من كان يفضل الإقامة هناك لمدة قد تطول أو تقصر[١٦]. إلى جانب ذلك، كان المغاربة يقصدون الشام ودمشق منه على وجه الخصوص، لطلب العلم أو تدريس بعض العلوم التي برزوا فيها، مثل القراءات السبع وعلوم اللغة، وفي مقدمتها النحو[١٧].

أما السبب الأهم الذي حرك أكبر عدد من المغاربة باتجاه الديار الشامية وأقنعهم بالاستقرار بها لأطول مدة ممكنة، فهو العمل العسكري، إما تلبية لرغبة الدول الإسلامية التي تداولت الحكم بالمشرق، مثل الدولتين العباسية والفاطمية، في تطعيم جيوشها بفرق من الجند المغاربة بغية تحقيق نوع من التوازن بين مختلف العناصر المكونة لها، أو تحقيقا لفريضة الجهاد ضد الغزو الصليبي الذي استهدف الشام على مدار قرنين من الزمن. فقد ذكر أحمد علي، استنادا إلى مجبر الدين الحنبلي صاحب

---

(١٥) عبد الرحيم، «دور المغاربة في تاريخ مصر في العصر الحديث (القسم الأول)،» ص ٥٧.

(١٦) عبد الهادي التازي، **أوقاف المغاربة في القدس: وثيقة تاريخية سياسية قانونية** (المحمدية: مطبعة فضالة، ١٩٨١)، ص ٢٦٥.

(١٧) Pouzet, «Maghrébins à Damas au VII/XIII siècle,» p. 176.

الأنس الخليل، أنه قتل من الأندلسيين والمغاربة على أبواب المسجد الأقصى وداخله، حين هجم عليه الصليبيون سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م، حوالى ثلاثة آلاف رجل، وكان منهم المقيمون بالمدينة والمجاورون بالمسجد الأقصى[(١٨)]. أما محمد بن جبير فقد كتب في رحلته بمناسبة زيارته لـ «حصن كبير من حصون الإفرنج يعرف بتبنين، وهو موضع لتمكيس القوافل»[(١٩)]، أن «أكثر المعترضين في هذا المكس المغاربة، ولا اعتراض على غيرهم من جميع بلاد المسلمين. وذلك لمقدمة منهم أحفظت الإفرنج عليهم، سببها: أن طائفة من أجنادهم، غزت مع نور الدين [زنكي] رحمه الله أحد الحصون. فكان لهم في أخذه غنى، ظهر واشتهر. فجازاهم الإفرنج بهذه الضريبة المكسية، ألزموها رؤوسهم (...)، وقال الإفرنج: إن هؤلاء المغاربة كانوا يختلفون على بلادنا، ونسالمهم ولا نرزؤهم شيئا. فلما تعرضوا لحربنا، وتألبوا مع إخوانهم المسلمين علينا، وجب أن نضع هذه الضريبة عليهم»[(٢٠)]. ثم أضاف، معلقا على المعاملة التي خص بها الإفرنج المغاربة دون غيرهم من المسلمين: «فللمغاربة في أداء هذا المكس، سبب من الذكر الجميل في نكايتهم العدو، يسهله عليهم ويخفف عنته عليهم»[(٢١)].

ويبدو أن وجود المغاربة بالشام لم ينقطع بمجرد انتهاء الحروب الصليبية، بل ربما تقوى أكثر خلال القرون اللاحقة. كما يبدو أن عملهم هناك تحول من المجاهدة ضد الإفرنج إلى العمل في صفوف القوات العسكرية المحلية، واستمروا على هذه الحال حتى نهاية القرن الثامن عشر. فقد خلصت ليلى الصباغ في بحث لها حول هذا الموضوع إلى القول: «إن من بين الأعمال الكبرى التي برز فيها الوجود المغربي

---

(١٨) للمزيد من التفصيل عن الأدوار الجهادية التي قام بها المغاربة في الشام خلال العصور الوسطى، انظر: أحمد علي، **الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام منذ نهاية القرن الخامس وحتى نهاية القرن التاسع الهجري** (دمشق: دار طلاس للدراسات والنشر والترجمة، ١٩٨٩)، ص ٣٠٢-٣٠٩.

(١٩) محمد بن أحمد بن جبير، **رحلة ابن جبير** (بيروت: الشركة العالمية للكتاب، [د. ت.])، ص ٢١٠.

(٢٠) المصدر نفسه.

(٢١) المصدر نفسه.

واضحا وفعالا، العمل العسكري أو الارتزاق عن طريق الجندية. فالمصادر المعاصرة للقرن ١٢هـ/١٨م، تشير إليهم فرقا خاصة عاملة تحت إمرة الولاة أو الأمراء المحليين في بلاد الشام ومصر: كآل العظم في بلاد الشام (١٧٢٠ ـ ١٧٨٣م)، وأمراء لبنان من الشهابيين، وظاهر العمر والي صفد وعكا (١٧٠٥ ـ ١٧٧٥م) (...)»[٢٢].

ثم أضافت موضحة أهمية التأثير الذي مارسوه على الحياة السياسية بهذه المنطقة بسبب انضمامهم إلى هذا الزعيم أو ذاك، قائلة: «وقد برزوا قوى فعالة خلال الصراعات الداخلية التي هزت المنطقة في القرن الثامن عشر؛ كالصراع بين طوائف الجند في دمشق، ولا سيما بين العسكر الانكشاري العثماني والعسكر الانكشاري المحلي. وكذلك في النزاعات الدموية بين باشوات الولايات الشامية، وفي مجالات تحقيق بعض الولاة الثائرين كظاهر العمر وعلي بك الكبير، مطامحهما ضد السلطة العثمانية. بل، إنهم ظهروا كذلك في مناوشات قتال مع الفرق العسكرية الخاصة الأخرى. بل وتمردوا على الوالي وأرهبوا أهل دمشق، حتى إن الدمشقيين اضطروا، في لحظة نقمة عارمة، أن يطردوهم ويطردوا معهم جميع المغاربة المقيمين فيها، وذلك عام ١١٥٢هـ/١٧٣٩م»[٢٣].

استمر هذا الوجود العسكري للمغاربة بمصر والشام فاعلا ومؤثرا في الحياة العامة بهذين البلدين إلى حدود مجيء الحملة الفرنسية. وخلافا لما يمكن أن يتبادر إلى الذهن، لم يكن هؤلاء المغاربة مجرد جنود مرتزقة ينحصر هدفهم في مقايضة خدماتهم القتالية دونما اعتبار ديني، بل كانت سلوكاتهم ومواقفهم في حالات نشوب الحرب وقيام المعارك، تخضع لضابط المصلحة العامة العليا، خاصة إذا تعلق الأمر بمواجهة عسكرية بين طرفين إسلاميين. فعندما انهزم المماليك أمام العثمانيين في معركة مرج دابق بسوريا سنة ١٥١٦م، وقتل سلطانهم قانصوه الغوري في هذه المعركة، طلب خلفه طومان باي من جميع المغاربة المقيمين آنذاك بمصر أن يقدموا له ألف مقاتل من شجعانهم للخروج معه لمقاتلة جيش السلطان

(٢٢) الصباغ، «الوجود المغربي في المشرق المتوسطي في العصر الحديث،» ص ٩٤.

(٢٣) المصدر نفسه.

العثماني سليم الأول. فرفضوا تلبية هذا الطلب، بدعوى أنهم لا يقاتلون سوى الإفرنج. فغضب السلطان طومان باي لتعصبهم لابن عثمان»[٢٤]. أما عندما رفض ظاهر العمر سنة ١٧٧٦م دفع أموال الميري للسلطان العثماني وقرر «العصيان والمحاربة مع عسكر السلطان»، فقد رفض «المغاربة الذين هم متسلمين [متسلمو] الأبراج»، الانصياع لأوامره اقتناعا منهم بالكلمة التي ألقاها فيهم متسلم صيدا لحساب ظاهر العمر، أحمد باشا الدنكرلي، حينما قال لهم: «نحن قوم مسلمون، وفي طاعة الدولة مقيمون، وإلى أمرها ممتثلين [ممتثلون]، ولا يجوز للمسلم الموحد محاربة عسكر السلطان بأي حال كان. فلما سمعت المغاربة من الدنكرلي هذا الخطاب، رأوا رأيه صوابا. وفي الحال سدوا برج المدافع، وصمموا على هذه النية؛ أي أن لا يحاربوا العسكر الإسلامية العثمانية[٢٥].

ويبدو أن هذا السلوك المثالي لم يستمر طويلا؛ خاصة بعد أن تدهورت أحوال الدولة العثمانية خلال القرنين السابع والثامن عشر، وسادت الصراعات الدموية بين الأمراء المحليين في مصر والشام، وارتفعت أعداد هؤلاء الجنود المغاربة، وزادت حاجة الأمراء إليهم لحسم خلافاتهم السياسية وصراعاتهم العسكرية. آنذاك، تحول هؤلاء الجنود إلى الجهة التي يرتزقون منها، «يبحثون عن معاشهم بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة، ويبيحون لأنفسهم ما يبيحه الجند المرتزقة العاديون، ويركبون أطماعهم ومطامحهم وعواطفهم الشخصية، غير ملتزمين بمواقف تنسجم مع عقيدة أو مبدأ، ولا يعدمون أيضا مسوغات لمواقفهم إذا ما تعارضت مع أعماقهم. فمن الطبيعي إذا أن يظهروا في تلك الصراعات الداخلية في المشرق العربي المتوسطي مخالفين للمبدأ الذي طرحه أسلافهم في مجابهتهم لطومان باي، بل ومتجاوزينه بمراحل عندما وقف بعضهم ضد البعض الآخر في جيوش الولاة الثائرين المتحاربين»[٢٦]. هذا ما انتهت إليه الباحثة ليلى الصباغ، بعد أن تتبعت سيرتهم خلال العصر الحديث.

---

(٢٤) ابن إياس، **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، ج ٥، ص ١٣٧.

(٢٥) «قصة أحمد باشا الجزار،» (مخطوطة مؤلفها مجهول، مكتبة جامعة القاهرة، رقم ٢٢٩٧)، ورقة ١٥/أ و١٥/ب.

(٢٦) الصباغ، «الوجود المغربي في المشرق المتوسطي في العصر الحديث،» ص ٩٨.

ثالثاً: موقع أهل المغرب الأقصى ضمن التشكيلة المغاربية بمصر والشام

في ختام هذه الجولة السريعة التي حاولنا من خلالها الإلمام ببعض ملامح الوجود المغربي بمصر وبلاد الشام انطلاقا مما تهيأ لنا الحصول عليه من مصادر وأبحاث، يجدر بنا التنبيه إلى أن المغاربة الذين تحدثنا عنهم في هذا الفصل التمهيدي، لا ينتمون كلهم إلى المغرب الأقصى تحديدا، بل توزعت أصولهم الوطنية عبر مختلف بلدان شمال إفريقيا. ذلك، أن أهل المشرق ومن سار على عادتهم من الكتّاب الأجانب، كانوا يطلقون اسم «المغرب» على كل بلدان شمال إفريقيا المعروفة اليوم، كما كانوا يسمون «مغربي» كل من كان يفد عليهم من هذه الجهة بغض النظر عن انتماءاتهم الوطنية الضيقة. لذلك، ينبغي ألا يفهم من كلامنا السابق أن هذه الجالية المغربية التي كانت تقيم بأرض مصر والشام، كانت تتألف فقط من مغاربة المغرب الأقصى؛ سواء كانوا تجارا أو طلاب علم أو جندا، بل اتسعت صفوفهم لتشمل رعايا كل البلدان المغاربية الأخرى.

ورغم ذلك، يجدر التنبيه إلى أن أهل المغرب الأقصى كانوا يحتلون مركز الصدارة داخل هذه الجالية المغربية، خاصة على مستوى التجار والحرفيين. فقد أكد أحد الباحثين الفرنسيين من خلال تحرياته بدفاتر المحاكم الشرعية بالقاهرة، أن أهل المغرب الأقصى كانوا هم الأكثر عددا من مجموع رعايا البلدان المغاربية الأخرى. فمن بين تسعة وتسعين مغربيا معروف الانتماء الوطني، وجد ثلاثة وخمسون فردا من المغرب الأقصى، وهي نسبة تفوق النصف. ثمانية وأربعون منهم ينتمون إلى فاس، وثلاثة فقط ينتمون إلى مراكش. لهذا، غالبا ما كان ينعت أهل المغرب الأقصى، لدى الأوساط المشرقية وخاصة العثمانية منها، بـ «الفاسيين». ويأتي بعد هؤلاء أهل تونس بحوالى الربع، أكثرهم من جربة وتونس العاصمة. بينما يحتل الموقع الثالث ثم الرابع، أهل طرابلس الغرب بخمسة عشر فردا، وأهل الجزائر بخمسة أفراد[٢٧].

---

(٢٧) Raymond, *Artisans et commerçants au Caire au XVIIIème siècle*, vol. 2, p. 471.

وإذا كان أغلب أفراد هذه الجالية المغاربية ينتمون إلى المغرب الأقصى، فإن أكبر ثروة مالية ونفوذ سياسي كانا أيضا من نصيبهم. فقد ثبت لدى هذا الباحث أن تركات أهل المغرب الأقصى بين سنتي ١٧٦٦ و١٧٩٨ كانت في حدود ٤٠٩,٩٦٠ بارة ثابتة. بينما لم يتعد متوسط أهل تونس ما مقداره ١٠٠,٩٩٧ بارة. أما أهل الجزائر فكان متوسط تركاتهم ٨٤,٧٠٠ بارة، بينما لم يتعد بالنسبة لأهل طرابلس ٧٤,٠٢٥ بارة[٢٨].

إضافة إلى هذا وذاك انفرد أهل المغرب الأقصى بسكناهم ومزاولة نشاطهم التجاري والمهني بالأحياء الغنية وسط القاهرة، خاصة منها حي الغورية والفحامين. أما أهل البلدان المغاربية الأخرى فكانت أغلب سكناهم وأماكن مزاولة نشاطهم التجاري والمهني تتمركز بالأحياء الفقيرة جنوب القاهرة، مثل حي ابن طولون المجاور للقلعة الذي اشتهر أكثر بسكنى أهل تونس[٢٩]. (انظر الخريطتين الرقمين (١٠ ـ ١) (١٠ ـ ٢) والصورتين الرقمين (١٠ ـ ١) و(١٠ ـ ٢)).

وغني عن القول، إن هذا التميز الذي كان يحظى به أهل المغرب الأقصى على المستوى الكمي والكيفي، سيخول لهم نفوذا أكبر من غيرهم في الميدانين السياسي والإداري، وسيتيح لهم إمكانات أكبر للاندماج مع الطبقات العليا النافذة في المجتمع المصري. ولا أدل على ذلك من أن أغلب شيوخ الطوائف التجارية والمهنية ووكلائهم، كانوا من أهل المغرب الأقصى، ووصل بعض تجارهم، مثل «الخواجا المعظم أحمد بن عبد السلام الفاسي»، إلى مركز شاه بندر تجار القاهرة، وكوّنوا وكالات تجارية كبرى، مثل وكالة الشرايبي وأحمد المراكشي[٣٠]. ولا يستبعد أن يكون أهل المغرب الأقصى قد مارسوا نفس القدر من القوة والتميز بباقي المدن المصرية والشامية.

---

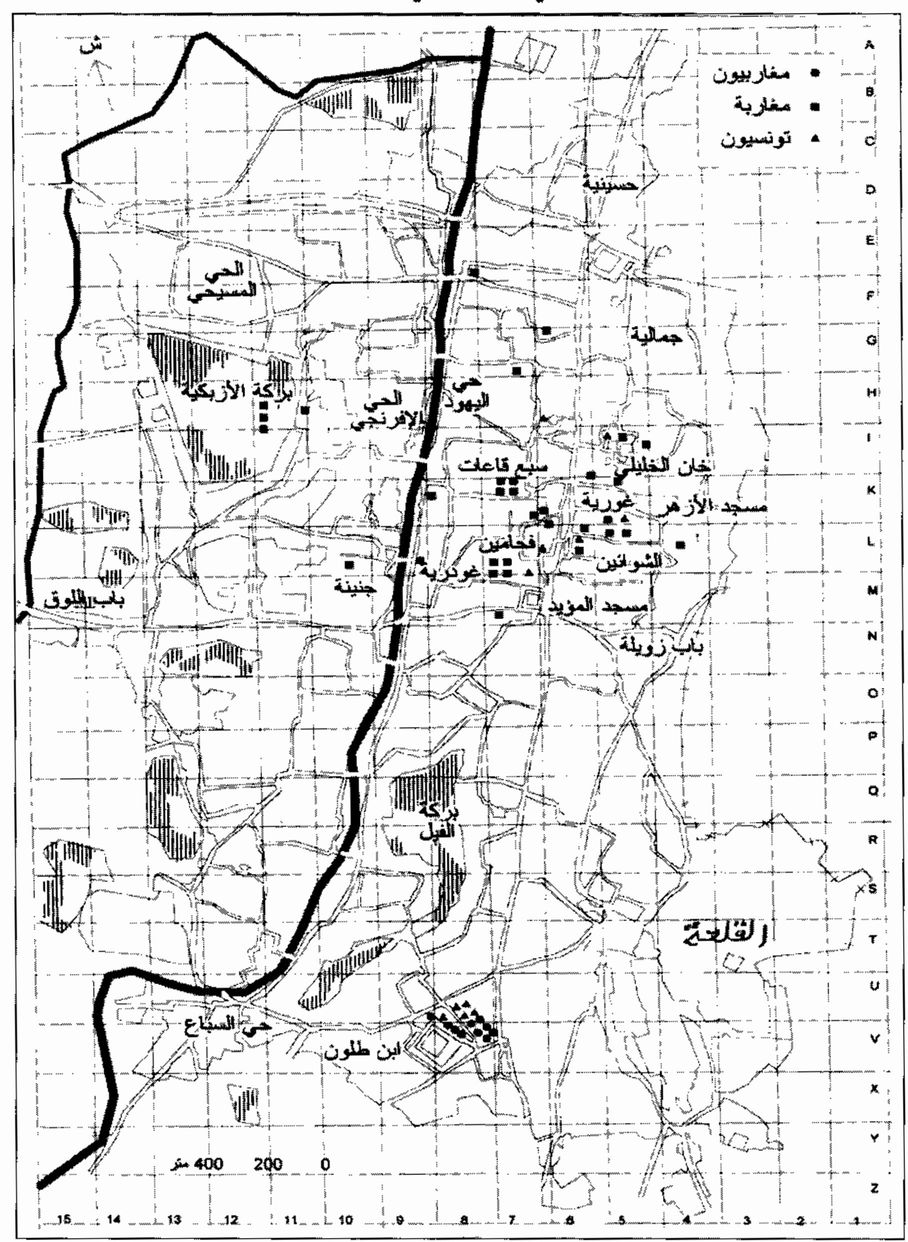
(٢٨) المصدر نفسه، ص ٤٧٣.

(٢٩) Raymond, «Les Quartiers de résidence des commerçants et artisans maghrébins au Caire au 18ème siècle,» pp. 355-365.

(٣٠) عبد الرحيم، **فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني**، ص ١٥٣ ـ ١٥٤.

الخريطة الرقم (١٠ ـ ١)

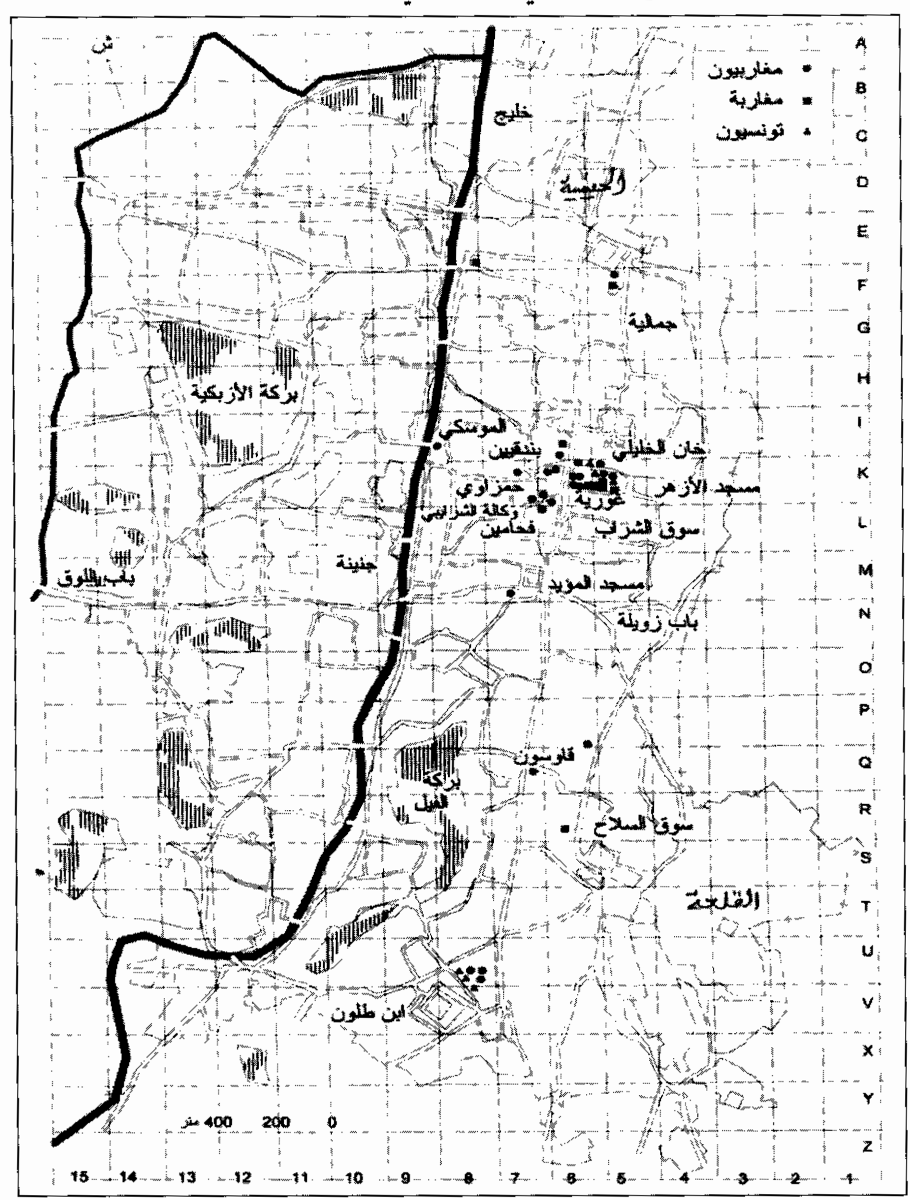
أماكن إقامة المغاربة في القاهرة في أواخر القرن الثامن عشر



المـــصـــدر: André Raymond, «Les Quartiers de résidence des commerçants et artisans maghrébins au Caire au 18ème siècle,» *Revue d'Histoire Maghrébine* (Tunis), nos. 31-32 (décembre 1983), p. 362.

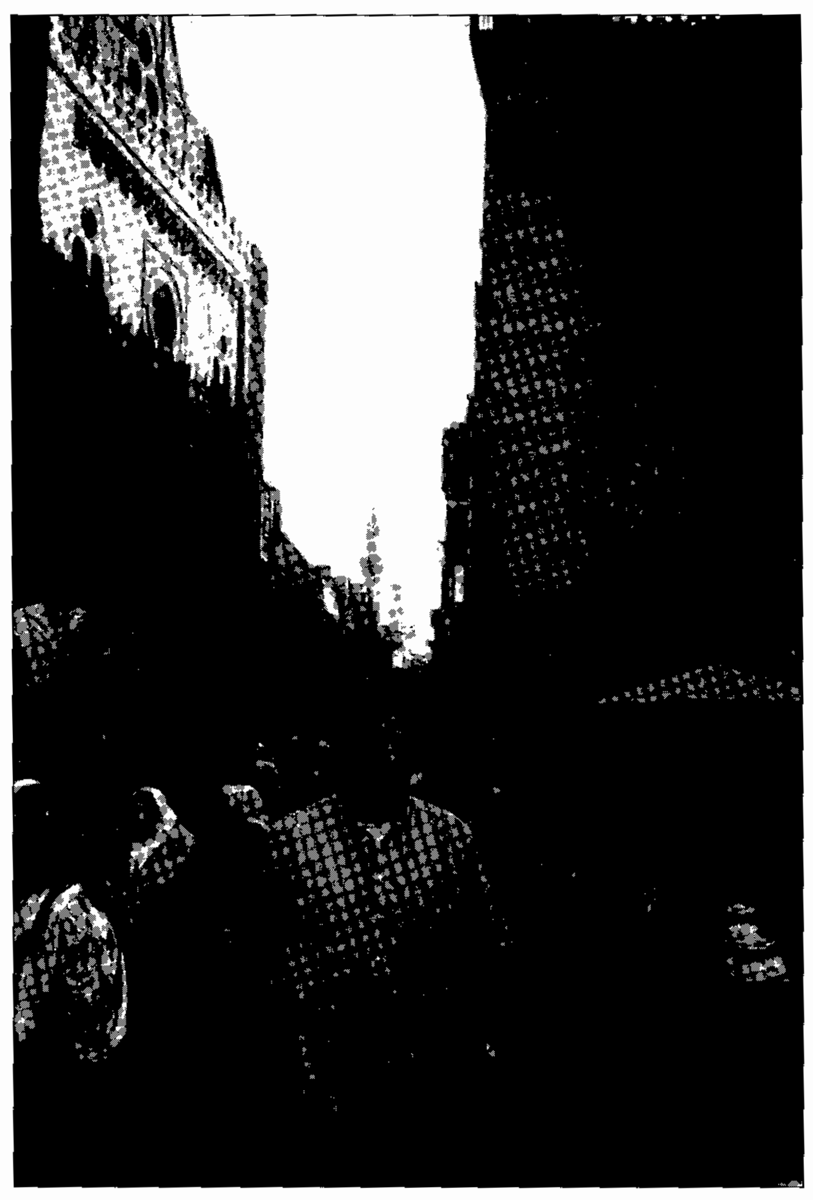
الخريطة الرقم (١٠ ـ ٢)

أماكن عمل المغاربة في القاهرة في نهاية القرن الثامن عشر



المصدر: المصدر نفسه، ص ٣٦١.

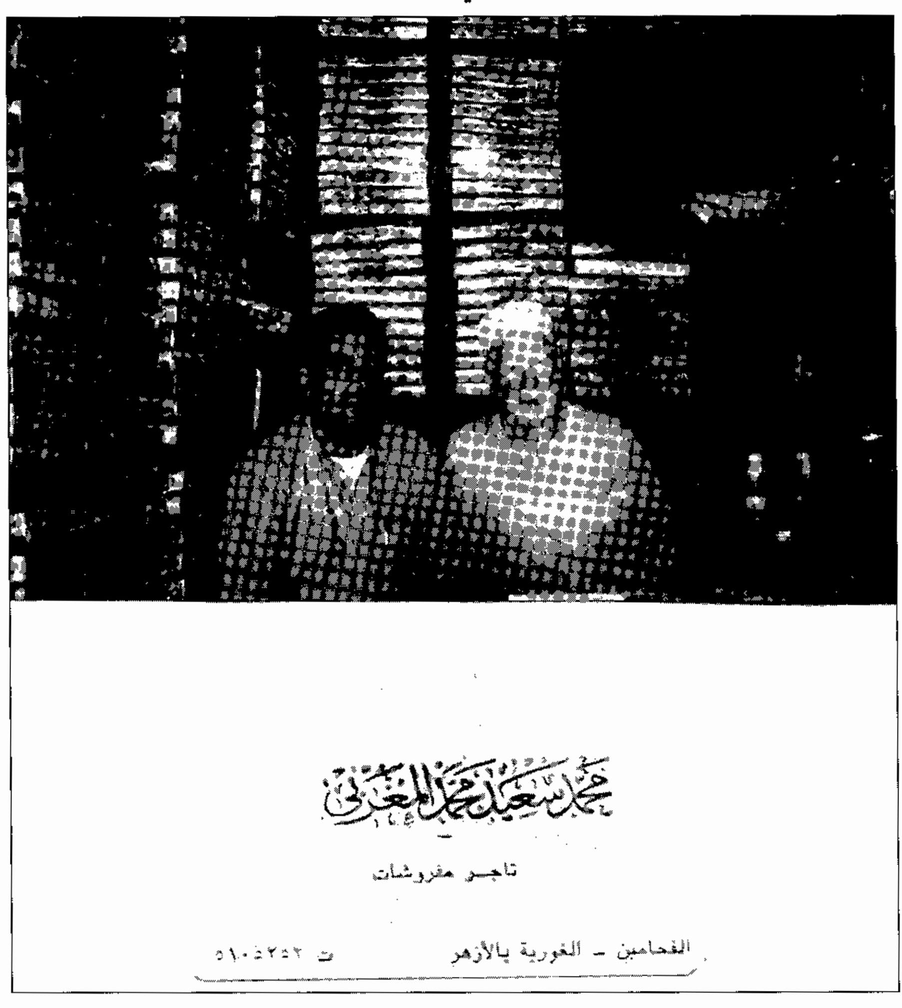
الصورة الرقم (١٠ ـ ١)
حي الغورية الذي اشتهر خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بسكنى وعمل تجار أهل المغرب الأقصى



(أخذت هذه الصورة في شهر نيسان/ أبريل من سنة ١٩٩٩).

الصورة الرقم (١٠ ـ ٢)

من اليمين إلى اليسار: تاجر مغربي من أسرة فاسية استوطنت القاهرة منذ فترة بعيدة، ويشتغل حالياً بحي الغورية، وإلى يساره صاحب البحث



(أخذت هذه الصورة في شهر نيسان/ أبريل من سنة ١٩٩٩).

أصبح من المؤكد لدينا، من خلال هذه البيانات، أن أهل المغرب الأقصى كانوا يشكلون الطائفة المغاربية الأكثر عددا ونفوذا داخل القاهرة التي كانت تضم أكبر جالية مغاربية بمصر في نهاية القرن الثامن عشر، والتي ستشهد أخطر الأحداث المتصلة بالحملة.

لكن، إذا كانت تحريات أندري ريمون قد أتاحت لنا فرصة التعرف على الأصول الوطنية لأكبر تجمع سكاني مغاربي عرفته مصر ممثلا في الجالية التي كانت تقيم بالقاهرة، فإننا لا نكاد نظفر بشيء ذي قيمة تذكر لما كان يعرف في الكتابات المشرقية بـ «عسكر المغاربة». فلا نعرف على وجه التحديد إلى أي بلد من البلدان المغاربية كانوا ينتمون؟ ولا ما هو نصيب كل بلد منهم في تكوين هؤلاء الجند؟ ذلك، أن صفة المغاربة التي ألحقت بهذا العسكر لا تعني انتماءهم جميعا إلى المغرب الأقصى؛ إذ المقصود منها، حسب المعنى المتداول للفظة مغاربة آنذاك، هو إحالتهم على بلدان شمال إفريقيا بما في ذلك المغرب الأقصى.

ورغم ذلك، يوجد أكثر من سبب يجعلنا نرجح أن نسبة المنتسبين من هؤلاء الجند إلى المغرب الأقصى كانت أقل بكثير من نسبة المنتسبين منهم إلى البلدان المغاربية الأخرى. ويأتي على رأس هذه الأسباب، كون الفترة التي أخذ فيها هؤلاء الجند يتحولون تدريجيا من مجاهدين إلى مرتزقة، جاءت بعد دخول العثمانيين إلى المشرق العربي وضمهم لطرابلس وتونس والجزائر، في وقت ظل فيه المغرب الأقصى خارجا عن السيادة العثمانية.

لذلك، نحتمل أن يكون أهل البلدان المغاربية الثلاثة التي اشتركت مع مصر والشام في التبعية للحكم العثماني، أقرب من أهل المغرب الأقصى إلى الهجرة إلى هاتين الولايتين العثمانيتين وممارسة الجندية بهما، خاصة إذا علمنا أن عساكر الولايات العثمانية المشرقية منها والمغاربية كانت تجتمع مع بعضها البعض لمدد طويلة خلال المعارك التي كانت تستدعى للمشاركة في خوضها في أي نقطة من نقاط الإمبراطورية العثمانية. فمما لا شك فيه أن مناسبات مثل هاته ستقوي لدى الجنود المنتسبين إلى الإيالات المغاربية فرصا خاصة للانتقال إلى المشرق، سيما خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر اللذين شهدا تدهورا في الأحوال الاقتصادية بتونس والجزائر جراء تراجع عائدات الجهاد البحري وتوالي سنوات الجفاف.

يضاف إلى هذا، سبب آخر تمثل في تراجع ظل الدولة العثمانية بالمشرق، واستفحال الصراع على السلطة بين الزعامات المحلية، المملوكية منها والعربية، ما أغرى عددا من الجنود المغاربيين بالانتقال إلى هذه الديار

من أجل ترقية أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية، وربما شجعهم على ذلك أكثر صلة القرابة الدموية التي كانت تجمع بين النخب العسكرية المتنفذة في مصر والشام والجنود المنتسبين إلى الإيالات المغاربية الثلاث، ووجود عدد من الشخصيات السياسية والعسكرية ممن سبق لها أن تولت مسؤولية الحكم والإدارة بإحدى الولايات المغاربية إلى جانب كبار القادة المماليك بمصر، مثل علي باشا الطرابلسي(٣١) الذي كان بمثابة الساعد الأيمن لمراد بك. ناهيك عن أن أهل المغرب الأقصى الذين كانوا يمارسون سيطرة قوية على الشبكة التجارية في المشرق وحولوا القاهرة إلى عاصمة اقتصادية مغربية بامتياز، لم يكونوا مضطرين إلى بيع خدماتهم العسكرية للمماليك أو غيرهم من الزعامات المحلية، أو المجازفة بأرواحهم مقابل ما يمكن أن يحصلوا عليه من امتيازات اجتماعية أو ربح مالي.

ورغم ذلك، لا نستبعد أن يكون البعض منهم قد انخرط، لهذا السبب أو ذاك، في هذه الفرق المقاتلة. إلا أننا نظل نعتقد أن الجزء الغالب الذي تكون منه ما كان يعرف بـ «عسكر المغاربة»، إنما تعود أصوله الوطنية إلى أوجاقات الإيالات المغاربية الثلاث، خاصة منها الجزائر وتونس. وهذا ما انتهى إليه فعلا بعض المؤرخين حسب ما ورد عند ليلى الصباغ، حين قالت: «ولقد عزا بعض المؤرخين توافرهم وتدفقهم على سواحل الشام بالتخمة في«اليد العاملة العسكرية» في الجزائر في القرن الثامن عشر. فالكراغلة المحرومون من الوصول إلى المناصب العليا، والأغوات الذين كانوا يغيرون كل شهرين، كانوا يكوّنون فئة ناقمة ومعطلة وبحاجة ماسة إلى آفاق جديدة تمارس فيها طموحها. وبالطبع، لم تكن لتفتقد روح المغاربة وحب الزعامة، كي تجد لها في بلاد الشام متنفسا. إلا أن هذا التعليل يبقى محدودا وناقصا إذا لم يربط بسوء أحوال الاقتصاد النسبي في الجزائر في القرن الثامن عشر

---

(٣١) علي باشا الطرابلسي: أصله من الجزائر. كان مملوكاً لحاكمها محمد باشا. ثم ولي طرابلس. وبعد طرده منها هرب من الإسكندرية، وصار من أتباع مراد بك وأخصائه. وبعد انهزام هذا الأخير في معركة الأهرام أمام نابليون، رحل صحبته إلى الصعيد. ثم فارقه والتحق بإبراهيم بك بالشام. ثم عاد إلى مصر بعد خروج الفرنسيين منها. وبها توفي في أواخر شوال سنة ١٢١٨. انظر: عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ٣ ج (بيروت: دار الجيل، [د. ت.])، ج ٢، ص ٦٢٢ ـ ٦٢٤.

والمجاعات المتواترة وضعف النشاط البحري المغربي والعثماني الذي كان يمتص كثيرا من اليد العاملة»[٣٢]. وبعد أن أكدت أن المعطيات الخاصة بكيفية الحصول عليهم والتعرف على بنيتهم ضعيفة جدا، اعترفت بأن هناك تركيزاً «من قبل المؤرخين على أن هؤلاء الوافدين العسكريين، هم من تونس والجزائر دون غيرهما من بلاد المغرب»[٣٣].

وإذا كانت استنتاجات هذه الباحثة قد تركزت أكثر على بلاد الشام، فإننا نعتقد أن الجند المغاربيين الذين وجدوا بمصر قبيل الحملة لم يشذوا عن هذه القاعدة لاعتبارات عدة منها؛ أن مصر كانت أقرب إلى هؤلاء الجنود وأدعى إلى الهجرة من الشام، حيث كان بإمكان الزعامات السياسية، الاستعانة بالسكان المحليين لتقوية عساكرهم عكس مصر التي كان يضطر أمراؤها إلى استقدام ما يحتاجون إليه من مقاتلين من خارج البلاد.

خلاصة الفصل العاشر

يستنتج مما سبق أن عددا من بلدان المشرق وعلى رأسها مصر والشام كانت تعرف خلال هذه الفترة المبكرة التي نزلت فيها الحملة بهذه الديار، حضورا مغربيا متميزا على الصعيدين الاقتصادي والعسكري. وإذا كانت صفوف هذه الجالية قد اتسعت لمختلف البلدان المغاربية وفق الهيئة التي كانت توجد عليها آنذاك، فقد شكل أهل المغرب الأقصى داخل هذه الجالية العنصر الأكثر عددا وتأثيرا في الحياة العامة لهذين البلدين.

ـ فماذا كان موقف هؤلاء المغاربة الذين اتخذوا من مصر والشام مقاما ومستقرا، من هذا العدوان العسكري الذي استهدف هذين البلدين؟

للإجابة عن هذا السؤال نخصص المبحثين التاليين لنراقب، من خلالهما، الكيفية التي تصرف بها مع هذا الواقع الاستعماري من كان يعرف هناك بـ «المغاربة البلديين» من علماء وطلاب وتجار وحرفيين، ومن اشتهر تحت مسمى «عسكر المغاربة».

---

(٣٢) الصباغ، «الوجود المغربي في المشرق المتوسطي في العصر الحديث،» ص ٩٧.

(٣٣) المصدر نفسه.

الفصل الحادي عشر

موقف المغاربة «البلديين» من الحملة

مقدمة

سنقتصر في هذا الفصل على تناول موقف المغاربة الذين كانوا يستقرون بمصر والشام ويزاولون بهما مهام مدنية؛ مثل التجارة وبعض الحرف الأخرى، أو التدريس وطلب العلم؛ أي أولئك الذين اشتهروا في الكتابات المشرقية تحت اسم «المغاربة البلدية» أو «المغاربة البلديون». وكما علمنا ذلك، من خلال الفصل السابق، كان هؤلاء المغاربة ينتشرون في عدد من المدن المصرية والشامية، إلا أن أغلبهم كان يقطن بالقاهرة. لذلك، سنركز حديثنا، خلال هذا الفصل، على الجالية المغربية التي كانت تقيم بهذه العاصمة، والتي كان أغلبها، كما تبين لنا ذلك، ينتمي إلى المغرب الأقصى.

أما منهجية البحث فتتلخص في استقصاء الصور والمواطن التي تجلى من خلالها تفاعل هؤلاء المغاربة مع أهم الأحداث التي شهدتها مصر والشام منذ دخول الحملة حتى خروجها. وكما هو واضح، فإن حديثنا، وفق هذه المنهجية، سيتركز أساسا على فئة التجار ومن كان يتصل بهم من حرفيين وعلماء وطلاب، من دون أن نغفل بعض ردود الفعل المنعزلة التي كانت تصدر هنا وهناك عن شخصيات مغربية. أما المحطات الرئيسة التي سنراقب من خلالها موقف هؤلاء المغاربة، فستتمحور حول أهم المعارك والثورات ومختلف الإجراءات والمواقف التي كانت تتخذ بمناسبتها.

أولاً: رواق المغاربة:
الرمزية الدينية والنفوذ الأدبي واستخداماتهما السياسية

ألمحنا في إحدى المناسبات السابقة إلى المكانة والأهمية التي كان يحظى بهما رواق المغاربة بالأزهر الشريف، وأوضحنا الروابط القوية التي كانت توجد بين هذه المؤسسة الدينية والعلمية وباقي المغاربة؛ سيما منهم التجار والحرفيون الذين كانوا يرون في هذا الرواق رمزا لقوتهم ونفوذهم الاقتصادي والسياسي، وتأكيدا لهويتهم الوطنية والمذهبية؛ فغمروه بحدبهم، وشملوه بكرمهم حتى غدا أقوى وأغنى الأروقة، وأجرأها على التعبير بحرية عن مواقفه فيما كان يطرأ داخل الأزهر وخارجه من مستجدات ويقع من أحداث، وهذا ما دفع بأحد الباحثين المتخصصين إلى القول: «وقد كان رواق المغاربة بالجامع الأزهر من أعنف الأروقة وأشدها ميلا إلى العنف»[1]. (انظر شكل هذا الرواق في الصورة الرقم (١١ ـ ١)).

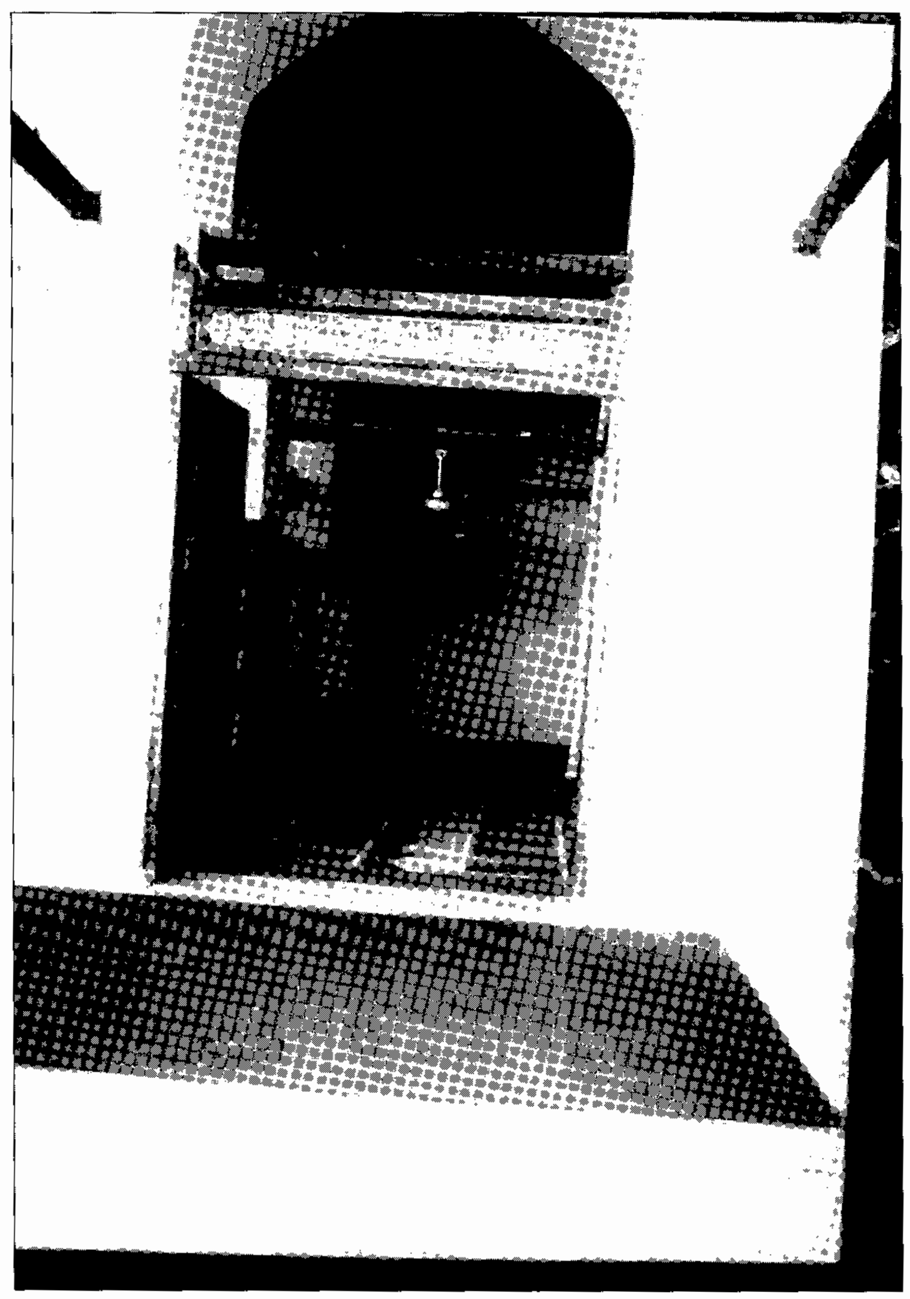
وعلمنا، من جهة أخرى أن جامع الأزهر شكل أحد مراكز المواجهة القوية ضد الغزو الفرنسي، ولا أدل على ذلك من تدبير ثلة من علمائه لما عرف بـ «ثورة القاهرة الأولى»؛ فاستبيحت، بسبب ذلك، باحات هذا الجامع وأروقته، ثم أغلق حوالى سنة. وعلى الرغم من انخراط عدد من علمائه في الديوان الخصوصي الذي أنشأه نابليون وخلفاؤه من بعده، وإعادة فتح هذا الجامع للتدريس، ظل هذا المعلم الديني يشكل هاجسا قويا بالنسبة للسلطات الفرنسية التي كانت تعلم مدى القوة والنفوذ اللتين يمارسهما مشايخه على السكان. وقد ازداد تخوفهم هذا وتقوت شكوكهم حينما اغتال أحد طلابه[2] القائد العام لجيش الشرق الجنرال كليبر.

---

(١) مصطفى محمد رمضان، **دور الأزهر في الحياة المصرية إبان الحملة الفرنسية ومطلع القرن التاسع عشر** (القاهرة: مطبعة الجبلاوي، ١٩٨٦)، ص ٢٤٣.

(٢) نقصد به سليمان الحلبي الذي سبق له أن درس بالأزهر. ثم عاد إليه خلال الحملة، واغتال الحاكم العام لجيش الشرق الجنرال كليبر. انظر تفاصيل هذا الاغتيال والمحاكمة التي تلته عند: عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ٣ ج (بيروت: دار الجيل، [د. ت.])، ج ٢، ص ٣٥٨ ـ ٣٩٠.

الصورة الرقم (١١ ـ ١)
رواق المغاربة بالأزهر الشريف



(أخذت هذه الصورة في شهر نيسان/ أبريل من سنة ١٩٩٩).

لذلك، يمكن القول إن جامع الأزهر شكل بأروقته المختلفة إحدى المؤسسات التي تفاعلت بشكل مباشر وقوي مع هذه الحملة من بدايتها حتى نهايتها. وغني عن القول، إن رواق المغاربة الذي اتهم عند البعض بإثارة الفتن والميل إلى العنف، سيجد نفسه بهذه المناسبة في وضع يحتم عليه التعبير عن موقفه والاضطلاع بمسؤولياته.

- فكيف كان رد فعل هذا الرواق تجاه الاحتلال الفرنسي لمصر والشام وما تخلل ذلك من معارك وثورات؟

تجلى هذا الموقف أول مرة عندما بادر شيخ هذا الرواق، السيد سالم بن مسعود الطرابلسي، إلى الفرار خارج القاهرة صحبة عدد من العلماء والمشايخ بعد انهزام المماليك في معركة الأهرام، والتحاقه، بعد ذلك، بالزعيم المملوكي الكبير إبراهيم بك الذي فر بدوره إثر هذه المعركة إلى الشام حيث كانت ترابط عساكر أحمد باشا الجزار. ورغم أن عددا من كبار العلماء والمشايخ عادوا إلى القاهرة بعدما أخذ زملاؤهم ممن اتصل بنابليون أمانا لهم بذلك، فإن شيخ رواق المغاربة المذكور استقر ببيت المقدس حتى وافته المنية هناك سنة ١٢١٤هـ[٣].

لا نعرف، على وجه التحديد، لماذا آثر شيخ رواق المغاربة المذكور الاستقرار ببيت المقدس على العودة إلى القاهرة للاستمرار في ممارسة مهمته. لكن، يحتمل أن يكون قد سلك في تصرفه ذاك مسلك عدد من العلماء الذين فضلوا الارتحال إلى الشام، مثل عمر النقيب وغيره، على العودة إلى مصر والقبول بالأمر الواقع. وكيفما كان الحال، فإن منصب شيخ رواق المغاربة أضحى شاغرا لهذا السبب.

١ ـ رواق المغاربة يدشن أول اتصال من نوعه بنابليون

إذا كان الشيخ سالم بن مسعود الطرابلسي الذي شهد له صاحبه الجبرتي بقيادة هذا الرواق «بشهامة وكرم»[٤]، قد آثر الإفلات بجلده على

(٣) انظر: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٥٦.

(٤) المصدر نفسه.

الوقوع بين أيدي القوات الفرنسية الغازية، فإن أحد علماء هذا الرواق سيغامر بحياته من أجل إرجاع الهدوء والسكينة إلى من تبقى من سكان القاهرة. أقصد بذلك أبا القاسم المغربي الذي تمكن من اجتياز النيل والاتصال بنابليون الذي كان يقيم ساعتها بالبر الغربي، وسلمه هناك مراسلة من قبل «جماعة من أهل العلم وغيرهم»، يطلبون منه فيها أمانا للمدينة[٥].

حصل ذلك بعد مغادرة المماليك وكبار الشيوخ والعلماء للقاهرة بسبب الهزيمة التي لحق بهم في معركة أمبابة التي جرت أطوارها قبالة القاهرة في البر الغربي من النيل، بتاريخ ٢١ تموز/يوليو ١٧٩٨. لكن، خلافا لما كان يتوقعه الجميع، لم يتسرع نابليون في دخول القاهرة ويستبيح ساكنتها؛ حيث اكتفى بتوجه رسالة إلى «شيوخ وأعيان القاهرة» يأمرهم فيها أن يبعثوا إليه وفدا ليخبره باستسلام المدينة، وأرفق هذه الرسالة بالمنشور الذي سبق له أن سربه إلى المدينة قبل المعركة، تأكيدا لنواياه السلمية تجاههم[٦].

ويبدو أن سكان القاهرة أو من بقي منهم، على الأقل، لم يطمئنوا بما فيه الكفاية إلى ما تضمنه ذلك المنشور من وعود وتعهدات، كما أنهم لم يكونوا على استعداد لمقاتلة الفرنسيين في تلك اللحظة الحرجة التي تخلى فيها عنهم المماليك والكثير من العلماء والأعيان. . ف «اجتمع بالأزهر جماعة من أهل العلم وغيرهم، وتشاوروا في ما بينهم، واتفقوا أن يرسلوا مراسلة إلى الفرنج، وينتظروا الجواب. فأرسلوا خلف رجل من أعيان طرابلس يقال له علي بك[٧] نزيلا بمصر يعرف لغتهم، وأصحبوا معهم [كذا] آخر من رواق المغاربة، وآخر من المتعممين. فذهبوا إلى بولاق، وأرادوا النزول في مركب ليعدوا إلى البر الغربي، فصادف أن الفرنج ضربوا بعض مدافع، فلم يتجاسروا على التعدية، ورجعوا. فأخذ ذلك

---

(٥) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، **تاريخ مدة الفرنسيس بمصر، محرم ـ رجب ١٢١٣هـ، ١٠ يونيو ـ ديسمبر ١٧٩٨م**، قدّم له وحققه وترجمه [إلى الإنكليزية] ش. موريه (ليدن: إ. ج. بريل، ١٩٧٥)، ص ٢٦.

(٦) C.N., no. 2817, Gyzeh, Napoléon aux chieks et notables de Caire, 4 thermidor 7 (22 juillet 1798), vol. 4, p. 340.

(٧) انظر ترجمته في الهامش رقم (١٥٩) في الفصل التاسع من هذا الكتاب.

المغربي، ويعرف بأبي القاسم، المراسلة وعدى بها إلى البر الآخر. وقابل كبيرهم، وأعطاه المراسلة. فقال له على لسان الترجمان: لِمَ لم يأتنا أحد من مشايخكم. فقال له: ها أنا لأستأذن لهم في الحضور وآخذ الأمان للناس. فقال: نحن أرسلنا لكم في السابق مكاتبة فيها الكفاية، ولا نكتب غيرها. فرجع أبو القاسم المذكور، وأخبر المشايخ، وقال: لا بد من ذهاب جماعة من وجهائكم»[٨]. وبالفعل، ذهب وفد مؤلف من الشيخ مصطفى الصاوي، والشيخ سليمان الفيومي وغيرهما. ونجحوا في الاتصال بنابليون، وأخذوا منه أمانا مكتوبا لسكان القاهرة[٩].

ورغم الاختلاف الموجود بين هذه الرواية والروايتين اللتين تضمنهما كتابا **مظهر التقديس وعجائب الآثار**، فإن الأمر يتعلق بشخص مغربي من رواق المغاربة[١٠]. وسواء أكان هذا المغربي قد ذهب وحده إلى نابليون أم رافقه شخص آخر، وسواء أتمكن هذا المغربي من انتزاع الأمان كتابة من نابليون أم تطلب ذلك إرسال وفد ثان مؤلف من وجهاء القوم، فإن الأمر لا يخلو من وجود شخصية مغربية تصدرت للقيام بهذه المهمة الصعبة التي تكللت بالنجاح وأعادت لسكان القاهرة الهدوء والطمأنينة بعد أن داخلهم خوف ورعب شديدين. فمن هو أبو القاسم المغربي؟

إنه واحد من الأطر العلمية التي كانت تنتمي إلى رواق المغاربة بجامع الأزهر. لا نعرف شيئا عن هويته الوطنية. لكننا، نعلم، من خلال أحد المصادر الموثوقة، أن اسمه الكامل، هو: الشيخ أبو القاسم الدرقاوي المغربي[١١].

---

(٨) الجبرتي، **تاريخ مدة الفرنسيس بمصر، محرم ـ رجب ١٢١٣هـ، ١٠ يونيو ـ ديسمبر ١٧٩٨م**، ص ٢٦.

(٩) المصدر نفسه، ص ٢٧.

(١٠) لم يذكر الجبرتي في **مظهر التقديس وعجائب الآثار**، اسم المغربي الذي كلف بالاتصال بنابليون؛ حيث قال في مؤلفه الأول: «وأرسلوها (أي المراسلة) صحبة شخص مغربي يعرف لغتهم، وآخر صحبته» (ج ١، ص ١٣٠). ثم قال في مؤلفه الثاني: «وأرسلوا شخصا مغربيا يعرف لغتهم، وآخر صحبته» (ج ٢، ص ١٩٢).

(١١) أورد الجبرتي خبره في أحد المناسبات، على الشكل التالي: «أبو القاسم الدرقاوي المغربي المنفصل عن مشيخة رواق المغاربة». انظر: الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ج ٢، ص ٣٤٧.

ـ فكيف سيتعامل هذا الرواق مع واقع الحملة بعد أن فقد شيخه القديم وعين على رأسه شيخ آخر لم يؤثر فقط عدم الفرار من وجه الفرنسيين، بل وقع عليه الاختيار من قبل مجموعة من العلماء والمشايخ للاتصال بنابليون، بعد أن أزعج مرافقيه بضع طلقات مدفع فعادوا من حيث أتوا، وظفر، هو، بأول لقاء من نوعه مع بطل معركة الأهرام وقاهر جند المماليك؟

إن المتتبع لأخبار رواق المغاربة، طيلة المدة التي خضعت فيها مصر للاحتلال الفرنسي ومقارنتها بحالة الغليان التي كانت تشهدها القاهرة، يخيل إليه أن هذا الرواق كان غير آبه بما يجري على مرمى حجر منه بل وداخله من أحداث جسام. نقول هذا بسبب انقطاع أخبار هذه المؤسسة عن المصادر العربية والأجنبية، في وقت كانت فيه القاهرة والجامع الأزهر يعيشان على إيقاع الثورات. فمن داخل هذه المؤسسة الدينية والعلمية ستنطلق ثورة القاهرة الأولى. أما ثورة القاهرة الثانية التي دامت أكثر من شهر، فقد جرت أطوارها الأكثر ضراوة بمحيط هذا الجامع. كما أن سليمان الحلبي الذي اغتال الحاكم العام لجيش الشرق الجنرال كليبر، كان أحد طلاب هذه المؤسسة.

وفعلا، لم نعثر طيلة هذه المراحل التي عاشتها القاهرة على إيقاع الثورات على أية إشارة تدل من قريب أو بعيد على ما يمكن أن يكون قد صدر عن هذا الرواق بهذه المناسبة أو تلك، باستثناء مشاركة أبي القاسم المغربي إلى جانب غيره من شيوخ الأروقة المقيمين بالأزهر، على وثيقة يقرون فيها بمسؤوليتهم الفردية والجماعية عن أي ضرر قد يصدر من ساكني هذا الجامع بأروقته المختلفة، ويلتزمون بموجبها بالقيام بجميع الإجراءات الضرورية من أجل الحصول على المساعدات النقدية أو العينية الممنوحة للأزهر[١٢]. هذه الوثيقة التي تم توقيعها من طرف جميع شيوخ الأروقة تحت عنوان «المحافظة على الهدوء العام»، لا تحمل تاريخا محددا، لكن نحتمل أن يكون توقيعهم عليها قد تم عقب ثورة القاهرة الأولى التي تزعمها علماء الأزهر.

(١٢) جامعة القاهرة، وثائق الحملة، حافظة رقم ٢٠٦. ورد هذا الالتزام تحت العنوان التالي:
«Cautionnement des cheiks de la loi, de la ville du Caire, relatif à la tranquillité publique».

ورغم ذلك، نظل نعتقد أن هذا الرواق، بشيخه وعلمائه وطلابه، لم يكن ليبق بعيدا عن أحداث وثورات كان للمغاربة فيها دور قوي وفعال؛ سواء تعلق الأمر بثورة القاهرة الأولى التي استبسل فيها مغاربة حي الغورية وحي الفحامين الملاصقين للأزهر، أو ثورة القاهرة الثانية التي تدين بطول مدتها وشدة نزالها إلى تلاحم المغاربة البلديين مع رأس المجاهدين، مولاي محمد المغربي. فمما لا شك فيه أن أحداثا مثل هاته، سيكون لها أبلغ الأثر على المنتسبين لهذا الرواق من المغاربة.

٢ ـ سلطات الحملة تدخل شيخ رواق المغاربة السجن

إذا كانت مشاركة هذا الرواق في هاتين الثورتين لم ترق إلى درجة من التميز حتى تشد إليها انتباه المتتبعين من مؤرخين وسلطات، فإن الأمر أصبح على الخلاف من ذلك عندما ضاقت السبل بإدارة الاحتلال وأصبحت قواتها قاب قوسين أو أدنى من الوقوع بين يدي الجيشين العثماني والإنجليزي المتقدمين نحو القاهرة من مختلف الجهات. في هذه الظروف الحرجة، طفا اسم شيخ رواق المغاربة، أبو القاسم المغربي على السطح، وأصبح ما يصدر عنه من أقوال مثار تهديد جدي للوجود الفرنسي. لذلك، سوف لن تتوانى السلطات الفرنسية في القبض عليه وحبسه بالقلعة. فقد ذكر الجبرتي أنه في الرابع والعشرين من شهر ذي الحجة سنة ١٢١٥ (٨ أيار/ مايو ١٨٠١)، «قبضوا على أبي القاسم المغربي، شيخ رواق المغاربة، وحبسوه بالقلعة؛ بسبب أنه كان يتكلم في بعض المجالس، ويقول: أنا شيخ المغاربة وأحكم عليهم، ويتباهى بمثل هذا القول. فنقل عنه ذلك إلى عبد العال[١٣] والفرنسيين، وظنوا صحة قوله، وأنه ربما أثار فتنة، فقبضوا عليه وحبسوه»[١٤].

أول ما يستفاد من هذا النص، أن أبا القاسم هذا ربما جمع بين

---

(١٣) عبد العال: هو الذي قام مكان محمد آغا مستحفظا، أي رئيسا للشرطة بعد وفاته في ٦ ذي القعدة سنة ١٢١٥ (١٩ آذار/ مارس ١٨٠١). «فاستمر عبد العال، مستحفظاً ومحتسباً. فكان ذلك من جملة النوادر والعبر. فإن عبد العال هذا، كان من أسافل الناس العامة وأراذلهم». انظر: الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ج ٢، ص ٤١٨.

(١٤) المصدر نفسه، ص ٤٣٠ ـ ٤٣١.

مشيخة رواق المغاربة بالأزهر ومشيخته على المغاربة المقيمين بالقاهرة، مما ضاعف من خطورته في أعين الفرنسيين، خاصة عندما صرح في إحدى اللحظات الحرجة من عمر الحملة، أنه شيخ المغاربة ويحكم عليهم. لذلك، أصبح كل ما يصدر عنه من كلام أو فعل، مهما كان بسيطا، يثير لدى إدارة الاحتلال الفرنسية الحيطة والحذر، ما دفعها إلى القبض عليه وحبسه بالقلعة، مثله في ذلك مثل عدد من علماء الأزهر الذين أنزلتهم السلطات الفرنسية بهذا المكان منذ تاسع ذي القعدة من هذه السنة[١٥]. ويدل هذا النص، من جهة أخرى، على أن شيخ رواق المغاربة لم يكن من المحسوبين على الطائفة الممالئة للإدارة الفرنسية، كما يمكن أن يتخيل البعض. بل، تؤكد هذه الحادثة أنه كان في صف المقاومين والمجاهدين ضد هذا الاحتلال، وإلا لما بادرت إدارته العليا إلى تعويقه بهذه السرعة والكيفية لمجرد سماعها بمثل هذا الكلام. وتجدر الإشارة، بهذه المناسبة، إلى أن هذه السلطات كانت قد سلكت نفس الطريقة ضد نيف وستين من المغاربة المقيمين بحي الفحامين وطولون والغورية، حينما أودعتهم السجن في فاتح ذي القعدة من نفس السنة[١٦].

يدل كل هذا، من جهة أولى، على أن المغاربة، وعلى رأسهم أبو القاسم الدرقاوي الذي كان يتباهى بمشيخته لهم وحكمه عليهم، أضحوا في هذه اللحظات الأخيرة والحرجة من عمر الحملة مثار قلق زائد بالنسبة لإدارة الاحتلال الفرنسية. ويدل، من جهة ثانية، على أن هذه الإدارة لم تكن تفرق، في حساباتها الأمنية، بين رواق المغاربة الذي سبق لشيخه أن وقع مثله مثل غيره من شيوخ الأروقة الأخرى على تعهد بالمحافظة على «الهدوء العام»، ومطلق المغاربة الذين كانوا يتوزعون عبر عدد من أحياء القاهرة، لأنها ظلت تعتقد أن بإمكان هذا الشيخ أن يؤلب عليها من كانوا يقعون تحت تأثيره الروحي واختصاصه الإداري. فبادرت إلى سجن عدد من رؤوسهم، ثم ألحقته بهم.

---

(١٥) هؤلاء العلماء، هم: عبد الله الشرقاوي، ومحمد المهدي، وسليمان الفيومي، ومصطفى الصاوي.

(١٦) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٢٤.

يستنتج من كل ما سبق أن شيخ رواق المغاربة بالأزهر، أبو القاسم المغربي الدرقاوي الذي سبق له أن غامر بحياته لينتزع من نابليون أمانا لسكان القاهرة وهم يتهيئون لاستقبال هؤلاء «الفاتحين» الجدد، قد دفع، في آخر لحظات هذه الحملة، حريته ثمنا للدفاع عن هذه المدينة حينما انبرى يوجه تهديداته المبطنة إلى سلطات الاحتلال الفرنسية، في وقت كانت فيه هذه الأخيرة تتعقب المغاربة وعلماء الأزهر وتودعهم السجن لمجرد الشبهة. وفي هذا دليل آخر على قوة تفاعل المغاربة مع هذا العدوان الذي استهدف مصر وبسط نفوذه على مدينة القاهرة وعلى جامعها الكبير الذي كان يحظى لدى المغاربة باحترام وتقدير كبيرين.

ثانياً: التجار والحرفيون المغاربة: من المحافظة على الهدوء العام إلى المشاركة في ثورة القاهرة الثانية

إلى جانب العلماء والطلاب، كان يقيم بمصر والشام عدد مهم من أهل البلدان المغاربية ممن كان يشتغل بالتجارة أو يمتهن حرفا أخرى. وقد تبين لنا، من خلال الفصل التمهيدي الذي صدّرنا به هذا القسم، أن عدد هؤلاء كان مرتفعا، وأن أكبر نسبة منهم كانت تستقر بالقاهرة ثم الإسكندرية. أما المدن الشامية فقد ضمت، بدورها، جالية مغاربية مهمة، لكنها ظلت، في كل الأحوال، أقل عددا ونفوذا من نظيرتها المستوطنة بمصر. كما تأكد لنا، من خلال ذلك الفصل، أن أكبر نسبة من هاته الجالية وأغناها على الإطلاق كانت تنتمي إلى المغرب الأقصى. وتبين لنا، بنفس المناسبة، أن هؤلاء المغاربة كانوا يتمتعون بنفوذ قوي في الحياة السياسية والاقتصادية، ويحظون بمكانة معتبرة من الناحية الاجتماعية.

لهذه الاعتبارات، حق لنا أن نتساءل عن الكيفية التي سيتعامل بها هؤلاء المغاربة مع الحملة؛ باعتبارها حدثا عدوانيا، استهدف البلد الذي كانوا يستقرون به، ويمارسون به نشاطهم التجاري والحرفي، وتربطهم به أواصر وجدانية قوية.

ـ فكيف تعامل هؤلاء التجار والحرفيون مع هذا العدوان؟ هل توقفوا عند حدود المحافظة والدفاع على مصالحهم الفئوية غير آبهين بما يجري حولهم من تطورات وأحداث، أم أن وازع الغيرة الدينية والتضامن الأخوي حرّكهم في اتجاه المساهمة في دفع هذا العدوان ومقاومته؟

للإجابة عن هذه الأسئلة، يتحتم علينا مراقبة مواقف هؤلاء التجار والحرفيين تجاه الوقائع والأحداث التي تخللت الحملة. وقبل الخوض في تفاصيل هذه النقطة، يحسن بنا التنبيه إلى أن هذه المراقبة ستقتصر، في غالب الأحوال، على مدينة القاهرة التي تركزت بها هذه الجالية وشكلت مسرحا لأهم المواجهات وأعنفها مثل ثورتي القاهرة الأولى والثانية. هذا، مع العلم أن الجالية المغربية كانت منتشرة في مدن أخرى، وكانت لها مواقف تستحق الذكر.

أما الشام الذي كان يحتضن عددا مهما من التجار والحرفيين المغاربة، فسيبقى، عموما، خارج اهتمامنا لعدة أسباب، منها عدم تعرض عواصمه الكبرى، مثل دمشق والقدس، حيث كان يتركز هؤلاء المغاربة للعدوان الفرنسي، واقتصار ما عرف بـ «حملة الشام» على جزء يسير من جنوب هذا الإقليم وانقضائها قبل مضي ثلاثة أشهر.

نزلت هذه الحملة، أول ما نزلت خلال هجومها على مصر، بثغر الإسكندرية. لكن السرعة التي استولى بها جيش الشرق على هذه المدينة والقبضة الحديدية التي مورست على ساكنتها طيلة سنوات الحملة الثلاث لم تترك لهم ولا للمغاربة الذين كانوا يشكلون خمسة عشر بالمائة من ساكنتها، فرصة للتعبير صراحة عن مواقفهم؛ حيث لم تسجل لنا الوثائق والمصادر المعتمدة في هذا القسم أي حدث يستحق الذكر. لذلك، يتعذر علينا تبين الكيفية التي تفاعلت بها الجالية المغربية التي كانت تقيم بهذه المدينة، مع هذه الحملة.

إذا كان موقف المغاربة، على اختلاف انتماءاتهم الوطنية، قد بقي حبيس القبضة الأمنية والعسكرية التي مارستها السلطات الفرنسية على أهل الإسكندرية عموما والموقف المسالم الذي اعتمده أحد علمائها المشهورين،

الشيخ محمد المسيري[17]، فإن الظروف التي عاشتها باقي المدن المصرية وعلى رأسها القاهرة، سمحت لإخوانهم هناك بالتفاعل بشكل أقوى مع هذا الحدث العدواني والتعبير بصراحة عن موقفهم. وكما سيتجلى لنا ذلك، لم يحد هذا الموقف عن الخط العام الذي سارت عليه بقية الطوائف الإسلامية المقيمة بهذا البلد. إلا أن اختلاط المغاربة في بعض الأحيان مع الحركتين الجهاديتين اللتين تزعمهما كل من الشيخ محمد الجيلاني المغربي بالصعيد والشيخ محمد بن الأحرش الدرعاوي بإقليم البحيرة ثم القاهرة، والشكوك القوية التي ثارت حول علاقتهم بركاب الحج المغربية التي استمرت تتوافد على القاهرة خلال هذه المدة، جعل وضعهم الأمني والسياسي يختلف كثيرا عن هذه الطوائف. ولكي نتأكد من هذا الدور المتميز الذي لعبه من أسماهم الجبرتي بـ «المغاربة البلديين»، نقترح مراقبة مواقفهم وسلوكاتهم عبر المحطات الرئيسة لهذه الحملة.

١ ـ مشاركة التجار والحرفيين المغاربة في معركة أمبابة

شكلت معركة أمبابة، أو ما اشتهر في المصادر الفرنسية بمعركة الأهرام، وما سبقها وتلاها من تطورات، إحدى المناسبات الهامة التي اتضح من خلالها موقف هؤلاء المغاربة من هذا العدوان. وتجلى ذلك، أول مرة، في مساهمتهم في المجهود المالي الضخم الذي بذله أهل الطوائف التجارية والمهنية من أجل إيواء وإعالة عامة سكان القاهرة حينما خرجوا إلى بر بولاق. ذلك، أنه عندما رابط جيش الشرق بالبر الغربي من النيل، نودي يوم الثلاثاء ٣٠ صفر ١٢١٣ (١٧ تموز/ يوليو ١٧٩٨) بالنفير العام، فخرج الجميع لبر بولاق ونصبوا لهم هناك الخيام، «فكانت كل طائفة من طوائف أهل الصناعات يجمعون الدراهم من بعضهم، وينصبون لهم خياما (. . .) ويرتبون لهم قيما يصرف عليهم ما يحتاجون له من

---

(١٧) بادر نابليون، فور دخوله الإسكندرية، إلى ربط الاتصال بالشيخ محمد المسيري، فوقّع معه اتفاقا في الرابع من تموز/ يوليو سنة ١٧٩٨، يحتفظ بموجبه «العلماء بإدارة القضاء، ويتعهدون بعدم إثارة الفتن والمؤامرات ضد الفرنسيين. ويعدهم الفرنسيون بعدم المساس بالسكان، وباحترام الممتلكات وبعدم إكراه السكان على تغيير ديانتهم، وبعدم إدخال بدعة في الممارسة الدينية». انظر: هنري لورنس، **الحملة الفرنسية في مصر**، ترجمة بشير السباعي (القاهرة: دار سينا للنشر، ١٩٩٥)، ص ١٣٦.

الدراهم التي جمعوها من بعضهم»[١٨]. ومما لا شك فيه، أن المغاربة وهم «من أهل الصناعات»، سيكونون في طليعة المساهمين في هذا المجهود الحربي من موقعهم ذاك؛ خاصة إذا كان «جميع الناس [قد] بذلوا وسعهم، وفعلوا ما في قوتهم وطاقتهم، وسمحت به نفوسهم ببذل أموالهم، [و] لم يشح في ذلك الوقت أحد بشيء يملكه»[١٩].

أما فقراء المغاربة القادرين على حمل السلاح فكان هناك من يتطوع بتجهيزهم بالسلاح والأكل وغير ذلك[٢٠]. كما لا يستبعد أن يكون هؤلاء التجار والحرفيين المغاربة الذين كانوا يتمتعون بتأثير قوي على الأزهر الشريف من خلال علاقاتهم المميزة برواق المغاربة، قد لعبوا دورا ما في ضم أحد العلماء المغاربة المنتسبين لهذه المؤسسة العلمية إلى الوفد الذي تم تكليفه بالاتصال بنابليون عقب هزيمة المماليك في معركة الأهرام الفاصلة.

٢ ـ مشاركة التجار والحرفيين المغاربة في ثورة القاهرة الأولى

أما المناسبة الثانية التي عبّر فيها هؤلاء المغاربة عن موقفهم من الحملة بشكل صريح وقوي، فتمثلت في ثورة القاهرة الأولى التي اندلعت شرارتها في الواحد والعشرين من شهر تشرين الأول/ أكتوبر من سنة ١٧٩٨، وامتدت حتى الثالث والعشرين منه. وبغض النظر عن الأسباب التي أدت إلى اندلاع هذه الثورة، والتي ارتبطت ظاهريا برسوم التسجيل التي فرضتها السلطات الفرنسية على مختلف أحياء القاهرة، فإن شرارتها الأولى انطلقت من الأزهر، وشكل علماء وأطر هذه المؤسسة الدينية قيادتها العليا[٢١]. لكنها

---

(١٨) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، **مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس**، تحقيق ودراسة وتعليق عبد الرزاق عيسى وعماد أحمد هلال، ٢ ج (القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، ١٩٩٨)، ج ١، ص ١١٧.

(١٩) المصدر نفسه.

(٢٠) المصدر نفسه.

(٢١) للإلمام بحيثيات هذه الثورة وتطوراتها، انظر: الجبرتي: **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ج ٢، ص ٣٢٥ ـ ٣٤١، و**مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس**، ج ١، ص ٣٧١ ـ ٣٩٣؛ لورنس، **الحملة الفرنسية في مصر**، ص ٤٨٤ ـ ٤٩١، و André Raymond, *Egyptiens et Français au Caire, 1798-1801* (Le Caire: Institut français d'archéologie orientale, 1998), pp. 184-205.

شملت أيضا عددا كبيرا من الأحياء، وتركزت أكثر في الأحياء التي كان يقطنها ويعمل بها المغاربة عموما، وأهل المغرب الأقصى منهم على وجه الخصوص. لهذا، وجدنا أسماء أحياء، مثل الغورية والفحامين، تتردد بكثرة ضمن لائحة الأحياء التي شملتها هذه الثورة، وكذا الإجراءات الأمنية التي أعقبتها.

وقبل أن نستطرد في تفاصيل هذه النقطة، نثير الانتباه إلى أن السلطات الفرنسية كانت أياما قبل اندلاع هذه الثورة قد بدأت تنتابها مخاوف قوية مما يمكن أن يصدر من المغاربة وغيرهم من رعايا البلدان الإسلامية المقيمين بالقاهرة. فقد ذكر الجبرتي أنه في الثالث عشر من المغرب شهر ربيع الأول من سنة ١٢١٣ (٢٧ أيلول/ سبتمبر ١٧٩٨)، نادى الفرنسون «على الأغراب من المغاربة وغيرهم، الخدامين والبطالين، ليسافروا إلى بلادهم. وكل من وجد بعد ثلاثة أيام، يستأهل ما يجري عليه. ثم كرروا المناداة بذلك، وأجلوهم أربع وعشرين ساعة»[٢٢]. ورغم أن عملية الإجلاء هذه لم تتم[٢٣]، طاف الفرنسيون «في يوم الاثنين [٢٠ ربيع الآخر ١٢١٣]، (. . .) على الأخطاط والوكايل؛ فكتبوا أسماءها وأسماء البوابين، وأمروا ألا يسكنوا أحدا من الأغراب، ولا يطلقون أحدا يسافر إلا بإذن أغاة مستحفظان»[٢٤].

يتضح جليا، من خلال هذه الرواية، أن «الأغراب» والمغاربة منهم على وجه الخصوص، أصبحوا يشكلون مصدر إزعاج بالنسبة لإدارة الاحتلال الفرنسية. لكن، الكيفية التي تم بها العدول عن هذا القرار الذي كان يقضي بإبعادهم بعد أن «كرروا المناداة» به، توحي بأن هذا القرار لم يكن مؤسسا على وقائع مؤكدة، بقدر ما كان مرتبطا بهواجس أمنية. إلا أن توجيه أصابع الاتهام إلى المغاربة في هذا التاريخ المبكر

---

(٢٢) الجبرتي، **تاريخ مدة الفرنسيس بمصر، محرم ـ رجب ١٢١٣هـ، ١٠ يونيو ـ ديسمبر ١٧٩٨م**، ص ٥٢.

(٢٣) لأن «جماعة من المغاربة، [ذهبوا] إلى صاري عسكر [نابليون]، وقالوا: أرنا طريقنا للذهاب، فإن طريق البر غير مسلوكة والإنكليز واقفين على طريق البحر يمنعون المسافرين، ولا نقدر على المقام في سكندرية من الغلا [كذا] وعدم الما [كذا] بها، فتركهم». انظر: المصدر نفسه، ص ٥٢.

(٢٤) المصدر نفسه، ص ٥٧.

من عمر الحملة وإحكام المراقبة الأمنية على أحيائهم، يؤكد أن سلطات الاحتلال الفرنسية لم تكن تنظر بعين الرضى إلى هؤلاء «الأغراب» وعلى رأسهم المغاربة.

لا نعرف الأسباب التي جعلت إدارة الاحتلال الفرنسية تتعامل مع المغاربة بهذه الكيفية. إلا أننا نستبعد أن يكون هذا القرار قد شمل كبار التجار والحرفيين الذين كانوا يشكلون عصب الحياة الاقتصادية بالمدينة. والراجح أنه اقتصر على «الخدامين والبطالين» الذين يبدو أن سلوكهم وربما سوابقهم لم تكن ليطمئن إليها الفرنسيون في حالة ما إذا حدث ما يشبه ثورة القاهرة الأولى. لذلك، نحتمل أن يكونوا قد حاولوا التخلص منهم تفاديا لأي طارئ من هذا القبيل.

ومما يؤكد، مرة أخرى، عدم ارتياح إدارة الاحتلال الفرنسية لهؤلاء المغاربة وتشككها في مواقفهم لأدنى شبهة، ما وقع لأحد تجارهم في حادثة سماها الجبرتي بـ «كائنة الحاج محمد بن قيمه، بكسر القاف وإسكان اليا [كذا] وضم الميم وإسكان الها [كذا]، المغربي، التاجر الطرابلسي»[٢٥]. ورغم أن رواية الجبرتي تفيد أن هذا التاجر كان من أهل طرابلس الغرب، فإن إحدى الوثائق المثبتة في دفاتر المحاكم الشرعية بالقاهرة تؤكد انتماء والده على الأقل، إلى مدينة وزان بالمغرب الأقصى[٢٦]. أما لماذا اشتبهت فيه السلطات الفرنسية، فلأنه كان، حسب رواية الجبرتي، «بينه وبين بعض نصارى الشوام منافسة. فأوغر عليه صدر دبوى، قائمقام [حاكم القاهرة]، بل صاري عسكر [نابليون]، وأطمعهم في ماله. فأرسلوا قواسة يطلبونه». لكن هذا الرجل الذي «كان عنده إحساس بذلك»، التجأ أولا عند الشيخ الشرقاوي، رئيس الديوان الخصوصي الذي أنشأه نابليون. ثم تغيب بعد ذلك، وقيل هرب. فتضخمت مخاوف الفرنسيين تجاهه، وعلى رأسهم نابليون الذي خاطب الشيخ المهدي

(٢٥) المصدر نفسه، ص ٦١.

(٢٦) رغم أن إشارة الجبرتي تفيد هنا أنه ينتمي إلى طرابلس الغرب، فقد ورد في أحد وثائق دفاتر المحاكم الشرعية القاهرة أن الحاج محمد بن قيمو، هو ابن المرحوم الحاج محمد المغربي الوازاني. انظر: دار الوثائق، القاهرة، دفاتر المحاكم الشرعية، القسمة العسكرية، سجل رقم ٢٢٩، مادة رقم ٢٧٦، جمادى الأولى ١٢١٥، ص ١٧٦، وسجل رقم ٢٢٩، مادة ٢٨٢، ص ١٨٣.

والشيخ الدواخلي ـ وكلاهما أعضاء في الديوان المذكور ـ حينما جاءوا يخبرونه بهروبه: «لولا أن جرمه كبير، ما هرب. وأنتم غيبتموه. وأظهر الحنق والغيظ. فلاطفاه. واستعطفا خاطر الترجمان. فكلمه وسكن غيظه». ثم «تشفع عنده» في الغد الشيخ الشرقاوي. فأبى إلا أن «يحضر الرجل، [لأنه] طالبه لسؤال وجواب». وبينما «هم في الكلام»، ذهب العسكر إلى «بيت الرجل ونهبوه، وأخذوا جميع ما في الحواصل من بن وقماش ونقود له ولشركائه، حتى نهبوا منازل غيره. وكان عنده أمانات كثيرة للناس. فإنه كان عهدة ومليا»[٢٧].

أما السبب الأقوى الذي جعل نابليون يظهر كل ذلك الحنق والغيظ عندما تأكد من إفلات هذا التاجر المغربي من بين يديه، فلا ينحصر في المنافسة الشديدة التي كانت بينه وبين نصارى الشوام، بل ارتبط أيضا بالعلاقة الوطيدة التي كانت تجمع بينه وبين «رجل مغربي سكن مصر وسكندرية، يقال له عبد الله باشا، وكان منسوبا لمراد بيك، ويمشي في خدمته (...) وكذلك قيل، أنه كان مماليا [كذا] للسيد محمد كريم»[٢٨]. وسواء أكان السبب في ذلك هو ارتباطه بمراد بك أو محمد كريم، فكلاهما كان يشكل قاعدة المثلث «التجسسي» الكبير الذي كان يربط بين إقليم الصعيد، حيث كان يوجد مراد بك، والإسكندرية، حيث كان يمارس محمد كريم مهامه كحاكم معين من طرف الفرنسيين. أما محمد بن قيمه، أو قيمو، كما ورد في روايتي **مظهر التقديس**[٢٩] **وعجائب الآثار**[٣٠]، فكان حسب ما يتضح من هذه «الكائنة»، يجري بينهما الاتصالات عبر تاجر مغربي آخر، هو عبد الله باشا الذي كان يتنقل بحرية بين أقاليم الوجه البحري والقبلي، بفضل جواز كان قد حصل عليه من الفرنسيين منذ دخولهم الإسكندرية.

---

(٢٧) الجبرتي، **تاريخ مدة الفرنسيس بمصر، محرم ـ رجب ١٢١٣هـ، ١٠ يونيو ـ ديسمبر ١٧٩٨م**، ص ٦١ ـ ٦٣.

(٢٨) كان محمد كريم، حاكماً للإسكندرية قبل دخول الفرنسيين، وتم الاحتفاظ به في منصبه بعد دخولهم مصر. وعندما تأكدت «خيانته، أعدم في ٦ أيلول/ سبتمبر ١٧٩٨». للإلمام بحيثيات وملابسات هذا الإعدام، انظر: المصدر نفسه، ص ٤١ ـ ٤٥.

(٢٩) انظر: الجبرتي، **مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس**، ج ١، ص ١٨٨ ـ ١٨٩.

(٣٠) انظر: الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ج ٢، ص ٢١٥ ـ ٢١٦.

لذلك، نعتقد أن «كائنة الحاج محمد بن قيمه» هي واحدة من حلقات المقاومة المترابطة التي نجحت سلطات الاحتلال الفرنسية عبر مخبريها من «نصارى الشوام والمترجمين»، في القضاء عليها عن طريق إرهاب هذا التاجر المغربي ومصادرة أمواله وتجارته. ومما يجدر ذكره، بهذه المناسبة، أن اشتباه هذه السلطات في هذا التاجر المغربي تم في أعقاب قبضها على حاكم الإسكندرية محمد كريم الذي أحضر إلى القاهرة حيث قطعت رأسه، ومطاردتها لعبد الله باشا من مكان لآخر. تم كل هذا في وقت كانت تشهد فيه القاهرة حالة غليان غير معهودة وعلامات الثورة بادية في كل مكان.

ورغم ذلك، فإن موعد ما سيعرف بـ «ثورة القاهرة الأولى»، سوف لن يتأخر. كما أن إسهام المغاربة فيها، سيكون قويا ومتميزا.

تجمع مختلف المصادر التي تمكنا من الاطلاع عليها، أن السبب المباشر في انفجار هذه الثورة هو مقتل حاكم القاهرة، الجنرال دوبي، على يد مجهولين تبين فيما بعد أن واحدا منهم، اسمه قروي (Caraoué)[(٣١)]. وإذا كان اسم هذا الرجل قد بقي غفلا من أية معلومات إضافية تعرف بهويته الوطنية، فإن ما أورده نابليون في مذكراته بخصوص هذه الثورة يحملنا على الاعتقاد بأن ما قام به أحد الحجاج المغاربة يأتي على رأس الأسباب التي أدت إلى مقتل حاكم القاهرة واندلاع ثورة القاهرة الأولى. فقد ذكر نابليون أنه عندما تجمهر سكان القاهرة حول منزل قاضي المدينة، إبراهيم أدهم أفندي، طالبين منه استقبالهم وإلغاء الرسوم الضريبية التي شكلت مصدر احتجاجهم، خف إليه الجنرال دوبي ونصحه بتأجيل هذا الاستقبال نظرا لحالة الغليان التي كانت تعم الجماهير. وبينما كان عائدا من منزل القاضي، حال دون التحاقه بفرسه كثرة السكان المتجمهرين حول هذا المنزل، فهب حراسه لمساعدته مخترقين، بسرعة وقوة، صفوف الجماهير. خلال ذلك، دهس أحدهم بفرسه،

---

(٣١) أعدم هذا الرجل رميا بالرصاص بأمر صادر من نابليون في ١ ميسيدور سنة ٧ (١٩ حزيران/ يونيو ١٧٩٩). انظر: Ordre de Napoléon à Dugua, 3 messidor an 7 (3 juin 1798), dans: Clément de La Jonquière, *L'Expédition d'Egypte*, 5 vols. (Paris: C. Lavauzelle, 1899), vol. 5, p. 230.

مغربيا كان عائدا لتوّه من الحج، فلم يتردد هذا المغربي الذي لا نعرف هويته الوطنية على وجه التحديد، في إطلاق النار على الفارس الذي دهسه. فأرداه قتيلا، ثم امتطى صهوة فرسه. آنذاك، بدأت الكتيبة المرافقة لحاكم القاهرة في إطلاق النار وتفريق الجماهير(٣٢). فقتل، بعد ذلك بقليل، الجنرال دوبي وعدد من مرافقيه، واندلع ما سيعرف بـ «ثورة القاهرة الأولى».

خلال هذه الثورة التي ستستغرق ثلاثة أيام (٢١ ـ ٢٣ تشرين الأول/ أكتوبر ١٧٩٨)، ستتأكد ردود فعل المغاربة البلديين من الحملة بشكل جلي وقوي لاعتبارات مختلفة، منها أنهم كانوا على رأس المتضررين من الأعباء الضريبية التي طالت بالدرجة الأولى التجار والحرفيين، كما أنهم كانوا على اتصال مباشر بجامع الأزهر، حيث كانت توجد القيادة السرية لهذه الثورة ودارت، حوله وبداخله، أعنف الواجهات.

لهذه الاعتبارات كان حي الغورية والفحامين في طليعة الأحياء الثائرة. فقد قال المؤرخ الشامي، المعلم نقولا الترك، متحدثا عن الأحياء التي كان يتمركز فيها الثوار بقوة: «وكانت جماهير الإسلام في باب النصر، والنحاسية، وخان الخليلي، وخط الأزهر، والغورية، والفحامين، وخط المغاربة. وهذه المحلات داخل البلد. وكانت الإسلام، قد بنت متاريس في تلك الأماكن المذكورة؛ فسقط خوف عظيم على الفرنساوية، وذعرهم هذا القيام، وداخلتهم الأوهام لمعرفتهم بكثرة الخلايق الموجودة في مصر»(٣٣). لذلك، كانت أول مواجهة في سياق هذه الثورة مع مغاربة حي الفحامين الذي يشكل في واقع الحال امتدادا لحي الغورية. وفي ذلك يقول الجبرتي، بعد وصفه لحالة الغليان التي كانت تسيطر على أحياء وسط القاهرة: «ولم يزل المتشاغبين في الأزقة متترسين. فوصل جماعة من عسكر الفرنساوية، وظهروا من ناحية المناخلية، وبندقوا على متراس الشوائين وبه مغاربة الفحامين. فتابعوا الآخرين بالرمي عليهم، حتى

---

(٣٢) Napoléon Bonaparte, *Campagnes d'Égypte et de Syrie*, présentation Henry Laurens, Acteurs de l'histoire (Paris: Impr. nationale éd., 1998), p. 162.

(٣٣) نقولا الترك، **حملة بونابرت إلى الشرق**، دراسة وتحقيق أمل بشور (بيروت: جروس برس، ١٩٩٣)، ص ١٣٤.

هزموهم وأجلوهم. وأقبل جماعة آخرين من جهة النحاسين، فأذاقوهم الحمام ومعهم نصراني من الشوام»[٣٤].

ويبدو من تعليق الجبرتي على هاتين المواجهتين اللتين تصدرتا أحداث هذه الثورة، أنهما كانا وراء اتساع رقعتها والانتقال بها إلى نقطة اللاعودة. «فلما حصلت هاتين النكثتين، ظنوها مقتلتين. وزاد خطبهم وشغبهم، وعلا ضجيجهم وفشا كذبهم، وأكثروا في القول من التلفيق، وصرحوا بما لا يليق، وطرحوا الاحتشام، وأفحشوا في الكلام»[٣٥].

ومما يؤكد أكثر تصدُّر حيي الغورية والفحامين للمواجهات الأولى، أنهما كانا في طليعة الأحياء التي استهدفها الفرنسيون بالضرب بعدما يئسوا من إيقاف الثورة بالطرق السلمية. يتضح ذلك جليا من خلال كلام الجبرتي، حيث يقول: «فعند ذلك ضربوا بالمدافع والبنبات على البيوت والحارات، وتعمدوا بالخصوص الجامع الأزهر، وحرروا عليهم من ذلك القنبر. وكذلك ما جاوره من الأماكن المتهومين، كسوق الغورية والفحامين»[٣٦].

ومما يؤكد، مرة أخرى، ضلوع هذين الحيين اللذين اشتهرا بسكنى وعمل أهل المغرب الأقصى، في هذه الثورة، هو أن الإنزال العسكري الذي قام به الفرنسيون ليلة الاثنين باعتبارها آخر أيام الأيام الثلاثة للثورة، وحاولوا من خلاله القضاء مبرما على الثوار، استهدف أول ما استهدف حي الغورية قبل أن يطال جامع الأزهر، حيث كان قد التجأ الثوار. ف «بعد هجعة من الليل دخل الفرنج المدينة كالسيل. ومروا من الأزقة والشوارع، لا يجدون لهم مدافع. كأنهم الشياطين أو جند إبليس. وهدموا ما وجدوه من المتاريس. وذهبوا وجاؤوا، وبغضب الله باؤوا. ودخل طائفة من باب البرقية، وشقوا إلى الغورية. وكروا ورجعوا وترددوا وما هجعوا (...)، ثم دخلوا بعد ذلك الجامع الأزهر من الباب الكبير»[٣٧].

---

(٣٤) الجبرتي، **تاريخ مدة الفرنسيس بمصر، محرم ـ رجب ١٢١٣هـ، ١٠ يونيو ـ ديسمبر ١٧٩٨م**، ص ٧٠.

(٣٥) المصدر نفسه.

(٣٦) المصدر نفسه، ص ٧٢ ـ ٧٣.

(٣٧) المصدر نفسه، ص ٧٤.

وينهض دليلا قاطعا على حسن بلاء المغاربة عموما في هذه الثورة وأهل المغرب الأقصى منهم على وجه الخصوص، أن أخبارهم وصلت إلى المغرب، وأصبحت حديثا تتناقله الألسن، ويتغنى به الشعراء. ولعل خير مثال على ذلك القصيدة الزجلية التي نظمها بهذه المناسبة الشاعر المغربي محمد ولد أرزين، وأسماها بـ «المصرية». فقال واصفا في بعض أبياتها مشاركة أهل المغرب في هذه الثورة:

«واتى اشحال من خاطر
من اوطان المغرب بالحرب والسقارة
أهل الصوارع المفروغة واقواس وانشاشب
ورماح للفتك والبترات إلا انشق الحسام
والبالات والخناجر
والزرايم لأهل التلحيق والعمارة
اعطوا الكشوط البيعة وتبرموا اللوالب
واصبحوا المغاربة في الغورية شادين الحزام
شجعانهم وغناضر
أو قاتلوا وقتلوا في حومة السقارة
جرحوا كشوطها وتلاقا مطلوبها وطالب
مغلوب له جا غلابه عليه صد الرسام
الرماح غير تتقاطر
والرماح حفات من رقاب النصارى»[٣٨]

يتبين من هذه الأبيات أن الجهاد الذي قام به سكان حي الغورية، وجلهم، كما علمنا ذلك، كان من أهل المغرب الأقصى، وصلت أصداؤه

---

(٣٨) انظر: محمد الفاسي، «مشاركة المغرب في الجهاد المصري للحملة الفرنسية،» **دعوة الحق**، السنة ١٦، العددان ٤ ـ ٥ (١٩٧٤)، ص ٦٤.

إلى المغرب. وفي هذا دليل قوي على قوة حضور المغاربة عموما في هذه المواجهة المبكرة بين سكان القاهرة وجند الاحتلال الفرنسيين.

وإذا علمنا أن هذه الثورة قد أودت، حسب أحد المصادر الفرنسية، بحياة أكثر من ألف وخمسمائة فرد من المسلمين، أمكننا تصور عدد المغاربة الذين استشهدوا بهذه المناسبة، سيما وأن أغلب أحيائهم تصدرت للمواجهات الأولى، وتعرضت من جراء ذلك لانتقام شديد من طرف الجنود الفرنسيين. فقد ذكر أحد الفرنسيين المرافقين للحملة أنه تم القبض، خلال الليل، على أكثر من ألف مسلم من بين الثوار الأكثر شهرة، ثم سيقوا إلى القلعة حيث أعطي الأمر بقطع رؤوسهم[٣٩]. ناهيك عن الخسائر المالية والاقتصادية التي تكبدها تجار وحرفيو حي الغورية والفحامين، بسبب القصف الشديد الذي سلط عليهم خلال هذه الثورة[٤٠].

٣ ـ نابليون يجتمع بالتجار المغاربة ويلزمهم بالمحافظة على الهدوء العام

ومما لاشك فيه، ستجعل هذه المشاركة الجهادية القوية من المغاربة البلديين خطرا محدقا بالنسبة لإدارة الاحتلال الفرنسية. لذلك، سوف لن تتوانى في اتخاذ بعض التدابير الأمنية غير المسبوقة في حقهم. وكانت أول إشارة في هذا الاتجاه اجتماع نابليون بتجار حي الغورية ثلاثة أيام بعد إخماد هذه الثورة، وإرغامهم على توقيع وثيقة يتعهدون له فيها بضبط كامل حاراتهم «من جميع الخلل الذي يؤتى»، ويكونون «دائما مستعدين بهمة زائدة على ضبط الألسن والمفسدين»، وإخراجهم من بينهم. وعندما يحيط علمهم «بأحد من الأشرار قصده بعض إفساد أو

(٣٩) François Bernoyer, *Avec Bonaparte en Égypte et en Syrie, 1798-1800: 19 lettres inédites*, retrouvées et présentées par Christian Tortel, collection Le Temps traversé, 2ème éd. (Poet-Laval: Editions Curandera, 1981), p. 91.

(٤٠) للمزيد من التفصيل عن انعكاسات هذه الثورة على سكان القاهرة عموماً والأحياء التي كان يقطن بها المغاربة وعلى رأسها حيا الغورية والفحامين، انظر: فاطمة الحمراوي، «الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في مصر في عهد الحملة الفرنسية،» (رسالة ماجستير في التاريخ، جامعة القاهرة، قسم التاريخ، ١٩٨٨)، ص ٢٠٧ ـ ٢٣٧.

فتنة، فهم ملزمون بتبليغ الحاكمين المذكورين أعلاه بأي أحد يدخل حاراتهم من الأغراب. أما إذا وقع خلل في حاراتهم ولم يبلغوا عنه في وقته، فإنهم يتحملون مسؤوليته فردا فردا»(٤١).

وقع هذا التعهد أو الضمان، كما سمي في النص الفرنسي، عشرة من كبار تجار حي الغورية؛ ستة منهم، على الأقل، ينتمون إلى المغرب الأقصى، وهم: محمد العشوبي(٤٢) شيخ هذا الحي، والحاج محمد بن زاكور(٤٣)، والحاج محمد الحلو(٤٤)، والحاج بناصر الحلو(٤٥)، والحاج الطاهر بن عدو الفويسي(٤٦).

يتضح من خلال هذه الوثيقة أن الشكوك التي حامت حول المغاربة أياما قليلة قبل اندلاع هذه الثورة، أصبحت، الآن، حقيقة واقعة. لذلك، اغتنمت إدارة الاحتلال الفرنسية اندحار الثوار، لكي تنتزع هذا التعهد الذي يبدو من عباراته أنه فرض على تجار حي الغورية تحت التهديد. ويستنتج، من جهة أخرى، أن فرض هذا التعهد على سكان حي الغورية دون غيرهم من أحياء القاهرة الأخرى، يؤكد الخطورة التي أضحى يمثلها المغاربة بالنسبة للوجود الفرنسي بهذه المدينة.

ورغم ذلك، يبدو أن هذا الإجراء الأمني لم يكن كافيا لدرء الخطر الذي بات يتهددهم بشكل جدي. ذلك، أنه في اليوم التالي الذي انتزع

---

(٤١) النص العربي لهذا الضمان، يوجد في: A.M.G., B^{6} 10 (26 octobre 1798).
أما النص الفرنسي، فيوجد في: جامعة القاهرة، وثائق الحملة الفرنسية، حافظة رقم ٢٠٦. وقد حاولت أن أجمع بين النصين، لرفع اللبس عن بعض العبارات الواردة في النص العربي.

(٤٢) هو الحاج محمد العشوبي، ابن الحاج محمد العشوبي المغربي الفاسي. (دار الوثائق، القاهرة، دفاتر المحاكم الشرعية، القسمة العسكرية، سجل رقم ٢٢٧، مادة رقم ٤٣٩، سنة ١٢١٢)، ص ٣٢٢.

(٤٣) هو «المكرم محمد ولد المرحوم الحاج علي ابن زاكور الفاسي». المصدر نفسه، سجل رقم ٢٢٩، مادة رقم ٨٠٧، سنة ١٢١٥، ص ٥١٠.

(٤٤) شكلت عائلة الحلو واحدة من بيوتات فاس المشهورة. لذلك لا نستبعد أن يكون هذا الشخص والشخص الذي يليه في الترتيب من هذه العائلة المغربية المشهورة.

(٤٥) هو «الحاج محمد أبو النصر الحلو ابن الحاج أحمد». المصدر نفسه، سجل رقم ٢٢٩، مادة رقم ٤٣٠، سنة ١٢١٣، ص ٣٢٠.

(٤٦) يتضح جلياً من لقبه أنه له علاقة مباشرة بمدينة فاس المغربية.

فيه نابليون هذا التعهد من تجار حي الغورية، كان أحد مسؤوليهم الأمنيين، ويدعى عمر القلقجي حسب رواية الجبرتي[٤٧]، وعمر الخولادي حسب إحدى الدراسات المتخصصة[٤٨]، يتوسط «لمغاربة الفحامين. وجمع منهم ومن غيرهم عدة وافرة، وعرضهم على صاري عسكر، فاختار منهم الشباب وأولي القوة، وأعطاهم سلاحا وآلات حرب، ورتبهم عسكرا. ورئيسهم،عمر المذكور»[٤٩].

وبغض النظر عن الأسباب التي دفعت هذا الرجل إلى القيام بما اعتبره الجبرتي «وساطة»، فمما لا شك فيه أن وساطته تلك وافقت تماما رغبة نابليون الذي عبّر عن توجسه من هذه العناصر المغربية غير ما مرة. هذا، إن لم يكن هو نفسه أكرههم على ذلك بسبب التعهد الذي ألزم به تجار حي الغورية الذي يشكل، في واقع الحال، هو وحي الفحامين، حيا واحدا.

خلاصة القول، كان هؤلاء المغاربة الذين كادت سلطات الحملة أن تجليهم عن مصر قبل أيام في طليعة متزعمي هذه الثورة. لذلك، بادرت هذه السلطات فور القضاء على هذه الثورة إلى تضييق الخناق عليهم. لكن عوض أن تجليهم، كما حاولت في المرة السابقة، أدمجتهم هذه المرة في صفوف جنودها وأخضعتهم، من ثم، لمراقبتها المباشرة. وهكذا، ضربت إدارة الاحتلال الفرنسية من خلال قرارها هذا، عصفورين بحجر واحد؛ حيث إنها لم تكتف بإخراج هؤلاء «الأغراب» من دائرة هواجسها الأمنية، بل بدأت تستفيد من خدماتهم العسكرية. يؤكد كل هذا الأهمية الخاصة التي كانت توليها هذه الإدارة للمغاربة وعلى رأسهم العناصر المقاتلة التي أكدت بالملموس خطورتها بالنسبة للوجود الفرنسي بمصر.

قبل أن ننتهي من معالجة القضايا المرتبطة بدور المغاربة في هذه الثورة، يجدر بنا أن نشير إلى أن إسهامهم في هذا الحدث لم يقف عند

---

(٤٧) الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ج ٢، ص ٢٢٣.

(٤٨) Gabriel Guemard, «Les Auxiliaires de Bonaprte en Egypte (1798-1801),» *Bulletin de l'Institut d'Egypte*, vol. 9 (1927).

(٤٩) الجبرتي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٢٣.

حدود القاهرة، بل تعداها إلى باقي المدن المجاورة. ففي الوقت الذي كانت فيه هذه العاصمة تعيش على إيقاع الثورة، كان سكان الأقاليم والمدن المحيطة يتأهبون للالتحاق بالمجاهدين داخل العاصمة. أما الذي تولى التحريض على ذلك فهو تاجر مغربي كان يقيم في مدينة قليوب، اسمه الشرايبي. ويبدو من اسمه العائلي أنه كان من أهل المغرب الأقصى[٥٠].

اتهم هذا الرجل الذي كان يُعد من كبار تجار قليوب، من قبل نابليون بالتخابر مع المماليك وتحريض سكان القرى والمدن المجاورة للقاهرة على الالتحاق بصفوف المجاهدين. لذلك، وجه نابليون رسالة إلى الجنرال لوكليرك (Leclerc) يخبره فيها أنه ألقى القبض على الشرايبي. ثم طلب منه، في حالة ذهابه إلى قليوب، أن يضع الأختام على ممتلكاته[٥١].

ويبدو من إشارة أخرى، أن هذا التاجر المغربي كان يتحرك ضمن شبكة مقاومة واسعة وقوية يوجد على رأسها بعض الشخصيات المتنفذة من أمثال شيخ قليوب، سليمان الشواربي. فقد ذكر الجبرتي أن نفس التهمة ألصقت بهذا التاجر في تلك الأثناء. لذلك، أُحضر إلى القاهرة، وقُطع رأسه[٥٢].

يتكشف لنا، من خلال ما سبق، أن المغاربة البلديين سواء منهم من

---

(٥٠) شكلت أسرة الشرايبي إحدى الأسر المغربية المشهورة في تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي، خاصة داخل القاهرة، حيث كانت توجد وكالة الشرايبي بحي الغورية. وتفيدنا إحدى الوثائق المثبتة في دفاتر المحاكم الشرعية أن الحاج قاسم الشرايبي ابن المرحوم الحاج عبد الرحمن الشرايبي المغربي الفاسي، كان شيخا لطائفة التجار المغاربة بحي الغورية. انظر: دار الوثائق، دفاتر المحاكم الشرعية، القاهرة، قسمة عسكرية، سجل رقم ٢٢٧، مادة رقم ٤٣٩، سنة ١٢١٢، ص ٣٢٢.

للمزيد من المعلومات حول هذه الأسرة المغربية، انظر: عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، «دور المغاربة في تاريخ مصر في العصر الحديث (القسم الأول)،» **المجلة التاريخية المغاربية** (تونس)، العددان ١٠ ـ ١١ (كانون الثاني/ يناير ١٩٧٨)؛ ص ٦٤ ـ ٦٥، وAndré Raymond, *Artisans et commerçants au Caire au XVIIIème siècle*, 2 vols. (Damas: Institut français de Damas, 1973-1974), vol. 2, p. 476.

(٥١) C.N., no. 3757, le Caire, Napoléon au général Leclerc, 23 frimaire an 7 (13 décembre 1798), vol. 5, p. 270.

(٥٢) الجبرتي، **تاريخ مدة الفرنسيس بمصر، محرم ـ رجب ١٢١٣هـ، ١٠ يونيو ـ ديسمبر ١٧٩٨م**، ص ٩٤ و٩٨.

كان يقيم بالقاهرة أو من كان يقطن بالمدن المجاورة، تفاعلوا بقوة مع ثورة القاهرة الأولى، وبذلوا ما في وسعهم من أجل نصرة إخوانهم بمصر ضد جنود الاحتلال الفرنسيين. فكانوا في طليعة من دشن مواجهاتها الأولى، كما نالت أحياؤهم السكنية والتجارية بالغورية والفحامين، انتقاما شديدا بسبب ما صدر عنهم من مقاومة. لذلك، أرغم كبار تجارهم «فردا فردا»، على المحافظة على الأمن، وألحق «الشباب وأولي القوة» منهم بجيش الشرق.

ورغم التدابير الأمنية المشددة التي طالت المغاربة وعلى رأسهم قاطنو حي الغورية والفحامين، لم تنجح إدارة الاحتلال الفرنسية في إثنائهم عن التضامن مع إخوانهم المصريين. أكثر من ذلك، ستزداد مواقفهم التضامنية، تجذرا وقوة. وبموازاة ذلك، ستتقوى أيضا تجاههم تخوفات وهواجس هذه الإدارة. وسيتجلى هذا بقوة ووضوح خلال غياب نابليون بالشام، وثورة القاهرة الثانية التي شهدت مشاركة مغربية مكثفة وفعالة.

ففي ما يتصل بالنقطة الأولى، استمر المغاربة البلديون يشكلون خطرا محدقا بالنسبة للوجود الفرنسي بمصر، وخاصة داخل مدينة القاهرة، بسبب دعواتهم المتكررة إلى الثورة ضد الفرنسيين. مصداق ذلك، حكم الإعدام الذي سيصدره نابليون فور عودته من حملته على الشام في حق اثنين منهم. فقد صدر أمر بهذا الخصوص في ١ ميسيدور سنة ٧ (١٩ حزيران/ يونيو ١٧٩٨) إلى الجنرال دوكَا، يقضي بإعدام المغربيين أحمد وعبد الله، رميا بالرصاص، بسبب دعوتهم المسلمين إلى «التمرد» أثناء غيابه بالشام(٥٣).

٤ ـ مشاركة التجار والحرفيين المغاربة في ثورة القاهرة الثانية

أما في ما يتعلق بثورة القاهرة الثانية فقد تأكدت مشاركة المغاربة فيها، منذ اللحظات الأولى. فقد ذكر الجبرتي أنه بينما كان القائد

---

(٥٣) Ordre de Napoléon à Dugua, 1 messidor an 7 (19 juin 1798), dans: La Jonquière, *L'Expédition d'Egypte*, vol. 5, p. 230.

العسكري العثماني «نصوح ومن بصحبته [قاصدين] جهة مصر وتركوا عسكر الفرنسيس وراءهم»، خرج كثير من أهل مصر «إلى أطارف البلد». وخرج من خاصتها «السيد عمر أفندي، نقيب الأشراف، والسيد أحمد المحروقي [كبير تجار القاهرة]، وانضم إليهما غز خان الخليلي والمغاربة الذين بمصر (. . .) وتجمعوا على التلول خارج باب النصر»[٥٤].

وفي الليلة الثانية من دخول العساكر العثمانية القاهرة «أحس كبرا [كذا] العساكر بأن الحال يطول في الحرب، أجمعوا على الخروج بالليل. وتسامع الناس بذلك، فتجهز المعظم للخروج أيضا، وغصت خطة الجمالية وما والاها من الأخطاط بازدحام الناس الذين يريدون الخروج من المدينة، ووقع للناس في هذه الليلة من الكرب والمشقة والانزعاج والخوف، ما لا يوصف»[٥٥].

تذكرنا هذه اللحظات الحرجة وردود الفعل التي تخللتها من قبل أهل القاهرة، باللحظات الأولى التي سبقت دخول الفرنسيين القاهرة أول مرة. فإذا كان أبو القاسم المغربي قد غامر بحياته عندما عبر وحده النيل واتصل بنابليون المرابط آنذاك بالبر الغربي، وانتزع منه أمانا لسكان القاهرة، فإن مغاربة حي الغورية والفحامين الذين أدوا ثمن مقاومتهم غاليا خلال ثورة القاهرة الأولى، تزعموا، هذه المرة، الجبهة المعارضة لهذا الخروج الجماعي مؤكدين من خلال ذلك على ضرورة استمرار الثورة. «فعندما تسامع أهل خان الخليلي من الألضاشات[٥٦]، وبعض مغاربة حي الفحامين والغورية بذلك، جاءوا الجمالية [حيث كان يوجد المعسكر العثماني]، وأكثروا التشنيع على من يريد الخروج. وعضدهم، طائفة عسكر الانكشارية»[٥٧].

وجدير بالذكر، أن هذه الوقفة الحازمة التي دعا إليها المغاربة ومن

---

(٥٤) الجبرتي، **مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس**، ج ٢، ص ٣٦٨.

(٥٥) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٧١.

(٥٦) فرقة من المشاة، سلاحهم السيوف. انظر: أحمد السعيد سليمان، **تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدَخيل** (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٩)، ص ٢٥.

(٥٧) الجبرتي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٦٨.

شاركهم موقفهم من العساكر، هي التي حولت ما سيعرف بـ «ثورة القاهرة الأولى» من حدث منعزل لا يتجاوز عمره يومين، إلى ثورة عمرت حوالى شهر ونصف؛ لأنه بفضل موقفهم ذاك، «تهيأ العساكر ومعظم أهل مصر، ما عدا الضعيف الذي لا قوة له على الحركة. تهيأ كل للحرب»[٥٨].

حصل كل هذا قبل أن يحضر مولاي محمد المغربي الذي حارب الفرنسيين في إقليم البحيرة إلى القاهرة. أما بعد حضوره فقد سارع هؤلاء المغاربة إلى الالتفاف حوله، وكوّنوا هم و«أهل الحرمين ممن كان قدم من مكة والمدينة وما والاهما مع الشيخ الجيلاني»، أحد أقوى الأجنحة المقاتلة خلال هذه الثورة[٥٩]. وإذا كان هؤلاء المغاربة قد أفشلوا قرار الخروج الذي أجمع عليه القادة العثمانيون والمماليك، فإن انضمامهم إلى هذا الزعيم المغربي المتمرس على منازلة الفرنسيين سيمكنهم من إفشال أكثر من اتفاقية صلح بين القادة العثمانيين والقائد العام لجيش الشرق، الجنرال كليبر. كما أضحى مولاي محمد المغربي بفضل مؤازرتهم له زعيما شعبيا يعلن على الملأ بأن «الصلح منقوض، وعليكم بالجهاد، ومن تأخر ضربت عنقه»[٦٠]، ويتهم الشيخ خليل البكري، نقيب الأشراف، بموالاة الفرنسيين. فتنهب داره، ويسحب مع أولاده وحريمه، ويتم إحضاره إلى الجمالية «وهو ماش على أقدامه ورأسه مكشوفة»، وتحصل له «إهانة بالغة»، ويسمع «من العامة كلاما مؤلما وشتما»[٦١].

ورغم أن الجبرتي قد صب جام غضبه على مولاي محمد المغربي واعتبر الملتفين عليه «أخلاط العالم»، فإننا لا نشك أنه لقي تأييدا ومساندة من لدن كبار التجار والحرفيين المغاربة؛ سواء من كان منهم يقطن بحي الغورية والفحامين، أو الأحياء الأخرى مثل حي ابن طولون.

---

(٥٨) المصدر نفسه.

(٥٩) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٧٤.

(٦٠) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٨٧.

(٦١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٧٤ ـ ٣٧٥.

نقول هذا لأنه كما قال الجبرتي: «معظم أهل مصر، ما عدا الضعيف الذي لا قوة له على الحركة»، تهيأوا للقتال. كما تحول كبار التجار مثل البشتيلي والمحروقي إلى قادة ميدانيين يحرّضون على القتال، ويوزعون المؤن والأسلحة على المجاهدين.

خلاصة القول، رغم المحاولات التي بذلها نابليون من أجل التخلص من المغاربة البلديين، أو على الأقل إضعافهم، تصدروا للجهاد والمقاتلة بحماسة وقوة خلال ثورة القاهرة الأولى. أما ثورة القاهرة الثانية التي كان لهم كثير من الفضل في استمرارها إلى التاريخ الذي انتهت إليه فقد تحولوا خلالها إلى ما يشبه عصبية هذه الحركة الجهادية عندما انضموا إلى أحد قادتها الذي تزعم جبهة الرفض لكل محاولات الصلح التي تم التوصل إليها. أقصد بذلك مولاي محمد المغربي الذي تصور كما قال الجبرتي: «بصورة الإمارة»، وترأس «بدون أن ينصبه أحد للرئاسة»[٦٢].

فلا غرابة إذن، إذا تحول هؤلاء المغاربة إلى خطر محقق بالنسبة لإدارة الاحتلال الفرنسية؛ لأن كل تخوفاتهم السابقة تحولت الآن إلى حقائق ملموسة. لهذا، أخذت سلطات هذه الإدارة تشتبه في كل ما يصدر عنهم لمجرد الإشاعة، خاصة في الساعات الحرجة التي كانت تمر بها القاهرة بين الحين والآخر.

وهكذا، سيواكب مواسم الحج وحلول ركاب الحج المغربية بالقاهرة إخضاعهم لمراقبة أمنية صارمة واتهامهم غير ما مرة بالتواطؤ مع الحجاج المغاربة لقتال الفرنسيين. فاستدعي، بسبب ذلك، بعض شيوخهم، واستنطقوا. وأخذ، في مناسبة أخرى كبيرهم رهينة لديهم صحبة شيخ ركب الحاج المغربي[٦٣]. أما عندما أضحت القاهرة قاب قوسين أو أدنى من أن تسقط بين يدي الجيشين العثماني والإنجليزي

---

(٦٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٨٦.

(٦٣) انظر رسالة حاكم القاهرة الجنرال بليار إلى القائد العام لجيش الشرق الجنرال عبد الله مونو، في ٢١ فانتوز سنة ٧ (١١ آذار/ مارس ١٧٩٩)، دار الوثائق، القاهرة، حافظة رقم (٩)، ملف رقم (٩).

المتقدمين من كل الجهات، فكان المغاربة البلديون هم الطائفة الإسلامية التي حامت حولها الشكوك أكثر. لهذا السبب سيتم القبض في هذه اللحظات الأخيرة من عمر الحملة «على نيف وستين من مغاربة الفحامين وطولون والغورية»، وإيداعهم سجن القلعة[٦٤]. ثم فعلوا الشيء نفسه مع شيخ رواق الأزهر أبو القاسم الدرقاوي المغربي[٦٥].

٥ ـ سلطات الاحتلال الفرنسية تستعين بالتجار المغاربة في إدارة الشأن العام بالقاهرة

لم تتمكن إدارة الاحتلال الفرنسية أن تستغني عن المغاربة في إدارة الحياة العامة بهذه المدينة؛ نظرا للثقل الاقتصادي والخبرة الإدارية والنفوذ السياسي الذي كان يتمتع بها تجارهم وحرفيوهم. لهذا السبب اضطرت هذه الإدارة إلى الاستعانة بخدماتهم في تسيير المدينة وحفظ الأمن واستخلاص الضرائب والغرامات.

وهكذا، وجدنا محمد العشوبي، شيخ حي الغورية، والحاج محمد أبو النصر، تاجر بنفس الحي، والحاج سعيد، شيخ طولون، يشكلون أعضاء في الديوان الكبير الذي أنشأه نابليون عقب ثورة القاهرة الأولى[٦٦]. ولا يستبعد أن يكونوا كلهم أو جلهم قد أعيد تعيينهم في الدواوين اللاحقة. لكن، لم يعين منهم أي أحد في الديوان الخصوصي الذي ظل حكرا على كبار العلماء والتجار «المصريين»[٦٧]. ولا يستبعد

---

(٦٤) الجبرتي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٧٣.

(٦٥) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٨١.

(٦٦) أنشأ نابليون بعد ثورة القاهرة الأولى ديوانا عرف بـ «الديوان الكبير». ضم هذا الديوان عدداً من الشخصيات الدينية والإدارية والتجارية، كان من بينهم هؤلاء المغاربة باعتبارهم شيوخاً في أحيائهم المذكورة. انظر: **صحف بونابرت في مصر، ١٧٩٨ ـ ١٨٠١**، ترجمة صلاح الدين البستاني، ١٠ مج (القاهرة: دار العرب للبستاني، ١٩٨١)، **وكوريبه دي ليجبت**، رقم ٢٣، ٩ نيفوز سنة ٧ (٢٩ كانون الأول/ديسمبر ١٧٩٨)، ص ٨٢ ـ ٨٥.

(٦٧) تم تعين ديوان صغير أو خصوصي من قبل أعضاء الديوان الكبير عن طريق الاقتراع وبالأغلبية المطلقة. يتألف هذا الديوان من أربعة عشر فرداً، يضطلع «بكافة الأعمال الخاصة بتحقيق العدل ورفاهية الأهالي ومصالح الجمهورية الفرنسية». ويتقاضى أعضاؤه أجراً شهرياً. انظر: المصدر نفسه، ص ٨٤ ـ ٨٥.

أن يكون بعض كبرائهم، من التجار والحرفيين، قد عينوا في دواوين الأقاليم. أما في ما يخص دورهم في حفظ الأمن فقد علمنا أن نابليون قد اجتمع عقب ثورة القاهرة الأولى بكبار تجار حي الغورية، وألزمهم بالتوقيع على وثيقة يتعهدون فيها «فردا فردا» بالمحافظة على الهدوء بحيهم.

أما عندما أوشك الجيشان، العثماني والإنجليزي، على الدخول إلى القاهرة قبل الجلاء النهائي والجيش الفرنسي يعاني من شح الموارد، فقد «أرسلت أوراق بحضور مشايخ الديوان والتجار والأعيان»، وكان من بينهم الحاج عبد الله التاودي المغربي(٦٨) الذي خلف محمد العشوبي في مشيخة حي الغورية(٦٩). وكان الغرض من هذا الاجتماع الاستعجالي، كما صرح بذلك استيف (Estève) الخازندار: «معاونة الفرنساوية ومساعدتهم وغلاقة نصف مليون»، مقابل أن يشفع لهم بعد ذلك عند الحاكم العام الجنرال مونو، في فوات النصف الثاني(٧٠)، وهو مجموع الغرامة التي فرضتها إدارة الاحتلال الفرنسية على السكان، وعلى رأسهم التجار، عقب ثورة القاهرة الثانية. لكنه، أضاف أنه «ينبغي التعجيل، فإن الأمر لأجل نفقة العسكر»(٧١). ثم طلب منهم أن يكتبوا جوابا للحاكم العام، يعرّفوه فيه «عن راحة أهل البلد وسكون الحال [وقيامهم] بوظائفهم»(٧٢).

هكذا، أصبح كبار التجار المغاربة يشكلون، شأنهم في ذلك شأن باقي الطوائف الإسلامية والمسيحية، محاورين ووسطاء تستعين بهم إدارة

---

(٦٨) هو الحاج عبد الله التاودي ابن المرحوم الحاج أحمد التاودي المغربي الفاسي. (دار الوثائق، القاهرة، دفاتر المحاكم الشرعية، القسمة العسكرية، سجل رقم ٢٢٩، مادة رقم ٦٨٧، سنة ١٢١٥ هـ، ص ٤٣٢).

(٦٩) لا نعرف الأسباب التي جعلت محمد العشوبي يكف عن الاستمرار في مشيخة هذا الحي التجاري الهام الذي اشتهر بسكنى وتجارة المغاربة بوجه عام وأهل المغرب الأقصى منهم على وجه الخصوص.

(٧٠) الجبرتي، **مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس**، ج ٢، ص ٤٨٠.

(٧١) المصدر نفسه.

(٧٢) المصدر نفسه.

الاحتلال لإضفاء الشرعية على قراراتها وتحقيق بعض أهدافها. إلا أن ضعف ثقتها بهم ألزمها حدودا ضيقة في التعامل معهم؛ حيث أبقتهم بعيدين عن الديوان الخصوصي وباقي المواقع الإدارية الحساسة.

ورغم ذلك، نجح بعضهم في نسج علاقات قوية مع قادة الحملة، وأعجبوا بإنجازاتها العلمية. نذكر من بين هؤلاء أخ مولاي سليمان، الأمير مولاي سلامة[٧٣] الذي أقام مدة في القاهرة، واجتمع مع نابليون وأعجب به، «ووقعت بينهما المهادات»[٧٤]. أما الشيخ محمد الفاسي الذي سبق له مشاهدة مطبعة القسطنطينية فزار المطبعة التي أحضرها نابليون معه إلى القاهرة، وأبدى إعجابه بها[٧٥].

خلاصة الفصل الحادي عشر

هكذا إذن، نستطيع القول، في ختام هذا الفصل الذي خصصناه لتبين موقف من سماهم الجبرتي بـ «المغاربة البلديين»، إن هؤلاء المغاربة الذين داهمتهم الحملة وهم على أرض مصر، تفاعلوا بقوة مع هذا الحدث العدواني. فقاوموه بشدة وضراوة عندما أزفت ساعة المقاومة وعلا نادي الجهاد. كما تمكنوا من التعايش معه عندما كانت تتحقق، بين الفينة والأخرى، الغلبة للفرنسيين. لكن، تصدرهم لثورتي القاهرة الأولى والثانية جعلهم على الدوام موضع شك وريبة. فانتهى الأمر بالبعض منهم إما إلى النفي أو الرهن أو السجن. ناهيك عن الخسائر المادية والبشرية التي لحقت بهم، بسبب مواقفهم تلك.

وإذا كان هذا «الشق المدني» من المغاربة المقيمين بمصر قد التزم عموما موقفا موحدا تجاه الاحتلال الفرنسي لهذا البلد الإسلامي، فإن «الشق العسكري» منهم كانت له مصائر مخالفة؛ تراوحت بين المواجهة والرفض تارة، والانخراط في صفوف جيش الشرق تارة أخرى. ورغم

---

(٧٣) انظر: الفصل الخامس، المبحث الثاني من هذا الكتاب.

(٧٤) انظر: أبو العباس أحمد بن عمر بن أبي الضياف، **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، ٨ ج (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٧٦ ـ ١٩٧٩)، ج ٣، ص ٥١.

(٧٥) **صحف بونابرت في مصر، ١٧٩٨ ـ ١٨٠١**، وجريدة **كوريبه دي ليجيبت**، رقم ١٠٢، ٢٤ بلوفيوز سنة ٩ (١٢ شباط/ فبراير ١٨٠١)، ص ٣٧٣ ـ ٣٧٤.

ذلك، فإن الصورة التي بقيت عالقة في أذهان الكثير من الدارسين والباحثين مشارقة وأجانب، هي صورة الجندي المغربي «المرتزق».

لهذا، نرى من الضروري تسليط الضوء على هذا الجانب؛ سعيا منا إلى استكمال عناصر هذا القسم، وحرصا منا كذلك على رفع الحيف الذي لحق بهذه الفئة المقاتلة من المغاربة البلديين. هذا ما سنحاول القيام به في الفصل التالي.

الفصل الثاني عشر

عسكر «المغاربة» بين فريضة الجهاد وإغراءات الارتزاق

مقدمة

أشرنا، في مقدمة هذا القسم، إلى الأهمية والمكانة اللتين كان يحظى بهما الحضور المغربي بمصر والشام على المستوى العسكري. وتبين لنا، من خلال ذلك، أن وجودهم سابق بقرون على الضم العثماني للمشرق العربي. كما أشرنا، بنفس المناسبة، إلى صعوبة تحديد انتماءاتهم الوطنية بدقة. لكن، بدت لنا العناصر المنحدرة من الإيالات المغاربية المنضوية تحت لواء الدولة العثمانية، غالبة. أما عن دورهم العسكري فتأكد لنا انضباطه بالمصلحة الإسلامية العليا. غير أنه تبين لنا، ميلهم، خلال القرنين الأخيرين، إلى امتهان الجندية بغرض الارتزاق.

عندما حل جيش الشرق بمصر والشام، كان هؤلاء الجنود المغاربة يشكلون وحدات قتالية رئيسة في جند المماليك وغيرهم من الزعامات المحلية، خاصة منها أحمد باشا الجزار الذي كان أغلب عساكره منهم. ولم نعد نسمع عن أية مواجهة عسكرية بمصر والشام، إلا وذكر فيها اسم «عسكر المغاربة» ضمن قائمة الجند المشاركين فيها (انظر الصورة الرقم (١٢ ـ ١)).

ـ فهل سيستمر هؤلاء الجند في القيام بدورهم القتالي إلى جانب الزعماء المحليين الذين وقفوا في وجه هذا العدوان، مثل الزعيمين المملوكين الكبيرين، مراد بك وإبراهيم بك، ووالي عكا، أحمد باشا

الجزار، أم أن ميلهم الأخير إلى الارتزاق سيشجعهم على الانضمام إلى الطرف الأقوى الذي أصبح يمثله الآن جيش الشرق؟

الصورة الرقم (١٢ ـ ١)

جندي مغربي بمصر في نهاية القرن الثامن عشر



المصدر: عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، إعداد وتحقيق جمال الدين عبد العزيز، صفحات من تاريخ مصر؛ ٣٧، ٥ ج (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٧)، ج ٤: **الغزوة الفرنسية**، ص ١٣٣ (من ملحقات التحقيق).

قبل الإجابة عن هذا السؤال نشير أولا إلى أن طرحنا له تمليه ضرورة منهجية وأخرى موضوعية. أما الضرورة المنهجية فتتمثل في استكمال عناصر الصورة المكونة لموقف المغاربة الذين كانوا يقيمون في هذه الآونة بمصر والشام، من الحملة. أما الضرورة الموضوعية، فتتجسد في حجم التشويه الذي طال صورة المغاربة ككل من جراء تحول بعض الجند منهم إلى المقاتلة إلى جانب الفرنسيين، وارتباط اسم هؤلاء الجنود، في أذهان بعض الدارسين والباحثين المصريين، بالمغرب الأقصى دون غيره من البلدان المغاربة الأخرى.

لهذه الاعتبارات سيتركز اهتمامنا، خلال هذا الفصل، على تسليط الضوء على الموقف الحقيقي الذي وقفه هؤلاء الجنود المغاربة من الحملة داخل مصر والشام، ضمن الحدود التي تسمح لنا باستكمال عناصر هذا القسم، واستجلاء الصورة الحقيقية لهؤلاء المقاتلين.

ولتحقيق هذا الهدف المزدوج، سنقوم بمعالجة قضايا هذا الفصل من خلال مبحثين متكاملين. سنخصص المبحث **الأول** منهما لاستجلاء صورة الجنود المغاربة الذين قاتلوا في صفوف المماليك وباقي الزعامات المحلية وحركات المقاومة التي قادها الزعيمان المغربيان: الشيخ محمد الجيلاني ومحمد بن الأحرش الدرعاوي، واستمروا في ذلك، حتى خروج الفرنسيين من مصر والشام. أما المبحث **الثاني** فسنحاول الإلمام، من خلاله، بقضية المغاربة الذي انضموا في إحدى لحظات الحملة إلى جيش الشرق.

أولاً: عسكر المغاربة المجاهدين

خلافا لما هو شائع لدى عدد من الدارسين والباحثين المصريين من ارتباط «عسكر المغاربة» بالارتزاق، تؤكد عدد من المصادر العربية والأجنبية أنهم كانوا في طليعة من تصدى لمقاتلة قوات الحملة في مختلف المعارك، وأبلوا في ذلك بلاء حسنا في مصر والشام.

أما في ما يتعلق بمصر فتجمع هذه المصادر على اشتراكهم في جميع المواجهات التي تخللت تقدم الجيش الفرنسي من الإسكندرية إلى القاهرة. وبعد أن اندحر المماليك في معركة الأهرام الفاصلة وانتقل أغلبهم إلى الصعيد لمتابعة المقاومة، رافقهم إلى هناك من كان يقاتل معهم من الجنود المغاربة.

وعندما حاول نابليون بسط سيطرته على الشام واجهه هناك مقاتلون مغاربة بالعريش ويافا وعكا ودمشق. وأسهموا، بقوة، في تأخير تقدم الجيش الفرنسي بهذه الجهة، خاصة خلال هجومه على قلعة العريش. كما كان لهم دور هام في إفشال حصاره لعكا، وإرغامه، بعد ذلك، على الانسحاب من الشام.

١ ـ جنود مغاربة ضمن القوات المملوكية بمصر

تجلت مساهمة الجنود المغاربة في الدفاع عن مصر، أول ما تجلت، في مشاركتهم في معركة الرحمانية التي جرت أطوارها في ١٣ تموز/ يوليو ١٧٩٨. فقد ورد ذكرهم بين الوحدات القتالية التي جمعها مراد بك لهذا الغرض[١]. وبعد انتهاء هذه المعركة القصيرة لصالح الفرنسيين، وعودة مراد بك ومن نجا من جنده إلى القاهرة، حيث بدأ الاستعداد مجددا لمواجهة جيش الشرق المتقدم نحو هذه المدينة، كان المقاتلون المغاربة، مرة أخرى، في مقدمة المدافعين عنها. فقد ذكر الجبرتي، بهذه المناسبة، أن من أهل القاهرة من كان «يجهز جماعة من المغاربة والشوام بالسلاح والأكل وغير ذلك»[٢]، استعدادا لمقاومة الهجوم الفرنسي. أما المؤرخ العثماني عزت حسن الداردنلي، فقد قال، وهو يصف أطوار معركة أمبابة التي أعقبت هذا الاستعداد: إنه بعدما تشتت فلول العربان وولوا الأدبار ولم يبق في أرض المعركة سوى المماليك وحمل الجنود الفرنسيون على متاريس مراد بك، «هب الجند المشاة في المتاريس وكذلك جند القليونجية[٣] والمغاربة البحرية ونحو المائتين من المشاة الذين تواردوا من دمياط في يوم أو يومين، لردهم وقتالهم، غير مبالين بمدفعية الأعداء وبنادقهم، ثابتين في أماكنهم»[٤].

---

(١) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ٣ ج (بيروت: دار الجيل، [د. ت.])، ج ٢، ص ١٨١.

(٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٨٦.

(٣) القليونجية: هم طائفة من الجند العثمانية الذين كانوا يعملون في الغلايين، وهي سفن حربية ضخمة. انظر: أحمد السعيد سليمان، **تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدَخيل** (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٩)، ص ١٥٥ ـ ١٥٦.

(٤) عزت حسن أفندي الداردنلي، **الحملة الفرنسية على مصر في ضوء مخطوط عثماني: مخطوطة «ضيانامة»**، دراسة وترجمة جمال سعيد عبد الغني، تاريخ المصريين؛ ١٣٤ (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩)، ص ١٥١.

بعد هذه المعركة الحاسمة التي عرفت في المصادر الفرنسية بـ «معركة الأهرام»، تحققت الغلبة للفرنسيين بدخولهم القاهرة وخروج المماليك منها. فاتجه مراد بك إلى الصعيد، بينما ارتحل إبراهيم بك إلى الشام، وصحبهما إلى هناك من نجا من عسكر المغاربة، واستمروا يقاتلون إلى جانبهما جنود الحملة. وعندما ضعفت شوكة المقاومة لدى المماليك انضم الجنود المغاربة إلى الشيخ محمد الجيلاني الذي سيظهر عما قريب بإقليم الصعيد، ثم مولاي محمد المغربي الذي سيظهر بعده بإقليم البحيرة. يؤكد ذلك ما ورد عند الجبرتي حين قال، متحدثا عن انتقال محمد الجيلاني على رأس حشد من المتطوعين من الحجاز إلى الصعيد: «فورد الخبر أنه انضم إليهم جملة من أهل الصعيد وبعض أتراك ومغاربة ممن كان خرج مع غز مصر عند وقعة أمبابة»(٥). كما تؤكد عدد من المصادر أنه، بعد انطفاء شعلة المقاومة والجهاد بمصر العليا، انتقل رجال الشيخ محمد الجيلاني بعدما أصبح هؤلاء الجنود المغاربة يشكلون جزءا منهم، وعلى رأسهم ابن أخته الشريف حسن، إلى إقليم البحيرة، حيث سينضمون إلى الثورة التي فجّرها هناك مولاي محمد المغربي بهذا الإقليم منذ نهاية نيسان/أبريل من سنة ١٧٩٩، وسيستمرون في القتال إلى جانب مولاي محمد المغربي حتى خروج الفرنسيين من مصر.

يستفاد مما سبق، أن ما عرف بـ «عسكر المغاربة» لم يكونوا مجرد آلة قتل في يد من يدفع أكثر، بل كانت ممارستهم القتالية مؤسسة على ضوابط شرعية وأخلاقية. فإضافة إلى مشاركتهم القتالية الفعالة إلى جانب المماليك لم يترددوا في الانضمام إلى الحركتين الجهاديتين الكبيرتين اللتين ظهرتا بإقليمي الصعيد والبحيرة. وفي هذا دليل قوي على اقتناعهم بمشروعية ممارستهم القتالية.

ورغم ذلك، فأهم مساهمة جهادية صدرت عن هؤلاء الجنود المغاربة ستتحقق على أرض الشام؛ بدءا من العريش ومرورا بيافا وعكا وانتهاء بدمشق. فلأسباب أمنية طارئة وأخرى مبيتة اتجه نابليون على رأس حملة مكوّنة من حوالى ثلاثة عشر ألف مقاتل إلى الشام بهدف القضاء على والي

(٥) الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ج ٢، ص ٢٥٢.

عكا أحمد باشا الجزار، وتأمين حدود مصر من الجهة الشرقية. أما إذا تمت هذه الحملة وفق الصورة التي رسمها لها نابليون، وتحققت من خلالها حسب تخميناته وتعبيره «انتفاضة الشرق»، فإن حدود هذه الحملة سوف لن تتوقف عند الشام، بل ستمتد لتشمل الإمبراطورية العثمانية بأكملها[٦].

٢ ـ جنود مغاربة ضمن القوات العثمانية بالشام

انطلقت حملة الشام مع بداية شهر شباط/ فبراير من سنة ١٧٩٩. ونجحت، بعد معارك طاحنة وسريعة، في بسط سيطرتها على مدن وقلاع العريش والرملة وغزة ويافا والناصرة وطبرية والجليل. لكن عجزها عن اقتحام قلعة عكا، حيث كان يرابط أحمد باشا الجزار، أدى إلى فشلها وانسحابها بعد ذلك من باقي المدن الشامية ابتداء من الواحد والعشرين من شهر ماي (أيار/ مايو) من نفس السنة (انظر الخريطة الرقم (١٢ ـ ١)).

ويتبين من خلال المصادر التي عاصر أصحابها أحداث هذه الحملة، أن الجنود المغاربة الذين كانوا يحاربون في صفوف أحمد الجزار، لعبوا دورا متميزا في تأخير سقوط عدد من المدن الشامية والفلسطينية منها على وجه الخصوص. كما يرجع إليهم بعض الفضل في الدفاع عن عكا، وإفشال الحصار العسكري الذي ضرب حولها لأزيد من شهرين.

وحتى نتبين أهمية هذه المساهمة الجهادية التي اضطلع بها المقاتلون المغاربة بهذه المناسبة، نقترح التوقف عند أهم المواجهات العسكرية التي تخللت هذه الحملة. وأول ما نبدأ به في هذا الإطار هو مدينة العريش. فقد بدأت هجومات القوات الفرنسية على هذه القلعة في السابع من شباط/ فبراير، ثم أخضعت للحصار مدة عشرة أيام، ولم تستسلم إلا في العشرين منه، بعد أن أمن نابليون مقاتلتها على أرواحهم وسمح لهم

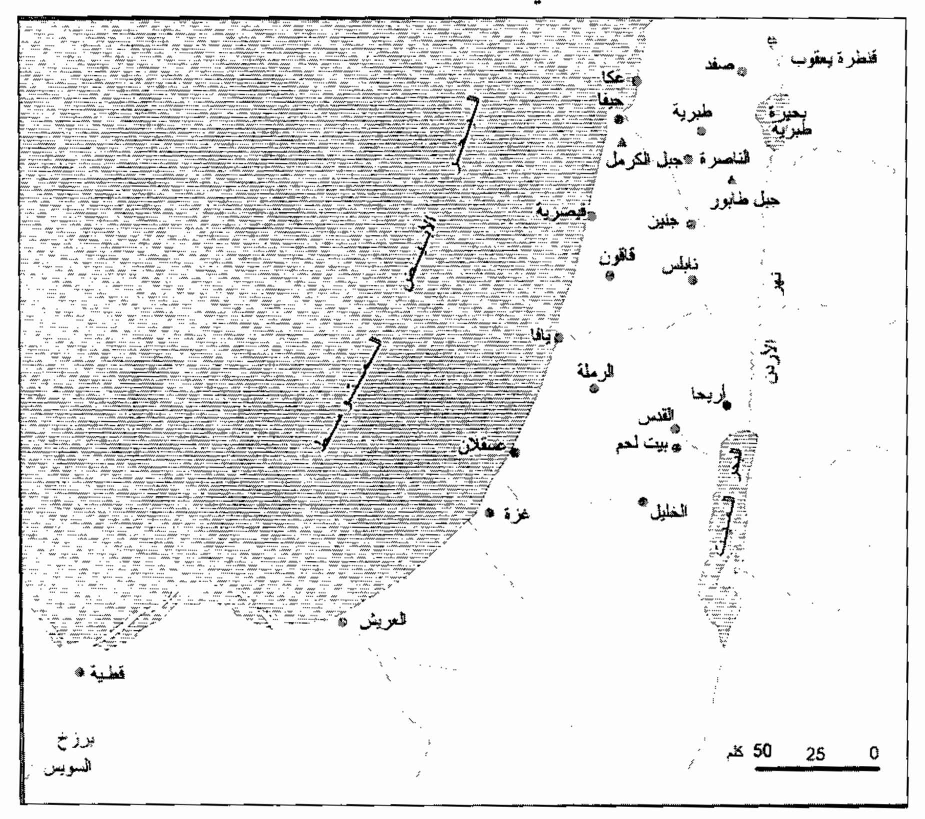
---

(٦) ارتبطت حملة الشام عموماً بالتهديد الذي أضحى يمارسه الوالي العثماني أحمد باشا الجزار على الوجود الفرنسي بمصر عندما رفض كل عروض التعاون مع نابليون، وبدأ يتهيأ بأمر من السلطان العثماني بالزحف على مصر. كما ارتبطت أيضاً بمخطط واسع كان نابليون يهدف إلى تحقيقه من خلال القضاء على الإمبراطورية العثمانية. انظر بهذا الخصوص: هنري لورنس، **الحملة الفرنسية في مصر**، ترجمة بشير السباعي (القاهرة: دار سينا للنشر، ١٩٩٥)، ص ٣٤٠ ـ ٣٤١، و Jacques Derogy et Hesi Carmel, *Bonaparte en Terre sainte* (Paris: Fayard, 1992).

بالاحتفاظ بأسلحتهم والتوجه من هناك إلى بغداد أو مصر إذا هم رغبوا في ذلك. وقد تطلب الوصول إلى هذا الاتفاق، إجراء مفاوضات شاقة وعسيرة تحت الإشراف المباشر لنابليون(٧).

الخريطة الرقم (١٢ ـ ١)

فلسطين في نهاية القرن الثامن عشر



المصدر: هنري لورنس، **الحملة الفرنسية في مصر**، ترجمة بشير السباعي (القاهرة: دار سينا للنشر، ١٩٩٥)، ص ٦١ (بتصرف).

وغني عن القول إن دخول نابليون في هذه المفاوضات المعقدة، وقبوله بعد ذلك بهذه الشروط التي تبقي على أرواح هؤلاء المقاتلين،

---

(٧) انظر نص هذا الاتفاق، في: Louis Reybaud, *Histoire scientifique et militaire de l'expédition française en Égypte*, 10 vols. (Paris: [A.-J. Dénain], 1830), vol. 4, pp. 313-314.

وتضمن لهم الشرف العسكري، إنما اضطره إليه شدة المقاومة وعجز جنوده عن اقتحام هذه القلعة التي كانت تتولى الدفاع عنها حامية مؤلفة، حسب أقصى التقديرات، من ألف وستمائة مقاتل؛ كان من بينهم حوالى خمسمائة جندي مغربي يقاتلون تحت قيادة رئيسهم الحاج عمر الذي سيتولى التوقيع، نيابة عنهم، على وثيقة الاستسلام إلى جانب ثلاثة من قادة الطوائف الأخرى[٨].

ومما يؤثر عن هؤلاء المقاتلين المغاربة من بطولات في هذه المناسبة، أنه في لحظات هذا الحصار تمكّن جنود فرنسيون من اختراق حائط القلعة واقتحام المنازل الموجودة بداخلها وإيقاع مجزرة رهيبة بساكنتها والمدافعين عنها. آنذاك، اضطر أربعون مقاتلا مغربيا إلى اللجوء إلى أحد السراديب رافضين الاستسلام، ولم يتم إرغامهم على الخروج وتسليم أنفسهم، إلا بعد أن هددهم الجنود الفرنسيون بالموت خنقا داخل هذا السرداب[٩]. أما بعد استسلام الحصن وخروج جميع المقاتلين منه فقد عثر أحد الأطباء المرافقين لهذه الحملة، داخل قاعة مظلمة، على خمسة جنود مغاربة أقعدتهم جروحهم والأمراض التي ألمّت بهم، عن الإفلات من الجنود الفرنسيين[١٠].

ومما يعلي أكثر من هذا الجهاد المستميت الذي قام به أفراد هذه الحامية العثمانية التي كان يوجد بينها بضع مئات من المقاتلين المغاربة، أن إحدى الدراسات الحديثة المتخصصة عزت جزئيا فشل حملة الشام إلى الحصة الزمنية التي استغرقها نابليون في إخضاع قلعة العريش،

---

(٨) لأخذ فكرة تقريبية عن عدد هؤلاء المقاتلين المغاربة، انظر الأرقام التي وردت في المصادر التالية: Pierre-Dominique Martin, *Histoire de l'expédition française en Egypte*, 2 vols. (Paris: J.-M. Eberhart, 1815), vol. 1, p. 285 (quatre cent Maugrabins); Jean-Pierre Doguereau, dans: *Journal de l'Expédition d'Egypte* (Paris) (1904), p. 149 (cinq cent Maugrabins), et C.N., no. 4035, Jaffa, Rapport de Napoléon au Directoire Exécutif, 23 ventose an 7 (13 mars 1799), vol. 5, p. 466 (cinq cent Maugrabins).

(٩) El Arich, rapport du général Reynier à Napoléon, 29 pluviôse an 7 (17 février 1799), dans: Clément de La Jonquière, *L'Expédition d'Egypte*, 5 vols. (Paris: C. Lavauzelle, 1899), vol. 4, p. 162.

(١٠) Paul Pallary, ed., *Les Rapports originaux de Larrey à l'armée d'Orient* (Le Caire: Impr. de l'Institut Français d'archéologie orientale, 1936), 1 fructidor an 7 (18 août 1799), p. 27.

والتي لم تقل عن عشرة أيام، مما أفسح المجال لأحمد باشا الجزار وحلفائه الإنجليز لإحكام دفاعاتهم عن قلعة عكا[١١]. وفي هذا، كما نرى، إشارة واضحة إلى المساهمة القوية لمقاتلي هذه الحامية، في توجيه مصير هذه الحملة نحو الفشل الذريع.

بعد أن أحكم نابليون سيطرته على العريش وما يليها من المدن والقلاع الثانوية، توقف هو وجنوده عند مدينة يافا في فاتح آذار/ مارس، ثم أخضعوها للحصار في اليوم الثالث منه. لكن، هذه المدينة المحصنة، والتي كان يدافع عنها حوالى خمسة آلاف مقاتل، منهم حوالى ألف مدفعي عثماني، ستصمد في وجه هذا الحصار حتى اليوم السابع من نفس الشهر. وتجمع المصادر على أن السبب في انهيار دفاعات هذه المدينة يرجع إلى اكتشاف بعض المهاجمين الفرنسيين لممر أرضي من جهة البحر عبروا من خلاله، على حين غرة، إلى الداخل. فسقطت عشية ذلك اليوم بعد أن هلك قرابة النصف من مقاتلتها، ثم استبيحت لمدة يومين للجنود الفرنسيين، ليرتكبوا بساكنتها أبشع الجرائم الإنسانية؛ من اغتصاب للنساء، وقتل للأنفس، ونهب للأموال[١٢].

أما من نجا من مقاتلتها فسلموا أنفسهم لاثنين من مساعدي نابليون مقابل الإبقاء على حياتهم. وبعد عرضهم على هذا الأخير، سمح للمصريين والسوريين بالعودة إلى بلدانهم. أما الآخرون، وكان عددهم حوالى ألفين وخمسمائة مقاتل، فأعدموا عن آخرهم على شاطئ البحر؛

---

(١١) Derogy et Carmel, *Bonaparte en Terre sainte*, p. 139.

(١٢) أثارت مشاهد القتل والاغتصاب التي أعقبت هذا الاقتحام، ردود فعل قوية لدى عدد من ضباط وجنود هذه الحملة. أذكر منهم على سبيل المثال، جون ميو الذي قال في مذكراته: «Le (...) soldat excité par le bruit et la poudre, se livre à toute la fureur qu'autorise un assaut, il blesse, il tue, rien ne peut l'arrêter, et par tout l'amour de la gloire, osons le dire, le désir du pillage, lui font affronter les dangers, oublier même, une blessure (...) Le désordre est par-tout; toutes les horreurs qui accompagnent la prise d'assaut d'une ville, se répètent dans chaque rue, dans chaque maison. Ici vous entendez le cris d'une fille violée, appelant en vain, à son secours une mère qu'outrage, un père qu'on égorge. Aucun asile n'est respecté, le sang ruisselle de tous cotés, à chaque pas vous rencontrez un être expirant et gémissant...».

انظر: Jacques Miot, *Mémoires pour servir à l'histoire des expéditions en Égypte et en Syrie pendant les années VI, VII et VIII de la République française* (Paris: Le Normand, 1814), pp. 137-138.

بعضهم قتل رميا بالرصاص، والبعض الآخر أزهقت أرواحهم بالسلاح الأبيض بدعوى نفاذ الذخيرة أو المحافظة عليها. وقد برر نابليون قراره هذا بدعاوى مختلفة؛ منها عدم كفاية المواد الغذائية، ووجود عدد من مقاتلة العريش بينهم، وصعوبة حراسة هذا العدد الكبير من المقاتلين. إلا أن السبب الرئيس الذي دفعه نحو اتخاذ هذا القرار هو خوفه من أن ينضم هؤلاء المقاتلون، في وقت لاحق، إلى قوات أحمد باشا الجزار المرابطة آنذاك في عكا التي كان يتوقف عليها مصير هذه الحملة.

ما يهمنا أكثر في هذا المقام هو أن هؤلاء المقاتلين الذين نفذ فيهم حكم الإعدام بهذه الطريقة الهمجية، كان يوجد من بينهم عدد مهم من الجنود المغاربة. لا نعرف كم كان عددهم على وجه التحديد. لكن، يبدو أن نسبتهم كانت كبيرة؛ لأن أحد شهود عيان، قال إنه كُلّف بإعدام هؤلاء المغاربة، كتيبتان (deux bataillons)[١٣]. ومما يؤكد أن عددهم لم يكن قليلا، تمكن البعض منهم، رغم الحراسة المشددة، من الفرار والارتماء في البحر طلبا للنجاة، مما اضطر الجنود الفرنسيين إلى استخدام المراكب للحاق بهم. وبعد أن فشلوا في استئصال شأفتهم جميعا، اضطروا إلى استخدام الحيلة من أجل استدراجهم إلى الشاطئ؛ حيث أوهموهم، من خلال إشارة متعارف عليها هناك، أنهم قد عفوا عنهم، لكنه عندما ظفروا بهم، قتلوهم شر قتلة[١٤].

ومما يؤثر عن هؤلاء المجاهدين المغاربة في هذه المناسبة، أنه

---

(١٣) Extrait d'une lettre d'André Peyrusse à sa mère du Camp sous Jaffa, 20 ventose an 7 (10 mars 1799), dans: La Jonquière, *L'Expédition d'Egypte*, vol. 4, p. 271.

(١٤) وللاقتراب أكثر من الكيفية التي تم بها إعدام هؤلاء المغاربة، نجتزئ المقطع التالي من رسالة هذا الضابط الفرنسي الذي عاين مشاهد هذا القتل الجماعي: «Les Maugrabins furent tous conduits, le lendemain, sur les bords de la mer, et deux bataillons commencèrent à les fusiller; ils n'avaient d'autre ressource pour se sauver que de se jeter à la mer; ils ne balancèrent pas et se jetèrent tous à la nage. On eut le loisir de les fusiller, et, dans un instant, la mer fut teinte de sang et couverte de cadavres; quelques-uns avaient eu le bonheur de se sauver sur des roches; on envoya des soldats sur des barques pour les achever; on laissa quelques détachements sur le rivage, et notre perfidie en attira quelques-uns qui furent aussi impitoyablement massacrés».

انظر: Extrait d'une lettre d'André Peyrusse à sa mère du Camp Sous Jaffa, 20 ventôse an 7 (10 mars 1799), dans: La Jonquière, Ibid., vol. 4, p. 271.

خلال الخرجات التي كان يقوم بها المدافعون أثناء الحصار، زحف أربعة منهم مغاربة على بطونهم وسط أشجار الليمون خارج أسوار المدينة، وتمكنوا من ذبح حارس أحد بطاريات المدفعية. وعندما علم بذلك الجنود الفرنسيون الموجودون بعين المكان، لاذوا جميعا بالفرار، اعتقادا منهم أن عدد المهاجمين أكبر من ذلك بكثير، تاركين وراءهم أسلحتهم وأدواتهم وجرحاهم(١٥).

بعد قضاء نابليون على مقاتلة يافا وإرهابه لساكنتها وساكنة القرى والمدن المجاورة بواسطة هذه المذبحة الرهيبة وما تخللها من جرائم بشعة، توجه بأثقاله نحو هدفه الرئيس المتمثل في دخوله إلى مدينة عكا حيث كان يرابط أحمد باشا الجزار. خلال هذه المرحلة الجديدة والحاسمة من حملة الشام، سيكون أيضا للمقاتلين المغاربة دور قوي وحاسم أحيانا في أهم المواجهات العسكرية التي ستجمع بين القوات العثمانية وجيش الشرق. نخص بالذكر منها معركة جبل طابور الشهيرة التي وقعت في السادس عشر من نيسان/ أبريل، وجمعت بين جيش عثماني قادم من دمشق، مؤلف من حوالى ثلاثين ألف مقاتل، وأربعة آلاف من الجنود الفرنسيين. يخبرنا أكثر من مصدر أن هذا الجيش العثماني كان مؤلفا من عدد من الطوائف الإسلامية المقاتلة، ومن بينها مغاربة(١٦)، أثارت شجاعتهم، جميعا، إعجاب نابليون. فكتب يقول في إحدى رسائله إلى الجنرال ديزي، واصفا له هذه المعركة التي انتهت سريعا لصالح الفرنسيين: «إنهم، بدون جدال، أحسن قوات الإمبراطورية العثمانية، بمن في ذلك المماليك والانكشارية»(١٧). وحرصا منه على تخليد ذكرى معركة الناصرة التي وقعت في السادس من نيسان/ أبريل، أمر برسم لوحة يظهر عليها مقاتلو الجيش العثماني بألبستهم القومية، ومنهم مغاربة يرتدون البرنس(١٨).

---

(١٥) Derogy et Hesi Carmel, *Bonaparte en Terre sainte*, p. 203.

(١٦) *Victoires, conquêtes, désastres, revers et guerres civiles des Français, de 1792 à 1815* (Paris: C. L. F. Panckoucke, 1817-1821), vol. 10, p. 190, et Alexandre Berthier, *Relation des campagnes du général Bonaparte en Egypte et en Syrie* (Paris: De l'impr. de P. Didot l'aîné, an VIII, 1800), p. 75.

(١٧) Bonaparte à Desaix, dans: La Jonquière, Ibid., vol. 4, p. 436.

(١٨) Ordre du jour de l'Armé, devant Acre, 2 floréal an 7 (21 avril 1799), dans: La Jonquière, Ibid., vol. 4, p. 383.

وإذا كانت هذه المعارك قد انتهت لصالح الفرنسيين، وأعقبها تشتت الجيش العثماني المنهزم، فإن حصار عكا الذي سيبدأ في العشرين من هذا الشهر ليستمر إلى العشرين من شهر ماي (أيار/مايو)، سيتوّج بنصر محقق للقوات العثمانية، بقيادة أحمد باشا الجزار، وفشل ذريع لجيش الشرق، بقيادة نابليون بونابرت.

سيبرز دور المقاتلين المغاربة خلال هذه المناسبة أيضا بشكل قوي وفعال. وسيكون لهم، بشهادة عدد من المصادر، نصيب ملحوظ في إحراز هذا النصر المؤزر الذي وضع حدا نهائيا لما عرف بـ «حملة الشام». ذلك، أن أحمد باشا الجزار الذي درج، منذ فترة بعيدة، على الاقتصار في تكوين جنده على أقربائه من البوسنيين والألبان، لم يستغن عن المقاتلين المغاربة. فقد ذكر الرحالة الإنجليزي، فولني (Volney)، الذي زار المنطقة قبيل دخول هذه الحملة إلى الشام، أن القوات الخاصة لوالي عكا تتألف من حوالى تسعمائة فارس بوسني أو ألباني، إضافة إلى ألف من المشاة المغاربة؛ منهم وحدة من المغرب الأقصى، وكتيبة صغيرة مكوّنة من فرسان أفغان[١٩]. أما جريدة **كورييه دي ليجيبت**، فقد ذهبت إلى أبعد من هذا حينما أوردت في أحد أعدادها أن حامية الجزار كانت مؤلفة من المغاربة فقط[٢٠]. قد لا تكون هذه المعلومة الأخيرة صحيحة، لكنها تدل على كثافة العنصر المغربي بهذه الحامية.

يبدو من هذه الإشارات، أن أحمد باشا الجزار كان له ميل خاص لاستخدام المقاتلين المغاربة، وخاصة منهم أهل المغرب الأقصى. لذلك، وجدناه يبذل قصارى جهده خلال سنة ١٧٩٩ من أجل الاستزادة منهم. فقد علمنا من خلال أحد المباحث السابقة، أنه قام خلال هذه السنة بمحاولات جدية وعنيفة من أجل إرغام حجاج المغرب الأقصى على العمل في صفوف

---

(١٩) M. C.-F. Volney, *Voyage en Syrie et en Égypte, pendant les années 1783, 1784 et 1785* (Paris: Volland; Desenne, 1787),

ورد في: Derogy et Hesi Carmel, *Bonaparte en Terre sainte*, p. 174.

(٢٠) **صحف بونابرت في مصر، ١٧٩٨ ـ ١٨٠١**، ترجمة صلاح الدين البستاني، ١٠ مج (القاهرة: دار العرب للبستاني، ١٩٨١)، و**كورييه دي ليجبت**، رقم ٢٦، ١٠ بلوفيوز سنة ٧ (٢٩ كانون الثاني/يناير سنة ١٧٩٩)، ص ١٠١.

قواته. ويبدو، أنه نجح جزئيا في ذلك حينما أرغم بضع مئات منهم على الخدمة العسكرية. كما أنه حاول استدراج ركب الحاج المراكشي خلال عودته من الحجاز سنة ١٧٩٩، وفشل في ذلك[٢١].

ما يهمنا من هذا هو أن مقاتلين من مختلف بلدان شمال إفريقيا والمغرب الأقصى منها على وجه الخصوص، كانوا حاضرين بقوة وكثافة إلى جانب أحمد باشا الجزار، وشاركوا معه في الدفاع عن هذه القلعة، وأسهموا من موقعهم ذاك في إفشال مشروع نابليون التوسعي بأرض الشام.

فمما لا شك فيه أن صمود مدينة عكا في وجه هذا الحصار الذي استمر أكثر من شهرين، ساهمت فيه عوامل مختلفة؛ من بينها على الخصوص الدعم العسكري الذي أمدته به القسطنطينية وإنجلترا، وكذا أعمال التحصين القوية التي باشرها أحمد باشا الجزار بنفسه خلال هذا الحصار وقبله. لكن، يضاف إلى هذا وذاك، الدور البطولي الذي قامت به القوات الخاصة التي كان يتوفر عليها هذا الوالي العثماني الطموح، والتي كانت تتألف، كما رأينا ذلك، من مقاتلين أرنؤوط ومغاربة.

ومعنى هذا، أن النصر المؤزر الذي تحقق قبالة أسوار عكا على جيش الشرق، والذي ترتب على فشل حملة الشام التي كانت تستهدف، حسب إحدى روايات نابليون، القضاء على الإمبراطورية العثمانية، يعود فيه بعض الفضل إلى هؤلاء المقاتلين المغاربة الذين تراوحت مهمتهم هناك بين الاحتراف العسكري الذي لا نكاد نميز بينه وبين الارتزاق، والجهاد بالنفس الذي تمليه لحظة من هذه اللحظات التاريخية الحاسمة.

وإذا كان هذا هو شأن مقاتلة عكا من المغاربة، فإن الأمر يبدو لنا مشتركا مع جميع المقاتلين المغاربة الذين صادفتهم هذه الحملة؛ سواء في مصر، أو في الشام، وقاوموا من موقعهم ذاك، إلى جانب من كانوا يأتمرون بأمرهم من بكوات مماليك، من صنف إبراهيم بك، أو ولاة عثمانيين، مثل أحمد باشا الجزار.

ورغم هذا، يبدو أنه قد صدر عن هؤلاء المقاتلين المغاربة ما شكل

---

(٢١) انظر الفصل السادس، المبحث الثاني من هذا الكتاب.

استثناء لهذه القاعدة العامة التي حكمت موقفهم تجاه الحملة؛ لأنه في الوقت الذي استمر فيه غالبية هؤلاء الجنود يقاتلون جيش الشرق إلى جانب قادتهم من الزعماء المماليك والقادة العثمانيين، انضم البعض منهم إلى الجيش الفرنسي. حدث هذا في مصر والشام، واستمر لمدة لا بأس بها، وترتبت عليه نتائج مهمة.

للوقوف على حجم هذه الظاهرة وتحديد أسبابها ونتائجها، نخصص المبحث التالي والأخير من هذا القسم.

ثانياً: عسكر المغاربة المرتزقين

لم تحتفظ ذاكرة عدد من الدارسين المصريين من التضحيات الجسيمة والبطولات النادرة التي صدرت عن ما عرف عندهم بـ «عسكر المغاربة» في مختلف المعارك التي خاضوها ضد جيش الشرق، سوى بانضمام فئة قليلة منهم في ظروف خاصة إلى صفوف الجيش الفرنسي، علما أن هذه الظاهرة لم تقتصر على الجنود المغاربة، بل طالت عددا من مقاتلي البلدان الإسلامية وبعضا من أبناء مصر من المسلمين والمسيحيين. والأخطر من هذا، أنه على الرغم من أن أغلب هؤلاء الجنود لا يمتّون بصلة إلى المغرب بمفهومه المعاصر، فإن اسمهم ارتبط به.

ـ فما هي إذن حقيقة هذا التحول في مسار «عسكر المغاربة»؟

١ ـ جنود مغاربة ضمن قوات الحملة بمصر

يخبرنا الجبرتي، في حولياته، أنه يوم الأحد ثامن عشر رجب من سنة ١٢١٣ (٢٦ كانون الأول/ديسمبر ١٧٩٨)، «توسط عمر القلقجي[٢٢] لمغاربة [حي] الفحامين، وجمع منهم ومن غيرهم، عدة وافرة، وعرضهم على صاري عسكر. فاختار منهم الشباب وأولي القوة، وأعطاهم سلاحا

(٢٢) يظهر من لقبه المهني «القلقجي» أنه كان مكلفا بالمحافظة على الأمن بحي الفحامين وربما أحياء أخرى مثل حي الغورية. وأورد اسمه أحد الباحثين الفرنسيين كاملاً دون الإشارة إلى صفته المهنية هاته، حيث تحدث عنه باسم «Omar el Koladi». انظر: Gabriel Guemard, «Les Auxiliaires de Bonaprte en Egypte (1798-1801),» *Bulletin de l'Institut d'Egypte*, vol. 9 (1927), p. 5.

وآلات حرب، ورتبهم عسكرا، ورئيسهم عمر المذكور. وخرجوا وأمامهم الطبل الشامي على عادة المغاربة. وسافروا إلى جهة بحري، بسبب أن بعض البلاد قام على عسكر الفرنساوية وقت الفتنة. وقاتلوهم. وضربوا أيضا مركبين بها عدة من عسكرهم، فحاربوهم وقاتلوهم. فلما ذهب أولئك المغاربة سكنوا الفتنة وضربوا عشما(٢٣)، وقتلوا كبيرها المسمى بابن شعير، ونهبوا داره ومتاعه وماله وبهائمه، وكان شيئا كثيرا جدا. وأحضروا إخوته وأولاده، وقتلوهم، ولم يتركوا منهم سوى ولد صغير جعلوه شيخا عوضا عن أبيهم. وسكن العسكر المغربي بدار عند باب سعادة(٢٤)، ورتبوا له من الفرنسيين جماعة يأتون إليهم كل يوم ويدربونهم على كيفية حربهم وقانونهم ومعنى إشاراتهم في مصافاتهم. فيقف المعلم والمتعلم مقابلون له صفا وبأيديهم بنادقهم، فيشير إليهم بألفاظ بلغتهم كأن يقول: مرد بوش، فيرفعونها قابضين بأكفهم على أسافلها، ثم يقول: مرش، فيمشون صفوفا إلى غير ذلك»(٢٥).

هذه هي الرواية التي اعتمد عليها عدد من الكتّاب المصريين في الحكم على ما أسماه الجبرتي بـ «العسكر المغربي». فحملوهم، بسبب ذلك، جريرة قتل هذا الزعيم المصري الكبير المسمى عند الجبرتي بـ «ابن شعير»، أو أبو شعير (Abou Chair)، كما أوردته المصادر والوثائق الفرنسية. فهم لم يكتفوا، حسب الجبرتي، بقتل هذا المجاهد، بل فتكوا أيضا بأولاده، ولم يتركوا منهم سوى ولد صغير جعلوه عوضا عن أبيهم. وسافروا، قبل ذلك، إلى جهة بحري، أي شمال مصر، لإعادة الهدوء إلى بعض البلاد التي كان أهلها قد قاموا ضد الفرنسيين خلال ثورة القاهرة الأولى، أو ما أسماه الجبرتي بـ «الفتنة». ثم سكن هذا «العسكر المغربي» الذي نفذ كل هذه المهام الخطيرة، بأحد أحياء القاهرة، وأصبح يستفيد يوميا من تدريبات عسكرية مكثفة وحديثة على أيدي جماعة من الضباط الفرنسيين.

---

(٢٣) عشما: إحدى قرى مركز شبين الكوم بمحافظة المنوفية بالوجه البحري.

(٢٤) يوجد باب سعادة بحي ابن طولون المجاور للقلعة جنوب القاهرة.

(٢٥) الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ج ٢، ص ٢٢٣.

تلكم هي الصورة التي غالبا ما يقدم بها «عسكر المغاربة» عند الحديث عن علاقتهم بالحملة. وهي، كما سنتبث ذلك، صورة غير صحيحة، وفيها تجن كبير على هؤلاء المقاتلين؛ لأنها جعلت من حالة استثنائية ومحدودة، قاعدة عامة تختفي وراءها صورة المغاربة الذين قاوموا هذا الاحتلال وصدرت عنهم بطولات نادرة ـ وهم الأغلبية الساحقة ـ لتحل محلها صورة هذه القلة القليلة التي سماها الجبرتي بـ «العسكر المغربي». إضافة إلى هذا، لا تؤيد الوقائع التاريخية المؤكدة كل ما جاء في رواية الجبرتي بخصوص هذا الموضوع؛ سواء ما تعلق منها بتاريخ تكوين هذا «العسكر» وحجمه الحقيقي، أو في ما يتصل بقتل ابن شعير وإخوته وأولاده. ناهيك عن أن الجبرتي وقف في روايته عند تعداد سوءات هذا «العسكر»، ولم يذكر شيئا عن البطولات التي صدرت عنهم بعد انفلاتهم من قبضة الفرنسيين. لهذا، نقترح، في مقام أول، تمحيص هذه الرواية لنميز الصحيح فيها مما هو مشكوك فيه أو خاطئ، حتى يتسنى لنا تقريب الصورة الحقيقية لهاته الحفنة من عسكر المغاربة.

أول ما نبدأ به في هذا المسعى هو تاريخ تكوين هذا «العسكر». فقد ثبت لدينا، من خلال الوقائع المؤكدة، أنه كان موجودا على الأقل منذ السابع والعشرين من شهر تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٧٩٨. ذلك، أن نابليون كان قد أصدر في هذا التاريخ أمرا بإرسال القبطان عمر على رأس سريته، إلى قرية الأخصاص (El Ekhsas) للقبض على شيخها وإحضاره إلى القاهرة؛ لأن سكان هذه القرية كانوا قد أطلقوا النار على مراكب فرنسية. ولإنجاز هذه المهمة على أحسن وجه، أمر نابليون بتزويد القبطان المذكور بما يكفي من المراكب لحمل مائة رجل ومؤونة غذائية تكفي ليومين[٢٦].

يستنتج من هذا، أن ما أسماه الجبرتي بـ «العسكر المغربي»، كان جاهزا للقيام بمهمة من هذا النوع منذ السابع والعشرين من شهر تشرين الأول/أكتوبر؛ لأن تكليفا مثل هذا يقتضي ضرورة أن يكون إنشاء هذا

---

(٢٦) C.N., no. 3541, le Caire, Napoléon à Berthier, 6 brumaire an 7 (27 octobre 1798), vol. 5, p. 125.

العسكر سابقا على هذا التاريخ بما يكفي لجعل نابليون يضع ثقته في أفراده ويزوّدهم، كما قال ذلك الجبرتي: «بالسلاح وآلات الحرب»، ويضع رهن إشارتهم ما يكفي من المراكب والمؤونة لإنجاز هذه المهمة. لهذا، نرجح أن يكون قرار إنشاء هذه السرية المغربية، قد صدر منذ الثاني من شهر شتنبر (أيلول/سبتمبر) كما أشارت إلى ذلك إحدى الدراسات[27]، ولم تكتمل عناصرها ويعلم خبرها على الوجه الذي ذكره الجبرتي، إلا بعد انتهاء ثورة القاهرة الأولى.

ومما يرجح لدينا هذا الاعتقاد، أنه قبل اندلاع هذه الثورة بحوالى شهر، كان الفرنسيون قد «نادوا على الأغراب من المغاربة وغيرهم، الخدامين والبطالين، ليسافروا إلى بلادهم. وكل من وجد منهم بعد ثلاثة أيام، يستأهل ما يجري عليه»[28]. كما أن مغاربة حي الفحامين الذين ربما تشكلت منهم أغلب عناصر هذه السرية، كانوا في طليعة من شارك في ثورة القاهرة الأولى. وهذا معناه، أن فقراء المغاربة من «الخدامين والبطالين» لم يكونوا إلى حدود هذا التاريخ محل ثقة إدارة الاحتلال الفرنسية.

ويبدو أن هذا الوضع قد تغير بعد ثورة القاهرة الأولى؛ لأن حاجة الفرنسيين إلى قوات محلية إضافية أصبحت ماسة، وتأكدوا، من خلال ما جرى في هذه الثورة، من خطورة هذه العناصر الهامشية التي يمكن تحريكها بسهولة من طرف الثوار. لذلك، التجأوا، حسب تقديرنا، إلى إدماجهم في الخدمة العسكرية بهدف الاستفادة من خدماتهم وإخضاعهم للمراقبة.

لكل ما سبق، نعتقد أن إنشاء هذا «العسكر المغربي» سابق على ثورة القاهرة الأولى، إلا أن استكمال عناصره على الوجه الذي ذكر الجبرتي، تم مباشرة بعد القضاء على ثورة القاهرة الأولى؛ حيث أصبح

---

(٢٧) انظر: Guemard, «Les Auxiliaires de Bonaprte en Egypte (1798-1801),» p. 5.

(٢٨) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، **تاريخ مدة الفرنسيس بمصر، محرم ـ رجب ١٢١٣هـ، ١٠ يونيو ـ ديسمبر ١٧٩٨م**، قدّم له وحققه وترجمه [إلى الإنكليزية] ش. موريه (ليدن: إ. ج. بريل، ١٩٧٥)، ص ٥٢.

الخدامون والبطالون من المغاربة وغيرهم ممن سبق للسلطات الفرنسية أن أصدرت في حقهم قرارا بالطرد ثم عفت عنهم، أمام أمرين: إما يطردوا نهائيا من مصر جزاء لهم على مشاركتهم القوية في الثورة التي شهدتها القاهرة قبل أيام، أو يقبلوا بالعمل في صفوف القوات الفرنسية. ويبدو أنه في ظرف حرج كهذا، كان الخيار الثاني هو الأقرب لمصلحة الطرفين: المغربي والفرنسي.

لذلك، نقول إن إقبال مغاربة حي الفحامين على الخدمة في صفوف الجيش الفرنسي بتلك القوة والكثافة التي ذكرها الجبرتي، لا يجب أن ينظر إليه على أنه اختيار حر أملته رغبة حقيقية لدى هؤلاء المقاتلين الشجعان في إسناد قوات الاحتلال الفرنسية التي كانوا يقاتلونها بالأمس القريب؛ لأننا نرجح أن يكونوا قد قبلوا بها لتفادي مغبة الطرد والتشريد، وربما القصاص والتنكيل التي كانت تنتظرهم من قبل نابليون الذي سبق له أن أصدر في حقهم قرارا من هذا النوع. فجاءت رغبتهم تلك مطابقة، على ما يبدو، لما كان يخطط له نابليون من قبل.

أما النقطة الثانية التي تستحق أن نتوقف عندها فهي تلك المتعلقة بعدد «العسكر المغربي» الذي انضم إلى جيش الاحتلال الفرنسي. ذلك، أن رواية الجبرتي توحي أنه كان يتألف من بضعة آلاف من الجنود. أما الأرشيف الفرنسي الذي اعتنى بضبط أحوال وأعداد ما عرف عند إدارة الحملة بـ «سرية عمر»، أو «سرية القبطان عمر»، وسماها الجبرتي بـ «العسكر المغربي»، لم يتجاوز عددها، في أحسن الأحوال، مائة وخمسة عشر فردا. فقد أصدر بونابرت في ١١ فريمير سنة ٧ (١ كانون الأول/ديسمبر ١٧٩٨)، أمرا إلى الجنرال بيرتيي يأمر بموجبه الجنرال بون (Bon) بالتوجه إلى السويس على رأس فيلق مكون من عدة وحدات، منها مائة وعشرة رجل من سرية عمر[٢٩]. وبعد وصوله إلى السويس كتب الجنرال بون تقريرا عن الوضعية العامة لهذا الفيلق، أثبت فيه أن سرية عمر تتألف من مائة وخمسة عشر فردا كلهم من المشاة[٣٠].

---

(٢٩) Le Caire, Ordre de Bonaparte à Berthier, 11 frimaire an 7 (1 décembre 1798), dans: La Jonquière, *L'Expédition d'Egypte*, vol. 3, p. 445.

(٣٠) La Jonquière, Ibid., vol. 3, p. 445, marge no. 2.

يتضح من هذه الشهادات المصدرية أن عدد أفراد هذه السرية تراوح بين مائة وعشر حسب ما جاء في الأمر الصادر عن نابليون، ومائة وخمسة عشر فردا حسب ما أثبته الجنرال بون في تقريره. وكما نرى، فهذا رقم تافه جدا إذا ما قيس بعدد المغاربة الذين استمروا يقاتلون إلى جانب المماليك والقادة العثمانيين بالصعيد والشام، ولا يتفق مع التسمية التي أطلقها عليهم الجبرتي حينما أورد خبرهم تحت عنوان «العسكر المغربي». هذا، ناهيك عن أن تسميتهم بهذا الشكل توحي للقارئ غير المتخصص بالاعتقاد أن كل أو جل من كان يمت بصلة للجندية من المغاربة المقيمين آنذاك بمصر قد انضم إلى هذا «العسكر المغربي»، بينما يؤكد واقع الحال أن حجمهم الحقيقي لا يسمح أن تطلق عليهم هذه التسمية التي تفيد التضليل والتهويل أكثر مما تخدم الحقيقة التاريخية.

هذا، مع العلم أن هفوات الجبرتي، في هذا الإطار، لم تقف عند هذا الحد؛ لأنه حملهم، إلى جانب ذلك، جريمة القضاء على أحد الزعماء المحليين ممن اشتهر بجهاده ضد قوات الاحتلال الفرنسية بإقليم الفيوم. أقصد بذلك، ابن شعير. لا بل إنه ذكر في روايته أنهم قتلوا إخوته وأولاده، «ولم يتركوا سوى ولد صغير جعلوه عوضا عن أبيهم»[٣١]. هذا بعدما «نهبوا داره ومتاعه وماله وبهائمه»[٣٢]. وغني عن القول، إن كلاما مثل هذا ليس من شأنه إلا أن يهول من أمر هذا «العسكر المغربي» الذي أصبح بمثابة آلة قتل جبارة بيد الفرنسيين يستعينون بها في القضاء على زعماء متمنعين مثل ابن شعير.

مرة أخرى، تفند الحقائق التاريخية رواية الجبرتي. صحيح أن هذه السرية أرسلت في السابع والعشرين من شهر تشرين الأول/ أكتوبر إلى إحدى القرى الموجودة بالدلتا قصد إحضار شيخها إلى القاهرة، أو أربعة من كبار القرية إذا تعذر عليهم ذلك؛ لأن أهل هذه القرية كانوا قد هاجموا مراكب فرنسية خلال ثورة القاهرة الأولى[٣٣]. إلا أن الأمر

---

(٣١) الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ج ٢، ص ٢٢٣.

(٣٢) المصدر نفسه.

(٣٣) C.N., no. 3541, le Caire, Napoléon à Berthier, 6 brumaire an 7 (27octobre) (1798), vol. 5, p. 125.

يتعلق هنا بقرية يقال لها الأخصاص، وليس قرية عشما التي كان يتحصن بها ابن شعير، كما ورد في رواية الجبرتي. ناهيك عن أن مهمة القضاء على هذه الزعيم كانت قد أوكلت إلى الجنرال لانوس، وبدأ في تنفيذها منذ ٢٠ تشرين الأول/أكتوبر ١٧٩٨[٣٤]. أضف إلى هذا، أنه في الوقت الذي كان فيه مغاربة حي الفحامين يخوضون غمار ثورة القاهرة الأولى وقبل أن يتوسط لهم عمر القلقجي لدى نابليون، كان هذا الجنرال قد نجح في قتل ابن شعير ووضع يده على ما بحوزته من عتاد عسكري[٣٥]. ومما يبعد هذه الشبهة أكثر عن هؤلاء الجنود المغاربة أنه في الوقت الذي كان فيه هذا الجنرال يحاول إخضاع القرى التابعة لابن شعير[٣٦]، ونابليون ينتظر بين الحين والآخر وصول أفراد أسرة هذا المجاهد قصد استنطاقها بخصوص الأماكن التي كان يعتقد أن ابن شعير أخفى فيها «كنوزه»[٣٧]، كانت سرية عمر لا تزال بالقاهرة تتلقى أمرا بالتوجه إلى القرية المذكورة. أما بالنسبة للجبرتي الذي نسب إليها ما حل بابن شعير فلم تكن هذه السرية التي سماها عسكرا، قد وجدت بعد. هذا، من دون أن ننسى أنه لم يرد في الرسائل التي كانت تتبادلها السلطات العسكرية الفرنسية حول هذا الموضوع الهام، أية إشارة أو تنويه بما يمكن أن يكون قد صدر عن هذه السرية المغربية من مساهمة في القضاء على ابن شعير، كما كانت عادة الضباط الفرنسيين في مثل هذه الحالات.

لكل ما سبق، نقول إن الجبرتي أصاب في جانب من هذه الرواية وأخطأ في آخر. أما التي أصاب فيها، فهي تلك المتعلقة بما قاموا به في قرية الأخصاص التي أطلق أهلها النار على مراكب فرنسية خلال ثورة القاهرة الأولى. فهذه هي المهمة التي كلفوا بها في السابع والعشرين من شهر تشرين الأول/أكتوبر. أما التي نعتقد أنه أخطأ فيها، فهي عندما

---

(٣٤) **صحف بونابرت في مصر، ١٧٩٨ ـ ١٨٠١**، وكوريه دي ليجيبت، رقم ١٤، ١٠ فانديمير سنة ٧ (١ أيلول/سبتمبر ١٧٩٨)، ص ٤٢.

(٣٥) A.M.G., B^6, 10, Menouf, Lanusse à Napoléon, 2 brumaire an 7 (23 octobre 1798).

(٣٦) A.M.G., B^6, 10, Menouf, Lanusse à Napoléon, 5 brumaire an 7 (26 octobre 1798).

(٣٧) C.N., no. 3545, le Caire, Napoléon à Berthier, 7 brumaire an 7 (28 octobre1798), vol. 5, p. 127.

نسب إلى هذه السرية المجزرة التي حلت بابن شعير وأسرته في العشرين من نفس الشهر.

إضافة إلى هذا وذاك، يلاحظ على الجبرتي اكتفاءه بتعداد سوءات ما أسماه بـ «العسكر المغربي»، وإهماله لما سيصدر عنهم، في مناسبات قادمة، من مواقف بطولية كفروا من خلالها عن سلوكاتهم السابقة. ذلك، أنه بعد مشاركة هذه السرية في أعمال التحصين والدفاع بميناء السويس، ثم انتقالها بعد ذلك إلى مدينة الصالحية للمشاركة في الكشف عن طبيعة الطريق الرابط بين ميناء السويس وهذه المدينة استعدادا لمواجهة الجيش العثماني القادم آنذاك من الشام، كلفت هذه السرية بمرافقة أمير الحاج المصري، صالح بك، وعدد من أعضاء الديوان في رحلتهم المرتقبة صحبة حملة الشام التي ستنطلق في بداية شهر شباط/ فبراير من سنة ١٧٩٩. في هذه المناسبة ستتاح لأفراد هذه السرية الفرصة ليكشفوا عن مواقفهم الحقيقية من الحملة والخدمة مع جيش الشرق والحملة ككل.

تأتى لهم ذلك عندما رفض أمير الحاج المصري وعدد من أعضاء الديوان المرافقين له الالتحاق بنابليون وإقدامهم، عوضا عن ذلك، على تحريض سكان الشرقية على مقاتلة الفرنسيين والثورة ضدهم. فعضدهم في ذلك أغلب مقاتلي هذه السرية وساندوهم. أكثر من ذلك، لم يجرؤ هذا الأمير على الكشف صراحة عن مخططه الثوري، إلا بعد أن تمكن كاتبه، محمد كيكي، من إقناع سرية عمر المغربي بالانضمام إلى المجاهدين، ووزع عليهم الملابس، واستبدل رئيسهم المذكور بآخر منهم[٣٨].

وهكذا، تحول أفراد هذه السرية في غمرة أجواء الثورة التي أصبحت تخيّم على إقليم الشرقية، من الارتزاق من جيوب الفرنسيين إلى الجهاد ضدهم، وانفردوا بإنزال هزائم حقيقية ضد جنودهم. ذلك، أنه رغم النجاح الواسع الذي لاقته دعوة أمير الحاج المصري بين عدد من مدن وقرى وقبائل هذه الجهة، فإن العمل البطولي الوحيد الذي يؤثر عن

---

(٣٨) Rapport à Dugua, par le citoyen Peyre, adjoint chargé d'accompagner l'Emir Hadji, dans: La Jonquière, *L'Expédition d'Egypte*, vol. 5, p. 49.

ثورته تلك، تمثل في الهجوم الذي نفذته هذه السرية ضد أسطول نهري فرنسي صغير كان قادما من منوف في اتجاه دمياط وعلى متنه حمولة تقدر قيمتها بحوالى ٢٠,٦٠٠ ليرة. فقتلوا عشرين فردا من بحارتها، واستولوا على ستة مدافع، ثم رموا حمولتها في النيل(٣٩).

ومما يؤكد صدق نوايا أفراد هذه السرية وعزمهم على الجهاد والمقاتلة ضد الفرنسيين، ما صدر عنهم من تصرفات بعد فشل ما عرف بـ «ثورة أمير الحاج المصري». فعندما أحس هذا الأخير باقتراب القوات الفرنسية منه وهجره أغلب أعضاء الديوان، فر إلى الشام مدّعيا رغبته في الالتحاق بنابليون. أما وجهته الحقيقية فكانت هي عكا، حيث كان أحمد باشا الجزار يستعد لمنازلة الحملة الفرنسية الموجهة ضده. آنذاك، انقسم أفراد هذه السرية إلى ثلاث مجموعات: مجموعة **أولى**، تمثل حوالى النصف، عبرت الدلتا في اتجاه الإسكندرية، لتلتحق بعد ذلك، على ما يبدو، بمولاي محمد المغربي الذي سيعلن في نهاية نيسان/أبريل عن بدء ثورته بإقليم البحيرة(٤٠). ومجموعة **ثانية** مؤلفة من حوالى أربعين فردا، سترافق أمير الحج المصري إلى عكا، حيث سيلتحق الجميع بأحمد باشا الجزار. لكن، عوض أن يتلقاهم هذا الأخير بالترحاب، دفعته وساوسه الأمنية إلى إعدامهم جميعا بما في ذلك أمير الحاج المصري، صالح بك، بحجة تعاونهم سابقا مع الفرنسيين(٤١). ولم يبق من هذه السرية، سوى مجموعة **ثالثة** صغيرة، مؤلفة من تسعة أفراد، ظلوا «تائهين» في إقليم الشرقية إلى أن التحق بهم قائدهم السابق عمر، فأخذهم معه إلى القاهرة(٤٢).

ويبدو من إشارات أخرى أن السلطات العسكرية الفرنسية ستتمكن من القبض على عدد من أفراد هذه السرية في أوقات لاحقة، وتودعهم

---

(٣٩) Le Caire, lettre du général Dugua à Napoléon, 18 germinal an 7 (7 avril 1799), dans: La Jonquière, Ibid., vol. 5, p. 45.

(٤٠) Ibid.

(٤١) **صحف بونابرت في مصر، ١٧٩٨ ـ ١٨٠١**، وكوربيه دي ليجيبت، رقم ٣٥، ١٩ تيرميدور سنة ٧ (تموز/ يوليو ١٧٩٩)، ص ١٣٦.

(٤٢) Rapport du Duranteau (chef de bataillon) à Dugua, sur l'expédition faite par son ordre dans la province de Cherkieh, 21 germinal an 7 (10 avril 1799), dans: La Jonquière, Ibid., vol. 5, p. 54.

السجن، وتنفذ حكم الإعدام في البعض منهم، وتفرج عن البعض الآخر. فقد ورد في أحد التقارير أنه أفرج منذ ٢٨ جيرمينال سنة ٧ (١٧ نيسان/ أبريل ١٧٩٩) عن سبعة وعشرين فردا من سرية عمر الفارين، ووضعوا تحت تصرف القبطان اليوناني نيكول، وأعدم منهم اثني عشر فردا رميا بالرصاص(٤٣)، بينما ظل سبعة منهم يقبعون في سجن القلعة في انتظار عودة نابليون من حملته على الشام ليصدر ضدهم حكما بالإعدام(٤٤).

وهكذا، يكون عدد جنود سرية عمر المغربية الذين فروا عقب اندلاع ثورة أمير الحاج المصري بإقليم الشرقية، حوالى ستة وثمانين فردا: أربعون منهم، التحقوا بأحمد الجزار صحبة أمير الحاج المصري، لكنهم أعدموا جميعا بدعوى تعاونهم سابقا مع الفرنسيين. أما الذين رافقوا أحد شيوخ العربان في اتجاه الإسكندرية وقدّرتهم أحد المصادر العسكرية الفرنسية بحوالى نصف هذه السرية، فيبدو أن ستة وأربعين منهم، على الأقل، قد أعيدوا إلى القاهرة وأودعوا السجن. فأعدم منهم تسعة عشر فردا على دفعتين، وألحق الباقي، وعددهم ثمانية وعشرون، بوحدة عسكرية أخرى.

ـ فهل كان يعني هذا انتهاء أو اندثار ما عرف في الدوائر العسكرية الفرنسية بـ «سرية القبطان عمر»، وما أسماه الجبرتي بـ «العسكر المغربي» بعدما أعدم منهم في مصر والشام، حوالى ستين فردا؟

ما نستطيع قوله في حدود المعلومات المتوافرة لدينا حول هذا الموضوع هو أنه بعد هذه الأحداث التي تزامنت مع نهاية آذار/ مارس وبداية نيسان/ أبريل من سنة ١٧٩٩، لم نعد نسمع شيئا عن هذه السرية المغربية، ما يشجعنا على الاعتقاد أن عمرها لم يتجاوز بضعة شهور. دشنتها، في ما يبدو، بالقبض على شيخ إحدى قرى الوجه البحري، وتوجتها بانضمامها إلى ثورة أمير الحاج المصري بإقليم الشرقية وهجومها على أسطول فرنسي بميت القمر. أما بعدما انتهت ثورة أمير الحاج

(٤٣) Rapport adressé à Dugua par l'adjudant Néraud, 3 messidor an 7 (19 juin 1799), dans: La Jonquière, Ibid., vol. 5, p. 231, marge no. 1.

(٤٤) Ordre de Napoléon à Dugua, 4 messidor an 7 (22 juin 1799), dans: La Jonquière, Ibid., vol. 5, p. 231.

المصري ولاحت في الأفق فرص أخرى للجهاد، فقد خف قسم منهم، على ما يبدو، لإسناد مولاي محمد المغربي في ثورته المقبلة بإقليم البحيرة، والتحق قسم آخر بأحمد باشا الجزار بالشام.

ولا يظهر أن إجراء ما قد اتخذ من أجل إحياء هذه السرية أو إعادة تأهيلها، بل يتهيأ لنا، من خلال عدة إشارات مصدرية، أنها قد أهملت وضعف شأنها، ولم يعد يذكر اسمها إلا وهو مقرون بتهمة موجهة إلى قائدها عمر أو شكوى صادرة ضده. فقد ورد في إحدى الوثائق أن ديوان القاهرة توصل «بشكوى خطيرة جدا» ضد عمر، قائد السرية المغربية. لذلك، فإن أعضاء الديوان يرغبون في مثوله بين أيديهم قصد استفساره[٤٥]. لا نعرف موضوع هذه الشكوى ولا التطورات التي حصلت بعدها. لكننا، قرأنا في هامش هذه الوثيقة أن هذه القضية لم تثر مرة أخرى، ما يوحي بأن السلطات الفرنسية اعترضت على متابعة هذا الرجل الذي كان يحظى لديها بالحماية. ورغم ذلك، فإنها سوف لن تتردد في إيداعه السجن والتحقيق معه عندما ترامى إلى مسامعها مخالطته لبعض الأشخاص الذين كانت تشتبه في تآمرهم على أمنها. فقد ورد في يوميات الجبرتي أنه في شهر رمضان من سنة ١٢١٥ (كانون الثاني/ يناير ـ شباط/ فبراير ١٨١٥) قبض الفرنسيون على «القلق المعروف بعمر آغا، وهو آغات المغاربة المرتبة عندهم عسكرا، وعلى شخصين آخرين يدعا أحدهما علي جلبي، والآخر مصطفى جلبي. وسجنا بالقلعة. وسبب ذلك، أنه حضر إلى مصطفى جلبي مكتوب من نسيبه بجهة الشام يطلب منه حوائج، فقرئ ذلك المكتوب بحضرة عمر القلق ورفيقه الآخر، فوشى بهم رجل قواس، فقبضوا على الجميع»[٤٦]. وبعد التحقيق معهم، أطلق سراح «عمر لظهور براءته. ولم يكن له جرم غير العلم والسكوت (. . .)، وبقي علي جلبي ومصطفى جلبي في الحبس»[٤٧].

---

(٤٥) Au générale Dugua, 14 nivose an 8 (4 janvier 1800). Le Caire, Gloutier: Commissaire près le Divan

(دار الوثائق، القاهرة، حافظة رقم (٦)، ملف رقم (٨).

(٤٦) الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ج ٢، ص ٤١٢.

(٤٧) المصدر نفسه.

بهذا الشكل إذن، انتهت مسيرة «العسكر المغربي». فعوض أن يستمر في إسناد جيش الشرق كما خطط لذلك نابليون وخلفاؤه من بعده، التحق جل أفراده بجبهة المقاومة والجهاد في إقليم البحيرة وعكا بعد أن تمرسوا على استخدام الأسلحة الفرنسية واستفادوا من خبرة الضباط الفرنسيين الذين كانوا «يأتون إليهم كل يوم، ويدربونهم على كيفية حربهم وقانونهم ومعنى إشاراتهم في مصافاتهم»(٤٨).

٢ ـ جنود مغاربة ضمن قوات الحملة بالشام

في الوقت الذي كان فيه أفراد هذه السرية يتحللون من ارتباطاتهم بجيش الشرق مصوبين أسلحتهم ضده، كان إخوان لهم بالشام يخوضون حربا ضارية ضد جنوده في مختلف القلاع والحصون. وقد رأينا، في المبحث السابق، كيف استبسل المقاتلون المغاربة في الدفاع عن العريش ويافا وعكا. لكن، مرة أخرى، سيسقط هؤلاء المقاتلون، بعد استسلام مدنهم وقلاعهم، في شراك إغراءات الخدمة العسكرية مع الفرنسيين. حدث هذا، في ما نعلم، عقب استسلام مدينتي العريش وصفد. أما في مدينة يافا، فاتهم المغاربة الذين كانوا بداخلها بالتخابر مع القوات الفرنسية المحاصرة لهذه المدينة وإرشادهم إلى أحد الممرات الأرضية، ما سهل عليهم عملية الاقتحام.

مرة أخرى إذن، تتكرر ظاهرة ارتماء المقاتلين المغاربة في أحضان جيش الشرق ضمن سياق حملة سوف لن يتجاوز عمرها أكثر من أربعة أشهر.

ـ فما هي الظروف والملابسات التي وقع فيها هذا التحول في سيرة وسلوك هؤلاء المقاتلين المغاربة؟

أما في ما يتعلق بانضمامهم إلى الجيش الفرنسي بعد استسلام العريش وصفد، فهذا أمر غير مشكوك فيه؛ لأنه تأكد من خلال أكثر من مصدر. فكل الذين تحدثوا عن استسلام هذه القلعة، اثبتوا في وثائقهم

(٤٨) المصدر نفسه، ص ٢٢٣.

ومصادرهم أن ما بين ثلاثمائة وخمسمائة مقاتل مغربي انضموا إلى الجيش الفرنسي. فكوّن منهم نابليون ثلاث سرايا، ثم ألحقهم بفرق الجنرال بون (Bon)، والجنرال لان (Lanes)، والجنرال كليبر (Kléber)(٤٩).

ويستفاد من بعض الإشارات المصدرية أن مهمة بعض هؤلاء الجنود انحصرت في القيام بخدمات بسيطة، مثل حراسة المخازن والمستشفيات والقناطر. لكن، نال البعض منهم ثقة أكبر؛ حيث سمح لهم بالمقاتلة إلى جانب الجنود الفرنسيين في بعض المعارك، ونالوا إعجابهم(٥٠)، وكلف أحد رؤسائهم بإقناع مقاتلي يافا بالاستسلام عندما كانت مدينتهم محاصرة(٥١). أما حامية صفد التي كانت تتكوّن من جنود مغاربة، فلم تمنح هذه الثقة؛ حيث ألحق أفرادها بمخيم القوات الفرنسية المحاصرة لعكا(٥٢). وانفرد مصدر واحد، حسب علمنا، بتحميل هؤلاء المغاربة مسؤولية اقتحام القوات الفرنسية لمدينة ليافا(٥٣).

أما من جهتنا، فنقول إنه ينبغي ألا نكتفي بالوقوف عند مستوى تأكيد هذه الوقائع، بل يجب كذلك استحضار الظروف والملابسات التي تمت فيها حتى يتسنى لنا تبين الحيثيات المختلفة التي أملت مثل هذا السلوك على الجنود المغاربة.

وهكذا، نرى أن التحاق مقاتلة العريش من المغاربة بجيش الشرق قد تم في أعقاب استسلام هذه المدينة وفق شروط تقضي بالمحافظة على أرواح جميع المقاتلين، وعدم تجريدهم من أسلحتهم، مقابل تعهدهم بمغادرة الشام والتوجه عبر الصحراء إلى بغداد، والامتناع عن الخدمة في

---

(٤٩) C.N., no. 3987, Napoléon à Dugua, 4 ventôse an 7 (22 février 1799), vol. 5, pp. 428-429.

(٥٠) انظر عبارات «الإشادة» التي وردت في حقهم في وثائق متعددة، نذكر من بينها الرسائل التي تبودلت بين نابليون وكليبر في هذا الموضوع: Lettre de Kleber à Napoléon, 19 ventôse an 9 (9 mars 1799), dans: La Jonquière, *L'Expédition d'Egypte*, vol. 4, p. 246.

(٥١) Lettre de Bonaparte à Kléber, 12 ventôse an 7 (2 mars 1799), dans: La Jonquière, Ibid., vol. 4, p. 239.

(٥٢) *Victoires, conquêtes, désastres, revers et guerres civiles des Français, de 1792 à 1815*, vol. 10, p. 188.

(٥٣) الداردنلي، **الحملة الفرنسية على مصر في ضوء مخطوط عثماني: مخطوطة «ضيانامة»**، ص ٢٠١.

جيش أحمد باشا الجزار، وأن لا يعودوا إلى الشام قبل انقضاء سنة كاملة من توقيع وثيقة الاستسلام هاته[٥٤]. لكن في الوقت الذي كانت فيه حامية العريش تفاوض المحاصرين في أمر هذا الاستسلام الذي تنص أحد بنوده على إجلائها إلى بغداد، كانت السلطات الفرنسية، وعلى رأسها نابليون، تُمنّي أفرادها بالعمل بعد استسلامهم مع المجموعة المرافقة لأمير الحاج المصري الذي كان ينتظر وصوله إلى العريش بعد أيام قليلة[٥٥]. لذلك، لا نستبعد أن يكون نابليون قد قرن هذا العرض المغري بالنسبة لمقاتلين يعيشون تحت ظروف حصار قاسية، ويتهددهم الاقتحام بين الحين والآخر، بمزايا العمل مع هذه المجموعة التي كانت تتألف من سرية عمر المغربية وتوجد برفقة أمير الحاج المصري وبعض أعضاء ديوان القاهرة الخصوصي من العلماء والشيوخ.

وغني عن القول، إن عرضا من هذا القبيل في ظروف من هذا النوع، سوف لن يخطئ هدفه بالنسبة لمقاتلين سيجدون أنفسهم بعد قليل مخيّرين بين الذهاب إلى بغداد عبر صحراء الجزيرة العربية، أو القبول بالعرض الفرنسي المتمثل في الانضمام إلى أمير الحاج المصري. وإذا تذكرنا أن الجنود المرافقين لهذا الأمير كانوا يتألفون من مغاربة، سهل علينا تصوّر الفئة التي ستكون مرشحة أكثر من غيرها للسقوط في شراك هذا الفخ. لذلك، لا غرابة إذا وجدنا المقاتلين المغاربة يؤثرون الاستفادة من مزايا مرافقة أمير الحاج المصري والاختلاط بسرية القبطان عمر، على الارتماء في صحراوات الجزيرة العربية والحرمان من العودة إلى الشام التي كانت تأوي عوائلهم وتوجد بها ممتلكاتهم.

وإذا كان هذا مجرد تخمين، فيبدو أن الإجراءات التي سيتخذها نابليون مباشرة بعد استسلام هذه الحامية، ستضطر الكثير منهم إلى

---

(٥٤) انظر النص الكامل لهذه الوثيقة، في: La Jonquière, *L'Expédition d'Egypte*, vol. 5, p. 199.

(٥٥) كان الجنرال بيرتيي يضمّن رسائله الجوابية الأربع التي كان يوجهها إلى قائد حامية العريش خلال مدة الحصار، وعدا بالسماح لكل من يرغب من مقاتلي هذه الحامية في الانضمام إلى أمير الحاج المصري صالح بك الذي ينتظر وصوله إلى العريش بين الحين والآخر. انظر: La Jonquière, Ibid., vol. 4, p. 192, marge no. 1.

الانضمام، طوعا أو كرها، إلى جيش الشرق. هذا ما أكدته المصادر وشاركتنا إياه عدد من الدراسات. فقد جاء في مذكرات أحد الضباط الفرنسيين المشاركين في حملة الشام أنه: «بمجرد تجميع أفراد حامية العريش بالسهل، أحاطت بهم فرقة الجنرال بون، ثم وزعوا على مختلف فرق الجيش بنية إرغامهم بالقوة، على العمل معنا. لكنهم فروا جميعا عندما أتيحت لهم أول مناسبة»[٥٦].

انطلاقا من هذه المعلومة المصدرية، قال المؤرخ الأمريكي، كريستوف هيرولد الذي كرس أحد بحوثه لتتبع زلات نابليون، موضحا الكيفية التي تم بها استدراج هؤلاء المقاتلين وعلى رأسهم المغاربة: «(...) وأما باقي الجنود الترك، ومعظمهم من المغاربة والألبان واليونان، فقد أحاط بهم جنود فرقة الجنرال بون بمجرد إخراجهم من الحصن، وحملوا الكثير منهم بوسائل تتفاوت في اللين، على الانضمام إلى القوات الفرنسية خيرا من أن يهلكوا في الصحراء»[٥٧]. أما عن هدف نابليون من هذا الاستدراج، فقد قال أحد الضباط الفرنسيين، وهو يخبر الجنرال دوكًا بهذا الانضمام: إن الذي يأملونه من وجود مثل هؤلاء الجنود مع الفرق الفرنسية، هو، قبل أي شيء، التأثير السلبي الذي يمكن أن يحدثوه داخل صفوف القوات المقاتلة تحت إمرة أحمد باشا الجزار[٥٨]، التي كانت تتألف من المغاربة والألبان، أو الأرنؤوط بلغة ذلك العصر.

ومما لاشك فيه، أنه بنفس الوسائل وللغرض نفسه، تم أيضا استدراج حامية صفد التي كانت تتألف من المغاربة. يستفاد هذا من الإشارة التي تضمنتها رسالة ضابط الهندسة المرافق للجنرال بون الذي كان يتولى الهجوم على صفد. فقد ورد في هذه الرسالة أن حامية المدينة، وأغلبهم من المغاربة، لاذوا بالفرار لحظات قليلة قبل دخول الفرنسيين إليها. ثم أضاف أن اثنين منهم، من بينهم قائد هذه الحامية،

---

(٥٦) Agenda de Malus, dans: La Jonquière, Ibid., vol. 4, p. 202.

(٥٧) كريستوفر هيرولد، **بونابرت في مصر**، ترجمة فؤاد أندراوس؛ مراجعة محمد أحمد أنيس (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨)، ص ٢٨٦.

(٥٨) Au camp près de Gaza, lettre du chef de brigade Laugier, au général Dugua, 9 ventôse an 7 (27 février 1799), dans: La Jonquière, Ibid., vol. 4, p. 232.

قد وقعا في الأسر[٥٩]. وأكد مصدر آخر أنه بعدما علم أفراد هذه الحامية أن عددا كبيرا من المغاربة قد انضموا إلى القوات الفرنسية، عرضوا خدماتهم على الجنرال مورا (Murat)[٦٠]. ومن خلال الجمع بين هاتين الروايتين تتبدى لنا آثار الحرب النفسية واضحة، وسياسية الترهيب والترغيب مسيطرة على أجواء عملية الانضمام هذه. فلا يعقل أن يقدم هؤلاء المقاتلون، بعدما ظفروا بالنجاة، أنفسهم بسهولة إلى هذه القوات المعتدية، لو لم يكن هؤلاء قد مارسوا عليهم ضغطا قويا؛ إما بواسطة قائدهم الذي أصبح أسيرا بين أيديهم، أو من خلال التلويح لهم بمزايا العمل معهم أسوة بمن كان يرافقهم من المغاربة الذين انضموا إليهم بعد استسلام العريش من أجل التشويش على من بقي يقاتل منهم إلى جانب أحمد باشا الجزار؛ لأنه عوض أن يدمجهم الجنرال مورا ضمن فرقته، بعثهم إلى المخيم العسكري المرابط قبالة مدينة عكا.

لكل ما سبق، نقول إن انخراط مقاتلة العريش وصفد من المغاربة في صفوف الجيش الفرنسي، أملته ظروف خاصة اضطرتهم، في أجواء من الترهيب والترغيب، إلى القبول بمرافقة حملة الشام والمساهمة في بعض عملياتها القتالية. إلا أن قصر عمر هذه الجولة الفرنسية بإقليم الشام، لم يسمح لهم، في ما يبدو، بالتعبير عن موقفهم الحقيقي من هذا العدوان. لأن انضمامهم إلى القوات الفرنسية في هذه الظروف الخاصة، يذكرنا على نحو مماثل، بما وقع لإخوانهم بمصر عقب ثورة القاهرة الأولى حينما أصبحوا واقعين من الناحية العملية بين الطرد أو الانضمام إلى الجيش الفرنسي. لكن، حالما لاحت لهم أول فرصة للتعبير عن قناعاتهم الحقيقية، لم يترددوا لحظة واحدة في الانفصال عنه والجهاد ضده. لكن هذه الإمكانية لم تتح لمقاتلة العريش وصفد بسبب قصر عمر حملة الشام.

وإذا كان خبر هذا الانضمام قد أضحى حقيقة مؤكدة ومبررة من بعض الوجوه، فإن القول إن بعض المغاربة من مقاتلة يافا قد ساعدوا

---

(٥٩) Miot, *Mémoires pour servir à l'histoire des expéditions en Égypte et en Syrie pendant les années VI, VII et VIII de la République française*, p. 169.

(٦٠) *Victoires, conquêtes, désastres, revers et guerres civiles des Français, de 1792 à 1815*, vol. 10, p. 189.

القوات الفرنسية المحاصرة لهذه المدينة على اقتحامها، لهو حقا أمر محير، سيما إذا كان قد صدر عن شخصية معاصرة لهذا الحدث، وتملك من الوسائل ما يمكّنها من التحقق من خبر مثل هذا. فقد ذكر المؤرخ التركي، عزت حسن الداردنلي الذي كان يرافق الصدر الأعظم العثماني يوسف ضيا باشا في حملته المضادة على مصر: «أن الجند المكلفين بالدفاع عنها، كانوا يتألفون من أقسام ممن قدم من العريش وغزة، إضافة إلى من أرسلته السلطنة السنية من رجال المدفعية وبعض من المشاة من المغاربة. وبلغ عددهم نحو خمسة آلاف من الجند، وجلهم من المجاهدين الشجعان الأشداء. استبسل هؤلاء جميعا في الدفاع عن يافا، واستفرغوا في ذلك وسعهم وطاقتهم، ونالوا كثيرا من الفرنسيين. غير أنه وجد بين مشاة المغاربة جماعة من المنافقين تخابروا سرا هم وبعض السفهاء ممن قدم من مصر، مع الفرنسيين ودلوهم على الطريق من خلال الثغرات التي أحدثتها قذائف الفرنسيين في أسوار القلعة. وعليه، اقتحم الفرنسيون القلعة. فلما علم غزاة المسلمين بهذا وعاينوه، اضطروا إلى تسليم القلعة»[٦١].

يتضح جليا، من خلال هذه الرواية، أن سبب دخول الفرنسيين إلى هذه المدينة الحصينة، هو المخابرة التي تمت بين «جماعة من المنافقين» من مشاة المغاربة «وبعض السفهاء ممن قدم من مصر». هكذا، يفهم مما جاء في هذا المصدر، أن نفاق البعض وسفاهة البعض الآخر زينت للجميع سوء عملهم، فأرشدوا الجنود الفرنسيين إلى الثغرات التي تمكّنهم من اقتحام هذه المدينة.

- فإلى أي حد يمكن أن نتفق أو نختلف مع هذه الرواية المصدرية؟

بادئ ذي بدء، نقول إنه ليس من السهل أن نفند أو نقبل بسهولة بهذه الرواية، لعدة أسباب، منها؛ أولا، انفراد هذا المؤرخ دون غيره بإثبات هذه المعلومات التي لا نجد لها أثرا لا من قريب ولا من بعيد في أية وثيقة أو مصدر مما تهيأ لنا الاطلاع عليه. كثيرة هي المصادر والوثائق التي ذكرت أن

---

(٦١) الداردنلي، **الحملة الفرنسية على مصر في ضوء مخطوط عثماني: مخطوطة «ضيانامة»**، ص ٢٠١.

اقتحام هذه المدينة قد بدأ بعد أن اكتشف بعض الجنود الفرنسيين ثغرة في حائط هذه القلعة، أو ممرا أرضيا سريا من جهة البحر[٦٢]، أو «طريق آمنة خافية عن العيون»، كما جاء في مكتوب صادر عن ديوان القاهرة في هذا الموضوع[٦٣]. لكن، أيا منها لم يشر صراحة إلى وجود تواطؤ أو خيانة من داخل المدينة أو من خارجها. فما الذي يمنع الضباط الفرنسيين الذين عودونا على تسجيل كل صغيرة وكبيرة في وثائقهم ومذكراتهم، من أن يثبتوا خبرا مثل هذا؟ لا نرى ما يمنع ذلك، بل نرى أن مصلحتهم السياسية والدعائية كانت تقتضي اغتنام فرصة مثل هاته للتأكيد على قدرتهم في اختراق صفوف المجاهدين، ليثبتوا، من خلال ذلك، أن هؤلاء المجاهدين لا يشكلون جبهة موحدة ضد الغزو الفرنسي.

إضافة إلى هذا، نعتقد أنه من غير المنطقي أن يساعد جماعة من الجنود، مهما بلغ نفاقهم، جيشا يحاصر مدينتهم دون أن يحصلوا منه على ضمانات تجنبهم ما سيقع عليهم من عقوبات في حال اقتحام هذه المدينة المحاصرة عنوة. فكيف يعقل أن تقدم «جماعة من مشاة المغاربة» هذه المساعدة التي لا تقدر بثمن إلى نابليون، ثم يصدر بعد اقتحامه لهذه المدينة، قرارا بإعدام مقاتلتها بما في ذلك المغاربة؟ صحيح أنه سمح للمصريين والدمشقيين بالعودة إلى بلدانهم. لكن الذين كانوا سببا في تمكينه من دخول المدينة، حسب ما ذكر الداردنلي، قتلوا شر قتلة ولم يشفع لهم في ذلك لا نفاق البعض منهم حينما تخابروا سرا مع الفرنسيين، ولا ارتماء العديد منهم في عرض البحر الأبيض المتوسط وتحصنهم وراء الصخور. لذلك، نقول إن إمعان نابليون في قتل الجنود المغاربة واستئصال شأفتهم عوض أن يبقي عليهم ليستفيد منهم في حربه المقبلة ضد أحمد باشا الجزار، يضع خبر الآحاد هذا موضع شك ويقلل من احتمالات الصحة فيه.

ورغم ذلك، فإن سوق هذا الخبر من قبل هذه الشخصية السياسية

---

(٦٢) للتوسع أكثر حول الكيفية التي تم بها اكتشاف هذا الممر واقتحام القلعة، انظر: *Victoires, conquêtes, désastres, revers et guerres civiles des Français, de 1792 à 1815*, vol. 10, p. 98, et Rapport du capitaine de génie, Aymé (chargé de saper une muraille), dans: La Jonquière, *L'Expédition d'Egypte*, vol. 4, p. 262, marge no. 1.

(٦٣) الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ج ٢، ص ٢٦٢.

والعسكرية قريبة الصلة من الصدر الأعظم العثماني الذي كان يتولى آنذاك مهمة تحرير الديار المصرية والشامية من الاحتلال الفرنسي، ينبئنا، من جهة أولى، عن الصورة السلبية التي كانت تروج داخل أوساط القيادة التركية ومن يدخل ضمن حاشيتها من مثل عزت حسن الداردنلي، عن الجنود المغاربة المنتشرين آنذاك بالشام. ويرخي، من جهة ثانية، ظلالا من الشك على موقف بعض مقاتلتهم بمدينة يافا. ومن غير المستبعد أن يكون ما أقدم عليه مقاتلة العريش وصفد من المغاربة، قد أذكى لدى هذه القيادة، روح التشكك والريبة تجاه بقية المقاتلين المغاربة، ما جعلها تشتبه في مواقفهم في حالات مثل هاته.

ومهما كان الأمر، فإن انفراد هذا المؤرخ بتسجيل خبر من هذا النوع وخلو باقي الكتابات المصدرية، عربية كانت أم أجنبية، من أدنى إشارة إليه، وعدم استفادة هؤلاء الجنود المغاربة أو على الأقل «الخونة» منهم من العفو أو الإدماج ضمن قوات الحملة، يجعلنا نستبعد حصول هذه الواقعة على الوجه الذي ذكره بها الداردنلي.

إضافة إلى هذا وذاك، نود القول إن الحديث عن هؤلاء المقاتلين «المرتزقة»؛ سواء من وجد منهم بمصر أو الشام، من دون الإشارة إلى من نهج نهجهم من أبناء هذين البلدين، قد يوهم البعض أن الجنود المغاربة هم وحدهم من زلت قدمهم بهذه المناسبة. ذلك، أن الوقائع التاريخية تؤكد أنه في الوقت الذي كان فيه بعض الجنود المغاربة ينحازون، طوعا أو كرها، إلى الجيش الفرنسي، كانت وحدات قتالية مهمة من جند المماليك والانكشارية والمسيحيين الأقباط منهم والشوام وعدد من القبائل المستقرة والجوالة، تقدم خدماتها العسكرية والتجسسية لجيش الشرق. ومعنى هذا، أن سلوك من أسميناهم هنا بـ «الجنود المرتزقة» من المغاربة لم يشكل سوى جزء من ظاهرة عامة شملت أهل البلد و«الأغراب» عنها على حد سواء.

غير أن الفرق النوعي الذي ميز سلوك الجنود المغاربة في هذا الشأن عن غيرهم من الطوائف الإسلامية والمسيحية الأخرى، هو أن عدد من انضم منهم إلى الجيش الفرنسي كان تافها جدا قياسا إلى من التزم منهم بالمقاومة والجهاد. فلم يتجاوز عددهم في مصر سرية من المشاة. أما في الشام، حيث كانت توجد أعداد مهمة من هؤلاء المقاتلين، فلم يتجاوز

عدد من انضم منهم إلى الجيش الفرنسي، أربع سرايا، جلهم من مقاتلة العريش. في حين بلغت أعداد من انضم إلى هذا الجيش من مقاتلي الطوائف الأخرى بما في ذلك أهالي مصر والشام، مستويات عالية. فقد كوّن اليونانيون والمسيحيون الأقباط داخل جيش الحملة، كتيبتين(٦٤). أما عدد من انضم إلى الفرنسيين من المماليك والانكشارية من مصر والشام فقد كان أكبر؛ لأنهم شكلوا مجتمعين فيلقا (un régiment) من الفرسان(٦٥). هذا، من دون أن ننسى الألبان أو الأرنؤوط الذين انضموا بأعداد مهمة إلى الجيش الفرنسي.

وفي الوقت الذي كانت فيه ثورة القاهرة تشهد ذروتها القتالية ضد الاحتلال الفرنسي، كان الزعيم المملوكي الكبير مراد بك، يتحول إلى ظهير وسند لجيش الشرق عندما أبرم اتفاقا مع حاكمه العام، الجنرال كليبر، يخوّل له حكم الصعيد باسم الفرنسيين مقابل التزامه بتقديم واجباته المالية وخدماته العسكرية والتجسسية للفرنسيين(٦٦).

وإلى جانب هؤلاء وأولئك، ارتبط عدد من الأهالي والزعماء المحليين بمصر وعلى رأسهم رؤساء وشيوخ القبائل، بعلاقات تعاون ومساندة مع جنود وإدارة الاحتلال الفرنسية(٦٧). نفس الظاهرة تكررت

---

(٦٤) Roger Michalon et J. Vernet, «L'Adaptation d'une armée française de la fin du 18ème siècle à un théâtre d'opérations proche oriental,» papier présenté à: Colloque international d'histoire militaire, Téhéran, Château de Vincennes, juillet 1976, pp. 26-27.

(٦٥) للتوسع أكثر في موضوع العسكر الذي كونه الفرنسيون من الأقباط وغيرهم من المسيحيين، انظر: Michalon et Vernet, Ibid., pp. 26-28, et Guemard, «Les Auxiliaires de Bonaprte en Egypte (1798-1801),» p. 15.

(٦٦) انظر نص المعاهدة التي أبرمها مراد بك مع الحاكم العام لجيش الشرق الجنرال كليبر في ٥ نيسان/أبريل سنة ١٨٠٠، في: عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، **مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس**، تحقيق ودراسة وتعليق عبد الرزاق عيسى وعماد أحمد هلال، ٢ ج (القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، ١٩٩٨)، ج ٢، ملحق رقم ٣، ص ٥٨٤ ـ ٥٨٨.

(٦٧) كتب عبد الرحمن الجبرتي عن بعض مظاهر التعاون التي وجدت بين بعض أهالي القرى المصرية وإدارة الاحتلال الفرنسية، بمناسبة حديثه عن حركة مولاي محمد الجيلاني بالصعيد، يقول: «إنه كان أكثر من يخامر على هؤلاء المجاهدين [يقصد رجال الشيخ الجيلاني] من مغاربة وحجازيين، أهل الصعيد؛ فيوهمونهم معاونتهم وعند الحروب يتخلون عنهم. وبعض البلاد يضيفون، ويسلط عليهم الفرنسيين، فيقبضون عليهم». انظر: الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ج ٢، ص ٢٧٣.

في الشام، ومثلها بامتياز الشيخ عباس ظاهر العمر الذي «أعرض أحواله [على نابليون، خاصة منها صراعه مع الجزار]، فترحب به وأعطاه السلاح والكسوة وعشرة أكياس وكتب له أن يكون متوليا بلاد أبيه [ولاية عكا وما جاورها]»[٦٨]. وظل ظاهر العمر، حسب شهادة أحد الضباط المرافقين لهذه الحملة، وفيا لقسمه الذي أدلى به أمام نابليون، واستمر يزود هذا الأخير، طيلة المدة التي قضاها بالشام، بمعلومات دقيقة عما كان يجري في دمشق، حيث كان يرابط الجيش العثماني. هذا، ناهيك عن تزويده لمعسكر نابليون، خلال مدة حصاره لعكا، بكل ما كانت تنتجه البلاد[٦٩]. أما شيوخ بني متوال فقد حضروا إلى نابليون خلال حصاره لعكا، «فأعطاهم حكم بلادهم، وساروا من عند أمير الجيوش إلى مدينة صور، وقدموا له الذخاير من البلاد، وتسلموا القلعة التي كانت لأبيهم»[٧٠]. ثم وضعوا أنفسهم وفرسانهم رهن إشارته نكاية في عدوهم التقليدي أحمد باشا الجزار.

وإضافة إلى قلة عدد المقاتلين المغاربة الذين انضموا إلى الجيش الفرنسي قياسا إلى من التزم منهم بالمقاومة والجهاد، أو من نهج نهجهم من الطوائف الأخرى المقيمة آنذاك بمصر والشام، أو أبناء هذين البلدين أنفسهم، لم تتحدث المصادر عن مرافقة أي أحد منهم لجيش الحملة ساعة مغادرته لمصر، بل أكدت أن عسكر المغاربة كان في طليعة الجند المستقبلين للوزير العثماني ساعة دخوله القاهرة[٧١]. واستمر يشكل إحدى الوحدات القتالية الرئيسة بمصر والشام إلى تاريخ متأخر من عهد محمد علي باشا الكبير[٧٢]. هذا، في وقت كانت فيه أعداد كبيرة من

---

(٦٨) نقولا الترك، **حملة بونابرت إلى الشرق**، دراسة وتحقيق أمل بشور (بيروت: جروس برس، ١٩٩٣)، ص ١٥٦.

(٦٩) *Les Français en Égypte, ou Souvenirs des campagnes d'Égypte et de Syrie*, par un officier de l'expédition (le colonel Chalbrand), recueillis et mis en ordre par J.-J.-E. Roy (Tours: Mame, 1857), p. 174.

(٧٠) الترك، المصدر نفسه، ص ١٥٦ ـ ١٥٧.

(٧١) الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ص ٤٨٠.

(٧٢) على الرغم من حرص محمد علي باشا الكبير على إنشاء جيش نظامي مؤلف من العناصر المصرية، استمر المغاربة يشكلون أحد وحدات هذا الجيش إلى فترة متأخرة من عهده. وكانت لهم =

مقاتلي الكتيبتين، اليونانية والقبطية، والأرنؤوط وفرسان المماليك، تلوذ بالفرار صحبة جيش الشرق لكي يدمجوا، بعد التحاقهم بفرنسا، في صفوف الجيش الفرنسي(٧٣). (انظر الصورة الرقم (١٢ ـ ٢)).

الصورة الرقم (١٢ ـ ٢)
جنود محليون من طوائف مختلفة يعملون ضمن صفوف جيش الحملة



المصدر: Jean Tranié et J.-C. Carmigniani, *Bonaparte: La Campagne d'Egypte, avec la collab. de Raoul Brunon et de Alain Pigeard* (Paris: Pygmalion, 1988).

= مشاركة قوية في الحروب التي خاضها في الجزيرة العربية والسودان. انظر بهذا الخصوص: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٦، ١٨٧، ٣٤٦، ٤٥٤، ٦٢٧ و٦٢٩. انظر: عمر طوسون، **صفحة من تاريخ مصر في عهد محمد علي: الجيش المصري البري والبحري** (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٤٠)، ص ٤٩، ١٥٦ و١٦٢.

(٧٣) عن حجم وكيفية إدماج هؤلاء الجنود في صفوف الجيش الإمبراطوري الفرنسي، انظر: Michalon et Vernet, «L'Adaptation d'une armée française de la fin du 18ème siècle à un théâtre d'opérations proche oriental,» pp. 27-28.

خلاصة الفصل الثاني عشر

نستخلص مما سبق، أن الجنود المغاربة، أو من اشتهروا في المصادر المشرقية تحت اسم «عسكر المغاربة» ممن كانوا يعملون في مصر والشام تحت إمرة بكوات المماليك أو غيرهم من قادة الدولة العثمانية، لم يسلموا، شأنهم في ذلك شأن بقية الطوائف المقاتلة الأخرى، من الانزلاق نحو آفة الارتزاق حينما انضم بعضهم إلى قوات الحملة الفرنسية في مصر والشام. إلا أن عددهم، قياسا إلى هذه الظاهرة العامة، كان متواضعا جدا. كما أن ارتباطهم بالمؤسسة العسكرية الفرنسية، تم في ظروف خاصة، ولم يطبعه دائما الإخلاص والاستمرار. يضاف إلى هذا وذاك أن أغلب الجنود المغاربة الذين صادفتهم هذه الحملة بمصر والشام، استمروا في المقاتلة والجهاد إلى جانب زعماء المماليك والقادة العثمانيين، ثم انضموا إلى الحركتين الجهاديتين اللتين قادهما الشيخ محمد الجيلاني المغربي بالصعيد وبعده مولاي محمد المغربي بإقليم البحيرة، وأبلوا في ذلك بلاء حسنا، وخلّدوا بطولات نادرة في الدفاع عن المدن والقلاع المصرية والشامية، وأسهموا بحظ وافر في إفشال هذه الحملة العدوانية التي طالت هذين البلدين الإسلاميين.

خلاصة القسم الرابع

أتاح لنا هذا القسم، بمختلف فصوله ومباحثه، إمكانية الكشف عن الموقف الذي وقفه المغاربة الذين كانوا يقيمون بمصر والشام من الحملة الفرنسية التي استهدفت هذين البلدين. فتبين لنا أن هؤلاء المغاربة الذين توزعت انتماءاتهم على مختلف بلدان شمال إفريقيا وتشكلوا من مدنيين وعسكريين، قد شاركوا إخوانهم المصريين والشوام جهادهم ومقاومتهم للقوات الغازية الفرنسية.

تمثل ذلك، في المساهمة القتالية التي صدرت عن من عرف في الكتابات المشرقية بـ «عسكر المغاربة»؛ أي الجنود المغاربة المنضويين تحت إمرة المماليك وأحمد باشا الجزار، حينما شكلوا طليعة الفرق العسكرية المقاتلة في مختلف المعارك. كما أنهم لم يترددوا، بعد انفراط عقد المماليك، في الانضمام إلى حركة المقاومة والجهاد التي ظهرت بعد ذلك في إقليمي الصعيد والبحيرة بزعامة المجاهدين المغربيين: الشيخ محمد الجيلاني السباعي والشيخ محمد بن الأحرش الدرعاوي.

أما من عرف هناك بـ «المغاربة البلديين» الذين تشكلوا في أغلبهم من التجار والحرفيين والعلماء والطلبة، فكان لهم أيضا حضور قوي في مختلف المحطات التي تخللت هذه الحملة منذ دخولها مصر حتى خروجها منها.

تمثل ذلك في الدور الهام الذي قام به رواق المغاربة بالأزهر الشريف حينما تصدّر أحد علمائه للاتصال بنابليون قبيل دخوله القاهرة وأخذ منه أمانا لساكنتها. كما استمر هذا الرواق، بعد انتقال مشيخته إلى

هذا العالم، يشكل أحد مصادر التهديد القوية بالنسبة لإدارة الاحتلال الفرنسية. أما التجار والحرفيون، فكان لهم دور مؤثر وفعال في ثورة القاهرة الأولى؛ حيث شهدت أحياؤهم، خاصة منها حيا الغورية والفحامين، أولى وأقوى المواجهات، وكان لهم دور متميز خلال ثورة القاهرة الثانية عندما التفوا حول مولاي محمد المغربي باعتباره أحد أبرز قادتها الميدانيين.

كما أتاح لنا هذا القسم إمكانية التحقق من زيف التهمة التي ألصقت بـ «عسكر المغاربة» حينما جعلت من حادثة جزئية قاعدة عامة. فتبين لنا أن ما أسماه الجبرتي بـ «العسكر المغربي» الذي انضم إلى جيش الشرق وألصقت به تهمة القضاء على حركة ابن شعير، لم يتعد بضع عشرات من المقاتلين ممن اضطرتهم ظروف خاصة إلى القبول بالعمل مع الفرنسيين. كما تأكد لنا أن دورهم داخل جيش الشرق قد ظل هامشيا؛ حيث اقتصر في الغالب على الحراسة، وانتهى بانضمام أغلبيتهم إلى كل من مولاي محمد المغربي في ثورته بإقليم البحيرة وأحمد باشا الجزار في حربه ضد نابليون بالشام.

ولاحظنا أنه خلافا لباقي الطوائف الإسلامية والمسيحية التي انضمت إلى جيش الشرق، وظلت تقاتل معه حتى نهاية الحملة، لم تعمر علاقة «العسكر المغربي» بهذا الجيش سوى فترة محدودة، ثم انقطعت أخباره نهائيا، وأصبح قائده موضع شبهة. أما عندما كان جيش الشرق يغادر القاهرة للمرة الأخيرة يرافقه عدد مهم من الجنود المسلمين والمسيحيين، فكان عسكر المغاربة في طليعة المستقبلين للوزير العثماني خلال عودته إلى هذه المدينة. أكثر من ذلك، استمر المغاربة يشكلون إحدى الوحدات القتالية في الجيش المصري خلال عهد محمد علي باشا الكبير.

أما في ما يخص الجنود المغاربة الذين انضموا إلى ما عرف بـ «حملة الشام» بعد سقوط العريش وصفد وغيرهما من المدن الفلسطينية، فاتضح لنا أن انضمامهم هذا تم تحت طائلة الترهيب والترغيب، وأن عددهم كان محدودا جدا قياسا إلى من استمر منهم يقاوم إلى جانب أحمد باشا الجزار وجيش الصدر الأعظم العثماني. كما تبيّن لنا أن قصر عمر هذه الحملة

التي لم تتعد أربعة أشهر، لم يتح لهؤلاء المقاتلين إمكانية التعبير عن موقفهم الصريح والنهائي تجاهها.

وبالجملة، نقول إن القاعدة العامة التي حكمت موقف المغاربة الذين كانوا يقيمون بمصر والشام زمن الحملة الفرنسية على هذين البلدين، هي المقاومة والجهاد إلى جانب إخوانهم المصريين والشوام، وأنه قياسا إلى باقي الطوائف الإسلامية، امتاز المغاربة بقوة تأثيرهم في مجريات وأحداث حملتي مصر والشام. لذلك، شكلوا مصدر تهديد محقق بالنسبة لجيش الشرق وإدارته العليا طيلة السنوات التي استغرقها ما اشتهر تحت اسم «حملة الشرق».

خاتمة عامة

نستنتج مما تضمنته أقسام وفصول هذا الكتاب (الأطروحة)، أن الحملة الفرنسية على مصر والشام، من حيث هي عدوان عسكري قامت به ونفذته إحدى القوى المسيحية الأوروبية على بلدين إسلاميين، كانت حاضرة بقوة داخل المغرب بمختلف أوساطه الرسمية والنخبوية والشعبية.

فعلى المستوى الرسمي، أضحى حدث الحملة يشكل إحدى الانشغالات الرئيسة لدى السلطان مولاي سليمان، خاصة عندما أخذ مبعوثو الباب العالي يفدون عليه، مرغبين إياه في الاستجابة لنداء الجهاد الذي أطلقه السلطان العثماني سليم الثالث باعتباره خليفة للمسلمين، وقناصل إنجلترا وفرنسا يقدمون بين يديه الذرائع والمبررات للانضمام إلى هذا الطرف أو ذاك. هذا، في وقت لم يكن يتوفر فيه المغرب على مصادره الخاصة للتأكد من حقيقة ما يجري بمصر والشام، وما يتصل بذلك من تطورات في ما يخص أمنه «الوطني»، وبعض جهاته لا تزال تعيش على إيقاع الثورات والتمردات، وساكنته تعاني من القحوط والمجاعات، ووباء الطاعون الكبير يحصد أكثر من نصف ساكنته.

لهذه الاعتبارات، وجد السلطان مولاي سليمان نفسه مضطرا إلى التزام جانب الحياد إزاء هذه الحملة العسكرية التي سرعان ما اتخذت طابع أزمة دولية. فعوض أن يغامر بإمكاناته العسكرية والاقتصادية المتواضعة في حرب، أصبحت أهدافها تصب في اتجاه حسابات سياسية قديمة بين إنجلترا وفرنسا، ويعرض «أمنه الترابي» لاعتداءات هذه الأخيرة التي أضحت، بسبب تحالفها مع إسبانيا، تشكل، بالنسبة له، خطرا محققا، انصبت جهوده على تأكيد سلطته الداخلية والاجتهاد في

إيجاد الذرائع والحجج للدفاع عن موقفه أمام مبعوثي الباب العالي وباقي الدول المتحاربة. وقد وصل به الأمر، في هذا الاتجاه، إلى حد إبرام المعاهدات أو تجديدها مع عدد من الدول المعنية بهذا الصراع، وتضمينها بنودا غير مسبوقة تراعي مصلحة هذا الطرف أو ذاك، سعيا منه إلى تفادي كل ما من شأنه أن يعرضه أمن بلاده للخطر.

لذلك، يمكن القول إن القيادة السياسية المغربية، وعلى رأسها مولاي سليمان، عاشت الحملة الفرنسية على مصر والشام كتهديد «وطني» قبل أن تتعامل معها كقضية إسلامية أو حالة جهادية تقتضي تحريك آليات التضامن والتآزر بين البلدان الإسلامية في ظرف من هذا القبيل. ومعنى هذا، أنه عوض أن تتيح هذه الحملة للمغرب، من حيث هو قيادة سياسية، فرصة أخرى لتأكيد سلوكه التضامني المعتاد، رسخت لديه أكثر إحساسه بحيوية «أمنه الوطني» حينما تجلى له أن ما حل بمصر والشام يمكن تكراره على أرضه وبلاده، وأن شروط تنسيق مجهوداته العسكرية مع الإيالات المغاربية، باعتبارها المعبر الرئيس نحو مصر، غير متوفرة نظرا لما شاب مواقفها تجاه الحملة من غموض وتردد.

وتجدر الإشارة إلى أن موقف المغرب اندرج ضمن موقف عام شاركته فيه باقي البلدان الإسلامية التي وجدت نفسها في وضعية مشابهة له. هذا، على الرغم من انفرادها دونه، بتبعيتها للدولة العثمانية صاحبة الشأن الأول في هذه المواجهة العسكرية. أقصد بذلك، الإيالات المغاربية الثلاث التي ماطلت كثيرا في إعلانها الحرب ضد فرنسا، ثم سارعت إلى عقد الهدنة معها أكثر من مرة قبل أن تنتهي الحملة. أما أمير مكة وإماما اليمن ومسقط، فلم يحركوا ساكنا ضد العدوان الفرنسي على مصر والشام. أكثر من ذلك، وجدنا أمير مكة يوثق عرى التعاون والصداقة مع نابليون وخلفائه من بعده، شأنه في ذلك شأن باشا طرابلس، يوسف باشا القرمانلي الذي ربط صلات قوية بجيش الحملة وقيادته العليا بمصر.

وفي كل الأحوال، شكلت هذه الحملة، ربما لأول مرة، مناسبة اكتشف من خلالها، المغرب هشاشة أوضاعه الأمنية والسياسية تجاه أي تهديد قد يطال أرضه أو أرض أي بلد إسلامي تربطه به علاقات تقتضي

من حيث قوتها ونوعيتها نصرته ومؤازرته. كما بدأ يدرك أن زمن الاستجابات العفوية لنداءات الجهاد التي قد تأتيه في المستقبل من أي بلد إسلامي، قد ولى. وتأكد له، من جهة أخرى، أن إمكاناته الحربية هي بالكاد تكفي لتأمين سلامته الترابية. أما أن يجاهر بعدائه لدولة مثل فرنسا ويعلن الحرب ضد جيشها الذي قضى على فرسان القديس يوحنا بمالطا، وقهر جند المماليك بمصر، وهزم جيش الصدر الأعظم العثماني، فذلك ما لم يعد بمقدوره القيام به. ومن يدري؟ ربما من هنا جاءت فكرة تفكيك أسطول الجهاد البحري ونهج سياسة الانغلاق أو العزلة التي سيتميز بها سلوك مولاي سليمان في تعامله مع أوروبا.

لكن، إذا كانت هذه الاعتبارات قد جعلت أمر إعلان المغرب الحرب على فرنسا ومقاتلة جندها بمصر شبه مستحيل، رغم رفضه القاطع لهذا العدوان وتطلعه إلى تخليص مصر منه في أقرب وقت ممكن، فإن مختلف شرائح المجتمع المغربي قد عبرت عن مواقفها بمنتهى القوة والصراحة من داخل المغرب وفي ساحة المواجهة الميدانية. تجلى ذلك من خلال ما صدر عن العلماء والفقهاء من مواقف، وما ضمنه الأئمة والخطباء والشعراء والزجالون خطبهم وقصائدهم من دعوات إلى الجهاد وحض على بذل الأنفس والأموال لنصرة إخوانهم بمصر والشام، وما صدر عن باقي فئات المجتمع من احتجاجات ضد هذا العدوان، وعبّروا عنه من أفراح عامة كلما سمعوا بانهزام قوات الحملة وقرب خروجها من الديار المصرية والشامية.

وإذا كان صدى هذه التحركات لم يتجاوز حدود المغرب، وانصبت في الغالب على التحذير من تكرار نفس التجربة بهذا البلد، فقد تبين من خلال ما تضمنته أبواب وفصول الجزء الثاني من هذا البحث، أن المغاربة المقيمين بمصر والشام، أو من صادفتهم هذه الحملة وهم يعبرون القطر المصري؛ سواء كانوا من الحجاج أو التجار، عبّروا عن تضامنهم مع إخوانهم هناك من خلال انخراط العديد منهم في حركة المقاومة والجهاد، وتصدر البعض منهم قيادة هذه الحركة، وأضحت أقوى الثورات والمواجهات العسكرية تتم تحت إدارة وتوجيه مجاهدين من المغرب الأقصى. ومما يؤثر عن هذه المشاركة الجهادية المغربية،

مساهمتها في إطالة أمد المقاومة وتوسيع دائرتها، كما شكلت أحد الأسباب الرئيسة التي أدت إلى فشل حملة الشام والتعجيل، بعد ذلك، بخروج قوات الحملة الفرنسية من مصر.

وتجدر الإشارة، في الأخير، إلى أن علاقة المغاربة بهذه الحملة، لم تقتصر على المقاتلة والجهاد والترغيب فيهما، بل امتدت إلى اختلاط البعض منهم بجيش الشرق وإدارته العليا بمصر وحلول آخرين بالدولة التي أوفدتهما إلى هناك وإقامتهم بعاصمتها شهورا وأحيانا سنوات. فتعرفوا، من خلال هذه التجربة، على أحد وجوه التقدم الأوروبي ومنجزات الثورة الفرنسية. فكانت هذه أول مناسبة يكتشف فيها المغاربة، سيما منهم الحجاج والتجار، حقيقة التفاوت التقني والتنظيمي الذي أصبح يفصل بين «دار الإسلام» و«دار الكفر». كما أتيحت لهم، بهذه المناسبة، فرصة الاطلاع المباشر على طبيعة وحدة الصراع الجاري، آنذاك، بين «الأمم النصرانية»، واكتشاف قوة توجيه حدث مثل الحملة الفرنسية على مصر والشام لعلاقاتهم الداخلية والخارجية. وأدركوا، بين هذا وذاك، أكثر من غيرهم زيف الشعارات التي كانت تروّج لها أجهزة الدعاية الفرنسية، سواء في ما يتعلق منها بمنجزات الثورة الفرنسية في ميدان «حقوق الإنسان والمواطن»، أو ما تضمنته «سياسة نابليون الإسلامية» من ادعاءات وأغاليط.

وإذا كان هؤلاء المغاربة الذين قادتهم أسبابهم الخاصة إلى الإقامة بمهد الثورة الفرنسية أو الاختلاط بواقع الحملة التي نتجت عنها، قد احتفظوا بذكرياتهم ومواقفهم لأنفسهم، فمما لا شك فيه أن احتكاكهم المباشر وغير المنتظر بفضائي الثورة والحملة الفرنسيين، قد شكل بداية إدراك مبهم بحدوث تطور ما في العلاقة التي ظلت، إلى حدود ذلك التاريخ، تجمع بين المسلمين بمختلف انتماءاتهم الجغرافية وتلك الأوطان الأوروبية التي خرج من رحمها هذان الحدثان القويان في معانيهما ورمزيتهما.

خلاصة القول، نعتقد أن هذا البحث قد أتاح لنا الإجابة عن أهم الأسئلة التي تضمنتها إشكاليته المركزية في حدود ما تهيأ لنا من مصادر

ووثائق، وما توافر لدينا من أبحاث ودراسات. فتبين لنا، بفضل ذلك، أن المغرب بمختلف فعالياته ومكوناته، ارتاع لما حصل بمصر والشام من غزو واحتلال وعبّر عن ذلك بأشكال مختلفة وصلت إلى حد المشاركة الجهادية المكثفة بعين المكان. كما شكلت هذه الحملة، مناسبة اكتشف فيها هذا البلد الإسلامي الذي يوجد على مرمى حجر من أوروبا وحدوده الوطنية تتداخل مع إحدى أممها الأكثر تربصا بأمنه ومستقبله، هشاشة أوضاعه الأمنية والدفاعية عندما أصبح هو بدوره تحت طائلة حملة مماثلة. فترسخت لديه، من جراء ذلك، فكرة المحافظة على مصالحه «الوطنية» وعدم المغامرة أو التورط في صراع دولي يتجاوز قدراته وإمكاناته، في زمن استولى فيه «الكفار على أعظم بلدة» و«ضاقت من أجناده البر والبحر».

فاجتهد، انطلاقا من ذلك، في تحصين نفسه بإيفاد المجاهدين إلى الثغور وتجديد الاتفاقيات مع الدول الأكثر ارتباطا بشؤونه الأمنية وقضاياه السياسية مضيفا إليها بنودا غير مسبوقة ومتنازلا عن أخرى. هذا، في وقت ارتحل فيه العديد من مجاهديه إلى أرض الكنانة لمقاتلة «الكفار»، بل إدارة وتوجيه حركة المقاومة والجهاد بهذا البلد الإسلامي الشقيق وطبعها بطابع مغربي امتزج فيه الحج والتجارة بالمقاومة والجهاد، وسط جو صوفي مشفوع بـ «خوارق العادات وكثرة الكرامات».

وختاما، نقول إن استثمار نتائج هذا البحث على الوجه الأكمل، يستدعي القيام ببحوث مماثلة بالنسبة لباقي البلدان الإسلامية التي كان لها اتصال مباشر بهذه الحملة؛ مثل الإيالات المغاربية الثلاث وإمارة مكة وإمامتي اليمن ومسقط، بهدف مقارنة مواقفها من هذه الحملة بموقف المغرب. كما ينبغي استكمال هذه السلسلة من البحوث ببحوث أخرى مماثلة في قضايا مشابهة وقعت قبل هذه الحملة أو تلتها، من أجل تكوين صورة واضحة ومتكاملة عن حدود ومستويات تفاعل المغرب، عبر مكوناته المختلفة، عملا بفرضية التضامن بين مختلف دول وشعوب العالم الإسلامي، مع هذا الصنف من التحديات التي ما زالت تهدد أمن وسلامة هذه الدول والشعوب بشكل دوري.

أكثر من هذا، نرجو أن تتسع دائرة هذا النوع من البحوث وتعم مختلف بلدان العالم الإسلامي حتى نتبين، بشكل علمي وعلى المستويين الأفقي والعمودي؛ أي عبر الامتداد الزمني والمكاني لتاريخ وجغرافية العالم الإسلامي، حدود ومستويات تحقق خطاب التضامن الإسلامي.

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

معجم الأعلام البشرية والجغرافية والمصطلحات

سنقتصر في هذا المعجم على تقديم تعريف موجز لأهم الأعلام والمواقع والمصطلحات التي ترددت كثيرا في هذا البحث، وكان لها أثر مباشر وقوي في صياغة أهم الأحداث المتصلة بالحملة ككل وموقف المغرب منها على وجه الخصوص.

١ ـ معجم الأعلام البشرية

● أعلام مغربية

ـ **الشريف حسن**: حارب الفرنسيين بإقليم الصعيد تحت إمرة خاله الشيخ محمد الجيلاني. وبعد وفاة هذا الأخير، انتقل، رفقة من بقي معه من المجاهدين، إلى الوجه البحري والقاهرة، حيث أخذ ينسق عملياته القتالية مع مولاي محمد المغربي.

ـ **عبد الرحمن أشعاش**: هو أبو زيد عبد الرحمن بن عبد القادر أشعاش التطواني، كان متوليا على جميع الثغور البحرية، عزله مولاي سليمان سنة ١٢٢٣هـ، ثم ولّي على تطوان محمد السلاوي البخاري.

ـ **محمد بن أحمد الجيلاني**: فقيه وعالم، ينتمي إلى قبيلة أولاد أبي السباع بأحواز مراكش. رحل إلى المشرق وجاور بمكة والمدينة. وبعد دخول الفرنسيين مصر، دعا إلى الجهاد بالحرمين، ثم انتقل إلى إقليم الصعيد بمصر على رأس جيش من المتطوعين، وقاتل الفرنسيين في أكثر من موقعة. ثم اعتل ومات بقرية يقال لها حجازة قرب مدينة أبنود بإقليم الصعيد في ربيع ١٢١٣هـ/١٧٩٩م.

ـ **محمد بن الأحرش الدرعاوي**: أصله من المغرب، سكن بناحية وزان. انتقل إلى مصر على رأس جماعة من المجاهدين بعدما علم بنزول الحملة بها. اشتهر بقتاله للفرنسيين في أقاليم الوجه البحري وثورة القاهرة الثانية. وعرف في المصادر الفرنسية والمشرقية باسم مولاي محمد المغربي. قاد، بعد خروج الفرنسيين من مصر، ثورة واسعة النطاق في شرق الجزائر ضد النظام التركي في هذه الإيالة العثمانية. توفي في ظروف غامظة حوالى سنة ١٨٠٧م.

ـ **محمد بن عبد السلام السلاوي البخاري**: فقيه وكاتب، استوزره مولاي سليمان بعد وفاة ابن عثمان المكناسي، توفي سنة ١٢٣٠هـ/ ١٨١٥م.

ـ **محمد بن عثمان المكناسي**: فقيه وكاتب وسفير، استوزره سيدي محمد بن عبد الله ومولاي سليمان، وبقي في منصبه هذا إلى حين وفاته متأثرا بمرض الطاعون في صيف ١٢١٤هـ/ ١٧٩٩م.

ـ **مولاي الطيب**: هو أحد إخوة مولاي سليمان. تقلد عدة مهام على عهد هذا الأخير، كان آخرها ولايته على مراكش، حيث توفي في صيف ١٢١٤هـ/ ١٧٩٩م متأثرا بمرض الطاعون. اشتهر بولائه لإنجلترا.

ـ **مولاي سليمان**: تولّى حكم المغرب في الفترة بين ١٢٠٦هـ/ ١٧٩٢م ـ ١٢٣٦هـ/ ١٨٢٢م، وتزامن عهده مع نزول الحملة الفرنسية بمصر والشام.

ـ **مولاي عبد السلام**: كان بمثابة اليد اليمنى لأخية مولاي سليمان. توفي سنة ١٢٢٨هـ/ ١٨١٣م.

ـ **مولاي محمد المغربي**: هو محمد بن الأحرش الدرعاوي الذي اشتهر بقتاله للفرنسيين بمصر. أصله من المغرب الأقصى.

ـ **مولاي مسلمة أو سلامة**: رفض بيعة أخيه مولاي سليمان، ودخل معه في مواجهة عسكرية مفتوحة. نصب سلطانا بوزان سنة ١٢٠٦هـ/ ١٧٩٢م لمدة شهرين، ثم اضطر إلى التنازل. رحل، بعد ذلك، إلى المشرق وقضى بقية حياته متنقلا بين مصر والحجاز. واستقر به المقام،

أخيرا، بتونس إلى أن توفي بها سنة ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م. ربطته علاقات قوية، في مصر، مع كل من نابليون والجاسوس الإسباني الذي اشتهر باسم علي باي العباسي.

- **أعلام عثمانية**

ـ **أحمد باشا الجزار**: وُلّي عكا ثم صيدا. وبعد نزول الحملة الفرنسية بمصر، خوّله سليم الثالث ولاية الشام ومصر، وكلّفه بطرد الفرنسيين منها. اشتهر بحربه ومقاومته للحملة التي قادها نابليون بالشام وإفشاله للحصار الطويل الذي أخضعت له عكا بهذه المناسبة.

ـ **سليم الثالث**: تولّى السلطنة في الدولة العثمانية عام ١٧٨٩م، وعزل عنها سنة ١٨٠٧، ثم اغتيل سنة ١٨٠٨م. دارت بينه وبين مولاي سليمان مراسلات عدة حول الحملة ومتطلبات الجهاد ضدها.

ـ **مصطفى باشا**: تولّى قيادة الجيش العثماني في معركة أبو قير البرية في ٢٥ تموز/ يوليو سنة ١٧٩٩. وقع أسيرا في يد القوات الفرنسية. شارك في المفاوضات التي تخللت ثورة القاهرة الثانية. توفي بمصر في ٢٨ حزيران/ يونيو سنة ١٨٠٠.

ـ **ناصيف باشا**: قاد معركة المطرية إلى جانب الصدر الأعظم يوسف ضيا. وبعد انهزامه فيها، التحق بالقاهرة، وشارك في ثورتها الثانية.

ـ **نصوح باشا**: قائد عسكري عثماني. شارك في معركة المطرية، وتسلل قبل انتهائها، صحبة عدد من جنوده، إلى القاهرة وتزعم ثورة القاهرة الثانية.

ـ **يوسف باشا ضيا**: هو الصدر الأعظم العثماني الذي كلفه السلطان سليم الثالث بتخليص مصر من الاحتلال الفرنسي بعدما تبين له عدم استعداد أحمد باشا الجزار للقيام بذلك. خاض معارك عدة ضد الفرنسيين، كان أشهرها معركة المطرية في ٢٠ آذار/ مارس ١٨٠٠ التي اندلعت على إثرها ثورة القاهرة الثانية. دخل القاهرة بعد جلاء الفرنسيين عنها في حزيران/ يونيو ١٨٠١.

● أعلام مملوكية

ـ **إبراهيم بك**: كان يتولّى حكم مصر إلى جانب مراد بك قبل الحملة. وبعد انهزامهما في معركة أمبابة في ٢١ تموز/ يوليو ١٧٩٨ فر إلى الشام والتحق هناك بأحمد باشا الجزار. شارك في ثورة القاهرة الثانية، وتوفي بعد عودته إلى الشام سنة ١٨١٦م.

ـ **مراد بك**: شارك إلى جانب إبراهيم بك في حكم مصر قبل الحملة. وبعد انهزامه في معركة أمبابة في ٢١ تموز/ يوليو ١٧٩٨ فر إلى الصعيد واستمر يقاوم الفرنسيين هناك إلى حين إبرامه اتفاقا معهم في ٥ نيسان/ أبريل ١٨٠٠ يخول له حكم إقليم الصعيد تحت السيادة الفرنسية. توفي في ٨ نيسان/ أبريل ١٨٠١.

● أعلام مصرية

ـ **أحمد المحروقي**: هو كبير تجار القاهرة أيام الحملة. انتخبه نابليون ممثلا عن تجار القاهرة في ديوانه الخصوصي. شارك في ثورة القاهرة الثانية وخرج بعدها مع الجيش العثماني إلى الشام. توفي سنة ١٨٠٤م.

ـ **خليل البكري**: سليل آل البكري من الأشراف. تولّى نقابة الأشراف بمصر على عهد الحملة. اشتهر بموالاته للفرنسيين وشدة تداخله معهم. لذلك، عزل عن نقابة الأشراف بعد عودة العثمانيين وكسرت رقبة ابنته زينب بسبب علاقاتها المشبوهة مع الفرنسيين، وعلى رأسهم نابليون.

ـ **الشيخ السادات**: سليل بيت السادات من الأشراف. كان يتولّى مشيخة سجادتهم أيام الحملة. كانت له مكانة مرموقة وكلمة مسموعة عند أهل القاهرة. رفض عضوية الديوان الخصوصي حينما عرضها عليه نابليون. اتهمه هذا الأخير بتدبير ثورة القاهرة الأولى. شارك في ثورة القاهرة الثانية، وغُرّم وعُذّب بسبب ذلك. توفي سنة ١٨١٣م.

ـ **عبد الله الشرقاوي**: شيخ الأزهر أيام الحملة. ولّاه نابليون رئاسة الديوان الخصوصي. بقي هذا المنصب حتى خروج الفرنسيين من مصر. توفي سنة ١٨١٢م.

- **عمر مكرم**: تولّى نقابة الأشراف بمصر قبل الحملة، وعُزِل عنها بعد فراره إلى الشام واستقراره بيافا. عاد إلى القاهرة بعد سقوط يافا تحت السيطرة الفرنسية. شارك في ثورة القاهرة الثانية.

- **محمد كريم**: ولّاه مراد بك حكم الإسكندرية قبل الحملة، وأقرّه نابليون في منصبه. اتهمه هذا الأخير بالتآمر ضده. لذلك، أمر بقطع رأسه في ٦ شتنبر ١٧٩٨ بعد أن طافوا به أحياء القاهرة ورأسه مكشوفة.

● أعلام فرنسية

- **أنطوان كَليط** (Antoine Guillet): تاجر فرنسي، عُيّن نائبا للقنصل الفرنسي مور أثناء غيابه بفرنسا. وبعد أن تعذر على هذا الأخير العودة إلى المغرب وقدم استقالته، عين كَليط رسميا قنصلا لفرنسا بالمغرب منذ آذار/ مارس ١٧٩٩. تمكن، بفضل تدخلاته وخبرته بأوضاع المغرب وشبكة العلاقات التي كان يتوفر عليها، من تذليل كثير من العقبات بين البلدين خلال الفترة التي استغرقتها الحملة بمصر.

- **بروسوني** (Jaques Brossonet): نائب القنصل الفرنسي بمدينة الصويرة. اشتهر لدينا بمتابعاته المكثفة لأهم التطورات العسكرية والسياسية التي كان يشهدها المغرب، خاصة ما يتصل منها بالحملة.

- **بليار (جنرال)** (Augustin Belliard) (١٧٦٩ ـ ١٨٣٢): اشتهر بمعاركه بإقليم الصعيد تحت إمرة الجنرال ديزي ضد رجال الشيخ محمد الجيلاني. تولّى حكم القاهرة بعد رحيل الجنرال دوكَا إلى فرنسا. أمضى اتفاق الاستسلام مع القوات الإنجليزية في ١٧ حزيران/ يونيو ١٨٠١، وأشرف على عملية الانسحاب النهائية من القاهرة في ١٠ تموز/ يوليو من نفس السنة.

- **بوسييلكَ**: (Jean-Baptiste Poussièlgue) (١٧٤٦ ـ): شارك في عدد من المفاوضات في مالطا ومصر. كلف بإدارة مالية مصر وإدارة الحدود على عهد الحملة. وكان الجبرتي يسميه «رئيس الكتاب ومدير الحدود». اشتهر لدينا بالتقارير المفصلة والميدانية التي كان يرفعها إلى حاكم القاهرة بخصوص ركاب الحج المغربية التي كانت تعبر التراب المصري أثناء الحملة.

- **بيترو (جندي)** (Dominique Pietro) (١٧٨٢ ـ ١٨٠٠): قاتل في صفوف قوات الجنرال ديزي بإقليم الصعيد وواجه رجال الشيخ محمد الجيلاني في أكثر من موقعة.

- **بيرتيي (جنرال)** (Louis-Alexander Berthier) (١٧٥٣ ـ ١٨١٥): كان من كبار القادة العسكريين المقربين جدا من نابليون. شغل منصب رئيس أركان الحرب طيلة وجوده بمصر. شارك في أهم المعارك التي شهدتها مصر والشام. غادر مصر صحبة نابليون في ٢٢ آب/أغسطس ١٧٩٩.

- **تاليران** (Charles-Maurice Talleyrand) (١٧٥٤ ـ ١٨٣٨): وزير خارجية فرنسا في حكومة الإدارة طيلة المدة التي استغرقتها الحملة مع توقف بسيط في أواسطها. هو الذي أوحى لنابليون بفكرة الحملة وأقنعه بها ودافع عنها من موقعه ذاك. دارت بينه وبين مولاي سليمان وابن عثمان مراسلات عدة حول هذا الموضوع ودافع بقوة عن التجار المغاربة الذي رحلوا إلى باريس ضد القراصنة الفرنسيين حفاظا منه على مصالح بلاده العليا، خاصة ما يتصل منها بمصير الحملة.

- **دوبي (جنرال)** (Dominique- Martin Dupuy) (١٧٦٧ ـ ١٧٩٨): كان أول من تولّى حكم القاهرة. قتل أثناء ثورة القاهرة الأولى في ٢١ تشرين الأول/أكتوبر ١٧٩٨، وشكل مقتله أحد أسبابها الرئيسة.

- **دوكَا (جنرال)** (Charles- François Dugua) (١٧٤٤ ـ ١٨٠٢): شارك في عدد من المعارك بمصر. اشتهر أكثر بحكمه للقاهرة في الفترة من ٢١ آب/أغسطس ١٧٩٨ إلى آذار/مارس ١٨٠٠، وأضاف إليها مصر السفلى أثناء غياب نابليون بالشام. غادر مصر منذ آذار/مارس ١٨٠٠.

- **دونزيلو (جنرال)** (François-Xavier Donzelot) (١٧٦٤ ـ ١٨٤٣): كان ملحقا بفرقة الجنرال ديزي بإقليم الصعيد. خاض عددا من المعارك بهذا الإقليم ضد رجال الشيخ محمد الجيلاني، وتمكن من السيطرة على ميناء القصير الذي كانوا يأتون منه في ٢٩ أيار/مايو ١٧٩٩، وربط علاقات متميزة مع مراد بك بعدما أمضى اتفاق محالفة وتعاون مع الفرنسيين.

- **ديزي (جنرال)** (Louis-Charles Desaix) (١٧٦٨ ـ ١٨٠٠): كلفه نابليون بقيادة حملة الصعيد. شارك في المفاوضات التي أفضت إلى اتفاقية

العريش بين العثمانيين والفرنسيين في ٢٤ كانون الثاني/ يناير ١٨٠٠. غادر مصر منذ ٤ آذار/ مارس من نفس السنة.

ـ **ديفيرنوا (جنرال)** (Nicolas-Philibert Devernois) (١٧٧١ ـ ١٨٥٩): ألحق بفرقة الجنرال ديزي. شارك في أهم المعارك التي شهدها هذا الإقليم ضد رجال الشيخ محمد الجيلاني وثورة القاهرة الثانية.

ـ **دينون (جنرال)** (Dominique-Vivant Denon) (١٧٤٧ ـ ١٨٢٥): رافق الحملة من باب الفضول العلمي والفني. ربط علاقات قوية بنابليون وسمح له بمرافقة الجنرال ديزي في حملته بإقليم الصعيد، وشهد معه أغلب معاركها، خاصة ما يتصل منها بتلك التي قادها أو اشترك فيها رجال الشيخ محمد الجيلاني.

ـ **عبد الله جاك مونو (جنرال)** (Abdellah Jaques Menou) (١٧٥١ ـ ١٨١٠): أسلم منذ الشهور الأولى للحملة وتزوج بامرأة مسلمة مطلقة من رشيد اسمها زبيدة ورزق مولودا ذكرا أسماه مراد. تولى قيادة جيش الشرق بعد اغتيال الجنرال كليبر في ١٤ حزيران/ يونيو ١٨٠٠، وبقي في هذا المنصب إلى حين توقيعه على اتفاقية الجلاء النهائي عن مصر في ٣١ آب/ أغسطس ١٨٠١. اشتهر بميولاته الاستعمارية ورغبته القوية في تحويل مصر إلى مستعمرة فرنسية.

ـ **فانتور دو برادي** (Venture de Paradis) (١٧٣٩ ـ ١٧٩٩): مستشرق فرنسي مشهور. اعتمد مترجما أول لجيش الحملة. رافق نابليون في حملته على الشام، وتوفي هناك بالناصرة في ١٦ أيار/ مايو ١٧٩٩.

ـ **كَاربي (جنرال)** (Marie-Thiodore Garbé) (١٧٦٩ ـ ١٨٣١): كان مُلحقا بفرقة الجنرال ديزي بإقليم الصعيد. واجه رجال الشيخ محمد الجيلاني في أكثر من موقعة وتعرف عليهم عن كثب.

ـ **كليبر (جنرال)** (Jean-Baptiste Kléber) (١٧٦٣ ـ ١٨٠٠): شارك في أغلب المعارك التي شهدتها مصر والشام. تولّى القيادة العامة لجيش الشرق في الفترة الممتدة من ٣٠ آب/ أغسطس ١٧٩٩ إلى غاية ١٤ حزيران/ يونيو، حيث اغتاله الطالب الشامي سليمان الحلبي. كان من دعاة الرحيل عن مصر، وبمادرته تم التوصل إلى اتفاق العريش في ١٤ كانون الثاني/ يناير ١٨٠٠

الذي كان يقضي بخروج الفرنسيين سلميا من مصر وعودتها إلى العثمانيين.

ـ **لانوس (جنرال)** (Pierrre Lanusse) (١٧٦٨ ـ ١٨٤٧): اشتهر بحربه في مصر السفلى وإقليم البحيرة منها بالذات ضد حركة الجهاد التي كان يقودها بهذه الجهات مولاي محمد المغربي.

ـ **لوفيفر (جنرال)** (Simon Lefebvre) (١٧٦٨ ـ ١٨٢٢): كان أول من تصدى لحركة مولاي محمد المغربي بإقليم البحيرة وانهزم أمامه في معركة سنهور.

ـ **مارمون (جنرال)** (Augustin-Frederic Marmont) (١٧٧٤ ـ ١٨٥٢): شارك في عدة معارك، واشتهر لدينا أكثر بتقاريره المفصلة عن أحداث المقاومة التي كانت تشهدها أقاليم الوجه البحري بقيادة مولاي محمد المغربي. غادر مصر مبكرا بصحبة نابليون.

ـ **ماك شيهي (قبطان)** (Mac-Sheehy): اشتهر بقيادته لحامية السويس وتقاريره المفصلة عن تحركات الشيخ محمد الجيلاني ورجاله بين الحجاز والصعيد. كان من فرسان القديس يوحنا بمالطا.

ـ **نابليون بونابرت (جنرال)** (Napoleon Bonaparte) (١٧٦٩ ـ ١٨٢١): دافع بقوة عن مشروع الحملة على مصر وتولّى شخصيا تنفيذه. غادر مصر في ٢٢ آب/ أغسطس ١٧٩٩ في اتجاه فرنسا. واستمر يشرف على الحملة بعد أن عُيّن قنصلا عاما إثر الانقلاب الذي قاده ضد حكومة الإدارة في ٩ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٧٩٩.

● أعلام إنجليزية

ـ **أبيركرومبي (جنرال)** (Sir Abercromby) (١٧٣٤ ـ ١٨١٠): عين منذ شهر حزيران/ يونيو ١٨٠٠ قائدا عاما للأسطول الإنجليزي المرابط في البحر الأبيض المتوسط. ثم كلف بطرد الفرنسيين من مصر وخاض ضدهم عدة مواجهات كان أهمها معركة كانوب في آذار/ مارس ١٨٠١ التي جرح فيها ومات بعد أسبوع.

ـ **سيدني سميث (أميرال)** (Sir William Sedney Smith) (١٧٤٦ ـ ١٨٤٠): قائد الأسطول الإنجليزي الذي كان يرابط قبالة الإسكندرية. شارك إلى جانب

أحمد باشا الجزار في مقاومة وإفشال الحصار التي تعرضت له عكا في إطار حملة الشام. أشرف، إلى جانب الجنرال كليبر، على مفاوضات العريش وقاد الهجوم الأخير ضد الوجود الفرنسي بمصر.

ـ **جيمس ماطرا** (James Matra): قنصل إنجلترا بالمغرب خلال المدة التي استغرقتها الحملة الفرنسية في مصر.

ـ **نيلسون (أميرال)** (Horatio Nelson) (١٧٥٨ ـ ١٨٠٥): قائد الأسطول الإنجليزي الذي كان يرابط في البحر الأبيض المتوسط. اشتهر بمطاردته لأسطول الحملة منذ خروجه من ميناء طولون وتحطيمه له بعدما رسى في خليج أبو قير بمصر في الفاتح من شهر آب/ أغسطس ١٧٩٨. لذلك، لقب بـ «بطل معركة أبو قير». خاض بعد ذلك، معركة الطرف الأغر سنة ١٨٠٥ ضد إسبانيا وقتل خلالها.

ـ **ولسون (جنرال)** (Sir Robert Thomas Wilson) (١٧٧٧ ـ ١٨٤٩): شارك في الهجوم العثماني الإنجليزي الأخير ضد الوجود الفرنسي في مصر وتعرف، عن قرب، على المجاهد المغربي مولاي محمد.

● أعلام من جنسيات أوروبية أخرى

ـ **خوان سلمون كونزاليس** (Juan-Conzalez Salemon): قنصل إسبانيا في المغرب خلال المدة التي استغرقتها الحملة في مصر. أشرف، إلى جانب الوزير المغربي ابن عثمان، على المفاوضات التي أفضت إلى اتفاقية فاتح آذار/ مارس ١٧٩٩ بين المغرب وإسبانيا. ربط علاقات قوية بكل من القنصل الفرنسي أنطوان كَليط وابن عثمان، ولعب من موقعه هذا دور الوسيط بين المغرب وإسبانيا في ما يتصل بالوجود الفرنسي بمصر وما نجم عنه من تطورات على مستوى العلاقات المغربية الفرنسية.

ـ **كارلو روزيتي** (Carlo Rositti): قنصل النمسا والبندقية بمصر. ربطته علاقات قوية بمراد بك؛ حيث كان مكلفا بإدارة أعماله قبل الحملة. ومن منطلق خبرته بأحوال البلاد، كلفه نابليون بإجراء مفاوضات معه قبل بدء حملة الصعيد. واستمرت تجمعه علاقات قوية بإدارة الاحتلال الفرنسية حتى خروجها من مصر.

٢ ـ الأقاليم والجهات

ـ **مصر الوسطى**: تضم الأقاليم المنحصر بين القاهرة شمالا ومصر العليا جنوبا. من أشهر مدنها؛ المينا ومنفلوط وأسيوط وطهطا وبني سويف والفيوم.

ـ **مصر العليا**: تضم الأقليم الموجودة بين مصر الوسطى شمالا والشلالات الكبرى جنوبا. من أشهر مدنها سوهاج وأبنود وجرجا وقنا وأسوان.

ـ **مصر السفلى**: تضم الأقاليم الموجودة بين القاهرة جنوبا والبحر الأبيض المتوسط شمالا. تنقسم إلى ثلاث أقاليم كبرى، هي: إقليم الشرقية وإقليم الغربية وإقليم البحيرة. من أشهر مدنها، الإسكندرية ورشيد ودمياط ودمنهور والمنصورة وطنطا.

ـ **الوجه البحري**: يضم كل الأقاليم الموجودة إلى الشمال من القاهرة؛ أي مصر السفلى.

ـ **الوجه القبلي**: يضم كل الأقاليم الموجودة إلى الجنوب من القاهرة، أي مصر الوسطى والعليا.

ـ **الصعيد**: إقليم كبير وخصب، يضم القسم الأكبر من مصر العليا من جهة الجنوب.

ـ **الشرقية**: أحد أقاليم الوجه البحري، يوجد إلى الشرق من الدلتا.

ـ **الغربية**: أحد أقاليم الوجه البحري، يوجد إلى الغرب من الدلتا.

ـ **البحيرة**: أحد أقاليم الوجه البحري، يوجد بين إقليمي الشرقية والغربية في منطقة الدلتا.

٣ ـ الأحداث العسكرية والسياسية

● الحملات

ـ **حملة مصر**: بدأت باحتلال الإسكندرية في ١ تموز/ يوليو ١٧٩٨ وشكل دخول نابليون القاهرة في أعقاب معركة أمبابة أقوى لحظاتها الحاسمة.

ـ **حملة الصعيد**: بدأت منذ ٢٥ آب/ أغسطس ١٧٩٨ عندما كلف نابليون الجنرال ديزي بإخضاع أقاليم الوجه القبلي وتعقب مراد بك الذي فر إلى هذه الجهات. وشكل احتلال القصير في ٢٩ أيار/ مايو ١٧٩٩ وتوقيع مراد بك اتفاقية الصلح مع الفرنسيين في ٥ نيسان/ أبريل ١٨٠٠، أقوى لحظاتها الحاسمة.

ـ **حملة الشام**: بدأت بخروج نابليون من القاهرة في ١٠ شباط/ فبراير ١٧٩٩ في اتجاه الشام. أسفر عن احتلال عدد من المدن الفلسطينية. انتهت بفشل نابليون في اقتحام عكا؛ حيث كانت ترابط قوات أحمد باشا الجزار مدعومة بالأسطول الإنجليزي، ورفع حصاره عن هذه القلعة في ٢٠ أيار/ مايو ١٧٩٩ وعودته على وجه الاستعجال إلى مصر. وشكل اقتحام الجنود الفرنسيين لمدينة يافا وما أعقبها من مذابح رهيبة وفشل حصار عكا، أقوى لحظاتها الحاسمة.

● المعارك

ـ **معركة أمبابة**: هي المعركة الفاصلة والأخيرة من نوعها التي جمعت بين جيش الشرق وجند المماليك. وقعت في ٢١ تموز/ يوليو ١٧٩٨ في الجزء الغربي من القاهرة في مكان يعرف بأمبابة قرب الأهرام. لذلك، عرفت في المصادر الفرنسية بمعركة الأهرام. دخل على إثرها الفرنسيون القاهرة وفر المماليك في اتجاهات مختلفة.

ـ **معركة الأهرام**: هي معركة أمبابة. أطلق نابليون عليها هذا الاسم وتلقب هو ببطل معركة الأهرام.

ـ **معركة أبو قير البحرية**: وقعت في فاتح آب/ أغسطس سنة ١٧٩٨ بين الأسطولين الإنجليزي والفرنسي في خليج أبو قير قرب الإسكندرية. تحطم خلالها الأسطول الفرنسي بشكل شبه تام، وكان لها أثر مباشر على تحديد مصير الحملة.

ـ **معركة أبنود النيلية**: وقعت في ٣ آذار/ مارس ١٧٩٩ قرب مدينة أبنود بالصعيد. جمعت بين رجال الشيخ محمد الجيلاني ومن انضم إليه من الأهالي والمماليك وأسطول فرنسي مكون من خمسمائة فرد. انتهت

بانهزام هذا الأخير وإعدام جميع من كان على متنه من الجنود ومرافقيهم وإحراق سفينة «إيطاليا» الشهيرة، واستلاء المجاهدين على مدافع متطورة وغنائم كثيرة.

ـ **معركة أبنود البرية**: وقعت أيام ٧ و٨ و٩ من شهر نيسان/ أبريل ١٧٩٩، وجمعت بين رجال الشيخ محمد الجيلاني ومن انضم إليهم من الأهالي وجنود الجنرال بليار، وجاءت بمثابة رد فعل مباشر على معركة أبنود النيلية. انتهت بانهزام المجاهدين وأعقبتها، بوقت قصير، وفاة قائدها عن الجانب الإسلامي الشيخ محمد الجيلاني المغربي، وتشتت رجاله بين عائد إلى الحرمين ومتجه إلى القاهرة.

ـ **معركة سنهور**: وقعت في ١٣ أيار/ مايو ١٧٩٩ قرب مدينة سنهور بالوجه البحري، وجمعت بين مولاي محمد المغربي ومن انضم إليه من الأهالي والجنرال لوفيفر. انتهت بانهزام هذا الأخير.

ـ **معركة أبو قير البرية**: وقعت في ٢٥ تموز/ يوليو ١٧٩٩ في خليج أبو قير قرب الإسكندرية على إثر الإنزال البحري الذي قام به الأسطولان العثماني والروسي. قادها عن الجانب الفرنسي نابليون وعن الجانب العثماني مصطفى باشا. انتهت بانهزام هذا الأخير وأسره.

ـ **معركة المطرية**: وقعت في ٢٠ آذار/ مارس ١٨٠٠ بجهة المطرية بمكان قرب القاهرة يعرف بعين شمس. لذلك، عرفت أيضا بهذا الاسم. واشتهرت عند الفرنسيين، باسم معركة هيليوبوليس. جمعت بين جيش الصدر الأعظم العثماني يوسف باشا ضيا والقوات الفرنسية بقيادة الجنرال كليبر باعتباره القائد العام لجيش الشرق. انتهت بانتصار هذا الأخير وانسحاب جيش الصدر الأعظم العثماني إلى الشام، بينما تسلل عدد من قواده بمعية جنودهم إلى القاهرة مما نجم اندلاع ثورة القاهرة الثانية.

ـ **معركة كانوب**: وقعت في ضواحي القاهرة في مكان يعرف بهذا الاسم في ٢١ آذار/ مارس ١٨٠١. وجمعت بين قوات الجنرال مونو باعتباره القائد العام لجيش الشرق والجنرال الإنجليزي أبيركرومبي. انتهت بانتصار هذا الأخير وكان لها أثر حاسم في سير عمليات القتال وتطور الموقف السياسي. تعرف هذه المعركة الفاصلة عند الإنجليز، بـ «معركة الإسكندرية».

● **الثورات**

ـ **ثورة القاهرة الأولى**: وقعت أيام ٢١ و٢٢ و٢٣ من شهر تشرين الأول/ أكتوبر ١٧٩٨. انتهت بانهزام الثوار بعد اقتحام الجنود الفرنسيين لجامع الأزهر.

ـ **ثورة القاهرة الثانية**: وقعت في الفترة ما بين ٢٠ آذار/ مارس و٢١ نيسان/ أبريل من سنة ١٨٠٠. انتهت بانهزام الثوار وإخضاع القاهرة للإحتلال مرة ثانية.

ـ **ثورة أمير الحاج المصري**: عين نابليون قبل رحيله إلى الشام، صالح بك أميرا لركب الحاج المصري، وطلب منه أن يلحق به بالشام صحبة عدد من العلماء. فاغتنم أمير الحاج هذه الفرصة وأعلن الثورة في إقليم الشرقية خلال شهر آذار/ مارس ١٧٩٩. انتهت هذه الثورة، بالتحاق صالح بك وعدد من مقاتليه بأحمد باشا الجزار وإخضاع هذا الإقليم مرة أخرى للسيطرة الفرنسية.

ـ **ثورة المهدي**: هي الثورة التي تزعمها مولاي محمد المغربي. دشنها بقتل حامية دمنهور ليلة ٢٥ من شهر نيسان/ أبريل ١٧٩٩، وامتدت شرارتها إلى جل أقاليم الوجه البحري.

● **الاتفاقيات والمعاهدات**

ـ **اتفاقية العريش**: تم التوقيع عليها في ٢٤ كانون الثاني/ يناير ١٨٠٠، وكانت تقضي بانسحاب الجيش الفرنسي من مصر وعودة هذه الأخيرة إلى السيادة العثمانية. لم تنفذ بسبب اعتراض إنجلترا على بنودها مما أدى اندلاع معركة المطرية وثورة القاهرة الثانية.

ـ **اتفاقية الصلح بين مراد بك والجنرال كليبر**: وقعت في ٥ نيسان/ أبريل ١٨٠٠ عشية ثورة القاهرة الثانية، ووضعت حدا نهائيا لحملة الصعيد. اعترف بموجبها لمراد بك بإدارة إقليم الصعيد تحت السيادة الفرنسية.

ـ **اتفاقية الجلاء عن القاهرة**: وقعت في ٢٧ حزيران/ يونيو ١٨٠١ بين العثمانيين والإنجليز من جهة، والجنرال بليار باعتباره حاكم القاهرة من جهة ثانية. وقضت بإخلاء الفرنسيين للقاهرة وتوجههم إلى فرنسا.

ـ **اتفاقية الجلاء عن مصر**: وقعت في ٣١ آب/أغسطس ١٨٠١ بين العثمانيين والإنجليز من جهة، والفرنسيين من جهة ثانية. وقضت بنودها بإخلاء جيش الشرق لمصر نهائيا وعودتها إلى السيادة العثمانية.

٤ ـ المصطلحات

ـ **الأسطي**: كلمة تركية، كانت تطلق في مصر على رجال الجيش إذا صاروا ألوية، وعلى أعيان المدن ووكلاء الوزراء ومحافظي الأقاليم وكبار التجار وملاك الأراضي.

ـ **الآغا**: كلمة تركية وقيل فارسية، تستعمل بمعنى القائد والرئيس وشيخ القبيلة.

ـ **أفندي**: كلمة يونانية. تطلق في الاسطلاحين العثماني والمصري على كبار الموظفين.

ـ **الألضاشات**: كلمة تركية، تعني فرقة من المشاة سلاحهم السيوف.

ـ **الانكشارية**: جيش من المشاة، أنشئ على عهد السلطان العثماني أورخان اعتمادا على ما كان يسمى بـ «ضريبة الغلمان» التي كانت تقضي بأخذ عدد معين من أبناء البلدان المفتوحة في شبه جزيرة البلقان كضريبة. وكانت تطلق في مصر على الفرق العثمانية المكلفة بحفظ الأمن والدفاع عن القاهرة من بين فرق أخرى.

ـ **الباب العالي أو الباب الأعلى**: هو المركز الحكومي للصدر الأعظم العثماني. وتستعمل كذلك للدلالة على القصر والبلاط وحكومة السلطان العثماني.

ـ **بارة**: وحدة نقدية أساسية، تعادل نصف فضة.

ـ **بك**: كلمة تركية، تعني الأمير. التصق هذا المصطلح في مصر القديمة بمصطلح صنجق، واستعمل المصطلحان للدلالة على رتبة إدارية واحدة.

ـ **حكومة الإدارة أو المديرين**: هي الجهاز التنفيذي الذي تولى الحكم في فرنسا بشكل جماعي من ٢٦ تشرين الأول/أكتوبر ١٧٩٥ إلى ١٠ تشرين الثاني/نوفمبر ١٧٩٩.

ـ **الدفتردار**: كلمة مؤلفة من دفتر ودار. أصلها فارسي وتعني الشخص الذي كان يتولى حفظ الدفاتر والسجلات الرسمية ويترأس دائرة الشؤون المالية المسماة بالدفتردارية.

ـ **الديوان**: أنشأ نابليون، فور دخوله القاهرة، جهازين استشاريين مؤلفين من كبار العلماء والتجار وشخصيات أخرى مسلمة ومسيحية؛ واحد مصغر أطلق عليه الديوان الخصوصي، وآخر موسع أطلق عليه الديوان العمومي.

ـ **رواق المغاربة**: مكان مخصص في جامع الأزهر بالقاهرة للطلبة الوافدين من طرابلس وتونس والجزائر والمغرب. يقع في الجانب الغربي من صحن الجامع على يمين الداخل من باب المغاربة.

ـ **الروزمانجي**: موظف كبير مكلف بجمع الإيرادات بمختلف أنواعها وصرفها في وجوهها المقررة.

ـ **سر عسكر أو ساري عسكر**: كلمة فارسية،وتعني قائد الجيوش، وكانت تطلق في مصر على نابليون .

ـ **شهبندر**: تعني كبير تجار القاهرة، وهو منصب إداري هام تولاه عدد من التجار المغاربة بمصر.

ـ **عرضي أو أوردي**: كلمة تركية، نعني في نفس الآن المعسكر والجيش الكبير الجامع لأصناف الجند.

ـ **الغز**: اسم أطلقه العرب على أولى المجموعات التركية التي تعرفوا عليها. وكانت تطلق في مصر على العسكر الذي كان يتألف في هذا البلد من المماليك والأتراك.

ـ **الغليونجية**: طائفة من البحارة يركبون سفنا كبيرة تسمى غلايين.

ـ **فرمان**: كلمة فارسية، وتعني أمر أو حكم يصدره السلطان العثماني إلى ولاته.

ـ **القلق**: كلمة تركية، تطلق على حارس إحدى المؤسسات التابعة للدولة أو أحد الأحياء السكنية.

ـ **كتخذا**: كلمة فارسية، تعني في الاصطلاح العثماني نائب أو وكيل الوالي، وكانت تطلق كذلك على عدة مهام ووظائف ومناصب عالية في القصر والجيش.

ـ **الكوالرية**: كلمة مأخوذة من الإيطالية، وتعني الفرسان. واستعملت في الاصطلاح المصري للدلالة على فرسان القديس يوحنا في مالطا.

ـ **محبوب**: عملة عثمانية. والكلمة اختصار لعبارة فارسية هي: زر محبوب، أي الذهب المحبوب.

ـ **مستحفظان**: كلمة تركية، وتعني رئيس الشرطة والمسؤول الكبير المكلف بحفظ الأمن في القاهرة.

ـ **نصف فضة**: وحدة نقدية أساسية كانت تضرب في إسطانبول ومصر. وتعادل في الاصطلاح التركي، بارة.

ـ **وكالة**: تكتب أحيانا أوكالة، وتعني الخان أو البناية الكبيرة التي تتم فيها تجارة الجملة في القاهرة، وعادة ما تكون مخصصة لنوع واحد من السلع كالبن مثلا.

الملاحـــق(*)

(*) أرفقنا الوثائق التي تطرح قراءتها بعض الصعوبات، بنظائر لها مكتوبة بطريقة واضحة ومقروءة.

الملحق الرقم (١)
التقويم الجمهوري

استخدمت الثورة الفرنسية، منذ سنة ١٧٩٢، ما سمي بـ «التقويم الجمهوري» الذي قسمت بموجبه الشهر إلى عشرة أيام والسنة إلى اثني عشر شهرا بالتساوي، عدد أيام كل شهر ثلاثين يوما، يضاف إليها خمسة أيام مكملة. وتبدأ السنة الجمهورية في ٢٢ أيلول/سبتمبر. استمر العمل بهذا التقويم إلى ١٨٠٦، ثم ألغي في فاتح كانون الثاني/يناير من هذه السنة.

فنديمير / شهر الجني (vendémiaire) أوله ٢٢ أيلول/سبتمبر

بريمير/شهر الضباب (brumaire) أوله ٢٢ تشرين الأول/أكتوبر

فريمير/شهر الصقيع (frimaire) أوله ٢١ تشرين الثاني/نوفمبر

نيفوز/شهر الثلوج (nivôse) أوله ٢١ كانون الأول/ديسمبر

بلوفيوز/شهر الأمطار (pluviôse) أوله ٢٠ كانون الثاني/يناير

فانتوز/شهر الرياح (ventose) أوله ١٩ شباط/فبراير

جيرمينال/شهر البذار (germinal) أوله ٢١ آذار/مارس

فلوريال/شهر الزهور (floréal) أوله ٢٠ نيسان/أبريل

بريريال/شهر المروج (prairial) أوله ٢٠ أيار/مايو

ميسيدور/شهر الحصاد (messidor) أوله ١٩ حزيران/يونيو

تيرميدور/شهر الحرارة (thermidor) أوله ١٩ تموز/يوليو

فريكتيدور/شهر الثمار (fructidor) أوله ١٨ آب/أغسطس

الملحق الرقم (٢)

نداء نابليون الذي بدأ في توزيعه فور نزوله بالإسكندرية

أنجز الترجمة القنصل الفرنسي بالمغرب أنطوان كَليط وسلم نسخة منها لباشا طنجة ليرسلها إلى مولاي سليمان. وعنها أخذ الباشا المذكور هذه النسخة وأضاف إليها تعليقا في أولها وآخرها

ترجمة نداء بونبارطي قايد محلة الفرانصيص
بعد نزوله على الاسكندرية قبح الله سعيه

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك
من قديم الزمان يرجي لهذا الوقت تعذيب جميع بايات مصر واصلهم مماليك جاءوا من
جبل كرجستان ونيتهم وقصدهم خراب البلدان الجميلة ومن قديم الزمان يقصدون
الهجوم على الجنس الفرنصاوي والوثوب عليهم ويظلمون تجارهم باي نوع شاءوا واليوم
بونبارطي القايد الكبير للجمهور الفرنصاوي وقاصد الحرية جاءهم هو والله تعالى رب
الدنيا والآخرة ثم حكومة البايات

ايا سكان مصر اذا قالوا لكم البايات ان الفرنصاوية جاءوا لخراب دينكم فانه منهم
كذب فلا تامنوهم واخبروهم بان الفرنصاوي لم يكن قصده ما زعموه واتيانهم
انما هو ليقبضوا حق المساكين من يد الظالمين والفرنصاوي يعبدون الله ويحترمون
النبي ويعظمون القرآن المقدس

وبين يدي الله تعالى يكون الانسان من حيث هو مستويا ما عدا من هو
من أهل الموهبات كالعالم والصالح والعاقل والحكيم والبايات لم يكن فيهم وصف
من هذه الأوصاف والذي لم يكن فيه واحد منها فكيف يستاهل الحكومة على
الناس في هذه البلاد وقد اخذوا لكم الارضين الكثيرة وحازوا الجنانات المستحسنة
والخيل المسومات والسريات العظمى هل خصهم الله بهذه النعمة وحدهم فاذا
زعموا ذلك فليبينوا لكم الحجة بل الله تعالى اكرم الاكرمين وهو سبحانه الكريم
على كل انسان ويحب الحق سبحانه واليوم اراد الله تعالى ان يكون الناس كلهم
سواء في الصعود والمرتبة العظمى واردنا حضور جموع من العلماء والصالحين واهل
الخير ويكون جمعهم ان شاء الله تعالى بالسعادة واليقين بان الجور والظلم
الذي كان في مصر من باياتهم من قديم الزمان قد اذهبه الله عنهم ولا يكون في
المستقبل وترجع حالة مصر كما كانت قبل البايات ويكثر الخصب

الفرنصيص مسلمون حقيقة لا محالة في الفارط عن قريب ذهبوا لرومة وهدموا
كرسي الباب الكذاب الذي يزعم انه نايب المسيح وكان دايما يحرض النصارى
على كل من يتبع مذهب الإسلام والإسلام هو دين سيدنا محمد وهو الدين
في الحقيقة وبعد ما عملوا في رومة ما عملوا ذهبوا الى مالطة فقبضوها وطردوا
منها الكفرة الذين كانوا يزعمون انما خلقهم الله لمحاربة المسلمين ومن قديم
الزمان الجمهور الفرنصاوي كان محبا للسلطان العثماني ولجميع المسلمين ويحب
من يحبهم ويعادي من يعاديهم وذلك حقا يقينا والله تعالى يديم عز ملك سلاطين
المسلمين في كل الازمنة والبايات البخلاء الغواغيين العاصين على السلطان العثماني
فالله تعالى يعذبهم ويهلكهم ويصيرهم تحت التراب

سكان مصر لهم الآن فرحة باتياننا ومن حقهم يعينون حتى اتانا منهم عزمنا

او بقى في داره لم يدخل في هذه المسايل فلا يعينون ولا يعيني غيرنا فلا يكون معه
الا الخير والذين يعينون البايات ويشارون عليهم فيقضى عليهم بالموت ولا يسلمونهم ر
نمحوا اثارهم من الدنيا
الشرط الاول كل موضع الذى هو بينه وبين محلتنا مقدار ثلاثة ساعات من الطريق
يوجهون واحدا من اعقل محلتهم ليشهدوا انهم قبلوا اتيان الفرنصيص ويحملون السنجاق
الفرنصاوى الذى هو احمر ابيض ازرق
الشرط الثانى كل بلد ومدشر ومدينة قبلوا ما ذكر يحملون مع السنجاق الفرنصاوى
سنجاق محبهم السلطان العثمانى الله يعظمه ويكرمه ويكون معه
الشرط الثالث اشياخ العرب والاكابر من سائر البلدان والقرى يجعل في جميع حوائجهم
واثاث ديارهم وجميع امتعتهم من قليل الاشياء وكثيرها جليلها وصغيرها طابع لكيلا
تتلف له مسئلة واحدة ولا تضع لهم من امتعتهم ولو قلمة ظفر
الشرط الرابع كل مدشر ومدينة بده يتشار مع الفرنصاوى فيحرقه ونمحوا اثره
الشرط الخامس كل شيخ او قاضى او امام يبقى على طريقته ودينه واشغاله ويبقون
في ديارهم ساكنين مامونين بانفسهم وعيالهم وامتعتهم ويصلون صلواتهم في المساجد
والمصلات ويبقون على مالهم ويعضوا على دين الاسلام بالنواجد
كل من سكان مصر يحمد الله على مجيء الفرنصاوى وعتقهم من يد باياتهم ويعملون
الافعال المونقات ويتركون الافعال الموبقات ويصلون ويصومون ويعملون الخيرات
والله تعلى يجعل المجد للسلطان العثمانى وينصره وينصر الجمهور الفرنصاوى
على اعدايه الكبار ويعاقب المايات المالك حتى يرجع مصر الى حالته يلمع
كشعاع الشمس.
ل وهذا كله منه حيلة وصنعة وخديعة للمسلمين وقد انفذ الله فيه وعده ملعون
ملعون ملعون من يثق به وقد عصى الله ورسوله ل :.

المصدر: أرشيف طوري دي طومبو، لشبونة، رقم M.N.E,C:299، مراسلات ١٧٩٨.

الملحق الرقم (٣)

رسالة من السلطان العثماني سليم الثالث إلى مولاي سليمان حول الحملة

جانب حضرت تاجدار ديدن جالو فاس ماكى المولى سليمان ابن المولى محمد جنابلرينه تحريرا ولنان عربي العبارة نامه همايونك سوده سيدر

٢٦٨

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي اخرج من كنزه المطلسم لدوام نظام العالم وتسوية امور بني آدم سلاطين ملوك الارض فجعل بهم طبائعهم المجبولة على الطغيان وقمع ازجتهم الغضبية بعدل الجور والعدوان والصلاة والسلام على النبي الابطحي الذي نسخت بشرائعه الشرائع وبدينه الاديان وخسفت ببدره الاقمار والاهلة واله واصحابه ما انبلج الصباح ونودي حي على الفلاح

محل الطغرا

غب اهداء ازهار تسليمات واتحاف انوار تحيات تتوالى توالي القطر المكرر في تلك الاقطار والاماكن التي باهلته الحرية بالبدور تنور الابصار تخص بذلك حوالي اعتابه الايم وردهى سيادة العز والكرم طود المجد الشامخ المنيف المرفوع على العلم بالنسب الشريف تاج هامة بني الحسن والحسين الجناب العالي مغرس ثمرات المعالي زهرة الشجرة العلوية فرع الدوحة النبوية المولى الهمام والمطراب القمقام الامجد ابن الامجد المولى سليمان ابن المولى محمد لا زال محط الركبان من الاطراف وربع المحامد منتجع الاشراف اما بعد الذي نخبر به اخانا في الله وعضونا في الدين محمد بن عبد الله عليه افضل صلوات الله واكمل تحيات الله هو انه قبل هذا كنا ارسلنا لطرفكم العزيز مكاتبة الملك العزيز بخفية انيقة تنبي عن احوال الطائفة الفرنساويه دمرهم الله تعالى بجاه محمد خير البريه بانهم الطائفة الخاسرون والشرذمة الملعونون ذوو مكر وفساد واهل بغي وعناد لا يؤمنون بوحدانية الله ولا يعترفون برسالة محمد بن عبد الله منكرون ليوم البعث والنشور [illegible] والنشور وهو يوم تذهل كل مرضعة عما ارضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ولا عقاب عند هؤلاء الملاحدة ولا حساب ولا جزاء ولا عذاب ولا سؤال ولا جواب معتقدون لعنهم الله بهذه الدنيا الدنية الفانية وغافلون عن الدار الآخرة الباقية فبئس ما اعتقدوه ولبئس ما كانوا يفعلون ومع هذا الاعتقاد الباطل والرأي العاطل انهم كفرة خائنون وفجرة فاسقون لان الذي ارتكبوه من الغدر والخيانة باهل الاسلام ما ارتكبه احد من عهد آدم عليه السلام حيث انهم قاتلهم الله هجموا بغتة واقتحموا غفلة من غير اطلاعنا على امورهم ولا اخبارهم ايانا من طرف جمهورهم كما هو عادة الدول والسلاطين الاول على مصر القاهرة وما حولها فغاروا [illegible] من الغدر والغفلة وتشتت الحال ونهب الاموال ما لا يوصف بقلم ولا يحصى برقم فلو انهم تلك الاماكن المطهرة واطلوا تلك المراقد المنورة وتحكموا في تلك الديار على علمائها الاعلام وصلحائها واشرافها وسادتها الكرام وهتكوا على نسائها المخدرات وصبيانها المعصومين وفتيانها المعصومات فرأينا هذه حادثة عظيمة وخطب جسيم لا يرضى به الله ولا رسوله ولا يحب ولا احد من المؤمنين بل تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض ونحن عند هذا الخطب وامر هذا الكرب توكلنا على الله وفوضنا امرنا الى الله فنشرنا اوامرنا العلية الى تلك الاقطار وسائر السواحل من المدن والامصار بل الى كل من في حوزة تصرفنا وداخل في دائرة ملكنا بان ياخذوا حذرهم واسلحتهم وعتادهم وعددهم ويجلبوا خيلهم ورجلهم ويجمعوا ابطالهم وبسلهم ويتحشدوا لاعلاء كلمة الله ويتجهزوا لمحافظة دين محمد ابن عبد الله وعينا قائدا وعسكرا للتوجه الى تلك الديار مع عسكر جرار لقمع اولئك الفجار ودفع شرور اولئك الاشرار ووزيرنا المكرم الحاج احمد باشا الجزار ادام الله اجلاله ويسر اماله وعددناه بادوات الحرب والذهب والات القتل والضرب والمهمات السائرة كاملة مكملة بانواعها واصنافها لعلهم ويقضوا فان شاء الله تعالى عن قريب تظهر غيرة الملك الجبار وغيرة رسوله المختار فلا يبقى من تلك الكفرة الفجرة اثر ولا من يرجع منهم بخبر ولكن نخبر اخانا في الله لا زال في حماية جده رسول الله انا رأينا طائفة الانكليزيين لهم معنا محبة قديمة ومودة مستديمة ومصادقة كاملة راسخة وغيرة ثابتة راسخة وهم قوم ذوو منعة وقوة والا باس وقوة مغروزة في قلوبهم قديما عداوة طائفة الفرنسه وركوزة في فؤادهم بغضا لتلك الاوباش بها وشغفهم بالحرب والضرب ابدا وحمدوهم ويبادروهم بالغارة والنهب حيثما لقوهم مترصدون لهم في الطرق لقطع ذهابهم واياباهم ويحرقون سفائنهم دفعا لاعانة عساكرهم المنحوسة وامدادهم فبناء على هذه اتفقنا واتحد تابع طائفة الانكليزيين في هذه القضية بعهود ومواثيق قوية على اعلان الحرب مع الفرنسه الملعونه ومعاضدة بعضنا بعضا في دفع تلك الطائفة الملعونة الى ان يطهر الله تعالى الديار المصرية من لوثهم

٩

وتخلص امة محمد عليه السلام من شرورهم وخبثهم فبعد ما صار اتفاقنا هذا معلوما لديكم نؤمل من اخوتكم الدينية ونخوتكم الهاشمية ان تعاملوا
طائفة الانكليزيين بمعاملة الاعدا ولا تتركوهم في نقلهم الذخاير الى جبلترة الكائنة تحت تصرفهم وضبطهم بل تمنعوا ساير قومهم
الذخائر فهو مورث لحفظنا الوافر لان النفع العائد عليهم هو عائد علينا وايضا هم راغبون في التجارة في نواحيكم ودياركم بافادة
بضايعكم لديارهم وجلب بعض بضايعهم لدياركم ولا يخفى ان في هذه نفع يعم الطرفين وربح يشمل الفريقين كالاموال بين الناس
في مطلوبهم وتوقفهم في رغبتهم اذ ليس في هذه منفعة بل كلها محض خير وامّا الطائفة الفرنسا وبين عليهم لعنة الله والملائكة
والناس اجمعين فالواجب على صلابتكم الدينية وغيرتكم الاسلامية ان لا تسامحوا في نقل الذخاير اليهم والى من يعاونهم ويسلك
في مسالكهم القبيحة ويرتكب ما ارتكبوه من الامور الفضيحة بل تقطع قرابهم ودوابرهم وتذهب بهاتهم وادواتهم وذخايرهم ونعاملهم بما
يضعف حالهم وتنقطعت بالرهم ويورث قوة اهل الاسلام وضعف تلك الخونة اللئام وذلك اعانة لدين جدكم محمد عليه السلام
وشريعته المطهرة الفائمة الى يوم القيام لان الخيانة التي ارتكبوها والملعنة التي سلكوها عائد ضررها على جميع الموحدين ومن يجب
التخلف عن دفعها الوزر على كافة المسلمين على الخصوص كل من كان ذا قوة وصاحب شوكة ودولة وهذه كلها قضايا بديهية
تتابع دينية لا تخفى على طبعكم الوقاد وذهنكم النقاد والحاصل انكما من طلعت ذلك السنيه وشملك العادة فيه ان تكونوا معنا
على قلب واحد بعضنا لبعض معاضد فتشمروا عن ساعد الجد والاجتهاد اعانة لدين الله ولشريعة محمد خير العباد فدفع هذه
البلية عن دين خير البرية عليه افضل الصلوة واكمل التحية والسلام على الدوام تحريرا في اليوم التاسع عشر من شهر شعبان
المعظم لسنة ثلث عشر ومأتين والف

مكاتبه مستطابه ... فاس حاكمی مولی سلیمان طرفندن وارد اولان عربی العباره مکتوبلرك ترجمه‌سیدر في اوائل ...

بعد الالقاب والدعا
[illegible]
[illegible]

المصدر : ... Defterleri, Defter no. 9, s.268-269, Osmanli, Basbakanlik Arisi, Istanbul, Turkiye.

الملحق الرقم (٤)

رسالة من الوزير محمد بن عبد السلام السلاوي
إلى القنصل الفرنسي حول خبر خروج الحملة من مصر

بسم الله الرحمن الرحيم وهو حسبي ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم



سجل 14499

الى الفرنصوا انطونيو تليكا اما بعد فقد بلغنا خبر ولا علمنا هل هو صحيح
ام كان بهتان من انه خرج منه البر انصيص وعاد لدار الاسلام والحمد لله رب
العالمين ولا علمنا بما ثبت عندك من ذلك الخبر ومن عزم على ما
[illegible] الينا ونحن [illegible] جوابنا
الى [illegible] البلد وذلك [illegible] الينا عن ما [illegible] والتاخير
او الفراغ بجوابنا عن ما [illegible] وكتب به اليكم في 23 [illegible] الثانية 1216

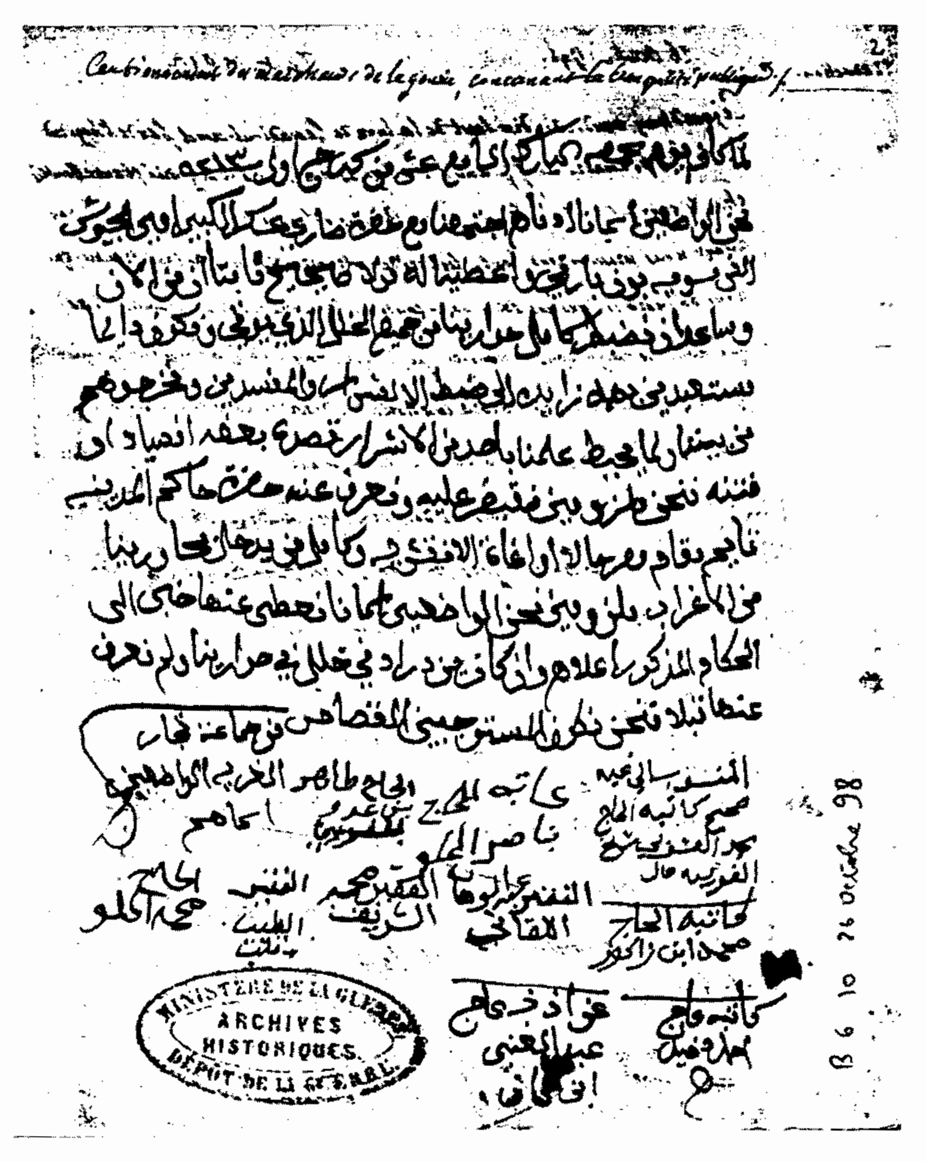


امر [illegible] محمد [illegible]
بن عبد السلام ارشده الله وتولاه

المصدر: مديرية الوثائق، الرباط، سجل ١٤٤٩٩.

الملحق الرقم (٥)

نص التعهد الذي التزم فيه تجار حي الغورية بالقاهرة، وأغلبهم من المغرب الأقصى، بالمحافظة على الهدوء العام عقب ثورة القاهرة الأولى


[illegible] concernant la tranquillité publique

لما كان يوم [illegible]

نحن الواضعين اسمائنا [illegible] اجتمعنا مع طائفة [illegible] عسكر الكبير ابي الجيوش

الذي [illegible] بونبارته واعطينا له [illegible]

وساعة [illegible] في جميع الخلل الذي [illegible]

[illegible] بجهد زايد [illegible] والمنسرين ونخرجوهم

من بيننا لما يحيط علمنا باحد من الاشرار [illegible] بعقد انعقاد او

فتنة نحن [illegible] ونعرف عنه حضرة حاكم المدينة

نايبهم [illegible] او اغاة الانكشارية وكذلك [illegible]

من الاغراب [illegible] نحن الواضعين اسمائنا ان نعطي عنها خبر الى

الحكام المذكورين اعلاه واذا كان [illegible] في خلل في [illegible] ولم نعرف

عنها فبلا نحن نكون المستوجبين القصاص من جماعة تجار

[illegible]

المصدر: A.M.G. 10



الملحق الرقم (٦)

رسالة من نابليون، أثناء وجوده بمصر، إلى مولاي سليمان يخبره فيها باعتنائه بالحجاج المغاربة

Au Caire, 28 thermidor, VII, (15 aout 1799)

Il n'y a de Dieu que Dieu, et Mahomet est son prophète !

Au Sultan du Maroc, serviteur de la Sainte Kasbah, puissant parmi les rois, et fidèle observateur de la loi du vrai prophète.

Nous profitons du retour du pélerins du Maroc pour vous écrire cette lettre et vous faire connaître que nous leur avons donné toute l'assistance qui était en nous, parce que notre intention est de faire, dans toutes les occasions, ce qui peut vous convaincre de l'estime que nous avons pour vous. Nous vous recommandons, en échange, de bien traiter tous les français qui sont dans vos Etats ou que le commerce pourrait y appeler.

المصدر : C.N., Lettre vol. 5, p. 720 n.4358.

الملحق الرقم (٧)

رسالة من القائد العام لجيش الشرق مونو إلى قنصل بلاده بالمغرب يطلب منه فيها إخبار مولاي سليمان بإمكانية إيفاد رعاياه إلى مصر للتجارة والحج

LIBERTÉ. ÉGALITÉ.

RÉPUBLIQUE FRANÇAISE.

ARMÉE D'ORIENT.

Au quartier-général du Caire le 1er Brumaire an 9 de la République Française, une et indivisible.

MENOU, Général en Chef,

Au Citoyen Consul de la République Française à Maroc.

Citoyen Consul, voulant employer tous les moyens possibles de faire connaître au premier Consul de la République l'[état] de l'Armée d'Orient, je vous prie de vouloir bien écrire au Général Bonaparte une lettre dans laquelle vous lui manderez que l'armée française d'Orient est dans le meilleur état, mais qu'elle attend avec empressement tout ce que le premier Consul a promis. Cet objet est extrêmement important et vous rendrez un grand service à la République [si] l'Empereur Mouley Soleyman peut envoyer en toute sûreté ses sujets en Égypte, soit pour le Commerce soit p[our]

se rendre en pélerinage à la Mekke. je vous prie de l'en assurer.

Si c'est le Consul d'Espagne qui ouvre cette lettre j'ai l'honneur de le prier au nom de l'alliance qui existe entre l'Espagne et la République française, de [illegible] bien faire passer en france la note cy dessus

Salut et haute Considération

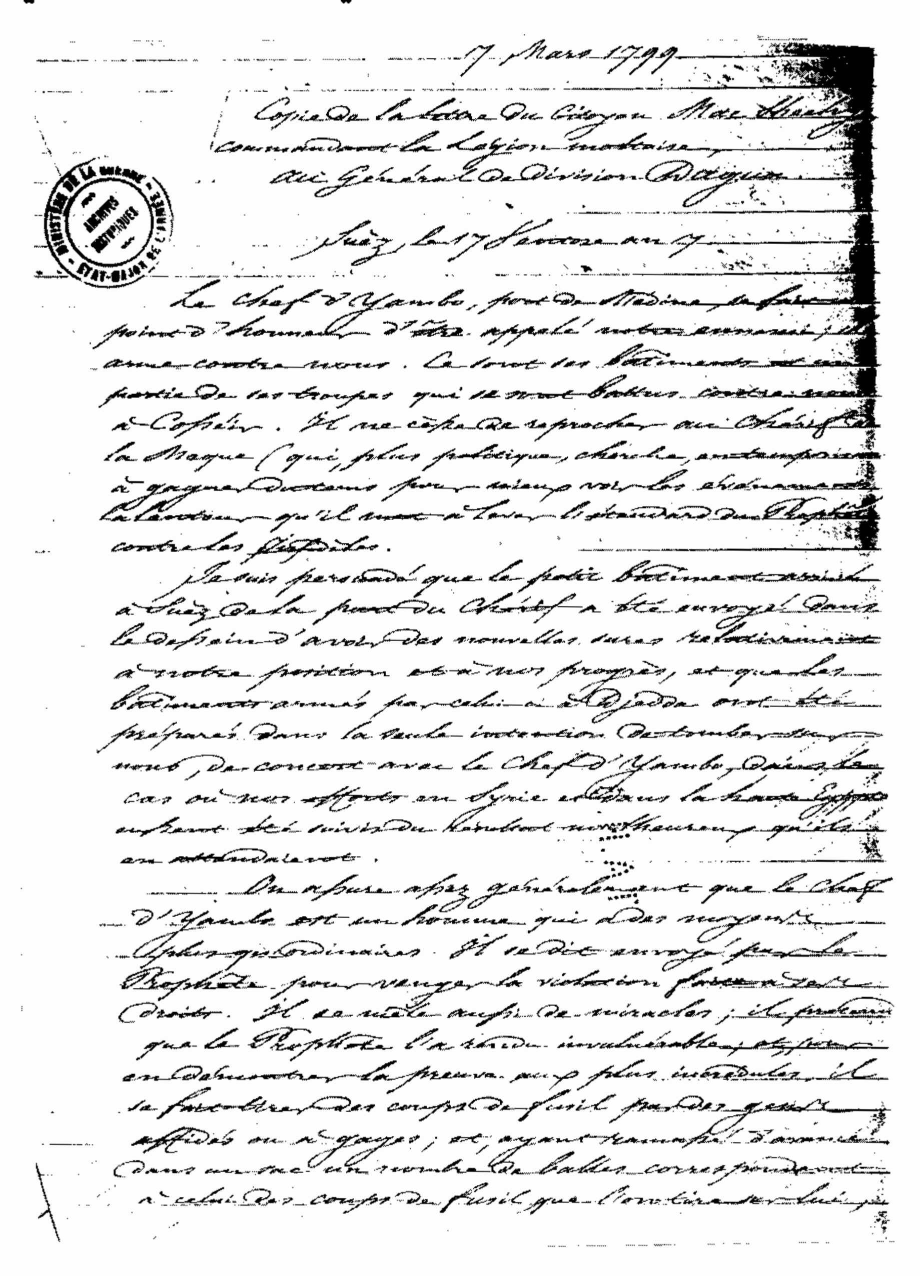
Abd. Menou

à Sa Majesté Muley Suleyman
l'Empereur de Maroc

A.A.E.P., C.C.C.,22, folio 36. المصدر:

الملحق الرقم (٨)

رسالة قائد حامية السويس ماك شيهي إلى حاكم القاهرة الجنرال دوكَا حول المجاهد المغربي الشيخ محمد الجيلاني



7 Mars 1799

Copie de la lettre du Citoyen Mac Sheehy
commandant la Légion nautique,
au Général de Division Dugua.

Suèz le 17 Ventôse an 7.

Le Chef d'Yambo, port de Médine, se fait point d'honneur d'être appelé notre ennemi; il arme contre nous. Ce sont ses bâtiments et une partie de ses troupes qui se sont battus contre nous à Cosséir. Il ne cesse de reprocher au Chérif de la Mecque (qui, plus politique, cherche, en temporisant à gagner du temps pour mieux voir les événements) la lenteur qu'il met à lever l'étendard du Prophète contre les infidèles.

Je suis persuadé que le petit bâtiment arrivé à Suèz de la part du Chérif a été envoyé dans le dessein d'avoir des nouvelles sures relativement à notre position et à nos progrès, et que les bâtiments armés par celui de Djedda ont été préparés dans la seule intention de tomber sur nous, de concert avec le Chef d'Yambo, dans le cas où nos efforts en Syrie et dans la haute Égypte n'eussent été suivis du résultat malheureux qu'ils en attendaient.

On assure assez généralement que le Chef d'Yambo est un homme qui a des moyens plus qu'ordinaires. Il se dit envoyé par le Prophète pour venger la violation faite à ses droits. Il se mêle aussi de miracles; il prétend que le Prophète l'a rendu invulnérable, et pour en démontrer la preuve aux plus incrédules, il se fait tirer des coups de fusil par des gens affidés ou à gages; et, ayant renfermé d'avance dans un sac un nombre de balles correspondant à celui des coups de fusil que l'on tire sur lui,

il assura que c'est Dieu qui opère ce miracle en sa faveur, qu'ainsi seront rendus inutiles tous les efforts de ses ennemis contre lui. La multitude effrayée s'écria : le saint homme ! il est sans doute protégé de Dieu et du Prophète. Par ce moyen et d'autres tours d'adresse semblables, cet homme s'est déjà fait des prosélytes en Arabie. Ne devrait-il pas important de détruire dans son origine, un mal si voisin, et qui pourrait devenir dangereux par la suite ? C'est du fond de cette même Arabie que Mahomet a fait étendre sa puissance sur la moitié la mieux peuplée du monde.

Signé Mac Sheehy.

Pour copie conforme :

Signé L'Aide de camp Savary.

Pour copie conforme à la pièce originale qui a été communiquée, en 1829, par M. le Lieutenant Général Comte Belliard, Pair de France, au Dépôt de la guerre.

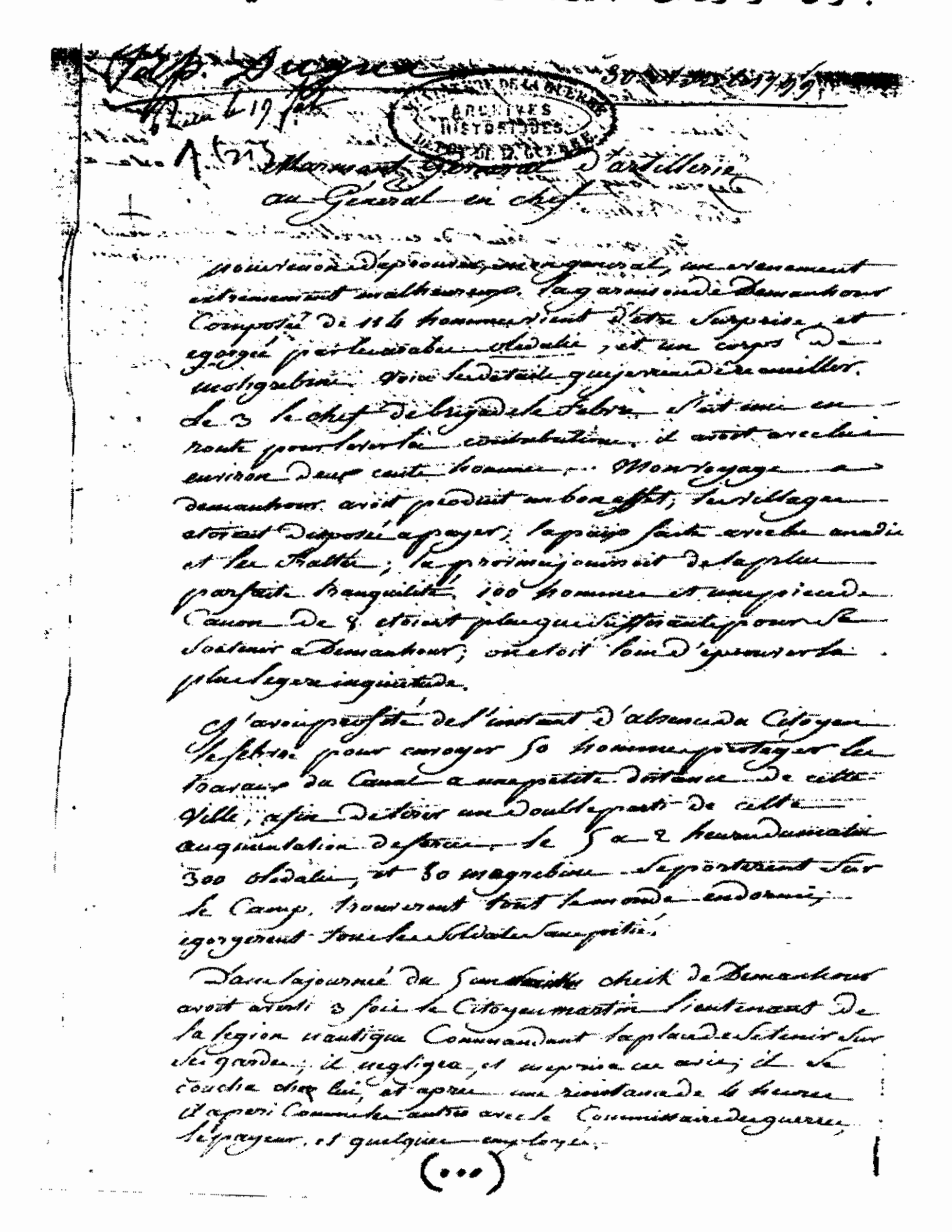
Le Maréchal de camp Directeur par intérim du Dépôt général de la guerre

[illegible]

المصدر : A.M.G.,$B^6$19.

الملحق الرقم (٩)

مقتطفات من تقرير مطول لحاكم الإسكندرية
الجنرال مارمون إلى نابليون حول المجاهد المغربي مولاي محمد



Marmont Général d'artillerie
au Général en chef

Nous venons d'éprouver, mon général, un événement extrêmement malheureux. La garnison de Damanhour composée de 116 hommes vient d'être surprise et égorgée par les arabes [illegible], et un corps de Moghrebins. Voici les détails que j'ai recueillis.

Le 3 le chef de brigade Lefebvre s'est mis en route pour lever la contribution, il avoit avec lui environ deux cents hommes. Mon voyage à Damanhour avoit produit un bon effet; les villages étoient disposés à payer; la paix faite avec les arabes et les [illegible]; le pays jouissoit de la plus parfaite tranquillité. 100 hommes et une pièce de canon de 8 étoient plus que suffisants pour se soutenir à Damanhour; on étoit loin d'éprouver la plus légère inquiétude.

J'avois profité de l'instant d'absence du citoyen Lefebvre pour envoyer 50 hommes protéger les travaux du canal à une petite distance de cette ville, afin de tirer un double parti de cette augmentation de forces. Le 5 à 2 heures du matin 300 [illegible], et 80 magrebins se portèrent sur le camp, trouvèrent tout le monde endormi, égorgèrent tous les soldats [illegible].

Dans la journée du 5 [illegible] cheik de Damanhour avoit averti 3 fois le citoyen Martin lieutenant de la légion nautique commandant la place de se tenir sur ses gardes; il négligea, et méprisa ces avis; il se coucha chez lui, et après une résistance de 4 heures il a péri comme les autres avec le commissaire des guerres, le payeur, et quelques employés.

(...)

(...)

[illegible]

Je vous remercie, mon Général, de la confiance que vous me témoignez en me destinant à défendre Alexandrie. C'est la plus grande récompense que je pusse obtenir. Je crois cependant pouvoir vous demander d'ajouter quelque chose à mes moyens en troupe.

Si j'eusse eu plutôt la permission de recruter les bataillons qui sont ici dans les marins, ils seraient aujourd'hui les plus forts de l'armée; mais le Contre amiral Perrée a presque tout emmené; le Citoyen Dumanoir a armé ses frégates et il ne reste plus rien.

Agréez, Mon Général, l'assurance de mon inviolable et respectueux attachement.

Signé Marmont

Les malheureux qui ont péri sont de la Légion Nautique.

Le Chef des Mangrabins est un fouqui, à ce que l'on répand partout fait des Miracles.

Les révoltés ont laissé la pièce de 8 à Damanhour après avoir brûlé son affût.

Le détachement du Cn Redon a eu 26 hommes tués et 20 blessés.

A.M.G., B[6]21. المصدر :

الملحق الرقم (١٠)

نص الأوامر التي أصدرها نابليون عقب عودته من حملة على الشام إلى حاكم القاهرة الجنرال دوكَا قصد حبس أو إعدام عدد من الثوار وجد بينهم عدد من المغاربة

Le Général en chef Bonaparte au Général Dugua:

1er messidor (19 juin). – Faites fusiller, Citoyen Général, tous les Maugrabins, Mecquains, etc. venus de la Haute Egypte et qui ont fait campagne contre nous.

Faites fusiller les deux Maugrabins Abd-Allah et Ahmed, qui ont invité les Turcs à l'insurrection.

Faites-vous donner par le capitaine Omar des notes sur les Maugrabins de sa compagnie qui sont arrêtés, et faites fusiller tous ceux qui se seraient mal conduits.

(...)

3 messidor (21 juin). – Le nommé Caraoué, prévenu d'être un des assassins du général Dupuy, sera fusillé.

(...)

Tous les déserteurs de la compagnie Omar seront interrogés, et vous m'enverrez les notes que donnera sur eux le capitaine Omar.

Vous me ferez passer l'interrogatoire de Dollah-Mohammed, derviche indien.

(...)

4 Messidor (22 juin). – Vous ferez fusiller, Citoyen Général, les sept hommes de la compagnie Omar que vous me désignez comme de mauvais sujets.

Le General Dugua au General en Chef Bonaparte : Le Caire, le 5 messidor an VII (23 juin 1799)

Réponses de Bonaparte	Général,
(...)	(...)
(...)	(...)
Accordé.	Les fusillades devenant fréqeuntes à la citadelle, je me propose ; Général, d'y substituer un coupeur de têtes. Cela ménagerait nos cartouches et ne ferait pas tant d'éclat.
En charger l'aga.	Les femmes publiques infestent les quatiers ; pour les en éloigner, il faut faire noyer celles qui seront prises dans les casernes.
Je vais donner des ordres en conséquence.	Le citoyen Dupas se plaint de ce que sa garnison est trop faible, Les prisonniers sont plus nombreux que les hommes destinés à les garder. Salut et respect, Dugua

المصدر: Clément de La Jonquière, *L'Expédition d'Egypte*, 5 vols. (Paris: C. Lavauzelle, 1899), vol. 5, pp. 230-231.

المراجــع

١ ـ العربية

وثائق

وثائق مديرية الوثائق بالرباط (ملف عهد مولاي سليمان ١٢٠٦ ـ ١٢٣٦): سجل رقم (١٤٥٠٠)، وسجل رقم (١٤٤٩٦).

وثائق وزارة الخارجية الفرنسية بباريس = Correspondance Consulaire et Commerciale (C.C.C.): tomes 21 (Maroc), 1789-1799; tomes 22 (Maroc), 1800-1806; tomes 34 (Algerie), 1798-1799; tomes 35 (Algerie), 1800-1801; tomes 36 (Tunisie), 1798-1800, et tomes 37 (Tunisie), 1801-1803.

مركز الأرشيفات الدبلوماسية بنانت: اعتمدنا بشكل خاص على السلسلة التالية من خلال أرقام محافظها المرفقة: Maroc, Consulat de Tanger, Série A1, 72, 74, 75, 87, 104, 110, 119, et Tripoly A97.

وثائق وزارة الحرب الفرنسية بقصر فانسان بباريس: اعتمدنا بشكل خاص على السلسلة التالية من خلال أرقام محافظها المرفقة: B^6: 10, 15, 18, 19, 20, 22, 43, 55, 63, 110, 132, 133.

وثائق الحملة، دار الوثائق، القاهرة: اعتمدنا بشكل خاص على الحافظات التالية من خلال أرقام ملفاتها المرفقة: حافظة رقم (٦)، ملف رقم (٨)؛ حافظة رقم (٧)، ملف رقم (٩)؛ حافظة رقم (٩)، ملف رقم (١)؛ حافظة رقم (٩)، ملف رقم (٢)؛ حافظة رقم (٩)، ملف رقم (٩)، وحافظة رقم (١٠)، ملف رقم (٧).

وثائق الحملة، جامعة القاهرة: اعتمدنا بشكل خاص على الحافظتين التاليتين: حافظة رقم (٨٣)، وحافظة رقم (٢٠٦).

دفاتر المحاكم الشرعية، القسمة العسكرية، دار الوثائق، القاهرة: اعتمدنا بشكل خاص على سجلات السنوات التالية من خلال موادها المرفقة: سجل رقم (٢٢٧)، مادة رقم (٤٣٩)، سنة ١٢١٢؛ سجل رقم (٢٢٩)، مادة رقم (٤٣٠)، سنة ١٢١٣؛ سجل رقم (٢٢٩)، مادة رقم (٢٧٦)، سنة ١٢١٥؛ سجل رقم (٢٢٩)، مادة رقم (٢٨٢)، سنة ١٢١٥؛ سجل رقم (٢٢٩)، مادة رقم (٦٨٧)، سنة ١٢١٥، وسجل رقم (٢٢٩)، مادة رقم (٨٠٧)، سنة ١٢١٥.

وثائق المفوضية الأمريكية سابقا بطنجة: اعتمدنا على المجموعة رقم T.61، المجلد الرقم (١) الذي يغطي المرحلة الممتدة من ١٧٩٧ إلى ١٨٠٦.

دفاتر نامهء همايون بإسطانبول (N.H.D.): اعتمدنا بشكل خاص على الدفتر الرقم (٩) الذي يوجد ضمن الفترة الممتدة من ١٧٧٢ إلى ١٨٠٣.

كتب

آفا، عمر. **تاريخ المغرب المعاصر: دراسات في المصادر والمجتمع والاقتصاد.** الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ٢٠٠٢. (بحوث ودراسات؛ ٣٤)

ابن أبي الضياف، أبو العباس أحمد بن عمر. **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**. تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٧٦ ـ ١٩٧٩. ٨ ج.

ابن إياس، محمد بن أحمد. **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، تحقيق محمد مصطفى. القاهرة: مطابع الشعب، ١٩٦١. ١١ ج. (سلسلة كتاب الشعب)

ابن جبير، محمد بن أحمد. **رحلة ابن جبير**. بيروت: الشركة العالمية للكتاب، [د. ت.].

ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد. **المقدمة**. ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة؛ راجعه سهيل زكار. بيروت: دار الفكر، ١٩٨١.

ابن زيدان، عبد الرحمن بن محمد. **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس أو عبير الآس من روض تاريخ مكناس أو حسن الإقتباس من مفاخر الدولة العلوية وتاريخ مكناس. الرباط**: المطبعة الوطنية، ١٩٢٩ ـ ١٩٣٣. ٥ مج

ـــــــ. **العلائق السياسية للدولة العلوية**. تقديم وتحقيق عبد اللطيف الشاذلي. الرباط: المطبعة الملكية، ١٩٩٩.

ابن سحنون، أحمد بن محمد بن علي. **الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني**. تحقيق المهدي البوعبدلي. الجزائر: منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، ١٩٧١.

الأزمي، أحمد. **الطريقة التجانية في المغرب والسودان الغربي خلال القرن التاسع عشر**. الرباط: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م. ٣ ج.

أكنسوس، محمد بن أحمد. **الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا السجلماسي**. تحقيق أحمد بن يوسف الكنسوسي. مراكش: المطبعة والوراقة الوطنية، ١٩٩٤.

بدوي، محمد طه. **مدخل إلى علم العلاقات الدولية**. بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨٦.

البزاز، محمد الأمين. **تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**. الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٩٩٢. (رسائل وأطروحات؛ ١٨)

بن إبراهيم، العباس. **الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الاعلام**. فاس: المطبعة الجديدة، ١٩٣٦ ـ ١٩٣٧. ٢ مج.

بن حادة، عبد الرحيم. **المغرب والباب العالي: من منتصف القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر**. زغوان: مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، ١٩٩٨.

بن الصغير، خالد. **المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر (١٨٥٦ ـ ١٨٨٦)**. تقديم جرمان عياش. الدار البيضاء: دار ولادة، ١٩٩٠.

بن عبد القادر، مسلم. **أنيس الغريب والمسافر في طرائف الحكايات والنوادر أو تاريخ بايات وهران المتأخر**. تحقيق وتقديم رابح بونار. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٧٤. (ذخائر المغرب العربي)

بن عبود، امحمد أحمد. **مركز الأجانب في المغرب: دراسة قانونية لوضعية الأجانب في المغرب قبل عهد الحماية وخلاله**. ط ٢. تطوان: مطبعة الشويخ «ديسبريس»، ١٩٨٠.

التازي، عبد الهادي. **أوقاف المغاربة في القدس: وثيقة تاريخية سياسية قانونية**. المحمدية: مطبعة فضالة، ١٩٨١.

ـــــ . **التاريخ الدبلوماسي للمغرب**. المحمدية: مطبعة فضالة، ١٩٨٨. ١٠ مج.

التر، عبد العزيز سامح. **الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية**. ترجمة محمود علي عامر. بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨٩.

الترك، نقولا. **حملة بونابرت إلى الشرق**، دراسة وتحقيق أمل بشور. بيروت: جروس برس، ١٩٩٣.

تيمور، أحمد. **الرتب والألقاب المصرية لرجال الجيش والهيئات العلمية والقلمية منذ عهد أمير المؤمنين عمر الفاروق**. القاهرة: دار الكتاب العربي، ١٩٥٠.

الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن. **تاريخ مدة الفرنسيس بمصر، محرم ـ رجب ١٢١٣هـ، ١٠ يونيو ـ ديسمبر ١٧٩٨م**. قدّم له وحققه وترجمه [إلى الإنجليزية] ش. موريه. ليدن: إ. ج. بريل، ١٩٧٥.

ـــــ . **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**. بيروت: دار الجيل، [د. ت.]. ٣ ج.

ـــــ . **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**. إعداد وتحقيق جمال الدين عبد العزيز. القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٧. ٥ ج. (صفحات من تاريخ مصر؛ ٣٧)

ج ٤: **الغزوة الفرنسية**.

ـــــ . **مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس**. تحقيق ودراسة وتعليق عبد الرزاق عيسى وعماد أحمد هلال. القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، ١٩٩٨. ٢ ج.

جحاف، لطف الله بن أحمد. **حوليات المؤرخ جحاف: السنوات الأولى من سيرة المهدي عبد الله، ١٢٣١ ـ ١٢٣٣هـ/ ١٨١٦ ـ ١٨١٨م**. دمشق: دار الفكر، ١٩٩٨.

الجراري، عباس. **النضال في الشعر العربي بالمغرب من ١٨٣٠ إلى ١٩١٢**. ط ٢. الدار البيضاء: دار الثقافة، ١٩٧٨.

حمان، عبد الحفيظ. **المغرب والثورة الفرنسية**. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، ٢٠٠٢.

حمودي، عبد الله. **الشيخ والمريد: النسق الثقافي للسلطة في المجتمعات العربية الحديثة**. ترجمة عبد المجيد جحفة. الدار البيضاء: دار توبقال، ١٩٩٩.

الحوات، سليمان بن محمد بن عبد الله. **الروضة المقصودة والحلل الممدودة في مآثر بني سودة**. دراسة وتحقيق عبد العزيز تيلاني. فاس: مؤسسة أحمد بن سودة الثقافية، ١٩٩٤. ٢ مج.

حيمر، عبد السلام. **النخبة المغربية وإشكالية التحديث**. الدار البيضاء: دار الملتقى، ٢٠٠١.

الجزائري، محمد بن عبد القادر. **تحفة الزائر في أخبار الجزائر والأمير عبد القادر**. شرح وتعليق محمود حقي. بيروت: دار اليقظة العربية، ١٩٦٤.

داود، محمد. **تاريخ تطوان**. تطوان: المطبعة المهدية، ١٩٦٥. ٦ ج.

الداردنلي، عزت حسن أفندي. **الحملة الفرنسية على مصر في ضوء مخطوط عثماني: مخطوطة «ضيانامة»**. دراسة وترجمة جمال سعيد عبد الغني. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩. (تاريخ المصريين؛ ١٣٤)

ذكريات الشوكاني: رسائل المؤرخ اليمني محمد بن علي الشوكاني. جمع وتحقيق صلاح رمضان محمود. بيروت: دار العودة، ١٩٨٣.

الرافعي، عبد الرحمن. **تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر**. ط ٤. القاهرة: دار المعارف، ١٩٨١. ٢ ج.

ـــــ. **عصر محمد علي**. ط ٥. القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٩.

رزق، يونان لبيب ومحمد مزين. **العلاقات المغربية ـ المصرية منذ مطلع العصور الحديثة العصور الحديثة حتى عام ١٩١٢**. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠.

رزوق، محمد. **دراسات في تاريخ المغرب**. الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، ١٩٩١.

رمضان، مصطفى محمد. **دور الأزهر في الحياة المصرية إبان الحملة الفرنسية ومطلع القرن التاسع عشر**. القاهرة: مطبعة الجبلاوي، ١٩٨٦.

الرهوني، أبو عبد الله سيدي محمد. **الخطب المنبرية في الجمع والأعياد والكسوف والاستسقاء السنوية**. القاهرة: مطبعة حجازي، ١٩٣٦.

روجرز، فيليب جورج. **تاريخ العلاقات الإنجليزية ـ المغربية حتى عام ١٩٠٠**. ترجمة ودراسة وتعليق يونان لبيب رزق. الدار البيضاء: دار الثقافة، ١٩٨٢.

رينوفان، بيير وجان باتيست دوروزيل. **مدخل إلى تاريخ العلاقات الدولية**. ترجمة فايز كم نقش؛ قدّم له نور الدين حاطوم. ط ٢. بيروت؛ باريس: منشورات بحر المتوسط؛ منشورات عويدات، ١٩٨٢.

الزركلي، خير الدين. **الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**. ط ٧. بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٦. ٨ ج.

الزياني، أبو القاسم بن أحمد بن علي. **«الترجمانة الكبرى» في أخبار المعمور براً وبحراً**. حققه وعلّق عليه عبد الكريم الفيلالي. الرباط: دار النشر للمعرفة، ١٩٩١.

الزياني، محمد بن يوسف. **دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران**. تقديم وتعليق المهدي البوعبدلي. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الشركة الوطنية، ١٩٧٩. (النصوص والدراسات التاريخية؛ ٢)

السباعي، صالح بن بكار. **الأنس والإمتاع في أعلام الأشراف أولاد أبي السباع**. مراكش: دار وليلي للطباعة والنشر، ٢٠٠٠.

السباعي، عبد الله بن عبد المعطي. **الدفاع وقطع النزاع عن نسب الشرفاء أبناء أبي السباع**. تصحيح محمد الموقت المراكشي. الرباط: المطبعة الاقتصادية، ١٩٤٠.

سعد، أحمد صادق. **تاريخ العرب الاجتماعي: تحول التكوين المصري من النمط الاسيوي إلى النمط الرأسمالي**. بيروت: دار الحداثة للطباعة والنشر، ١٩٨١.

السلاوي، محمد أديب. **الشعر المغربي: مقاربة تاريخية**. الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، ١٩٨٦.

سليمان، أحمد السعيد. **تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدَخيل**. القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٩.

السيد الطوخي، نبيل. **صعيد مصر في عهد الحملة الفرنسية، ١٧٩٨ ـ ١٨٠١**. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧.

شروتر، دانييل. **تجار الصويرة: المجتمع الحضري والإمبريالية في جنوب غرب المغرب، ١٨٤٤ ـ ١٨٨٦**. **تعريب** خالد الصغير. الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٩٩٧. (سلسلة نصوص وأعمال مترجمة)

شكري، محمد فؤاد. **عبد الله جاك مونو وخروج الفرنسيين من مصر**. القاهرة: جماعة الأزهر للنشر والتأليف، ١٩٥٢.

صحف بونابرت في مصر، ١٧٩٨ ـ ١٨٠١. ترجمة صلاح الدين البستاني. القاهرة: دار العرب للبستاني، ١٩٨١. ١٠ مج.

الصغير، عبد المجيد. **من تاريخ التصوف المغربي: إشكالية إصلاح الفكر الصوفي في القرنين ١٨ ـ ١٩م: أحمد ابن عجيبة ومحمد الحراق**. ط ٢. الدار البيضاء: دار الآفاق الجديدة، ١٩٩٤.

ضريف، محمد. **مؤسسة السلطان الشريف بالمغرب: محاولة في التركيب**. الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، ١٩٨٨.

الضعيف، محمد. **تاريخ الضعيف: تاريخ الدولة السعيدة.** تحقيق وتعليق وتقديم أحمد العماري. الرباط: دار المأثورات، ١٩٨٦.

ـــــ . **تاريخ الضعيف الرباطي: تاريخ الدولة العلوية السعيدة من نشأتها إلى أواخر عهد المولى سليمان، ١٠٤٣هـ/ ١٦٣٣م ـ ١٢٣٨هـ/ ١٨١٢م.** دراسة وتحقيق محمد البوزيدي الشيخي. الدار البيضاء: دار الثقافة، ١٩٨٨. ٢ مج.

طوسون، عمر. **صفحة من تاريخ مصر في عهد محمد علي: الجيش المصري البري والبحري.** القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٤٠.

عبد الرحيم، عبد الرحيم عبد الرحمن. **فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني.** القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠.

عبد المعطي، حسام محمد. **العلاقات المصرية الحجازية في القرن الثامن عشر.** القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩.

العسلي، بسام. **نابليون بونابرت (١٧٦٨ ـ ١٨٢١).** بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠.

علي، أحمد. **الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام منذ نهاية القرن الخامس وحتى نهاية القرن التاسع الهجري.** دمشق: دار طلاس للدراسات والنشر والترجمة، ١٩٨٩.

العماري، أحمد. **نظرية الاستعداد في المواجهة الحضارية للاستعمار: المغرب نموذجاً.** فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٧. (سلسلة الرسائل الجامعية، قضايا الفكر الإسلامي؛ ٢٠)

العنتري، صالح. **مجاعات قسنطينة.** تحقيق وتقديم رابح بونار. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٧٤. (ذخائر المغرب العربي)

عوض، أحمد حافظ. **فتح مصر الحديث أو نابليون بونابرت.** القاهرة: مطبعة مصر، ١٩٢٥.

الفاسي، محمد. **معلمة الملحون.** المحمدية: مطبعة فضالة، ١٩٨٦. ٤ ج. (سلسلة التراث)

ج ٣: **روائع الملحون.**

الفكيكي، حسن. **المقاومة المغربية للوجود الإسباني بمليلية (١٦٩٧ ـ ١٨٥٩)**. الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٩٩٧. (رسائل وأطروحات؛ ٣٩)

الكتاني، محمد بن عبد الكبير بن هاشم. **زهر الآس في بيوتات أهل فاس، ويليه تحفة الأكياس ومفاكهة الجلاس فيما غفل عنه صاحب زهر الآس في بيوتات أهل فاس**. تحقيق علي بن المنتصر الكتاني. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، ٢٠٠٢. ٢ مج. (الموسوعة الكتانية لتاريخ فاس؛ ١ ـ ٢)

الكتاني، عبد الحي بن عبد الكبير. **فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات**. باعتناء إحسان عباس. ط ٢. بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٦ ـ ١٩٨٢. ٣ ج.

كشك، جلال. **ودخلت الخيل الأزهر**. القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٩٩٠.

كمال الدين، حسين عبد الرحيم. **بونابرت والقصير والمعارك الرئيسية في جنوب الصعيد**. القاهرة: مطابع الأهرام، ١٩٩٦.

لورنس، هنري. **الحملة الفرنسية في مصر**. ترجمة بشير السباعي. القاهرة: دار سينا للنشر، ١٩٩٥.

مبارك، علي. **الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة**. بولاق: المطبعة الكبرى الأميرية، ١٣٠٤ ـ ١٣٠٦هـ/ ١٨٨٦ ـ ١٨٨٨م. ٢٠ ج.

متنوعات محمد حجي. بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٨.

مجموعة من الباحثين. **مذكرات من التراث المغربي**. إشراف العربي الصقلي. الرباط: نور أركنزاسيون، ١٩٨٤ ـ ١٩٨٦. ٨ مج.

مج ٤: **من العظمة إلى المؤامرات والدسائس، ١٠٧٦ ـ ١٣٢٤هـ، موافق ١٦٦٦ ـ ١٩٠٦م**.

المريني، عبد الحق. **شعر الجهاد في الأدب المغربي: من عهد الأمير يوسف بن تاشفين المرابطي حتى عهد السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام العلوي**. المحمدية: مطبعة فضالة، ١٩٦٩.

المزاري، الآغا بن عودة. **طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر**. تحقيق ودراسة يحيى بوعزيز. بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٠. ٢ مج.

مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر، ١١٦٨ ـ ١٢٤٦هـ/ ١٧٥٤ ـ ١٨٣٠م. تحقيق أحمد توفيق المدني. ط ٢. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٨٠. (ذخائر المغرب العربي)

المنوني، محمد. **ركب الحاج المغربي**. تطوان: معهد مولاي الحسن، مطبعة المخزن، ١٩٥٣.

ـــــ. **مظاهر يقظة المغرب الحديث**. ط ٢. الدار البيضاء: شركة النشر والتوزيع المدارس، ١٩٨٥.

المواهبي، محمد الهبطي. **مصابيح ولاية القنيطرة**. الرباط: نداكوم للصحافة والطباعة، ٢٠٠٢.

المودن، عبد الرحمن. **البوادي المغربية قبل الاستعمار: قبائل إيناون والمخزن بين القرن السادس عشر والتاسع عشر**. الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٩٩٥. (رسائل وأطروحات؛ ٢٥)

موسوعة أعلام المغرب، من ١ إلى ١٤٠٠هـ. تنسيق وتحقيق محمد حجي. بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٦. ١٠ ج.

موسوعة وصف مصر. ترجمة زهير الشايب. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢. ٩ ج.

مورو، محمد. **صفحات من كفاح الشعب المسلم في مصر، ١٧٩٨ ـ ١٨٠٧**. القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٩٩٢.

الناصري، أحمد بن خالد. **كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**. تحقيق وتعليق أحمد الناصري؛ أشرف على النشر محمد حجي، إبراهيم بوطالب وأحمد التوفيق. الرباط: منشورات وزارة الثقافة، ٢٠٠٠. ٩ مج.

الناصري، محمد بن عبد السلام. **الرحلة الصغرى**.

نصوص يمنية عن الحملة الفرنسية على مصر. نشر وتحقيق سيد مصطفى سالم. صنعاء: مركز الدراسات اليمنية، ١٩٨٩.

هيرولد، كريستوفر. **بونابرت في مصر**. ترجمة فؤاد أندراوس؛ مراجعة محمد أحمد أنيس. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨.

الوافي، محمد عبد الكريم. **في تاريخ العرب الحديث: يوسف باشا القرمانلي والحملة الفرنسية على مصر**. طرابلس، ليبيا: المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ١٩٨٤.

يعلى، محمد [وآخرون]. **وقفات في تاريخ المغرب: دراسات مهداة للأستاذ إبراهيم بوطالب**. تنسيق عبد المجيد القدروي. الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ٢٠٠١. (بحوث ودراسات؛ ٢٧)

دوريات

الأزمي، أحمد. «التعريف بمؤسسة الزاوية التيجانية بفاس.» مجلة **أمل**: السنة ٧، العددان ١٩ ـ ٢٠، ٢٠٠٠.

بركات، علي. «مائتا عام على الحملة الفرنسية: القرية المصرية في مواجهة الغزو الفرنسي.» **مجلة إبداع** (القاهرة): العدد ٨، ١٩٩٦.

بن حادة، عبد الرحيم. «وثائق مغربية حول علاقة مولاي سليمان بالدولة العثمانية.» مجلة **هيسبيريس تمودا**: السنة ٢، العدد ٣٥، ١٩٩٧.

التازي، عبد الوهاب. «رواق المغاربة بالأزهر الشريف.» **دعوة الحق**: حزيران/يونيو ١٩٨٣.

ـــــ. «الشعر في خدمة التاريخ الدولي للمغرب.» **مجلة كلية الآداب** (بني ملال): العدد ١، ١٩٩٥.

التمسماني، خلوق. «المغرب عند نهاية القرن الثامن عشر: معاهدة فاتح مارس ١٧٩٩.» **مجلة دار النيابة** (تطوان): العددان ٢٦ ـ ٢٧، ١٩٩٠.

الحراق، فاطمة. «المساعي المغربية من أجل استرجاع مدينة سبتة.» **مجلة البحث العلمي** (الرباط): العددان ٢٩ ـ ٣٠، ١٩٧٩.

حمودي، عبد الله. «المهدوية كإديولوجية سياسية بالمغرب.» **المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي**: العدد ٣، حزيران/يونيو ١٩٨٧.

حواش، محمد. «قراءة في وثيقة مغربية حول أحمد باشا الجزار «المهدي المنتظر».» **مجلة كلية الآداب** (بني ملال): العدد ٢، ١٩٩٧.

الخداري، محمد. «درقاوة والمخزن في عهد مولاي سليمان (١٧٩٢ ـ ١٨٢٢).» مجلة **أمل**: العددان ٢٢ ـ ٢٣، ٢٠٠١.

الزبيدي، سلمان لفتة. «علاقة عُمان مع القوى الأوروبية في عهد سلطان بن أحمد.» **مجلة الوثيقة** (البحرين): [د. ت.].

زغلول، عبد الحميد. «العلاقة بين صلاح الدين الأيوبي ويعقوب المنصور الموحدي.» **مجلة كلية الآداب** (جامعة الإسكندرية): ١٩٥٣.

السرياني، محمد محمود. «رحلة الحج البرية من أقطار غربي إفريقيا ووسطها إلى مكة المكرمة.» **مجلة الدارة**: السنة ٢٦، العددان ١ ـ ٢، محرم ـ ربيع الثاني، ١٤٢١هـ ـ نيسان/ أبريل ـ تموز/ يوليو ٢٠٠٠.

الصباغ، ليلى. «الوجود المغربي في المشرق المتوسطي في العصر الحديث.» **المجلة التاريخية المغاربية**: العددان ٧ ـ ٨، ١٩٧٧.

عبد الرحيم، عبد الرحيم عبد الرحمن. «دور المغاربة في تاريخ مصر في العصر الحديث (القسم الأول).» **المجلة التاريخية المغاربية** (تونس): العددان ١٠ ـ ١١، كانون الثاني/ يناير ١٩٧٨.

ـــــ . «وثائق محكمة الإسكندرية.» **المجلة التاريخية المغاربية**: أيار/ مايو ١٩٩٥.

عزباوي، عبد الله. «الروابط الثقافية بين مصر وبلاد المغرب في القرن الثامن عشر.» **المجلة التاريخية المغاربية**: العددان ١٩ ـ ٢٠، ١٩٨٠.

العلوي، هاشم. «حركة المهدوية في الغرب الإسلامي، ٨٦٥م ـ ١٦٤٠م.» **مجلة كلية الآداب** (فاس ظهر المهراز): العدد ١٠، ١٩٨٩.

العمروسي، شفيق شوكت. «المكيون في مصر، دور عرب الجزيرة في مقاومة الحملة الفرنسية.» **مجلة الدارة** (الرياض): العدد ١، حزيران/ يونيو ١٩٨٤.

عناني، محمد زكريا. «مراسلات متبادلة بين الشريف غالب بن مساعد وبين نابليون ورجال حملته على الشرق.» **مجلة الدارة** (الرياض): العدد ٣، جمادى الثانية ١٤٠١هـ ـ نيسان/ أبريل ١٩٨١م.

الفاسي، محمد. «مشاركة المغرب في جهاد المصري للحملة الفرنسية.» **مجلة دعوة الحق**: السنة ١٦، العددان ٤ ـ ٥، ١٩٧٤.

المنصور، محمد. «الجهود المغربية من أجل استرجاع مدينة سبتة على عهد مولاي سليمان.» **مجلة كلية الآداب** (الرباط): العددان ٥ ـ ٦، ١٩٧٩.

المنوني، محمد. «أدب المغرب البطولي في القرن التاسع عشر.» **آفاق**: العدد ١، ١٩٦٤.

ـــــ. «نماذج من مساهمات الغرب الإسلامي في الحروب الصليبية بالشام وما إليها.» **مجلة كلية الآداب** (الرباط): العددان ٢١ ـ ٢٢، ١٩٨٩.

«نظيمة الزوايا في علاقتها بالمجتمع والسلطة (ملف).» مجلة **أمل**: السنة ٧، العددان ١٩ ـ ٢٠، ٢٠٠٠؛ العدد ٢٢، ٢٠٠١، والعدد ٢٣، ٢٠٠١.

ندوات، مؤتمرات

التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب: أعمال الندوة [المنعقدة] أيام ٢١، ٢٢، ٢٣ فبراير ١٩٨٩ التي نظّمتها كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بعين الشق، الدار البيضاء. المحمدية: مطبعة فضالة، ١٩٩٥. ٢ ج.

الجهاد البحري في التاريخ العربي الإسلامي: [أعمال] الندوة الدولية المنعقدة في سلا ٣٠ ـ ٣١ مايو/ ١ ـ ٢ يونيو ١٩٩٧. نظّمتها جمعية أبي رقراق واللجنة الدولية للتاريخ البحري. سلا: مطابع ميثاق المغرب، ١٩٩٩.

دراسات في الأدب والتاريخ التركي والمصري: أعمال ندوة نظمتها كلية الآداب بعين شمس، القاهرة، أيام ١ ـ ٤ مارس ١٩٨٥. إشراف أحمد فؤاد متولي. القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٨٩.

عبد الرحمن الجبرتي: دراسات وبحوث: أعمال الندوة التي نظمتها «الجمعية المصرية للدراسات التاريخية» من ١٦ ـ ٢٣ أبريل ١٩٧٤. بإشراف أحمد عزت عبد الكريم. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦.

العثمانيون والعالم المتوسطي: مقاربات جديدة: [أعمال الندوة التي عقدت برحاب كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ما بين ١٨ ـ ٢٠ أبريل ٢٠٠٢]. [نظّمتها وحدة التكوين والبحث، المغرب والعالم الإسلامي ١٥٠٠ ـ ١٩٠٠]. تنسيق عبد الرحمن المودن وعبد الرحيم بن حادة. الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ٢٠٠٣.

العلاقات التاريخية المصرية المغربية: رصيد وآفاق الندوة [المنعقدة] أيام ١٨، ١٩، ٢٠ ١٩٨٨ بسلا. نظّمتها جمعية أبي رقراق بالتعاون مع وزارة الثقافة؛ إعداد نجاة المريني. الدار البيضاء: دار الثقافة، ١٩٨٩.

العلاقات المصرية المغربية: الندوة الثانية، القاهرة من ٢٥ إلى ٢٧ يناير ١٩٩٠. نظمتها وزارة الثقافة المصرية بالتعاون مع جمعية أبي رقراق الثقافية؛ إعداد حسن حنفي. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢.

العلم والعلماء بمنطقة الغرب إلى سنة ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م: [أعمال الندوة المنعقدة بالقنيطرة، ٢١ ـ ٢٢ فبراير ٢٠٠٣]. نظّمها المجلس العلمي لجهة الغرب الشراردة بني احسن. القنيطرة: المجلس العلمي لولاية جهة الغرب الشراردة بني احسن، ٢٠٠٤.

المغرب ـ المشرق: العلاقات والصورة (أعمال ندوتي مارس ١٩٩٤، ونونمبر ١٩٩٧). تنظيم مجموعة الدراسات والأبحاث في العلاقات المغربية المشرقية. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، ١٩٩٩.

المؤتمر الدولي للعلاقات المصرية المغربية عبر التاريخ. تنظيم كلية الآداب، جامعة حلوان ـ مصر بالتعاون مع كلية الآداب، عين الشق، جامعة الحسن الثاني. القاهرة: مطابع جامعة حلوان، ٢٠٠٣.

الوثائق المرجعية لعهد السلطان مولاي سليمان، العمل الداخلي والسياسة الخارجية للسطان مولاي سليمان، الإنجازات الثقافية والعمرانية على عهد السلطان مولاي سليمان: أعمال الدورة الرابعة التي عقدت أيام ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١ دجنبر ١٩٩٢. الرباط: مطبعة الأمنية، ١٩٩٤.

رسائل جامعية، أطروحات

بنهاشم، محمد. «السياسة الخارجية المغربية في عهد السلطان مولاي سليمان (١٧٩٢ ـ ١٨٢٢).» (دبلوم الدراسات العليا، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب، شعبة التاريخ، فاس، ١٩٨٦ ـ ١٩٨٧).

البوزيدي، محمد الشيخي. «العلاقات المغربية الخارجية في القرن الثامن عشر من خلال المصادر المغربية،» (أطروحة دكتوراه الدولة، شعبة التاريخ، كلية الآداب، بني ملال، ٢٠٠٠ ـ ٢٠٠١).

الحمراوي، فاطمة. «الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في مصر في عهد الحملة الفرنسية.» (رسالة ماجستير في التاريخ، جامعة القاهرة، قسم التاريخ، ١٩٨٨).

الحناوي، محمد. «الإسكندرية في عهد الحملة الفرنسية.» (رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة المنيا، قسم التاريخ، ١٩٨٥).

الحيمر، عبد الحق. «الأمداح السليمانية لأبي الربيع سليمان الحوات.» (رسالة جامعية لنيل دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب، ظهر المهراز، فاس، ١٩٨٥).

الغربي، الغالي. «الثورات الشعبية في الجزائر أثناء العهد التركي (١٧٩٢ ـ ١٨٣٠).» (رسالة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الحديث، جامعة دمشق، كلية الآداب، ١٩٨٤ ـ ١٩٨٥).

الكنفاني، مولاي الحسن. «قبيلة أولاد أبي السباع في القرن التاسع عشر.» (دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب، الرباط، ١٩٨٧ ـ ١٩٨٨).

المكناسي، محمد بن عثمان. «البدر السافر في افتكاك الأسارى من العدو الكافر.» تحقيق مليكة الزاهدي (دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب، شعبة التاريخ، الرباط، ١٩٩٥ ـ ١٩٩٦).

المنصوري، عثمان. «العلاقات المغربية ـ البرتغالية (١٧٩٠ ـ ١٨٤٤).» (أطروحة دكتوراه دولة، غير منشورة، كلية الآداب، شعبة التاريخ، عين الشق، ٢٠٠١ ـ ٢٠٠٢). ٣ ج.

٢ ـ الأجنبية

Books

Bernoyer, François. *Avec Bonaparte en ègypte et en Syrie, 1798-1800: 19 lettres inédites*. Retrouvées et présentées par Christian Tortel. 2ème éd. Poet-Laval: Editions Curandera, 1981. (Collection Le Temps traverse)

Berthier, Alexandre. *Relation des campagnes du général Bonaparte en Egypte et en Syrie*. Paris: De l'impr. de P. Didot l'aîné, an VIII, 1800.

Bonaparte, Napoléon. *Campagnes d'ègypte et de Syrie*. Présentation Henry Laurens. Paris: Impr. nationale éd., 1998. (Acteurs de l'histoire)

Bourrienne, Louis-Antoine. *Mémoires de M. de Bourrienne, ministre d'Etat, sur Napoléon, le Directoire, le Consulat, l'Empire et la Restauration*. Refondue et annotée par Désiré Lacroix. Edition nouvelle. Paris: Garnier Frères, 1829. 2 tomes.

Caillé, Jacques. *Le Consulat de Tanger des origines à 1830*. Paris: A. Pedone, 1967.

_____. *La Représentation diplomatique de la France au Maroc*. Paris: A. Pedone, 1951.

Charles-Roux, François. *Bonaparte, gouverneur d'Egypte*. Paris: Plon, 1936.

_____. *Bonaparte et la Tripolitaine*. Paris: Société d'éditions géographiques, maritimes et coloniales, 1929.

_____. *France et Afrique du Nord avant 1830: Les Précurseurs de la conquête*. Paris: Alcan, 1932. 2 tomes.

Cochelet, Charles. *Naufrage du brick français «La Sophie», perdu le 30 mai 1819 sur la côte occidentale d'Afrique, et captivité d'une partie des naufragés dans le désert du Sahara, avec de nouveaux renseignemens sur la ville de Timectou*. Paris: P. Mongie aîné, 1821. 2 tomes.

Correspondance de Napoléon 1er. Publié par ordre de l'Empereur Napoléon III. Paris: H. Plon, 1858-1870. 32 vols.

Cour, Auguste. *L'Etablissement des dynasties des chérifs au Maroc et leur rivalité avec les Turcs de la Régence d'Alger, 1509-1830.* Paris: E. Leroux, 1904.

Delanoue, Gilbert. *Moralistes et politiques musulmans dans l'ègypte du XIX^{ème} siècle: 1798-1882.* Le Caire: Institut français d'archéologie orientale, 1982.

Denon, Vivant. *Voyage dans la Basse et la Haute Egypte.* Paris: Gallimard, 1998.

Derogy, Jacques et Hesi Carmel. *Bonaparte en Terre sainte.* Paris: Fayard, 1992.

Desvernois, Nicolas-Philibert. *Mémoires du général baron Desvernois, 1789-1815.* [Publiés] par Albert Dufourcq. Paris: Le Livre chez vous, 1898.

Dictionnaire encyclopédique Quillet. [Sous la direction de Jean Christian et Guy Rocaut]. Paris: A. Quillet, 1977. 11 vols.

Féraud, Charles. *Histoire des villes de la province de Constantine, La Calle, et documents pour servir à l'histoire des anciennes concessions françaises d'Afrique.* Alger: Impr. V. Aillaud et Cie, 1877.

Les Français en ègypte, ou Souvenirs des campagnes d'ègypte et de Syrie' par un officier de l'expédition (le colonel Chalbrand). Recueillis et mis en ordre par J.-J.-E. Roy. Tours: Mame, 1857.

Grosjean, Georges. *La Maitrise de la méditerranée et la Tunisie pendant la révolution française, 1789 -1802.* Paris: Librairie Chapelot, 1914.

Hanotaux, Gabriel (dir.). *Histoire de la nation égyptienne.* Paris: Plon, 1931-1940. 7 vols.

Kabrda, Joseph. *Quelques firmans concernant les relations francoturques lors de l'expédition de Bonaparte en ègypte, 1798-1799.* Paris: Impr. nationale, 1947. (Cahiers de la Société asiatique; 10)

Jackson, James Grey. *An Account of the Empire of Marocco and the District of Suse to which is Added an Account of Timbuctoo.* London: G. and W. Nicol, 1809.

Lacroix, Désiré. *Bonaparte en Egypte, 1798 -1801*. Paris: Garnier, 1899.

Lacroix, Napoléon. *Les Derkaoua d'hier et d'aujourd'hui: Essai historique*. Alger: Impr. V. Heintz, 1902.

Laroui, Abdallah. *Les Origines sociales et culturelles du nationalisme marocain, 1830-1912*. Casablanca: Centre Culturel Arabe, 1993.

Laurens, Henry. *Les Origines intellectuelles de l'expédition d'ègypte: L'Orientalisme islamisant en France, 1698-1798*. Istanbul; Isis: Institut français d'études anatoliennes; Paris: Association pour le développement des études turques, 1987. (Varia Turcica; 5)

La Jonquière, Clément de. *L'Expédition d'Egypte*. Paris: C. Lavauzelle, 1899. 5 vols.

Las Cases, Emmanuel. *Mémorial de Sainte-Hélène*. Paris: [s. n.], 1823.

Martin, Pierre-Dominique. *Histoire de l'expédition française en Egypte*. Paris: J.-M. Eberhart, 1815. 2 vols.

Miot, Jacques. *Mémoires pour servir à l'histoire des expéditions en ègypte et en Syrie pendant les années VI, VII et VIII de la République française*. Paris: Le Normand, 1814.

Pallary, Paul (ed.). *Les Rapports originaux de Larrey à l'armée d'Orient*. Le Caire: Impr. de l'Institut Français d'archéologie orientale, 1936.

Pastre, Gaston. *Bonaparte en ègypte*. Paris: Editions des Portiques, 1932.

Pietro, Dominique di. *Voyage historique en ègypte pendant les campagnes des généraux Bonaparte, Kléber et Menou*. Paris: L'Huillier, 1818.

Plantet, Eugène. *Correspondance des beys de Tunis et des consuls de France avec la cour, 1577-1830*. Paris: F. Alcan, 1893-1899. 3 tomes.

_____ . *Correspondance des Deys d'Alger avec la couronne de France*. Paris: F. Alcan, 1889. 2 tomes.

Raymond, André. *Artisans et commerçants au Caire au XVIII*ème *siècle*. Damas: Institut français de Damas, 1973. 2 vols.

_____ . *Egyptiens et Français au Caire, 1798-1801.* Le Caire: Institut Français d'Archéologie Orientale, 1998.

Reybaud, Louis. *Histoire scientifique et militaire de l'expédition française en ègypte.* Paris: [A.-J. Dénain], 1830. 10 vols.

Rousseau, M. F. *Kléber et Menou en ègypte depuis le départ de Bonaparte (août 1799-septembre 1801.* Paris: A. Picard et fils, 1900. (Publications de la Société d'histoire contemporaine; 24)

Spillmann, Georges. *Napoléon et l'Islam.* Paris: Perrin, 1969.

Tableau des établissements français. Paris: Impr. Impériale, 1840.

Thibaudeau, Antoine-Claire. *Histoire de la campagne d'Egypte.* Paris: Impr. de Mme Huzard, 1839.

Thomassy, Raymond. *Le Maroc et ses caravanes, ou Relations de la France avec cet empire.* Paris: Firmin-Didot frères, 1845.

Tranié, Jean et J.-C. Carmigniani. *Bonaparte: La Campagne d'Egypte.* Avec la collab. de Raoul Brunon et de Alain Pigeard. Paris: Pygmalion, 1988.

Victoires, conquêtes, désastres, revers et guerres civiles des Français, de 1792 à 1815. Paris: C. L. F. Panckoucke, 1817-1821.

Volney, M. C.-F. *Voyage en Syrie et en ègypte, pendant les années 1783, 1784 et 1785.* Paris: Volland; Desenne, 1787.

Wilson, Robert. *History of the British Expedition to Egypt; to Which is Subjoined, a Sketch of the Present State of that Country and its Means of Defence.* London: C. Roworth and sold by T. Egerton, 1802.

Periodicals

Caillé, Jacques. «Le Vice-consul Broussonet et ses «Mémoires» sur le Maroc.» *Héspéris-Tamuda*: vol. 2, 1969.

Castriers, Henry de. «Napoléon et le Maroc.» *Revue hebdomadaire*: 18 avril 1908.

Colin, Georges. «Une Complainte arabe sur l'Expédition française en Egypte.» *Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale* (Le Caire): no. 18, 1921.

Féraud, Laurent-Charles. «Les Chérifs kabyles de 1804 et 1809 dans la province da Constantine.» *Revue Africaine*: 1869.

Gabriel Guemard. «Les Auxiliaires de Bonaprte en Egypte (1798-1801).» *Bulletin de l'Institut d'Egypte*: vol. 9, 1927.

_____. «Les Orientalistes de l'armée d'Orient.» *Revue de l'histoire des colonies françaises*: no. 1, 1928.

Héspéris -Tamuda: vol. 51, 1959.

Hosotte-Reynaud, Manon. «Quatre documents inédits touchant les relations entre la France et le Maroc (1794 -1810).» *Héspéris -Tamuda*: vol. 1, no. 3, 1960.

Ihrai-Aouchar, Amina. «Les Relations du Maroc avec l'Europe à l'époque de la Révolution française et de l'Empire (1789-1815).» *Héspéris-Tamuda*: vol. 28, no. 1, 1990.

Journal de l'Expédition d'Egypte (Paris): 1904.

Kuroki, Hidemitsu. «Events in Aleppo during Napoleon's Expedition of Egypt.» *Bulletin d'études Orientals* (Damas): vol. 51, 1999.

Le Moniteur: 23 septembre-21 décembre 1799.

Mordachai, Abir. «Relations between the Government of India and the Sharif of Mecca during the French Invasion of Egypt, 1798-1801.» *Journal of the Royal Asiatic Society*: vol. 97, no. 1, January 1965.

Pouzet, Louis. «Maghrébins à Damas au VII/XIII siècle.» *Bulletin d'études orientales*: vol. 28, 1975.

Raymond, André. «Deux familles fasi au Caire à la fin du 18ème siècle.» *Revue Occidentale du Monde Musulman*: nos. 15-16, 1973.

_____. «Les Quartiers de résidence des commerçants et artisans maghrébins au Caire au 18ème siècle.» *Revue d'Histoire Maghrébine* (Tunis): nos. 31-32, décembre 1983.

Theses

Laurent, Catherine. «Le Maroc et ses relations avec la France de l'Expédition d'Egypte à la prise d'Alger (1798 -1830).» (Thèse d'archiviste paléographe, Ecole de Chartes, Paris, 1977). 3 tomes.

El Mansour, Mohamed. «Political and Social Development under the Reign of Moulay Solayman (1792 -1822).» (Doctorate, University of Landers, 1981). 2 tomes.

